

شرح الحيون

في

شرح رسالة ابن زيدون

شرح العيون

في

شرح رسالة ابن زيدون

تأليف

جمال الدين بن نباته المصري

٦٨٦ - ٧٦٨ هـ

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

تصدير

١ - ابن نُباته(*)

عُرف باسم "ابن نُباته" أربعة من أعيان العربية وفضلائها؛ أولهم ابن نُباته الفارقيّ خطيب حلب، والمتوفى بها سنة ٣٧٤ هـ، وثانيهم ابن نُباته السعديّ شاعر سيف الدولة، والمتوفى ببغداد سنة ٤٠٥ هـ، وثالثهم ابن نُباته المحدث شمس الدين، والمتوفى بدمشق سنة ٧٥٠ هـ.

الرابع ولده ابن نُباته المصري جمال الدين، أمير شعراء المشرق، وصاحب الديوان المعروف باسمه، وشارح رسالة ابن زيدون.

(*) مراجع ترجمته:

الأعلام لخير الدين الزركلي ٢٦٨:٧ / البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢:١٤ / البدر البشتكي (مقدمة ديوان ابن نباتة المطبوع سنة ١٣٢٣ هـ) / البدر الطالع للشوكاني ٢٥٢:٢ - ٢٥٤ / تاج العروس (مادة - نبت) / تاريخ الآداب العربية لزيدان ١٢٢:٣ / تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١١:٢، والملحق ٤:٢) / تاريخ ابن إيّاس ٢٢١:١، ٢٢٢ / تقديم أبي بكر (خزانة الأدب) لابن حجة الحموي ٢٨٩ - ٢٩٣ / ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ٤٨ - ٤٩ / حديقة الأفراح لأحمد الأنصاري ١١٧، ١١٨ / حسن المحاضرة للسيوطي ٢٤٥:١ / دائرة المعارف الإسلامية ٢٨٨، ٢٨٩ / الدرر الكامنة لابن حجر ٢١٦:٤ - ٢١٨ / رحلة ابن بطوطة ١:٥٠، ٥١ / شذرات الذهب ٢١٢ / طبقات الشافعية ٣١:٦ / عقد الجمان للعيني (مصورة دار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ) وفيات سنة ٧٦٨ / فهرس دار الكتب المصرية ١٠٢:٢، ١١٠، ١١٢، ١١٣، ١٨٢، ١٨٤، ٢٦٥، ٣٣٧، ٣٣٨ / فهرس المخطوطات المصورة (فؤاد السيد) ٤٢٢:٧، ٤٢٣، ٤٢٧، ٤٣٥، ٤٥٤، ٤٨٠ / فهرس المخطوطات المصورة (لطفني عبد البديع) ٢٨:٢، ٢٩ / كشف الظنون ٣، ٤٨٠، ٧١٤، ٨٤١، ٩٦١، ٩٧٩، ١٠٠٩، ١٠٤٧، ١٢١٥، ١٢٤٣، ١٣٥١، ١٦٠٣، ١٧٢٠، ١٨٥٠، ١٩٣٤ / مجلة المجمع العلمي العربي (محمد أسعد طلس) ٣٠١:٢ - ٣١٠ / معجم المطبوعات لسركيس ٢٦٢:١ - ٢٦٣ / معجم المؤلفين لعمر كحالة ٢٧٣:١١ - ٢٧٤ / المفصل في تاريخ الأدب العربي ٢٠٦:٢ - ١٢٣٥ / المنهل الصافي لابن تغري بردي (مخطوطة دار الكتب، رقم ١١١٣ تاريخ) ج ٣ من ورقة ٢٩٤ - ٢٩٩ / النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١١:٥٠ / هداية العارفين ١١٦٤:٢ / الوافي بالوفيات للصفدي ٣١١:١ - ٣٣١ / الوسيط في الأدب العربي ٣١٤.

ولإسماعيل حسين رسالة اسمها "ابن نباتة الشاعر المصري"، وقد عمل الأستاذ محمد حلمي بحثاً مدرسياً ضمّنه ترجمة عن محمد عبده وابن نباتة، وقام الأستاذ عمر موسى باشا بدراسة شاملة أودعها رسالته: "ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق".

ونص صاحب النجوم الزاهرة على ضبط النون من كلمة "نباتة". وذكر الأستاذ خير الدين الزركلي أنه رأى نسخة قديمة في مكتبة اللور نزيانة وعلى نون "النباتي" فيها ضمة.

وهو أبو بكر جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد بن أبي الحسن بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباة الفارقي الجذامي، حفيد عبد الرحيم الخطيب، وولد عالم عصره محمد شمس الدين، وأحد أفراد الأسرة النباتية التي زكا أصلها، وطابت فروعها، وفخر في شعره بالإنساب إليها:

وَرَثْتُ اللَّفْظَ عَنْ سَلْفِي وَأَكْرَمُ
فَلَا عَجَبٌ لِلْفُظَيِّ حِينَ يَحْلُو
بَالَ نُبَاتَةِ الْغُرِّ الشُّرَاةِ^(١)
فَهَذَا الْقَطْرُ مِنْ ذَاكَ النَّبَاتِ

كان مولده بمصر المحروسة في ربيع الأول سنة ست وثمانين وستمائة، بزقاق القناديل، أحد مواطن الأشراف والأعيان في ذلك الحين^(٢)؛ على عهد الملك المنصور قلاوون؛ ولم يكد يُجاوز سن الحداثة حتى توجه للدرس والتحصيل والأخذ بأسباب العلوم والآداب؛ فتلقى على أبيه علوم القرآن؛ وكثيراً ما كان يصحبه إلى زيارة أصدقائه من الفضلاء؛ منهم ابن دقيق العيد، بدر العلماء وكوكبهم اللامع؛ فبدله على نفائس الكتب، ويحثه على قراءتها؛ يذكر ابن نباة منها: ديوان الحماسة، والذخيرة لابن بسام. وجلس إلى شهاب الدين الحلّوي، وعبد العزيز الحصري، وتلقى عنهما الحديث، كما ورد شرعة الشيخ الأبرقوحي، فأخذ عنه السيرة النبوية بقراءة ابن سيد الناس عليه، وغير هؤلاء من علماء عصره.

أما الأدباء والشعراء؛ فقد لقي أيضاً منهم الكثير؛ ذكر منهم في إجازته للصفدي^(٣) الشيخ علم الدين حسن بن سلطان المصري من أهل مئنة ابن الخصيب؛ قال: قرأت عليه كثيراً من الكتب الأدبية؛ وكان كثيراً ما يُشدني إلى أن أنشدته قولي:

يَا غَائِبِينَ تَعَلَّلْنَا لَغَيْبَتِهِمْ
ذَكَرْتُ وَالْكَأْسُ فِي كَفِّي لِيَالِيَكُمْ
بَطِيبٍ لَهُوَ وَلَا وَاللَّهِ لَمْ يَطِبِ^(٤)
فَالْكَأْسُ فِي رَاحَةِ وَالْقَلْبُ فِي تَعَبٍ
فَقَالَ: أَتَعَبَ وَاللَّهِ جَدَّعَكَ الْقَرْحُ.

والشيخ العالم بهاء الدين محمد بن محمد المعروف بابن المفسّر، قال: أنشدني يوماً

لنفسه:

- (١) ديوانه ٨١.
- (٢) "الانتصار" لابن دقيق ١٣:٤.
- (٣) الوافي بالوفيات ١: ٣١٤-٣١٩.
- (٤) ديوانه ٦٤.

لا أرى لي في حياتي راحةً
بَقِيَ الموت لِمِثْلِي سترَةً
فأنشدته لنفسي:

بَقَلْتُ وَجَنَّةَ الحبيبِ وقد وُلِّي
يا عِذارَ الحبيبِ دَعْنِي فَإِنِّي
وَالشيخ الأديب سراج الدين عبد الوارث المصري، قال: أنشدني لنفسه:

يا خَجَلَتِي وَشَمَائِلِي سُودٌ غَدَتْ
وموَبِّخٍ لي في القيامة قائلٍ
والأديب نصير الدين المناوي، قال: أنشدني لنفسه:

أَحَبُّ مِنَ الدُّنْيَا إِلَيَّ وَمَا حَوَتْ
وقَدْ شَهِدْتُ لِي سُنَّةُ اللّٰهِ أَنِّي
فأنشدته لي:

إِنِّي إِذَا آنَسْتُ هَمًّا طَارِقًا
ودَعَوْتُ أَلْفَاظَ المَليحِ وكَأْسَهُ
عَجَّلْتُ بِاللَّذَاتِ قَطَعَ طَرِيقَهُ^(١)
فَنَعِمْتُ بَيْنَ حَدِيثِهِ وَعَتِيقِهِ

وهكذا قضى جمال الدين بن ثبّاة صدر أيامه وأول حياته في صحبة العلماء يتخرج عليهم، ويحمل العلم عنهم، ومع الأدباء والشعراء يطارحهم الكلام ويطارحونه، وينشدهم الشعر وينشدونه؛ وفيما بين ذلك يقرأ الكتب والأسفار يتقصص ما فيها من معارف، ويعي ما حوته من آداب، حتى أصبح ولمّا يبلغ الثلاثين؛ من زعماء الشعر وأمرء الكلام.

ثم أخذت الأيام تمضي به في مصر، والشباب يطوي مطارفه شيئاً فشيئاً؛ ويصبح فإذا له زوجة وأولاد؛ فيضيّق به العيش، ويرتق أمامه الصّفوف، ويتنفس بالشكوى:
لَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا عَمْرٍ عَجِيبٍ
مِنَ الْأَوْلَادِ خَمْسٌ حَوْلَ أُمِّ
أَقْضَى فِيهِ بِالْأَنْكَادِ وَقْتِي^(٢)
فَوَاحَرَبَاهُ مِنْ خَمْسٍ وَسِتٍّ!

(١) الوافي بالوفيات.

(٢) ديوانه ٣٥٢.

(٣) ديوانه ٨٠.

وببحث عن وظيفة في الديوان فلا يجد؛ ويمدح الأمراء فلا يظفر إلا بالكفاف؛ ثم تُظِلُّ الديار المصرية الفتن والزعازع الهوج، ويشيع الانقسام بين الأمراء؛ وتُحَاكُ الدسائس في قصور الممالك؛ وتُروى أحاديث السلب والنهب في كل مكان؛ فيضيق لكل ذلك صدره؛ ويتشعب فؤاده؛ وينوي الرحيل عن وطنه الحبيب؛ وإن أضالعه لتنحني على الهم والأسى، أن يفارق مسقط رأسه؛ وملهى حديثه، وملتقى أخدانه وأترابه.

مَوَاطِنُ أَهْلِي ثُمَّ صَحْبِي وَجِيرَتِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تَرَابُهَا

* * *

وفي سنة ٧١٦ سافر إلى الشام -على ما ذكره ابن حَجَر- واتخذ دمشق له مستقراً ومقاماً؛ وفيها لقي والده شمس الدين؛ وقد كان سبقه بالرحلة إليها وتولى دار الحديث الثورية بها، فكان كل ما يحصل له ينقله على أحفاده أولاد جمال الدين؛ وهناك طاب له العيش؛ وأخلد إلى شيء من راحة وسكون^(١).

وكان إسماعيل بن علي بن محمود الملك المؤيد المعروف بأبي الفداء، أحد الأمراء الأيوبيين الذين تولوا حماة من قبل الملك الناصر؛ ومنحه استقلالاً بها، وكان رجلاً فاضلاً، وعالماً نحرياً؛ له مشاركة في شتى العلوم والآداب؛ في الفقه والتفسير، والأصول، والنحو، والتاريخ، والموسيقى، وتقويم البلدان؛ وله في ذلك مؤلفات؛ والملك سوقٌ يُجْتَلَبُ إليه ما ينفق عنده؛ لذلك هَوَتْ إليه أفئدة العلماء؛ ورحل إليه الشعراء؛ وقيلت فيه المدائح والمطولات؛ فمنح الجزيل، وأعطى الكثير؛ وغدت ساحته بحماة مبرداً وعكاظاً.

فلم يجد ابن نباتة بداً من التوجه إليه، ووُضِلَ حبله بحباله، كما ذهب إليه من قبله صفى الدين الحلبي والشهاب محمود الحلبي وغيرهما؛ وما إن حلَّ بساحته، ووقفت عيناه عليه حتى أحبه وشغف به، وملأ عليه نفسه من أقطارها، وكأن المتنبي كان يُنشد بلسانه حينما لقي ابن العميد:

مَنْ مَبْلَغُ الْأَعْرَابِ أَنَّى بَعْدَهَا
وَمَلِكُ نَحْرِ عِشَارِهَا فَأُضَافَنِي
وَسَمِعْتُ بَطْلِيمُوسَ دَارَسَ كُتُبَهُ
وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا
شَاهَدْتُ رَسْطَالِيَسَ وَالْإِسْكَندَرَا
مَنْ يَنْحَرُّ الْبَدْرُ النَّضَارَ لِمَنْ قَرَى
مَتَمَلَّكَأَ مَتَبَدَّيَا مُتَحَضَّرَا
رَدَّ الْإِلَهِ نُفُوسَهُمْ وَالْأَعْصَرَا
وَأَتَى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مَوْخَرَا
نُسِقُوا لَنَا نَسَقَ الْحِسَابِ مُقَدِّمًا

وفي حماة، وبجانب مليكها العظيم، عاش ابن بُبَاة أسعد أيام حياته، وأهناً مراحل عيشه؛ وفيها تفتتت قريحته عن أروع شعره وأخلده على الأيام؛ بل فيها نسي نيله ومصره، وأهله ووطنه:

أَلَمْ تَرَ أَنَّا قَدْ سَلَوْنَا بِأَرْضِهِ مَرَادًا لَنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ وَمَرْبَعَا
إِذَا ابْنُ تَقِيٍّ الدِّينِ جَادَ نَبَاتُهُ عَلَيْنَا فَلَا مَدَّتْ يَدُ النَّيْلِ إصْبَعَا

ورُتِبَ له في كل شهر ألف درهم، غير ما كان يتحفه، وهو مقيم بدمشق^(١). وبروحه أنشأ أجمل الرسائل وأحلاها، وسجع بأعذب الألفاظ وأبهاها، وفي كنفه ألف كتاب "مطلع الفوائد"، وثناه بـ"سجع المطوق"، وعمل له كتاب "الفاضل من كلام القاضي الفاضل"، وجمع من مدائحه فيه طاقة من الشعر سُميت بـ"المؤيديات" ما زالت على الزمن ينفخ عرفها، ويتضوع شذاها، يقول في إحداها:

مَلِكٌ بَاهِرٌ الْمَكَارِمِ يَرْوِي وَجْهَهُ لُقْيَاهُ عَنْ عَطَاءٍ وَبِشْرِ^(٢)
زُرْتُ أَبْوَابَهُ فَقَوَّبَ شَخْصِي وَمَحَا عُسْرَتِي وَنَوَّهَ ذِكْرِي
وَنَحَا لِي مِنَ الْمَكَارِمِ نَحْوًا صَانِنِي عَنْ لِقَاءِ زَيْدٍ وَعَمْرٍو
وَتَفَنَّنَتْ فِي مُفَاوِضَةِ الشُّكِّ رِإْ إِلَى أَنْ أَعْيَا التَّطَوَّلُ شُكْرِي
ارْتَحَيَّ مِنَ الْمُلُوكِ أَرِيْبٌ فَائِضُ الْبَحْرِ دُوَّ عَجَائِبَ كَثْرِي
رَبِّ خَلْقٍ أَرْقَ مِنْ أَدْمَعَ الْخَدِّ سَا وَقَلْبٍ يَوْمَ الْوَعْيِ مِثْلُ صَخْرِي
كُلَّ أَيَّامِنَا مُوَاسِمَ فَضْلٍ فِي دُرَا بَابِهِ وَأَعْيَادِ فِطْرِي

ويقول في أخرى:

يَا مَلِيكَأَ أَحْيَا الثَّنَا وَالْعَطَايَا فَجَلَبْنَا لِسُوقِهِ الْأَشْمَارَا^(٣)
أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَزِيدَكَ فَضْلًا وَشُمُورًا عَلَى الْوَرَى وَفَخَارَا
صُنِّتَنِي عَنْ أَذَى الزَّمَانِ وَقَدْ حَا وَلَ حَرْبِي وَاسْتَكْبَرَ اسْتِكْبَارَا
وَأَنْبَرَى غَيْشَكَ الْهَتُونُ بِجَدْوَى عَلَّمَتَنِي مَدَائِحًا لَا تُبَارَى

ويقول أيضاً:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي رَدَّ الْحَقَائِبَ شَاكِرَه^(٤)

(١) ثمرات الأوراق ٤٨.

(٢) ديوانه ١٨٤.

(٣) ديوانه ١٩١.

(٤) ديوانه ١٨٧.

وَسَمَا بِهِمْنِهِ عَلَى
حَتَّى انْتَقَى مِنْ زَهْرِهَا
سَقِيًّا لِدَهْرِكَ إِنَّهُ
مُتَرَادِفٌ لِدَوِي الرَّجَا
لَوْلَاكَ مَا أُمَسْتُ قَرِيْبَ
أَنْتَ الَّذِي رَوْتُ غَمًّا
وَأَبَحْتَنِي بِحَرِّ النَّدَى
لَا غُرُوْا إِنْ سَلَّيْتُ عَنْ
فَلَقَدْ وَجَدْتُ دِيَارَ مَدَى
فَهَرْتُ حَمَاءَ لِي الْعِدَا

وهكذا عاش ابن نباتة بلبلاً يغرد في روضة أبي الفدا؛ وينال من أعطياته ما لم ينله
النَّوَّاسِيُّ من الرشيد، والمتنبي من سيف بني حمدان.

وفي سنة ٧٣٢ مات الملك المؤيد، وبموته أمحت صحيفة مشرقة من حياته وطوي بساط
أخضر من عيشه، إلا أن صلاته بملوك حماة لم تنقطع بموته، فلم يلبث أن تولى الملك الأفضل
بعد أبيه، فسار إليه، وأنشده قصيدته المشهورة، هنأه فيها بالملك، وعزاه في أبيه الراحل:

هَنَاءٌ مَحَا ذَاكَ الْعِزَاءَ الْمَقْدَمَا
تُغَوِّرُ ابْتِسَامٌ فِي تُغَوِّرِ مَدَامِعِ
تُرْدُ مَجَارِي الدَّمْعِ وَالْبُشْرِ وَاضِحٌ
سَقَى الْغَيْثُ عَنَّا ثُرْبَةَ الْمَلِكِ الَّذِي
وَدَامَتْ يَدُ النُّعْمَى عَلَى الْمَلِكِ الَّذِي
مَلِكِيَّانِ هَذَا قَدْ هَوَى بِضَرِيحِهِ
وَدَوْحُهُ مُلْكٌ شَادُوِيٌّ تَكَافَأَتْ
فَقَدْنَا لِأَعْنَاقِ الْبَرِيَّةِ مَالِكَا
إِذَا الْأَفْضَلُ الْمَلِكُ اعْتَبِرَتْ مَقَامُهُ
أَعَادَ مَعَانِي الْبَيْتِ حَتَّى حِسْبَتُهُ
وَنَادَاهُ مُلْكٌ قَدْ تَقَادَمَ إِرْثُهُ
تَقَابَلَ مِنْهُ مَقْلَةُ الدَّهْرِ سُوْدَا
وَيَقْسَمُ فِينَا كُلُّ سَهْمٍ مِنَ النَّدَى

فَمَا عَبَسَ الْمَحْزُونُ حَتَّى تَبَسَّمَا^(١)
شَبِيهَانِ لَا يَمْتَازُ ذُو السَّبْقِ مِنْهُمَا
كُوَابِلُ غَيْثٍ فِي ضُحَى الشَّمْسِ قَدْ هَمَى
عَهْدُنَا سَجَايَاهُ أَبْرَ وَأَكْرَمَا
تَدَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَعَزَّ بِهِ الْحِمَى
بَرْغُومِي وَهَذَا لِلْأَسْرِ قَدْ سَمَا
فَغُصْنُ ذَوَى مِنْهَا وَآخِرُ قَدْ نَمَا
وَشِمْنَا لِأَنْوَاعِ الْجَمِيلِ مَتَمَّمَا
وَجَدْتَ زَمَانَ الْمَلِكِ قَدْ عَادَ مِثْلَمَا
بُوزِنِ الثَّنَا وَالْحَمْدُ بَيْتًا مُنْظَمًا
فَقَامَ كَمَا تَرْضَى الْعِلَا وَتَقْدَمَا
صَمِيمَا وَتَنْضُو الرَّأْيَ عَضْبَا مَصْمَمَا
وَيَبْعَثُ لِلْأَعْدَاءِ فِي الرُّوعِ أَسْهُمَا

وجرى الأفضل على سنن أبيه، فقرّبه إليه وأدناه، وأغدق عليه ورعاه؛ وهو يجزيه المدائح السائرة، والقصائد الفاخرة.

ما سمعنا للأفضل الفرد ثانٍ	حبّذا في ثنائنا من بديع ^(١)
شاذويّ المقام يأوي علاه	بمحلّ على السّمَاكِ ربيع
ذو ندى كامل ومجدٍ مديدٍ	ووفاءً وافرٍ وعزٍّ سريع
وسجايَا كالرّوضِ تبسّم بالزهـ	روباًسٍ يُبلي الطُّبَا بالنّجيع
من ملوكٍ تفقّهُوا في حمى المُلـ	كفرّدوا للأصل فضل الفروع
ونضّوا في حماه هيبة مُلكٍ	يسترّد العاصي مردّ المطيع
يا مليكاً سقى نداءً نباتاً	زاكياً زرعُ حمده في الزّروع
وصلّتني النّعمى ولم تُسر عيسى	بفلاةٍ ولم تُشدّ نُسوعى
كرماً منك سوف تتلو التّواريـ	خُثناه على رؤوس الجميع
لك منّي الدّعا ونظم القوافي	فأعزّها لا زلت فكر السميع
وابن للمادحين منصوب ذكـ	بحديث المكارم المرفوع

وله عمل أرجوزته المسماة بفوائد السلوك في مصايد الملوك، والتي حاكى فيها شعراء

العصر العباسي ممن قالوا في هذا الفن؛ كأبي نواس وابن المعتز؛ يقول فيها:

لِلّهِ ذَاكَ السّفْحُ الوادي الغرّد	والماء معسول الرّضاب مطرّد
يُصبو بها الرائي فكيف السامعُ	ويحمّد العاصي فكيف الطّائعُ!
محاسنٌ تلهي العيون والفكرُ	ربيع روضاتٍ وشُخُورٌ صفّرُ
أمام كلّ منزلٍ بُستانُ	ويّين كلّ قربةٍ ميّدانُ
فبادر اللّذة يا فلانُ	واغنم متى أمكنك الزّمانُ
ولا تقلّ مشتّى ولا مصيفُ	فكلّ أوقاتِ الهنا شريفُ
كلّ زمانٍ ينقضي بالجدلِ	زمانٌ عيش كَيْفَما دارَ اعتدلُ
أحسن ما أذكرُ من أوقاته	وخير ما ألفتُ من لذّاته
بروزنا للصّيد فيه والقنصُ	وجورنا من مرّه أخلّى الفُرصُ
وأخذنا الوُحش من المساربِ	وفعلنا في الطّير فوق الواجبِ
لما دنا زمانُ رمي البندقِ	سرّنا على وجه السرور المشرقِ

في عصبية عادلية في الحُكْمِ وغلْمةٍ مثل بدور التَّمِّ
من كل مبعوث إلى الأَطْيَارِ تظَلَّه غمامة الغبار
وكلَّ معسول الشباب أغيد منعطف عطفَ القضيْبِ الأملد

ولكن الأفضل لم يلبث أن اضطربت أمور مملكته اضطراباً انتهى بعزله ثم موته سنة ٧٤٢؛ وبموته انتهت حياة الأسرة الأيووية بحماة، وانقطعت مدائح ابن بُبَاة لهذا البيت العظيم، كما انقطع مَمِين الرغد والعطاء؛ وعاد الزمان بيدي لابن بُبَاة صفحة جديدة من الهم واضطراب الأحوال؛ "فاقتصر على الإقامة بدمشق، والانجماع عن الناس، وقرره صاحب أمين الدين رحمه الله أن يكون في كل سنة ناظر القمامة (القيامة)^(١) بالقدس الشريف، أيام زيارة النصاري لها، فيتوجه يباشِر ذلك ويعود، وأضيف له إلى نكد الزمان أنه لم يعيش له ولد، فدفن فيما أظن قريباً من ستة عشر ولداً، كلهم إذا ترعرع وبلغ خمساً أو ستاً أو سبعاً يتوفاه الله، فيجد لذلك الآلام المبرّحة، ويرثيهم بالأشعار الرائقة الرقيقة"^(٢).

وأمين الدين المذكور كان أحد نُظَّار الدواوين بدمشق؛ حينما أقام ابن نباتة فيها بعد موت الأفضل، وتوطدت بينهما المودة والصداقة؛ وصاحبه في رحلاته وأسفاره، وله عمل الرسالة المعروفة بـ "حظيرة الأنس إلى حضرة القدس"؛ وأوردها صاحب ثمرات الأوراق في كتابه.

ثم أضيفت إليه وظيفة أخرى بدمشق في ديوان التوقيع؛ والتوقيع في عصر المماليك كان يُطلق على أحد ضروب الرسائل والمكثبات الديوانية؛ يشبه المراسيم؛ وكان لابن نباتة في ذلك شأو بعيد، وتوقعات عُرف بها، جمع طائفة منها في كتابه المسمى: "تعليق الديوان".

(١) قمامة: كنيسة للنصاري ببيت المقدس، وفي ديوانه ٤٧٢ أبيات بهذه المناسبة:

مَشَاهِدُ الْقُدْسِ حَيًّا	حَمَاكُ صَوْبُ الْعَمَامَةِ
حَتَّى أَرَانِي مِنْ مَضَى	رَقْدَ فَتَحْتُ قَمَامَةً
مَاتَتْ قِيَامَةُ قَوْمِ	رَأَوْا الْقَدْرِيَّ عِلَامَةً
ووظيفة قيل ما ذي؟	فَقُلْتُ قَوْلَ السَّلَامَةِ
قمامة عند قومٍ	وعند قومٍ قِيَامَةُ

(٢) الوافي بالوفيات: ٣١٢:١.

وكان على مضي الزمن وتعاقب الأيام يهتف بذكر مصر بين الحين والحين، ويعاوده الحنين إليها، وإلى نيلها وأهرامها، وربوعها ومعاهدها، حين يفيض في شعره، وينبع من قلبه، يقول:

يا ساري البرق في آفاق مصر لقد
حدث عن البحر أو دَمَعِي ولا حرج
واندب على الهرم الغربي لي عمراً
ويقول:

بأبي الخدود العاريات من البكا
النبات بأرض مصر أزاهراً
أها لمصر وأين مصر وكيف لي
حيث الشبيبة والحبيبة والوفاء
والطرف يركع في مشاهد أوجه
والدهر سلم كيفما حاولته

اللابسات من الحرير جلابيا^(١)
والزاهرات بأرض مصر كواكباً
بديار مصر مراتعاً وملاعيباً!
في الأعرين مشارباً وأصاحباً
عقدت بها طرر الشعور محاربا
لا مثل دهري في دمشق محارباً

وفي الوقت الذي اشتد فيه حنينه، وتقطع أنيه؛ كان السلطان الناصر حسن بن قلاوون يحكم مصر، فأرسل إليه يمدحه، ويشيد بأجداده، يقول في إحداها:

وإني لمشتاق إلى ظل روضة
لئن حثني باب البريد إلى مصر
إلى مصر يحلو نيلها مخصب الثرى
لسلطان مصر الناصر بن محمد
تجمعت الأمطار في مصر طاعة
سلام على إسكندر الوقت إن يفخ
ملك روت أعماله سير التقى
أجل بيوت الملك بيت قلاوون

على النيل أروي العيش فيها عن النضر^(٢)
لقد حثني باب الزيارة في النزر
فيغني الوري في الحالتين عن القطر
على كل مصر طاعة البر والبحر
وهل تجمع الأمطار إلا على مصر!
شذا الذكر عنه والسلام على الخضر
عن الملك المصري عن الحسن البصري
وأنت أجل البيت يا وارث الدهر

(١) ديوانه ٣١.

(٢) ديوانه ٢٦، ٢٧.

(٣) ديوانه ١٩٦.

فاستجاب له السلطان، واستدعاه، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٧٦١، وكتب في المرسوم أن يُصرف له كل ما يتجهز به، وأن يجمع له ما انقطع من المعاليم إلى تاريخه، فجمع له ذلك، وتجهّز إلى مصر، فقَدِمَها وهو شيخٌ كبير. وعاد ابن نُباتة إلى وطنه، وتحركت فيه نوازع الشَّعر، وهَزَّه عطفُ السلطان وأعطياته، فأخذ يُنشد فيه المدائح، ويصوغ حرَّ القريض؛ وأعجب السلطان بشعره، فأمر بنسخ ديوانه، وأن يُوضع في أعز مكان من مكاتب قصوره. وفي كنف هذا السلطان أَلَفَ ديواناً للخطب الجُمُعية، على نحو ما فعله جدّه الأكبر عبد الرحيم.

ثم قُرِّرَ من بعد موقَّع الدَّست وأُعفي من الحضور، وأمر السلطان إجراء معلومه، فربما صُرف له وربما لم يُصرف، إلى أن مات في ٧ صفر سنة ٧٦٨ بالمرستان الغوري، ودُفن بمقابر الصوفية؛ بعد أن ملأ الدنيا شِعراً ونثراً، وزهراً وعطراً.

٢- كتبه وآثاره

١- "أبراز الأخبار": ذكره الصفدي وابن حجر وصاحب كشف الظنون وصاحب كتاب هداية العارفين^(١).

٢- "التحفة الإنسية في الرحلة القدسية": ذكره الصفدي وقال: إنه سمعه من لفظه^(٢).

٣- "تعليق الديوان": تضمّن توقعاته حين وليّ التوقيع في الديوان؛ ذكره بروكلمان، وقال: منه نسخة محفوظة في مكتبة برلين.

٤- "جلاسة القطر": مجموعة من شعره؛ ذكره البدر البشتكي في مقدّمة الديوان.

٥- "حظيرة الأنس إلى حضرة القدس": وهي وصف رحلته إلى بيت المقدس مع صاحب أمين الدين سنة ٧٤٥هـ؛ أوردها ابن حجة الحمويّ في كتاب "ثمرات الأوراق"^(٣).

٦- "خبز الشعير": في بعض مخترعاته وما سرق منه، قال ابن إياس: "ومما وقع للشيخ جمال الدين أنه كان يخترع المعنى الغريب في شعره الذي لم يسبق إليه، فيعارضه فيه صلاح الدين الصفدي، ويأخذه عنه وزناً وقافية، وينسبه لنفسه؛ كما قيل في المعنى:

وفتّى يقولُ الشّعَرَ إلا أنّه فيما علّمنا يسرقُ المسروقاً

قال الشيخ جمال الدين: فلما طال عليّ الأمر في ذلك جمعت كتاباً فيما قلت وسرقه مني، ونسبه إلى نفسه، وسمّيتُ هذا الكتاب "خبز الشعير"، لأنه مأكول مذموم؛ وقد أعجب ابن حجة بهذا الكتاب ونقله في كتابه المسمّى "تقديم أبي بكر"، والمطبوع بعنوان "خزانة الأدب".

٧- "تلطيف المزاج في شعر ابن حجّاج": قال في مقدمته: "إني رأيتُ نتائج أفكار الشعراء ذرية بعضها من بعض، وأمم أشعارهم تبعث في صعيد واحد من الأرض، إلا أشعار الأديب الفريد أبي عبد الله الحسين بن الحجّاج؛ فإنها أمة غريبة تبعث وحدها، وذريّة عجيبة تبلغ بإنفاق اللهو واللعب رشدّها، لم يحط خاطر أحد بمثلها خبراً، ولا استطاع على

(١) ذكره ابن حجر بإسم: "إيراد الأخبار"، والصفدي بإسم: "أبراز الأخبار"، والأنسب ما ذكرته عن الوافي بالوفيات.

(٢) أوردها صاحب كشف الظنون بلفظ "النحلة الإنسية".

(٣) ص ٢٣٨ - ٢٤٨.

معارضة شهدها صبراً". ذكره الصفدي، وصاحب كشف الظنون، وذكر بروكلمان أن منه نسخة مخطوطة في أكسفورد وبودليانا.

٨- "خطبة في تعظيم شهر رجب": ذكر بروكلمان أن منها نسخة مخطوطة في جوتا.

٩- "ديوان خطب جمعية": طُبِعَ بمطبعة شرف في سنة ١٣٠٢، ومطبعة عثمان عبد الرزاق سنة ١٣٠٤، وفي بيروت سنة ١٣١١.

١٠- "ديوان شعره": جمعه ورتبه على وزن الهجاء، ومنه نسخ خطية بدار الكتب المصرية والمكتبة التيمورية ومكتبة طلعت؛ ونسخ أخرى موزعة في مكتبات العالم. وقد قام تلميذه محمد بن إبراهيم المعروف بالبدر البشتكي^(١)، بضم ديوانه الكبير إلى ما في المجموعات الأخرى التي عملها المؤلف؛ وذكر أنه رآها بخطه، وهي: طرائف الزيادة، ومطالع السنة، والمؤيديات، والقطر النباتي، وجلاسة القطر، وسوق الرقيق، والسبعة السيارة، ورتبها جميعاً على الهجاء، وطُبِعَ هذا الديوان بالمطبعة الوطنية سنة ١٢٨٨ هـ، وأخرى بمطبعة التمدن سنة ١٣٢٣^(٢).

وقام ابن حجة الحموي باختيار مجموعة من شعره سماها "بياض النبات" ومنها نسخة بخطه في مكتبة أحمد الثالث بإستانبول.

وفي دار الكتب مجموعة من شعره لم يعلم جامعها؛ بعنوان "الدرر المقتاتة من مختار شعر ابن نباتة" تشمل على قصائد في المديح وجور الظلمة، رقم ٧٣ أدب - مجاميع.

١١- "رسالة في المفاخرة بين السيف والقلم": منها نسخة مخطوطة بالمكتبة التيمورية رقم ٨٦٤ أدب، وطُبِعَ في بيروت سنة ١٣٠٢.

١٢- "رسالة في المفاخرة بين الورد والنرجس": أوردها ابن نباتة في كتابه "سجع المطوق".

١٣- "رسالة في هجاء الحسن بن علي بن حمد المعروف بابن شنار": قال ابن حجر: "وكانت بينه وبين جمال الدين بن نباتة مناصرة شديدة، وله فيها هجاء واتفق

(١) أنظر: "الأعلام للزركلي" ١٩١/٦.

(٢) وذكر الأستاذ عمر موسى باشا أن ما جمعه البدر البشتكي من ديوانه لم يستوعب جميع شعره، وقال: "لأنني عثرت على مقطوعات وقصائد لم تُنشر في الديوان الكبير؛ وقد لاحظ الأقدمون ذلك، فأشار الشوكاني إلى هذا النقص، فقال في كتابه البدر الطالع في معرض ترجمته للبدر البشتكي تلميذ ابن نباتة: "وجع ديوان شيخه ابن نباتة وفاته كثير منه، فاستدرك ابن حجر ما فاته من شعر ابن نباتة في مجلد". ابن نباتة شاعر المشرق ص ٢١٢.

أنه قرئ على ابن نباتة قطعة من نظمه ونثره، فكتب له: الحمد لله حاشا مَنْ فخر، والصلاة والسلام على محمد ما نبخ الكلب من ضوء القمر".

واستمر في هذا النثر المسجوع؛ وهي من عجائب ما أنشأه ابن نباتة^(١).

١٤- "زهر المثور": وهو كتاب في ترسل ابن نباتة؛ مما سار فيه على طريقة القاضي الفاضل.

ذكره الصفدي وابن حجر، وابن تغري بردي في المنهل الصافي، وابن حجة وصاحب كشف الظنون؛ وذكر بروكلمان أن منه نسخة مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني بلندن.

١٥- "السبعة السيارة": مجموع من شعره، ذكره البدر البشتكي في مقدمة الديوان.

١٦- "سجع المطوق": ذكر فيه تراجم من قرظوا كتابه "مطلع الفوائد" مثل الشهاب محمود الحلبي، والجلال القزويني، وكمال الدين العطار، وأمين الدين بن النحاس، وبهاء الدين بن غانم، قال: "وسمّيته سجع المطوق لتطويقي بالإنعام، ولسجعي بالمحامد على غصون الأقلام".

ذكره ابن حجر وابن حجة والشوكاني وحاجي خليفة؛ وذكر بروكلمان أيضاً أن منه نسخاً خطية بالمكتبة الأهلية بباريس؛ وأيا صوفيا وحكيم أو غلي بإستانبول؛ ومنه نسخ مختلفة خطية أيضاً بدار الكتب المصرية والمكتبة التيمورية ومكتبة طلعت والمكتبة الأزهرية.

١٧- "شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون": ويأتي الكلام عليه.

١٨- "سلوك دول الملوك": وهو كتاب في السياسة وآداب الدول والملوك وواجباتهم نحو أنفسهم ورعاياهم.

ذكره بروكلمان وقال: إن منه نسخة مخطوطة في أكاديمية فيينا.

١٩- "سوق الرقيق": مجموع من شعره؛ يشتمل على طائفة من القصائد الغزلية.

ذكره الصفدي وابن حجر والشوكاني والبشتكي في مقدمة الديوان؛ وذكر بروكلمان أنه منه نسخة مخطوطة في مكتبة برلين وأخرى بالمكتبة الأهلية بباريس.

٢٠- "شعائر البيت التقوى": ألّفه لتخليد الملوك الأيوبيين الذين حكموا حماة؛

وعلى رأسهم المظفر تقي الدين، المتوفى سنة ٥٧٤ هـ.

ذكره الصفدي وابن حجر وصاحب كشف الظنون.

٢١- "طرائف الزيادة": مجموع من شعره، ذكره البدر البشتكي في مقدمة الديوان.

٢٢- "الفاضل من كلام الفاضل": وهو مختارات من كلام الفاضل؛ جمعها بأمر المؤيد أبي الفدا ملك حماة.

ذكره الصفدي وصاحب الظنون؛ ومنه نسخة خطية بمكتبة المتحف البريطاني، وعنهما مصورة دار الكتب برقم ٣٨٨٢ أدب؛ ونسخة بالمكتبة الأزهرية بعنوان: "المختار من إنشاء القاضي الفاضل" برقم ٤٦٩ أدب - أباطة.

٢٣- "فرائد السلوك في مصايد الملوك أرجوزة في وصف رحلة للملك الأفضل": أولها:

أثني شذا الروض على فضل السُّحْبِ واشتملت بالوشى أرداف الكُثْبِ
ما بين نَوْرٍ مُسْفِرٍ اللَّثَامِ وَزَهْرٍ يَضْحَكُ فِي الْآكَامِ
ومنها نسخة مخطوطة في برلين، وأخرى في مكتبة خزانة الأوقاف العامة ببغداد، ونشرها أسعد طلس في مجلة المجمع العلمي العراقي، في الجزء الثاني من ص ٣٠٢ إلى ٣١٠.

٢٤- "القطر النباتي": مقاطيع من شعره ذكره الصفدي وقال: إنه سمعه من لفظه، وابن حجر، وابن تغري بردي في المنهل الصافي والشوكاني وصاحب كشف الظنون، ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس، وذكر العلامة الزركلي أنه رأى منه نسخة قديمة بمكتبة اللورنزiana.

٢٥- "مختارات ديوان ابن الرومي": تشتمل على طائفة من شعره في ذكر النسيب والتشبيب والعتاب والاستعطاف والهجاء والثناء والأوصاف وغير ذلك. ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة أياصوفيا بالآستانة، وعنهما مصورة دار الكتب برقم ٥٢٢٢ - أدب.

٢٦- "مختار ديوان ابن سناء الملك": ذكره الصفدي.

٢٧- "مختار ديوان شيخ الشيوخ الشيخ شرف الدين": ذكره الصفدي.

٢٨- "مختار ديوان ابن قلاقس": أثبت فيه من شعره ما كان من أبناء فكره وحذف منه ما نُسب إليه في ديوانه من غير شعره، ورتبه على حروف المعجم. ذكره الصفدي، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب بخط محمود النابلسي، وأخرى

بالمكتبة الأزهرية؛ وطُبع بمطبعة الجوائب بمصر سنة ١٣٢٣ بإسم "ديوان ابن قلاقس" بتصحيح خليل مطران.

٢٩- "مراسلات ابن نباتة في مخاطبات أقرانه": منها نسخة مخطوطة بمكتبة طلعت تحت رقم ٤٤٠٢ - أدب.

٣٠- "مطلع الفوائد ومجمع الفرائد": "ضمنه ذكر ما تناهت إليه أفكار العلماء في تنقيح النطق وما بلغته أذهان الشعراء والكتّاب في ترشيحه وتنقيحه".

ورتبّه على ثلاثة أقسام: "القسم الأول: في محاسن أخلاق العلماء في تأويل المعاني المشكّلة، والثاني: في مبتدعات الشعراء ومخترعاتهم، والقسم الثالث في مخترعات الكتّاب ومعجز رسائلهم"، ألفه برسم الملك المؤيّد صاحب حماة.

ذكره الصفدي وابن حجر والشوكاني وصاحب كشف الظنون؛ ومنه نسخة خطية بمكتبة طلعت بدار الكتب برقم ٤٥١٠ أدب، وأخرى بالمكتبة الأزهرية برقم ٤٧٣ أدب أباطة وأخرى بمكتبة خالت أفندي، وعنهما مصوّرة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية وذكر بروكلمان أيضاً أن منه نسخة بالمكتبة الأهلية بباريس.

٣١- "المنتخب المنصوري": مجموع من شعره. ذكره الصفدي. وقال الأستاذ عمر موسى باشا: "ولعل الشاعر جمع فيه كل ما قاله في مدح الأفضل، وكان يُسمّى بالمنصور؛ على نمط ما فعله في المدائح المؤيّدية التي قالها في أبيه^(١)."

٣٢- "منتخب الهدية من المدائح المؤيّدية": ويُسمّى "المؤيّدات"، وهو منتخب من القصائد التي مدح بها الملك المؤيّد ملك حماة.

ذكره الصفدي وابن حجر، وابن تغري بردي في المنهل الصافي وصاحب كشف الظنون. ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة كوبريلي بإستانبول، بخط المؤلف، وعنهما مصوّرة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.

وطُبع بالمطبعة الكاستلية سنة ١٢٨٩، وفي بيروت سنة ١٣٠٤ وفي مصر سنة ١٣٢٣.

* * *

وُنُسب إليه صاحب هداية العارفين كتاب "الاكتفا من تاريخ الخلفاء"، والصحيح أنه لأبيه شمس الدين محمد بن محمد^(٢).

وُنُسب إليه أيضاً كتاب "الرسالة الشهابية في الصناعات الطبية"، وفي دار الكتب نسخة بهذا الإسم برقم ١٥٤٣ طب، غير منسوبة.

(١) ابن نباتة المصري أمير شعراء الشرق ٢١٥.

(٢) من هذا الكتاب أجزاء متفرقة في مكتبة (قوله وكوبريلي وأيا صوفيا).

٣- سرح العيون

وكتاب "سرح العيون" من الكتب الفريدة؛ التي جمعت من شتات الفوائد، ومتشعب التراجم والطُرف والنوادر، ومصطفى الشعر ومنحول الكلام ما لا يجتمع في كتاب؛ ألفه ابن نباتة شرحاً لرسالة ابن زيدون الهزلية؛ وكان ابن زيدون من شعراء الأندلس وكتّابها، متضلّعاً من فنون الأدب عارفاً بأخبار العرب، راوية لأشعارها وأمثالها، حافظاً لطُرفها ومُلحها؛ كتب هذه الرسالة على لسان ولادة بنت المستكفي، إحدى الطريقات من بنات خلفاء العرب الأمويين إلى أحمد بن عبدوس؛ منافسه في حبّها، ومكانته عندها؛ بأسلوب تهكمي ساخر؛ وشأها بديع الكنايات والتشبيهات، ورصّعها بالإشارات التاريخية، والمعارف الأدبية؛ كما ضمّنها الكثير من الأبيات الرائقة، والأمثال السائرة، مما يعوزه الشرح والتفسير؛ فجاء ابن نباتة؛ فشرح غريبها، وترجم الأعيان الذين ورد ذكرهم فيها، ثم استطرد إلى ذكر الوقائع والأيام والأحداث ونصوص الشعر والخطب والحكم، مما جعل هذا الشرح مرجع الباحث، وغنية المتأدّب، ومراد المستفيد.

ويظهر أنه ألف هذا الكتاب أثناء إقامته بدمشق؛ وشبابه غصّ، وعيشه مونق، وذهنه حاضر جميع، فنقل إليه عصارة محفوظه، وخلاصة ما حوته خزانة كتبه؛ قال: "وكنْتُ أعرف ببعض خزائن دمشق الوقفية أسفاراً فيها للطالب منجع، وللأفهام الناشئة ذكرى تنفع؛ فلم يتهياً أن أعارَ منها كتاباً، ولا أراجع من السنة حروفها خطاباً، فقلت: هذا عذر آخر لم يكن في الحساب، وهذا قصد قد تغلّقت دونه الكتب فإنها ذات أبواب، ولم يبقَ إلا صُبابة لحاصل التي أبقتها ثوب الدهر، واستنباط الثمد إذ أعجز ورود البحر، فأملت شرح هذه الرسالة عن فكر قد مسّه القرح؛ وشرحت إلا أنني مقصّر وما أطيل الشرح؛ بيد أني لم أعتد إلا على نقل خبر صحيح، ونسب قول صريح؛ ولم أُخل ترجمة كلّ مذكور من فائدة سارة، ونادرة دارة، وأقوال سديدة، وأبيات مشيدة، وفقر ما أخطأتها فطنة سعيدة؛ ولم آل في اختيارها جهداً، ولا ازددت مع صروف الزمان إلا نقداً، هذا مع تجنّب الإكثار، وترك الإخلال بنظائر الأشعار، والتخفيف مما لعل المباحث تقتضيه مع العثار"^(١).

٤- تحقيق الكتاب

وقد كان هذا الشرح من أوائل الكتب التي توالى طبعاتها في هذا العصر، فطبع في بولاق سنة ١٢٧٨ هـ، ثم بالمطبعة الوطنية بالإسكندرية سنة ١٢٩٠، ثم بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٥، (على هامش العتب المنسجم)، ثم بمطبعة الموسوعات سنة ١٣١٢، ثم بمطبعة مصطفى الحلبي سنة ١٩٥٧، كما طُبِعَ بالآستانة سنة ١٢٧٥ ومعه ترجمة بالتركية. وجميع هذه الطبعات يشيع فيها الخطأ والتحريف، ويعوزها الضبط والشرح والتعليق، مما يحول دون الانتفاع بالكتاب؛ والوقوف على ما فيه من فوائد ومعارف. وحينما تهيأ لي نشره تخيّرت ثلاث نسخ من مخطوطاته، وواحدة مطبوعة، أدّرت حولها التحقيق:

- ١- نسخة مخطوطة بقلم نسخ معتاد، كتب المتن بالحمرة والشرح بالمداد الأسود، بخط الهادي بن محمد بن الحسن الحمزي اليمانيّ سنة ١٠٨٠ هـ، وتقع في ١٢٣ صفحة، ومسطرتها ٢٥ سطرًا في المتوسط، وعليها بعض التعليقات وهي محفوظة بالمكتبة التيمورية برقم ٧٠٦ أدب، وقد رُمّزت إليها بالحرف (ت).
- ٢- نسخة خرائنية بخط نسخ فارسي جميل، وبأولها صفحتان متقابلتان حُلّيتا بالذهب والألوان واللازورد، مُجدولة بالذهب والألوان كتبت سنة ١٢٥٢ وتقع في ١٢٢ ورقة، ومسطرتها ٢١ سطرًا؛ وهي محفوظة بدار الكتب برقم ٥١ م وقد رُمّزت إليها بالحرف (م).
- ٣- نسخة بقلم نسخ معتاد، ناقصة من آخرها، وفي بعض فصولها اختصار، ويبدو أنها كُتبت في القرن الحادي عشر الهجري، وقد كتب المتن بالحمرة والشرح بالمداد الأسود، وتقع في ٦٠ ورقة، ومسطرتها ٢٣ سطرًا في المتوسط، محفوظة بدار الكتب برقم ٥١٢٧ أدب، وقد رُمّزت إليها بالحرف (د).
- ٤- أما المطبوعة؛ فهي النسخة التي قام بتصحيحها المرحوم الأستاذ حمزة فتح الله، طُبعت بالمطبعة الوطنية بالإسكندرية سنة ١٢٩٠؛ دون ذكر الأصل المخطوط الذي طُبعت عليه؛ وبها قليل من التعليقات مما كتبه مصححها.

كما أني رجعت إلى الكتب التي أوردها المؤلف في كتابه، مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ، وجمهرة الأمثال للعسكري، ومجمع الأمثال للميداني، ومفردات الراغب الأصفهاني؛ وغيرها من كتب التاريخ والأدب والمعاجم ودواوين الشعر مما أشرت إليه في مكانه، كما صنعت له الفهارس المتنوعة.

وبعد، فقد قام الأستاذ عمر موسى باشا بدراسة وافية عن ابن نُباتة، أوفى فيها على الغاية؛ وبلغ بها من جدّة البحث، وجمال الأسلوب، وسلامة المنهج مبلغاً بعيداً؛ وقد أفدت منه في هذه المقدمة، ولولا أنني قصدتُ فيها أن أتحدث عن كتابه سرح العيون، وأن أستطرد لاستقراء جميع كتبه، وألقي ضوءاً على حياة ابن نُباتة بالقدر الذي يناسب هذا المكان، لكنتَ اكتفيت بهذه الدراسة التي أسماها: "ابن نُباتة المصري أمير شعراء المشرق"^(١)، وكان فيها كفايةً وغناءً.

والله ولي الهداية والتوفيق

(١) طُبعت بدار المعارف ضمن مجموعة مكتبة الدراسات الأدبية سنة ١٩٦٣.

الرسالة الهزلية

أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا الْمَصَابُ بِعَقْلِهِ، الْمَوْرُطُ بِجَهْلِهِ؛ الْبَيْنُ سَقَطَهُ، الْفَاحِشُ غَلَطَهُ؛ الْعَائِرُ فِي ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ، الْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ؛ السَّاقِطُ سَقُوطَ الذُّبَابِ عَلَى الشَّرَابِ، الْمَتَهَافُ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ فِي الشُّهَابِ؛ فَإِنَّ الْعَجَبَ أَكْذَبُ، وَمَعْرِفَةُ الْمَرءِ نَفْسَهُ أَضُوبُ، وَإِنَّكَ رَاسِلْتَنِي مُسْتَهْدِيًّا مِنْ صِلَتِي مَا صَفَرْتُ مِنْهُ أَيْدِي أَمْثَالِكَ، مُتَصَدِّيًا مِنْ خُلَّتِي لِمَا قُرِعَتْ دُونَهُ أَنْوْفُ أَشْكَالِكَ، مَرْسِلًا خَلِيلَتِكَ مَرْتَادَةً، مُسْتَعْمِلًا عَشِيقَتِكَ قَوَادَةً، كَاذِبًا نَفْسَكَ أَنَّكَ سَتَنْزِلُ عَنْهَا إِلَيَّ، وَتَخْلِفُ بَعْدَهَا عَلَيَّ:

وَلَسْتُ بِأَوَّلِ ذِي هَمٍّ — دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ

وَلَا شَكَّ أَنَّهَا قَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَضِنَّ بِكَ، وَمَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَغْرَ عَلَيْكَ، فَإِنَّهَا أَعْدَرَتْ فِي السَّفَارَةِ لَكَ، وَمَا قَصَّرَتْ فِي النَّيَابَةِ عَنْكَ، زَاعِمَةٌ أَنَّ الْمَرْوَةَ لَفْظٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ، وَالْإِنْسَانِيَّةُ اسْمٌ أَنْتَ جِسْمُهُ وَهَيُولَاهُ، قَاطِعَةٌ أَنَّكَ أَنْفَرَدْتَ بِالْجَمَالِ، وَاسْتَأْثَرْتَ بِالْكَمَالِ، وَاسْتَعْلَيْتَ فِي مَرَاتِبِ الْجَلَالِ، وَاسْتَوَلَيْتَ عَلَى مُحَاسِنِ الْخِلَالِ، حَتَّى خِلْتُ أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَاسِنَكَ فَغَضَضْتَ مِنْهُ، وَأَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ رَأَتْكَ فَسَلَّتْ عَنْهُ، وَأَنَّ قَارُونَ أَصَابَ بَعْضُ مَا كُنَزْتَ، وَالنَّطْفَ عَثَرَ عَلَى فَضْلِ مَا رَكَزْتَ، وَكَسَرَى حَمْلَ غَاشِيْنِكَ، وَفَيَصَرَ رَعَى مَا شَيْتَكَ، وَالْإِسْكَندَرُ قَتَلَ دَارًا فِي طَاعَتِكَ، وَأَرْدَشِيرُ جَاهَدَ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ لَخُرُوجِهِمْ عَنْ جَمَاعَتِكَ، وَالضُّحَّاكُ اسْتَدْعَى مَسَالِمَتَكَ، وَجُدَيْمَةُ الْأَبْرَشِ تَمَنَّى مَنَادِمَتَكَ، وَشِيرِينَ قَدْ نَافَسَتْ بُورَانَ فَيْكَ، وَبَلْقِيسُ غَايَرَتْ الرِّبَاءَ عَلَيْكَ. وَأَنَّ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ إِنَّمَا رَدِفَ لَكَ، وَعُرْوَةُ بْنُ جَعْفَرٍ إِنَّمَا رَحَلَ إِلَيْكَ، وَكُلَيْبُ ابْنِ رَبِيعَةَ إِنَّمَا حَمَى الْمَرْعَى بِعِزَّتِكَ، وَجَسَّاسٌ إِنَّمَا قَتَلَهُ بِأَنْفَتِكَ، وَمُهْلَهْلٌ إِنَّمَا طَلَبَ ثَارَهُ بِهَمَّتِكَ، وَالسَّمُوءُ لَ إِنَّمَا وَفَى عَنْ عَهْدِكَ، وَالْأَحْنَفُ إِنَّمَا احْتَبَى فِي بُرْدِكَ، وَحَاتِمٌ إِنَّمَا جَادَ بِوَفْرِكَ، وَلَقِيَ الْأَضْيَافَ بِبُشْرِكَ، وَزَيْدُ بْنُ مَهْلَهْلٍ إِنَّمَا رَكِبَ بِفَخْذَيْكَ، وَالسُّلَيْكُ بْنُ السُّلَكَةِ إِنَّمَا عَدَا عَلَى رَجْلَيْكَ، وَعَامِرُ بْنُ مَالِكٍ إِنَّمَا لَاعَبَ الْأَسِنَّةَ بِيَدَيْكَ، وَقَيْسُ بْنُ زَهْرٍ إِنَّمَا اسْتَعَانَ بِدَهَائِكَ، وَإِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ إِنَّمَا اسْتَضَاءَ بِمَصْبَاحِ ذِكَايِكَ، وَسَحْبَانَ إِنَّمَا تَكَلَّمَ بِلسَانِكَ، وَعَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ إِنَّمَا سَحَرَ بَبْيَانِكَ، وَأَنَّ الصُّلَحَ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ تَمَّ بِرِسَالَتِكَ، وَالْحَمَّالَاتُ بَيْنَ عَبَسَ وَدُبَّانَ أُسْنِدَتْ إِلَى كِفَالَتِكَ، وَأَنَّ احْتِيَالَ هَرَمٍ لِعَلْقَمَةِ وَعَامِرٍ حَتَّى رَضِيََا كَانَ ذَاكَ عَنْ إِشَارَتِكَ، وَجَوَابِهِ لِعَمْرٍ - وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ أَيُّهُمَا كَانَ يَنْفَرُ - وَقَعَ عَنْ أَرَادَتِكَ، وَأَنَّ الْحَجَّاجَ تَقَلَّدَ وَلَايَةَ الْعِرَاقِ بِجَدِّكَ، وَقُتَيْبَةُ فَتَحَ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ بِسَعْدِكَ، وَالْمَهْلَبُ أَوْهَنَ شَوْكَةَ الْأَزَارِقَةِ بِأَيْدِكَ، وَفَرَّقَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ بِكَيْدِكَ، وَأَنَّ هَرْمَسَ أَعْطَى بَلِينُوسَ مَا أَخَذَ مِنْكَ، وَأَفْلَاطُونُ أَوْرَدَ عَلَى أَرِسْطَاطَالِيسَ مَا نَقَلَ عَنْكَ، وَبَطْلِيمُوسَ سَوَّى الْأُسْطُرْلَابَ بِتَدْبِيرِكَ، وَصَوَّرَ الْكُرَّةَ عَلَى

تقديرِك، وبُقرَاطَ عَلمِ العِلالِ والأمراضِ بُلطفِ حِسِّكَ، وجالِينوسَ عَرفَ طبائِعِ الحشائشِ
 بدقَّةِ حَدْسِكَ، وكِلاهُما قَلَدَكَ في العِلاجِ، وسأَلَكَ عن المِزاجِ، واسْتَوْصَفَكَ تَركِيبَ
 الأَعْضاءِ، واسْتَشَارَكَ في الدَّاءِ والدَّواءِ، وأَنَّكَ نَهَجْتَ لأبي مَعشَرَ طَريقَ القَضاءِ، وأظْهَرْتَ
 جابِرَ بنَ حَيَّانَ عَلى سِرِّ الكِيمياءِ، وأعطيتَ النِّظَامَ أصلاً أدركَ به الحَقائِقُ، وجَعَلْتَ للكِنديِّ
 رسماً اسْتَخْرَجَ به الدِّقَاقُ؛ وأنَّ صِناعةَ الأَلحانِ اختراعُكَ، وتألِيفَ الأوتارِ والأَنقارِ توليدُكَ
 وابتداعُكَ، وأنَّ عبدَ الحَميدِ بنَ يحيى باري أَقلامِكَ، وسَهْلُ بنَ هارونَ مُدَوِّنَ كَلامِكَ،
 وعَمَرو بنَ بحرٍ مُسْتَمْلِكِكَ، ومالِكُ بنَ أَنسٍ مُسْتَفْتِيكَ، وأَنَّكَ الَّذي أَقامَ البَراهِينَ، ووضعَ
 القَوانينَ، وحدَّ الماهِيَّةِ، وبَيَّنَّ الكِيفِيَّةَ والكمِيَّةَ، وناظرَ في الجَواهرِ والعَرَضِ، وميزَ الصِّحَّةَ من
 المَرَضِ، وفكَّ المَعَمَّى، وفصلَ بينَ الاسمِ والمُسَمَّى، وصَرَفَ وَقَسَمَ، وَعَدَلَ وَقَوَّمَ، وصَنَّفَ
 الأَسْماءَ والأَفْعالَ، وبَوَّبَ الظَّرْفَ والحالَ، وبنَى وأَعَرَبَ، وَنَفَى وتَعَجَّبَ، ووَصَلَ وقَطَعَ،
 وَثَنَى وَجَمَعَ، وأَظْهَرَ وأَضَمَرَ، واسْتَفْهَمَ وأَخْبَرَ، وأَهْمَلَ وقَيَّدَ، وأرْسَلَ وأَسَدَدَ، وبَحَثَ ونَظَرَ،
 وتَصَفَّحَ الأَدْيانَ، ورَجَّحَ بينَ مَذْهَبَيْ ماني وَغَيَّلانَ، وأشارَ بِذَبْحِ الجَعْدِ، وقَتَلَ بِشَارَ بنِ بُرْدٍ،
 وأَنَّكَ لو شِئْتَ خَرَقْتَ العَادَاتِ، وخَالَفْتَ المَعْهُودَاتِ، فَأَحَلَّتْ البِحارَ عَذْبَةً، وأَعَدَّتْ السَّلامَ
 رَطْبَةً، وَنَقَلْتَ غَدًا فَصَارَ أَمْسًا، وَزِدْتَ في العَنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا، وَأَنَّكَ المَقُولُ فيه: "كُلُّ
 الصَّيْدِ في جوفِ الفَرَا".

و: لَيْسَ عَلى اللَّهِ بِمُسْتَنَكِرٍ أَنْ يَجْمَعَ العالَمَ في واحِدٍ

والمعنى بقول أبي تَمَّام:

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلى ما فيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَّاعِ

والمراد بقول أبي الطَّيِّب:

ذُكِرَ الأَنامَ لَنا فَكانَ قَصيدَةً كُنْتَ البَديعَ الفَرَدَ مِنْ أَبياتِها

فَكَدَمْتُ في غَيرِ مَكْدامَ، واسْتَسَمَنْتَ ذا وَرَمَ، وَنَفَخْتَ في غَيرِ صَرَمَ، وَلَمْ تَجِدْ لِرُمَحٍ
 مَهْزًا، وَلَا لَشِفْرةٍ مَحْزًا، بل رَضِيتَ مِنَ الغَنيمَةِ بالإيابِ، وَتَمَنَّيتَ الرُّجوعَ بِخُفْيِ حُنينَ، لأَني
 قُلْتُ:

* لَقَدْ هانَ مَنْ بَالَتَ عَليهِ الشَّعالِبُ *

وَأَسَدْتُ:

عَلى أَنَّها الأَيامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّها عَجائِبَ، حَتَّى لَيْسَ فيها عَجائِبُ

و: * هَمِمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي *

وَنَحَرْتُ وَكَفَرْتُ، وَعَبَسْتُ وَبَسَرْتُ، وَأَبْدَأْتُ وَأَعَدْتُ، وَأَبْرَفْتُ وَأَرَعَدْتُ.

وَلَوْ لَا أَنَّ لِلْجَوَارِ ذِمَّةً، وَلِلضَّيَافَةِ حَرَمَةً؛ لَكَانَ الْجَوَابُ فِي قَدَالِ الدُّمُسْتَقِ، وَالنَّعْلِ
حَاضِرَةً إِنْ عَادَتِ الْعُقْرُبُ، وَالْعُقُوبَةُ مُمَكِّنَةً إِنْ أَصَرَ الْمُذْنِبُ.

وَهَبَهَا لَمْ تُلَاحِظْكَ بَعَيْنٌ كَلِيلَةٍ عَنْ عُيُوبِكَ، مِلْؤُهَا حَبِيبُهَا، حَسَنٌ فِيهَا مَنْ تَوَدُّ، وَكَانَتْ
لَا نَمَّا حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ، وَوَسَمْتِكَ بِسِيمَاكَ، وَلَمْ تُعِرْكَ شَهَادَةً، وَلَا تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً، بَلْ صَدَقَتْ
سِنَّ بَكْرَهَا فِيمَا ذَكَرْتَهُ عَنْكَ، وَوَضَعَتْ الْهَنَاءَ مَوَاضِعَ الثُّقْبِ بِمَا نَسَبْتَهُ إِلَيْكَ، وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً
فِيمَا أَثْنَتَ بِهِ عَلَيْكَ، فَالْمُعِيدِي تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ.

هَجِينُ الْقَدَالِ، أَرْعَنُ السَّبَالِ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِلَاقَةِ، مُفْرِطُ الْحُمُقِ وَالْغَبَاوَةِ، جَافِي
الطَّنْعِ، سَيِّءُ الْإِجَابَةِ وَالسَّمْعِ، بَغِيضُ الْهَيْئَةِ، سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالْجَيْئَةِ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ،
مُتْنِنُ الْأَنْفَاسِ، كَثِيرُ الْمَعَائِبِ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ، كَلَامُكَ تَمْتَمَةٌ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ، وَبَيَانُكَ
فَهْفَهَةٌ، وَضَحِكُكَ قَهْقَهَةٌ، وَمَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ، وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ:

مَسَاوِلُ قُسْمَنْ عَلَى الْغَوَانِي لَمَّا أُمْهَرْنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ
حَتَّى إِنَّ بَاقِلًا مَوْصُوفًا بِالْبَلَاعَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ، وَهَبْنَقَةٌ مُسْتَحَقَّةٌ لِاسْمِ الْعَقْلِ إِذَا أُضِيفَ
إِلَيْكَ، وَطَوِيْسًا مَأْثُورٌ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِرِ إِذَا قِيسَ عَلَيْكَ، فَوْجُودُكَ عَدَمٌ، وَالْاِغْتِبَاطُ بِكَ نَذَمٌ،
وَالْخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ، وَالْجَنَّةُ مَعَكَ سَقَرٌ.

كَيْفَ رَأَيْتَ لَوْ مَكَ لِكَرْمِي كِفَاءً، وَضَعْتَكَ لَشَرْفِي وَفَاءً! وَأَنِي جَهَلْتُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ
إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا، وَالطَّيْرُ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى الْأَفْهَاءِ! وَهَلَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لَا
يَجْتَمِعَانِ، وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ لَا يَتَقَارَبَانِ، وَقُلْتَ: الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ،
وَتَمَثَّلْتَ:

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيَا سُهَيْلًا عَمَرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
وَذَكَرْتُ أَنِّي عَلِقْتُ لَا يُبَاعُ فِيمَنْ زَادَ، وَطَائِرٌ لَا يَصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ، وَغَرَضٌ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا
مَنْ أَجَادَ، مَا أَحْسَبُكَ إِلَّا كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِئَةِ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرَفَةِ. وَلَوْ لَا أَنَّ جُرْحَ الْعَجْمَاءِ
جُبَارٌ، لَلْقَيْتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لَاقَى يَسَارٌ، فَمَا هَمَّ إِلَّا بِدُونِ مَا هَمَمْتَ بِهِ، وَلَا تَعَرَّضَ إِلَّا
لِأَيْسَرِ مَا تَعَرَّضْتَ.

أَيْنَ ادَّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ، وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السَّيْرِ وَالْأَخْبَارِ!

أَمَّا ثَابَ لَكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

بُنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ أَلْ مَسْمَعٍ وَتَنَكُّحُ فِي أَكْفَائِهَا الْحَبِطَاتُ

وَهَلَّا عَشَيْتَ وَلَمْ تَغْتَرَّ! وما أَشْكُ أَنَّكَ تَكُونُ وَافِدَ الْبَرَّاجِمِ، أَوْ تَرْجِعُ بِصَحْفَةِ الْمُتَلَمَّسِ، أَوْ أَفْعَلُ بِكَ مَا فَعَلَهُ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ، بِالْجُهْنِيِّ حِينَ أَنَا خَاطِبًا، فَدَهَنَ أَسْتَهَ بَزِيَّتِ، وَأَدْنَاهُ مِنْ قَرْيَةِ النَّمْلِ.

وَمَتَى كَثُرَ تَلَاَفِينَا، وَاتَّصَلَ تَرَائِينَا؛ فَيَدْعُونِي إِلَيْكَ مَا دَعَا ابْنَةُ الْخَسِّ إِلَى عَبْدِهَا مِنْ طُولِ السَّوَادِ، وَقُرْبِ الْوَسَادِ!

وَهَلْ فَقَدْتُ الْأَرَقِمَ فَأَنْكِحَ فِي جَنْبِ، أَوْ عَضَلَنِي هَمَامٌ بْنُ مِرَّةٍ فَأَقُولُ: زَوْجٌ مِنْ عَوْدٍ، خَيْرٌ مِنْ قُعودٍ! وَلَعَمْرِي لَوْ بَلَغْتُ هَذَا الْمَبْلُغَ، لَا زَنْفَعْتُ، عَنْ هَذِهِ الْحُطَّةِ، وَلَا رَضِيتُ بِهِذِهِ الْحُطَّةِ، فَالْتَأَرُّ وَلَا الْعَارُ، وَالْمَنِيَّةُ وَلَا الدَنِيَّةُ، وَالْحَرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِتَدْيِينِهَا.

فَكَيْفَ وَفِي أَبْنَاءِ قَوْمِي مِنْكَحٌ وَفَتَيَانُ هِزَّانِ الطَّوَالِ الْغَرَانِقُ هُ مَا كُنْتُ لَا تَخْطِي الْمَسْكَ إِلَى الرَّمَادِ، وَلَا أَمْتِطِي الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَادِ، فَإِنَّمَا يَتِمُّ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً، وَيَرْعَى الْهَشِيمَ مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ مَنْ لَا ذُلُولَ لَهُ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا عَرَكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبُوتِي إِلَيْهِ، وَشَهِدْتَ مُسَاعَفَتِي لَهُ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ، وَرِيحَانِ الْمَصْرِ، الَّذِينَ هُمْ الْكَوَاكِبُ عَلُوْهُمْ هَمَمٌ، وَالرِّيَاضُ طِيبٌ شِيمٌ.

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ ثَقُلَ لَا قِيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي فَحَنٌّ قَدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا، مَا أَنْتَ وَهُمْ؟ وَأَيْنَ تَقَعُ مِنْهُمْ؟ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَائِوُ عَمْرٍو فِيهِمْ، وَكَالْوَشِيطَةِ فِي الْعَظَمِ بَيْنَهُمْ!

وَأِنْ كُنْتُ إِنَّمَا بَلَغْتُ قَعَرَ تَابُوتِكَ، وَتَجَافَيْتَ عَنْ بَعْضِ قُوتِكَ، وَعَطَّرْتَ أَرْدَانَكَ، وَجَرَزْتَ هَمِيَانَكَ، وَأَخْتَلَّتْ فِي مَشْيِكَ، وَحَذَفَتْ فُضُولَ لِحْيِكَ، وَأَصْلَحَتْ شَارِبَكَ، وَمَطَطَّتْ حَاجِبَكَ، وَرَفَعَتْ خَطَّ عِذَارِكَ، وَاسْتَأْنَفَتْ عَقْدَ إِزَارِكَ، رَجَاءَ الْاِكْتِنَانِ فِيهِمْ، وَطَمَعًا فِي الْاِعْتِدَادِ مِنْهُمْ، فَظَنَنْتَ عَجْزًا، وَأَخْطَأْتَ اسْتِكَ الْحُفْرَةِ.

* * *

وَاللَّهِ لَوْ كَسَاكَ مُحَرَّقُ الْبُرْدَيْنِ، وَحَلَّتْكَ مَارِيَّةُ الْقُرْطَيْنِ، وَقَلَّدَكَ عَمْرٍو الصَّمْصَمَةَ، وَحَمَاكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعَامَةِ، مَا شَكَّكَ فِيكَ، وَلَا سَتَرْتَ أَبَاكَ، وَلَا كُنْتَ إِلَّا ذَاكَ.

وَهَبَكَ سَامِيَتُهُمْ فِي ذُرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ، وَجَارِيَتُهُمْ فِي غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ، أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لِكَاعٍ، إِذْ كُلُّهُمْ عَزْبٌ خَالِي الذَّرَاعِ!

وَأَيْنَ مَنْ انْفَرَدَ بِهِ مِمَّنْ لَا أَغْلَبُ إِلَّا عَلَى الْأَقْلِ الْأَخْسِ مِنْهُ! وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ، وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ، وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَيَّ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَيَّ، وَبَيْنَ آخَرٍ قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ضَرَاطُهُ!

وَهَلْ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ وَسُوءُ الْكِيلَةِ؛ وَيَقْتَرِنُ عَلَيَّ بِكَ إِلَّا الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ
فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ!

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ
مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ، وَتَرْبِعَ عَلَى ظُلْعِكَ، وَلَا تَكُنْ بِرَاقِشِ الدَّالَّةِ عَلَى
أَهْلِهَا، وَعَنْزِ السُّوءِ الْمُسْتَشِيرَةِ لِحَتْفِهَا، فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَقَطَ الْعِشَاءِ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ، وَبِكَ لَا
بِظَبْيٍ أَغْفَرُ، أَعَذَرْتُ إِنْ أُغْنِيَتْ شَيْئًا، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا:

إِنَّ الْعَصَا قَرَعَتْ لِذِي الْجِلْمِ وَالشَّيْءُ تَحْقَرُهُ وَقَدْ يَنْمُو
وإنْ بَادَرْتُ بِالنَّدَامَةِ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ، كُنْتُ قَدْ اشْتَرَيْتَ الْعَافِيَةَ لَكَ
بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ، وَإِنْ قُلْتُ: "جَعَجَعَةً بَلَا طَحْنَ"، وَ"رَبَّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ"، وَأَنْشَدْتُ:

لَا يُؤَيِّسُنَاكَ مِنْ مُخْدَرَةٍ قَوْلُ تَغْلُظُهُ وَإِنْ جَرَحَا
فَعَدْتُ لِمَا نَهَيْتَ عَنْهُ، وَرَاجَعْتُ مَا اسْتَعْفَيْتَ مِنْهُ، بَعَثْتُ مَنْ يُزْعِجُكَ إِلَى الْخَضِرَاءِ
دَفْعًا، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا وَكَزَا وَصَفْعًا.

فَإِذَا صِرْتَ إِلَيْهَا عَبَثَ أَكَارُوهَا بِكَ، وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ، فَمِنْ قَرَعَةٍ مُعْوجَةٍ تُقَوِّمُ
فِي قَفَاكَ، وَمِنْ فُجْلَةٍ مُنْتَنَةٍ يَرْمِي بِهَا تَحْتَ خُصَاكَ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ؛ لِتَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ،
وَتَرَى بِهَا تَحْتَ مِيزَانٍ قَدْرَكَ:

فَمَنْ جَهَلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى



سرح الحيـو

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الذي لا يجب^(١) الحمد إلا له، وصلى الله على سيدنا محمد المخصوص بأشرف رسالة، وعلى آله وصحبه، فما أفضل وأكرم صحبه وآله!

وأدام الله أيام مولانا السلطان الملك المؤيد الكامل، العالم العادل^(٢)، عماد الدنيا والدين؛ إدامة متصلة الجلالة، مقابلة الإيالة^(٣)، ما جنت عسل النصر الشهي رماحه العسالة^(٤)، وأثمرت غصون أعلامه المنعمة بين ديم أنامله الهطالة؛ فمن فروض نعمه عليّ، وقروض مننه لديّ، أن أدعو لأيامه المكرمة كلما صليت على نبي الرحمة، وأذكر من أصلح لنا أمور الدنيا القائمة كلما^(٥) ذكرت من أصلح لنا أمور الدين القيّمة، [طلباً لإجابة الدعاء، وإثابة الرجاء]^(٦)، فصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وأمتعنا ببقاء من سبقت مواهبه الغيث فصلى وأعجزته فسلم.

وبعد؛ فإني أمرت بشرح رسالة الوزير أبي الوليد بن زيدون الآتي ذكرها، وإيضاح براهينها، الغامض على كثير من سُرّة الأدب سرّها، فقلت: ما أنا وصعود هذا الصّرح، وولوج هذا السّرح، ومعارضة ذلك البرّ ولست من ذلك الطّرح! وهل أنا إلا صاحب أبيات تقيم جذرها القريحة المطبوعة، وكلمات تأتي على العفو فقرها المسجوعة! فمتى أخرجت

(١) د. "حق الحمد".

(٢) هو إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر الملك المؤيد عماد الدين، المعروف بأبي الفداء، صاحب حماة، وُلد ونشأ بدمشق، ورحل إلى مصر فاتصل بالملك الناصر، فأجبه الناصر، وأقامه سلطاناً مستقلاً في حماة، ليس لأحد أن ينازعه السلطة فيها، فقرب العلماء، ورتب لبعضهم مرتبات؛ ومنهم ابن نباتة. وله في المدائح المشهورة في دينوانه، توفي سنة ٧٣٢. الدرر الكامنة ١: ٣٧١.

(٣) حاشية ت: "مقبلة الإنالة - نسخة".

(٤) عسل الرمح: اشتد اهتزازُه، فهو عاسِل وعَسَال.

(٥) كذا في ت، د، وفي م، ط: "كما".

(٦) تكملة من م، ط.

عن ظل أبياتي ظلمت، ومتى أبعدت عن رباض سجعي أُلِمت؛ هذا مع تشعب فنون هذه الرسالة، وإحجام الفضلاء عن الخوض في غُدْرِها السيّالة. فقليل لي: إنا نقتصر من شرحك على الاختصار، ونهّبُ تقصيرك لما قدّمت بين يديّ نجواك من الاعتذار^(١)، ونرضى من بيانك بأدنى الحِصص، ونقنع من التاريخ^(٢) الغاصّ ببعض الفرص، وإذا كنت من الشعراء فما أنت ببعيد من القصص!

فقابلت بالطاعة أمراً قد وجب، وقلت: إن فاتتني سلوك الأدب المنظومة فإنّ الأمثال خيرٌ من سلوك الأدب. وكنتُ أعرف ببعض خزائن دمشق الوقفية أسفاراً فيها للطالب منّجَع، وللأفهام الناشئة^(٣) ذكرى تنفع، فلم يتهياً أن أعار منها كتاباً، ولا أراجع من السنة حروفها خطاباً، فقلت: هذا عذرٌ آخر لم يكن في الحساب، وهذا قصد تغلّقتْ دونه الكتب فإنها ذاتُ أبواب، وما بقي إلا الرجوع إلى صُبابه^(٤) الحاصل^(٥) التي أبقتها نُوبُ الدهر، واستنباط الثمَدِ إذ أعجز ورود البحر؛ ثم أملتُ شرح هذه الرسالة عن فكر قد مسّه القَرَح، وشرحتُ إلا أنني مقصّرٌ وما أطيل الشرح، بيد أنني لم أعتد إلا على نقل خيرٍ صحيح، ونسب قولٍ صريح، ولم أخل، ترجمة كل مذكور من فائدة سارة، ونادرة دارة^(٦)، وأقوال سديدة، وأبيات مشيدة، وفقر ما أخطأتها فطنة سعيدة، ولم أَلْ في اختيارها جهداً، ولا ازددت مع صروف الزمان إلا نقداً؛ هذا مع تجنّب الإكثار، وترك الإخلال بنظائر الأشعار، والتخفيف مما لعل المباحث تقتضيه من العثار.

والله تعالى الموفق لصواب الإرادة، ومعين الخدم على القيام بطاعة السادة، وجابر وهَنهم بما يتلقونه من أمثال أوامرهم السادة، بمنّه وكرمه.

(١) نظر إلى قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُلَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ حُجُوكُمْ صَدَقَةٌ﴾ [المجادلة: ١٢].

(٢) "من تاريخ التاريخ".

(٣) "الناسية".

(٤) "صبايات".

(٥) الحاصل من كل شيء: ما بقي وذهب ما سواه؛ يريد ما بقي من خزانة كتبه.

(٦) الدارة: من "در الضرع" إذا تابع اللين منه، يريد أنها نادرة يدوم نفعها.

ذكر منشيء الرسالة

هو الوزير أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي الكاتب الشاعر المشهور. وُلد بقرطبة سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، وكان من أبناء الفقهاء المتعنين، واشتغل بالأدب، وفحص عن نوادره، ونقّب عن دقائقه إلى أن برع، وبلغ من صناعتي النظم والنثر المبلغ الطائل، وانقطع إلى أبي الوليد بن جهور^(١)، أحد ملوك الطوائف المتغلبين على الأندلس، فخفّ عليه، وتمكّن من دولته، واشتهر ذكره، وعظّم قدره، واعتمد عليه في السفارة بينه وبين ملوك الأندلس، فأعجب به القوم، وتمنّوا ميله إليهم لبراعته، وحُسن سيرته؛ واتفق أن ابن جهور نقم عليه أمراً فحسبه، واستعطفه ابن زيدون برسائل عجيبة، وقصائد بديعة فلم تنجح، فهرب واتصل بعبّاد بن محمد صاحب إشبيلية الملقب بالمعتضد^(٢)، فتلّقاه بالقبول والإكرام، وولاه وزارته، وفوّض إليه أمور مملكته، وكان حسن التدبير، تامّ الفضل، متحبباً إلى الناس، فصيح المنطق جداً.

حكى ابن بسّام في كتاب "الذخيرة"^(٣) عن بعض وزراء إشبيلية^(٤)، قال: عهدي بأبي الوليد بن زيدون قائماً على جنازة بعض حرّمه، والناس يعزّونه على اختلاف طبقاتهم، فما سمعته يجيب أحداً بما أجاب به غيره^(٥)، لسعة ميدانه، وحضور جَنانه.

ولم يزل عند عبّاد وعند ابنه المعتمد على الله^(٦) قائم الجاه، وافر الحرّمة، إلى أن توفّي بإشبيلية سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

(١) هو أبو الوليد محمد بن جهور بن محمد بن جهور، صاحب قرطبة، حفظ القرآن ثم صار مجوّداً لحروفه، كثير التلاوة له؛ وكان أيضاً مشاركاً في العلوم والآداب. توفي سنة ٤٦٢. الصلة لابن بشكوال ٥١٧.

(٢) هو عبّاد بن محمد بن إسحاق، الملقب بالمعتضد بالله صاحب إشبيلية، كان شجاعاً حازماً وعُرف بأسد الملوك، طمع في الاستيلاء على جزيرة الأندلس، ودان له أكثر ملوكها. توفي سنة ٤٦١. الأعلام: ٢٩: ٤.

(٣) كتاب "الذخيرة" في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسّام. القسم الأول، المجلد الأول ٢٩٢.

(٤) في الذخيرة: "أخبرني مَنْ لا أدفع خبره من وزراء إشبيلية".

(٥) الذخيرة: "آخر".

(٦) كان محمد بن عباد أحد أفراد الدنيا شجاعة وحزماً وضبطاً للأُمور، وامتلك قرطبة وإشبيلية واتسع ملكه في بلاد الأندلس، وتاريخ حياته حافل بالحوادث الجسام، توفي سنة ٤٨٨. وابن خلكان ٢: ٢٧-٣٥.

وقد ذكره ابن حيّان^(١) وابن بسّام^(٢) وغيرهما من المؤرخين، وأجروا نبذاً كثيرة من أخباره وفصائله، ووقفوا على ديوان شعره وكثير من ترسله. ونظمه عند النقّاد أجود من نثره، وكان يسمى بـحُتريّ المغرب، لحسن ديباجة لفظه، ووضوح معانيه. فأما^(٣) نثره فإنه أكثر فيه من استعمال أمثال العرب وجُلُّ أشعار المتقدمين والمتأخرين، إلى أن قيل: إن رسائله أشبه بالمنظوم من المثور، وعلى ذلك فقد دلّ^(٤) بها على اطلاع معجب، واستحضار معجز، وقد اكتفيتُ منها بذكر هذه الرسالة المشروحة. فمن شعره^(٥) من قصيدة يخاطب بها ابن جهور [أيام سجنه]^(٦):

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر ^(٧)	إلا ذكرتُكَ ذكراً العينِ بالأثر ^(٧)
ولا استطلتْ ذمّاء الليل من أسفٍ	إلا على ليلةٍ مرّت مع القصّر ^(٨)
يا ليت ذاك السّواد الجوّن متّصلٌ	قد استعار سواد القلب والبصر
جمعت معنى الهوى في لحظ طرفك لي	إنّ الحوارَ لمفهوم من الحور ^(٩)
لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره	أني مُعنى الأمانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة	أم الكسوف لغير الشمس والقمر ^(١٠)
إن طال في السجن إيداعي فلا عجب	قد يودع الجفن حدّ الصارم الذّكر
وإن يثبط أبا الحزم الرضا قدر	عن كشف ضربي فلا عتب على القدر
من لم أزل من تدانيه على ثقة	ولم أبت من تجنيه على حدّر ^(١١)
وقال في قصيدة ^(١٢) في بني جهور:	

(١) هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان، صاحب كتاب "المقتبس في تاريخ الأندلس". توفي سنة ٤٦٩. ابن خلكان: ١: ١٦٨.

(٢) هو علي بن بسام الشنتريني الأندلسي؛ من الكتاب الوزراء، اشتهر بكتاب الذخيرة. توفي سنة ٥٤٢. المغرب في حلي المغرب ١: ٤١٧.

(٣) د: "وأما".

(٤) د: "وقد دل".

(٥) د: "قوله".

(٦) من م.

(٧) ديوانه: ٢٥٠، الذخيرة ق ١: م: ٢٩: ١.

(٨) ط، د، الذخيرة: "ولا استطلت زمام".

(٩) الديوان والذخيرة: "فهمت معنى الهوى"، وفي حاشية ت: "إن الحوار لمشتق".

(١٠) النجم: ما لا ساق له من الشجر.

(١١) الديوان والذخيرة: "تأتيه".

(١٢) ط: "من أبيات".

بني جَهْوَرٍ أحرقتُم بجفائِكُم
تَعُدُّونَنِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ إِنَّمَا
وقال [فيهم من أبيات] (٣):
إِنَّ الْجَهَّاءَ وَرَةَ الْمَلُوكِ تَبَوَّءُوا
فَإِذَا دَعَوْتُ وَلِيَدُهُمْ لِعَظِيمَةٍ
هَمُّهُمْ تَعاقَبَهَا النُّجُومُ وَقَدْ تَلَا
وَمَحَاسِنُ تَنْدَى دَقَائِقُ ذِكْرِهَا
وقال من قصيدة يمدح بها المعتضد [بن عبَّاد] (٥):

أما في نسيم الرِّيح عَرَفَ يُعَرِّفُ
وَلَيْلَةً وَافَيْنَا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدِ
تَهَادَى أَنَاةُ الْخَطُوطِ مُرْتَاعَةُ الْحَشَا
فَدَيْتُكَ أَنِّي زُرْتُ، نورك فاضح
هَبِيكَ اعْتَسَفْتَ اللَّيْلَ وَاشِيكَ هَاجِعُ
فَكَيْفَ أَطَقْتَ الْمَشْيَ خَصْرُكَ مُدْمَجُ
فَمَا قَبْلَ مَنْ أَهْوَى حَوَى الْبَدْرِ هُودَجُ
وَلَا قَبْلَ عَبَّادٍ حَوَى الْبَحْرِ مَجْلِسُ

لَنَاهْلُ لَذَاتِ الْوَقْفِ بِالْجَزَعِ مَوْقِفُ (٦) !
سُرَى الْأَيْمِ لَمْ يُعْلَمْ لِمَسْرَاهُ مَزْحَفُ (٧)
كَمَا رِيحُ يَعْفُورِ الْفَلَا الْمُتَشَوِّفُ (٨)
وَعَرَفُكَ نَمَامٌ وَحَلِيكَ مُرْجَفُ (٩)
وَفَرَعُكَ غَرِيبٌ وَلَيْلُكَ أَغْدَفُ (١٠)
وَرَدُّكَ رَجْرَاجٌ وَقَدِّكَ أَهْيَفُ (١١)
وَلَا ضَمَّ رِيَمِ الْقَصْرِ خِذْرُ مَسْجَفُ
وَلَا حَمَلَ الطَّوْدِ الْمُعْظَمُ رَفْرَفُ (١٢)

- (١) ديوانه ٥٩، الذخيرة ٣٠٤، وفي الديوان والذخيرة: "ضميري".
- (٢) الذخيرة، الديوان: "كالمنديل الرطب".
- (٣) من ط.
- (٤) ديوانه ٣٢٨، الذخيرة ٣٢٨.
- (٥) من م.
- (٦) ديوانه ٤٧٩، الذخيرة ٣٢٢.
- (٧) الأيم: الحية.
- (٨) يعفُور الفلا: طيب بلون التراب. المتشوف: المتناول لينظر. وفي الديوان "المتشرف".
- (٩) مرجف: مضطرب؛ نام: ينم عليك. وفي الديوان والذخيرة: "قعيدك أني زرت".
- (١٠) الديوان والذخيرة: "هبيك اغتررت الحي... وليلك أغصف". الاعتساف: قطع الطريق على غير هدى.
- أغدف: أسود مظلم.
- (١١) الديوان والذخيرة:

فَأَتَى اعْتَسَفْتَ الْهَوْلَ خَطُوكَ مُدْمَجُ
قَالَ ابْنُ بَسَامٍ: "وَهَذَا بَيْتُ الْقُسْطَلِيِّ بِجَمَلَتِهِ حَيْثُ يَقُولُ فِي ابْنِ أَبِي عَامِرٍ:
وَكَيْفَ اسْتَوَى بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَجْلِسُ
وَقَامَ بِعَبِّ الرَّاسِيَّاتِ سَرِيرُ
وَرَدُّكَ رَجْرَاجٌ وَخَصْرُكَ مُخْطَفُ

رَوَيْتُهُ فِي الْحَادِثِ الْإِدِّ لِحِظَةٍ
عَلَى السَّيْفِ مِنْ تِلْكَ الصَّرَامَةِ مَيْسَمٍ
أُظِنُّ الْأَعَادِي أَنَّ حَرْبَكَ نَائِمٌ
وَلَمَّا قَضَيْنَا مَا دَعَانَا أَدَاؤُهُ (٣)
رَأَيْنَاكَ فِي أَعْلَى الْمَصَلَّى كَأَنَّمَا
وَقَالَ مِنْ مَرْتَبَةٍ لَهُ:

يَا مَنْ شَأْنِي الْأَمْثَالُ مِنْهُ مَهْذَبٌ
نَقَصَتْ حَيَاتُكَ حَيْثُ فَضْلُكَ كَامِلٌ
حَيَّا الْحَيَا مَثْوَاكَ، وَامْتَدَّتْ عَلَى
فَلْنِ أَذَالِكَ بَعْدَ طَوْلِ صِيَانَةٍ

وَقَالَ فِي الْغَزْلِ - وَهُوَ مِنَ الْمَجِيدِينَ فِيهِ:

بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَا لَوْ شِئْتُ لَمْ يَضَعِ
يَا بَائِعًا حِظَّهُ مِنِّي وَلَوْ بَذَلْتُ
يَكْفِيكَ أَتَّكَ لَوْ حَمَلْتُ قَلْبِي مَا
تَهَ أَحْتَمِلُ، وَاسْتَطَلَّ أَصْبِرُ، وَعِزَّ أَهْنُ
وَقَالَ:

أَمَّا رَجَا قَلْبِي فَأَنْتَ جَمِيعُهُ
يَدُنُو بَوْصِلِكَ حِينَ شَطَّ مَزَارُهُ
وَقَالَ مِنْ أُخْرَى:

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا
وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ

وَتَوَقَّعَهُ الْجَالِي دُجَى الْخُطْبِ أَحْرَفُ
وَفِي الرُّوْضِ مِنْ تِلْكَ الطَّلَاقَةِ زَخْرَفُ (١)
لَقَدْ تَعَدُّ النَّفْسَ الظُّنُونُ فَتُخْلِفُ (٢)
وَكُلُّ بِمَا يُرْضِيكَ دَاعٍ فَمُلْجِفُ
تَطَّلَعَ مِنْ مُحَرَابِ دَاوُدَ يَوْسُفَ

ضُرِبَتْ لَهُ فِي السُّودِّ الْأَمْثَالُ (٤)
هَلَا اسْتَضْيَيْتَ إِلَى الْكَمَالِ كَمَالُ! (٥)
ضَاحِي ثِرَاكَ مِنَ النِّعَمِ ظِلَالُ
قَدَّرَ فَكُلُّ مَصُونَةٍ سِتْدَالُ

سَرٌّ إِذَا ذَاعَتْ الْأَسْرَارُ لَمْ يَذِعِ (٦)
لِي الْحَيَاةُ بِحِظِّي مِنْهُ لَمْ أَبْعِ
لَا تَسْتَطِيعُ قُلُوبُ النَّاسِ يَسْتَطِيعُ
وَوَلَّ أَقْبَلَ، وَقَلَّ أَسْمَعَ، وَمُرَّ أُطِعِ

يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ بَعْضَ رَجَاكَ
وَهُمْ أَكْثَادُ بِهِ أَقْبَلَ فَآكََا

وَالْأَفَقُ طَلَّقَ وَمَرَأَى الرُّوْضَ قَدْ رَاقَا (٧)
كَأَنَّهُ رَقَّ لِي فَاعْتَلَّ إِشْفَاكََا

(١) الذخيرة: "من تلك اللطافة".

(٢) الديوان والذخيرة: "حزلك نائم".

(٣) الذخيرة: "ما عنانا قضاؤه".

(٤) الديوان ٥٣٣.

(٥) الديوان: "فعلك كامل".

(٦) ديوانه ١٦٩، الذخيرة ٣١٩.

(٧) ديوانه ١٣٩، الذخيرة ٣٣٠، وفيهما: "ومرأى الأرض".

والرَّوْضُ عَنْ مائه الفَصِّي مَبْتَسِمٌ كَمَا حَلَلَتْ عَنْ اللَّبَّاتِ أَطْوَاقَا
 لَا سَكَّنَ اللَّهُ قَلْبًا عَنْ تَذَكُّرِكُمْ فَلَمْ يَطِرْ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ خَفَاقَا
 لَوْ شَاءَ حَمَلِي نَسِيمَ الرِّيحِ حِينَ سَرَى وَافَاكُمُ بَقِيَّ أَضْنَاهُ مَا لَا قَى
 الْآنَ أَحْمَدُ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمْ سَلَوْتُمْ وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَّاقَا
 وَلَهُ الْقَصِيدَةُ النُّوْبِيَّةُ الَّتِي أَوَّلَهَا^(١):
 بِنْتُكُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا^(٢)
 وَهِيَ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ، وَقَدْ زِيدَ فِيهَا مَا كَانَتْ غَنِيَّةً عَنْهُ.
 وَفَضَائِلُ الرَّجُلِ مَتَمَكِّنَةٌ، وَكَفَى بِهَذَا الْقَدَرِ عُنْوَانًا لَهَا^(٣)

* * * *

- (١) قوله: "القصيدة التي أولها"، كذا في بعض الروايات؛ وفي بعضها "التي أولها":
 أضحى التناهي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لُقيانا تنائينا
 ديوانه ١٤٨ - ١٤٩، الذخيرة ٣٠٩ - ٣١١.
- (٢) وانظر في ترجمة ابن زيدون أيضاً ابن خلكان ١: ٣٤، قلائد العقيان ٧٠، والذخيرة: المجلد الأول من القسم الأول ٢٨٩-٣٦٠، جذوة المقتبس ١٢١، النجوم الزاهرة ٥: ٢١٥، دائرة المعارف الإسلامية ٥: ٢١٥.
- (٣) وقد وضع الأستاذ علي عبد العظيم بحثاً إضافياً بعنوان: "ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه"، طبع في مطبعة الرسالة سنة ١٩٥٥؛ كما حقق ديوانه، وطبع في مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٧.

ذكر سبب إنشاء هذه الرسالة

كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء الغرب الأمويين المنسويين إلى عبدالرحمن ابن الحكم المعروف بالداخل، من بني عبدالملك بن مروان، تُسمى ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن المستظهر بالله عبدالرحمن^(١)؛ ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله؛ وتغلب ملوك الطوائف عليه؛ في خبر يطول شرحه. وصارت تجلس للشعراء والكتّاب وتعاشرهم وتحاضرهم، ويتعشقها الكبراء منهم، وكانت ذات خلق جميل، وأدب غصّ، ونوادير عجيبة، ونظم جيد. فمنه ما كتبت به إلى ابن زيدون، وهي راضية عنه تقول:

ترقّب إذا جنّ الظلامُ زيارتي فإنّي رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسّر^(٢)
وبي منك ما لو كانَ بالبدرِ لم يُنرَ وبالليلِ لم يظلمَ وبالنّجمِ لم يسرِ
وقولها فيه وهي عليه غصبي:

إن ابن زيدونَ على فضله يلجّ بي شتماً ولا ذنبَ لي
يلحظني شزراً إذا جئتُـهُ كأنما جئتُ لأخصي علي
تعني غلاماً له يسمى علياً.

وكان سبب قولها فيه هذا الشعر، أنه اتّهمها بمواصلة الوزير أبي عامر بن عبدوس^(٣)، وكان يلقّب بالفار، فقال فيه وفيها:

عَيَّرْتُمُونَا بأن قد صارَ يخلُفُنَا فيمن نحبّ، وما في ذاك من عارٍ
أكل شهّي أصبنا من أطايبه بعضاً وبعضاً صفحنا عنه للفارِ

(١) قال ابن بسام: "وأما ولادة التي ذكرها أبو الوليد بن زيدون في شعره فإنها بنت محمد بن عبدالرحمن الناصري، وكانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ونخب، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة متدلي لأحرار مصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشوا أهل الآداب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب إلى سهولة حجاجها، وكثرة متناها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب؛ على أنها - سمح الله لها، وتعمد زللها - أطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها". توفيت سنة ٤٨٤ وقد قاربت المائة. وانظر الذخيرة ٣٧٦ وما بعدها، وملحقات الديوان ٧٩٣.

(٢) الذخيرة ٣٧٧.

(٣) هو أحمد بن عبدوس، ولي الوزارة بقرطبة، وكان يدّعي حفظ الشعر وقرضه. توفي سنة ٤٨٢. تكملة التكملة ٢٥٧، رايات المبرزين ٣٨، مسالك الأبصار ١٠ ورقة ٢٣١. وانظر ملحق الديوان ٧٩٠.

ومما يناسبها ما كتبت به على كمّها [وقيل تاجها]^(١):

أنا واللّه أصلح للمعالِي وأمشي مِشْيَتِي وأتِيه تِيهَا^(٢)
وأمكن عاشقي من لثمِ ثَغْرِي وَأَعْطِي قُبْلَتِي مَنْ يَشْتَهِيهَا
ومما ينسب إليها، وهو عندي كثير على شعر امرأة:

لحازم تجر حنا في الحَشَى ولحظنا يجرح حكم في الخُدود
جُرْحٌ بجرحٍ فاحملوا ذَا بِذَا فما الذي أوجب جرح الصدود!

وكان ابن زيدون كثير الشغف بها، والميل إليها؛ وأكثر غزل شعره فيها وفي اسمها. ثم إن الوزير أبا عامر بن عبدوس أيضاً هام بها وكلف بعشرتها، وكان قصدهم الظرف والأدب، وكانت ولادة كثيرة العقب به، ولها معه نوادر ظريفة.

ومرّت يوماً بداره، وهو جالس وأمامه بركة تتولد من مواصي^(٣) وأقذار، وحوله جماعة من أصحابه، فوقفت عليه وقالت: يا أبا عامر:

أنت الخصيبُ وهذه مضرُ فتدققا فكلأكما بحر^(٤)
فلم يُجر جواباً، فمضت، وحفظت هذه النادرة، واشتغل بها الناس.

[وهذا البيت لأبي نواس تمثلت به ونقلته هذا النقل الحسن من المدح إلى الهجاء]^(٥)؛

وكان كثيراً ما يخدعها ويغيي التفرد بها؛ وفي ذلك يقول ابن زيدون:

وغرّك من عهدٍ ولادةٍ سرابٌ تراءى وبرقٌ ومَضُ^(٦)
هي الماءُ يَأْبَى على قابضٍ ويمنعُ زُبْدَتَهُ من مَخَضُ

وكان أول أمرها معه، والباعث لابن زيدون على إنشاء هذه الرسالة أن ابن عبدوس [لما سمع بها] أرسل إليها امرأة من جهته تستميلها إليه، وتذكر لها محاسنه ومناقبه، وترغبها في التفرد بمواصلته؛ فبلغ ابن زيدون ذلك؛ فأنشأ يقول هذه الرسالة البديعة [جواباً له عن

(١) من ط.

(٢) الذخيرة ٣٧٩، وذكر هناك أنها كتبت على أحد عاتقي ثوبها البيت الأول وكتبت على الآخر البيت الثاني.

(٣) المواصي: جمع مواصة، وهي غسالة الثياب.

(٤) البيت في ديوان أبي نواس: ١٠١.

(٥) تكملة من د.

(٦) ديوانه ١٩٣.

لسانها]، تتضمن غرائب من سبّ أبي عامر والتهكم به والهجاء له، وجعلها جواباً له على لسان ولّادة وأرسلها إليه عقيب رجوع المرأة. فبلغت منه كل مبلغ، واشتهر ذكرها في الآفاق، وأمسك ابن عبدوس عن التعرّض لولّادة إلى أن انتقل ابن زيدون إلى أشبيلية، ومات بها، تغمدهم الله برحمته والمسلمين أجمعين وغفر لنا ولهم بمنّه وكرمه.

* * * *

ذكر الرسالة وشرحها

فأولها:

١ - أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الْمَصَابُ بِعَقْلِهِ، الْمُورَّطُ بِجَهْلِهِ.

أما: حرف يقتضي مضي أحد الشيئين، ويُبتدأ به الكلام. وبعد ها هنا تُستعمل في الترتيب الصناعي؛ وتقدير "أما بعد": مهما يكن بعد، وهي كلمة يبتدىء بها كثير من الخطباء والكتاب كلامهم؛ في خطبهم المحببة، ورسائلهم المحررة؛ كأنهم يستدعون بها الإصغاء كما يقولون؛ ولذلك فخر بها سبحانه فقال:

وَقَدْ عَلِمْتُ قَيْسُ بْنُ عِيلَانَ أَنَّنِي إِذَا قُلْتُ أَمَّا بَعْدُ أَنَّنِي خَطِيبُهَا^(١)

وكثيراً ما تأتي عقيب قول "الحمد لله"، وتُسمَّى هنالك فصل الخطاب؛ لأنها فصلت بين الكلام الأول والثاني. وتأتي عقيب البسملة، وتأتي ابتداءً كأنها عقيب الفكر والرؤية، وأول من قالها داود عليه السلام. وقيل: إنها فصل الخطاب المذكور في الكتاب العزيز. وقيل: أول من قالها قيس بن ساعدة؛ والأول أصح؛ وإنما قُس أول من خطب بها في العرب وكتبها أول الكتب على ما ذكر.

المصاب: إسم لمن نزلت به نائبة مصيبة، وأصاب السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب؛ فالمصيبة أصلها في الرمية، ثم اختصَّ بالنائبة.

العقل: المعرفة المُستعملة في تحرّي النفع، وتجنّب الضرر؛ ولأهل اللغة والمتكلمين في اشتقاقه ومعناه أقوال كثيرة، قيل: اشتق من عقل الناقة، إذا سدّ وظيفها مع ذراعيها يمنعها من الشroud؛ فكأنه يمنع الإنسان مما يميل إليه من الهوى، ومن عقل الناقة سُميت الدية عقلاً؛ لأنها تُعقل بفناء المقتول، أو لأنها تحبس الدم. وقيل: اشتق من المعقل؛ وهو الملجأ، يقال: عقل الوعل؛ إذا التجأ إلى الجبل الذي يمنعه؛ فكأن الإنسان يلتجئ إليه في أحواله. وقيل غير ذلك، وأكثر المعاني مشتركة في الاشتقاق.

(١) البيت من شواهد الكافية؛ وأورده صاحب الخزانة في ٤: ٣٤٦، وروايته هناك "لقد علم الحي البنانون أي".

وقال الجاحظ: العقل إسم يقع على المعرفة بالصواب والخطأ، وإيثاره إذا اقترنا في زمان، وكان العلم علة للعمل وقيداً له، فإذا دعا الرجل علمه بالمحاسن إلى العمل بها، ونهاه علمه بالمساوىء عن العمل بها صار قيداً لعمله؛ وكان كالعقال لما استحسنته، فإذا عقله عليه وحسبه كما يحبس الجمل، قالوا: هذا عاقل.

وقال الراغب: العقل، يُقال للقوي المهيّئة للعلم؛ ويقال للعلم الذي يستفيدة الإنسان بتلك القوى عقل، ولهذا قال أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه:

رَأَيْتُ الْعَقْلَ عَقْلِيْنِ فمطبوع ومسموع^(١)
ولا ينفَعُ مطبوعٌ إذا لم يكُ مسموعٌ
كما لا تنفعُ الشمسُ وضوءَ العينِ ممنوعٌ

وإلى الأول أشار النبي ﷺ بقوله: "ما خلق الله خلقاً أكرمَ عليه من العقل"، وإلى الثاني أشار بقوله: "ما كَسَبَ أَحَدٌ شَيْئاً أَفْضَلَ مِنْ عَقْلٍ يَهْدِيهِ إِلَى هُدًى، أَوْ يَرُدُّهُ عَنْ رَدًى"؛ وكلّ موضع ذم الله فيه الكفّار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول، وكلّ موضع رُفِعَ فيه التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول^(٢). وقال بعض الحكماء: هو جوهر بسيط. وقال آخرون: هو جسم شفاف ومحلّه الدماغ. وبعض العلماء يقول: محلّه القلب، ويُستدلّ بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، أي عقل. وقال الجاحظ: هو مادة تتولد من الأغذية المقوية للعصب؛ فلذلك كان البلاذُر^(٣) جيداً له، والبصل مضرّاً له، وكذا الباذنجان؛ ولذلك يقال: يفسد الباذنجان في شهر ما يصلح البلاذُر في عام. ويزعم قومٌ أنه هيئة بالدُّربة؛ ولذلك فسدت أذهان المعلمين لمخالطتهم الصبيان.

المورط، الورطة: الهلاك؛ قال رؤبة:

* فَأَصْبَحُوا فِي وَرْطَةِ الْأَوْرَاطِ *^(٤)

(١) أدب الدنيا والدين ١١، ١٢ من غير نسبة.

(٢) مفردات الراغب ٣٤٢.

(٣) البلاذُر؛ ذكره صاحب المعتمد ٢٢، وقال: "جيد لفساد الذهن وجميع الأغراض الحادثة في الدماغ".

(٤) ديوانه: ٨٦، وقبلة:

وأصل الورطة أرْضٌ مطمئنة لا طريق فيها، وربما هلك الواقع فيها، ومنه الوراط: الخديعة. وفي الحديث: "لا خِلاط ولا وِراط"^(١).

الجهل: ضد العلم، ومنه سُميت المفازة مَجْهولة، كأنه جهل كيف الطريق فيها. وقال الراغب: الجهل على ثلاثة أضرب: الأول خلَوَ النفس من العلم، هذا هو الأصل. وقد جعل بعض المتكلمين الجهل معنى مقتضياً للأفعال الخارجة عن النظام^(٢)، كما جعل العلم معنى مقتضياً للأفعال الجارية على النظام. والثاني إعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه. والثالث فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يُفعل؛ سواء اعتقد فيه إعتقاداً صحيحاً أو فاسداً^(٣).

٢- البَيِّنُ سَقَطُهُ، الْفَاحِشُ غَلَطُهُ

السَّقَطُ: ما لا يُرضي، ومنه سَقَطَ المتاع؛ رديئه، وسَقَطَ القول خطؤه، وسَقَطَ الرجل في يده إذا فعل ما يندم عليه. وقال الأخفش: أَسْقَطَ، وهو غير مُستعمل، والأصل السَّقُوطُ، وهو طرح الشيء من العالي إلى المنخفض.

والفاحش: ما عظم قُبْحُه من الأقوال والأفعال، ومنه الفاحشة؛ الفَعْلَةُ القبيحة؛ سُميت فاحشةً وصارت علماً عليها.

والغلط: الخروج عن الصواب نطقاً أو فعلاً، تقول العرب: غَلِطَ وغَلِيتَ بالتاء، زعم قومٌ أنهما لغتان، وزعم قومٌ أن "غلط" إنما يقال في المنطق، و"غلت" إنما يقال في الحساب. والله أعلم بالصواب.

٣- الْعَائِرُ فِي ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ، الْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ

العِثَارُ: السقوط وما قاربه. والاعتِرَارُ: الغفلة؛ واستعارة الذيل والعِثَارُ للغافل حَسَنَةٌ، والفَقْرُ مناسبة لما قبلها وما بعدها. والعمى يقال في افتقاد البصر، ويقال فيه: أعمى، وعمى، وعمى البصيرة أشد؛ ولذلك لم يعدد الله تعالى افتقاد البصر عمى في جَنَبِ افتقاد البصيرة، حيث قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وشمس النهار ها هنا، كناية عن الصواب الواضح الذي تركه هذا المكتوب إليه، وعمي عنه حتى

(١) نهاية ابن الأثير ٢٠٥: ٤؛ قال: "الوراط: أن تجعل الغنم في وهدة من الأرض لتُخفى على المصدق، مأخوذ من الورطة؛ وهي الهوة العميقة في الأرض، ثم استعير للناس إذا وقعوا في بلية يعسر المخرج منها".

(٢) الراغب: "الجارية على غير نظام".

(٣) مفردات الراغب ١٠٢.

تعرض للذم، أو كناية عن مقدار هذه المرأة التي هي كالشمس حتى طُلب منها ما لا يصل إليه.

٤- السَّاقِطُ سُقُوطَ الذُّبَابِ عَلَى الشَّرَابِ

الذُّبَابُ في اللغة يقع على هذا المعروف من الحشرات وعلى النحل، والزنانير ونحوهما. قال الجاحظ: ومن الدليل على أن أجناس النحل والزنانير وما أشبهها كلها ذُباب^(١)؛ ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ، أنه قال: "كُلَّ ذَبَابٍ فِي النَّارِ إِلَّا التَّحْلَةَ"^(٢)؛ وقال الشاعر:

فَهَذَا أَوَّانُ الْعَرَضِ حَيَّ ذُبَابُهُ زَنَانِيرُهُ وَالْأَزْرَقُ الْمَتْلَمُ سُسُ^(٣)

والذباب ها هنا هو المعروف، وسُمِّيَ ذباب العين ذباباً لشبهه به، أو لتطايير شعاعه طيران الذباب، وبه يُضْرَبُ المثل في الوقوع على الشراب؛ فيقال: أوقع من ذُبابٍ على شراب. والشراب كل مائع متناول للشرب؛ وغرض الذباب ما حلا، ولشرهه عليه يقع على كل مائع؛ سواء كان حلواً أو غيره. وفي كتاب "كليلة ودمنة": مَنْ لَمْ يَرْضَ بِمَا يَكْفِيهِ كَانَ كَالذَّبَابِ الَّذِي لَا يَرْضَى حَتَّى يَطْلُبَ الْمَاءَ السَّائِلَ مِنْ آذَانِ الْفَيْلَةِ، فَتَضْرِبُهُ بِأَذَانِهَا فَتَقْتُلُهُ.

٥- الْمُتَهَفَاتُ تَهَافَّتُ الْفَرَاشِ فِي الشَّهَابِ

التَهَافَّتُ: الترامي مع خفة وطيران، يقال فيه: هَفَّتَ وَتَهَافَّتَ، ومنه قولهم: وردت هفيفة من الناس، للذين أقحمتهم السَّنة^(٤). والفرّاش: نوع من الذباب رقيق الجسد، ومنه قيل لكل عظم رقيق: فرّاشة. وقيل: فرّاشة القفل لرققتها^(٥)، أو لشبهها بالفرّاش الطائر، وأما قول ذي الرُّمة:

فَأَيَقِنَنَّ أَنَّ النَّقْعَ صَارَتْ نِطَافُهُ فَرَّاشاً وَأَنَّ الْبَقْلَ ذَاوٍ يَابِسُ^(٦)

(١) الحيوان: "ذبان" بالكسر؛ وهو جمع ذباب.

(٢) الحيوان: ٣: ٣٩١؛ والحديث يُروى عن عباد بن صهيب وإسماعيل المكي، عن الأعمش، عن عطية بن سعيد العدني.

(٣) للمتلمس: وبه لقب؛ وهو شاعر جاهلي، اسمه جرير بن عبد المسيح الضبعي، والبيت في الحيوان ٣: ٣٩١.

العرض: كل واد فيه شجر.

(٤) اللسان - هفت.

(٥) اللسان - فرش.

(٦) ديوانه ٣١٣؛ وروايته: "وأبصرن".

فقد قيل: إن النَّقْعَ - وهو الموضع الذي يجتمع إليه نُقَرُ الماء^(١) - صار فَرَّاشاً أي ماءً رقيقاً. وقيل: المراد أن تُطْفَ الماء صارت فَرَّاشاً طائراً؛ فربما تولد الفَرَّاش من الماء. والشَّهَاب: الشُّعْلَةُ من النار؛ ومن ذلك قيل للسود المختلط بالبياض شُبْهَةً؛ تشبيهاً بالسود المختلط بالدخان. والفَرَّاش معروف بإلقاء نفسه في النار؛ ولذلك قيل في المثل: ما هم إلا فَرَّاش طمع. والفلاسفة تزعم أن الحيوان تجذبه النُّورِية كالفَرَّاش الطائر بالليل، وما لطُف جسمه يطرح نفسه في النار فيحترق؛ وغير ذلك ممَّا يُصَاد في الليل بالشهاب، من الغزلان والوحش والطيور والسمك؛ إذا قُرب منها السراج في الزوارق، ويزعمون أن النور صلاح هذا العالم.

ومعنى هذا السجع أن المكتوب إليه من جهله وتعرضه لما يؤذيه، بمنزلة الفَرَّاش والذباب الواقع فيما يهلكه من غير إشعار أنه هالك.

٦ - فَإِنَّ الْعُجْبَ أَكْذَبُ، وَمَعْرِفَةُ الْمَرءِ نَفْسَهُ أَصُوبُ

قوله: "فإن"، صلة لقوله: "أما بعد"، ولا بُدَّ من اقتضائها الفاء لردِّ الكلام بعضه على بعض. والعُجْب: ما يعجب الإنسان من نفسه، أي يستحسنه، والأصل العَجَب؛ كأنه يتعجب من حُسْنِ ما يجد. والكذب ضدُّ الصدق، يقال في المقال والفعال، ويُنسب أيضاً إلى نفس القول والفعل، فيقال: فعلة صادقة، وفعلة كاذبة. ومعنى المثل، أنَّ المُعْجَب من نفسه بحالة يظنُّ أنه قد بلغ بها الغاية، وامتاز بالفضل؛ وليس الأمر كذلك، فكأنَّ عَجْبَهُ بنفسه خيَل له ما لا صحة فيه، فكذَّبه. والمعرفة إدراك الشيء بتدبرٍ لأمره، وهو أخص من العلم، فيقال: فلان يعرف الله، ولا يقال: "يعلم الله"، متعدي إلى مفعول واحد؛ لما كان معرفة البشر لله تعالى هي بتدبر آثاره دون إدراك ذاته، ويقال: الله يعلم كذا، ولا يقال: يعرف كذا، لما كانت المعرفة تُستعمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتفكير، وأصله من عَرَفْتُ كذا أي أصبت عَرَفَهُ، أي رآته. والمعنى أن معرفة الإنسان مقداره حتى لا يتعدى أطواره أصوب، وهو يؤيد قوله: "العُجْب أَكْذَبُ".

وهذا مثلاً جِيدَان؛ الأول يُنسب إلى أكثم بن صيفي، والثاني مأخوذ من قوله: "لن يهلك امرؤ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ".

(١) النقر: جمع نقرة؛ وهي الوهدة المستديرة في الأرض.

[أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي]

وهو أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي بْنِ رِيَّاحِ التَّمِيمِيِّ، أشهر حُكَّامِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَحُكَمَائِهِمْ وَخُطْبَائِهِمْ، أَدْرَكَ مَبْعَثَ النَّبِيِّ ﷺ، وَرَاسَلَهُ. وَاخْتَلَفَ فِي إِسْلَامِهِ، وَالْأَكْثَرُ عَلَى صِحَّتِهِ^(١).
 حَكَى الْهَجِيمِيُّ: أَنَّ أَكْثَمَ بْنَ صَيْفِيٍّ لَمَّا بَلَغَهُ مَبْعَثُ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِقَوْمِهِ: "أَحْمِلُونِي إِلَيْهِ"، فَقَالُوا: لَا وَاللَّهِ، وَأَنْتَ سِنٌَّ مِنْ أَسْنَانِ الْعَرَبِ. قَالَ: "فَلْيَأْتِهِ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْأَلْهُ عَنْ رَبِّهِ، وَعَمَّا أَمْرِهِ بِهِ". فَاتَى حَبِيشَ بْنَ أَكْثَمٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، بِمَ بَعَثَكَ رَبُّكَ؟ قَالَ: "بَعَثَنِي بِأَنْ أَكْسِرَ الْأَوْثَانَ"، قَالَ: بِمَ أَمْرُكَ؟ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْأَعْيَابِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فَانْصَرَفَ حَبِيشُ إِلَى أَبِيهِ، فَأَخْبَرَهُ بِكَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَلَا عَلَيْهِ الْآيَةَ الشَّرِيفَةَ، فَجَعَلَ يَرُدُّهَا وَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَرَبُّ كَرِيمٍ، يَأْمُرُ بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَىٰ عَنِ مَسَاوِئِهَا، ثُمَّ جَمَعَ إِلَيْهِ بَنِي تَمِيمٍ وَقَامَ فِيهِمْ خُطْبِيًّا وَعَمَرَهُ إِذْ ذَاكَ مِائَةٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ:
 وَإِنْ أَمْرًا قَدْ عَاشَ تَسْعِينَ حِجَّةً إِلَى مِائَةٍ لَمْ يَسْأَمْ الْعِيشَ جَاهِلٌ^(٢)
 وَيُرْوَى: "الْخَمْسَ فَلَمْ يَسْأَمْ"، عَلَى أَنَّ عَمْرَهُ خَمْسَ وَتِسْعُونَ سَنَةً، وَهُوَ الْأَقْرَبُ.
 ثُمَّ قَالَ: يَا بَنِي تَمِيمٍ، لَا تَحْضَرُوا إِلَيَّ سَفِيهًا؛ فَإِنَّ السَّفِيهَ يُوْهِنُ مَنْ فَوْقَهُ، وَيَتَبَّبُ مِنْ دُونِهِ - أَيِ يَهْلِكُهُ - وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ. إِنَّ ابْنِي شَاهَدَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي ظَهَرَ بِمَكَّةَ وَشَافَهُ، وَهُوَ يَأْمُرُ بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَيَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَخَلَعَ الْأَوْثَانَ. وَقَدْ عَرَفَ ذُووِ الرَّأْيِ مِنْكُمْ أَنَّ الْفَصْلَ فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَإِنْ أَحَقَّ النَّاسُ بِمَعَاوَنَتِهِ لِأَنْتُمْ؛ فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ حَقًّا فَهُوَ لَكُمْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا كُنْتُمْ أَحَقُّ مَنْ كَتَمَ وَسْتَر. وَقَدْ سَمِعْتُ أُسْقِفَ نَجْرَانَ يَذْكُرُهُ وَيَتَرَجَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ، فَسَمَّى ابْنَهُ مُحَمَّدًا، فَكَوْنُوا فِي أَمْرِهِ أَوَّلًا، وَلَا تَكُونُوا آخِرًا، وَأَتَوْهُ طَائِعِينَ قَبْلَ أَنْ تَأْتَوْهُ كَارِهِينَ. وَاللَّهُ إِنْ هَذَا الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ دِينًا لَكَانَ فِي أَخْلَاقِ الْعَرَبِ حَسَنًا؛ فَأَطِيعُوا أَمْرِي، فَمَنْ سَبَقَ فَازَ، وَمَنْ تَأَخَّرَ نَدِمَ. فَقَامَ مَالِكُ بْنُ نُؤَيْرَةَ، وَقَالَ: لَقَدْ خَرِفَ شَيْخُكُمْ، فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِلْبَلَاءِ. فَقَالَ أَكْثَمُ: وَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ، لَهْفِي عَلَى أَمْرٍ لَمْ أَدْرِكْهُ وَلَمْ يَسْبِقْنِي.
 ثُمَّ رَحَلَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ، وَبَعَثَ بِإِسْلَامِهِ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ كَانَ مَعَهُ^(٣).

(١) ذكره ابن حجر في الإصابة ١: ١٨١ - ١٢٠، في القسم الثالث؛ وهم المخضرمون الذين أدركوها الجاهلية

والإسلام، ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبي ﷺ ولا رأوه؛ سواء أسلموا في حياته أم لا، قال: "وهؤلاء ليسوا بأصحابه بإتفاق من أهل العلم بالحديث".

(٢) الإصابة ١: ١١٩.

(٣) الخبر أورده ابن حجر في الإصابة؛ برواية فيها تفضيل ومخالفة.

وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية، وهي:
﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]،
نزلت في أكثرهم ومن تبعه من أصحابه.

وقال قوم آخرون: خرج مهاجراً ولم يُسلم.
وكان من أفصح خطباء العرب^(١)، وجُمع من كلامه شيء كثير، ومما صحَّ من أمثاله
-على ما رواه ابن دُرَيْد، عن أبي حاتم- قوله: يا بني تميم، لا يفوتكم وعظي إن فاتكم الدهر
بي. يا بني تميم، إن مصارع الألباب تحت ظلال الطمع، ومن سلك الجَدَدَ أَمِنَ العثار، ولن
يعدم الحسود أن يتعب فكره، ولا يجاوز ضره نفسه، والسكوت عن الأحقق جوابه.
ومن أمثاله: أشبع جارك، وأجّع فارك؛ يعني لا تدخر شيئاً يأكله الفأر، أو يعني
بالفأر الفضل^(٢) في الجسد، أي لا تسمن وجارك جائع.
ومن أمثاله أيضاً: لا تهرف بما لا تعرف.
وسئل: ما الحزم؟ فقال: سوء الظنّ بالناس.
وأقواله كثيرة، وقلّما عُرِفَ له نَظْمٌ^(٣).

٧- وَأَنَّكَ رَأْسَتَنِي مُسْتَهْدِيًا مِنْ صَلَاتِي مَا صَفَرَتْ مِنْهُ أَيْدِي أُمَثَالِكَ

الصَّلَاةُ: قُرْبُ الشَّيْءِ وبلوغه، ويُستعمل في الأعيان والمعاني؛ ومنه سُمِّيَتِ العَطِيَّةُ
صَلَةً؛ وقيل: فلان متّصل بفلان؛ إذا كانت بينهما نسبة أو مصاهرة، والصَّلَاةُ هَا هُنَا تحتل
الوجهين، إما المودة وتقوم مقام العطاء، أو القرب ويقوم مقام الاتصال.
وصفر الإناء إذا خلا حتى يُسمع له صَفِيرٌ لخلوّه، ثم صار متعارفاً في كلّ خالٍ من
الآنية وغيرها. وقيل^(٤): صفرت اليد إذا خلت، وسُمِّيَ خلُّ العروق من الغذاء صفراً، وكانت
العرب تزعم أن العرب تزعم أن ذلك حيّة في البطن تسمى الصّفَر، حتى جاء في الحديث:
"لا صَفَر" ^(٥).

والمعنى: أنك تتعرّض من صَلَاتِي لما تخلو منه يد مرادك.

(١) م: "من أفصح العرب".

(٢) م: "العضل".

(٣) أورد له صاحب المعمرين ص ٢٢ طائفة منه.

(٤) ط: "ويقال".

(٥) نقله السيوطي في الجامع الصغير ٣٦٤:٢، ولفظه هناك: "لا عدوى ولا صفر ولا هامة".

٨- مُتَصَدِّياً مِنْ خُلَّتِي لِمَا قُرِعَتْ دُونَهُ أَنْوْفُ أَشْكَالِكَ

التَّصَدَّى: المَقَابَلَةُ^(١)، مأخوذ من مقابلة الصَّدَى، أي الصوت الراجع من الجبل.
والْحُلَّة: المودَّة؛ إما لأنها تتخلل النفس، أي تتوسطها، فإن الخلل الفرجة بين الشيئين، وإما لفرط الحاجة إليها. يقال: خالته مخالَّة، فهو خليل، وسمَّى الله تعالى نبيَّه إبراهيم خليلاً، لافتقاره إلى ربه تعالى. والقَرْع: صوت ضرب شيء على شيء.
والمعنى، أنك تخطب من مودتي ما لا يصلح^(٢) له أشكالك^(٣)، فدفعوا عنه، وضربت أنوفهم دونه، إما حقيقة، أو مجازاً لكون أنهم ردُّوا فحصل لهم من الهوان ما يحصل لمن يضرب أنفه؛ وخصَّ الأنف بالضرب لأنه محل الشمم والكبر، مع أن المثل للعرب؛ يخاطب به الخاطب الكفء، فيقول: هو الفحل لا يقرع أنفه؛ والأصل فحل الإبل إذا ضرب وجهه عن الناقة التي لا يريدون نتاجها منه؛ وتمثل به أبو سفيان بن حرب حين بلغه زواج النبي ﷺ ابنته أم حبيبة، فقال: "ذاك الفحل لا يُقرع أنفه".

٩- مُرْسِلاً خَلِيلَتِكَ مُرْتَادَةً، مُسْتَعْمِلاً عَشِيقَتِكَ قَوَادَةً

خليلتك: صاحبة مودتك. أو "خليلتك": زوجتك، وفي كل المعنيين ذمٌّ للمرسل، لأن الخليلة أو الحليلة التي هي محل^(٤) الغيرة على الرجل لا تغار على مثله حتى تمشي بينه وبين النساء. والمرتاد، طالب الكلاء، وسمِّي به الطالب مطلقاً، وأصل الرّود التردد في طلب الشيء برفق، وباعتبار الرفق قيل: رادت المرأة في مشيتها فهي رَوَاد. وقاد الشيء فانقاد له، أي خضع، وقوّد، شدّد للكثرة، واستعمل فيمن يجمع بين الشخصين حراماً؛ لأنه أصعبُ للانقياد، وكانت القوادة في العرب تُكنى أم حكيم، ولما قال ابن أبي ربيعة في وصف القوادة:

فَأَتَتْهَا طَبَّيَّةٌ عَارِفَةٌ تَخْلِطُ الْجِدَّ مَرَاراً بِاللَّعِبِ^(٥)
تُغْلِظُ الْقَوْلَ إِذَا لَأَسَتْ لَهَا وَتَرَاحَى عِنْدَ سَوَارِثِ الْغَضَبِ^(٦)

(١) كذا في ط، م، وفي ت: "التقبلة".

(٢) ت: "يصح".

(٣) ط: "أمثالك وأشكالك".

(٤) م: "موضع".

(٥) ديوانه ٣٧٨. والطبة: الحبرة العارفة، وفي الديوان: "فبعثنا طبة محتالة".

(٦) تراخي، أصله تراخى؛ فحذف إحدى التاءين، وسورات الغضب: جمع سورة بالفتح؛ وهي الشدة.

قال له ابن أبي عتيق: يا ابن أخي، إن الناس لمحتاجون إلى خليفة مثل قوادتك ليسوسهم. ومنه كان يقال في المثل: "أَقْوَدُ مِنْ ظُلْمَةٍ"^(١)، قيل: إنها امرأة كانت تقول: إذا مِتَّ فأحرقوني وتربوا برمادي الكتب المرسلة بين المتعاشقين، فإنهم يجتمعون. وقيل: إنها الظلّمة من الليل؛ فإنها تَسْتُرُ وتعين على الاجتماع. وأنشد بعضهم^(٢):

* فَالشَّمْسُ نَمَامَةٌ وَاللَّيْلُ قَوَادُ^(٣) *

١٠ - كاذِباً نَفْسَكَ أَنْكَ سَتَنْزِلُ عَنْهَا إِلَيَّ، وَتَخْلُفُ بَعْدَهَا عَلَيَّ

يعني أنك وعدت نفسك بأن لا تترك الاتصال بهذه المرأة التي هي خليلتك، وتتعوّض عنها بحصولي، وهذا أمر لا يقع؛ فأنت كاذبٌ نفسك في الوعد، [أو وعدت هذه المرأة التي هي عندك بمنزلة نفسك]^(٤)؛ أنك إذا ظفرت بي تركتها وأطلقت سراحها لرغبتها في البعد عنك، فهي تسعى في هذا الأمر سعي المجتهد، وهذا أمر لا يتم، فقد كذبتّها فيما وعدت. والْخَلْفُ: ما جاء بعد الشيء، ومنه سمي الخليفة، ويقال بالتحريك للمدح مثل: خَلَفَ صالح، وبالسكون للذم مثل [قوله: "في] خَلَفَ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ"^(٥).

١١ - وَلَسْتُ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ

هذا البيت للمتنبّي، وحسن التمثيل به ها هنا لمطابقة المعنى في طلب ما لا يوجد، لا سيما إن كان التصحيف أريد بلام النائل؛ بقلب اللام كافاً؛ فإن ذلك في هذا الموضع يكون عجباً، وكثيراً ما يعتمد أهل الظرف شبيه ذلك في مكاتبتهم.

(١) أمثال الميداني ٤٧: ٢، قال: "هي امرأة من هذيل، وكانت فاجرة في شباهها حتى عجزت، ثم قادت حتى أقعدت".

(٢) هو ابن المعتز؛ كنيات الجرجاني ٤٣.

(٣) صدره:

* لَا تَلْقَ إِلَّا بَلِيلَ مَنْ تَوَاصَلُهُ *

وبعده:

(٤) كم عاشقٍ وظلام الليل يستره
لا قى أحبته والناس رُقَادُ
تكملة من م.

(٥) من بيت لبّيد:

ذهب الذين يُعَاشُ في أكنافهم
وبقيت في خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

[المتنبى]

وحيث أفضى القول إلى ذكر المتنبى، فلا بأس بذكر نبذة من أخباره، فأما أشعاره فقد ملأت الأقطار؛ لكنني أقتصر منها على ذكر القصيدة التي منها هذا البيت، وكذلك أعتمد في كل ما يمر من شعره في هذه الرسالة.

وهو أحمد بن الحسين كما في مخطوطتي ت، م بن عبد الصمد الجعفي، ويكنى أبا الطيب. وُلد بالكوفة سنة ثلاث وثلثمائة. وقيل: إن أباه كان يسمى عبّاد، وهو رجل كان يسقي الماء على جمل له بالكوفة.

ونشأ أبو الطيب مشتغلاً بالأدب، راغباً فيه مع فقره واحتياجه. وكان من أذكى الناس وأسرعهم حفظاً. حكى أنه جلس يوماً بالورّاقين في أيام صباه، فأستعرض من أحد الدالّين دفترأ فيه أكثر من عشرين ورقة فأطال تأمله إلى أن قال له الدالّ: إن كنت تريد شراء فعجل الثمن، وإن كنت تريد حفظه فهذا يكون في شهر؛ فقال: إن كنت حفظته آخذه بغير ثمن؟ قال: نعم، فشرع يسرده عليه حفظاً إلى أن أتمه، ووضعه في كمّه وانصرف، ثم نظم الشعر وأسترزق به، وطاف البلاد، وكان يقنع من الجائزة بأيسر شيء. ثم نزل باللاذقية على مُعاذ بن إسماعيل فأكرمه وأحسن إليه، وأقام عنده مدة. ثم خرج إلى بادية السماوة^(١) فنزل بقوم من بني عبس فتنبأ، وعمل أسجاعاً كثيرة، وتبعه قوم منهم، وكان سبب ذلك وقائع نادرة:

منها: أن قوماً قالوا له: إن ها هنا ناقة صعبة، فإن ركبتها علمنا أنك مرسل؛ فتحيل يوماً إلى أن ركبها، فنفرت ساعة ثم سكنت، ووردت الحيّ وهو راكبها. ومنها: أنه كان مستخفياً فراح ليلة هو ورجل فنبح عليهما كلب، فلما ذهب قال للرجل: إنك ستجد الكلب ميتاً إذا رجعت، فوجده كذلك.

وقيل: كان يعرف نوعاً من السحر يسمى صدحة المطر، وذلك أن الشخص يدير حوله بعضاً، ويذكر كلاماً فينصرف^(٢) عن موضعه المطر. وذكر أن كثيراً من العرب باليمن من أهل حَضْرَمَوْتِ والسُّكُونِ يعرفون هذه الصّدحة؛ حتى إن أحدهم يصدح عن إبله وبقره، وعن القرية من القرى فلا يصيبها من المطر قطرة. ومما يدل على أن المتنبى كان من السُّكُونِ قوله:

(١) بادية السماوة: موضع بين الكوفة والشام. ياقوت.

(٢) كذا في م. وفي ط: "فينصرف"، وفي ت: "فيتصرف" تصحيف.

أَمْسِيَّ السَّكُونِ وَحَضَرَ مَوْتاً ووالدتي وَكِنْدَةَ وَالسَّيِّعَا^(١)

مع أنه كان يُخفي نسبه، فإذا سئل عنه قال: أنا رجل أخبط القبائل، ولا آمن أن يكون لأحد ثأر في قبيلتي فيقتلني.

ثم إن بعض الولاة ظفر بالمتنبي وحبسه، فتاب ورجع عما ادّعه من النبوة. وقيل له يوماً: على من تنبأت؟ قال: على السفلة. فقيل له: إن لكل نبي معجزة فما معجزتك؟ قال: قولي:

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوَّ لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ^(٢)

ثم تقلبت به الأحوال، ووصل إلى سيف الدولة علي بن حمدان بحلب، فأقبل عليه، ولحظته السعادة، واشتهر ذكره في الآفاق، ورُزق من الحظ والسمعة والنعمة^(٣) ما لا مزيد عليه. ثم اتفق بينه وبين ابن خالويه كلام بحضرة سيف الدولة، فضربه ابن خالويه بمفتاح، فخرج غضبان ورحل إلى مصر، فاتصل بمتوليها كافور الإخشيدي، فطمع منه بالولايات، فلم يتهياً له ما طلبه^(٤)، ورحل إلى العراق فأقام بها أياماً، وسئل عن ذلك فقال: إن بني حمدان كدروا خاطري، فجئت أريحه. ويقال: إن هذا من الكلام الموجه في مدح الجهتين ودمهما.

ثم رحل^(٥) إلى العجم فمدح عُضد الدولة، وابن العميد، وكسب أموالاً جزيلة ورجع، فقتل في الطريق سنة أربع وخمسين وثلاثمائة. وكان عفا الله عنه قد انفرد بخصال:

منها الكبر الزائد كما ذكره الحاتمي وغيره؛ وهو مما^(٦) أحوجّه إلى فراق سيف الدولة. وحكى ابن جني قال: قلت للمتنبّي وقد أسمعني شعراً في كافور: يعزّ عليّ ألا يكون هذا في سيف الدولة! قال: إني أنذرتة وحذرتة فما قبل، وذلك في قولي:

إِذَا الْجَوْدَ أَعْطَى النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ وَلَا تَعْطِيَنَّ النَّاسَ مَا أَنْتَ قَائِلٌ^(٧)

(١) ديوانه ٢: ٢٥٧، وفيه: "أمسي الكناس"، والكناس: محلة بالكوفة. وحضر موت وكندة والسبيع مواضع بأعيانها.

(٢) ديوانه ٤: ١٦٢، منظره، أي رؤيته.

(٣) ط: "من الحظ والنعمة والسمعة".

(٤) ط: "ذلك".

(٥) في ت، م: "دخل".

(٦) ت ط: "وكما"، والصواب ما أثبتته من م.

(٧) ديوانه ٣: ١١٧.

ومنها البخل؛ حُكِيَ أَنَّهُ أَجِيزٌ عَلَى قَصِيدَةِ بَعْشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَوَزَنَهَا وَوَضَعَهَا فِي كَيْسٍ وَخَتَمَهَا، وَرَفَعَهَا إِلَى صَنْدُوقٍ فِي خَزَانَةٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَجْلِسِهِ فَوَجَدَ بَيْنَ الْحَصِيرِ قِطْعَةً تَكُونُ مِقْدَارَ رُبْعِ دِرْهَمٍ، فَعَاجَلَهَا بِأُظَافِيرِهِ وَهُوَ يَنْشُدُ قَوْلَ ابْنِ الْخَطِيمِ:

تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضَنَّتْ بِحَاجِبٍ^(١)

إِلَى أَنْ أَخَذَهَا فَأَعَادَ الْكَيْسَ وَوَضَعَهَا فِيهِ بِحَضْرَةِ جَمَاعَةٍ يَعْرِفُ أَنَّهُمْ يَذَمُّونَهُ بِذَلِكَ. وَمِنْهَا إِقْبَالُ النَّاسِ عَلَى شِعْرِهِ وَاشْتِغَالُهُمْ بِهِ حَتَّى تَرُكَ شِعْرَ غَيْرِهِ، وَوَضَعَ لَشِعْرِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ تَصْنِيفًا. وَكَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ مَعْنَى مِنْ قَوْلِهِ قَالَ: أَذْهَبُوا إِلَى ابْنِ جَنِّي، فَإِنَّهُ يَقُولُ لَكُمْ مَا أَرَدْتَهُ وَمَا لَا أَرَدْتَهُ.

ومنها: معرفته بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَحَوَاشِيَّهَا؛ حَتَّى حَكِيَ أَنَّ أَبَا عَلِيٍّ الْفَارِسِيَّ قَالَ لَهُ يَوْمًا: كَمْ لَنَا مِنَ الْجُمُوعِ عَلَى وَزْنِ فِعْلِي؟ فَقَالَ: حِجْلِي وَظُرْبِي، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: فَطَالَعْتَ الْكُتُبَ ثَلَاثَ لَيَالٍ عَلَى أَنْ أَجِدَ لِهَٰذَيْنِ الْجَمْعَيْنِ ثَالِثًا فَلَمْ أَجِدْهُ.

وَكَانَ يُرْمَى بِفُسَادِ عَقِيدَتِهِ^(٢)، اسْتُخْرِجَ ذَلِكَ مِنْ شِعْرِهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ عَلَى مَذْهَبِ السُّوفِسْطَائِيَّةِ:

هُوَ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنَظَرُهُ فَإِنَّمَا يَقْظَاتُ الْعَيْنِ كَالْحُلُمِ^(٣)

وقوله على مذهب القائلين بالنفس الناطقة:

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتِّفَاقَ لَهُمْ إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ^(٤)

فَقِيلَ تَسَلَّمَ نَفْسُ الْمَرْءِ بَاقِيَةً وَقِيلَ تَشَرَّكَ جِسْمُ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ^(٥)

وقوله على مذهب الهوائية وأصحاب القضاء:

تَبَخَّلَ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا عَلَى زَمَانٍ هُنَّ مِنْ كَسْبِهِ^(٦)

وهذه الأرواحُ مِنْ جَوْهِ وهذه الأجسامُ مِنْ تُرْبِهِ

(١) ديوانه ٣٥، والحاجب هنا: الجانب.

(٢) م: "العقيدة".

(٣) ديوانه ٤: ١٦٢. منظره، أي رؤيته.

(٤) ديوانه ١: ٩٧. الشجب: الحزن والمهلك.

(٥) النفس هنا: الروح.

(٦) ديوانه ١: ١٢٢.

وغير ذلك من المكفرات ظاهراً المجنح فيها باطناً، وعلى الجملة فكان كثير المحاسن والحسّاد، وله أشعار لم تدخل في ديوانه، مثل قوله:

وتركتُ مدحي للوصيّ تعمّداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً^(١)
وإذا استطال الشيء قام بنفسه وصفاء نور الشمس يذهب بالطّلا
وهو شبيه بنفسه.

ويُروى له أيضاً نثر لطيف، مثل قوله وقد مرض بمصر فعاده بعض أصحابه مراراً، ثم انقطع عنه بعدما شفي: "وصلتني - وصلك الله - معتلاً، وهجرتني مُبلاً^(٢)، فإن رأيت ألا تحب العلة إليّ، ولا تكدر الصحة عليّ، فعلت إن شاء الله".

فأما القصيدة التي منها البيت المذكور بسببه، فإنه يمدح بها سيف الدولة ابن حمدان، ويذكر فيها خلاص بعض أقاربه من الأسر، وهزيمة بعض الخوارج عليه، أولها^(٣):

إلام طماعيَ العاذلِ ولا رأيي في الحبّ للعاقل^(٤)
يرادُ من القلبِ نسيانُكم وتأبى الطّباعُ على النّاقِلِ
وإنّي لأعشقُ من عشقكم نُحولي وكلّ امرئٍ ناحِلِ
ولو زلتُم ثم لم أبككم بكيّت على حُبّي الزّائلِ
- يعني أني أحبّ الحبّ لأجلكم، إذ أني ألفتُه لطول صحبته فلو زال بكيته.
كأنّ الجفون على مُقلّتي ثياب شقّقن على ثاكلِ
ولو كنت في أسرٍ غير الهوى ضمنتُ صمّان أبي وائلِ

- يعني لو أسرنى غير الهوى لخلصت منه كما خلاص أبو وائل، وهو قريب سيف

الدولة، وكان مأسوراً في بني كلب عند الخارجي الذي خرج بهم على سيف الدولة، وكان أبو وائل قد ضمن له فداء نفسه بذهب وخيل؛ واستدعى سيف الدولة سرّاً، فخرج ومرّ بهم، واستنقذه بغير فداء، فذكر أبو الطيّب صورة الحال.

(١) زيادات ديوان المتنبي لعبد العزيز الميمني ٣٥، ٣٦.

(٢) كذا في م، وفي ط: "بليلاً"، وفي ت "مهملاً" تحريف.

(٣) ديوانه ٣: ٢١ - ٣٤؛ وفيه: "وقال يمدحه - أي سيف الدولة - ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود من الأسر".

(٤) الطماعية: مصدر بمعنى الطمع.

فَدَى نَفْسَهُ بِضَمَانِ النَّضَّارِ وَأَعْطَى صُدُورَ الْقَنَا الذَّابِلِ^(١)
وَمَنْهُمْ الْخَيْلَ مَجْنُوبَةً فَجِئْنَا بِكُلِّ فَتَى بَاسِلِ^(٢)
كَأَنَّ خَلَاصَ أَبِي وَائِلِ مَعَاوِدَةَ الْقَمَرِ الْآفِلِ
دَعَا فَمِيعَتُ وَكَمْ سَاكِتٍ عَلَى الْبُعْدِ عِنْدَكَ كَالْقَائِلِ

ومنها:

وَجِيشِ إِمَامٍ عَلَى نَاقَةٍ صَحِيحِ الْإِمَامَةِ فِي الْبَاطِلِ^(٣)
فَأَقْبَلْنَ يَنْحَزْنَ قُدَّامَهُ نَوَافِرَ كَالنَّحْلِ وَالْعَاسِلِ
فَلَمَّا بَدَوْتَ لِأَصْحَابِهِ رَأَتْ أَسَدُهَا أَكَلَ الْأَكِلِ
بَضْرِبِ يَوْمِهِمْ جَائِرٍ لَهُ فِيهِمْ قِسْمَةُ الْعَادِلِ

- يعني بالجور إفراطه في قتلهم، وبالعدل ثلاثة أوجه: أحدها أنهم مستحقون لذلك لخروجهم، والثاني أنه وقع ذلك لمن بالغ منهم في القتال، والثالث أن الضربة كانت الفارس نصفين.

بنصل^(٤) يخضب منها اللّحي فتّى لا يعيد على النّاصل^(٥)
- قال ابن وكيع: يعني أن كل خضاب ينصل إلا خضاب هذه القتلى الذي هو الدم فإنه لا ينصل؛ فيعديه لأنهم فارقوا الحياة، وما ينصل غير خضاب اللّحي. وقال بعضهم - وهو وجه بعيد: الناصل: المضروب بالنصل، وهو "فاعل" بمعنى "مفعول"، كقولك: ناقة ضارب، وعيشة راضية، يريد أنه إذا ضرب إنساناً بالنصل لم يبق فيه ما يحتاج إلى إعادة ضربه.
خُذُوا مَا أَتَاكُمْ بِهِ وَاعْدِرُوا فَإِنَّ الْغَنِيمَةَ فِي الْعَاجِلِ
- يعني أن هذا بدلُ الفداء، يتهكّم بهم.
وَإِنْ كَانَ أَعْجَبَكُمْ عَامُكُمْ فَعُودُوا إِلَى حِمَصٍ فِي قَابِلِ

(١) النضار: الذهب. القنا الذابل: الرقيق.

(٢) الخيل المجنوبة، التي ليس عليها فرسان؛ وإنما تجنب للحاجة إليها، فلا تتركب إلا وقت الحروب.

(٣) يريد بالإمام الخارجي؛ أي أنه إمام في قومه صحيح الإمامة عليهم؛ إلا أنه من أئمة الباطل.

(٤) الديوان: "فظل يخضب".

(٥) الناصل: "الذي ذهب خضابه".

ومنها:

فإنَّ الحُسامَ الخُضيبَ الذي قتلتم به في يدِ القاتِلِ
تركتَ جَماجمهم في النَّقا وما يتحصَّلَنَ للنَّاحِلِ^(١)

ومنها:

وعدت إلى حَلَبٍ ظافِراً كَعُودِ الحُلِيِّ إلى العاطِلِ

ومنها:

وكم لك من خبرٍ شائعٍ له شِئُهُ الأَبْلَقُ الجائِلِ^(٢)

ومنها:

فهَنَّأك النَّصْرَ مُعْطِيكَهُ وأرضاه سَعِيكَ في الآجِلِ
فذي الدارِ أَخَوْنَ من مُومِسٍ وأخدعُ من كِفَّةِ الحابِلِ
تفانَى الرِّجالُ على حُبِّها ولا يحصِّلون على طائِلِ^(٣)

١٢ - ولا شكَّ أَنَّها قَلَتِكَ إِذْ لَمْ تَضِنَّ بِكَ، وَمَلَّتِكَ إِذْ لَمْ تَغَرَ عَلَيْكَ

يعني [المرأة التي راسلتها]^(٤) أبغضتك لأنها لم تبخل بك على مَنْ تصحبه دونها. والقلى: شدة البغض، يقال: قلاه يقليه ويقلوه، فمن جعله من الواوي فهو من القلّو، أي الرَّمي. يقال: قَلَّتْ الناقة براكها قَلَوًّا، وقلوتُ بالقلم، فكأن المقلو الذي يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله، ومن جعله من اليائي؛ فمن قَلَيْتُ السَّوِيقَ وغيره على المِقْلَاة. وفي الحديث: "اخْبُرْ تَقْلَهُ"^(٥)، والهاء للسكت. والضنّ: البُخل بالشيء النفيس، ولهذا قيل: عِلَقَ

(١) النقا: الكثيب من الرمل، يقول: تركت جماجمهم وقد طحنتها حوافر الخيل فاختلطت بالرمل حتى لو تحل لم يتحصل منه شيء.

(٢) الشية: لون يخالف بقية الجلد. والأبلق: الذي فيه سواد وبياض؛ يقول: كم لك من خبر انتصار شاع ذكره في الناس، وظهر ظهور الشية في الفرس الأبلق إذا جال بين الخيل.

(٣) الطائل: الغناء؛ أي تفانوا في التشاح عليها ولم يحصلوا على شيء؛ لأنها لا تمكن أحداً منها.

(٤) تكملة من م.

(٥) لفظ الحديث في النهاية (٣: ٢٧٥) عن أبي الدرداء: "وجدت الناس أخبر تقله"، قال في شرحه: يقول: جرب الناس فإنك إذا جربتهم قليتهم وتركهم لما يظهر من بواطن سرائرهم، لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر، أي من جربهم وخبرهم أبغضهم وتركهم، والهاء في "تقله" للسكت، ومعنى نظم الحديث: وجدت الناس مقولاً فيهم هذا القول.

مضنة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]، أي بخيل على ما يوحى إليه، وقرئ: "بظنين"، أي متهم^(١).

١٣ - فَإِنَّهَا أَعْدَرَتْ فِي السَّفَارَةِ لَكَ، وَمَا قَصَرَتْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ

يعني بلغت عذر الاجتهاد في الصلة بيني وبينك؛ يقال: أعذر الإنسان إذا أتى ما صار به معذوراً، وأعذر مَنْ أُنذِر. والسَّفارة المشي في الصلح، وكأنها كشف ما غمَّ من الحال بين المتباينين، أي سفرت، ومنه قيل: السَّفر، لأنه يكشف الأخلاق، والأصل من سَفَر الصبح، إذا أضاء.

١٤ - زَاعِمَةٌ أَنَّ الْمُرُوءَةَ لَفْظٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ

المروءة: كمال المرأة؛ كما أن الرجولية كمال الرجل، والإنسانية تمام الإنسان. واللفظ مستعار من لفظ الشيء من الفم إذا طرحه، ولفظت الرِّحا الدقيق، والمعنى نفس الكلام وسره، وكأنه مأخوذ من معاناة المرأة اطلاعه على فحوى الكلام. ولأهل البيان والمتكلمين في تمثيل الألفاظ والمعاني فصول مستحسنة. قال القومسيّ الفيلسوف: الألفاظ آية من الحس، والمعاني من آية^(٢) العقل، والحس تابع للعقل والطبيعة. وقال آخر: ممّا حكاها ابن رشيق: المعنى مثال، واللفظ حذو، والحذو يتبع المثال فيتغيّر بتغييره، ويثبت بثباته.

وقال آخر: اللفظ جسم، والمعنى روح، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختلّ اللفظ كان نقصاً في الكلام كما يعرض لبعض الأجسام من العور والعرج، وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن صعب المعنى وأجيد لفظه^(٣) كان اللفظ من ذلك أوفر حظاً؛ كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختلّ إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح؛ فإن اختلّ المعنى كله فقد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه، وإن كان حسن الطلاوة في السمع؛ كما أن الميت لا ينقص من شخصه شيء في رأي العين إلا أنه ميت لا يُنتفع به، وكذلك إن اختلّ اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى؛ لأننا لا نجد روحاً في غير جسم ألبتة!

(١) بعدها في ط: "والأمر كذلك على كلا المعنيين".

(٢) م: "أمة".

(٣) م: "اللفظ".

١٥ - والإنسانية اسمٌ أنتَ جسمُهُ وهَيُولَاهُ

الإنسانية: تمام الإنسان كما تقدّم، ومما عرّبه أبو زرعة البغدادي من كلام أرسطاطاليس قوله: الإنسانية أفقٌ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع، دائر على مركزه إلا أن يكون مخلوطاً بأخلاق بهيمية، ومن رفع عصاه عن نفسه، وسبّب هواه في مرعاه، وكان ليّن العريكة لاتباع الشهوات الرديئة، فقد خرج من أفقه، وصار أذلّ من البهيمة لسوء إثاره.

والإسم ما عُرِفَ به الشيء، وأصله من السُمُو، ومنه رفع ذكر المسمّى فعُرِفَ، وسيأتي ذكره عند الفصل بين الإسم والمسمّى. والجسم يقال لكل ذي طول وعرض وعمق، ولما لا يثبت له لون كالماء والهواء، ولا تخرج أجزاء الجسم عن كونها أجزاء، وإن قُطِعَ وجزّيء، وهو أعمّ من الجسد؛ لأنّ الجسد لا يقال إلا لما له لون. والهَيُولَى: المادة المدبرة للصورة، وهي أصل الشيء كالفضة في الدرهم، وكان أرسطاطاليس يسمّى صاحب الهَيُولَى؛ وذلك أن مذهبه في الدهر أن أصل العالم قديم؛ غير أنه لم يكُ ثم طينة^(١) ولا كان شيء مما نسمّيه العرض؛ وللحكماء في تحقيقها كلام طويل لا يسع هذا المجال ذكره.

١٦ - قاطعةً أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في

مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال

قطعت الأمر: إذا فصلته من الشك، ومنه الدليل القطعي، والقطع: الفصل فيما يدرك بالأبصار كالأجسام، وفيما يدرك بالبصيرة كالأموال العقلية؛ والكمال حصول غايات العرض في الشيء محسوساً أو معقولاً، وقوله تعالى:

﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ليست^(٢) للإعلام بأن الثلاثة والسبعة عشرة، وإنما ليبين أنه بحصول صيام العشرة يحصل كمال الصوم القائم مقام الهوى. والخلال: جمع خِلَّة، وهي الطريقة الحسنة، مأخوذ من الخِلَّة وهي الطريق في الرمل. وفي قوله: "استعليت"، و"استوليت"، و"الجلال"، و"الخلال"، أنواع من الصناعات اللفظية من ترصيع وتجنيس ما الغرض ذكرها.

(١) كذا في م، وفي ط: "لم يكن من طينة".

(٢) ط: "ليس".

١٧ - حَتَّى خَلَتْ أَنَّ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَاسَنَكَ فغَضَضَتْ مِنْهُ

يعني بَارَاكَ فِي الْحُسْنِ فَأَخْجَلَتْهُ، وَأَصْلُ الْغَضِّ النِّقْصَانُ فِي الطَّرْفِ، وَيَسْتَعَارُ لِمَا سِوَاهُ، وَبَدَأَ بِذِكْرِ الْحُسْنِ فِيمَا سَرَدَهُ مِنْ تَوَارِيخِ ذَوِي الْأَوْصَافِ الشَّرِيفَةِ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَا يَعْجَبُ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ، ثُمَّ ذَكَرَ الْحَالَ وَالْهَمَّ وَالْعُلُومَ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

[يوسف عليه السلام]

والمَرَادُ هَا هُنَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: "ذَلِكَ الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ، يَوْسُفَ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ". وَبِهِ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي الْحُسْنِ، وَيُسْتَدَلُّ عَلَى حَسَنِهِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْحَدِيثِ وَالْآثَارِ:

فَمِنْ الْكِتَابِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذِكْرِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَالنِّسْوَةِ اللَّاتِي لَمُنَّهَا عَلَى حَبِّهِ: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ [يوسف: ٣١]، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قَالَ الْمَفْسُورُونَ: الْمَتَّكَ النُّمْرُقُ الَّذِي يُتَّكَأُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: الْمَتَّكَ هُوَ الطَّعَامُ، وَالْأَصْلُ فِيهِ أَنَّ مَنْ دَعَوْتَهُ لِيَطْعَمَ عِنْدَكَ، فَقَدْ أَعَدَدْتُ لَهُ وَسَادَةً، فَسُمِّيَ الطَّعَامُ مَتَّكَاً عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ. وَقِيلَ: مَتَّكَاً، طَعَاماً يُحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُقَطَّعَ بِالسَّكِينِ؛ لِأَنَّ الطَّعَامَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَحْتَاجُ الْإِنْسَانَ إِلَى أَنْ يَتَّكِيَ عِنْدَ الْقَطْعِ. وَقِيلَ الْمَتَّكَ الْأَتْرُجُ، وَهُوَ شَاذٌ أَنْكَرَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ.

﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّيْنِ فَأَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ﴾ [يوسف: ٣١]، قِيلَ: عَظَمْتُهُ وَرَأَيْتُهُ كَبِيرًا عَمَّا فِي أَنْفُسِهِنَّ. وَقِيلَ: حِضْنٌ، وَالْهَاءُ لِلْسَكْتِ مِثْلُ "إِنَّ" ^(١) بِمَعْنَى "إِنْ"، وَهُوَ قَوْلٌ شَاذٌّ، لَا يَعْرِفُ فِي اللُّغَةِ الْإِكْبَارُ بِمَعْنَى الْحِضْ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ الصَّغِيرَةَ، بِالْحِضْ تَدْخُلُ فِي مَعْنَى الْكَبِيرَةِ، وَلَا فِي الطَّبِّ أَنَّ الْمَرْأَةَ تَحِضُّ إِذَا رَأَتْ مَا يَرَوْنَهَا؛ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَامِلاً فَيَحْصِلُ لَهَا إِسْقَاطُ فَتَحِضُّ؛ وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ مِنْ أَنَّ الْإِكْبَارَ التَّعْظِيمَ أَصَحُّ وَأَحْسَنُ.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]، كُنَايَةٌ عَنِ الدَّهْشَةِ وَالْحَيْرَةِ، إِمَّا أَنَّهَا دُهِشَتْ فَكَانَتْ تَقَطُّعٌ فِي يَدَيْهَا وَهِيَ تَظُنُّ أَنَّهَا تَقَطُّعُ فِي الْفَاكِهِةِ أَوْ الطَّعَامِ، وَإِمَّا أَنَّهَا تَنَاوَلَتْ السَّكِينِ مِنْ مَوْضِعِ النَّصْلِ وَهِيَ تَظُنُّهُ مَوْضِعَ النَّصَابِ فَتَجَرَّحَ يَدَهَا، وَاللَّتْدَاذُ بِالنَّظَرِ يَمْنَعُهَا مِنْ وَجُودِ الْأَلَمِ، وَفِي هَذَا مِنَ الْكُنَايَةِ عَنِ الْحُسْنِ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، الْمَقْصُودُ

(١) مِثْلُ "إِنَّ"، يُشِيرُ إِلَى قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ الرِّقَاتِي:

وَيَقْلُنَّ شَيْبٌ قَدْ عَلَا
كَ وَقَدْ كَبُرَتْ فَقُلْتُ إِنَّهُ

إثبات الحُسن، لأنه تعالى ركب في الطباع أن لا شيء أحسن من الملك، وقد عاين ذلك قوم لوط في ضيف إبراهيم من الملائكة، كما ركب في الطباع أن لا شيء أقبح من الشيطان. وكذلك قوله تعالى في صفة جهنم: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]؛ فكما تقرر في الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان، فقد تقرر أن أحسن الأشياء هو الملك، فلما أرادت النسوة وصف يوسف بالحُسن، شبهه بالملك.

أما الحديث فروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "مررت بيوسف في الليلة التي عُرج بي فيها إلى السماء، فقلت لجبريل: مَنْ هذا؟" قال: يوسف، فقيل: يا رسول الله، كيف رأيته؟ فقال: "كالقمر ليلة البدر".

ومن الآثار قولهم: إنه كان إذا مشى في أزقة مصر يتلأل نور وجهه على الجدران كما يتلأل نور الشمس من الماء عليها. وقولهم: إنه ورث الحُسن من جدته سارة التي هم الملك بأخذها من إبراهيم، وزاد عليها، وقصته مشهورة. ويُروى أنه عاش مائة سنة، وتوفي بمصر، ودُفن في نهر الفيوم الذي أحكم صنعته البديعة.

ومن كلامه، قيل له: ما صنع بك إخوتك؟ فقال: لا تسألوني عن صنع أخوتي وسلوني عن صنع ربي". ودعا لأهل السجن فقال: اللهم أعطف عليهم الأخيار، ولا تُخف عنهم الأخيار. فيقال: إنهم أعرف الناس بما يتجدد من الأخبار في البلدان.

١٨ - وَأَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ رَأَتْكَ فَسَلَتْ عَنْهُ

[زَلِيخَا امْرَأَةُ الْعَزِيزِ]

امرأة العزيز زليخا المشغوفة بحب يوسف، صار الحب شغافاً لقلبها، والشغاف جلدة رقيقة تحيط بالقلب، وقرىء: ﴿شَغَفَهَا﴾ [يوسف: ٣٠^(١)] بالعين، والشغاف أعالي الجبال، كأن الحب بلغ أعلى قلبها، وما كانت لتسلو مع ذلك الحب إلا بأضعاف ذلك الحُسن.

ومن كلامها حين دخلت على يوسف بعد أن ملك مصر، واحتاجت إليه: سبحان مَنْ جعل العبيد ملوكاً بالطاعة، وجعل الملوك عبيداً بالمعصية!

(١) سورة يوسف ٣٠، وهي قراءة الحسن. تفسير القرطبي ٩: ١٧٧.

١٩- وَأَنَّ قَارُونَ أَصَابَ بَعْضَ مَا كَنَزَتْ

[قارون]

قارون هو المذكور في الكتاب العزيز، قال بعض المفسرين: اختلف في نسبه، ف قيل: كان ابن عم موسى عليه السلام؛ لأن موسى: ابن عمران بن قاهث، وقارون: ابن يصهر بن قاهث. وقيل: كان ابن خالته؛ وهو أول من ضرب به المثل في كثرة المال. وفي قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ [القصص: ٧٦] دليل على إيمانه وقرابته، وكان من أحسن الناس وجهاً وقراءة للتوراة، وسمي المنور لحسنه.

وقيل: إنه كان من السبعين المختارة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ [القصص: ٧٦]، الكنز يطلق على ما جمع من المال سواء كان في باطن الأرض أو ظاهرها؛ ﴿مَا إِنْ مَفَاتِحُهُ لَتَنُوزَ بِالْعُصْبَةِ﴾ [القصص: ٧٦]، أي تنوء بها العصبة؛ تتكلف بها النهوض، وهذا من القلب المستعمل في كلام العرب، مثل: دخل الرأس الظل، وعرضت الدابة على الحوض. واختلف في المفاتيح، ف قيل: مفاتيح أبواب الخزائن، وكانت وقر ستين بغلاً، وهو قول واهن^(١). وقيل: المفاتيح الخزائن نفسها، وقد يسمي الشيء بما لا يسه. وقيل: المفاتيح العلم والإحاطة كقوله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩]، يعنون أنه أوتي من الكنوز ما إن حفظه والاطلاع عليه ليشغل على العصبة، ﴿أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، أي يعجزون عن حسابها وحفظها لكثرة صنوفها.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، أي على خير وصلاح علمه الله مني. وقيل على علم بالمكاسب والتجارات. وقيل: على علم بالكيمياء. وكان الزجاج يقول: هذا قول لا أصل له؛ فإن الكيمياء باطلة ولا حقيقة لها.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩]، قيل: خرج راكباً بغلة شهباء بسرج من ذهب، ومعه سبعمائة وصيفة على بغال شهب، عليهن الحلبي والحلل والزينة؛ فكاد يفتن بني إسرائيل، ثم بغى وتكبر حتى أهلكه الله.

واختلف في سبب بغيه وهلاكه؛ ف قيل: إنه كان قد حسد هارون على الحُبورة؛ وذلك أن موسى عليه السلام لما قطع البحر، وأغرق الله فرعون، جعل الحُبورة لهارون عليه السلام، فحصلت

له النبوة والخبرة، وهو القربان يأتي بنو إسرائيل بهداياهم إلى هارون فيضعها في المذبح، فتنزل نار فتأكلها. وكان لموسى الرسالة، فوجد قارون من ذلك في نفسه، وقال: يا موسى، لك الرسالة ولهارون الخبرة ولست في شيء! لا أصبر على هذا، فقال موسى: والله ما صنعت ذلك لهارون، بل جعله الله له. فقال: والله لا أصدقك أبداً حتى تأتيني بآية، فأمر موسى رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل رجل منهم بعصاه، فجاءوا بها، فألقاها موسى ^{الطيطلة} في قبة له، وكان ذلك بأمر الله تعالى، ودعا موسى أن يريهم الله بيان ذلك، فباتوا يحرسون عصيهم، فأصبحت عصا هارون تهتز، لها ورق أخضر - وكانت من شجر اللوز - فقال موسى: يا قارون، أما ترى صنع الله تعالى لهارون! فقال: والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر. ثم اعتزل بمن معه من بني إسرائيل. وكان كثير المال والتبع، فدعا عليه موسى.

وقيل: إنه لما نزلت آية الزكاة على موسى، جاء موسى إليه وصالحه على كل ألف دينار بدينار، وألف شاة بشاة، وعلى هذا الأسلوب، فحسب ذلك فوجده مالا عظيماً، فجمع قومه من بني إسرائيل، وقال: إن موسى يأمركم بكل شيء فتطيعونه، وهو الآن يريد أخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا، فمرنا بما شئت، فقال: عليّ بفلانة البغي؛ فأعطاه مائة دينار، وأمرها بأن تقذف موسى بنفسها، وجاء إلى موسى وقال: إن قومك قد اجتمعوا لتأمرهم وتنهاتهم، فخرج، فقام فيهم خطيباً، فقال: يا بني إسرائيل، من سرق قطعناه، ومن زنى جلدناه؛ فإن كانت له امرأة رجمناه. فصاح به قارون: وإن كنت أنت! فقال: نعم، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة البغي! فقال "عليّ بها، فجاءت وقال لها موسى: يا فلانة، أنا فعلت ما يقول هذا؟ فقالت: لا والله يا نبي الله؛ وإنما جعل لي جُعلاً حتى أؤذفك بنفسى؛ فسجد موسى يبكي ويتضرع، فأوحى الله إليه: مر الأرض بما تشتهي، فقال: يا أرض، خذيه - يعني قارون - فأخذته حتى غيبت بعضه، ثم لم يزل يقول: خذيه وهو يغيب حتى لم يبق من جسده إلا القليل؛ وهو يتضرع إلى موسى ويسأله وهو يقول: خذيه، إلى أن غاب.

قال ابن الجوزي: وهو يناشده الرَّحِمَ فما رَحِمَ، فأوحى الله إلى موسى: ما أقطعك، وعزّتي لو أستغاث بي لأغثته.

قيل: ولما خُصِفَ به، قال بعض الجهال من بني إسرائيل: إنّما قصد موسى أخذ داره وكانت مبنية بالذهب والفضة، فسأل الله فخسف بداره.

وقيل: أراد بداره منزله، والعرب تُسمّي المنزل داراً، هذا قول من زعم أنهم كانوا في التيه إذ ليس ثم دور. والقول الآخر قول من زعم أن الواقعة كانت بمصر.

٢٠- والنَّطْفُ عَثْرٌ عَلَى فَضْلٍ مَا رَكَزَتْ

الفضل ها هنا: بقية الشيء.

والرَّكَزَةُ والرَّكَاز: دفينٌ مال الجاهلية. وفي الحديث: "في الرِّكَاز الخمس".

[النَّطْفُ]

والنَّطْفُ: رجلٌ من العرب أصابَ مالا فُضِرَ به المثل. واختلفت الأقوال فيه، فبعضٌ مَنْ لا يعرف حقيقة أمره يقول: هو رجل كان يسقي الماء على ظهره، فكان ينطفُ -أي يقطر- فُسَمِيَ النَّطْفُ، ووجد خبيثة من المال، فعظم حاله واستغنى بعد فقره. وبعضهم يقول: النَّطْفُ الرجلُ المتهم، كان الفقير يجدُّ المال الكثير فيقصد إخفاءه فيتهم ويظهر عليه. والصحيح ما ذكره البلاذري؛ أنه النَّطْفُ بنُ خَيْرِيٍّ^(١) بن حنظلة اليربوعي؛ كان مقيماً بالبادية مع بني تميم، وكان باذاً عامل كسرى على اليمن يحمل ثياباً من ثياب اليمن وذهباً ومسكاً وجوهرًا، ويرسله إلى كسرى مع خُفراء من بني الجعد المرارين إلى أن يصل إلى أرض بني تميم، فيبعث معها هَوْدَةً من يجاوزها أرض بني تميم، فلما كان في بعض السنين في أرض بني حنظلة تعرض لها بنو يربوع، فأغاروا عليها، وقتلوا مَنْ بها من العرب والأساورة^(٢)، وكان فيمن فعل ذلك ناجية بن عقال، والحارث بن عُقبة، والنَّطْفُ بن خيرِيٍّ، وكانوا فرسان بني تميم، فنهبوا الأموال، فحصل النَّطْفُ على شيء كثير، من جملة خُرْجان مملوءان مناطق ذهباً محلاًةً بالجواهر النفيسة، فباعها متفرقة، وضرب المثل بما أصابه.

وقيل: إنه فرَّق على الفقراء من عشيرته منذ طلعت الشمس إلى أن غابت، وفي ذلك

يقول بعض ولده:

أبي النَّطْفُ المَبَارِي الشَّمْسَ، إِنِّي عَرِيقٌ فِي السَّامَةِ وَالْمَعَالِي
وَمَاتَ النَّطْفُ حَتْفَ أَنْفِهِ بَعْدَ أَنْ جَرَتْ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْفَرَسِ بِسَبَبِهِ حُرُوبٌ عَظِيمَةٌ.

٢١- وَكِسْرَى حَمَلٌ غَاشِيَتَكَ

وكسرى^(٣) لملوك الفرس، وقيصر للروم، وخاقان للترك، وتَّبَعَ لحمير، والنَّجَاشي

للحبشة.

(١) ط: "جبر" تصحيف.

(٢) في ط: "والفرس".

(٣) ط: "إسم لملوك الفرس"؛ وما أثبتته من ت، م.

وآختلف في نسب الفُرس على أقوال؛ أحدها أنه فارس بن سام بن نوح، وقيل: فارس ابن أفريدون بن إسحاق عليه السلام.

وكان في العرب مَنْ يفتخر بفارسَ على قحطان، والفرس تقول^(١): إنه ابن كيومرث، وكيومرث، وكيومرث عندهم آدم عليه السلام، وإنه أول مَنْ ملك الفرس؛ وكان منفرداً عن العالم، وليس في زمانه ظلم ولا فساد، فكثُر البغي والظلم، فأجتمع إليه حكماء أهل زمانه وقالوا: إنَّ صلاح هذا العالم في إقامة ملكٍ يُورد الأمور ويُصِدِّرها، كما أن صلاح الجسد بالقلب، وأن العالم الصغير من جنس العالم الكبير؛ لا تستقيم أموره إلا برئيس يُدبِّره على ما تقتضيه قضايا العقول، فصاروا إلى أن كيومرث^(٢)، فقالوا: أنت أفضلنا، وبقية أبنينا آدم عليه السلام؛ ولا بد من تقديمك علينا وتفويض أمورنا إليك. فأخذ عليهم العهود والمواثيق على السمع والطاعة، ووضع التاج على رأسه تمييزاً له. وهو أول مَنْ لبسه، ثم خطب بالسرانية وهو لسان آدم عليه السلام، ويُقال: لو ترك كل أحد من بني آدم لتكلم بالسرانية بالطبع، فتكلم بكلام معناه الشكر والدعاء، والمعونة والهداية؛ وأقام مدة طويلة يدبر الملك. وتوفي وملك بعده أوشهنج؛ وملوك الفرس تُنسب إليه.

وللفرس مبالغاتٌ عظيمة في وصف كيومرث، ومنهم مَنْ يزعم أنه آدم نفسه، وأنه خلق من الرِّيباس وعاش ألف سنة.

وكسرى، يقال بفتح الكاف وكسرهما، وجمع جمعين على قياس الأكاسرة، والكُسور؛ وذلك أن حدَّ "الأفعلة" أن يكون جمع "الأفعال"، مثل إسكاف وأسأكفة؛ وأما الكسور فإنه جمع بتقدير طرح الألف مثل: جذع، وجذوع. قال الأعشى:

* إنه كائن أباً للكسور^(٣) *

[كسرى أنوشروان]

والمراد ها هنا كسرى أنوشروان، فإنه أشهر ملوك الفرس وأحسنهم سيرةً وأخباراً، وهو كسرى أنوشروان بن قُباد بن فيروز. وفي أيامه وُلد النبي ﷺ، وقال: "وُلِدْتُ في زمن الملك العادل" - يعني كسرى.

وكان ملكاً جليلاً محبباً للرعايا، تام التدبير، فتح الأمصار العظيمة في الشرق، وأطاعته الملوك. وتزوج ابنة خاقان ملك التُّرك.

(١) ط: "يقولون".

(٢) ط: "فارس بن كيومرث".

(٣) هو أعشى قيس، ملحق ديوانه ٢٤٥.

وقتل مَزْدَك وأصحابه؛ وذلك أن قُبَاذ كان قد بايع رجلاً زنديقاً يُسَمَّى مَزْدَك، أحدث مقالات في إباحة الفروج والأموال وقال: إنَّما الناس فيها سواء. وكان لا يسفك، ولا يأكل اللحم. وإنه دخل يوماً على قُبَاذ وعنده زوجته أم كسرى - وكانت من أحسن النساء، وعليها حلَى عظيمة - فأعجبته فقال لقبَاذ: إني أريد أن أنكِحها لأنَّ في صُلبي نبياً يكون منها، فأطاعه قُبَاذ لقوله بمقالته، فلما همَّ مزدك بها - وكان كسرى صغيراً - قَبْل قدميه، وتضرع له في ألا يفعل، فوهبها له، فأول ما ولَّى كسرى بعد موت أبيه قتل مَزْدَك وأصحابه. فعظم في عَيْن الفرس وأحبَّوه.

وسلك سيرة أردشير، وتوطدت مملكته، وبنى المباني المشهورة: منها السور العظيم^(١) على جبل الفتح عند باب الأبواب، وأقام الحرس، وحسم المادة من فساد مَنْ خلفه.

ومنها المدينة التي سماها باسم رومية. ومنها الإيوان العظيم الباقي الذكر، وليس هو المبتدئ لبنائه، وإنما المبتدئ به سابور، وهو الذي رفعه وأتمه وأتقنه حتى صار من عجائب الدنيا، وكان انشقاقه من المعجزات النبوية [والخصائص المحمدية]^(٢)، يروى أن الرشيد هارون أراد هدمه، فاستشار يحيى بن خالد البرمكي، فنهاه، وقال: في بقاءه معجزة باقية. فقال الرشيد: بل أبيت إلا تعصباً لأبائك - يعني الفرس - فأمر بهدمه، فصرف^(٣) على هدم شُرْفَة واحدة مَالاً كثيراً، فكف عنه. فقال يحيى: أرى الآن أن تهدمه لئلا يُتحدَّث عنك أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك، فتغافل عن قوله وتركه.

وحكي عن بعض رسل الملوك أنه دخل على كسرى، فرأى في الإيوان أعوجاجاً، فسأل عنه، فقيل له: إنه بيتٌ لعجوز فقيرة، سألها الملك ببيعها فأمتنعَتْ، فأرغبها في مال كثير فلم تفعل، فتركها وبنى الإيوان على ما هو عليه. فقال الرسول: هذا الاعوجاج أحسن من الاستواء.

ويروى أن العجوز بعد بناء الإيوان نزلت للملك عن البيت، وقالت: إنما أردتُ بامتناعي أولاً أن يتحدَّث الناس بعدلك، وتكون لك هذه المأثرة الظاهرة. ثم صنع كسرى في الإيوان سلسلة عظيمة ذات أجراس، وجعل لها طرفاً خارجاً عن القبة، وأمر مناديه: مَنْ كان

(١) ط: "العظيم الباقي الذكر".

(٢) م ط.

(٣) كذا في ط، وفي ت، م: "فخرج".

مظلوماً فليحرِّك السلسلة؛ ليعلم به الملك فيزيل ظلامته. قال العسكري: وهذا هو الأصل في قول الناس: حرَّك فلانٌ على فلان السلسلة؛ إذا وشى به.

وَحُكِّيَ أَنَّهُ كَانَ جَالِساً بِالْإِيوان، وَإِذَا بَحِيَّةٌ قَد دَنَتْ مِنْ عَشٍّ حَمَامَةٍ فِي بَعْضِ شَرَفٍ^(١) الْإِيوان لِتَأْكُلَ فَرَاخَهَا، فَرَمَى الْحِيَةَ بِسَهْمٍ أَوْ بِنْدَقَةٍ فَقَتَلَهَا، فَقَالَ: هَكَذَا نَفْعَلُ بَعْدُ مَنْ اسْتَجَارَ بِنَا. فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ جَاءَتِ الْحَمَامَةُ بِحَبٍّ فِي مَنْقَارِهَا فَأَلْقَتْهُ إِلَيْهِ، فَأَخَذَهُ، وَقَالَ: ازْرِعُوهُ، فَزَرَعُوهُ، فَنَبَتَ رَيْحَانٌ لَمْ يَكُن يَعْرِفُهُ^(٢)، فَقَالَ: نَعَمْ مَا كَافَأْتُنَا بِهِ الْحَمَامَةُ، نَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي أَلْهَمَهَا أَنْ يُلْهِمَنَا الْإِحْسَانَ إِلَى رَعِيَّتِهِ، وَالشُّكْرَ عَلَى نِعْمِهِ.

وُخِّصَ كَسْرَى بِأَشْيَاءَ لَمْ تَكُنْ لغيره مِنَ الْمُلُوكِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ كَثِيرٌ مِنَ الرُّوَاةِ. مِنْهَا الْفِيلُ الْأَبْيَضُ لِرُكُوبِهِ، طُولُهُ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعاً، وَقِطْعَةُ الْيَاقُوتِ الْمَسْمُومَةِ "لِسَانُ الثَّورِ" تُضِيءُ بِاللَّيْلِ أَكْثَرَ مِنَ السَّرَاجِ^(٣) وَالْفُلْهَيْدِ الْمَغْنِيِّ وَاضَعَ الْعُودَ الْخِرَاسَانِيَّ عَلَى اثْنِي عَشَرَ وَتَرَ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ بِهِ خَرَجَ الْهَوَاءِ. وَكَانَ يُعْمَلُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ مَعَ طَعَامِهِ مُهْرٌ مِنَ الْخَيْلِ، وَعِنَاقُ زُرْقَاءَ مَغْدَاةٍ بِأَلْبَانِ النَّعَاجِ، يُذْبِحَانِ بِسُكَيْنٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَيَسْجُرُ التَّنُورَ بِالْعُودِ، وَيَسْمَطُ بِالْخَمْرِ الْمَغْلِيِّ، وَيُطْلَى بِالْمِسْكِ وَالْمَلْحِ، وَيَعْلَقُ فِي سَفُودٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَنَارَجِينَ مِنْ ذَهَبٍ، فَإِذَا بَرَدَ حُمِلَ فَوُضِعَ عَلَى خَوَانٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَيَقْدَمُ إِلَيْهِ فَيَأْكُلُ أَكْثَرَهُ، وَيَتَحَفُّ بِالْبَقِيَّةِ مِنْ أَحَبِّ مَنْ نَدَمَائِهِ، وَيَكْسِرُ التَّنُورَ وَيَجَدِّدُ كُلَّ يَوْمٍ مِثْلَهُ.

وَاجْتَمَعَ عَلَى بَابِهِ سَبْعُونَ مَلِكاً. وَلَهُ حِكَايَاتٌ حَسَنَةٌ مَذْكُورَةٌ فِي سِيرِهِ: فَمِنْهَا أَنَّ عَامِلاً لَهُ عَلَى نَاحِيَةٍ كَتَبَ إِلَيْهِ يَعْلَمُهُ بِجُودَةِ الرَّبِيعِ، وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي الزِّيَادَةِ عَلَى الرَّسْمِ، فَأَمْسَكَ عَنْ إِجَابَتِهِ، فَعَاوَدَهُ الْعَامِلُ فِي ذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: قَدْ كَانَ فِي تَرْكِي إِجَابَتِكَ عَنْ كِتَابِكَ مَا حَسِبْتُكَ تَنْزِجُ بِهِ عَنْ تَكْلِفٍ مَا لَمْ تَوْمَرْ بِهِ، فَإِذْ قَدْ أَبَيْتَ إِلَّا تِمَادِيّاً فِي سُوءِ الْأَدَبِ، فَأَقْطَعُ إِحْدَى أُذُنَيْكَ، وَأَكْفِفُ عَمَّا لَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ. فَقَطَعَ الْعَامِلُ أُذُنَهُ، وَسَكَتَ عَنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ.

وَمِنْهَا أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِهِ كَانَ يَقُولُ: مَنْ يَشْتَرِي ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ بِأَلْفِ دِينَارٍ؛ فَتَطِيرَ مِنْهُ النَّاسُ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى كَسْرَى، فَأَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: لَيْسَ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ خَيْرٌ. فَقَالَ كَسْرَى: هَذَا صَحِيحٌ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: وَلَا بَدَّ مِنْهُمْ، قَالَ: صَدَقْتَ، ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: فَلَبَسَهُمْ عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ، فَقَالَ كَسْرَى: قَدْ اسْتَوْجَبْتَ الْمَالَ فَخَذَهُ. قَالَ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، وَإِنَّمَا أُرِدْتُ أَنْ أُدْرِيَ مَنْ يَشْتَرِي الْحِكْمَةَ بِالْمَالِ.

(١) ط: "شقوق".

(٢) ط: "يعرفونه".

(٣) ت: "السروج".

وَيُرَوَّى أَنَّهُ أَوَّل مَنْ جَعَلَ لِنَدَمَائِهِ أَمَارَةً يَنْصَرِفُونَ بِهَا مِنْ مَجْلِسِهِ إِذَا أَرَادَ [أَنْصَرِفَهُمْ] ^(١)، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَمْدُ رَجُلَهُ، فَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ يَرِيدُ قِيَامَهُمْ فَيَنْصَرِفُونَ، وَتَبِعَهُ الْمُلُوكُ. وَكَانَ فَيُرَوِّزُ الْأَصْغَرَ كَذَلِكَ يَدُلُّكَ عَيْنُهُ، وَكَانَ بِهَرَامٍ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ. وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ مَعَاوِيَةَ يَقُولُ: الْعِزَّةُ لِلَّهِ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ [بْنُ مَرْوَانَ] يَلْقِي الْمَحْضَرَةَ مِنْ يَدِهِ، وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو. وَحُدِّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَ بَعْضِ الْبُخْلَاءِ، وَسُئِلَ مَا أَمَارَتُهُ؟ قَالَ: إِذَا قُلْتَ: يَا غَلَامُ، هَاتِ الطَّعَامَ.

وَمِنْ كَلَامٍ كَسَرَى: الْقُلُوبَ تَحْتَاجُ إِلَى أَقْوَاتِهَا مِنَ الْحِكْمَةِ كَمَا تَحْتَاجُ الْأَبْدَانُ إِلَى أَقْوَاتِهَا مِنَ الْغِذَاءِ.

وَوَقَّعَ فِي قِصَّةِ رَافِعٍ ^(٢): إِنْ الْمُلُوكُ إِذَا دَبَّرَتْ مَلِكُهَا بِمَالٍ رَعِيَّتُهَا كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَعْمُرُ سَطْحَ بَيْتِهِ بِمَا يَنْقُضُهُ مِنْ أُسَاسِهِ.

وَكُتِبَ بِاللُّؤْلُؤِ عَلَى مَائِدَةٍ مِنَ الذَّهَبِ: لِيَهْنَتْهُ طَعَامٌ مَنْ أَكَلَهُ مِنْ حِلِّهِ، وَعَادَ عَلَى ذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْ فَضْلِهِ. مَا أَكَلْتَهُ وَأَنْتَ تَشْتَهِيهِ فَقَدْ أَكَلْتَهُ، وَمَا أَكَلْتَهُ وَأَنْتَ لَا تَشْتَهِيهِ فَقَدْ أَكَلْتَهُ. وَقِيلَ لَهُ: مَا أَعْظَمَ الْكُنُوزَ قَدْرًا، وَأَنْفَعَهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ: مَعْرُوفٌ أَوْدَعْتَهُ عِنْدَ الْأَحْرَارِ، وَعِلْمٌ أَوْرَثْتَهُ الْأَعْقَابَ.

وَقَالَ: احْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ، وَاللَّيْمَ إِذَا شَبِعَ.

٢٢- وَقَيْصَرُ رَعَى مَاشِيَتَكَ

قَيْصَرٌ: سِمَةٌ لِمُلُوكِ [الرُّومِ] ^(٣)، وَسَمَوْا الرُّومَ لِأَنَّهُمْ يُنْسَبُونَ ^(٤) إِلَى رُومِ بْنِ الْعِيصِ ابْنِ إِسْحَاقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ يَنْسَبُونَ ^(٥) إِلَى رُومِيَّةَ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ؛ لِأَنَّ رُومِيَّةَ بَنِيَتْ بَعْدَ ظَهْوَرِهِ بِكَثِيرٍ؛ وَكَانَ يُقَالُ لَهَا: رُومَاسُ؛ فَلَمَّا سَكَنُوهَا نُسِبَتْ إِلَيْهِمْ. وَقَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ: وَلَدَ إِسْحَاقُ ثَلَاثِينَ وَلَدًا مِنْهُمْ الرُّومُ؛ وَكَانَ أَصْفَرُ اللَّوْنِ، فَقِيلَ لَوْلَدَهُ: بَنُو الْأَصْفَرِ.

وَقِيلَ: غَارَتْ عَلَيْهِمُ الْحَبْشَةُ، فَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ أَخَذْنَ مِنْ بِيَاضِ الرُّومِ وَسَوَادِ الْحَبْشَةِ؛ فَكَانَ صُفْرًا لُغْسًا؛ فَنُسِبُوا إِلَيْهِنَّ.

(١) من ط.

(٢) د: "مرافع".

(٣) تكملة من د، م.

(٤) م: "يتنسبون".

(٥) م: "منسوبون".

[قيصر بن أنطرس]

وأول مَنْ سُمِّيَ منهم قيصر، قيصر بن أنطرس^(١)؛ واسمه قيصر؛ لأن أمه كانت حاملاً به؛ فتعسّرت ولادتها، فشقّ بطنها، وأُخرج - فكان يفتخر^(٢) على الناس بأن النساء^(٣) لم تلده - وقيل: "قيصر"؛ فصار اللقب سمة ملوك الروم بعده.

وكان جباراً عاتياً، وهو أول مَنْ جمع مملكة الروم واليونان؛ وذلك أن أباه أنطرس لما بلغه أن ملوك اليونان قد انقضوا ولم يبق غير امرأة تُسمّى قلوبطرة أرسل إليها يخطبها - وكان قد ملك طرفاً من أطراف البلاد - يقول: قصدي أن تصير المملكتان واحدة، وأقرب منك لفضلك وعقلك؛ فعلمت أنها مغلوبة، فأجابته وقالت: تقيم في مكانك إلى يوم بعينه، فأقام. وفكرت في حيله تحتال بها عليه، فرأت أن تهلك نفسها، وتهلكه فيها، ولا يتمكن منها، فعمدت إلى حية تكون في الرمل، تضرب الإنسان فيهلك في لحظة؛ فجعلتها في إناء من زجاج، وزينت قصرها، وفرشت مجلسها بالرياحين؛ ولبست تاجها، وجلست على سريرها، وأستدعت به، فلما دخل باب القصر، أخرجت الحية، فضربت بها فماتت، وأنسابت الحية في رياحين حولها، ودخل أنطرس إلى السرير؛ ولم يشك أنها في عافية، فجلس إلى جانبها، وعبث في الرياحين، فضربته الحية فمات. وكان ابنه معه في جيشه، فسمع بموتهما، فاستولى على بلاد الروم واليونان.

وهو الذي بني قيسارية الروم - وقيل قيسارية الشام - وأقام في الملك خمسين سنة. ومن طريف^(٤) أخبره أنه كان إذا أراد أن يستشير أحداً من عقلاء دولته أرسل إليه نفقة سنة؛ ليوفّر ذهنه على الرأي.

ومن بعده اختلفت الروم، فتقاسموا البلدان والأطراف إلى ظهور الإسلام. وقيصر هذا أعظم ملوكهم.

ومن كلامه: ما الحيلة فيما أعيا إلا الكف عنه، ولا الرأي فيما لا يُنال إلا اليأس منه.

(١) م: "انطوطلس".

(٢) م: "يتبختر"، والوجه ما أثبتته من ت.

(٣) م: "إنسا".

(٤) ت: "طريف".

٢٣- والإسكندر قَتَلَ دَارًا فِي طَاعَتِكَ

هو الإسكندر بن فيلبس اليوناني^(١)، وأختلف في أصل اليونان، فقال ابن الكلبي: هو يونان بن بقيّة، ونسبه إسحاق.

وقال يعقوب الكندي: يونان أخو قحطان، من العرب من ولد عابر، خرج من اليمن ونزل ديار المغرب، وأقام فيها، واستعجم لسانه، وتكلم بلغة مَنْ هناك من الروم. وقال الرّقاشي -وهو الأشهر: إن يونان بن يافث بن نوح، وليس من العرب ولا من الروم، وإنما جاور الروم على ساحل البحر الروميّ، وكان وسيماً، حسن العقل، كبير الهمّة، فأقام هناك حتى كثر ولده؛ فخرج يطلب مكاناً يسكنه، فانتهى إلى مدينة بالمغرب يقال لها: إقليبيّة^(٢)، فبنى بها قصوراً، وأقام وكثر نسله، ولما احتضر أوصى إلى ولده الأكبر وصية حسنة، ثم مات فاستولى ولده الأكبر على بلاد المغرب من ناحية إفرنجة والصقالبة ومَنْ جاورهم، ولما ظهر^(٣) بختنصر على مصر دخل المغرب، ووصل إلى بلاد اليونان وقرر عليهم أن يؤدّوا الخراج إلى ملوك فارس، واستقرّ ذلك إلى أيام الإسكندر.

[الإسكندر بن فيلبس]

وأما الإسكندر فأخْتَلَفَ في نسبه، فقليل: إنه الإسكندر بن فيلبس، من ولد يونان، وهو الأصح.

وقيل: هو الإسكندر بن الصّعب، كان أبوه نَسَاجاً، واسم أمه هيلانة، وكان يتيماً في حَمِير، وسمعت أمه بيت الصنائع -وهو بيت وضعته اليونان في القسطنطينية- وصوّرت فيه الصنائع لتُعرض على الصبيان، فَمَنْ تَاقَت نفسه لصنعة اشتغل بها -فحملته أمه فشاهد صور الأشياء، فوضع يده على تاج الملك -فنهته أمه مراراً فلم يته؛ فنظر إليها متولّي بيت الصنائع، وقال: أنتِ هيلانة؟ قالت: نعم. قال: وهذا أبْنُكَ؟ قالت: نعم، فقال له: أبشِر فأنت الملك الذي يسحب ذيله في البلاد.

وهذا قول مردود؛ لُبْعِد ما بين حَمِير واليونان؛ ولأن القسطنطينية بُنيت بعد رفع عيسى ~~عليه السلام~~ بزمان، وإنما انقرضت دولة اليونان عند ظهور عيسى.

(١) م: "فيليفوس".

(٢) إقليبيّة، ذكرها ياقوت. وقال: إنها حصن منبع بإفريقية.

(٣) م: "ولما دخل".

والصحيح أنه الإسكندر بن فيلبس^(١)، وسُمِّيَ ذا القرنين تشبيهاً بذِي القرنين المذكور في الكتاب العزيز؛ لبلوغ ملكه قرْنَيَّ الشمس من المشرق والمغرب، وهو صاحب أرسطاطاليس الحكيم، كان أبوه أسلمه إليه، فأقام عنده خمس سنين يتعلَّم منه الحكمة والآداب، فنال منه ما لم ينل أحد من تلامذته، ومَرَضَ أبوه، فخاف على المُلْك فاستردَّه وعُهِدَ إليه.

[دارا الأصغر ابن دارا الأكبر]

وأما دارا فهو دارا الأصغر ابن دارا الأكبر بن أَرْدَشِير، أحد ملوك الفرس العظماء المشهورين، كانت له قطعة على أبي الإسكندر؛ في كل سنة ألف بيضة من الذهب، في كل بيضة ألف مثقال، على عادة آبائهم، فلما ملك الإسكندر آخر إرسال القطيعة، فكتب إليه دارا يتهدَّده ويتوعده حيث آخر الإتاوة، وبعث إليه بكرةً وصُولجان، وخرقة فيها سمسم، وقال: أنت صبي، فألعب بهذه الكرة، فإن أدَّيت الإتاوة وإلا بعثت إليك بجنود عدد هذا السمسم، وأتيت بك في وثاق.

فكتب إليه الإسكندر: أما بعد، فقد تيمَّنت بالكرة والصولجان، فإن الدنيا مثل الكرة وسألعب بها، وأضيف ملكك إلى مُلكي. وأما السمسم فقد تيمَّنت أيضاً به، لأنه بعيد عن الحرافة^(٢) والمرارة. وأما الدجاجة التي كانت تبيض ذاك البيض فقد ذبحتها، وأكلت لحمها.

فغضب دارا، وسار إليه بجموعه، وسار الإسكندر بجموعه، والتقيا على نصيبين الجزيرة، فلما هم دارا بالقتال بعث إليه الإسكندر يقول لها: أيها الملك، لا تفعل؛ فإن دماء الملوك لا تجوز إراقتها، وهدم البيوت القديمة غير محمود، والبغي ذميم العقبي، والحرب غير مأمونة العاقبة، وأصحابك قد ملُّوك وكرهوك لسوء سيرتك، فارجع فإنك تحمد قولي. فلم يلتفت إليه دارا، وأقاما يتحاربان مدة. ثم إن الإسكندر دبَّر حيلة، وهو أنه لما وقع الملل بين الفريقين برز منادي الإسكندر فقال: يا معشر الفرس، قد علمتم ما كان من مكاتبتكم لنا، وما كتبنا لكم^(٣)، من الأمان؛ وقد طال القتال؛ فمن كان منكم على غير^(٤) قتال فليعتزل، وله الوفاء بالعهد.

(١) م: "فيلوفوس".

(٢) الحرافة، بفتح الحاء: طعم يحرق اللسان والفم.

(٣) ت: "ومكاتبتنا لكم".

(٤) د: "على العهد".

فاتهمت الفرس بعضها بعضاً واضطربوا، فكان ذلك من أسباب خذلان دارا. ثم وثب على دارا رجلا من أصحابه قطعناه من خلفه فوق، وكان الإسكندر نادى: مَنْ ظَفَرَ بدارا فلا يقتله، فجاء الرجلان إلى الإسكندر، فقالا: قد قتل دارا، فجاء فنزل عن فرسه وقعد عند رأسه وبه رَمَق، فقال: واللّه ما هممتُ بقتلك، ولقد نهيْتُ عنه، ولقد يعزّ عليّ مصابُك فأسألني حوائجك. فقال: تقتل فلاناً وفلاناً اللذين قتلاني، فإني كنتُ محسناً لهما، وتزوج ابنتي روشنك. فقال: سمعاً وطاعة، وأحضر الرجلين فقتلتهما، وقال: هذا جزاء مَنْ يتجرأ على ملكه؛ وتفرق ملك الفرس.

ثم سار الإسكندر إلى بابل وجلس على سرير دارا، واستولى على خزائنه وجواهره، وسلاحه، وتزوج ابنته روشنك. وقيل: إنها كانت زوجة دارا وهي ابنته، ولم يكن في زمانها أحسن منها. وقيل: إن الإسكندر لم يجتمع بها، وقال: أخشى أن أكون غلبت دارا وتغلبنني روشنك.

ولما استولى على ملك فارس عرض جيشه وجيش الفرس فكانوا ألف ألف - وقيل أكثر - وشرع في هدم بيوت النيران، وقتل الموابذة، وكتب إلى أرسطاطاليس يستشيريه فيمن بقي من عظماء الفرس بهذا الكتاب:

أما بعد، فإن دوائر الأسباب، ومواقع الفلك؛ وإن كانت أسعدتنا بالأمر التي أصبح لنا بها الناس دائنين، فإننا مضطرون إلى حكمتك، وغير جاحدين لفضلك، والاجتباء^(١) لرأيك؛ لما بلونا من جدّا ذلك علينا، وذقنا من جنى منفعته؛ حتى صار ذلك بتجرعه فينا^(٢)، وترشيحه لعقولنا كالغذاء لنا؛ فما نفكّ نعوّل عليه، ونستمد منه استمداد الجداول من البحار، وقوة الأشكال بالأشكال، وقد كان مما سبق إلينا من النصر وبلغناه من النكاية في العدو ما يعجز القول عن وصفه، والشكر على الإنعام به؛ وكان به ذلك أنّا جاوزنا أرض الجزيرة وبابل إلى أرض فارس، فلما نزلنا بأهلها لم يكن إلّا ريشما تلقّانا نفران منهم بقتل ملكهم طلباً للحظوة عندنا، فأمرنا بصلبهما لتجرؤهما وقلة وفائهما، ثم أمرنا بجمع مَنْ هنالك من أبناء ملوكهم، وذوي الشرف منهم، فرأينا رجالاً عظيمة أجسامهم وأحلامهم، دلنا ما ظهر من رؤائهم^(٣) على أن وراءه من قوة بأسهم ما لم يكن معه^(٤) سبيل إلى غلبتهم؛ لولا أن القضاء أدالنا

(١) م: "الاجتباء"، د: "الاحتباء". والاجتباء: الاختيار.

(٢) بتجرعه فينا، يريد استساغتهم هذا الأمر ورضاهم عنه.

(٣) د: "يدل"؛ والرواء: المنظر الحسن.

(٤) ت: "معهم"، والأصوب ما أثبتته من د، م.

منهم^(١). ولم نر بعيداً من الرأي أن نستأصل شأفتهم، ونلحقهم بمن مضى من أسلافهم؛ لتسكن بذلك القلوب إلى الأمن من جرائرهم؛ ورأينا ألا نعجل ببادة الرأي في قتلهم دون الاستظهار بمشورتك فيهم؛ فارفع إلينا رأيك فيما استشرناك، بعد صحته عندك، وتقليبه على نظرك؛ على عادة أرائك المسعفة. وسلام على أهل السلام؛ فليكن عليك وعلىنا.
فكتب إليه أرسطاطاليس:

إلى الإسكندر المؤيد المهديّ له الظفر من أصغر خَوَلِه أرسطاطاليس. أما بعد، فقد تقرر عندي من مقدمات^(٢) فضل الملك ويمن نقيته، وبروز شأوه، وما أدت إليّ حاسة بصري من صورة شخصه، ووقع في فكري على تعقب رأيه، أيام كنت أؤدي إليه من تعليمي إياه ما أصبحت قاضياً على نفسي بالحاجة إلى تعلّمه منه. وقد ورد كتاب الملك بما رسم لي فيه، وأنا فيما أشير به على الملك حد الطاقة معه كالعدم مع الوجود؛ ولكن غير ممتنع من إجابته، فأقول:

إن لكلّ تربة لا محالة قسماً من كل فضيلة، وإن لفارس قسمتها من النجدة والقوة، وإنك إن تقتل أشرافهم يخلف الوضعاء منهم، وترث سفلتهم منازل عليّتهم، وتغلب أدنياؤهم على مراتب ذوي أخطارهم؛ ولم تبتل الملوك قط ببلاء هو أعظم عليهم من غلبه السفلة، وذُلّ الوجوه؛ وأحذر الحذر كلّ أن تمكن تلك الطبقة من العلية؛ فإن نجم منهم ناجم على جندك وأهل بلادك دهمهم ما لا روية فيه، ولا منفعة معه. فأنصرف عن هذا الرأي إلى غيره، وأعمد إلى من قبلك من العظماء والأحرار فوزّع بينهم مملكتهم، وألزم اسم الملك كل من وليّته منهم ناحية، واعقد التاج على رأسه وإن صغر ملكه؛ فإن المتسمّى بالملك لازم لاسمه، والمنعقد له بالتاج لا يخضع لغيره، ولا يلبث ذلك أن يوقع بين كل ملك منهم وبين صاحبه تدابراً وتغالبا على الملك، وتفاخراً بالمال؛ حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك، ويعود بذلك حربهم لك حرباً بينهم، ثم لا يزدادوا في ذلك بصيرة إلا أحدثوها لك استقامة لك؛ فإن دنوت منهم كانوا لك، وإن نأيت عنهم تعزّزوا بك؛ حتى يشب كل منهم على جاره بأسمك، وفي ذلك شاغل لهم عنك، وأمانٌ لإحداثهم بعدك؛ ولا أمان للدهر؛ وقد أدّيت للملك ما رأيته لي حظاً، وعليّ حقاً، والملك أبعد روية، وأعلى عيناً، فيما استعان بي عليه. والسلام الأبدي فليكن على الملك.

(١) أدالنا منهم؛ أي جعل دولتنا عليهم.

(٢) ت: "تقدمات".

فلما ورد كتاب أرسطاطاليس على الإسكندر تأمله، وعرف الحق، وفرّق القوم في الممالك كما ذكر، فسُمّوا ملوك الطوائف.

وسار الإسكندر إلى الشرق، فدانت له الملوك، وبنى مدينة أصبهان وهراة وسمرقند، ولما وصل إلى الهند خرج إليه ملكها في ألف فيل عليها المقاتلة، وفي خراطيمها السيوف الهندية، فلم تثبت خيل الإسكندر، فصنع الإسكندر فيلة من نحاس مجوفة، وربط خيله فيها حتى ألفتها، وملأها نبطاً وكبريتاً، ثم ألبسها السلاح وجرها على العجل إلى ناحية العدو، وبينها الرجال؛ فلما نشبت الحرب أمر بإشعال النار في أجوافها، فلما اشتعلت تنحى الرجال عنها، وغشيتها فيلة الهند فضربت بها بخراطيمها، فأحرقت الرجال واحترقت، فمن سلم ولّى هارباً، فكانت الدائرة على ملك الهند.

ولما وصل الإسكندر إلى المانكير - وهو من ملوك الصين - خرج إليه الملك، وأرسل إليه يقول: علام نفني العالم! أبرز إليّ، فإن قتلتنني كنت أنت الملك، وإن قتلتك كنت أنا الملك. فتيمن الإسكندر بكونه بدأ بنفسه في ذكر القتل، فبرز إليه فقتله الإسكندر. ثم توغل في بلاد الصين إلى مقر ملكها الأكبر. [وجرت لهما أخبار طويلة اصطلاحاً فيها على مهادنات ومهاداة]^(١)؛ فبينما هو في بعض الليالي جالس نصف الليل؛ إذ بالحاجب قد دخل فقال: رسول من ملك الصين بالباب، فأذن له فدخل، فقال له: قل، فقال: الأمر الذي جئت فيه لا يحتمل إلا الخلوة، فأمر بتفتيشه فلم يجد معه حديداً. فأخلي المجلس، وبقي هو وإياه، فقال له: قل، فقال: أنا ملك الصين. قال: وما الذي أمنتك^(٢) مني؟ قال: ليس بيني وبينك عداوة ولا ذحل^(٣)، وبلغني أنك رجل حكيم عاقل حليم، ولو قتلتنني لم تظفر بطائل مني؛ فإنهم يقيمون غيري، وتنسب إلى الغدر؛ فأخبرني ما الذي تريد مني؟ قال: ارتفاع ملكك ثلاث سنين أجلاً، ونصف ارتفاعها عاجلاً. قال: لقد أجحفت؛ فما زال ينقصه حتى اقتصر على سدس الإرتفاع، ثم قام مسرعاً، فخرج.

وبات الإسكندر ليلته يفكر في أمره، فلما طلع الصباح، إذا بملك الصين قد أقبل في جيش طبق الأرض، وعليه تاجه، وبين يديه الأمم، فركب الإسكندر واستعد للقتال، ثم ناداه: يا ملك الصين، أعذراً! فانفرد عن أصحابه وقال: لا، ولكن أردت أن أعرفك أنني لم أطعك عن قلة وضعف، وما غاب عنك من جنودي أكثر؛ ولكن رأيت العالم الأكبر^(٤) مقبلاً عليك،

(١) من د.

(٢) "أمنتك"، والصواب ما أثبتته من م.

(٣) ت: "دخل". والذحل: الثأر.

(٤) ت: "الكبير".

ممكناً لك ممن هو أقوى منك وأكثر عدداً، ومن حارب العالم الكبير غلب. ثم ترجّل وقبل الأرض؛ فنزل الإسكندر عن فرسه. وجلسا على سرير، فقال له الإسكندر: ليس مثلك من يؤخذ منه خراج، وقد أعفيتك. فقال الملك: أما إذ قد فعلت فلا بد من حسن المكافأة، ثم بعث إليه بضعف ما قرره عليه.

وعاد الإسكندر وقد دانت له الملوك، ودوّخت البلاد، فأقام بشهر زور أياماً؛ واحتضّر بها. وكانت مدة ملكه ست عشرة سنة. وأختلّف في عمره، فقيل: ست وثلاثون سنة، وقيل أكثر، وبين وفاته وبين الهجرة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام - ستمائة سنة. وقيل غير ذلك. ومن أراد تحرير التاريخ فيأخذه من "المختصر في تاريخ البشر" ^(١)، تأليف مولانا السلطان الملك المؤيد.

ولما حضرت الإسكندر الوفاة كتب إلى أمه كتاباً يسألها فيه أن تصنع وليمة، وتدعو نساء أهل المملكة، ولا تأذن إلا لمن لم تُصَبِّ بفقد عزيز من أهلها؛ ففعلت ذلك، فلم يدخل عليها أحد، فعلمت أنه مات، وأن ذلك تعزية لها.

ثم أوصى أن يوضع في تابوت من ذهب، ويُطلى بالأطلية الممسكة، ويُحمل إلى أمه بالإسكندرية. فلما فعل ذلك جمع أرسطاطاليس الحكماء، وأمرهم بكلام يكون للخاصة معزياً، وللعامّة واعظاً، كما فعل بالإسكندر الأول - وكانوا عشرة:

فقال الأول: أصبح مستأسر الأسرى أسيراً.

وقال الثاني: هذا الإسكندر، طوى الأرض العريضة، وهو اليوم يطوى منها في ذراعين.

وقال الثالث: العجب أن القوي قد غلبَ والضعفاء لاهون.

وقال الرابع: ما سافر الإسكندر سفراً طويلاً بلا آلة سوى سفره هذا.

وقال الخامس: سيلحق بك من سرّه موثك. كما لحقت بمن سرّك موثّه.

وقال السادس: كان يحكم على الرعيّة، فصارت الرعيّة تحكم عليه.

وقال السابع: كنت تأمرنا بالحركة، فما بالك ساكناً!

وقال الثامن: ربّ حريص على سكوتك، وهو اليوم حريص على كلامك!

وقال التاسع: كم أُمات من في هذا الصندوق كيلاً يموت، فمات.

وقال العاشر: كان الإسكندر يعظُّنا بنطقه، وهو اليوم يعظُّنا بسكوته.

وقالت أمه: مما يسلي عنه؛ المعرفة بالحق به.
وقالت روشنك: ما كنت أظن أن غالب دارا يغلب.
قلت: ومن كلام الإسكندر: السعيد من لا يعرفنا ولا نعرفه؛ فإننا إذا عرفناه أطلنا يومه،
وأطرننا نومه.

وقيل له: إنك عظمت معلمك أكثر من تعظيم والدك. فقال: لأن أبي سبب حياتي
الفانية، ومعلمي سبب حياتي الباقية.

وقال: سلطان العقل على باطن العاقل أشد من سلطان السيف على ظاهر الأحمق.
وقال: النظر في المرأة يري رسم الوجه - وفي أقاويل الحكماء: "يُري رسم النفس".
وقيل له: إن فلاناً يثلبك فلو عاقبته؟ فقال: هو بعد العقاب أعذر!
وتحاكم إليه إثنان فقال: الحكم يرضي أحدكما ويسخط الآخر، فاستعملا الحق
ليرضيكما جميعاً.

وأخضر بين يديه لص فأمر بصلبه، فقال: أيها الملك، إني فعلت ما قد فعلت وأنا
كاره. فقال: تُصلب أيضاً وأنت كاره.

وغضب على بعض شعرائه فأقصاه، وفرق ماله في أصحابه، فقيل له في ذلك، فقال:
أما إقصائي له فلجرمه، وأما تفريقي ماله في أصحابه فلكيلا يشفعوا فيه.
وجلس يوماً مجلساً عاماً فلم يُسأل فيه حاجة، فقال: والله ما أعد هذا اليوم من مُلكي،
قيل: ولم أيها الملك؟ قال: لأنه لا توجد لذة الملك إلا بإسعاف الراغبين، وأغاثة الملهوفين،
ومكافأة المحسنين.

وقال: مَنْ أَتَجَعَكَ فَقَدْ أَسْلَفَكَ حُسْنُ الظَّنِّ بِكَ^(١)

٢٤ - وَأَرْدَشِيرَ جَاهِدَ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ بِخُرُوجِهِمْ عَنْ جَمَاعَتِكَ.

[أردشير]

أردشير بن بابك، من ولد بهمن الملك أبي دارا الأكبر، وكان بهمن قد تزوج ابنته
خُماني على عادتهم، فحملت منه بدارا الأكبر، وسألته أن يعقد التاج على بطنها لولدها،
ففعل.

وكان له ولد يسمى ساسان من امرأة أخرى، فلما مات بهمن تنسك ساسان وساح في
الجبال، وعهد إلى بنيه أنه مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ فليقتل مَنْ قدر عليه من نسل دارا، وكان أردشير

(١) بعدها في ط: "وله حكم لا تُحصى وأقوال لا تُستقصى؛ أضربت عن ذكرها خوف الإطالة".

هذا من ولد ساسان - على ما ذكر بعض الرواة - وهو أول الفرس الثانية، ومعنى "الثانية" أن الإسكندر لما قتل دارا آخر ملوك الفرس، وقرق^(١) مَنْ بقي منهم وسماهم ملوك الطوائف، صارت المملكة لليونان، فلما توفي الإسكندر، وتقاصر ملك اليونان بعد مدة، تحرك أردشير - وكان أحد أبناء ملوك الطوائف على إصطخر - وخرج طالباً للملك، وأراهم أنه يطلب بثأر ابن عمه دارا، وجمع الجموع، وكاتب ملوك الطوائف بكتاب طويل أوله:

من أردشير بن بابك المستأثر دونه، المغلوب على ثراث آبائه، الداعي إلى الله، المستنصر به؛ فإنه وعد المظلوم الظفر والعاقبة. سلام عليكم بقدر ما تستوجبون من معرفة الحق، وإنكار الباطل... ثم ذكر كلاماً طويلاً، معناه الحث على المعاونة؛ فمنهم مَنْ أطاعه، ومنهم مَنْ تأخر عنه، فخرج بعساكره فقتل المتأخر، ثم عطف على بقيتهم فقتلهم وفاءً لما عهد به جده ساسان إلى بنيهِ؛ ورزقه الله الظفر والنصر، وقتل الملك أردوان مبارزة، ووطىء رأسه بقدميه، وتسمى من ذلك اليوم "شاهنشاه الأعظم"، ومعناه ملك الملوك.

ثم قام خطيباً فقال: الحمد لله الذي خصنا بنعمه، وخولنا من فضله، ومهد لنا البلاد؛ وها نحن شارعون في إقامة العدل، وإدراة الفضل، والإقبال على الرأفة والرحمة، وإنصاف الضعيف من القوي^(٢)، وسترون في أيامنا ما يصدق مقالنا بفعالنا.

ثم ساس الرعية، ورتب الممالك، وبه اقتدى الخلفاء والملوك من بعده؛ فإنه رتب الناس على طبقات:

فالطبقة الأولى الحكماء والفضلاء، وكان مجلسهم عن يمينه، وهم بطانته. والطبقة الثانية الملوك وأبناؤهم، وسماهم الخواص، ومجلسهم عن يساره. والطبقة الثالثة الإصبهذية والمرازبة^(٣)، وهم بين يديه، ولم يكن فيهم وضع ولا دنيء الأصل، ثم زادهم طبقات آخر من الوزراء، والقضاة. ورتب لكل ربع من أرباع الدنيا قوماً ينفردون بتدبيره وتحريره، ودانت له الدنيا، وتمكن من الأرض. وكان من الشجعان المشهورين في الفرس، يلقي وحده رجالاً كثيرة، ويتشبه^(٤) في قوته وشكله بأردشير الأول الذي كان يدعى طويل الباع.

وفي أيامه بُنيت المدن المشهورة كالأنبلّة، وأستراباذ وكرخ ويّسان وغيرها. ووضع له الترد تنبيهاً على أنه لا حيلة للإنسان مع القضاء والقدر، وهو أول مَنْ لعب به، ف قيل:

(١) ت: "مزق".

(٢) ت: "إنصاف القوي من الضعيف"، وصوابه من د، م.

(٣) كذا في د؛ وفي ت "وهم طبقات آخر من الوزراء والقضاة".

(٤) د: "وتشبه"، م: "ويشبه".

"نردشير". وقيل: إنه هو الذي وضعه وشبهه به تقلب الدنيا بأهلها، فجعل بيوت النرد أثني عشر بيتاً بعدد شهور السنة، وعدد كلابها ثلاثين بعدد أيام الشهر، وجعل الفصين مثلاً للقضاء والقدر وتقلبهما بأهل الدنيا، وأن الإنسان يلعب به فيبلغ بإسعاف القدر ما يريده، وأن اللاعب الفطن يتأتى له ما لا يتأتى لغيره إذا أسعده القدر. فعارضتهم الهند بالشطرنج. وأقام في الملك خمس عشرة سنة، ثم فوضه إلى ابنه سابور، وانقطع في بيوت العبادات ثلاث سنين إلى أن توفي بعد مولد المسيح عليه السلام. ومن كلامه: الدين أساس، والملك حارس، وما لم يكن له أساس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع.

وقال: لا شيء أضر على الملك أو على الرئيس من معاشرة وضيع، أو مُدانة سفيه؛ وذلك أن النفس كما تصلح بمعاشرة الشريف، فكذا تفسد بمخالطة السخيف، حتى يقدح ذلك فيها، كما أن الريح إذا مرت بالطيب حملت منه رائحة طيبة تنعش النفوس، وتقوى بها الجوارح، فكذا إذا مرت بالثّن حملت منه الروائح الكريهة ألّمت النفس، وأضرّت بها، وكان الفساد إليها أسرع من الصلاح.

وقال: إن للأذان مجّة، وللقلوت ملأ، ففرّقوا بين الحكمتين يكون ذلك استجماماً. وكتب إليه جماعة من بطانته يشكون سوء حالهم، فوقّع: "ما أنصفكم من أحوالكم إلى الشكوى" - يعني نفسه، ثم فرّق فيهم مالا. وكتب إليه متنصّح^(١): إن قوماً اجتمعوا على سبّك، فوقّع عليها: "إن كانوا نطقوا بالسنة ستّي فقد جمعت ما قالوه في ورقتك، فجرحك أعجب، ولسانك أكذب".

٢٥ - وَالضَّحَّاكُ اسْتَدْعَى مُسَالِمَتَكَ

[الضَّحَّاكُ]

اختلف في نسب الضحّاك، فقال قوم: إنه الضحّاك بن الأهبوب بن عوبج بن طهمورث ابن آدم. وزمنه بعد الطوفان؛ وهو ابن أخت جمشيد بن أوشهنج ملك الأقاليم.

وقال قوم: هو الضحّاك بن علوان؛ أول الفراعنة، وهو الذي ولّى أخاه سنانا مصر على

عهد إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقال قوم: هو من العرب؛ من قحطان، واليمانية تدّعيه، وفي ذلك يقول أبو نؤاس:

(١) م: "متنصّح".

وكانَ مِنَ الضَّحَاكِ يَحْدَرُهُ الـ خَابِلُ وَالْوَحْشُ فِي مَسَارِبِهَا^(١)
والقول الأول أكثر. وكان من سيرته أن جَمَشِيد -ومعناه سيد الشعاع- ملك الأقاليم
السبعة، وهو أول من عمل السلاح، واستخرج الإبريسم والقرّ، وألزم أهل الفساد الأعمال
الشاقة في قطع الصخور، واستخرج المعادن، وطال عمره وتجبر، وادعى الربوبية، فخرج
عليه الضحّاك هذا، وتبعه خلق كثير لبغضهم في جمشيد، فهرب جَمَشِيد بين يديه، فظفر به،
وأمر بنشره بمنشار وقال: إن كنت إلهاً فادفع عن نفسك.
ثم ملك الضحّاك وطغى وتجبر وفجّر، ودان بدين البراهمة. وهو أول من غنيّ له،
وضرب الدنانير والدراهم، ولبس التاج، ووضع المشور.

وكان على كتفه سلعتان^(٢) يحركهما إذا شاء، وادعى أنهما حيتان يهول بهما على
الضعفاء، وذكر أنهما يضربان عليه فلا يسكنان حتى يطليهما بدماعيّ إنسانين يُذبحان في
كل يوم؛ وكان له وزير صالح، فكان يستحي أحدهما ويضع مكان دماغه دماغ كيش، ويأمر
الرجل باللحوق بالجبال، وألا يأوي الأمصار. فيقال: إن الأكراد من تلك القوم لكردهم إلى
الجبال.

ثم كثر فساد الضحّاك وطالت مدته، فاجتمع الناس على أفريدون بن جمشيد، وكان
قد ترعرع، فاستعد لقتال الضحّاك، وكان بأصبهان رجل حداد يقال له كابي، قتل له الضحّاك
ولدين، فاجتمع عليه خلق كثير، وكانت له قطعة جلد يتقي بها حرّ النار، فرفعها على رمح
وجعلها علماً، وسار إلى الضحّاك والناس معه، فخرج إليه، فلما رأى ذلك العلم ألقى الله
تعالى في قلبه الرعب، فانهزم، وأراد الناس أن يملكوا كابي، فأبى وقال: لست من بيت الملك،
فملكوا أفريدون بن جَمَشِيد، وصار كابي عوناً له. وقتل الضحّاك، وقيل: مات منهزماً.

وعظم علم كابي، ورصعته الملوك بالدر والياقوت، وكانوا يقدمونه أمام الجيوش
وقت الحرب فيُنصرون به، وكان عندهم كالتابوت في بني إسرائيل، ويُعرف هذا العلم
"بدرفش كايان"، ولم يزل في خزائهم يتوارثونه إلى زمن يَزْدَجَرْد بن شَهْرِيَار، فأخذه
المسلمون في وقعة القادسية، وحمل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقسم جواهره في الناس.
ومما اتفق من الحكايات المستطرفة في أيام الضحّاك؛ أنه لما طالت مدته وفساده،
اجتمع الناس على بابهِ وكابي الحداد معهم، فلما دخل - وكان جريئاً - قال له: أسلم عليك
سلام من يملك الأقاليم كلها، أم سلام من يملك هذا الإقليم؟ قال: بل سلام من يملك

(١) ديوانه ١٥٥ .

(٢) السلعة هنا: غدة تظهر بين الجلد واللحم؛ إذا غمزت باليد تحركت.

الأقاليم كلها، فقال له: إذا كنت تملك الأقاليم كلها^(١) فلم خصصت هذا الإقليم بنوائبك ومؤونتك؟ وهلا انتقلت إلى الأقاليم، وساويت بينه وبينهم! ثم عدد عليه أشياء، فصدقه الضحك، ووعد الناس بما يحبون؛ فانصرفوا.

وكانت له أمٌ جبارة سمعت ما جرى، فلما خرجوا أنكرت عليه، وقالت: لقد جرأتهم عليك، هلا قتلتهم! فقال لها مع عتوه وتجبّره: إن القوم بدهوني^(٢) بالحق، فلما هممت بالسطوة بهم وقف الحق بيني وبينهم كالجبل، فحال بيني وبين ما أردت. ثم كان من أمره بعد ذلك ما كان مع كابي كما مر.

٢٦ - وَجَذِيْمَةُ الْأَبْرَشِ تَمْنَى مُنَادَمَتَكَ

[جذيمة الأبرش]

هو جذيمة بن مالك بن عامر التَّنُوخي - وقيل: الأُرْدِي^(٣). أول من قاد العرب، وملك على قضاة، وكانت منازل الحيرة والأنبار، وولايته من قبل أردشير بن بابك وكان أبرص فعُدل عن هذا الاسم فقليل: "الأبرش"، و"الوضاح". وزعم بعضهم أنه كان يأنف من اسم "الأبرص"؛ ولذلك كُنِيَ عنه بالأبرش.

وفي العرب من يفتخر بذلك، قال الراجز يمدح أبرص:

أَبْرَصُ فَيَا ضَ الْيَدَيْنِ أَكْلَفُ وَالْبُرْصُ أَدْرَى بِاللَّهَى وَأَعْرِفُ^(٤)

وهو أول من صُنِعَ له الشمع، وأدلج من الملوك، وكان ذا رأي وهمة وتيه مفرط، ويقال له: نديم الفرقدين، كما إذا شرب قدحاً صبّ لهما قدحين ولا ينادم غيرهما، وكان سبب ذلك فيما زعموا أنه كان قد تكهن وأتخذ صنمين يقال لهما: الضيزنان^(٥)، يستسقي بهما وينتصر على أعدائه.

وكانت إيادٌ قد خرج قومٌ منهم من الحجاز، وانتشروا فيما بين البصرة والكوفة، وتمكنوا على ما يلي الحيرة، وكثروا بعين أباغ، فخرج جذيمة غازياً. وكان في إياد رجل يقال له عديّ

(١) ساقط من ط.

(٢) بدهوني، أي فاجئوني.

(٣) كذا ورد نسبه هنا؛ وفي الأغاني: جذيمة بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس بن عدنان الأسدي". وفي المعارف لابن قتيبة: "جذيمة بن فهم بن غانم بن دوس".

(٤) الرجز لطريف بن سودة. الحيوان للجاحظ ج ٥، ١٦٤.

(٥) في اللسان: "ضيزن" إسم صنم، والضيزنان: صنمان للمنذر الأكبر، كان اتخذهما بباب الحيرة ليسجد له منها من دخل الحيرة امتحانا للطاعة.

ابن نصر، وكان له ظُرف وجمال، وإليه تنسب الملوك من آل نصر، فنزل جذيمة بساحتهم، فبعث إياد قوماً منهم إلى صممي جَذِيمة، فسقوا سدنتهما الخمر وسرقوهما، فأصبحوا بهما في إياد، فبعثت إياد إلى جذيمة تقول: إن صنميك قد أصبحا عندنا، زهداً فيك ورغبة فينا، فإن عاهدتنا على ألا تغزونا رددناهما إليك. فقال جَذِيمة: وتعطوني أيضاً عدي بن نصر يكون عندي. ففعلوا وانصرف عنهم، وضمَّ عدياً إلى نفسه، وولاه شرا به وأمر مجلسه.

وكان لجذيمة أخت تسمى رَقاش، وهي بكر، فأحبَّت عدياً وأحبَّها، فسألته أن يخطبها من جذيمة إذا سكر، ففعل ذلك وزوجه بها، وأشهد عليه مَنْ حَضَرَ، فلما أصبح دخل عليه بشياب العرس - وكان قد دخل بها تلك الليلة - فقال جَذِيمة: ما هذه الآثار يا عدي؟ فقال: آثار عرس رَقاش! فقال: مَنْ زَوَّجَكها، ويحك! قال: الملك، فأكبَّ على الأرض مفكراً، وهرب عدي، فلم يُعرف له أثر ولا خبر، وأرسل جذيمة إلى أخته تقول:

حَبَّرَني رَقاشٌ لا تَكْذِيبُنِي أَبْحَرُ زِينَتِ أُمِّ بَهْجِينِ!
أُمُّ بَعْدٍ فَأَنْتِ أَهْلٌ لِعَبْدٍ أُمُّ بَدُونٍ فَأَنْتِ أَهْلٌ لِدُونِ!

قالت: بل أنت زوجتني امرأ غريباً^(١)، ولم تشاورني في نفسي؛ فكفَّ عنها، وآلي ألا ينادم إلا الفرقدين، وحملت رَقاش، فولدت غلاماً وسمَّته عَمراً، فلما ترعرع ألبسته وعطَّرتَه ودخلت به على خاله^(٢)، فلما رآه أحبه وجعله مع ولده.

وخرج جَذِيمة متبدياً بأهله في سنة خِصْبة، فأقام في روضة ذات زهر ونهر، فخرج ولده؛ وعمره معهم يجتنون الكمأة، فكانوا إذا أصابوا كمأةً جيّدةً أكلوها، وإذا أصابها عمرو خبأها، وانصرفوا إلى جذيمة يتعادون وعمره يقول:

هذا جنائي وخياره فيهِ وكلُّ جانٍ يَدُهُ إلى فيهِ

فضمَّه جذيمة إلى صدره، وسر بقوله، وحلَّاه بطوقٍ من ذهب، فكان أوَّلَ عربي لبس الطَّوق.

(١) الأغاني وابن الأثير: "بل زوجتني امرأ غريباً"، وفي المسعودي: فأجابه رَقاش تقول:

أَنْتَ زَوْجَتْنِي وما كُنْتُ أَدْرِي وَأَتَانِي السَّاءُ لِلتَّزْيِينِ
ذَاكَ مِنْ شُرْبِكَ المَدَامَةَ صِرْفاً وَتَمَادِيكَ فِي الصُّبَا والمُجُونِ
(٢) ابن الأثير: "أزادته حالته".

ثم إن الجن استطارته، فطلبه جذيمة في الآفاق زماناً فلم يقدر عليه، ثم أقبل رجلان من قُضاة؛ يقال لهما: مالك وعقيل ابنا فارح، من الشام، يريدان جذيمة، وأهديا له طُرفاً؛ فبينما هما يأكلان إذ أقبل فتى عُريان قد تلبّد شعره، فسألاه عن نسبه فعرّفهما نفسه، فنهضا وغسلا رأسه، وأصلحا أمره، وألبساه ثياباً، وقالوا: ما كنا لنهدي جذيمة أنفس من ابن أخته؛ وخرجاه إلى جذيمة، فسُرّ به، ورأى الطوق، فقال: "شبّ عمرو عن الطوق"، فذهبت مثلاً، وقال لمالك وعقيل: حُكْمُكُما، قالا: مُنَادَمَتُك ما بقينا وبقيت، فمكنهما من ذلك. وهما نديما جذيمة اللذان يُضرب بهما المثل، وإياهما عني متمم بن نُؤيرة بقوله في رثاء أخيه:

وَكُنَّا كَنَدْمَائِي جَذِيمَةَ حِقْبَةٍ من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا^(١)
وقيل: إنما عني الفرقدين.

ويُحكى أن جذيمة سكر مرة أخرى فقتلها، فلما أصبح ندم، وبنى عليهما الغريين^(٢)، ونادم الفرقدين، وقيل: إن صاحب الغريين المنذر الأكبر.

ثم إن جذيمة أرسل يخطب الزّباء ملكة الحُضر الحاجز بين الفرس والروم، وكان لها وثر عنده فأجابته: واستدعته إليها، فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمضي، فخالفهم قصير ابن سعد - وكان لبياً وقال: إن النساء يهدين إلى الأزواج، فعصاه، وسار حتى إذا كان بمكان يدعى بقة^(٣) استشارهم، فأشاروا عليه لما يعلمون من رأيه فيها، فقال قصير: انصرف ودُمُك في وجهك، فأبى، وظعن جذيمة حتى إذا عاينَ الكتائب قد استقبلته قال لقصير: ما الرأي؟ قال: "تركْتُ الرأي بقة". ثم ركب قصير فرساً لجذيمة تسمى العصا فنجا، وأخذ جذيمة، فلما أُدخل على الزّباء أمرت برواهشه فقطعت - والرواهش عُروق اليد - واستنزفته حتى مات؛ في خبر طويل مشهور^(٤).

وكانت مدة ملكه ستين سنة، وله أشعار حسنة مشهورة، فمنها:

أَمْسَى جَذِيمَةُ فِي يَبْرِينَ مَنْزِلُهُ^(٥) قَدْ حَازَ مَا جَمَعَتْ مِنْ قَبْلِهِ عَادُ
مُسْتَعْمَلُ الْخَيْرِ لَا تَفْنَى زِيَادَتُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَأَهْلُ الْخَيْرِ تَزْدَادُ

(١) من قصيدة مفضلية ٦٧، أولها:

لعمري وما دهري بتأبين هالكٍ ولا جنّ مما أصاب فأوجعا

(٢) الغريان، ذكر ياقوت أنها بناءان بظاهر الكوفة بناهما المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء؛ في خبر طويل ورد في معجم البلدان (٦: ٢٨٢ - ٢٨٤).

(٣) بقة، بالفتح وتشديد القاف: موضع ذكره ياقوت؛ وقال: إنه قرب الحيرة.

(٤) الأغاني ١٦: ٣١٢ - ٣٢٠، مروج الذهب ٢: ٩٠ - ٩٥، ابن الأثير ١: ١٩٧ - ٢٠١، أبو الفدا ١: ٧٠، ٧١.

(٥) ط: "أضحى".

٢٧- وَشِيرِينَ قَدْ نَافَسَتْ بُورَانَ فَيْكَ

[شيرين]

هي شيرين زوجة أبرويز بن هُرمز، من ولد كسرى أنوشروان، وكانت يتيمة في حجر رجل من أشرف المدائن، وكان أبرويز صغيراً يدخل منزل ذلك الرجل، فيلاعب شيرين وتلاعبه، فأخذت من قلبه موضعاً، فنهاها عنه ذلك الرجل فلم تنته، فرأها وقد أخذت في بعض الأيام من أبرويز خاتماً، فقال لبعض خواصه: اذهب بها إلى دجلة فغرقها، فأخذها ومضى، فقالت له: وما الذي ينفعك من تغريقي؟ فقال: إنني حالف ولا أخالف مولاي. فقالت: أقذفني في مكان رقيق، فإن نجوت لم أظهر، وبرئت يمينك. ففعل، وتوارت في الماء حتى غاب، وصعدت إلى دير فترهبت فيه، وأحسن إليها الرهبان.

فلما تقرر الملك لأبرويز بعد أبيه هُرمز، مرَّ بذلك الدير رسل قيصر إلى أبرويز، فدفعت الخاتم إلى رئيسهم، وقالت: أبعث به إلى أبرويز لتحظى عنده، فأرسله وعرفه مكان شيرين، فسُرَّ سروراً عظيماً، فأرسل إليها فأحضرها، وكانت من أطرف النساء، ففوض إليها أموره، وهجر نساءه، وعاهدها لا تمكن منها أحداً بعده، وبنى لها القصر المعروف بقصر شيرين بالعراق.

فلما قتل شيرويه أباه أبرويز، راودها عن نفسها فامتنعت، فضيق عليها، واستأجلها، ورماها بالزنا، وتهدها بالقتل إن لم تفعل، فقالت: أفعل على ثلاث شرائط، قال: ما هي؟ قالت: تسلّم إليّ قتلة زوجي أقتلهم، وتصعد المنبر فتبرّئي مما قذفتني به، وتفتح لي ناولس^(١) أبيعك؛ فإن له عندي وديعة عاهدني إن تزوجت بعده رددتها إليه. فدفع إليها قتلة أبيه فقتلتهم، وبرأها مما قال، وفتح لها ناولس أبيه، وبعث الخدم معها، فجاءت إلى أبرويز فعانقته، ومصّت فصّاً مسموماً كان معها فماتت من وقتها. [وأبطأت على الخدم، فصاحوا فلم تكلمهم، فدخلوا فوجدوها معانقة لأبرويز ميتة]^(٢).

[بوران]

وأما بوران فهي ابنة أبرويز المذكور، وكانت من أحسن من نشأ بين الترك والفرس من النساء، وملكت الناس بعد شهريار بن أبرويز، وأصلحت القناطر والجسور، ولما جلست على السرير قالت: ليس ببطش الرجال تدوخ البلاد، ولا بمكايدهم يُنال الظفر؛ وإنما ذلك بعون الله وقدرته تعالى.

(١) الناولس: المقبرة.

(٢) تكلمة من ط.

وأقامت سبعة أشهر، ولما بلغ النبي ﷺ أمرها، قال: "لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة".

ويقال: إن فيروز بن رستم صاحب خراسان خطبها، فقالت: لا ينبغي للملكة أن تتزوج علانية، وواعدته^(١) أن يقدم عليها سرّاً في ليلة عيّنتها له، فجاءها في تلك الليلة فقتلته، فسار إليها أبوه رستم فقتلها. وقيل: إن هذه الواقعة مع أزدى مرخت^(٢).

٢٨- وبلقيس غايرت الزّباء عليك

[بلقيس]

بلقيس ابنة [شراحيل بن]^(٣) الحارث بن سبأ، ويُلقّب أبوها بالهدهاد. وقيل: بنت الشّيصبان، ملكة بلاد سبأ، المذكورة في الكتاب العزيز.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن سبأ: أرجل هو، أم امرأة، أم أرض؟ فقال رسول الله ﷺ: "بل رجل، ولده عشرة: سكن منهم اليمن ستة والشام أربعة؛ فاليمانيون: مذحج، وكندة، والأنمار، والأزد، والأشعريون، وحِمير؛ وأما الشام: فلخم، وجذام، وعاملة، وغسان".

وكانت بلقيس من أحسن نساء العالمين، ويقال: إن أحد أبويها كان جنيّاً. وقال ابن الكلبي: كان أبوها من عظماء الملوك، وولده ملوك اليمن^(٤) كلها. وكان يقول: ليس في ملوك اليمن من يُدانيني، فتزوج^(٥) امرأة من الجن يقال لها رِيحانة بنت السّكن، فولدت له بلقيس، وتسمّى بلقمة؛ ويقال: إن مؤخر قدميها كان مثل حافر الدّابة؛ ولذلك اتخذ سليمان عليه السلام الصرح الممرّد من القوارير، وكان بيتاً من رُجاج يخيّل للرّائي أنه ماء يضطرب، فلما رآته كشفت عن ساقها، فلم يرَ غير شعر خفيف؛ ولذلك أمر بإحضار عرشها ليختبر به عقلها. ثم أسلمت، وعزم سليمان على تزوّجها، فأمر الشياطين

(١) ت: "وأوعده".

(٢) حاشية ت: "فائدة: وبوران أيضاً بنت الحسن بن سهل زوجة المأمون، وكان المأمون قد تزوّجها لمكان أبيها. وقصتها مشهورة طويلة، من جملتها أنه لما دخل عليها المأمون؛ فرش له حصير منسوج بالذهب، فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلئ كثيرة، فلما رأى تساقط اللآلئ المختلفة على الحصير المنسوج بالذهب قال: قاتل الله أبا نواس! كأنه شاهد هذه الحال حين قال في صفة الخمر والخباب الذي يعلوها عند المزاج:

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا
حَصْبَاءُ دَرَّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

(٣) من ت.

(٤) ت: "الأطراف".

(٥) د: "فاتفق أن تزوج".

فاتخذوا الحمّام والثّورة، وهو أول مَنْ اتخذ ذلك، وطلوا بالنّورة ساقيّها، فصارت كالفضة وتزوجها^(١)، وأرادت منه ردّها إلى مُلكها ففعل ذلك.

وأمر الشياطين فبنوا لها باليمن الحصون التي لم يرَ مثلها، وهي: غمدان^(٢) ويئون وغيرهما، وأبقاها على ملكها، وكان يزورها في كل شهر مرة من الشام على البساط والريح، وبقي ملكها إلى أن توفي فزال بموته.

[الزّباء]

وأما الزّباء فهي فارعة ابنة مليح بن البراء، كان أبوها ملكاً على الحُضر^(٣) وهو الذي ذكره عديّ بن زيد بقوله:

وأخو الحضّر إذ بناه وإذ دجّ لهُ تُجَبى إليه والخابور^(٤)
فقتله جذيمة الأبرش، وطرده الزّباء إلى الشام، فلحقت بالروم، وكانت عربية اللسان، كبيرة الهمة.

قال ابن الكلبي: وما رأيَ أجمل منها في نساء زمانها، وكان اسمها فارعة، لها شعر طويل؛ إذا مشت سحبتة وراءها، وإذا نشرته جلّ لها: فسُميت الزّباء -والأزْبُ الكثير الشعر- وبلغ من همتها أنها جمعت الرجال، وبذلت الأموال، وعادت إلى ديار أبيها ومملكته، فأزالت جذيمة عنها، وبنت على الفرات مدينتين متقابلتين، وجعلت بينهما أنفاقاً تحت الأرض، وتحصّنت. وكانت قد اعتزلت الرجال، فهي عذراء بتول، وهادنت جذيمة مدة، ثم خطبها، فاستدعته وقتلته كما تقدم في ترجمته.

فأما مقتلها، فإن قصيراً، لما فارق جذيمة، وعاد إلى بلاده، تحيّل على قتلها فجدع أنفه، وضرب جسده، ورحل إليها زاعماً أن عمرو بن عديّ ابن أخت جذيمة صنع به ذلك، وأنه لجأ إليها هارباً منه، واستجار بها، ولم يزل يتلطف لها بطريق التجارة وكسب الأموال إلى أن وثقت به، وعلم خفايا قصرها وأنفاقه. ثم وضع رجالاً من قوم عمرو بن عدي في غرائر؛ وعليهم السلاح، وحملهم على الإبل على أنها قافلة متّجر؛ إلى أن دخل مدينتها،

(١) ط: "فتزوجها"، د: "ثم تزوجها".

(٢) ذكر ياقوت عن ابن الكلبي أن غمدان قصر بناه ليشرح بن يحصب بين صنعاء وطبوة. وقال: قوم: إن الذي بنى غمدان سليمان بن داود ~~عليه السلام~~، أمر الشياطين فبنوا للبقيس ثلاثة قصور بصنعاء: غمدان ويئون وسليحين. معجم البلدان ٣٠٢:٦.

(٣) الحضر، بضم الحاء: إسم مدينة بإزاء تكريت في البرية، بينها وبين الموصل والفرات.

(٤) الخابور: إسم نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة. والبيت من قصيدته في الأغاني ١٣٨:٢، ١٣٩ (طبع دار الكتب).

فحلُّوا الغرائر، وأحاطوا بقصرها، وقتلها قبل أن تصل إلى نفقها؛ في حكاية مشهورة^(١)، وذلك بعد مبعث المسيح ﷺ.

٢٩- وَأَنَّ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ إِنَّمَا أَرْدَفَ لَكَ

[مالك بن نويرة]

هو مالك بن نويرة بن شداد اليربوعي التميمي^(٢)، فارس ذي الخمار - وذو الخمار فرسه - ويلقب بالجفول لكثرة شعره، وكان من فرسان العرب وشجعانهم وذوي الردافة في الجاهلية، وكانت لبني يربوع أيام آل المنذر. ومعنى الردف أن يجلس الملك ويجلس الردف عن يمينه، فإذا شرب الملك شرب الردف بعده، وإذا غاب جلس الردف مكانه، وللردف إتاوة تؤخذ مع إتاوة الملك، وفي ذلك يقول الراجز:

وَمَنْ يُنَافِرَ آلَ يَرْبُوعٍ يَخْبُ
المجلس الأيمن والردف النجب

وأدرك مالك بن نويرة الإسلام وأسلم، وبعثه رسول الله ﷺ على صدقات قومه من بني يربوع. فلما توفي رسول الله ﷺ أخر الصدقة، وقيل: ارتد، وبعث أبو بكر ﷺ خالد بن الوليد ﷺ لقتال أهل الردة، وأوصاه، فكان إذا صبح قوماً تسمع الأذان، فإن سمعه كف عنهم، وإن لم يسمعه قاتلهم، إلى أن مرَّ بالبطح وبه مالك وأصحابه، فقيل: إنهم لم يسمعوا أذاناً، فقاتلهم، وأتي بمالك بن نويرة أسيراً، فأمر خالد ضرار بن الأزور بقتله فقتله.

واحتج قوم لخالد في قتله، وطعن عليه آخرون، فأما من احتج، فيزعم أن مالكا قُتل مرتداً، وأنه لما وقف بين يدي خالد كان يقول في مخاطبته: "قال: صاحبك"، و"توفي صاحبك" - يعني النبي ﷺ - فقال له خالد: أوكيس هو بصاحبك أيضاً يا عدو الله! ثم قتله. ويحتجون أيضاً بقول أخيه متمم؛ وذلك أن عمر بن الخطاب ﷺ لما سمع متمماً يشد رثاء أخيه مالك، قال: وددت لو رثيت أخي زيدا بمثل ما رثيت به أخاك! قال: والله لو علمت أن أخي صار إلى ما صار إليه أخوك لم أرته، ولم أحزن عليه - يعني الجنة.

وأما الطاعنون فذكروا أن خالداً لما احتج على مالك بارتداده، أنكر مالك ذلك، وقال: أنا على الإسلام، والله ما غيرت ولا بدلت؛ وشهد قتادة وعبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - ثم إن خالداً أمر بقتله، فجاءت امرأته ليلى بنت سنان كاشفة وجهها. وكانت من الحسان - فألقت نفسها عليه، فقال لها: أنت قتلتني - يعني أنها أعجبت خالداً، وأنه يريد قتله

(١) الأغاني ١٥: ٣١٥ - ٣٢٠.

(٢) الأغاني ١٥: ٢٩٨: "متمم بن نويرة بن عمرو بن شداد".

ويتزوجها- وقام ضرار بن الأزور فضرب عنقه، وجعل رأسه أُنْفِيَةً لِلْقَدْرِ، ووجهه مما يلي النار، فنظرت امرأة من قومه؛ وهو على تلك الحال، فقالت: اصرفوا وجه مالك عن النار؛ فإنه والله كان غَضِيضَ الطَّرْفِ عن الجارات، حديدَ النظر في الغارات لا يشبع ليلة يُضَاف، ولا ينام ليلة يخاف.

ثم بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما صنع خالد؛ فحرّض عليه أبا بكر رضي الله عنه، وقال: إنه قتل مسلماً وزني؛ فأرجمه. ووافقه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال أبو بكر: إنه تأول فأخطأ، وما كنت لأشيم سيفاً سلّه رسول الله ﷺ -يعني أغمده- وما زال عمر حاقداً على خالد بهذه الواقعة حتى عزله عن جيش الإسلام، وقال: والله لا وليّ عملاً في أيامي.

وكان متمّم بن نويرة منقطعاً إلى مالك، مكفّي المؤونة، فلما قُتل حزن عليه حزناً شديداً، ورثاه بقصائد مشهورة، وحضر حين بلغه ذلك إلى مسجد رسول الله ﷺ، فصلى الصبح خلف أبي بكر رضي الله عنه، فلما فرغ من صلاته وانفتل، قام متمّم فاتكأ على [سِيّة] ^(١) قوسه وهو واقف مع الناس، ثم أنشد يقول:

نَعَمْ الْقَتِيلُ إِذَا الرِّيحُ تَنَاحَتْ خَلْفَ الْبُيُوتِ قَتَلَتْ يَا بَنَ الْأَزُورِ ^(٢)

ثم أوماً إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال:

أَدْعُوهُ بِاللَّهِ ثُمَّ غَدَرْتَهُ ^(٣) لَوْ هُوَ دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدِرْ

فقال أبو بكر: والله ما دعوته ولا غدرتة.

فأنشد بقية أبياته المشهورة ^(٤)، وانحطّ على قوسه -وكان أعور- فما زال يبكي حتى دمعت عينه العوراء؛ فقام إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ودّدت لو رثيت أخي زيداً! فأجابه بما تقدم، ثم رثي زيداً فلم يُجِدْ، فسئل عن ذلك فقال: والله إنه ليحرّكني لأخي ما لا يحركني لزيد.

وسأله عمر رضي الله عنه عن حزنه، فقال: والله إني لا أنام الليل، وما رأيت ناراً رُفِعت بليل إلا ظننت أن نفسي ستخرج، أذكر بها نار أخي، إنه كان يأمر النار فتوقّد حتى يصبح مخافة أن

(١) من الأغاني والكامل للمبرد، وسية القوس: ما عكف من طرفيها.

(٢) الأغاني ٣٠٦: ١٥، وفيه: "تناوحت تحت الإزار"، الكامل ٤: ٧٨.

(٣) الأغاني: "ثم قتلته".

(٤) د: "بقية قصيدته" وفي الأغاني: فقال:

لَا يُضْمِرُ الْفَحْشَاءَ تَحْتَ رِدَائِهِ حُلُوشُمَائِلُهُ عَفِيفُ الْمِئْزَرِ
وَلِنَعْمَ حَشْوُ الدَّرْعِ أَنْتَ وَحَاسِرٌ وَلِنَعْمَ مَأْوَى الطَّارِقِ الْمُنَوَّرِ

ببيت ضيفه قريباً منه، فمتى رأى النار يأتي إلى الرجل؛ وهو بالضيف يأتي متهجراً أسراً من القوم يقدم عليهم القادم من السفر البعيد. فقال عمر رضي الله عنه: أكرم به!

وقال له عمر يوماً: حدثنا عن أخيك، فقال: أسرت مرة في حي عظيم من أحياء العرب، فأقبل أخي؛ فما هو إلا أن طلع على الحاضر؛ فما كان أحد قاعداً إلا قام، ولا بقيت امرأة حتى تطلعت من خلال البيوت، فما نزل عن جملة حتى تلقوه بي في رمتي فحلني. فقال عمر: إن هذا لهو الشرف! ثم قال له يوماً: يا متمم، إنك لجزل، فكيف كان منك أخوك؟ فقال: كان والله أخي في تلك الليلة الباردة ذات الأزيز والصرير يركب الجمل الثقال^(١)، ويجنب الفرس الحرون^(٢)، وفي يده الرمح الثقيل، وعليه الشملة الفلوت^(٣)، وهو بين المزداتين [المضرجتين]^(٤) حتى يصبح وهو يبتسم^(٥).

ومن جيد الرائي متمم له، قوله من أبيات:

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ آتَيْتُهُ
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الْأَسَى يَبْعَثُ الْأَسَى
وَمَنْ جَدَّ شَعْرَ مَالِكٍ قَوْلُهُ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ، وَلَا مُحَالَةَ أَنِّي
أَفْنِيْنَ عَاداً ثُمَّ آلَ مُحَرِّقٍ
وَعَدَدْتُ أَبَائِي إِلَى عِرْقِ الثَّرَى

للحادثات فهل تريني أجزع^(٧)
تركتهم بدداً وما قد جمَعُوا^(٨)
فدعوتهم وعلمت أن لم يسمَعُوا^(٩)

(١) الثفال: البطيء الذي لا يكاد ينبعث.

(٢) في الأغاني: "الجرور"؛ وهو الذي لا يكاد ينقاد مع من يجنبه؛ والحرون مثله.

(٣) الشملة: كساء أو مئزر يُشَحُّ به، والفلوت: التي لا ينضم طرفها لصغرها.

(٤) من الأغاني؛ والمضرجتان: المشققتان.

(٥) الخبر في الأغاني ١٥ : ٣٠٧، وفي آخره: "ثم يصبح ضاحكاً".

(٦) أمالي القالي ٢ : ١؛ من أبيات هذه الرواية:

لَقَدْ لَا مَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكََا
أَمِنْ أَجْلِ قَبْرِ بِاللَّا أَنْتِ رَائِحُ
فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا
أَلَمْ تَرَهُ فِينَا يَقْسَمُ مَا لَمْ يَكُنْ
من الفضلية ٧.

(٨) في الفضليات: "فتركهم بلداً"، أي تراباً.

(٩) عرق الثرى، أي آدم عليه السلام.

ذهبوا فلم أدركهم — ودهتهم غول الليالي والطريق المهيع^(١)
وقوله أيضاً:

وقالوا لي استأثر فإنك آمن
علام تركت المشرفي مضاجعي
فإن تقتلونني بعد ذاك فإنني
ومطرّداً فيه المنايا كوامن
أفقت إن استأسرت إني لخائن
أموت بمقدارٍ وتبقى الضغائن

٣٠- وعروة بن جعفر إنما رحل إليك

[عروة الرّحال]

هو عروة بن عتبة بن جعفر من بني عامر بن صعصعة، وأهل بيته ينتسبون إلى جعفر، فيقال: الجعفريون، ولذلك قال ابن زيدون: "عرو بن جعفر"، ولم يقل "ابن عتبة". وكان يُعرف بعروة الرّحال لرحلته إلى الملوك. وكان من ذوي العقل والشهامة، وهو من أرداف الملوك.

وللعرب مبالغة في وصفه؛ فيزعمون أنه رحل إلى معاوية بن الجون الكندي، فغزا معاوية ببني حنظلة قومه من بني عامر، واستصحبه معه، فلما كان بوارِدات^(٢) قال لمعاوية: إن لي حق صُحبة وخُلة^(٣)، وأريد أن أنذر قومي من ها هنا - وبينه وبينهم مسيرة ليلة - فعجِب معاوية منه، فأذن له، فصاح: يا صباحاه! ثلاث مرات، فسمعه قومه من الشعب فاستعدوا. وبسبب مقتله قامت حرب الفجار؛ وذلك أن النعمان كان يبعث لسوق عكاظ في كل عام لطيمة^(٤) في جوار رجل شريف من أشراف العرب يجيزها له من أحياء العرب حتى يبيعها هناك، ويشتري له بثمنها من آدم الطائف وغيرها مما يحتاج إليه. وكان سوق عكاظ يقوم في كل يوم من ذي القعدة الحرام، فيتسوّقون إلى حضور الحج ثم يحجّون. وكانت الأشهر الحرم أربعة أشهر: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب. وكانت العرب من ذي القعدة يتهيئون للحج، ويأمن بعضهم بعضاً، فجهاز النعمان غير اللطيمة، ثم قال: مَنْ يجيزها؟ فقال البرّاض بن قيس: أنا أجيزها على بني كنانة، فقال النعمان: ما أريد إلا مَنْ يجيزها على أهل نجد وتهامة؛ فقال: عروة الرّحال - وهو يومئذ رجل هوازن - أهذا الكلب

(١) الغول: ما اغتال الشيء وذهب، أو المنية. والمهيع: البين الواضح؛ غني به طريق الموت.

(٢) واردات: موضع في طريق مكة؛ وكان به اليوم المعروف بين بكر وتغلب أبني ربيعة.

(٣) م: "رحلة".

(٤) اللطيمة: العير تحمل العطر.

يجيزها لك! أنا أجيزها على أهل الشَّيْح والقيصوم من أهل نجد وتهامة. فقال البرّاض: أعلّى بني كنانة تجيزها يا عروة! فقال: وعلى الناس كلهم! فدفعها النعمان إلى عروة، فخرج بها، وتبعه البرّاض - وكان فاتكاً عياراً، وعروة لا يحس منه شيئاً؛ لأنه كان بين ظهرائي قومه من غطفان - فنزل بأرض يقال لها أواره، فشرب الخمر، وغتته قينة، ونام، فجاء إليه البرّاض فدخل عليه وأيقظته، فناشده عروة، وقال: كانت مني زلة، فقتله؛ وخرج وهو يرتجز:

قد كانت الفعلة مني ضلّة هلاً على غيري جعلت الزّله!
وهرب، فضربت العرب المثل بفتكة البرّاض له، وقامت حروب عظيمة بسببه. ومن شعر عروة:

أتعجب منّي أم حسان إذ رأت نهاراً وليلاً ألباني فأسرعا!
وقد صار إخواني كأنّ عليهم ثياب المنايا والثغام المزعا
من أبيات، وقد قيل: إنها لعروة الرّجال، [بالجيم]^(١) وهو رجل من بني أسد.

٣١- وَكَلَيْبُ بْنُ رَبِيعَةَ إِنَّمَا حَمَى الْمَرْعَى بِعَزَّتِكَ؛ وَجَسَّاساً إِنَّمَا قَتَلَهُ بِأَنْفَتِكَ

[كليب بن ربيعة]

كُليب بن ربيعة بن الحارث الوائلي، الذي يُضرب به المثل، فيقال: أعزّ من حمى كُليب؛ فإنه رئيس الحيين من بكرٍ وتغلب ابني وائل، وقاد معدّ كلها يوم خزاز، وفصّ جموع القوم فاجتمعت عليه معدّ، وجعلوا له قسّم الملك وتاجه وطاعته، فغبر بذلك حيناً، ثم دخله زهوٌ شديد، وبغى على قومه، بما هو فيه من عزة، واثقاً بانقياد معدّ له؛ حتى بلغ من بغيه وعتوه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يُرعى حماه، ويقول: وحش كذا وكذا في جوّاري؛ فلا تهاج ولا يورد أحد مع أبله، ولا توقد نارٌ مع ناره، ولا يجتبي في مجلسه، ولا يتكلم إلا بإذنه، وفي ذلك يقول أخوه بعد قتله:

نَبَّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدْتُ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلَيْبُ الْمَجْلِسُ^(٢)
وَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ لَوْ كُنْتُ حَاضِرَ أَمْرِهِمْ لَمْ يَنْبُسُوا^(٣)

(١) من ط.

(٢) شعراء النصرانية ١٧٩.

(٣) النيس: أقل الكلام؛ وبعدهما:

وإذا تشاء رأيت وجهاً واضحاً وذراع باكية عليها برؤس
تبكي عليك ولست لأثم حرة تأسى عليك بعبرة وتنفّس

وقيل: إنه كان إذا مرّ بمرعى قذف فيه جِزْواً يعوي، فلا يرعى أحدٌ من ذلك الكلاء؛ ولذلك قيل: "حَمَى كليب وائل"، يعنون الكلب ويضيفونه إلى وائل؛ وهو اسم الملك، ثم غلب هذا القول حتى ظنّوه اسمه.

ومر يوماً بمرعى فيه حُمرة -وهي طائر صغير، وقيل: قُبْرة- وقد باضت، فلما رآته صرصرت وخفقت بجناحيها، فقال:

أَمِنْ رَوْعِكَ، أَنْتَ فِي ذِمَّتِي! ثم أنشد:

يَا لَكَ مِنْ قُبْرةٍ بِمَعْمَرٍ خَلَا لَكَ الْجَوُّ فَبِيضِي وَاصْفُرِّي

* وَنَقَّرِي مَا شِئْتَ أَنْ تُنْقَرِي ^(١) *

فما جسر صاحب بعير يدخل ذلك المرعى.

[جَسَّاسُ بِنِ مُرَّة]

وأما جَسَّاسُ فهو ابن مُرَّة بن ذُهَل؛ كانت أخته تحت كُليب، وكان بنو جشم وشيبان في دار واحدة، قبيلتي كُليب وجَسَّاس، وكانت لجَسَّاس حالة من بني سَعْد تُسَمَّى البَسُوس، جاورت بني مُرَّة، فنزلت على ابن اختها جَسَّاس ومعه ابنٌ لها، ولها ناقة خَوَّارة من نَعَم بني سعد، ولها فَصِيل، فندَّت الناقة ذات يوم، فدخلت في إبل كُليب ترعى في حِمَاه، فنظر إليها فأنكرها، فرماها بسهم في ضِرْعِهَا فولَّت حتى بَرَكَتْ بِفَنَاءِ صَاحِبَتِهَا، وضَرَعُهَا يَشْخَب دَمًا، فلما نظرت إليها برزت صارخةً ويدها على رأسها، وهي تصيح: واذلّاه! فلما سمع جَسَّاس قولها سكنها، وقال: وَاللَّهِ لَيَقْتُلَنَّ غَدًا جَمَلٌ هُوَ أَعْظَمُ عَقْرًا مِنْ نَاقَتِكَ -يعني كُليباً. ثم انتجع الحي، فمروا على نهر يقال له شُبَيْث، فنهاهم كُليب عنه. وقال: لَا تَرُدَّنْ مِنْهُ قَطْرَةً، ثم مَرُّوا على نهر آخر، يقال له: الْأَحْصَى، فنهاهم عنه؛ فمضوا حتى أتوا الذنائب ونزلوا، فمر جَسَّاسُ بِكُليب، وهو واقفٌ على غدير الذنائب منفردًا، فقال: طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا! فقال كُليب: ما منعناهم من ماءٍ إلا ونحن له شاغلون. فقال له جَسَّاس: هذا كفعلك بناقة خالتي! فقال: وقد ذكرتها! أما إني لو وجدتها في غير إبلي مرة أخرى لاستحللتُ تلك الإبل. فعطف عليه جَسَّاس بفرسه، فطعته بالرمح فأزدهاه؛ ووجد الموت، فقال: يَا جَسَّاس، اسقني، فقال: هيهات! تجاوزت الْأَحْصَى وشُبَيْثًا، ثم عطف المزدلف فأجهز عليه.

(١) من أبيات تنسب إلى طرفة بن العبد، ديوانه ١٩٣، وبعدها هناك:

قَدْ رَحَلَ الصَّيَّادُ عَنْكَ فَأُبْشِرِي قَدْ رَفَعَ الْفَخَّ فَمَاذَا تَحْذِرِي

* لَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُصَادِيَ فَاصْبِرِي *

ثم إن جَسَّاساً لما فرغ من قتل كُليب أَمَالَ يده بالفرس حتى انتهى إلى أهله، فقالت أخته لأبيها: إن لجَسَّاس شأناً؛ قد جاءنا خارجاً ركبته^(١). قال: واللَّه ما خرجتُ ركبته إلا لأمر عظيم - يعني أنه كان بركبته وضَحُّ لا يظهره؛ فلما جاء قال: ما وراءك يا بُني؟ قال: ورائي أني طُعنْتُ طعنةً لتشتغلن بها شيوخُ وائلِ زمنًا. قال: أقتلتُ كُليباً؟ قال: نعم، قال: ودِدْتُ أنك وأخوتك مِتُّم قبل هذا! ما بي إلا أن تسأمني أبناء وائل. ثم نظر جَسَّاس إلى أخيه نَضْلَةَ، فقال:

وإِنِّي قَدْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ حَرْباً تُغِصُّ الشَّيْخَ بِالماءِ القَرَّاحِ^(٢)
مذكِّرةً مِنِّي ما يَصُحُّ منها^(٣) فَتَى نَشَبْتُ بِأَخِرٍ غَيْرِ صَاحٍ
فأجابه نَضْلَةُ يُطَيِّبُ نفسه:

وإِنْ تَكُ قَدْ جَنَيْتَ عَلَيَّ حَرْباً فَلَا وَاوِ وَلَا رِثَ السَّالِحِ^(٤)
ثم هرب جَسَّاس، ووقعت بين الحَيِّين حرب البسوس المشهورة، قيل: أقامت أربعين سنة. واختلف في قتل جَسَّاس، فقيل: إن أبا النويرة قتله هارباً على طريق الشام بعد حين. وقيل: إن ابن أخيه هَجْرَس بن كُليب كان عند أمه وأخواله بعد الفتن، فلَمَّا بلغ مبلغ الرجال، وعرف أن خاله جَسَّاساً قاتل أبيه، ركب فرسه، وأخذ رُمُحه، وأتى نادى قومه، وجَسَّاس خاله في النَّادي مع جماعة، فقال: ورمحي وَنَضْلِيهِ، وسيفي وَغَرَارِيهِ، وفرسي وَأُذُنِيهِ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه. ثم طعن جَسَّاساً فقتله ولحق بعمومته.

٣٢- وَمَهْلَهْلًا إِنَّمَا طَلَبَ ثَأْرُهُ بِهِمَّتِكَ

[مهلهل بن ربيعة]

هو مهلهل بن ربيعة بن الحارث؛ أخو كُليب المقدم ذكره، واسمه عديّ، ولُقِّب مهلهلاً بقوله:

(١) في الأصول: "ركبته"، وفي ابن الأثير: "بدت ركبته".

(٢) أيام العرب في الجاهلية ١٤٧، قبل:

تَأْهَبُ مِثْلَ أَهْبَةِ ذِي كَفَّاحٍ فَإِنَّ الْأَمْرَ جَلَّ عَنِ التَّلَاحِي
مذكِّرة: شديدة.

(٣) أيام العرب في الجاهلية، ١٤٧، وبعده:

جَمَعْتُ بِهَا يَدَيْكَ عَلَى كُليبٍ فَلَا وَكِلْ وَلَا زَتْ السَّالِحِ
ولكنني إلى العَلَاتِ أَجْرِي إلى الموتِ المحيطِ مع الصَّبَاحِ
وإني حين تشجرُ العوالِي أعيد الرَّمْحَ في أثرِ الجَرَّاحِ
شديد البأس لَيْسَ بذي عِيَاءٍ ولكنني أبوء إلى الفِلاحِ
سألث ثوبها وأذُب عنها بأطرافِ العوالِي والصَّفَاحِ
فما يبقى لعزته ذليلٌ فيمنعه من القَدْرِ المتَّاحِ
فإنني قد طربت وهاج شوقي طرادُ الخيلِ عارِضَةَ الرَّمَّاحِ
وأجمَلُ من حياةِ الذلِّ مَوْتُ وبعْضُ العارِ لا يمحُوه مَاحِ

لَمَّا تَوَعَّلَ فِي الْكَرَاعِ هَجِينَهُمْ هَلَهَلْتُ أَثَارُ مَالِكًا أَوْ صَنِيبًا^(١)
يعني قاربت. وقيل: لَقَّبَ مهلهلاً لأنه أول مَنْ هَلَهَلَ نَسَجَ الشَّعْرَ، أي أَرْقَهُ. وهو أول
من قَصَدَ القَصَائِدَ، وقال فيها الغَزَلَ، وغَنَّى بالتشبيب من شعره؛ وهو خال امرئ القيس بن
حُجْرٍ، ومنه ورث إجادة الشعر. وكان أيضاً كثير المحادثة للنساء؛ حتى كان أخوه كُليب
يَسْمِيهِ زَيْرَ النساءِ؛ ولذلك يقول بعد قتل كُليب وطلب ثأره:

فَلَوْ نُبِشَ الْمَقَابِرُ عَنْ كُليبٍ لِيَعْلَمَ بِالذَّنَائِبِ أَيَّ زِيَرٍ
وكان من خبره في هذه الواقعة، وطلب الثأر - والثأر بالثاء المثناة: طلب الدم - وأصله
الهمز - أن جَسَّاساً لما قتل كُليباً وفر هارباً، كان هَمَّامٌ بن مرة أخو جَسَّاسٍ ينادم مهلهل بن
ربيعة أخا كُليب، وكان قد صادقته وآخاه، وعاهده ألا يكتُم عنه شيئاً، فجاءت إليه أمه فأسرت
إليه قتل جَسَّاسٍ كُليباً، فقال له مهلهل: ما قالت لك؟ فلم يخبره، فذكره العهد، فقال: أَخْبِرْتُ
أن أخي قتل أخاك. فقال: لَأَسْتُ أَخِيكَ أَضِيقُ مِنْ ذَلِكَ! فسكت همام؛ وأقبل على شرايهما،
فجعل مهلهل يشربُ شرب الآمن، وهمام يشرب شرب الخائف، فلم تلبث الخمرة أن
صرعت مهلهلاً، فانسَلَّ همام وأتى قومه، وقد قَوَّضُوا الْخِيَمَ، وجمعوا الخيل والنَّعَمَ
ورحلوا، فرحل معهم، فظهر أمر قتل كُليب، ولما أفاق مهلهل فصيح الخبر، واجتمعت إليه
وجوه قومه، فقالوا: لا تعجلوا على قومكم حتى تُعْذِرُوا^(٢) بينكم وبينهم؛ فانطلق رهطٌ من
أشرافهم حتى أتوا مرة بن دُهل، فعظَّمُوا ما بينهم وبينه، وقالوا: اختر منَّا خِصْلاً، إما أن تدفع
إلينا جَسَّاساً فنقتله بصاحبنا - فلم يظلم مَنْ قتل قاتله - وإما أن تدفع إلينا هَمَّاماً فنقتله، وإما
أن تقيدنا من نفسك؛ فسكت وقد حضرته وجوه بكر فقالوا: تكلَّمْ غير مخذول!

فقال: أما جَسَّاسٌ فإنه غلام حدَّث السن، ركب رأسه؛ فهرب حين خاف، ولا علم له
به. وأما أخوه همام فأخوه عشرة، وأبو عشرة، ولو دفعته لكم لَصِيحَ بنوه في وجهي، وقالوا:
دفعنا أبانا ليقتل في ثأر غيره؛ وأما أنا فلا أتعجل الموت، وهل تريد الخيل على أن تجول
جولة؛ فأكون أول قاتل! ولكن هل لكم في غير ذلك؟ هؤلاء بني، فدوونكم فخذوا أحدهم
فشدُّوا نِسْعَةً^(٣) في رقبته فاقتلوه، وإن شئتم فلكم ألف ناقة.

فغضبوا وقالوا: إنا لم نأتك لتبذل لنا بنيك، أو لتسومنا اللبن! ففترقوا. فقام مهلهل
وشمر للحرب، وبدا القتل، واستحَرَّ بين الفريقين إلى أن كان يوم واردات، وقد عظم القتل
في بكر، فاجتمعوا إلى الحارث بن عباد بن مالك - وكان قد اعتزل الحرب، وقال: لا ناقة لي
فيها لا جمل؛ فذهبت مثلاً - فقالوا له: قد فنى قومك؛ فأرسل ابنه بُجَيْراً - وقيل: ابن أخته -

(١) اللسان - هلل؛ قال: "يقوله لزهير بن جناب"، أمالي القالي ٢: ١٢٩، قال: الكراع: أنف الحرة.

(٢) حتى تعذروا؛ أي يكون لكم عذر.

(٣) النسعة: سير مضفور يجعل زماماً للبعير.

إلى مهلهل، وقال له: قُلْ له: أبو بُجَيْر يقرئك السلام، ويقول لك: قد علمت أنني قد اعتزلتُ قومي؛ لأنهم ظلموك، وخليئتُ وإياهم؛ وقد أدركت وثرُك^(١)، وقتلت قومك.
فأتى بُجَيْر مهلهلاً وهو في قومه، فقال له: خالي يقرئك السلام، فقال له: مَنْ خالك يا غلام؟ ونزاعوه بالرمح، فقال له امرؤ القيس بن أبان التغلبي: مهلاً يا مهلهل؛ فإن أهل بيت هذا قد اعتزلوا حربنا، والله لئن قتلته ليقُتلنَّ به رجل لا يُسأل عن خاله. فلم يلتفت مهلهل إلى قوله، وشد عليه فقتله وقال: بؤٍ بِشُوع نعل كليب^(٢). فقال الغلام: إن رضيت بهذا بنو تغلب رضيت.

فلما بلغ الحارث بن عباد قتله، قال: نعم الغلام أصلح بين أبنِي وائل وباء بكليب، فلما سمعوا قول الحارث قالوا: إن مهلهلاً قال له: "بؤٍ بِشُوع نعل كليب"، فغضب الحارث، ونهض للقتال. واستمرت الحروب بين الحيين دهرًا طويلاً، وفني معظمهم، وقُتل همام وغيره إلى أن قام في الصلح الحارث بن عوف المرِّي، كما سيأتي عند قوله: "وإنَّ الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك". وآل أمر مهلهل إلى أن رحل إلى أخواله من بني يشكر فريداً وحيداً، وأقام بين أظهرهم إلى أن مات، وقيل: قُتل.

وكان سبب قتله -كما ذكر ابن الكلبي- أنه أسنَّ وخرف، وكان له عبدان يخدمانه فملاً منه، وخرج بهما يريد سفرًا، فأناخا به في بعض الفلوات، وعزما على قتله، فلما عرف ذلك كتب بسكينٍ على رَحْل ناقتة هذا البيت -وقيل في بعض الروايات أنه أوصاهما أن يقولوا لولديه:

مَنْ مَبْلَغُ الْحَيِّينَ أَنَّ مَهْلَهْلًا لِلَّهِ دُرُكُما وَدُرُّ أَبِيكُما
ثم قتلاه، ورجعا إلى قومه، فقالا: مات؛ وأنشدهم قوله، ففكر بعض ولده، وقال: إنَّ مهلهلاً لا يقول هذا الشعر الذي لا معنى له، وإنما أراد أن يقول:

مَنْ مَبْلَغُ الْحَيِّينَ أَنَّ مَهْلَهْلًا أَمْسَى قَتِيلًا فِي الْفَلَاةِ مُجَدَّلًا
لِلَّهِ دُرُكُما وَدُرُّ أَبِيكُما لا ييرح العبدانِ حَتَّى يُقْتَلَ
فضربوا العبدين؛ فقرأ بقتله، فقتل به.

وشعر مهلهل من أعلى طبقات المتقدمين، ومن ذلك قوله:

بكره قلوبنا يا آل بكر تُغاديكم بمرفهة النَّصَالِ
لها لَوْنٌ مِنَ الهاماتِ جَوْنٌ وإن كانت تحادثُ بالصَّقالِ

(١) ط: "ثارك".

(٢) شمع النعل: قبالها الذي يشد إلى زمامها.

ونبكي حين نذكركم عليكم ونقتلكم كأننا لا نبالي
وهذه الأبيات هي أصل ما اعتمدت عليه الشعراء في هذا المعنى، وأميرهم^(١) البحري
في قصيدته العينية^(٢).

ومن ذلك قوله - أعني مهلهلاً:

أَلَيْتَنَا بِذِي حُسْمٍ أَنْيَرِي إِذَا أَنْتِ أَنْقَضِيتِ فَلَا تَحْوَرِي^(٣)
فَإِنْ يَكُ بِالذَّنَائِبِ طَالَ لَيْلِي فَقَدْ أَبْكَى مِنَ اللَّيْلِ الْقَصِيرِ^(٤)
وَأَنْقَذَنِي بِيَاضُ الصُّبْحِ مِنْهَا لَقَدْ أَنْقَذْتُ مِنْ شَرِّ كَثِيرِ
كَأَنَّ كَوَاكِبَ الْجُوزَاءِ عُوذُ مُعْطَفَةٌ عَلَى رُبْعِ كَسِيرِ^(٥)
كَأَنَّ الْفَرَقْدِينَ يَدَا مُفِيضٍ أَلَحَّ عَلَى إِفَاضَتِهِ قَمِيرِ^(٦)
فَلَوْ نُبِشَ الْمَقَابِرُ عَنْ كُلِّيبٍ لَخَبَرَ بِالذَّنَائِبِ أَيَّ زِيرِ^(٧)
وَأَنِّي قَدْ تَرَكْتُ بَوَارِدَاتٍ بُجِيرًا فِي دَمٍ مِثْلَ الْعَيْرِ^(٨)

(١) كذا في م، وفي ت: "وأمرهم".

(٢) ديوانه ٢: ٣١٦ - ٣١٨، يمدح المتوكل، ويذكر صلح تغلب؛ وفيها:

أَسَيْتُ لِأَخْوَالِي رِبْعَةً إِذْ عَفْتُ مَصَايِفُ مِنْهَا وَأَقْسُوتُ رُبْعَهَا
بُكَرْهِي أَنْ بَاتَتْ خِلَاءَ دِيَارِهَا وَوَحْشًا مَغَانِيَهَا وَشَتَّى جَمِيعَهَا
إِذَا افْتَرَقُوا عَنْ وَقْعَةٍ جَمَعَتْهُمْ لِأَخْرَى دِمَاءً مَا يُطْلُ نَجِيعَهَا
تَذُمُّ الْفَتَاةُ الرُّودُ شِمَةَ بَعْلِهَا إِذَا بَاتَ دُونَ الثَّارِ وَهُوَ ضَجِيعَهَا
حَمِيَّةُ شَعْبٍ جَاهِلِيٍّ وَعِزَّةُ كُليبة أعيال الرجال خضوعَهَا
وَفَرَسَانِ هَيْجَاءٍ تَجِيئُ صُدُورُهَا بِأَحْقَادِهَا حَتَّى تَضِيئُ دُرُوعَهَا
تَقْتُلُ مَنْ وَتَرٍ أَعَزَّ نَفْسَهَا عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَا تَكَادُ تَطِيْعَهَا
إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرْتُ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعَهَا
شَوَاجِرُ أَرْوَاحٍ تَقَطُّعُ بَيْنَهُمْ شَوَاجِرُ أَرْحَامٍ مَلُومٌ قَطُوعَهَا

(٣) أمالي القالي ٢: ١٢٩ - ١٣٤، الأغاني ٥: ٤٥ (طبع دار الثقافة). ذو حسم: موضع بعينه. وتحوري:

ترجعي.

(٤) قال أبو علي: "يقول: إن كان طال ليله هذا الموضع فقتل أخي؛ فقد كنت أستقصر الليل وهي حي".

(٥) العوذ: الحديثات التناج، واحداً عائد، والربع: ما نتج في الربع؛ يقول: كأن كواكب الجوزاء نوق حديثات التناج عطف على ربع مكسور، فهي لا تتركه وهو لا يقدر على النهوض.

(٦) قمير: مقامر؛ وهذا البيت لم يذكر في رواية القالي.

(٧) يقال: هو زير نساء وتبع نساء وطلب نساء، والخبر محذوف كأنه قال: أي زير أنا!.

(٨) بجير، ابن أخي الحارث.

هتكتُ به بيوتَ بني عبادٍ وبعض الغَشمِ أشقى للصدور^(١)
على أن ليسَ عدلاً من كُليب إذا ما ضيمَ جيران المجيرِ
على أن ليسَ عدلاً من كُليب إذا برزتَ مخبأة الخـدورِ
ومنها بعد أن كرر قوله:

* على أن ليسَ عدلاً من كُليب *

في أبيات كثيرة على عادة العرب في تكرار القول في الأمور العظيمة، وتقريرها - وهذه الأبيات استشهد المفسرون لقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾، وتكرير هذه الآية الشريفة:

كأنَّا غُدُوَّةٌ وبني أبنينا بجنب عُنيزةٍ رَحِيًّا مُديرِ^(٢)
كأنَّ رماحنا أشطانُ بئرٍ بعيدِ بين جاليتها جَرورِ^(٣)
تظلَّ الخيل عاكفةً عليهم كأنَّ الخيل تنهض في غديرِ^(٤)
فلولا الريحُ أسمعَ من بحجرٍ صليلَ البيضِ تُفَرِّعُ بالذُّكُورِ^(٥)
يقال: إنَّ هذا أول كذب ورد في الشعر وأبلغه؛ فإنَّ بين الذنائب وحجر^(٦) سبع ليال.
ومن ذلك قوله:

فَتَلُّوا كُليباً ثم قالوا لا تثب كلاً وربَّ البيتِ ذي الإحرامِ^(٧)
حتى يعصَّ الشيخ بعد حميةٍ ممَّا يرى جزعاً على الإبهامِ
وتجولُ ربَّاتُ الخدورِ حواسراً يمسحُنَ عَرَضَ ذوائبِ الأيتامِ^(٨)

(١) كذا في رواية الأغاني، وفي الأمالي: "وبعض القتل"، وبعده هناك:

وهمام بن مُرَّةٍ قد تركنا عليه القشعمين من النسور
والقشعم من النسور: الهرم.

(٢) في شرح شواهد المغني للبغدادي: "قال أبو عبيد البكري في شرح نوادر القالي المسمى قرة النواظر في شرح النوادر: الرحيان إذا أدارهما مدير أثرت إحداها في الأخرى؛ وهما من معدن واحد؛ وكذلك هؤلاء، هم من أصل واحد يتباحقون ويقتتلون".

(٣) الأشطان: جمع شطن وهو الحبل الشديد الفتل يُستقى به. وجال البئر: ناحيتها والجور من الآبار: البعيدة القعر.

(٤) الأمالي: "تدحض"؛ قال: "أي تزلق؛ يقال: مكان دحض ومزلة".

(٥) الأمالي: "أهل حجر". والذكور: السيوف.

(٦) حجر: قصبة اليمامة وحريمهم إنما كانت بالجزيرة، وبينهما عشرة أيام.

(٧) شعراء النصرانية ١٧٥، مع اختلاف في الرواية.

(٨) يروى: "عرض غائم الأيتام".

وقوله:

طَفْلَةٌ شَتْنَةٌ المخلخل بيضا ءَ لَعُوبٌ لَذِيذَةٌ فِي الْعِنَاقِ^(١)
ضربت صدرها إليّ وقالت يا عدِيًّا لَقَدْ وَقَتَكَ الْأَوَاقِي^(٢)
ومنها يرثي كليباً:

إِنَّ تَحْتَ الْأَحْجَارِ حَزْماً وَعَزْماً وَخَصِيماً أَلَدَّ ذَا مِعْلَاقٍ
حَيَّةٌ فِي الْوَعْيِ، وَأَرْبَدُ لَا تَنْدُ فَعَمِ مِنْهُ السَّلِيمَ نَفْثَةً رَاقٍ^(٣)
قوله: "ذا معلق"؛ يروى بالعين، وهو الرجل الكثير الخصومة الشديدها، كأنه يعلق
بخصمه، ويروى بالغين، كأنه يغلق على خصمه القول، وجميع شعره في هذه الغاية من التمكن
والقوة.

٣٣- وَالسَّمَوْعَلُ إِنَّمَا وَفَى عَنْ عَهْدِكَ

[السموعل بن عادياء]

هو السَّمَوْعَل بن عادياء، من يهود يثرب، الذي يُضرب به المثل في الوفاء، فيقال:
"أوفى من السَّمَوْعَل"؛ وسبب ذلك أن أمراً القيس بن حُجر الكندي لما قُتل أبوه وكان
ملكاً في كِنْدَةَ، خرج يستنجد بملك الروم كما سيأتي ذكره، فلما مرَّ على تيماء وبها حصن
السَّمَوْعَل المسمى بالأبلق المذكور في شعره، أودع السَّمَوْعَل مائة درع وسلاحاً ومضى؛
فسمع الحارث بن ظالم -وقيل: الحارث بن أبي شمر الغساني- بها، فجاء ليأخذها منه،
فأبى السَّمَوْعَل، وتحصن بحصنه، فأخذ الحارث ابن السَّمَوْعَل وناداه، وقال له: إن لم تسلّم
الأدراع وإلا قتلت أبنك، فأبى أن يسلم له الأدراع، فضرب وسط الغلام بسيفه فقطعه -وأبوه
يراه- وطرحه وانصرف. فقال السَّمَوْعَل في ذلك قصيدته التي [يقول فيها^(٤)]:

أَعَاذَلْتَنِي أَلَا لَا تَعْذُلِينِي فَكُمُ مِنْ أَمْرِ عَاذِلٍ عَصِيَّتْ!^(٥)

- (١) الأغاني ٥ : ٤٦ (دار الثقافة)، شواهد العيني ٤ : ٢١٢ . طفلة، أي ناعمة.
- (٢) البيت من شواهد الألفية للعيني، قال: الاستشهاد فيه في قوله: "يا عدِيًّا"؛ فإن الشاعر لما اضطر نون "عدِيًّا" الذي هو منادى مفرد معرفة، ثم لما نونه نصبه، تشبيهاً بالمضاف.
- (٣) الحبة، تُطلق على الذكر والأنثى، والوجار: جحر الضبع، ويُستعار لغيرها والأربد: الذي يضرب لونه إلى السواد.
- (٤) من دت "في ذلك قصيدة".
- (٥) ديوانه ٤٩، ٥٠، الأغاني ٦ : ٣٣٢، مع زيادة ونقص واختلاف في الروايات.

وَفِيْتُ بِأَدْرُعِ الْكَنْدِيِّ إِنِّي إِذَا مَا دُمُّ أَقْوَامٌ وَفِيْتُ^(١)
 وَأَوْصَى عَادِيًا يَوْمًا بَأَلَا تَهْدَمَ يَا سَمُوعَلْ مَا بَنِيْتُ
 دَعِينِي وَارْشُدِي إِنْ كُنْتَ أَغْوَى وَلَا تَغْوَى - زَعَمْتُ - كَمَا غَوَيْتُ
 ومات امرؤ القيس قبل أن يعود إلى تيباء، ومنع السموعل الأذراع إلى أن مات هو أيضاً،
 فَضْرَبَ بِهِ الْمَثْلَ؛ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْأَعَشَى:
 كُنْ كَالسَّمُوعَلِ إِذْ طَافَ الْهُمَامُ بِهِ فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّارٍ^(٢)
 [إِذْ سَامَهُ خُطَّتِي خَسَفٍ فَقَالَ لَهُ مَهْمَا تَقُلْهُ فَإِنِّي سَامِعٌ حَارٍ]^(٣)
 فَقَالَ: غَدْرٌ وَتُكْلٌ أَنْتَ بَيْنَهُمَا فَاخْتَرِ وَمَا فِيهِمَا حِظٌّ لِمَخْتَارِ
 فَشَكَ غَيْرَ طَوِيلٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ أَقْتُلْ أَسِيرَكَ إِنِّي مَانِعٌ جَارِي
 وَالسَّمُوعَلُ هَذَا مِنْ شِعْرَاءِ الْجَاهِلِيَةِ الْمُجِيدِينَ، وَلَهُ فِي الْحِمَاسَةِ اللَّامِيَةِ الْمَشْهُورَةِ وَهِيَ
 قَوْلُهُ^(٤):

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيْلُ^(٥)
 [وَأِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضِمَمَهَا فليس إلى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيْلُ
 فَمَا ضَرَبْنَا أَنَا قَلِيْلٌ وَجَارُنَا عَزِيْزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِيْنَ ذَلِيْلُ]^(٦)
 وَلَهُ أَيْضًا:
 إِنِّي إِذَا مَا الْمَرْءُ بَيَّنَّ شَكْلُهُ وَبَدَتْ عَوَاقِبُهُ لِمَنْ يَتَأَمَّلُ^(٧)
 وَتَبَرَّأَ الضُّعَفَاءُ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَأَلَحَّ مِنْ حُرِّ الصِّمِيمِ الْكَلْكَلُ
 أَدْعُ الَّتِي هِيَ أَرْفَقُ الْخَلَاتِ بِي عِنْدَ الْحَفِيْظَةِ لِلَّتِي هِيَ أَجْمَلُ

(١) الأغاني: "إذا ما خان".

(٢) ديوانه: ١٢٦.

(٣) تكملة من الديوان.

(٤) كذا في د، وفي ط: "اللامية المشهورة عند أرباب البديع، أولها يقول".

(٥) القصيدة في ديوانه ١٠ - ١٧؛ ولم يرد في الأصول الخطية سوى البيت الأول، والأبيات التالية له وردت في ط.

(٦) تكملة من ط.

(٧) ديوانه ٥١، نقلاً عن سرح العيون، وفي د والديوان: "بين شكه"، وفي م: "بين سكة".

وله:

يا لَيْتَ شِعْرِي حِينَ أُنْدَبُ هَالِكاً ماذا تُؤَبِّنِي بِهِ أَنْوَاجِي! (١)
أَيَقْلَنَ لَا تَبْعَدُ فَرْبَ كَرِيهَةٍ فَرَجَتْهَا بِشِجَاعَةٍ وَسَمَاحٍ
وَلَقَدْ أَخَذْتُ الْحَقَّ غَيْرَ مَخَاصِمٍ وَلَقَدْ بَذَلْتُ الْحَقَّ غَيْرَ مُسْلِحٍ

٣٤- وَالْأُحْنَفَ، إِنَّمَا أُجْتَبِيَ فِي بُرْدِكَ

[الأحنف بن قيس]

هو الأحنف المضروب به المثل في الحلم والسيادة، واسمه الصَّحَّاح - وقيل: صَخْر - ابن قيس بن معاوية بن حصن السعدي، ويكنى أبا بَحْر. أدرك النبي ﷺ ولم يره، ودعا له. حَدَّثَ الْأُحْنَفُ قَالِكَ بَيْنَمَا أَنَا أَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ؛ إِذْ لَقِينِي رَجُلٌ أَعْرِفُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَقَالَ: أَلَا أَبْشُرُكَ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: أَمَا تَذْكُرُ إِذْ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى قَوْمِكَ مِنْ بَنِي سَعْدٍ أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ فَيَجْعَلُونَ أَدْعُوهُمْ وَأَعْرَضَ عَلَيْهِمْ؛ فَقُلْتُ أَنْتَ: إِنَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَى خَيْرٍ، وَلَا أَسْمَعُ إِلَّا حَسَنًا؛ فَأَتَيْتُ رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرْتَهُ بِمَقَالَاتِكَ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ أَغْفِرْ لِلْأُحْنَفِ!" قَالَ: فَمَا شَيْءٌ أَرْجَى لِي مِنْهَا.

وُسُمِّيَ الْأُحْنَفَ لِحَنْفٍ فِي رِجْلِهِ، وَكَانَتْ أُمُّهُ تَرْقِصُهُ وَهُوَ طِفْلٌ، فَتَقُولُ:

وَاللَّهِ لَوْلَا حَنْفٌ فِي رِجْلِهِ مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُمْ مَنْ مِثْلِهِ
يُقَالُ: تَحَانَفَ الرَّجُلُ فِي مَشْيِهِ، وَهُوَ أَنْ تَقْبَلَ الرَّجُلُ بِالْإِبْهَامِ عَلَى الْأُخْرَى.

وقال عبد الملك بن عُمَيْرٍ: وَفَدَّ عَلَيْنَا الْأُحْنَفَ مَعَ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ الْكُوفَةِ، فَمَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا يُدَمُّ إِلَّا رَأَيْتُهُ فِيهِ؛ كَانَ ضَمِيلًا، أَصْلَعُ الرَّأْسِ، مَتْرَاكِبُ الْأَسْنَانِ، بَاخِقُ الْعَيْنَيْنِ (٢)، وَكَانَ إِذَا تَكَلَّمَ جَلَّى عَنْ نَفْسِهِ.

وقال الشعبي: أَوْفَدَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ وَفَدَ الْبَصْرَةَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ، وَفِيهِمُ الْأُحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى عُمَرَ، تَكَلَّمَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي حَاجَةِ نَفْسِهِ؛ وَكَانَ الْأُحْنَفُ فِي آخِرِ الْقَوْمِ، فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا بَعْدَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ أَهْلَ مِصْرَ نَزَلُوا مَنَاظِلَ فِرْعَوْنَ وَأَصْحَابِهِ، وَأَهْلَ الشَّامِ نَزَلُوا مَنَاظِلَ قَيْصَرَ، وَأَهْلَ الْكُوفَةِ نَزَلُوا مَنَاظِلَ

(١) ديوانه ٥٠، عن سرح العيون.

(٢) باخق العينين، منخسف العينين.

كسرى ومصانعه؛ في الأنهار العذبة والجنان المخضبة، وفي مثل عين البعير^(١)، وكالحوار في السلى^(٢)، تأتيهم ثمارهم قبل أن تتغير؛ وإن أهل البصرة نزلوا في أرض سبخة زعقة، نشاشة^(٣)؛ طرف^(٤) في ملح أجاج، والطرف الآخر في الفلاة، لا يأتيها الجلب إلا في مثل حلقوم النعامة، فأرفع خسيستنا^(٥)، وأنعش ركيستنا^(٦)؛ وأعدل لنا قفيزنا ودرهمنا، ومر لنا بنهر نستعذب منه الماء^(٧). فقال عمر رضي الله عنه: أعجزتم أن تكونوا مثل هذا العبد! هذا والله السيد! فما زلت أسمعها منه، ثم حبسه عنده سنة، ثم قال: يا أحنف، إني قد بلوتك فأعجبني؛ وإنما حبستك لأعلم علمك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أحذروا المنافق العالم"؛ وأشفقت عليك منه، فوجدتك بريئاً مما تخوفت عليك، وسرّحه، وأحسن جائزته.

ولم يزل يُشرف حتى مات، وساد بعقله وحلمه حتى يكاد يجرد لأمره مائة ألف سيف، وكان أمراء الأنصار يلتجئون إليه في المهمات، وكان إذا أراد حرباً قال الناس: قد غضبت زبراء، فصار مثلاً. وزبراء جاريته فكان مطيعاً لها، فكانوا يَكُونون عن غضبه في الحرب بغضبها.

وكان يقول: كنا نختلف إلى قيس بن عاصم نتعلم منه الحلم، كما نختلف إلى العالم نتعلم منه العلم^(٨).

وحكى خالد بن صفوان؛ قال: كنت بالرصافة عند هشام بن عبد الملك، فقدم عليه العباس بن الوليد، فغشيته الناس، فدخلت عليه، فقال: حدثني عن تسويدكم الأحنف، وانقيادكم له؛ فقلت: إن شئت حدثتك عنه بواحدة تسود، وإن شئت بإثنتين، وإن شئت

(١) الفائق: "نزلوا في مثل حدقة البعير من العيون العذاب"، قال في شرحه: "شبه بلادهم في خصبها وكثرة ماؤها بحدقة البعير وحولاء الناقة، لأن الحدقة توصف بكثرة الماء. وقيل: أراد أن خصبها دائم لا ينقطع".

(٢) الحوار: الفصل أول ما ينتج، والسل: الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد؛ تكون للناس والإبل والخيول. وفي الفائق: وروي "إن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حولاء الناقة". قال في شرحه: "والحولاء: جلدة رقيقة تخرج مع الحوار كأنها امرأة مملوءة ماء أصفر".

(٣) في اللسان "سبخة نشاشة، أي لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها".

(٤) كذا في ت، وفي باقي الأصول: "طرفها".

(٥) في اللسان عن الأزهري: "يقال: رفع الله خسيصة فلان؛ إذا رُفِع حاله بعد انحطاطها" ومنه حديث الأحنف: "إن لم ترفع خسيستنا" وفي ت: "خسيستنا".

(٦) يعني الحال الضعيفة. والركيس: الضعيف.

(٧) حديث الأحنف وما فيه من غريب في الفائق ١: ٢٤٥.

(٨) في أخبار الأحنف في ابن خلكان ١: ٢٣١: "وكان يقول: ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقري؛ لأنه قتل ابن أخ له بعض بنيه، فأتى بالقاتل مكتوفاً يُقاد إليه؛ فقال "ذعرتم الفتى؛ ثم أقبل على الفتى فقال: يا بني؛ بس ما فعلت! نقصت عددك، وأوهنت عضدك، وأشمت عدوك؛ وأسأت بقومك؛ خلوا سبيله، واحملوا إلى أم المقتول ديتة؛ فإنها غريبة. ثم انصرف القاتل، وما حل قيس حبوته، ولا تغير وجهه".

بثلاث، وإن شئتَ حَدَّثْتُكَ عَشِيَّتِكَ حَتَّى تَنْقُضِي وَلَمْ تَشْعُرْ بِصَوْمِكَ -وكان صائماً في يوم خميس- فقال: هاتِ الأولى؛ فقلت: كان أعظمَ مَنْ رأينا أو سمعنا سلطاناً على نفسه فيما أراد حملها عليه، أو دَفَعَهَا عنه، ثم أدركني ذهني فقلت: غير الخلفاء.

فقال: لقد ذكَّرتُها نجلاء كافية؛ فما الثانية؟ قلت: قد يكون الرجل عظيم السلطان على نفسه ولا يكون بصيراً بالمحاسن والمساوئ، ولم نَرِ ولم نسمع بأحد أبصر منه بالمحاسن والمساوئ؛ فلا يحمل السلطنة إلى على حسن، ولا يكفها إلا عن قبيح.

فقال: قد جئتُ بِصِلَةِ الأولى لا تصلح إلا بها؛ فما الثالثة؟ قلت: قد يكون الرجل عظيم السلطان على نفسه، بصيراً بالمحاسن والمساوئ، ولا يكون حَظِيظاً فلا يُنْشِرَ له ذكر، وكان الأحنف عند الناس مشهوراً.

قال: وأبيك لقد وصلت الإثنتين، فما بَقِيَّةُ ما يقطع عني الصوم العشيَّة؟ قلت: أيامه السالفة، مثل: فتح خراسان، اجتمعت عليه الأعاجم بمرو الروذ، فجاءه ما لا قبل له به، وهو في منزل مَضِيعة، وقد بلغ به الأمر، فصلَّى العشاء الآخرة ودعا، وتضرَّع إلى الله تعالى أن يوفِّقه. ثم خرج يمشي في العسكر مشي المكروب متكرراً لسمع ما يقول الناس، فمرَّ بعبد يعجن وهو يقول لصاحب له: العَجَبُ لأميرنا! يقيم بالمسلمين في منزل مَضِيعة، وقد أطاف بهم العدو من نواحيهم، وأتخذوهم أغراضاً؛ وله متحوَّل! فجعل الأحنف يقول: اللهم وفق، اللهم سدّد. فقال العبد للعبد: فما الحيلة؟ قال: أن ينادي الساعة بالرحيل، وإنما بينه وبين الغيضة فرسخ، فيجعلها خلف ظهره فيمنعه الله بها؛ فإذا امتنع ظهره بها بعث بمجنَّبتيه اليمنى واليسرى، فيمنع الله تعالى بها ناحيته، ويلقى عدوّه في جانب واحد. فسجد الأحنف ثم نادى بالرحيل من مكانه؛ حتى أتى الغيضة، فنزل في قبْلِها، وأصبح فأتاه العدو، فلم يجدوا سبيلاً إلا من وجه واحد وهولوا بطبول أربعة، وركب الأحنف، وأخذ اللواء، وحمل بنفسه على طبل فشقه، وقتل صاحبه وهو يقول:

إِنْ عَلَى كُلِّ رَئِيسٍ حَقًّا أَنْ يَخْضِبَ الصَّعْدَةَ أَوْ تُنَدِّقَا

وشقَّ بقية الطبول، فلما فقدَ الأعاجم أصوات طبولهم أنهزموا، وركب المسلمون أكتافهم، وكان الفتح. ثم عدّد خالد عنه بقية يومه^(١) إلى أن أنقضى [النهار]^(٢).

(١) ط: "أيامه".

(٢) من ط.

وللأحنف حكايات حسنة، وألفاظ مُحْكَمَة، ومؤاخذات معدودة عليه. فمن حكاياته ما حَدَّث بعض غلمانه، قال: كان الأحنف يُكثِر الصلاة بالليل، وكان يجيء إلى المصباح فيضع إصبعه فيه ثم يقول: حسّ، ويقول: ما حملك على أن صنعت كذا وكذا في يوم كذا؟. وشكا إليه رجل وجع ضرسه، فقال: لقد ذهب نور عيني منذ ثلاثين سنة، ما علم بذلك أحد.

وقال له عمر رضي الله عنه: أي الطعام أحب إليك؟ قال: الزُّبْد والكمأة، قال عمر: ما هما بأحب الطعام إليه؛ ولكنه يحب الخصب للمسلمين - يعني أن الزُّبْد والكمأة لا يكونان إلا في الخصب -.

وخلا به رجل فسبّه سباً قبيحاً، فقام الأحنف وهو يتبعه، فلما وصل إلى قومه وقف وقال: يا أخي! إن كان قد بقي من قولك فضلة فقل الآن، وإلا يسمعك قومي فتؤذى. وقال له رجل: بَمَ سُدَّتْ قومك ولست بأشرفهم؟ فقال: بتركي من أمرك ما لا يعينني؛ كما لم تترك من أمري ما لا يعينك.

وقال له رجل: لأشتمك شتماً يدخل معك قبرك، فقال: في قبرك يدخل والله لا في قبري.

وقيل له: بَمَ سَدَّتْ؟ قال: لو أن الناس كرهوا الماء ما شربته ^(١).

وقال يوماً: ما يسرُّني أني نزلت بدار معجزة؛ وأني ألَبْتُ فأُسْمِنت. قيل له: يا أبا بحر، وما يراد من دار الحَزْم غير هذا! فقال: إني أكره سوء العادة.

ووفد على معاوية مع أهل العراق، فقال أذنه: إن أمير المؤمنين يُقسم عليكم ألا يتكلم أحدٌ منكم إلا لنفسه، فدخلوا، فقال الأحنف: لولا حرمة أمير المؤمنين لأخبرته أن نازلة نزلت، ونائبة نابت، وكلهم به فاقة إلى رِفْد أمير المؤمنين! فقال: حسبك يا أبا بحر؛ فقد كَفَيْت مَنْ غاب وَمَنْ شهد.

وذكره معاوية يوماً بصحبته لعلِّي بن أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه وأيام صِغَرٍ، فقال: يا أمير المؤمنين، للقلوب التي أبغضناك بها بين جنوبنا؛ والسيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا، وإن شئت استصفيت كدَرنا بحلمك، فقال: أجل.

ومما عيَّب به وأخذ عليه أمر الزبير بن العوام؛ وذلك أنه لما ترك القتال يوم الجمل، ورجع عن الحرب مرّ ببني تميم ذاهباً إلى دياره؛ فأتى رجل الأحنف فقال: هذا الزُّبَيْر قدم

(١) د: "قال: لو أن ببني وبين الناس شعرة ما قطعت، ولو كرهوا الماء ما شربته".

آنفاً، فقال: ما أصنع به؟ جمع بين غَارَيْنِ^(١) يقتل بعضهم بعضاً، ويريد أن ينجو هو إلى أهله. فتبعه ابن جُرموز فقتله غدرًا، فقال الناس: إنما قتله الأحنف بكلامه ذلك؛ وإنَّ ابنَ جُرموز إنما فعل عن رأيه.

وحين أتاه كتاب الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما يستنصره، فقال: قد بلونا حسناً وآل حسن فلم نجد عندهم إيالة الملك، ولا صيانة المال، ولا مكيدة الحرب؛ ولم يجبه.

وقوله للحُتات بن يزيد: اسكت يا آدر؛ وكان الحُتات آدر. وطاعته لجاريته زُبراء؛ حتى سئل عن ذلك، فقال: كيف لا أطيع مَنْ لي إليه كلُّ يوم حاجة!

وأناه رجل فلطمه، فقال: لِمَ لطمتني؟ قال: جُعل على أن أطم سيد بني تميم؛ قال: لستُ بسيدهم، وإنما سيدهم حارثة بن قدامة، فمضى الرجل إليه فلطمه، فقطع يده، فقال الناس: إنما قطع يده الأحنف.

وأرسل إليه عمرو بن الأَهم رجلاً يكايد، فقال: ما كان مال أبيك؟ ففطن له الأحنف، فقال: صِرْمَةٌ يُقْرَى منها ضيفه، ويكفي عياله، ولم يكن أهتم سلاحاً. فهذا ما حفظ من سقطاته. وقريب منها أنه خاط عند رجل ثوباً، ثم تقاضاه دهرًا، فلما ضجر أخذ بيد ولده وجاء إلى الخياط فقال: إذا متَّ فادفع الثوب لهذا.

ومن كلامه: لا خير في لذة تُعقب نداماً. لن يفتقر مَنْ زهد. اقبلوا عذر مَنْ اعتذر. ما أقبح القطيعة بعد الصلة! أنصف من نفسك قبل أن يُنتصف منك. لا تكوننَّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان. اعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك؛ فأنفق في حق ولا تكوننَّ خازناً لغيرك. لا راحة لحسود، ولا مروءة لكذوب. عجبت لمن يتكبر وقد خرج من مخرج البول مرّتين!

وقال يوماً: ما رددت عن حاجة قط، ف قيل له: ولم؟ قال: لأنني لا أطلب المُحال. وقال: ما نازعني أحدٌ إلا وأخذت في أمره بثلاث: إن كان فوقِي عرفت له فضله، وإن كان دُونِي رفعتُ قدرِي عنه، وإن كان مثلي تفصّلتُ عليه. وقال له رجل: دلّني على المروءة، فقال: عليك بالخلقِ الفسيح، والكفِّ عن القبيح؛ ثم قال: ألا أدلك على أدوأ الداء؟ قال: بلى، قال: اكتسابُ الذمِّ بلا منفعة.

(١) الغار هنا: الجيش.

وقال يوماً: كانت المودة مَحْضاً، فليتها اليوم مَذَقاً^(١)!

ومن شعره:

ولو مدَّ سَرُويَ بمالٍ كثيرٍ لجُدتُ وكنْتُ له باذلاً^(٢)
فإنَّ المروءة لا تُستطاعُ إذا لم يكن مالها فاضلاً
وكان يجلس إليه رجل كثير الصمت، فأعجب به الأحنف، ثم تكلم يوماً فقال: يا أبا بحر، تقدر تمشي على شرف المسجد؟ فقال: يا أخي، إنِّي كبرت ولا أقدر على ذلك، ثم أنشد يقول:

وكأئن تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ زيادته أو نقصه في التَّكَلُّمِ^(٣)
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبقَ إلَّا صورة اللحم والدم
فرواها قوم له، وقيل: تمثَّل بها وهي لغيره، فإنها أرفع طبقة من شعره.
ومات بالكوفة سنة تسع وستين، وخرج مصعب بن الزبير في جنازته ماشياً بغير إزار، وهو أول أمير فعل ذلك في جنازة كبير. ولما وُضع في قبره قامت امرأة له فقالت: لله درك من مُدرَج في كفن! نسأل الله الذي ابتلانا بفقدك، أن يوسِّع لحدك، ويكون لك يوم حشرِك. أما والذي كنت من أمره إلى مدة، لقد عشتَ حميداً مودوداً، ومِتَّ شهيداً مفقوداً؛ ولقد كنت من الناس قريباً، وفي الناس غريباً. رحمنا الله وإياك!.

٣٥- وَحَاتِمًا إِنَّمَا جَادَ بَوْفَرِكَ

[حاتم الطائي]

هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، وكنيته أبو سَفَّانة وأبو عديٍّ. وأجواد^(٤) العرب في الجاهلية ثلاثة: حاتم الطائي، وهرم بن سنان، وكعب بن مامة؛ وحاتم أشهرهم ذكراً، أدرك مولد النبي ﷺ، ومات قبل مبعثه.

وحكي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أنه قال يوماً: سبحان الله! ما أزهَّد كثيراً من الناس في الخير! عجباً لرجل يحييه أخوه المسلم^(٥) في حاجة، فلا يرى نفسه للخير أهلاً^(٦)!

(١) المحض: اللبن الخالص، والمذق: المخلوط بالماء.

(٢) السرور: الشرف والسيادة. وانظر البيان ٢: ٢٩٢.

(٣) زهير في معلقته بشرح الزوزني، وانظر شعراء النصرانية ٥٢٤.

(٤) ت: "أجود".

(٥) ساقطة من الأغاني.

(٦) الأغاني: "فلو كنا لا نرجو ولا نخاف ناراً، ولا ننتظر ثواباً".

فلو كان لا يرجو ثواباً، ولا يخاف عقاباً؛ لكان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق؛ فإنها تدل على سبيل النجاح^(١).

فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أسمعته من النبي ﷺ؟ قال: نعم [وما هو خير منه]^(٢)؛ لما أتى بسبايا طيء، وقفت جارية عطاء لعساء^(٣)، فلما رأيتها أعجبت بها، وقلت: لأطلبنها من النبي ﷺ، فلما تكلمت أنسيت جمالها بفصاحتها، فقالت: يا محمد، إن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يفك العاني، ويُسبغ الجائع، ويكسو العاري، ولم يرد طالب حاجة قط^(٤)؛ أنا ابنة حاتم الطائي. فقال النبي ﷺ: "يا جارية، هذه صفة المؤمن، ولو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلوا عنها؛ فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق؛ [والله يحب مكارم الأخلاق]^(٥)".

وقال عدي بن حاتم: قلت للنبي ﷺ: إن أبي كان يطعم المساكين، ويُعتق الرقاب، ويصل الرحم، فهل له في ذلك أجر؟ قال: "إن أباك رام أمراً فأدركه" - يعني الذكر.

وأول ما ظهر من جود حاتم أن أباه خلفه في إبله وهو غلام، فمر به جماعة من الشعراء، فيهم عبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم، والنابعة الذبياني، يريدون النعمان، فقالوا لحاتم: هل من قرى؟ ولم يعرفهم، فقال: تسألوني^(٦) القرى وقد رأيتم الإبل والغنم! أنزلوا. فنحر لكل واحد منهم، وسأهم عن أسمائهم فأخبروه^(٧)، ففرق فيهم الإبل والغنم. وجاء أبوه فقال: ما فعلت؟ قال: طوّقتك مجد الدهر تطويق الحماة، وعرفه^(٨). فقال أبوه: [إذاً والله لا أساكنك أبداً ولا آويك، فقال حاتم]^(٩): إذاً لا أبالي! [فأعترله].

(١) الأغاني: "النجاة".

(٢) من الأغاني.

(٣) العطاء: الطويلة العنق. واللعاء: مَنْ كان لوناً أدنى إلى السواد مشرباً بحمرة. وفي الأغاني: "جارية حواء العينين لعساء لمياء عطاء شاء الأنف معتدلة القامة، ردماء الكعنين، خدلجة الساقين، لفاء الفخذين، خميصه الخصر، ضامرة الكشحين، مصقولة المتنين".

(٤) الأغاني: "كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار، ويقرى الضيف، ويُسبغ الجائع، ويُفرج عن المكروب، ويُطعم الطعام، ويُفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط".

(٥) من الأغاني؛ والخبر هناك في ١٦ : ٩٣ (ساسي).

(٦) تسألوني؛ كذا في الأصول، بحذف نون الرفع، وهو مشهور في كلامهم من غير ناصب ولا جازم.

(٧) الشعر والشعراء: "فتسموا له".

(٨) الشعر والشعراء: "وأخبره بها صنع".

(٩) الزيادة من الشعر والشعراء؛ والخبر هناك في الجزء الأول ص ١٩٤.

وحكي عن زوجته التّوار^(١)، قالت: أصابتنا سنة أقشعرت لها الأرض، [وأغبرّ أفق السماء، وراحت الإبل حُذْباً حُدَابير]^(٢)، وضنت المراضع على أولادها، [فما تبضّ بقطرة، وجلّفت السنّة المال، وأيقنا أنه الهلاك]^(٣)، فوالله إنّنا لفِي ليلةٍ صَبْر^(٤) بعيدة ما بين الطرفين، إذ تضاغى^(٥) أولادنا: عبدالله، وعديّ، وسفانة؛ فقام حاتم إلى الصبيّين، وقمّت إلى الصبيّة، فوالله ما سكتوا إلا بعد هدأة من الليل ثم ناموا، ونمت أنا وإيّاها، فأقبل يعلّلي بالحديث، فعرفت ما يريد؛ فتناومتُ وما يأتيني نوم، فقال: ما لها؟ أَنَامَتْ! فسكت، ثم تهوّرت النجوم^(٦) إذا شيء قد رفع كسر^(٧) البيت، فقال: من هذا؟ [فولّي ثم عاد في آخر الليل، فقال: مَنْ هذا؟]^(٨)، قالت: جاريتك فلانة، قال: ما لك؟ قالت: الشرّ! أتيتك من عند صبيّة^(٩) يتعاوون تعاوي الذئاب من الجوع، [فما وجدتُ معولاً إلا عليك أبا عديّ]^(١٠)، قال: أعجليهم. فهبيت إليه، فقلت: ماذا صنعت! فوالله لقد تضاغى صبيتك من الجوع فما أصبتُ ما يعللهم! فقال: أسكتي. وأقبلت المرأة تحمل إثنين^(١١) ويمشي جانبها أربعة كأنها نعامه حولها رئالها، فقام إلى فرسه حلاب فنحره، وكشط جلده^(١٢)، ودفع المُدية إلى المرأة، ثم قال: أبعثي صبيانك، فبعثتهم فأجتمعنا، فقال: تأكلون دون أهل الصّرم^(١٣)! ثم جعل يأتهم^(١٤) بيتاً ويقول: دونكم النار، فأجمعوا فالتفع بثوبه ناحية ينظر إلينا، فوالله ما ذاق

(١) وكذا في الشعر والشعراء، وفي الأغاني "عن امرأته ماوية".

(٢) من الشعر والشعراء. الحذب: جمع حذباء؛ وهي التي بدت حراقفها وعظم ظهرها. والحداير: جمع حدابار، وهي العجفاء الضامرة التي قد ييس لحمها من الهزال.

(٣) من الشعر والشعراء، وأصل الجلف القشر؛ فكأن السنة قشرت المال، والجالفة: السنة التي تذهب بأموال الناس.

(٤) صبر: باردة.

(٥) تضاغوا: تصايحوا.

(٦) تهوّرت النجوم: ذهب أكثرها.

(٧) الكسر: أول الشقة السفلى من الخباء.

(٨) من الشعر والشعراء.

(٩) من الشعر والشعراء: "أصبيّة".

(١٠) من الشعر والشعراء.

(١١) الشعر والشعراء: "أبنين".

(١٢) الشعر والشعراء: "فوجاً لبنة بديته فخر ثم كسطه".

(١٣) الصرم؛ بالكسر: الأبيات المجتمعة المتقطعة من الناس.

(١٤) ط: "يأتي".

منها مُزعة^(١)، وإنه لأحوجهم^(٢)؛ وأصبحنا وما على الأرض إلا عظم أو حافر^(٣).
وحكى ابن الأعرابي، قال: أسير حاتم في عنزة، فقالت له امرأة يوماً: قم فأفصد لنا
هذه الناقة^(٤) - وكان الفصد عندهم أن يُقطع عِرْق من عروق الناقة، ثم يُجمع الدم فيشوى
ويؤكل - فقام حاتم إلى الناقة ففقرها، فلطمته المرأة، فقال: لو غير ذات سوار لطمتني!
فذهبت مثلاً. ثم قال له النسوة: إنما قلنا لك: أفصدها، قال: هذا فزدي أنه، يعني فصدي
أنا، وهي لغة طيء.

وحكى المدائني، قال: أقبل ركب من بني أسد، ومن قيس؛ يريدون النعمان، فلقوا
حاتماً، فقالوا: تركنا قومنا يُثنون عليك خيراً، وقد أرسلوا إليك رسالة، قال: وما هي؟
فأنشده الأسيديون شعراً لعبيد ولبشر يمدحانه^(٥)، فلما أنشدوه، قالوا: إنا نستحي أن نسألك
شيئاً، وإن لنا حاجة! قال: وما هي؟ قالوا: صاحب لنا قد رجل - يعني فقد راحلته - فقال
حاتم: خذوا فرسي هذه فأحملوه عليها، فأخذوها، وربطت الجارية فلوها بثوبها فأفلت^(٦)
يتبع أمه؛ واتبعتة الجارية، فصاح حاتم: ما تبعكم من شيء فهو لكم. فذهبوا بالفرس والفلو
والجارية^(٧).

(١) المزعة: القطعة من اللحم ونحوه.

(٢) الشعر والشعراء: "وإنه لأحوج إليه منا".

(٣) الخبر في الشعر والشعراء ١ : ١٩٥ - ١٩٧، وفي الأغاني ١٦ : ١٠٤ - ١٠٥ (ساسي)؛ وزاد في الشعر
والشعراء: "فعدلته على ذلك، فأنشأ حاتم يقول:

مهلاً نَوَارُ أَقْلِي اللَّوْمِ وَالْعَدَلَا ولا تقولني لشيء فات: ما فعلا!

ولا تقولني لمال كنت مهلكه مهلاً، وإن كنت أعطي الجنّ والخبلا

يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى في ماله سُبُلا

لا تغدليني في مال وصلت به رَحْماً، وخير سبيل المال ما وصلا

(٤) رواية الأغاني ١٦ : ١٠٣: فجعل نساء عنزة يدارفن بغيراً ليفصدنه، فضعن عنه، فقلن: يا حاتم، أفصده
أنت إن أطلقنا يديك؟ قال: نعم، فأطلقن إحدى يديه؛ فوجأ لبته، فاستدمنه. ثم إن البعير عضد - أي لوى عنقه، أي
خر - فقلن: ما صنعت؟ قال: "هكذا فصدي"، فجرت مثلاً، قال: فلطمته إحداهن، فقال: ما أنتن نساء عنزة بكرام ولا
ذوات أحلام. وإن امرأة منهن يُقال لها عاجزة أعجبت به، فأطلقته؛ ولم ينقموا عليه ما فعل، فقال حاتم يذكر البعير الذي
قصده:

كذلك فصدي إن سألت مطيبي دم الجوف إذ كُـلَّ الفصاد وخيم

(٥) كذا في ت، وهو يوافق ما في الأغاني؛ وعبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم أسديان، وفي ط: "شعراً للنابعة
فيه"، والنابعة ليس من بني أسد.

(٦) ت: "فانقلب".

(٧) الخبر في الأغاني ١٦ : ١٠٤، وبعده هناك: "وإنهم وردوا على أبي حاتم، فعرف الفرس والفلو، فقال: ما هذا
معكم؟ فقالوا: مررنا بغلام كريم، فسألناه فأعطى الجسيم".

ولحاتم أخبار كثيرة، وشهرته مغنية^(١). وكانت أمه عنبه^(٢) بنت عفيف موسرة، لا تُمسك^(٣) شيئاً، وكان إخوتها يمنعونها ما لها فتأبى، فحجروا عليها سنة يطعمونها قوتها؛ لعلها تكف عما تصنع، ثم مكنوها من صرمة^(٤) من إبلها، وقالوا: أستمعي بها، فأتتها امرأة من هوازن فسألتها، فقالت: دُونِك الصَّرْمَة، فقد والله ذقت من الفقر ما آليتُ ألا أُمْنَع سائلاً شيئاً^(٥).

وحاتم من فحول الشعراء، ومن محاسن شعره قوله - رحمه الله إن شاء بكرمه -:
 أعاذلُ إنَّ المالَ غيرَ مَخْلَدٍ وإنَّ الغنى عارِيَةٌ فَتَزوَدِ
 وَكَمْ مِنْ جَوَادٍ يَفْسِدُ اليَوْمَ جودَهُ وسأوسُ قَدْ ذَكَرْنَهُ الْفَقْرُ فِي غَدِ
 وَكَمْ لِيَمَّ آبَائِي فَمَا كَفَّ جودَهُمْ مَلَامٌ وَمِنْ أَيْدِيهِمْ خَلَقْتُ يَدِي
 وقوله يخاطب امرأته:

أماوِيَّ إنَّ المالَ غَادٍ وَرائِحٌ وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذُّكُورُ^(٦)
 أماوِيَّ ما يغني الثراء عن الفتى إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
 أماوِيَّ إنَّ يُصْبِحَ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَا مَاءَ لَدَيَّ وَلَا خَمْرُ
 تَرَى أَنَّ مَا أَهْلَكْتُ لَمْ يَكُ ضَرَرِي وَأَنَّ يَدِي مِمَّا بَخَلْتُ بِهِ صَفْرُ
 وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ لَوْ أَنَّ حَاتِمًا أَرَادَ ثَرَاءَ الْمَالِ كَانَ لَهُ وَفْرُ
 وَإِنِّي لَا أَلُو بِمَالِي صَنِيعَةً فَأَوْلُّهُ زَادًا وَآخِرُهُ دُخْرُ
 غَنِيًّا زَمَانًا بِالتَّصَعُّلِ وَالْغِنَى وَكَلَّا سَقَانَاهُ بِكَأْسِيهِمَا الدَّهْرُ
 فما زادنا بغياً على ذي قرابةٍ غِنَانًا، وَلَا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ

(١) كذا في ت، وفي ط: "شهرة زائدة".

(٢) وكذا في الشعر والشعراء، وفي الأغاني: "غنية".

(٣) الأغاني: "لا تليق شيئاً"، أي لا تُمسك.

(٤) الصرمة: القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين.

(٥) الأغاني ١٦ : ٩٣، وبعده هناك؛ ثم أنشأت تقول:

لَعَمْرِي لَقَدْ مَا عَصْنِي الْجُوعُ عَصَةً فَأَلَيْتُ أَلَّا أُمْنَعَ الدَّهْرَ جَائِعاً
 فقولوا لهذا اللائمى اليوم أعفني فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَعَضَّ الْأَصَابِعَا
 فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم سَوَى عَذْلِكُمْ أَوْ عَذْلُ مَنْ كَانَ مَانِعَا
 وما إن تروُن اليوم إلا طابعاً فَكَيْفَ بَتَرَكِي يَابْنَ أُمَّ الطَّبَاعَا!
 ديوانه ١١٨ .

(٦)

وقوله يصف طارقاً:

عرا آيساً شبه الجنون وما به
فأثقت ناري ثم أبرزت ضوءها
وقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً
وقمت إلى البزل الهجان أعدّها
وقوله أيضاً:

حَنَنْتُ إِلَى الْأَجْبَالِ أَجْبَالِ طِيٍّ
وَإِنِّي لَمَزَجٌ لِلْمِطِيِّ عَلَى الْوَجَى
فَلَا تَسْأَلْنِي وَاسْأَلِي أَيَّ فَارِسٍ
فَلَا تَسْأَلْنِي وَاسْأَلِي بِي صَحَابَتِي^(١)
رَأَتْنِي كَأَشْلَاءِ اللَّجَامِ وَلَنْ تَرَى^(٢)
أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَصَّتُ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا
وقوله أيضاً:

وَعَاذِلْتَيْنِ هَبَّتَا بَعْدَ هَجْعَةٍ
لَحَا اللَّهُ صُغْلُوكَا مَنَاهُ وَهَمُّهُ
وَلِلَّهِ صُغْلُوكُ يَسَاوِرُ هَمَّهُ
إِذَا مَا رَأَى يَوْمًا مَكَارِمَ أَعْرَضَتْ
تلومان متلافاً مفيداً ملوماً^(٣)
من العيش أن يلقي كبوساً ومطعماً
ويمضي على الأحداث والهول مُقْدِماً
تيمم كبراهن ثمت صمماً

٣٦- وَزَيْدُ بْنُ مُهْلَلٍ إِنَّمَا رَكِبَ بِفَخْذَيْكَ

[زيد الخيل]

هو زيد بن مهلهل بن زيد الطائي، فارس مظفر بعيد الصيت، أدرك الإسلام وأسلم،

وسمّاه رسول الله ﷺ: "زيد الخير".

(١) ديوانه ١٢٢.

(٢) الديوان:

* إِذَا بَادَرَ الْقَوْمُ الْكَنِيفَ الْمَتَبْرَا *

(٣) الديوان: "واسألني بي صحبتي".

(٤) الديوان: "وإني كأشلاء اللجام".

(٥) ديوانه ١٠٨.

وهو شاعر مفلق، معدود من الشعراء والفرسان، وإنّما سُمِّيَ زيد الخيل لكثرة خيله؛ فإنّه لم يكن لكثير من العرب غير الفرس والفرسين، وكانت له خيلٌ كثيرةٌ، منها المسماة المعروفة التي ذكرها في شعره، مثل: الهطّال، وكامل ودؤول، ولاحق^(١).

وكان زيد الخيل عظيم الخَلقة طويلاً جداً، ويسمى مقبَل الطُّعْن، لأنّه كان يقبَل المرأة من الأرض وهي في الهودج، وكذلك أبو زبيد الطائي، وابن جذل الطَّعَن، كما ذكره الرواة.

وحكى أبو عمرو الشيباني، قال: وفد زيد الخيل على رسول رسول الله ﷺ، ومعه زَرَّ بن سدّوس وغيره^(٢) من طييء، فأناخوا ركابهم بباب المسجد، ودخلوا ورسول الله ﷺ يخطب الناس، فلما رآهم قال: "إني خير لكم من العُزَي، ومما حازت مناع، ومن كل ضارّ غير نفاع، ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله"، فقام زيد الخيل - وكان من أتم الرجال، يركب الفرس ورجلاه تخط في الأرض كأنه على حمار - فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فقال: "ومن أنت؟" قال: زيد الخيل بن المهلهل، قال: "بل أنت زيد الخير"، ثم قال: "الحمد لله الذي جاء بك من سهلك وجبلك، ورقق قلبك على الإسلام. يا زيد، ما وُصف لي رجل فرأيتُه إلا كان دون ما وُصف إلا أنت، فإنك فوق ما قيل فيك". وفي رواية أخرى: "إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الأناة والحلم". فلما ولى قال رسول الله ﷺ: "أي رجل إن سلم من آطام المدينة!" فأخذته الحمى [فأنشد يقول:

أنختُ بآطام المدينة أربعاً وخمساً يغني فوقها الليل طائر
شددتُ عليها رحلها وشليها من الدرس والشعراء والبطن ضامر^(٣)

(١) وذكر منها أبو الفرج الأصفهاني أيضاً: الكميت والورد، قال: وفي الهطّال يقول:

أقربّ مربوط الهطّال إني أرى حرباً ستلقح عن حيال
وفي الورد يقول:

أبت عادةً للورد أن يكره القنا وحاجة نفسي في ثمير وعامر
وفي دؤول يقول:

فأقسم لا يفارقني دؤول أجول به إذا كثرت الضراب

قال: "هذا ما حضرني من تسمية خيله في شعره"، وقد ذكرها في الأغاني في ١٦: ٤٦ (ساسي).

(٢) في الأغاني "زر بن سدوس النبهاني وقبيصة بن الأسود بن عامر بن جوين الجرهمي ومالك بن جبير المعني، وقعين بن خليل الطريفي، في عدة من طييء".

(٣) زيادة من الأغاني. والشليل: مسح من صوف أو شعر يُجعل على جزع البعير من وراء الرحل، والدرس: البالي، والشعراء: ما فيه شعر.

فمكث سبعاً، ثم اشتدت به الحمى فخرج وقال لأصحابه: جنّوني بلاد قيس، فقد كانت بيننا حماسات في الجاهلية، ولا والله لا أقاتل مسلماً حتى ألقى الله عزّ وجلّ. فنزل بهاء الجرم^(١) يقال له: فردة، واشتدت به الحمى، فقال:

أُمْرَتِجِلْ صَحْبِي الْمَشَارِقُ غُدُوَّةً وَأَتْرَكَ فِي بَيْتٍ بِفَرْدَةٍ مُنْجِدٍ!^(٢)

فليت اللواتي عُدْنِي لَمْ يَعُدْنِي وَلَيْتَ اللَّوَاتِي غَبْنَ عَنِّي عُودِي^(٣)
وكان رسول الله ﷺ كتب معه لبني نبهان كتاباً بفدك، فمكث زيد الخيل بفردة سبعمائة، فأتاه عليه قبيصة بن الأسود النياحة سبعمائة، ثم بعث راحلته ورحله، وفي كتاب رسول الله ﷺ. فلما نظرت امرأته -وكانت على الشُّرك- إلى الراحلة وليس عليها زيد، ضربتها بالنار^(٤)، فاحترق الكتاب فيما احترق، فلما بلغ رسول الله ﷺ ضربها الراحلة بالنار واحترق الكتاب قال: "ويل^(٥) لبني نبهان^(٦)!".

وحكى الشيباني عن شيخ من بني^(٧) عامر، قال: أصابتنا سنة^(٨) ذهبت بالأموال، فخرج رجل من القوم بعياله حتى أنزلهم الحيرة، فقال لهم: كونوا قريباً من الملك ليصيبكم من خيرهِ حتى أرجع إليكم؛ وآلي آليّة لا يرجع حتى يكسبهم خيراً [أو يموت]^(٩)، فتزوّد زاداً، [ثم مشى يوماً إلى الليل، فإذا هو بمهر مقيد؛ يدٌ ورجل حول خباء، فقال: هذا أول الغنيمة، فذهب يحلّه ويركبه فنودي: خلّ عنه واغنم نفسك، فتركه ومضى]^(١٠)؛ ثم مشى سبعة أيام حتى انتهى إلى عطن إبل مع تطفيل الشمس؛ فإذا خباء عظيم، وفيه قبة من آدم. قال: فقلت

(١) الأغاني: "بهاء لحي من طيء".

(٢) بعده في الأغاني:

سقى الله ما بين القفيل فطابةً فما دون أرمم فما فوق منشِد

-القفيل وطابة وأرمم ومنشد: أماكن-

(٣) الخبر في الأغاني ١٦ : ٤٧. وانظر الأبيات أيضاً في معجم البلدان ٤ : ٣٥٧.

(٤) في الأغاني: "وقالت:

ألا إنّما زيدٌ لكلّ عزيمة إذا أقبلتْ أوبَ الجـرّادِ رِعالُها

لقاهم فما طاشتْ يداؤه بضرهم ولا طعنهم حتّى تولى سجالُها"

(٥) الأغاني: "بؤساً".

(٦) الخبر في الأغاني ١٦ : ٤٨.

(٧) الأغاني: "من بني نبهان".

(٨) الأغاني: "أصابت بني نبهان".

(٩) من الأغاني.

(١٠) من الأغاني.

في نفسي: ما لهذا الخبَاء بَدَّ من أهل، وما لهذا العَطَنُ بَدَّ من إبل^(١)! فنظرت في الخبَاء، فإذا شيخٌ قد اختلفتْ تَرْقُوتاهُ كأنه نسر، فجلست خلفه مختفياً، فلما وَجَبَت الشمس، إذا بفارس قد أقبل لم أرَ قطُّ فارساً أعظم منه ولا أجسم، على فرس مُشْرِفٍ، ومعه عبدان^(٢) يمشيان جنبه؛ وإذا مائة من الإبل مع فحلها، فبرَكَ الفحل وبرَكْنَ معه وحوله، [ونزل الفارس] فقال لأحد عبدي: اخلُبْ فلانة، ثم اسقِ الشيخ. فحلب في عَسٍّ حتى ملأه، ثم وضعه بين يدي الشيخ وتنحَّى، فكرع الشيخ منه مرة أو مرتين ثم نزع، فثرتُ إليه مختفياً فشربته، فرجع العبد، فقال: يا مولاي، قد أتى على آخر العُسِّ. ففرح وقال له: اخلُبْ فلانة، فحلبها، ثم وضع العُسِّ بين يدي الشيخ فكرع منه [كرعة] واحدة، ثم نزع. فثرتُ إليه فشربت نصفه، وكرهت أن أتى على آخره؛ [فأثَّهم]؛ فجاء العبد فأخذه [وقال لمولاه: قد شرب وروي، فقال: دعه]. ثم أمر مولاه بشاة فذببحها، وشوى للشيخ منها، ثم أكل هو وعبده، فأمهلت حتى إذا ناموا وسمعتُ الغطيظ تُرَّتْ إلى الفحل، فحللتُ عقاله [وركبته] فأندفع، وتبعته الإبل، فمشيتُ ليلتي حتى الصُّباح، فلما علا النهار إذا أنا بفارس قد أقبل^(٣)، وإذا هو صاحبي، ففعلت الفحل، ونثلتُ كنانتي، ووقفْتُ بينها وبين الإبل، فوقف بعيداً وقال [لي]^(٤): احلل عقاله^(٥)، فقلت: كلا؛ لقد تركت نُسَيَّاتٍ بالحيرة، وآليت ألا أرجعَ إليهنَّ حتى أفيدهنَّ خيراً أو أموت. قال: فأنك ميت، حُلَّ عقاله لا أبالك^(٦)! فقلت: هو ما أقول لك، قال: إِنَّكَ لمغرور، ثم قال: انصب لي خطامه - وفيه ثلاث عُجَرٍ^(٧) - ففعلت، فقال: أين تحب^(٨) أن أضع سهمي؟ فقلت: في هذا الموضع، فكأنما وضعه بيده، (*) ثم رمى الثلاثة صائباً فرددت نبلي ووقفت مستسلماً. فدنا مني، فأخذ السيف والقوس، ثم قال: أركب^(٩)، وعرف أني الذي شربت اللبن عنده، فقال "كيف ظنك

(١) الأغاني: "رب".

(٢) الأغاني: "أسودان".

(٣) الأغاني: "فلما أصبحت نظرت فلم أر أحداً، فسللتها إذا شلاً عنيفاً حتى تعالى النهار، ثم التفت التفاتة فإذا أنا بشيء كأنه طائر؛ فما زال يدنو حتى تبينته؛ فإذا هو فارس على فرس".

(٤) من الأغاني.

(٥) الأغاني: "احلل عقال الفحل".

(٦) الأغاني: "لا أم لك".

(٧) العجر: جمع عجرة؛ وهي العقدة.

(٨) الأغاني: "تريد".

(*) الأغاني: "ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمسين بخمسة أسهم، فرددت نبلي، وحططت قوسي، ووقفت مستسلماً".

(٩) الأغاني: "ارتد خلفي".

بي؟ قلت: أسوأ^(١) الظن، قال: وكيف؟ قلت: لما لقيت من تعب ليلتك؛ وقد أظفرك الله بي، فقال: أتراني كنت أهيجك وقد بت تنادم مهلهلاً! قلت: أزيد الخيل أنت؟ قال: نعم، فقلت: كن خير آخذ، قال: لا بأس عليك، ومضى بي إلى موضعه [الذي كان فيه]^(٢)، ثم قال: أما لو كانت هذه الإبل لي لسلمتها لك؛ ولكنها لابنة مهلهل. فأقم علي. فأتى على شرف غارة، فأقمت أياماً، ثم أغار على بني نُمير بالملح، فأصاب إبلاً فأعطانيها^(٣)، وبعث معي خفراء^(٤) من ماء إلى ماء حتى وردت الحيرة^(٥).

وحكى الأصمعي، قال: أسرَ زيد الخيل الحطيئة الشاعر وكعب بن زهير في حرب، فأما كعب ففداه قومه، وأما الحطيئة الشاعر فشكا الحاجة، فقال زيد:

أقول لعبدي جرولٍ إذ أسرتهُ أبني ولا يغرركَ أنك شاعرٌ^(٦)
فقال الحطيئة:

إن لا يكن مالي بآتٍ فإنني سيأتي ثنائي زيدا بن مهلهل
فما نلتنا غدراً ولكن لقيتنا غداة التقينا في المضيق بأخيل
تفادى حُمة الخيل من وقع رمحه تفادي ضعاف الطير من وقع أجدل
فرضي عنه زيد، ومنَّ عليه. فلما رجع الحطيئة إلى قومه قام فيهم شاكراً لزيد ذاكراً
لنعمته. فلما أسرت طيء بني بدر، طلبت فزارة إلى شعراء العرب أن يهجو بني لأم وزيدا،
فتحامتهم الشعراء، فصاروا إلى الحطيئة فأبى عليهم فقالوا: نجعل لك مائة من الإبل، فقال:
لو جعلتموهما ألفاً ما فعلت، ثم قال:

(١) ط: "أحسن".

(٢) من الأغاني.

(٣) الأغاني: "فأصاب مائة بعير؛ هذه أحب إليك أم تلك؟ قلت: هذه، قال: دونكها".

(٤) ط: "خفيراً"، وما أثبتته من ت، د والأغاني.

(٥) الخبر في الأغاني ١٦: ٤٩، ٥٠، وفي آخره هناك: "فلقيني نبطي، فقال لي: يا أعرابي، أيسرك أن لك بإبلك بستاناً من هذه البساتين؟ فقلت: وكيف ذاك؟ قال: هذا قرب خرج نبي يخرج فيملك هذه الأرض، ويحول بين أربابها وبنيتها؛ حتى إن أحدهم لبيتاع البستان من هذه البساتين بثمان بعير. قال: فاحتملت بأهلي حتى انتهيت إلى موضع الشيطان؛ فبينما نحن في الشيطان على ماء لنا -وقد كان الحوفزان شريك أغار على بني تميم- فجاءنا رسول الله ﷺ، فأرسلنا؛ وما مضت أيام حتى اشتريت بثمان بعير من إبلي بستاناً بالحيرة".

(٦) من أبيات في الأغاني، منها:

أنا الفارسُ الحامي الحقيقة والذي له المكرماتُ واللّهى والمائثرُ
وقومي رؤوس الناس والرأس قائدُ إذا الحربُ شَبَّتها الأكف المساعرُ
فلسْتُ إذا ما الموتُ حُوذِرَ ورُدُّه وأثَرعَ حوضاهُ وجَمَّحَ ناظرُ

كَيْفَ الْهَجَاءِ وَمَا تَنْفَكُ صَالِحَةً
وَمِنْ شَعْرِ زَيْدِ الْخَيْلِ قَوْلُهُ (٢):
بَنِي عَامِرٍ هَلْ تَعْرِفُونَ إِذَا غَدَا
بِجَيْشٍ تَضِلُّ الْبُلُقُ فِي حَجَرَاتِهِ
أَبْتُ عَادَةً لِلْوَرْدِ أَنْ يَكْرَهُ الْقَنَا
وَقَوْلُهُ: -وَقَدْ غَرَا غَزْوَةٌ فَظَلَعَ (٤) فَرَسٌ مِنْ خَيْلِهِ، فَلَمْ يَتَّبِعِ الْخَيْلَ، فَأَخَذَهُ بَنُو الصَّيْدَاءِ:
يَا بَنِي الصَّيْدَاءِ رُدُّوْا فَرَسِي
لَا تَذِيلُوهُ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ
عَوْدُوهُ بِالَّذِي عَوَّدْتُهُ (٧)
وَقَوْلُهُ أَيْضًا:
تَخُبُّ تَرْابَعًا خَبَبَ الذُّئَابِ
خُرُوجَ الْوَدْقِ مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ
وَمُرَّةً أَنَّنِي شَقَبْتُ عِقَابِي
جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَجَا وَسَلَمَى
ضَرْبِنَ بَغْمَرَةٍ فَخَرَجْنَ مِنْهَا
وَقَدْ عَلِمَتْ بَنُو عَبْسٍ وَبَدْرَ

٣٧- وَالسُّلَيْكُ بْنُ السُّلَكَةِ إِنَّمَا عَدَا عَلَى رَجْلَيْكَ

[السُّلَيْكُ بْنُ السُّلَكَةِ]

هُوَ السُّلَيْكُ بْنُ عَمْرِو بْنِ يَثْرِبِيٍّ، أَحَدُ بَنِي مُقَاعَسٍ، وَأُمُّهُ السُّلَكَةُ. جَاهِلِيٌّ قَدِيمٌ، وَهُوَ أَحَدُ صُعَالِيكِ الْعَرَبِ وَلِصُوصِهِمُ الْعَدَائِينَ الَّذِينَ كَانُوا لَا يُلْحَقُونَ وَلَا تَتَعَلَّقُ بِهِمُ الْخَيْلُ.

(١) فِي الْأَصُولِ: "تَأْتِينِي"، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَهُ مِنَ الْأَغَانِي، وَبَعْدَهُ:

الْمُنْعَمِينَ أَقَامَ الْعِزُّ وَسَطَهُمْ
بِيضِ الْوَجْهِ وَفِي الْهَيْجَا مَطَاعِنَا
وَالْخَبَرُ فِي ١٦ : ٥٤، ٥٥.

(٢) الْأَغَانِي ١٦ : ٥٠، قَالَ: "قَالَ فِي يَوْمٍ مَحْجَرٌ".

(٣) لَمْ يَجِءْ فِي رِوَايَةِ الْأَغَانِي، وَجَاءَ مَوْضِعُهُ:

وَجَمَعَ كَوْمِلَ اللَّيْلِ مَرْتَجَزَ الْوَعَى
كَثِيرَ حَوَاشِيهِ سَرِيعَ الْبَوَادِرِ
ظَلَعَ: غَمَزَ فِي مَشْيِهِ.

(٥) الْأَغَانِي ١٦ : ٤٧، وَرَوَاتُهُ: "إِنَّمَا يَفْعَلُ هَذَا".

(٦) أَذَالَ فَرَسَهُ: لَمْ يُحَسِّنِ الْقِيَامَ عَلَيْهِ فَهَزَلَ.

(٧) الْأَغَانِي: "كَالَّذِي عَوَّدْتُهُ".

حكى المنتجع بن نَبهان^(١)، قال: كان السُّليكَ السَّعْدِيّ إذا كان الشتاء استودع بيض النعام ماء السماء، ثم دفنه، فإذا كان الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار. وكان أدلّ من قِطاة، فيجيء حتى يقف على البَيْضَة؛ وكان لا يُغير على مُضَر؛ بل على اليمن، فإذا لم يُفد^(٢) أغار على ربيعة^(٣).

وكان يقول: اللهم إنيك تهَيَّء ما شئت لمن شئت؛ اللهم إني لو كنت ضعيفاً لكنتُ عبداً، ولو كنت امرأة كنت أمة. اللهم إني أعوذ بك من الخيبة، فأما الهيبة فلا هيبة. فذكروا أنه أُمْلِق؛ حتى لم يبق له شيء، فخرج على رجلَيْه رجاء أن يُصيب غرّة من بعض من يمرُّ به، فيذهب بإبله؛ حتى أمسى في ليلة من ليالي الشتاء المقمرة، فأشتمل الصماء^(٤) ثم نام؛ فبينما هو نائم إذ جثم عليه رجلٌ، فقعده على جنبه، فقال له: أَسْتَأْسِرُ؛ فرفع السُّليكَ رأسه، وقال: الليل طويل وأنت مقمر، فذهبت مثلاً^(٥). فجعل الرجل يلهُزه^(٦)، ويقول: يا خبيث، أَسْتَأْسِرُ، فلما آذاه أخرج السُّليكَ يده، وضمَّ الرجل ضمةً ضرط منها وهو فوقه. فقال السُّليكَ: أضرباً وأنت الأعلى! فذهبت مثلاً^(٧)، ثم قال السُّليكَ: مَنْ أنت؟ قال: رجل افتقرت فقلت: لأخرجنّ فلا أعود إلى أهلي حتى أستغني [فآتيهم وأنا غني]^(٨)، قال: فانطلق معي؛ فانطلقا فوجدوا رجلاً قصته مثل قصتهما، فاصطحبوا جميعاً حتى أتوا الجوف^(٩)، وهو جوف مراد، فلما أشرفوا عليه إذ فيه نَعَم كثير [قد ملأ كل شيء من كثرته] فهابوا أن يغزوا^(١٠) فيطردوا بعضها فيلحقهم الطلب، فقال لهم السُّليكَ: كونوا قريباً حتى أتى الرِّعاء؛ فأعلم لكمما علم الحي، أقرب أم بعيد؟ فإن كانوا قريباً رجعت إليكم، وإن كانوا بعيداً قلت لكم قولاً أومئى إليكم به. فانطلق حتى أتى الرِّعاء، فلم يزل يستنطقهم^(١١) حتى أخبروه بمكان الحي؛ فإذا هو بعيد، إن طلبوا لم يدركوا. فقال السُّليكَ للرِّعاء: ألا أغنيكم؟ قالوا: بلى، فرفع صوته وغنى:

- (١) في الأصول "ابن شهاب"، والصواب ما أثبتته من الأغاني.
- (٢) الأغاني: "لم يمكنه".
- (٣) الأغاني ١٨: ١٣٣، ١٣٤ (ساسي).
- (٤) قال في الأغاني: "واشتمل الصماء أن يُرد فضل ثوبه على عضده اليمني ثم ينام عليها".
- (٥) يلهزه: يدفعه ويلكزه.
- (٦) الميداني ١: ٢٨٤.
- (٧) الميداني ١: ٢٨٤.
- (٨) من الأغاني.
- (٩) ذكره ياقوت، وقال: وله ذكر في تفسير قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [الأعراف ٥٩].
- (١٠) الأغاني: "أن يغيروا".
- (١١) الأغاني: "يتسقطهم".

يا صاحبيّ ألاّ لآحيّ بالواديّ إلاّ عبيداً قياماً بين أدّواد^(١)
 هلّ تنظران قليلاً ريث غفلتْهم أم تغدّوان فإنّ الرابح الغاديّ!^(٢)
 فلما سمعا ذلك، أتيا السّليك فأطردوا الإبل، فذهبوا باكراً بأكثرها، ولم يبلغ الصريخ
 الحيّ حتى فاتوهم^(٣).

وحكى أبو عبيدة^(٤)، قال: بلغني أن السّليك رأى طلائع لبكر بن وائل - وكانوا
 منحدرين ليُغيروا^(٥) على بني تميم ولا تعلم بهم - فقالوا: إن علم السّليك أنذر بنا قومه،
 فبعثوا له فارسين على جوادين، فلما هاجاه خرج يمحّص^(٦) كأنه ظبي، وطارده سحابة
 يومهما^(٧)، ثم قالوا: إذا كان الليل أعيّا ثم سقط أو قصّر عن العدو فنأخذه، فلما أصبحا وجدا
 أثره قد عثر بأصل شجرة، فنزا^(٨) عنها، وندرت^(٩) قوسه فأنحطمت، فوجدوا قصّدة^(١٠) منها قد
 ارتزت^(١١) بالأرض، فقالوا: ما له^(١٢)، أخزاه الله! [ما أشدّه!] ^(١٣)، وهما بالرجوع ثم قالوا: لعل
 هذا كان من أول الليل، ثم فتر فتبعاه؛ فإذا أثره متفاجّاً^(١٤) قد بال فزعاً في الأرض وخدّها،
 فقالوا: يا له أخزاه^(١٥) الله! فما رأينا أشد منه^(١٦)، لا نتبعه^(١٧) أبداً، فأنصرفا. ووصل^(١٨) إلى
 قومه فأنذرهم فكذبوه لبعد الغاية، فأنشأ يقول:

(١) الأغاني:

* سوى عبيد وآم بين أدّواد *

والآم: جمع أمة إلى العشر؛ فإذا كنّ أكثر قيل إماء.

(٢) الأغاني: "فإن الريح للغادي"، والريح: الغلبة والقوة.

(٣) الأغاني ١٨: ١٣٣، ١٣٤.

(٤) م: "قال أبو عبيدة".

(٥) في الأصول: "ليعزوا"، والصواب ما أثبتته من الأغاني.

(٦) يمحّص: يسرع.

(٧) الأغاني: "يومه".

(٨) كذا في ت، والأغاني، وفي ط، م، د: "فتبرأ".

(٩) ندرت: سقطت.

(١٠) القصيدة: القطعة المتكسرة.

(١١) ارتزت: أثبتت.

(١٢) ط: "يا له".

(١٣) من الأغاني.

(١٤) يقال: فجّ رجله وما بين رجله يفجها؛ أي باعد ما بينهما في المشي.

(١٥) الأغاني: "قاتله الله".

(١٦) الأغاني: "ما أشدّ متته".

(١٧) الأغاني: "والله لا نتبعه".

(١٨) الأغاني: "وتم إلى قومه".

يَكْذِبُنِي بَنِي الْعَمْرَان: عمرو بن جُنْدَب وعمر بن سعد والمكذَّبُ أَكْذَبُ
 ثَكَلْتُهُمَا إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُهُمَا كَرَادِيْسَ يُهْدِيهَا إِلَى الْحَيِّ مُوَكَّبٌ^(١)
 وَجَاءَ الْجَيْشَ فَأَغَارُوا [عَلَى جَمْعِهِمْ]^(٢).
 وَحَكَى الْأَصْمَعِيُّ أَنَّ السُّلَيْكَ لَقِيَ رَجُلًا مِنْ خَثْعَمٍ، وَمَعَهُ امْرَأَةٌ فَأَخَذَهَا، فَقَالَ لَهُ
 الْخَثْعَمِيُّ: أَنَا أَفْدِي نَفْسِي مِنْكَ، فَقَالَ لَهُ السُّلَيْكُ: ذَلِكَ لَكَ عَلَى أَلَّا تَخِيْسَ بِي، وَلَا تَطْلُعَ
 عَلَيَّ أَحَدًا مِنْ خَثْعَمٍ، فَحَالَفَهُ [عَلَى ذَلِكَ]^(٣).
 وَخَلَفَ عِنْدَهُ امْرَأَتَهُ رَهِينَةً وَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَنَكَحَهَا السُّلَيْكُ، وَجَعَلَتْ تَقُولُ لَهُ: أَحْذَرِ
 خَثْعَمًا، فَإِنِّي أَخَافُهُمْ عَلَيْكَ، فَقَالَ:
 [تَهْدِدُنِي كَيْ أَحْذَرَ الْعَامَ خَثْعَمًا وَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي امْرُؤٌ غَيْرُ مُسْلِمٍ]
 وَمَا خَثْعَمٌ إِلَّا لِيَامَ أَذْلَةٍ إِلَى الذَّلِّ وَالْإِسْخَافِ تُنْمَى وَتَنْتَمِي
 وَبَلَغَ خَبْرَهُ شَبْلُ بْنُ قِلَادَةَ^(٤) وَأَنْسَ بْنُ مَدْرَكِ الْخَثْعَمِيِّ^(٥)، فَخَالَفَا إِلَى السُّلَيْكِ، فَلَمْ
 يَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ طَوَّقَاهُ بِالْخَيْلِ^(٦)، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:
 مِنْ مَبْلَغِ قَوْمِي أَنِّي مَقْتُولٌ^(٧) يَا رَبَّ قِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مَجْدُولُ
 وَرُبَّ زَوْجٍ قَدْ نَكَحْتُ عُطْبُولُ وَرُبَّ عَانٍ قَدْ فَكَّكْتُ مَكْبُولُ
 ثُمَّ عَطَفَا عَلَيْهِ [وَلَيْسَ لَهُ طَرِيقٌ لِلْعَدُوِّ]^(٨)، فَقَتَلَاهُ^(٩).
 وَمِنْ شَعْرِهِ وَقَدْ أَغَارَ بِقَوْمٍ فَانْصَرَفُوا عَنْهُ خَوْفًا مِنَ الْعَطَشِ، وَبَقِيَ مَعَهُ رَجُلٌ يَسْمَى
 صُرْدَ فَبَكَى، فَقَالَ السُّلَيْكُ:

(١) ت: "إلى الحرب".

(٢) من الأغاني؛ والخبر فيه في ١٨ : ١٣٦ (ساسي).

(٣) من الأغاني والحجاسة ٢ : ٣٨٢.

(٤) الإسخاف: رقة الحال.

(٥) ط: "الخثعميان".

(٦) ت: "طرقاه في الجبل"، الأغاني: "في الخيل".

(٧) بعده في الأغاني:

* يَا رَبَّ نَهَبَ قَدْ هَوَيْتُ عُنْكَوْلُ *

(٨) من ط.

(٩) الخبر في الأغاني ٢٠ : ٣٥٧، ٣٥٨ (طبع بيروت)؛ وهو مما لم يرد في طبعة الساسي.

بكى صرَّد لما رأى الحيَّ أعرضت مهامه رمل دونَه وسُهوب^(١)
 فقلت له لا تبك عينك إنها قضية ما يُقضى لنا فنُوب
 سيكفيك صرَب القوم لحم مغرَض وماء قدورٍ في القصاع مشوب^(٢)
 الصَّرب: اللبن الحامض. وماء القدور: المرق، كأنه يقول: ستستغني وتأكُل اللحم
 بعد اللبن.

وقوله:

ألا عبت عليَّ فصار مثني وأعجها ذوو اللِّم الطَّوال
 أشاب الرأس أتى كُلَّ يومٍ أرى لي حالةً وسَطَ الرِّجال
 يشقُّ عليَّ أن يلقينَ ضيمًا ويقصر عن تخلصهنَّ مالي

٣٨- وَعَامِرُ بْنُ مَالِكٍ إِنَّمَا لَاعَبَ الْأَسِنَّةَ بِيَدَيْكَ

[ملاعب الأسنة]

هو عامر بن مالك بن جعفر، من بني صعصعة، المعروف بملاعب الأسنة. ويكنى أبا براء، وأمه أم البنين، أنجب امرأة في العرب؛ وذلك أنها ولدت من مالك بن جعفر خمسة: أبا براء، والطفيل أبا عامر بن الطفيل، وربيعة أبا الوليد ونزار ومعاوية - ويسمى معود الحكماء^(٣) - وقد افتخر بها ليبد عند النعمان، فقال:

* نَحْنُ بَنِي أُمِّ الْبَنِينَ الْأَرْبَعَةُ *

وإنما قال: "الأربعة" لضرورة الشعر، ونصب "بني" على المدح^(٤).

وأبو براء من فرسان العرب^(٥) المشهورين وكبارهم؛ وإنما لُقِّبَ ملاعب الأسنة لقول

(١) الأغاني ١٨: ١٣٦، وبعده هناك:

وَحَوْفُهُ رَيْبُ الزَّمَانِ وَفَقْرُهُ بلادَ عدوٍّ حاضِرٍ وجُدُوبُ
 ونأيٌ بعيدٌ عن بلادِ مقاعِسٍ وأنَّ مخاريقَ الأمورِ تريِبُ

(٢) رواية الأغاني:

سيكفيك فقد الحيَّ لحمٌ مغرَضٌ وماءٌ قدورٍ في الجفانِ مشوبُ
 قيل: إنه لُقِّبَ بذلك لقوله من قصيدة مفضلية:

أعوَدَ مثلها الحكماءَ بعدي إذا ما الحقُّ في الأشياءِ نابا

وانظر اللاليء: ١٩٠.

(٤) من رجز له في ديوانه ٣٤٠ - ٣٤٣.

(٥) ط: "هو رجل من فرسان العرب".

أوس بن حَجَر فيه:

يُلاعِبُ أَطْرَافَ الْأَسِنَّةِ عَامِرٌ فَرَاخَ لَهُ حِظُّ الْكَتَائِبِ أَجْمَعُ^(١)

وقيل: لقول آخر، وقد فر عنه أخوه في حرب:

فَرَرْتُ وَأَسْلَمْتُ ابْنَ أُمِّكَ عَامِرًا يُلَاعِبُ أَطْرَافَ الْوَشِيحِ الْمَزْعُوعِ^(٢)

وقيل: لقول حسان بن نمير -وقد رآه بين فرسان أحاطوا^(٣) به يقاتلهم: ما هذا إلا

ملاعب الأسنّة^(٤).

ووفد عامر على رسول الله ﷺ ولم يُسلم. ويزعم^(٥) بنو جعفر أنه مات مسلماً؛ وحديث خالد بن عبد الله، قال: قدم عامر بن مالك أبو براء ملاعب الأسنّة على رسول الله ﷺ، وأهدى له فرسين وراحتين، فقال رسول الله ﷺ: "لو قبلتُ هدية مشرك لقبلتُ هديتك". وعرض عليه الإسلام فلم يسلم ولم يُبعد^(٦)، وقال: يا محمد، إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً، وقومي خلفي؛ فلو أنك بعثت نفراً من أصحابك لرجوت أن يجيبوا دعوتك، ويتبعوا أمرك، فإن هم اتبعوك^(٧) فما أعزّ أمرك، فقال رسول الله ﷺ: "إني أخاف^(٨) عليهم أهل نجد"، فقال عامر: لا تخف، إني جارٌ لهم؛ إن تعرّض لهم أحد من أهل نجد^(٩). فبعث معه أربعين رجلاً من الأنصار -وقيل سبعين- وأمر عليهم المنذر بن عمرو، فلما نزلوا بماء من مياه بني سليم يُقال له بئر معونة^(١٠)، عسكروا وسرّحوا ظهورهم، وبعثوا مع سرّحهم الحارث بن الصّمة وعمرو ابن أمية، وقدموا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، في رجال من بني عامر. فلما انتهى حرام لم يقرءوا الكتاب، ووثب عامر بن الطفيل على حرام فقتله، واستصرخ عليهم بني عامر فأبوا. وقد كان عامر بن مالك خرج قبل القوم إلى ناحية نجد، وأخبرهم أنه جار أصحاب محمد فلا تتعرّضوا لهم، فقالوا: لن نُخْفِر^(١١) جوار أبي براء،

(١) ديوانه ٥٨؛ وروايته: "وصار له".

(٢) الروض الأنف ٢: ١٧٤ من غير نسبة.

(٣) كذا في ت، د، وفي ط، م: "أطافوا".

(٤) وفي اللسان (لعب): سُمّي بذي يوم السوبان؛ وجعله ليبد "ملاعب الرماح" لحاجته إلى القافية فقال:

لَوْ أَنَّ حَيًّا مُدْرِكُ الْفَلَاحِ أَدْرَكَهُ مُلَاعِبُ الرِّمَاحِ ط: "وزعم".

(٥) ط: "يعد"؛ والصواب ما أثبتته من باقي الأصول، وهو يوافق ما في سيرة ابن هشام.

(٦) كذا في ط، وفي ت؛ "اتبعوا".

(٧) ابن هشام: "أخشى".

(٨) ابن هشام: "فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك".

(٩) ابن هشام: "بئر معونة؛ وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم؛ كلا البلدين منها قريب".

(١٠) لن نخفر: لن نقض عهده.

وأبوا أن ينفروا مع ابن الطفيل؛ فاستصرخ قبائل من بني سليم فنفروا معه، ورأسوه عليهم، فقال ابن الطفيل: أقسم بالله ما أقتل هذا وحده؛ فأتبعوا أثره حتى وجدوا القوم، فقاتل القوم حتى قُتل أصحاب رسول الله ﷺ، وبقي المنذر بن عمرو^(١)؛ فقالوا له: إن شئت أمناك، فقال: لن أقبل لكم أماناً، حتى آتي مقتل حرام؛ فأمنوه حتى أتى مصرعه، ثم برئوا من أمانه، فقاتلهم حتى قُتل.

وأقبل الحارث بن الصمة وعمرو بن أمية بالسرح، وقد ارتابا بعكوف الطير قريباً من منزلهم، فجعلوا يقولان: قُتلَ والله أصحابنا. ثم أوفيا على نشز من الأرض؛ فإذا أصحابهما مقتولون والخيول واقفة، فقال الحارث لعمر: ما ترى؟ قال: أرى أن ألق برسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال الحارث: ما كنتُ لأتأخر عن موطن قتل فيه المنذر [بن عمرو]. فأقبلا فلحقا القوم، فقاتلهم الحارث حتى قتل منهم إثنين، ثم أخذوه فأسروه، وأسروا عمرو بن أمية. وقالوا للحارث: ما تحب أن نصنع بك؟ فإننا لا نحب قتلك، فقال: أبلغوا بي مصرع المنذر وبرئت ذمتكم. فبلغوا به مصرع الرجل ثم أطلقوه، فقاتلهم وقتل منهم إثنين، فشرعوا له الرماح حتى نظموا فيها قتلاً. وقال عامر بن الطفيل لعمر بن أمية وهو أسير في أيديهم لم يقاتل: إنه كانت على أمي نسمة، فأنت حر عنها؛ وجز ناصيته.

فلما جاء رسول الله ﷺ خبرُ بئر معونة، جعل يقول: "هذا عمل أبي براء، قد كنتُ لهذا كارهاً" ودعا على مَنْ قتلهم بعد الصبح في الركعة الثانية من صبح تلك الليلة التي جاءها فيها الخبر، فلما قال: "سمع الله من حمده"، قال: اللهم اشدّد وطأتك على مُصر، اللهم عليك ببني دُكوان وعُصيّة؛ فإنهم عصوا الله ورسوله؛ قال ذلك خمس عشرة ليلة، حتى نزلت الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

ثم أقبل أبو براء سائراً وهو شيخ كبيرهم^(٢)، فأخبر بما فعل ابن الطفيل، فشق ذلك عليه، ولا حركة به من الضعف، وقال: أخفني ابن أخي، مرتين؛ وسار حتى لحق ابن الطفيل فطعنه بالرمح فأخطأ مقتله - وقيل كان الطاعن ربيعة ولده - فتصايح الناس، فقال ابن الطفيل: إنها لم تضرنني، وقد وهبتها لعمي؛ وانصرف عنه^(٣).

ونزل عامر بن مالك بقومه، فدعاهم إلى الإرتحال إلى النبي ﷺ، وطلب ثأر القتلى الذين كانوا في جواره، فتناقلوا عليه، وقال له بعض بني أخيه: إنهم يقولون: إنه حدث لك عارض في

(١) سيرة ابن هشام: "المنذر بن محمد بن عقبة".

(٢) ط، م: "هرم".

(٣) الخبر في سيرة ابن هشام ٣: ١٨٤ - ١٨٧، برواية مخالفة.

عقلك؛ فدعا ابن أخيه ليبيداً، وقينة له وقال لها: غني؛ ثم قال: يا ليبيد، لو حدث بعمك حدث ما كنت قائلاً؟ فإن قومك يزعمون أن عقله ذهب، والموت خير من عزوب العقل^(١)، فقال ليبيد^(٢):

قُومًا تَنُوحَانِ مَعَ الْأَنْوَا حِ^(٣) فَأَبْنَا مُلَاعِبَ الرَّمَا حِ
أَبَا بَرَاءٍ مِدْرَهَ الشَّيَا حِ^(٤) كَانَ غِيَا ثَ الْمَرْمَلِ الْمُمْتَا حِ^(٥)
من أبيات، ثم شرب أبو براء الخمر صرّفاً حتى مات وهو يقول: لا خير في العيش وقد عصتني بنو عامر.

وبنو جعفر يزعمون أنه مات مسلماً. وكان شريف بيته، يزعمون أنه لما تنافر ابن أخيه عامر بن الطفيل مع علقمة بن علاثة سأل عمه الإعانة، فأعطاه نعليه، وقال: استعن بهما في مفاخرتك، فإنني ربتُ فيهما أربعين مربعاً؛ مع أنه كان كارهاً للمنافرة، وفي ذلك يقول:

أَوْمَرُ أَنْ أُسَبَّ بِنَبِي شَرِيحٍ وَلَا وَاللَّهِ أَفْعَلُ مَا حِيثُ
وَمَنْ أَحْسَنَ مَا سَمِعْتُ مِنْ شَعْرِهِ قَوْلُهُ:
لِحَا اللَّهِ أَنَا عَنْ الضَّيْفِ بِالْقَرَى وَالْأَمْنَا عَنْ عَرَضِ وَالِدِهِ ذَبَا
وَأَدْخَلْنَا لِلْبَيْتِ مِنْ قَبْلِ اسْتِهِ إِذَا الْقُورُ أَبْدَى مِنْ جَوَانِبِهِ رَكْبَا
القُور: الأكَم والجبال الصغار، يعني أن البخيل إذا كان جالساً بفنائيه، فرأى راكباً قد لاح من القُور، زحف بظهره داخلاً إلى بيته فراراً من الضيف، كي لا يراه فيطرقه.

٣٩- وَقَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ إِنَّمَا اسْتَعَانَ بِدَهَائِكَ

[قيس بن زهير]

هو قيس بن زهير بن جذيمة العبسي، صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين: داحس والغبراء؛ كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه.

- (١) كذا في ت، د، م، وفي ط: "من ذهاب العقل، وبعضهم يروونها: من عزوب العقل".
- (٢) كذا في الأصول المخطوطة، وفي ط: "وقال: يا ليبيد اسمع؛ وهو خطأ".
- (٣) من رجز في ديوانه ٣٣٢ - ٣٣٤، وروايته: "قوما تجوبان" ويجوب: يقد جيب القميص. قال شارح ديوانه: وقامت المرأة تنوح: جعلت تنوح؛ ولكنه ها هنا ضد القعود؛ لأن أكثر نوائح العرب قيام.
- (٤) مدره القوم: الذي يدافع عنهم، والشياح، مصدر شايح؛ وهو الجد والحذر أو القتال.
- (٥) المرمل: الفقير المعدم. الممتاح: الذي يطلب رزقاً.

كان فارساً شاعراً داهيةً، يُضرب به المثل، فيقال: أذهى من قيس، حكى المدائني أن رجلاً مربي الأحوص، فلما دنا من القوم حيث يرؤنه، نزل عن راحلته، فأتى شجرة فعلق عليها وطباً^(١) من لبن، ووضع في بعض أغصانها حنظلّة، ووضع صرة من تراب وصرة من شوك، ثم أتى راحلته فاستوى عليها وذهب. فنظر الأحوص والقوم في أمره، فعي به، فقال: أرسلوا إلى قيس بن زهير، فجاء، فقال له الأحوص: ألم تخبرني أنه لا يرد عليك أمر إلا عرفت مأتاه؛ ما لم تر نواصي الخيل؟ قال: وما الخبر؟ فأعلموه، فقال: وضح الصبح لذي عَيْنين؛ فصار مثلاً يضرب في وضوح الشيء، ثم قال: هذا رجل أسره جيش قاصدٌ لكم، ثم أطلق بعد أن أخذت عليه العهود والمواثيق ألا يندركم، فعرض لكم بما فعل؛ أما الصرة من التراب فإنه يزعم أنه قد أتاكم عدد كثير؛ وأما الحنظلّة فإنه يخبر أن حنظلّة غزتكم، وأما الشوك فإنه يخبر أن لهم شوكة. وأما اللبن فهو دليل على قرب القوم أو بعدهم إن كان حلواً أو حامضاً. فاستعدّ الأحوص، وورد الجيش كما ذكر.

وحكي أن النعمان بن المنذر أرسل إلى أبيه زهير يخطب ابنته، وسأله أن يبعث إليه ببعض بنيه، فأرسل إليه ولده شأساً، فلما قدم عليه أكرمه وأحسن جائزته، وردّه إلى أبيه، وعرض عليه أن يوجّه معه^(٢) قوماً يخفرونه، فقال: لا شيء أمتع لي من نسبتي إلى أبي. وخرج وحده، فمرّ بماء من مياه بني غنّي فأكل وشرب، ونزل إلى الماء يغتسل. وكان رباح ابن الأشل الغنوي نازلاً في بيته على الماء، ومعه امرأته، فرأها تحدّ النظر إلى جسد شأس، وقد شَمّا منه رائحة المسك، فأخذته غيرة، ففوق إليه سهماً فقتله، وغيب أثره، وأخذ ما معه، وكان معه عيبة مملوءة مسكاً [وعطراً من عطر النعمان]^(٣)، وحللاً من ثيابه. وأبطأ خبر شأس عن زهير، فأخبر بما انصرف به من عند النعمان، ولم يُدر مَنْ قتله، فقلق لذلك، فقال قيس: يا أبت أنا أكشف [لك] خبر أخي، ثم دعا بامرأة من نساء قومه - وكانت لِسنة شديدة - فأمرها أن تأخذ لحماً سميناً فتقدّده وتخرج به إلى بني عامر وغنّي، وتعرض ذلك عليهم، وتقول: إني قد زوجت أبتني، فأنا أبتغي لها طيباً وثياباً؛ ففعلت إلى أن وقعت على امرأة الغنوي، فقالت لها: إن كتمت عليّ أعطيتك حاجتك، فأخبرتها^(٤) بامر شأس، وأعطتها مسكاً وثياباً،

(١) الوطب: سقاء اللبن خاصة.

(٢) ط: "أن يتبعه".

(٣) تكملة من ط.

(٤) ط: "وأخبرتها".

وباعتها ذلك بما معها من الشحم واللحم، وخرجت العبيّة حتى أتت قيساً فأخبرته. فأخبر أباه، فركب في قوم من بني عبس، وأغار^(١) على غنيّ فقتلهم وفرّقهم. وحكى أنه في بعض حروبه لبني دُبيان - وهو يوم الشعب المشهور - صعد بالجيش والنعم إلى الجبل، وعقل الإبل عشرة أيام لا تشرب - والماء كثير تحت الجبل - فلما همّت بنو دُبيان بالصعود إلى الجبل حلّ عقال الإبل، وأمسك بذنب كل بعير رجل معه سلاحه، فمرت الإبل طالبة الماء، لا تمرّ بشيء إلا طحنته، والرجال في أعقابها تضرب مَنْ مرّت به، فكانت الهزيمة على بني دُبيان.

وحكى أنه لما تطاولت الحروب [المشهورة]^(٢) بينه وبين أبي بدر: حمل وحذيفة الذبّانيين - كما سيأتي ذكره - جمع جمعاً عظيماً، وبلغ بني عبس^(٣) أنهم قد ساروا إليهم، فقال قيس: أطيعوني، فوالله لئن لم تفعلوا لا تُكُنَّ على سيفي إلى أن يخرج من ظهري. قالوا: فإنّا نطيعك، فأمرهم أن يسرحوا^(٤) السّوام والضعاف ليل، وهم يريدون أن يظعنوا من منزلهم ذلك. ثم ارتحلوا في الصباح، وأصبحوا على ظهر العقبة، وقد مضى سوامهم وضعفاءهم، فلما أصبحوا طلعت عليهم الخيل من الثّنايا، فقال قيس: خذوا غير طريق المال؛ فلا حاجة للقوم أن يقعوا في شوكتكم، ولا يريدون غير ذهاب أموالكم؛ فأخذوا غير طريق المال، فلما أدرك حذيفة الأثر ورآه، قال: أبعدهم الله! وما خيرهم بعد ذهاب أموالهم! وسارت ظُعن عبس والمقاتلة من ورائهم، وطلب^(٥) حذيفة وبنو دُبيان المال، فلما أدركوه ردّوا أوله على آخره، فلم يفلت منه شيء، وجعل الرجل يطرد ما قدّر عليه من الإبل فيذهب بها وينفرد. واشتد الحر، فقال قيس: يا قوم، إن القوم قد فرّق بينهم المغنم وأشتغلوا، فأعطفوا الخيل في آثارهم. فلم يشعر بنو دُبيان إلا بالخيّل؛ فلم يقاتلهم أحد^(٦)؛ وإنما كان همّ الرجل في غنيمته أن يجوزها ويمضي. فوضعت بنو عبس فيهم السلاح حتى ناشدتهم بنو دُبيان البقيّة، ولم يكن لهم همّ غير حذيفة، فأرسلوا الخيل تقصّ^(٧) أثرهم، وكان حذيفة قد استرخى حزام فرسه فنزل عنه، ووضع رجله على حجر مخافة أن يُقصّ أثره، ثم شد الحزام، فعرفوا حنّف فرسه - والحنف أن

(١) ت: "أغار".

(٢) من ط.

(٣) ت: "قيس".

(٤) ت: "فسرحوا".

(٥) د: "تبع".

(٦) كذا في د؛ وفي ت، ط: "كثير أحد".

(٧) ت: "تقصّ".

تقبل^(١) إحدى اليدين على الأخرى - وتبعوه ومضى حتى أستغاث بجفّر الهباءة - وهو ماء في موضع يسمى الهباءة - وقد أشد الحر، فرمى بنفسه ومعه حمل بن بدر أخوه وورقاء بن بلال، وقد نزعوا سلاحهم، وطرحوا سروجهم ودوابهم تتمّعك، وجعل ربيّتهم يتطلع؛ فإذا لم ير شيئاً رجع فنظر نظرة، فقال: إني أرى شخصاً كالنعامة، فلم يكثر ثوابه، وبينما هم يتكلمون إذ دهمهم شداد بن معاوية، فحال بينهم وبين الخيل، ثم جاء قرواش وقيس [وآخر]^(٢)؛ حتى تتأموا خمسة، فحمل بعضهم على خيلهم فطردها، وحمل البقية على من في الجفر، فقال حذيفة: يا بني عبس، فأين العقول والأحلام! فضر به أخوه حمل بين كتفيه، وقال: اتق مأثور القول؛ فذهبت مثلاً، يعني أنك تقول قولاً تخضع فيه، وتقتل، ويشتهر عنك، وقتل حذيفة وحمل ومن معه، وتمزقت بنو ذبيان، وأسرف قيس في النكاية والقتل^(٣)، ثم ندم على ذلك، ورثي حمل بن بدر بالأبيات المشهورة في الحماسة^(٤)، وهو أول من رثي مقتوله.

ولما طالت الحرب^(٥)، وملّ، أشار على قومه بالرجوع إلى قومهم ومصالحتهم، فقالوا: سرّ سرّ معك، فقال: لا والله، لا نظرت في وجهي ذبيانية قتلت أباه، أو أخاه، أو زوجها، أو ولدها. ثم خرج على وجهه حتى لحق بالنمر بن قاسط، فقال: يا معشر النمر، أنا قيس بن زهير، غريب حريب^(٦)، فانظروا لي امرأة^(٧) قد أدبها الغنى، وأذلها الفقر؛ فزوجوه امرأة منهم. ثم قال: إني لا أقيم فيكم حتى أخبركم بأخلاقي: إني امرؤ غيور فخور، أنف، ولست أفخر حتى أبتلى، ولا أغار حتى أرى، ولا أنف حتى أظلم؛ فرضوا بأخلاقه. فأقام فيهم زماناً، ثم أراد التحول عنهم، فقال: يا معشر النمر، إني أرى لكم عليّ حقاً بمصاهرتي لكم، ومقامي بين أظهركم، وإني آمركم بخصال، وأنها كم عن خصال: عليكم بالأناة فيها تدرك الحاجة، وتسويد من لا تعابون بتسويده، والوفاء فيه تتعاشون، وإعطاء من تريدون إعطاءه قبل المسألة، ومنع من تريدون منعه قبل الإلحاح، وخلط الضيف بالإلزام. وإياكم والرهان؛ فبه ثكلت مالكا أخي، والبغى فإنه صرع زهيراً أبى وحملًا، والسرف في الدماء؛ فإن قتل أهل الهباءة أورثني العار، ولا تعطوا في الفضول فتعجزوا عن الحقوق.

(١) ط: "نميل".

(٢) تكملة من ت.

(٣) ط "والقتال".

(٤) أورد منها في الحماسة ١: ١٩٨.

وسيفي من حذيفة قد شفاني

فلَمْ أَقْطَعْ بِهِمْ إِلَّا بَنَانِي

شفيت النفس من حمل بن بدر

فإن أكَ قَدْ بَرَدْتُ بِهِمْ غَلِيلِي

(٥) ت: "ولما أطال الحروب".

(٦) ت: "حرب"، وأثبت ما في باقي الأصول.

(٧) ت: "نفس".

ثم رحل إلى عُمان، فأقام بها حتى مات. وقيل: إنه خرج هو وصاحب له من بني أسد، عليهما المسوح يسبحان في الأرض، ويتقوتان مما تنبت، إلى أن دفعا في ليلة قرّة إلى أخبية لقوم من العرب، وقد اشتدّ بهما الجوع، فوجدا رائحة القُتار^(١)، فسعيا يريدانه، فلما قارباً أدركت قيساً شهامة النفس والأنفة، ورجع وقال لصاحبه: دونك وما تريد؛ فإن لي لبناً على هذه الأجارع، أترقب داهية القرون الماضية. فمضى صاحبه ورجع من الغد، فوجده قد لجأ إلى شجرة بأسفل وادٍ، فنال من ورقها شيئاً ثم مات. وفي ذلك يقول الخطيئة من أبيات:

إِنَّ قَيْسًا كَانَ مَيِّتُهُ أَنْفًا وَالْحَرُّ مُنْطَلِقُ
فِي دَرِيْسٍ لَا يَغْيِيهِ رُبَّ حُرٍّ ثَوْبُهُ خَلَقُ

ومن شعر قيس بن زهير يرثي حمّل بن بدر، يقول:

تَعْلَمُ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَيِّتُ عَلَى جَفْرِ الهَبَاءِ لَا يَرِيْمُ^(٢)
وَلَوْ لَا ظَلَمُهُ مَا زِلْتُ أَبْكِي عَلَيْهِ الدَّهْرُ مَا بَدَتْ النُّجُومُ^(٣)
وَلَكِنَّ الْفَتَى حَمَلُ بْنُ بَدْرِ بَغَى وَالْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخِيْمُ
أَظَنَّ الْحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمِي وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ
وَمَارَسْتُ الرَّجَالَ وَمَارَسُونِي فَمُعْجُوجٌ عَلَيَّ وَمُسْتَقِيمُ
وقوله أيضاً:

تَعَرَّفَنُ مِنْ ذِيَانٍ مَنْ لَوْ لَقِيْتُهُ بِيَوْمِ حِفَاطٍ طَارَ فِي اللَّهَوَاتِ
وَلَوْ أَنَّ سَافِي الرِّيحِ يَجْعَلُكُمْ قَذَى لِأَعْيُنِنَا مَا كَتَمْتُ بِقَذَاةِ
وقوله أيضاً:

إِذَا أَنْتَ أَقْرَرْتَ الظَّلَامَةَ لَامَرِيءٍ رَمَاكَ بِأُخْرَى شَعْبَهَا مِتْفَاقِمُ
فَلَا تُبِدِ لِلْأَعْدَاءِ إِلَّا خُسُونَةً فَمَا لَكَ فِيهِمْ إِنْ تَمَكَّنَ رَاحِمُ

(١) القُتار: رائحة الشواء.

(٢) ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١: ٣٩٧.

(٣) الحماسة: "ما طلع النجوم".

٤٠ - وَإِيَّاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ إِنَّمَا اسْتَخْضَاءَ بِمُصْبَاحِ ذَكَائِكَ

[إيَّاس بن معاوية]

هو إيَّاس بن معاوية بن قُرَّة المُرَنِّي، قاضي البصرة، وكنيته أبو وائلة، صاحب الفِرَاسَة والأجوبة البديعة، يُضرب به المثل فيقال: أَزَكُّ من إيَّاس^(١). والزَّكْنُ التَّفَرُّسُ والظَّنُّ [بالشيء بالظنِّ الصائب]^(٢)؛ قال الشاعر:

* زَكَنْتُ مِنْهُمْ عَلَى مِثْلِ الَّذِي زَكَّنُوا *

وبعض الناس يقول: أَذَكَّى من إيَّاس، وهو الذي أَرَادَهُ أَبُو تَمَامٍ فِي قَوْلِهِ^(٣):

* فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَّاسِ *

حكى ابنُ عائشة، قال: أول ما عُرِفَ من ذكاءِ إيَّاس أنه دخل الشام وهو صغير، فَقَدَّمَ خَصَمًا لَهُ شَيْخًا إِلَى قَاضِي عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ - وَكَانَ الْقَاضِي يَعْرِفُ الْخَصْمَ - فَقَالَ لَا بَأْسَ! أَمَا تَسْتَحْيِي! تَقْدُمُ شَيْخًا كَبِيرًا! فَقَالَ إِيَّاس: الْحَقُّ أَكْبَرُ مِنْهُ، قَالَ لَهُ: أَسَكَتَ، قَالَ: فَمَنْ يَنْطِقُ بِحِجَّتِي إِذَا سَكَتَ! قَالَ: مَا أَحْسَبُكَ تَقُولُ حَقًّا حَتَّى تَقُومَ! قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَقَامَ الْقَاضِي فَدَخَلَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَخْبَرَهُ الْخَبْرَ، فَقَالَ: أَقْضِ حَاجَتَهُ، وَأَصْرِفْهُ عَنِ الشَّامِ [لثَلَا]^(٤) يَفْسِدُ عَلَيْنَا النَّاسَ.

وحكى غيره، قال: أول ما عرف من ذكاءِ إيَّاس، أنه كان صبيًّا في المكتب، فاجتمع قوم من النصارى يضحكون من المسلمين، وقالوا: إن المسلمين يزعمون أنه لا يكون في الجنة ثفل الطعام - يعنون الغائط - فقال إيَّاس لمعلِّمه: يا معلِّم، أليس تزعم أن أكثر الطعام يذهب في البدن؟ قال: نعم، قال: فما ينكر أن يكون الباقي يُذهبه الله في البدن! فسكت النصارى، وأعجب به المعلِّم.

وحكى أنه دخل إلى الشام مرة ثانية، وأراد الحج، فقال للمكاري^(٥): انظر لي إنسانًا غريبًا، فإني أريد أن أخرج سرًّا - يعني عديله - فأكرهما، فلبثا في المحمل ثلاثًا لا يسأل هذا هذا

(١) هو قُغْبَنُ بْنُ أُمِّ صَاحِبٍ، مَخْتَارَاتُ ابْنِ الشَّجَرِيِّ ٩؛ وَرَوَايَتُهُ: "زَكَنْتُ مِنْ بَعْضِهِمْ"، وَصَدْرُهُ:

* وَلَكِنْ يُرَاجِعْ قَلْبِي وَدُهُمْ أَبَدًا *

(٢) من ط.

(٣) ديوانه ٢: ٢٤٩؛ وَصَدْرُهُ:

* إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ *

(٤) كَذَا فِي ط: وَفِي ت "لَا"، وَالْخَبْرُ فِي الشَّرِيشِيِّ: ١: ١١٤ .

(٥) الْمَكَارِي: مَنْ يُكْرِي دَابَّتَهُ.

عن شيء^(١)، فقال إياس: يا عبد الله، أخبرني من أنت؟ قال: غيلان، فقال: غيلان القَدري؟ قال: نعم، فمن أنت؟ قال: إياس، قال: أبو وائلة؟ قال: نعم، إن شئت سألتني، وإن شئت سألتك، فقال له غيلان: تكلم، قال: إن شئت أخبرتك بقول^(٢) أهل الجنة والنار، والملائكة، والشیطان والعرب والعجم؛ فقال غيلان: أخبرني بها، قال: قال أهل الجنة حين دخلوها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، [الأعراف: ٤٣]، وقال أهل النار [حين دخلوها]^(٣): ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، [المؤمنون: ١٠٦]، وقالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، [البقرة: ٣٢]، وقال الشيطان: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرْسِلَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، [الحجر: ٣٩]، وقالت العرب شعراً:

ولا يمنعنك الطير شيئاً أردته فقد خُطَّ بالأقلام ما كنتَ لاقياً^(٤)

وقالت العجم:

* هَرَجِهَ بَايْدَبَانَ بُودَهْمَانَ أَزْبِيشْ^(٥) *

وكان سبب ولاية إياس القضاء، أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله، أرسل رجلاً من أهل الشام، وأمره أن يجمع بين إياس والقاسم بن ربيعة الجَوْشَنِي وَيُولِي القضاء أنفذهما، فجمع بينهما، فكان كل منهما يمتنع من الولاية، فقال إياس للشامي: سل عني وعن القاسم فقيهي المَصْر: الحسن البصري وابن سيرين، فعلم القاسم أنه إن سألهما عنهما أشارا به، فقال القاسم للشامي: لا تسأل عنه، فوالله الذي لا إليه إلا هو، إن إياساً لأفضلُ مني وأعلم بالقضاء، فإن كنتُ ممن يصدِّق^(٦) فينبغي لك أن تصدق قولِي، وإن كنتُ كاذباً فما يحل لك أن توليني القضاء وأنا كذاب: فقال إياس للشامي: إنك جئت برجل فأقمته على شفير جهنم، فافتدى نفسه من النار بيمين كاذبة، يستغفر الله عز وجل منها، وينجو من النار. فقال الشامي: أما إذا فطنت لها فإني أوليك^(٧)؛ فاستقضاه، فلم يزل على القضاء مدة، ثم هرب.

(١) ط: "شيئاً".

(٢) ط: "بخبر".

(٣) من د، ط.

(٤) ت "في الأقلام"، وهو خطأ.

(٥) ورد هذا المصراع محرفاً في الأصول، وقد ضبطته بمعرفة الأستاذ نصر الله الطرازي مفهرس الكتب

الفارسية بدار الكتب، قال: ومعناه: "كل ما قدر لنا يكون أمامنا".

(٦) أخبار القضاء: "فإن كنتُ عندك صادقاً".

(٧) أخبار القضاة: "فأنت أفهم منه".

ولما ولى القضاء دخل عليه الحسن البصريّ فبكى إياس، وقال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاء ثلاثة: رجلٌ مَالٌ به الهوى فهو في النار، ورجلٌ أَجْتَهَدَ فأخطأ فهو في النار، ورجلٌ أَجْتَهَدَ فأصاب فهو في الجنة، فقال الحسن: إن فيما قضى^(١) الله تعالى في النبي داود ما يرد قول هؤلاء، ثم قرأ: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، [الأنبياء: ٧٩]، فحمد سليمان ولم يذم داود^(٢).

وحكى المدائنيّ، قال: أودع رجلٌ آخر كيساً فيه دنانير، وغاب مدة طويلة، فلما طال الأمر، فتق الرجل الكيس وأخذ الدنانير، ووضع عَوْضَهَا دراهم، والخيط والخاتم على حاله؛ ثم قَدِمَ صاحب المال فطلب ماله، فدفع له الكيس بخاتمته^(٣) فلم يقبله، وقال: هذه دراهم ومالي دنانير. فقال: هذا كَيْسُكَ وخاتمتك، فرفعه لابن هُبَيْرَة، فقال لإياس: انظر بينهما؛ فقال إياس: منذ كم أودعك؟ قال: منذ عشرة أعوام، فقال: فضّوا الخاتم، ففضّوه، ونثروا الدراهم، فوجدوا فيها ضرب خمس سنين، وست سنين، وأقل وأكثر، فقال إياس: قد أقررت أنه عندك منذ عشر سنين، وفي الكيس ضرب خمس سنين! فأقرّ بالدنانير وألزم بها^(٤).

ونظر إياس يوماً إلى رجل لم يره قطّ، فقال: هذا غريب واسطيّ معلم كَتَّاب^(٥)، هرب له غلام، فوجدوا الأمر كذلك، فسُئِلَ عن ذلك، فقال: رأيته يمشي ويلتفت في الأماكن والطرق، فعلمتُ أنه غريب، ورأيتُ^(٦) على ثوبه حمرة تراب واسط، فعلمتُ أنه من أهلها، ورأيته يمر بالصبيان فيسلم عليهم ولا يسلم على الرجال؛ فعلمتُ أنه معلّم، ورأيته إذا مرّ بذي هيئة لم يلتفت إليه، وإذا مرّ بأسود ذي أسمال تأمله: فعلمتُ أنه يطلب أبقاً.

ووجده يوماً الحكم بن أيوب عامل البلد فسبّه وقال: إنك خارجيّ منافق، فأثنتني بكفيل؛ فقال: أنت أيها الأمير تكفلني، ولا أعلم أحداً أعرف منك بي، فقال: وما علمي بك، وأنا من أهل الشام، وأنت من أهل العراق! فقال إياس: فقيم الشهادة منذ اليوم!

وتبصّر الناس هلال شهر رمضان فلم يره أحدٌ غير أنس بن مالك الأنصاري -وقد قارب المائة سنة من العمر- فشهد عند إياس، فقال إياس: أشر لنا إلى موضعه، فجعل يُشير

(١) أخبار القضاة: "إن فيما قضى الله".

(٢) الخبر في أخبار القضاة لوكيع ١: ٣١٢، ٣١٣، والشرطي: ١: ١١٣، وابن خلكان ١: ٣٨٢.

(٣) ت: "بختمه".

(٤) د: "وألزمه بها"، ط: "وألزمه إياها".

(٥) ط: "صبيان".

(٦) ط: "وأيضاً رأيت".

ولا يروّنه؛ فتأمل إياس؛ وإذا شعرة^(١) بيضاء من حاجب أنس قد انثنت وصارت على عينه، فمسحها إياس وسوّاها، ثم قال: يا أبا حمزة^(٢)، أرنا موضع الهلال؛ فنظر فقال: ما أرى شيئاً. وقيل لإياس يوماً: إن فيك عيوباً: دمامة الشكل، وإعجابك بالقول^(٣)، وعجلة بالحكم؛ فقال: أما الدمامة فليس أمرها إليّ، وأما الإعجاب بالقول؛ أفليس يعجبكم ما أقول؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أحقّ بالإعجاب بقولي؛ وأما العجلة بالحكم، فكم هذه؟ ومدّ أصابع يده، فقالوا: خمس، فقال: أعجلتم بالجواب ولم تعدوها إصبعاً إصبعاً! فقالوا: كيف نعدّ ما نعلمه! فقال: وأنا كيف أوخر حكم ما أعلمه^(٤)!

ودخل إلى واسط، فقال: يومَ قدِمْتُ بلدكم عرفتُ خياركم من شراركم من غير أن أكشف عنهم، قالوا: كيف؟ قال: معنا قوم خيار ألفوا منكم قوماً، وقوم شرار ألفوا قوماً؛ فعلمتُ أن خياركم من ألفه خيارنا وكذلك شراركم. وكان يقول: عرفتُ الزَّكَنَ من أمّي - وكانت خُراسانية وأهل بيتها يزكّون - أي يتفرّسون.

ولإياس أخبار كثيرة من هذا الباب، مجموعة في كتاب يسمّى "زكن إياس"^(٥).

ومات رحمه الله سنة إحدى وعشرين ومائة، وهو ابن ست وتسعين سنة. وقال في العام الذي مات فيه: رأيتُ في المنام كأني وأبي على فرسين، فجريا جميعاً فلم أسبقه ولم يسبقني. وكان أبوه أيضاً قد مات وهو ابن ست وتسعين سنة. والله أعلم.

٤١ - وَسَحْبَانٌ إِنَّمَا تَكَلَّمَ بِلِسَانِكَ

[سحبان وائل]

هو سحبان بن زُفر بن إياس الوائليّ، وائل باهلة. خطيب مُفصِّح يُضرب به المثل في البيان، أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم، ومات سنة أربع وخمسين. وحكى الأصمعيّ، قال: كان إذا خطب يسيلُ عرقاً، ولا يعيد كلمة، ولا يتوقف، ولا يقعد حتى يفرغ.

(١) ط: "شعرة".

(٢) أبو حمزة، كنية أنس بن مالك، تهذيب التهذيب.

(٣) ط: "بما تقول".

(٤) د: "قال: فكذلك أنا في الحكم".

(٥) ذكره صاحب كشف الظنون، ونسبه للمدائني.

وقدّم على معاوية وفدٌ من خُراسان فيهم سعيد بن عثمان، فطلب سحبان فلم يوجد في منزله، فأقْتَضِبَ من ناحية أقتضاباً، وأُدْخِلَ عليه، فقال: تكلم، فقال: أنظروا إلى عصا تقوّم مَنْ أودّي، قالوا: وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربّه وعصاه في يده! فضحك معاوية وقال: هاتوا عصاً، فجاءوا بها إليه، فركلها برجله، ولم يرضها^(١) وقال: هاتوا عصاي، فأتوا بها فأخذها، ثم قام فتكلّم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر، ما تنحج ولا سعل ولا توقّف، ولا ابتدأ في معنّى، فخرج منه وقد بقي عليه منه شيء، فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده، فأشار إليه سحبان: ألا تقطع عليّ كلامي، فقال معاوية: الصّلاة؛ قال: هي أمامك؛ ونحن في صلاة وتحميد، ووعد ووعد، فقال معاوية: أنت أخطبُ العرب، فقال سحبان: والعجم والجنّ والإنس^(٢).

ومما روي عنه في بعض خطبه البليغة؛ إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار؛ فخذوا^(٣) من دار ممركم لدار مكرم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تُخفى عليه أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم؛ ففيها حييتم، ولغيرها خُلقتم؛ إن الرجل إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدّم الله؟ قدّموا بعضاً يكون لكم، ولا تخلّفوا كلّاً يكون عليكم.

ومن شعره يمدح طَلْحَةَ الطَّلَحَات - وهو طلحة بن عبد الله الخزاعي:

يا طَلْحَ أَكْرَمَ مَنْ بِهَا حَسْباً وَأَعْطَاهُمْ لَتَالِدٌ^(٤)
مَنْكَ الْعَطَاءُ فَأَعْطِنِي وَعَلَيَّ مَذْحُكَ فِي الْمَشَاهِدِ

فيقال: إن طلحة قال له: أحتكم، قال: فرسك الورد^(٥)، وقصرك بكذا، فقال طلحة: أف لك! لو سألتني على قدري لأعطيتك كلّ قصر لي وكلّ فرس؛ ولكن أبيت إلا بأهليتك^(٦)!

(١) ت: "يرض بها".

(٢) الخبر في الشريشي ١: ٢٥٣.

(٣) ط: "أيها الناس فخذوا".

(٤) الشريشي ١: ٢٥٣؛ وفيها: "أكرم مَنْ مشى".

(٥) فرس ورد: لونه أحمَر يُضرب إلى صفرة.

(٦) حاشية ت: "وقال غيره في طلحة الطلحات:

رَجِمَ اللَّهُ أَعْظَمًا دَفَنُوهَا بسجستانَ طَلْحَةَ الطَّلَحَات

٤٢- وَعَمَرُو بَنَ الْأَهْتَمِ إِنَّمَا سَحَرَ بَيَانِكَ

[عمرو بن الأهتم]

هو عمرو بن سنان الأهتم بن سُمَيِّ التميمي المنقري، وإنما لُقِّبَ سنان بالأهتم، لأنَّه هَتَمَت ثَنِيَّتُهُ يوم الكُلاب^(١).

وعمرُو من أكابر سادات بني تميم وشعرائهم وخطبائهم في الجاهلية والإسلام. وهو بليغ القول، طلق العبارة، وكان يُدعى المكمل لجماله.

وفد على رسول الله ﷺ هو والزُّبرقان بن بدر فأسلما، وكان رسول الله ﷺ يكرمهما؛ فسأل يوماً عمراً عن الزُّبرقان بحضوره، فقال: مطاع في أذنيَّه، شديد العارضة في قومه، مانع لما وراء ظهره. فقال الزُّبرقان: يا رسول الله، إنه ليُعلم مني أكثر مما قال؛ ولكنه حسدني. فقال عمرو: أما والله^(٢) فإنه زمر^(٣) المروءة، ضيق العطن، لئيم الخال، أحق الولد، وقريب العهد بالغنى، [فرأى تغَيَّرَ النبي ﷺ لما اختلف قوله]^(٤)، فقال: والله يا رسول الله ما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية؛ ولكني رضيْتُ فقلتُ أحسنَ ما علمت، وغضبت فقلتُ أقبحَ^(٥) ما علمت. فقال رسول الله ﷺ: "إنَّ من البيان لسحراً"^(٦).

واختلف قوم في معنى الحديث: "إنَّ من البيان لسحراً"؛ فقال قوم: أريدَ به المدح؛ فإنَّ البيان الفهم؛ وإنَّما سُمِّيَ سِحْراً لحدَّةِ عمله، وسرعة قبول القلب له، والتعجُّب منه كما يُتَعَجَّب من السحر؛ وقد اتفق الناس على أن تصوير الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، من أعلى درجات البلاغة. وقال قوم: أريدَ به الذم، لأنَّ السحر تمويه، والبيان كثرة الكلام والنفاق، واحتجُّوا بقوله ﷺ: "الحياء والعِيَّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق"^(٧)، والأول أصح؛ وإنما سُمِّيَ البيان هنا نفاقاً إذا كان من البذاء.

وحكى العتبي، قال: وفدَ الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأراد أن يُقرع بينهما في الرياسة، فلما اجتمع بنو تميم قال الأحنف -وهي من سَقَطاته:

(١) يوم الكُلاب الثاني لتمييم على مذبح؛ والكُلاب: إسم ماء بين البصرة والكوفة، أيام العرب والجاهلية. ١٢٤.

(٢) جمهرة الأمثال: "والله يا رسول الله إنه لزمر المروءة"، أي قليلها.

(٣) العطن: مناخ الإبل حول الماء؛ وهو كناية عن البخل.

(٤) من ط.

(٥) الجمهرة: "فقلت بأسوأ ما علمت".

(٦) الخبر في جمهرة الأمثال للعسكري ١: ١٣، ١٤.

(٧) نقله السيوطي في الجامع الصغير ١: ٢٦٠.

ثَوَى قَدَحَ عَنْ قَوْمِهِ طَوْلَ مَا ثَوَى فَلَمَّا أَتَاهُمْ قَالَ قَوْمُوا ففأخروا^(١)
فقال عمرو: إنا كنا نحن وأنتم في دار جاهلية، وكان الفضلُ فيها لمن جهل؛ فسفكنا
دماءكم، وسببنا نساءكم، ونحن اليوم في دار الإسلام، والفضل فيها لمن حلم، فغفر الله لنا
ولك! فغلب يومئذ عمرو على الأحنف، ووقعت القرعة لآل الأهتم، فقال عمرو:
وَلَمَّا دَعَنْتَنِي لِلرَّيَاسَةِ مَعْشَرُ لَدَى مَجْلِسِ أَضْحَى بِهِ النَّجْمُ بَادِيَا
شَدَدْتُ لَهَا أَزْرِي وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَهَا لِأَمْثَالِهَا قَدَمًا أَشَدُّ إِزَارِيَا
وتوفي في سنة سبع وخمسين. وكان يقول: أشجع الناس من ردَّ جهله بحلمه.
وكان يقول: أفٌ للخمر! وكان ممن حرّمها في الجاهلية، وقال: لو كان شيء يُشترى
ما كان شيء أنفس منه - يعني العقل - فالعجبُ لمن يشتري الحمق بماله فيدخله في رأسه،
فيقيء في جيبه، ويُسلّح في ذيله.

ومن شعره - وهو في أعلى الطبقات - قوله:

وَمُسْتَنْبَحٌ بَعْدَ الْهُدُوءِ دَعْوَتُهُ وَقَدْ حَانَ مِنْ سَارِي الشِّتَاءِ طَرُوقُ^(٢)
يَعَالِجُ عَرْنِينًا مِنَ اللَّيْلِ بَارِدًا تَلَفُ رِيَا حُ ثَوْبَهُ وَبُرُوقُ^(٣)
أَضْفَتْ فَلَمْ أَفْجَسْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَقْلُ لِأَحْرَمِهِ: إِنَّ الْمَكَانَ مَضِيقُ
وَقَلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتُ صَالِحٍ وَغُبُوقُ^(٤)
وَقَمْتُ إِلَى الْبَرَكِ الْهُوَاجِدِ فَاتَّقْتُ مَقَاحِدُ كَوْمٍ كَالْمَجَادِلِ رُوقُ^(٥)
بَأْدَمَاءِ مَرْبَاعِ النَّجَاحِ كَأَنَّهَا إِذَا عَرَضَتْ دُونَ الْعِشَارِ فَنِيقُ^(٦)
فَقَامَ إِلَيْهَا الْجَازَانُ فَأَوْفَدَا يُطِيرَانُ عَنْهَا الْجِلْدَ وَهِيَ تَفُوقُ^(٧)

(١) د: "نفاخر".

(٢) من المفضلية ٢٣. والمستنبح: الرجل الذي يضل الطريق ليلاً فينبج لتجبيه الكلاب، وفي المفضليات: "وقد حان من نجم الشتاء خفوق".

(٣) العرنين: الأنف؛ وأراد به أول الليل، وأصل اللف للرياح خاصة، فأ تبع البروق الرياح على المجاز.

(٤) المفضليات: "فهذا صبح راهن وصديق".

(٥) البرك: إبل الحي كلهم. الهواجد: النيام. والهاجد من الأضداد؛ يُقال للنائم والمستيقظ. فاتقت؛ أي جعلت بيني وبينها الأدماء التي في البيت الآتي. المقاحيد: الإبل المسنة، والكوم كذلك، جمع كوما. المجادل: القصور، واحدها مجدل. الروق: الخيار.

(٦) الأدماء: البيضاء. مرباع النجاج التي يكون نتاجها في أول الربيع، وذلك أقوى لولدها. العشار: جمع عشاء، وهي الناقة التي مضى من لقاحها عشرة أشهر. الفنيق: الفحل الذي يودع للفحلة.

(٧) أوفدا؛ أي ارتفعا وعلوا لعظمهما. تفوق: تجود بنفسها.

فَجَرَّ إِلَيْنَا ضَرْعُهَا وَسَنَامُهَا
وَبَاتَ لَنَا مِنْهَا وَللضَّيْفِ مَوْهِنًا
وَكُلَّ كَرِيمٍ يَتَّقِي الذَّمَّ بِالْقَرَى
لَعْمُرِكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادُ بَاهِلِهَا
نَمْتَنِي عَرُوقٌ مِنْ زُرَّارَةِ لِلْعُلَا
مَكَارِمٍ يَجْعَلُنَ الْفَتَى فِي أُرُومَةٍ
وَقَوْلُهُ أَيْضًا مِنْ آيَاتِ:

وَذِي لَوْقَةٍ شَهَى الرُّقَادَ بَعِينَهُ
فَقُلْتُ لَهُ كَمَشَ ثِيَابَكَ وَارْتَحِلْ
إِذَا مَا نَجُومُ اللَّيْلِ صَارَتْ كَأَنَّهَا
شَامِيَّةٌ إِلَّا سَهِيلًا كَأَنَّهَا
وَقَوْلُهُ - وَهُوَ أَحْسَنُ مَا لِلْمَتَقَدِّمِينَ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

تَطَارَحَنِي يَوْمٌ جَدِيدٌ وَلَيْلَةٌ
إِذَا مَا سَلَخْتُ الشَّهْرَ أَهْلَلْتُ بَعْدَهُ
هُمَا أَبْلِيَا جِسْمِي، وَكُلَّ فَتَى بِالْي
كَفَى قَاتِلًا سَلَخِي الشُّهُورَ وَإِهْلَالِي

٤٣- وَأَنَّ الصُّلْحَ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ تَمَّ بِرِسَالَتِكَ

[الصلح بين بكر وتغلب]

بكر وتغلب هم بنو وائل الذين قامت بينهم حرب البسوس كما تقدم في ذكر جسّاس ومهلل، واستمرت أعواماً كثيرة إلى أن تفانى الحيان، وقُتِلَ عظماءُهم، فخرج مُهلل إلى أخواله ضَجْرًا من الحرب وتطاوُلَ المدة، ومالَ مَنْ بَقِيَ من القوم إلى صلح بعضهم بعضاً، وراسلهم الحارث بن عمرو بن معاوية الكِنْدِي ملك كندة - وهو جدّ امرئ القيس الشاعر - في الصلح بينهم، والتملك عليهم، وقد كانوا قالوا: إِنَّ سَفْهَاءَنَا قَدْ غَلَبُوا عَلَيَّ أَمْرَنَا، وَأَكَلَّ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ؛ والرأي أن نملك علينا ملكاً نعطيه البعير والشاة، فيأخذ من القوي، ويردّ

(١) الأزهري: الأبيض؛ يعني ولدها. والعتيق: الكريم؛ أراد أنه نحر أنفُس الإبل وهي العشاء.

(٢) موهنا: بعد وقت من الليل قريب من نصفه. والزاهق: الذي ليس بعد سمنه سمن. والوشيق: اللحم يُغلى في ملح. وقيل: المقدد الذي يُجمل في الأسفار. وفي المفضليات: "وغبوق"، وهو شراب العشي.

(٣) نمتني: رفعتني ونوهت بإسمي، وأم عمرو بن الأَهم ميا بلت فدكي بن أعبد، وأمها بنت علقمة بن زُرارة، يصف كرم آبائه وأخواله.

(٤) الأرومة، بالضم - وهي لغة تميم: أصل الشيء. واليفاع: المرتفع.

فأجابوا الحارث بن عمرو إلى ما أراد، فقدم عليهم وتلاقى بقيتهم، وأصلح أمرهم، وشغلهم بغزو اللخميّين من بني غَسَّان ملوك الشام. وكان الحارث ملكاً جليلاً، رفيع الهمّة، ويسمى أكل المرار؛ وإنّا سمّي بذلك لأنّ زياد بن الهُبُولَة أحد ملوك الشام غزا أرضه - والقوم خُلف بالبحرين - فأصاب سَبِيّاً وغنائم، وسبى هنداً بنت ظالم زوجة الحارث بن عمرو، فبلغ الحارث الخبر، فخرج للقاء ابن الهُبُولَة، وأرسل سَدُوس بن شيبان^(١) وصُليح بن وهب^(٢) يتجسّسان له الخبر في عسكر ابن الهُبُولَة، فخرجا حتى هَجَمَا على العسكر ليلاً، وقد أَمِن الطلب، وقَسَم التَّهَب، وأخذ المرباع، وأوقد ناراً عظيمة، ونادى مناديه: مَنْ جاء بحزمة حطب فله فِدْرَة^(٣) من تمر، فأخذ كلُّ منهما حزمة من الحطب وألقاها عند النار، وأخذ التمر. فأما صُليح فقال: يكفي هذه آية^(٤) وانصرف؛ وأما سَدُوس فقال: لا أبرح حتى آتِيَه بأمر جليّ. فلما دخل ابنُ الهُبُولَة قُبْتَه، قرب سَدُوس منها بحيث يسمع كلامه، وأقبل أناس يحرسون القُبّة، فضرب سدوس يده إلى جليس له مخافة أن يستنكره، فقال: مَنْ أنت؟ فقال: فلان. ودنا ابن الهُبُولَة من هند امرأة الحارث فقبّلها وداعبها، وقال: ما ظنك الآن بالحارث؟ قالت: ما هو الظنّ؛ بل هو اليقين، إنّه لن يدع طلبك حتى يعاين القُصور الحمر - يعني الشام - وكأني أنظر إليه في فوارس من شيبان يذمرهم ويذمّرونه، وهو شديد الكَلْب كأنه بغير أكل مراراً - فسُمّي أكل المرار، والمرار نبت فيه مرارة، إذا أكلت منه الإبل قلصت مشاferها - وقيل: بل سمعها سَدُوس - يعني هنداً - تقول لابن الهُبُولَة، وقد سألتها عن حبها الحارث، فقالت: والله ما أبغضت نسمة^(٥) قط بغضي له، وما رأيت أحزم منه نائماً ومستيقظاً، وكان إذا أراد النوم أمرني أن أجعل عنده عَساً من لبن؛ فبينما هو نائم يوماً، وأنا قريب أنظر إليه؛ إذ أقبل سالحٌ إلى [رأسه، فنحى رأسه، فمال إلى يديه، وإحدهما مقبوضة، والأخرى مبسوطة فأهوى إليها فقبضها، فمال إلى رجليه وقد قبض واحدة وبسط الأخرى فأهوى إليها فقبضها، فمال إلى [٦] العُصّ فشرب منه، ثم مَجّ فيه، فقلت: يستيقظ فيشربه فيموت، فأستريح منه. فانتبه من نومه فقال: عليّ بالإناء فناولته إياه فشَمّه، ثم ألقاه فهُرِق، [ثم قال: أين ذهب الأسود؟ فقلت: ما رأيته؟ فقال: كذبت]^(٧).

(١) كذا في الأغاني، وفي الأصول: "سنان".

(٢) الأغاني: "صليح بن عبد غنم بن ذهل".

(٣) الفدرة: الكتلة من التمر.

(٤) بعدها في الأغاني: "وعلم ما يريد، فأنصرف إلى حجر فأعلمه بعسكره، وأراه التمر".

(٥) الأغاني: "ذانسمة".

(٦) من الأغاني.

(٧) من ط.

فلما سمع سدوس هذه المقالة، أمهل حتى نام الحرس، وخرج يسري ليلته حتى صبح الحارث، فدخل عليه وهو ينشد:

أَتَاكَ الْمَرْجُفُونَ بِرَجْمِ ظَنٍّ عَلَى دَهَشٍ وَجُتُّكَ بِالْيَقِينِ^(١)
ثم قص عليه ما سمع، وكان الحارث جالساً في موضع فيه شيء كثير من نبت المَرار، فجعل يسمع الحديث ويعبث بالمرار، ويأكل منه غضباً وأسفاً، وهو لا يعلم أنه يأكله من شدة الغيظ، إلى أن فرغ الحديث ووجد طعمه؛ فسَمِّيَ أَكَلَ المَرار. ثم لحق ابن الهبولة فقاتله، وظفر عليه.

ولم يزل ملكاً على بني وائل إلى أن مات. ومن شعره يقول:

رُبَّ هَمٍّ جُشِّمَتْهُ فِي هَوَاكُمُ وَبَعِيرٍ بَرَكْتُهُ مُحْسُورُ
وِغْلَامٍ كَلَّفَتْهُ دَلَجَ اللَّيْلِ لِفَاضِحِي كَأَنَّهُ مَخْمُورُ
إِنْ مَنَ غَرَّةُ النِّسَاءِ بِشَيْءٍ بَعْدَ هَنَدٍ لَجَاهِلٍ مَغْرُورُ
كُلُّ أَتَشَى وَإِنْ بَدَا لَكَ مِنْهَا آيَةُ الْحَبِّ حُبَّهَا خَيْتَعُورُ^(٢)

٤٤ - وَالْحَمَالَاتُ بَيْنَ عَبَسٍ وَذُبْيَانَ أُسْنِدَتْ إِلَى كَفَالَتِكَ

[حَرْبُ دَاخِسٍ وَالْغُبَرَاءِ]

الحمالات، جمع حَمَالَة؛ وهو ما يتحمله الرجل عن القوم من دية، أو غرامة؛ وأصل الحروب بين بين عَبَسٍ وَذُبْيَانَ، أَنَّ قَيْسَ بْنَ زَهْرَةَ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ، كَانَ قَدْ اشْتَرَى مِنْ مَكَّةَ^(٣) دِرْعاً حَسَنَةً تُسَمَّى ذَاتُ الْفُضُولِ^(٤)، وَرَدَّ بِهَا إِلَى قَوْمِهِ، فَأَرَاهَا عُمَةُ الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ - وَكَانَ سَيِّدَ بَنِي عَبَسَ - فَأَخَذَهَا مِنْهُ غَضَباً، فَانْتَقَلَ عَنْهُ قَيْسُ بْنُ زَهْرَةَ بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ، وَنَزَلَ عَلَى بَنِي ذُبْيَانَ، وَسَيِّدَهُمْ حَمَلُ بْنُ بَدْرٍ بْنُ حِصْنٍ^(٥)، وَأَخُوهُ حُذَيْفَةُ، فَأَكْرَمُوهُ وَأَحْسَنُوا جَوَارَهُ.

وَكَانَتْ لَقَيْسُ خَيْلٍ كَرِيمَةٍ، مِنْ جَمَلَتِهَا دَاخِسٌ - وَإِنَّمَا سُمِّيَ دَاخِساً لِأَنَّهُ كَانَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي يَرْبُوعٍ - يُقَالُ لَهُ قِرْوَاشٌ - فَرَسٌ تَسْمَى جَلُوى^(٦) وَلِرَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ حَوْطُ فَرَسٍ يُقَالُ

(١) الأغاني: "برجم غيب"؛ وبعده:

فَمَنْ يَكُ قَدْ أَتَاكَ بِأَمْرِ لَبْسٍ فَقَدْ آتَى بِأَمْرِ مُسْتَيِّنٍ
(٢) الخيتعور الباطل؛ أو الذي لا يدوم على حال. وأخبار حجر مع ابن الهبولة في الأغاني ١٦ : ٣٥٤ - ٣٥٨ (طبع دار الكتب).

(٣) ت: "مكة شرّفها الله تعالى". وفي ابن الأثير: "المدينة".

(٤) ابن الأثير: "ذات الحواشي".

(٥) ط: "حصين"؛ تصحيف.

(٦) ت، د: "حنوى"؛ تصحيف؛ وانظر القاموس.

له: ذو العُقَّال، وكان لا يُطْرِقه^(١) شيئاً؛ وإنهم توجهوا في نُجعة، والفحل مع ابنتين لَحُوط تقودانه، فمرت به جَلوى وديقاً^(٢)، فلما استنشاها^(٣) ودَى، فضحك شباب منهم، فاستحيت الفتاتان، فأرسلتا مَقُوده، فوثب على جلوى. ثم جاء حوط - وكان سييء الخلق - فرأى عين فرسه، فقال: ثار والله! فأخبر بالخبر، فنادى بني يَرْبوع فأجتمعوا، فقالوا: والله ما أكرهناه، قال: أريد ماء فرسي، فقالوا: دونك، فأوثقها حَوط، ثم جعل في يده تراباً، وسطاً عليها، فأدخل يده في فَرْجها وأخرجها، فاشتملت الرَّحَم على ما فيها، ففتجها قرواش مُهراً، فسماه داحساً لسطوة حَوط عليها ودَحسه اليد إليها، وخرج داحس كأنه أبوه^(٤).

ثم إن قيس بن زُهَيْر أغار على بني يَرْبوع، فغنم وسبي، وركب داحساً فتيان من بني أَرْنَم^(٥)، فنجوا وقطعا الخيل. فلما رآه قيس أعجب به، فدعا إلى أن يُجْعَلَ فداء السبي؛ ففعلوا وصار لقيس، فتراهن رجلان من بني ذُبْيَان عليه وعلى فرس لحذيفة تسمَّى الغبراء: أيها أسبق؛ على عشر قلائص.

وقد قيل: إن داحساً والغبراء فرسا قيس، والخطار والحنفاء فرسا لحذيفة، وأنهم أجزوا الجميع وقيل: تراهننا على فرس قيس، أيها أسبق^(٦)! وللرواة في ذكر هذا السباق أخبار مختلفة مطوّلة جداً، تشتمل على أمثال وأشعار، اختصرتها لكثرة ما فيها من الموضوعات.

ثم إن الرجلين أخبرا حذيفة بن بدر بالرهان على فرسه وفرس قيس، فرضي به وأمضاه^(٧)، وأتيا^(٨) قيساً فقالا: إنّا راهنّا عن^(٩) فرسك، فقال: راهنا من شئنا وجنّاني بني بدر؛ فإنهم قوم يظلمون؛ فقالا: قد أوجبنا الرهان مع حذيفة، فقال: والله لتشتعلن علينا شراً. ثم جاء قيس إلى حذيفة، فقال: إننا جئتك لأوضحك الرهان عن صاحبي، فقال: لا، والله حتى تأتي بالعشر قلائص. فأحفظ ذلك قيساً وغضب، وتزايد حتى بلغا مائة قلوّص، ووضع الرهان على يد

(١) يقال: طرق الفحل الناقة يطرقها طروقاً؛ أي وقع عليها وضربها؛ والضراب: نكاح الإبل؛ ويقال: أطرقه فحلاً؛ أعطاه إياه يضرب في إبله.

(٢) يقال: ناقة وديق، أي تريد الفحل وتحرص عليه.

(٣) استنشاها، أي أحس رائحتها.

(٤) في ابن الأثير: "فسطا عليها رجل من القوم فدرس يده في رحمها، فأخذ ما فيها فلم تزد الفرس إلا لقاحاً، ففتجت مهراً، فسُمِّيَ داحساً بهذا السبب".

(٥) ت: "أريم" ط: "رويم"، والصواب ما أثبتته من الأغاني.

(٦) د، ط: "السابق".

(٧) ط: "وأرضاه".

(٨) ط: "فأتيا".

(٩) ط: "على".

رجل من بني ثعلبة، وجعلوا الغاية مائة غلوة^(١)، ووقع بينهم الإتفاق على السباق، [وجعلوا الغاية من واردات إلى ذات الإصاد، وجعلوا القصبة في يد رجل، وملئوا بركة من ماء، وجعلوا السابق أول الخيل يكرع فيها]^(٢). ثم قادا الفرسين إلى الغاية، وركبهما فتیان منهم. وكان حمّل ابن بدر قد جعل حيساً في دلاء^(٣) ووضعه في شعب من شعاب هَضْب القليب على طريق الفرسين، وأكمن فيه فتیاناً، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يردوا وجهه إلى أن يسبقه، فسبق داحس، فأشار إليه مَنْ كان في الشعب، فردّوا وجهه، وجاءت الغبراء، وعلم قيس والذي على يده الرهان بذلك [فقال:

لقد لافيتُ من حمّل بن بدر وإخوته على ذات الإصادِ
هُم فَخَرُوا عَلَيَّ بغيرِ فخرٍ وردّوا دُونَ غايتهِ جَوادي
وكنْتُ إذا مُنيتُ بخُصْمٍ سُوءٍ دَلَفْتُ لَهُ بدهيةِ نَادٍ
وقَدْ دَلَفُوا إِلَيَّ بفعلٍ سُوءٍ فَأَلْفُونِي لَهُمْ صَعْبِ الْقِيَادِ
ثم قال^(٤) [قيس لحذيفة: أعطني سبقي^(٥)، وقال الذي على يده الرهان: يا حذيفة، أعطه سبقه، فقد سبق داحس، فأعطاه السبق.

ثم إن جماعة من قوم حذيفة ندموه على دفعه السبق إلى قيس؛ ونهاه آخرون عن الشر وقالوا: إن قيساً لم يسبق إلى مكرمة؛ وإنما سبق دابة دابة، فأبى وبعث ابنه نذبة بن حذيفة إلى قيس يطلب منه السبق، فقال: هذا سبقي، فكيف أعطيكم إياه! فتناول ابن حذيفة من عرض قيس وشتمه وأغلظ، وكان إلى جانب قيس رمحٌ قطعنه، فدقّ صلبه: واجتمع الحيّان؛ وأدّوا دية المقتول، وأخذها حذيفة دفعاً للشر. ثم إن قومه ندموه، فعاد الشر بينهم، فتحمل قيس بمن معه من قومه ورحل، وجمع الفرسان، وقامت الفتن بين الحيين إلى أن قُتل مالك بن زهير أخو قيس.

وكان الربيع بن زياد عمهما معتزل الحرب، فلما سمع بمقتل ابن أخيه مالك شقّ ذلك عليه، وقاتل بني ذبيان، وقال^(٦):

(١) الغلوة: مقدار الرمية بالنشابة.

(٢) من ت.

(٣) بعدها في جمع الأمثال: "فسمي ذلك الشعب شعب الحيس لهذا".

(٤) من ت.

(٥) السبق: الرهان الذي يوضع بين أهل السباق.

(٦) من كلمة له في ديوان الحاضرة ٣: ٣٥ - بشرح التبريزي.

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلَيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارٍ
يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَ لَهُ بِالصُّبْحِ قَبْلَ تَبْلُجِ الْأَسْحَارِ
أَفْبَعَدَ مَقْتَلَ مَالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ تَرْجُو النِّسَاءُ عَوَاقِبَ الْأَطْهَارِ!
يعني أنه أخذ ثأر مالك، فندبه النساء، وكذلك عادة العرب لا تندب القتل حتى يؤخذ ثأره.

ولبعض الأدباء اعتراض في قوله:

* بِالصُّبْحِ قَبْلَ تَبْلُجِ الْأَسْحَارِ *

فإنَّ الصُّبْحَ لا يكون إلا بعد تَبْلُجِ الْأَسْحَارِ. وأجيب بأقوال: منها، أن الصُّبْحَ ها هنا الحق الواضح، من وصف القتل^(١) الذي هو كالصُّبْحِ، كأنها^(٢) ندبته خلال الحسنة الواضحة. والبيت الثالث يستشهد به العروضيون^(٣) على دخول الحذف في عروض الطويل، كما يدخل في ضربه، وهو زوال السبب من "مفاعِلن" المقبوضة، وهو قليل ولا يُستعمل. ثم توالى أيام الحروب بينهم، وكان أعظمها يوم الهبأة كما تقدم. وسُمِّ قَيْسٌ من القتال، فذهب إلى أخواله كما ذكر في ترجمته^(٤)، وكان الربيع قد مات، وأكل بعضُ القوم بعضاً، فقام في الصلح الحارث بن عوف وهرم بن سنان المريان وحمل الحمالات، واجتهدا في إصلاح ذات البين. وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى الشاعر:

تَدَارَ كَتَمًا عَيْسًا وَذُبْيَانًا بَعْدَمَا تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عَطَرٌ مَنْشَمٌ^(٥)

وكانت اليد الطولى للحارث بن عوف أولاً وآخرًا، والسبب في ذلك أن الحارث قال يوماً لخارجة بن سنان: أتراني أخطب إلى أحد فيردني؟ قال: نعم، قال: ومن ذلك؟ قال أوس ابن حارثة بن لأم الطائي، فقال الحارث لغلامه: ارحل، فركبا حتى لقيَا أوس بن حارثة في بلاده، فوجداه في فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف، قال: مرحباً بك يا حارث. قال: وبك، قال: وما حاجتك؟ قال: جئتُك خاطباً، قال: لست هناك! فأنصرف ولم يكلمه.

(١) ت: "من وصفه".

(٢) ط: "كأن النساء".

(٣) كذا وقع في الأصول، وهو خطأ. والصواب: "على دخول القطع في عروض الكامل، كما يدخل في ضربه؛ وهو زوال الحرف الثاني المتحرك من الودت المجموع فتصير: "متفاعِلن"، وذلك قليل لا يُستعمل". راجع كتب العروض.

(٤) انظر أخبار هذه الحرب في الميداني ٢: ٣٨ - ٤٠، ابن الأثير ١: ٢٤٣ - ٣٤٩، الأغاني ١٦: ٢٠ - ٢٣ (ساسي).

(٥) ديوانه ١٥. ومنشَم، قال شراح الديوان: "زعم الأصمعي أنها امرأة عطارة من خزاعة، تحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا، فصار هؤلاء مثل أولئك في شدة الأمر".

ودخل أوس إلى امرأته مغضباً - وكانت من عبس - فقالت: مَنْ الرجل الواقف^(١) عليك؟ قال: ذلك سيد العرب الحارث بن عوف، قالت: فما لك لم تستنزله؟ قال: إنه استحمق، قالت: وكيف؟ قال: جاءني خاطباً، قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال: نعم، قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فَمَنْ! قال: قد كان ذلك، قالت: فتدارك ما كان منك، قال: بماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده، قال: وكيف وقد فرط مني ما فرط إليه! قالت: تقول: إنك لقيتني وأنا مغضب بأمر لم تقدم فيه قولاً؛ فأنصرف ولك عندي ما تحب، فإنه سيفعل. فركب أوس بن حارثة في أثره.

قال خارجة: فوالله إنا لنسير إذ حانت مني التفاتة، فرأيتُه فأقبلتُ على الحارث، وما يكلمني غماً، فقلت له: هذا أوس بن حارثة، فقال: وما نصنع به! أمض، فلما رأنا لا نلتفت صاح: يا حارث، أربع علي، فوقف له فكلمه بذلك الكلام، فرجع مسروراً. فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته: ادعي لي فلانة - لأكبر بناته - فأتته، فقال: يا بُنيّة، هذا الحارث بن عوف، سيد من سادات العرب، وقد جاءني خاطباً، وقد أردتُ أن أزوجه منك، فما تقولين؟ قالت: لا تفعل، قال: ولم؟ قالت: لأنني امرأة في وجهي ردة، وفي خلقي بعض العُهد^(٢)، ولست بابنة عمه فيرعى رَحمي، وليس بجارك في البلد فيستحي منك؛ ولا من أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فتكون علي وضمة. فقال: قومي بارك الله فيك! ثم دعا الوسطى، فأجابته بقريب من هذا الجواب، ثم دعا الصغرى^(٣) فقال لها كما قال لأختها، فقالت: أنت وذلك؛ فقال: إني عرضت ذلك على أختيك فأبياه، فقالت: لكني الجميلة وجهاً، الصنّاع يداً، الحسبية أبا^(٤)، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه. قال: بارك الله عليك!

ثم خرج إلينا، فقال: قد زوّجتك [بهيسة]^(٥) بنت أوس، قال: قد قبلت، فأمر أمها أن تهينها، وتصلح من شأنها، ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله أيّاه، فلما أدخلتُ إليه لبث هنيهة ثم خرج إليّ، فقلت له: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، لما مددت يدي إليها، قالت: مه! أعند أبي وإخوتي! هذا لا يكون.

قال: فأمر بالرحلة فارتحلنا بها، فسرنا ما شاء الله، ثم قال لي: تقدم فتقدمت، فعدل بها عن الطريق، فما لبث أن لحقني فقلت: أفرغت؟ قال: لا والله! قالت لي: كما يفعل بالأمة الجليبة والسبية الأخيذة! لا والله حتى تنحر الجزر، وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل لمثلي.

(١) ط: "الذي وقف".

(٢) الردة: القبح مع شيء من الجلال. والعهد: الضعف.

(٣) ط: "الصغيرة"، وفي الأغاني: "ادعي لي بهيسة - وهي الصغرى".

(٤) ت: "الحسنة أبا"، وأثبت ما يوافق الأغاني وباقي الأصول.

(٥) من د.

قلت: والله لأرى هيئة عقل، وإنني لأرجو أن تكون المرأة النجيبة^(١) ثم سرنا حتى دخلنا بلادنا، فأحضرنا الإبل والغنم، ثم دخل إليها وخرج، فقلت: أفرغت؟ قال: لا والله، قلت: ولم ذاك؟ قال: دخلتُ عليها أريدها، فقلت: قد أحضرنا من المال ما ترين، قالت: والله لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك، قلت: كيف! قالت: أتفرغ لنكاح النساء، والعرب يقتل بعضها بعضاً! يعني عبساً وذبيان- قلت: فتقولين ماذا؟ قالت: أخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح ما بينهم، ثم أرجع إليّ، وإنني لست فائتتك. قلت: والله إنني لأرى عقلاً وهمّة، ولقد قالت قولاً حقاً، فأخرج بنا. فخرجنا حتى أتينا القوم، فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى من الفريقين، ثم يؤخذ الفضل ممن هو عليه. فحملنا عنهم الديّات، فكانت ثلاثة آلاف بعير^(٢).

وعاش الحارث إلى أن أدرك النبي ﷺ، ووفد عليه وأسلم، وبعث معه رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار في جواره يدعو قومه إلى الإسلام، فقتله رجل من بني ثعلبة، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فقال لحسان: قل فيه، فقال:

يا حَارِ مَنْ يَغْدِرْ بِذِمَّةِ جَارِهِ فَيَكُمُ فَإِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَغْدِرُ^(٣)
وأمانة المُرِّيِّ حَيْثُ لَقِيَتْهُ مَثَلُ الرَّجَاجَةِ صَدْعُهَا لَا يُجْبَرُ
فتألم الحارث لهذا القول، وأرسل يعتذر، وبعث إليه بدية الرجل سبعين بعيراً، فقبلها رسول الله ﷺ. ومات الحارث عقيب ذلك.

ومن شعره قوله:

فإنَّ أَكْبَرَ فِائِي فِي لِدَاتِي وعاقبة الأصاغر أن يشيئوا
وما كَثُرَتْ فائدتِي بَعْدُ كفانِي فِي الْفَوَائِدِ مَا يَطِيبُ
وقوله -ولو لم يكن للشاعر إلا هذا القول لكفاه:

كَمْ مِنْ يَدٍ لَا أُوَدِّي حَقَّ نِعْمَتِهَا عِنْدِي لِمَخْتَبِطِ طَارٍ وَمِنْ مَنْ
إِذْ جَاءَ يَسْعَى إِلَى رَحْلِي لِأُسْعِفِهِ أَلَيْسَ قَدْ ظَنَّ بِي خَيْرًا وَلَمْ يَرْنِي!

* * *

(١) الأغاني: "منجبة".

(٢) الخبر في الأغاني ١٠: ٢٩٤ - ٢٩٦؛ قال: "وفيه قال زهير بن أبي سلمى قصيدته:

* أَمِنْ أَمْ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ *

(٣) ديوانه ٢١١ برواية مخالفة.

٤٥ - وَأَنَّ احْتِيَالَ هَرِمٍ لِعَلْقَمَةَ وَعَامِرٍ حَتَّى رَضِيَا كَانَ ذَاكَ عَنْ إِشَارَتِكَ

[منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل]

هو هَرِم بن قُطْبَة بن سَيَّار^(١) الفزاريّ، حَكَم من حَكَّام العرب، يقضي بين السادات فيرضون بقضائه، ولا يُردُّ قوله إذا فَضَّل أحدَ المتنافرين^(٢) على الآخر. ومعنى المنافسة المحاكمة في الحسب والفضل بين الرّجلين، يقال: نافرَه إذا حاكمه، ونَفَرَه إذا غلبه.

وعلقمة هذا، هو علقمة بن علاثة بن جعفر؛ من بني عامر بن صعصعة. وعامر هو ابن الطفيل بن مالك بن الأخوص، وكلّ منهما سيّد من سادات قومه، فارس شاعر، وسأورد من أخبارهما شيئاً.

فأما سببُ منافرتهما كما حكى أبو عبيدة وغيره^(٣)، قال: أوّل ما هاج النَّفَار بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، أن علقمة كان قاعداً ذات يوم ييول، فبَصُر به عامر. وقال: لم أرَ كالיום عورة^(٤) رجل أَفْجَح من عورتك! فقال علقمة: لأنّها لا تثب على جاراتها، ولا تنال كُنَّاتِها^(٥) - يعرّض بعامر - فقال عامر: وما أنتَ والقُروم^(٦)! والله لَفَرَسُ أبي المسمّى "حنوة"^(٧) أذكر من أبيك، ولفحلُ أبي المسمّى "الغيب" أعظم ذكراً منك.

فقال علقمة: أما فرسكم فعارة^(٨)، وأما فحلکم فغدره - وكانوا قد استعاروا هذا الفحل من رجل من كلب يستطرقونه^(٩) فغبلوه عليه - ولكن إن شئتَ نافرْتُك؛ قال: قد شئتُ.

فقال علقمة: والله إني لبرٌّ وإنك لفاجر، وإني وفيّ وإنك لغادر، فبم تفاخرنِي يا عامر! فقال عامر: والله إني لأنزُلُ منك في القفْرة^(١٠)، وأنحرَ للبكرة، وأطعنَ للشجرة^(١١)؛ ثم تنافروا على مائة من الإبل إلى مائة، يعطيها الحكم أيهما نفرَّ عليه صاحبه^(١٢). ثم خرج علقمة بمن معه من بني خالد، وخرج عامر بمن معه من بني مالك، وقد أتى عامر بن الطفيل عمّه

(١) كذا في ت والاشتقاق ٢٧٣، وفي ط والأغاني ١٦: ٢٨٧: "سنان".

(٢) ط: "المتنافرين".

(٣) أوردها أبو الفرج بأسانيده في الأغاني ١٦: ٢٨٣ - ٢٩٦ (طبعة دار الكتب).

(٤) ط: "سوءة"؛ وما أثبت يوافق ما في الأصول الخطية والأغاني.

(٥) كذا في ت، والأغاني، وفي ط: "إلا كفاتها". والكنة: امرأة الابن أو الأخ.

(٦) ط: "القدوم"، تصحيف.

(٧) كذا في نسب الخيل لابن الكلبي ٦٦، والمخصص ٦: ١٩٦، والتاج "حنو".

(٨) عارة: عارية.

(٩) يستطرقونه: يتخذونه فحلاً لنياقهم.

(١٠) ط: "للقفرة".

(١١) كذا في ط والأغاني، وفي ت: "للنثرة"؛ وهي بمعنى الخيشوم وما والاه.

(١٢) ط: "صحبته".

ملاعب الأسنّة، فقال: يا عمّاه أعنّي؛ قال: يا ابن أخي؛ سبّني، قال: لا أسبّك وأنت عمّي، قال: دونك نعلي، فإني ربعتُ فيهما أربعين مِرباعاً، فاستعن بهما في نِفارك. وجعلنا منافرتهما إلى أبي سفيان بن حرب، فلم يقل فيهما شيئاً^(١)، وكره ذلك الأمر لخالهما وحال عشيرتهما، فأنطلقا إلى هرم بن قُطبة حتى نزلا به، فقال هرم: لأحكمَنَّ بينكما ثم لأفضّلَنَّ، ثم لستُ أثق بواحد منكما، فأعطيتاني موثقاً أطمئن إليه؛ أن ترضيا بما أقول. وأمرهما بالانصراف ووعدهما ذلك اليوم من قابل، فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه؛ فخرج علقمة ببني الأحوص معهم القباب والجزر والقُدور، ينحرون في كل منزل ويُطعمون. وجمع عامر بني مالك، وخرجوا على الخيل عليهم السلاح، فقال رجل من غنيّ: يا عامر، ما صنعت! أخرجت بني مالك تفاخر بني الأحوص معهم القباب والجزر، وليس معك شيء تُطعم الناس! ما أسوأ ما صنعت! فقال عامر لرجلين من بني عمه: أحصيا كل شيء مع علقمة من قُبّة أو قَدَر أو لُقحة. ففعلا، فقال عامر: يا بني مالك، إنها المقارعة عن أحسابكم، فاشخصوا بمثل ما شخصوا. ففعلوا.

وأثوا هَرماً فأقاموا عنده أياماً، وأرسل إلى عامر فأتاه سرّاً لا يعلم به علقمة، فقال: يا عامر، قد كنتُ أرى لك رأياً وفيك خيراً، وما حَبَسْتُكَ هذه الأيام إلا لتصرف عن صاحبك، أتفاخر رجلاً لا تفخر أنت وقومك إلا بأبائه! فما الذي أنت به خير منه! فقال عامر: ناشدتك الله والرحم ألا تفضل عليّ علقمة؛ فوالله إن فعلت لا أفلح بعدها! هذه ناصيتي جُزّها، وأحتكم في مالي. فإن كنتَ ولا بدّ فاعلاً فسوّ بيني وبينه. فقال: أنصرف فسوف أرى رأيي.

فخرج عامر وهو لا يشك أنه ينفره عليه، ثم أرسل هرم إلى علقمة سرّاً لا يعلم به عامر، فأتاه، فقال: يا علقمة، والله إني كنتُ لأحسب فيك خيراً أتفاخر رجلاً هو ابن عمك في النسب، وأبوه أبوك، وهو أعظم منك غناء، وأجمل لقاء^(٢)! فما الذي أنت به خير منه؟ فقال له علقمة: نشدتك الله ألا تنفر عليّ عامراً! فأجابه بما أجاب به الآخر، وأنصرف.

ثم إن هَرماً أحضر بنيه وبني أبيه، فقال: إني قاتل غداً بين هذين الرجلين مقالةً، فإذا فعلت ذلك فليطرد أحدكم عشر جزائر فينحرها عن عامر، ويطرد بعضكم عشر جزائر فينحرها عن علقمة، وفرّقوا بين الناس لئلا يكون لهم جماعة. وأصبح هَرَم فجلس في مجلسه، وأقبل الناس، وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا، فقام لبيد، فقال:

يا هَرَم ابن الأكرمين منصّباً إنك قد وُلّيتَ حكماً مُعْجِبا^(٣)

(١) ط: "فلم يقبل منها".

(٢) ط: "وأحمد لقاء"، وفي الأغاني: "وأحمدهم".

(٣) ديوانه ٥٢.

* فاحْكُمْ وَصَوِّبْ رَأْيَ مَنْ تَصَوَّبَا *

فقام هرم وقال: يا بني جعفر، قد تحاكمتُما عندي، والله إنكما كركبتي البعير الأدرم^(١)؛ يقعان معاً على الأرض، وليس أحدٌ [منكما]^(٢) إلا وفيه ما ليس في صاحبه، وكلاكما سيد كريم. وعمد بنو هرم إلى الجزر، فنحروها وفرّقوا بين الناس، وكره أن يفضل بينهما وهما ابنا عم، فيوقع بذلك عداوة بين الحيّين، وخرجا من عنده راضيين.

وقد قيل إنه قال لهما: أنتما كغريّ السيف، فإنه لو قال: "كركبتي البعير" لقالا: أيهما اليمين؟ وقيل: إنه لم يقل شيئاً من ذلك، وإنما اكتفيا بما قال سرّاً، وذهبا عنه. وادّعى الأعشى أنها حكماء، فحكم لعامر على علقمة، وقال في ذلك قصائد، منها التي أولها:

* أعلقمُ لستَ إلى عامرٍ^(٣) *

[علقمة بن علاثة]

ومات علقمة مسلماً. وله وفادتان: إحداهما على النبي ﷺ أسلم فيها، والثانية على عمر ابن الخطاب ؓ، وجرت له معه حكاية ظريفة^(٤). كان علقمة صديقاً لخالد بن الوليد ؓ، وكان عمر يشبهه بخالد، فالتقاه في الليل، فقال: يا خالد، أعزلوك؟ وهو يظن أنه خالد - وكان عمر قد عزل خالداً عن جيش الشام غيظاً منه، بسبب قتل مالك بن نويرة وتزويج زوجته كما تقدم - فقال عمر: نعم، فقال علقمة: والله ما هو إلا نفاسة عليك وحسداً لك! فقال عمر: فما عندك معونة على ذلك؟ فقال: معاذ الله! إنّ لعمر علينا سمعاً وطاعة، ولا نخرج عليه ولا نخالفه، وأنصرفا. فلما أصبح دخل علقمة على عمر وعنده خالد، فقال عمر ؓ له: إيه يا علقمة! أنت القائل البارحة لخالد ما قلت! فقال علقمة لخالد: أفعلتها! فقال: والله ما لقيتُك البارحة ولا رأيتُك إلا في هذه الساعة. ففطن علقمة، وعرف أنه إنما لقي عمر فظنّه خالداً، فقال: يا أمير المؤمنين، ما سمعتَ إلا خيراً، قال: أجل. ثم ولّاه حوران، وخرج إليها، فقصده الخطيئة مادحاً له، فمات علقمة قبل أن يصل إليه، فقال:

لعمري لنعم المرء من آل جعفرٍ بحوران أمسى أعلقتَه الجبالُ^(٥)

(١) الأدرم: الذي تراكب لحمه وشحمه حتى غطى عظامه.

(٢) من ت.

(٣) بقيته:

* الناقض الأوتار والواتر *

(٤) ط: "لطيفة".

(٥) من مقطوعة له في ديوانه ٩٩ - ١٠٠.

وما كان بيني ولو لقيتُك سالماً وبين الغنى إلا ليالٍ قلائلُ
فلما وصل وجد علقمة قد أوصى له بسهم من ماله^(١).

[عامر بن الطفيل]

وأما عامر بن الطفيل فكان شجاعاً مشهوراً شاعراً مقدماً، قال أبو عبيدة: إجتمع العكاظيون على أن فرسان العرب ثلاثة: ففارس تميم عتيبة بن الحارث بن شهاب، أحد بني ثعلبة، صياد الفوارس^(٢)، وفارس ربيعة بسطام بن قيس، وفارس قيس عامر بن الطفيل. وقد على النبي ﷺ ومعه أربد بن قيس مع قوم من بني عامر؛ فقال: يا محمد، ما لي إن أسلمت؟ قال النبي ﷺ: "لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم". قال: لا، إلا أن تجعل لي الأمر من بعدك؛ قال: ليس ذلك لقومك، قال: فتجعل لي الوبر ولك المدر؛ قال: لا، ولكن أجعل لك أعنة الخيل، قال: أوليست لي! ثم قال: يا محمد، والله لأملأنها عليك خيلاً ورَجلاً، ولأربطن بكل نخلة فرساً، وولّي، فقال رسول الله ﷺ: "اللهم أكفني عامراً وأربداً، وأهد بني عامر، وأغن الإسلام عن عامر".

ثم أنصرفوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله تعالى على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه، فأندلع لسانه من فيه كضرع الشاة، فمال إلى بيت امرأة من سلول، وجعل يقول: "غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية!". ثم مات، فواراه أصحابه، وجعلوا على قبره أنصاباً ميلاً في ميل، وجعلوه حمى فقيل: إن بعض ولده رأى ذلك فيما بعد فقال: لقد ضيقتُم على أبي! وأما أربد، فأرسل الله تعالى عليه صاعقة قتلتة^(٣)، وفي ذلك يقول أخوه:

أخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نوء السّمك والأسد

ولعامر بن الطفيل شعر جيد سري متمكن، فمن ذلك قصيدته الرائية التي ذكر فيها عور عينه، وذلك أن مسهر^(٤) بن يزيد كان فارساً شريفاً، فجنى جناية في قومه، فلحق ببني عامر، فشهد يوم فيف الرياح^(٥) مع عامر بن الطفيل، وكان عامر يتعهد القوم يومئذ فيقول: يا فلان، ما رأيتك فعلت، ويا فلان ما صنعت؟ فيقول الرجل الذي قد أبل: انظر إلى سيفي

(١) الخبر في الأغاني ١٦: ٢٩٦.

(٢) ط: "الفرسان".

(٣) ط: "فقتلته".

(٤) ط: "مشهر"، تصحيف.

(٥) يوم فيف الرياح لمذبح على عامر؛ وفيف الرياح: موضع بنجد؛ وانظر أيام العرب في الجاهلية ١٣٢.

وما فيه، ورمحي وما فيه. وإن مسهراً قد أقبل في تلك الهيئة، فقال: يا أبا عليّ -يعني عامر بن الطفيل- أنظر إلى ما صنعتُ اليوم، أنظر إلى سنان رمحي، حتى إذا أقبل عليه عامر وجأه بالرمح في وجهه ففلق الوجنة، وانشقت عين عامر ففقاها، وترك مسهر الرمح في عينه، وضرب فرسه ولحق بقومه.

قالوا: والذي دعا مُسَهراً إلى الغدر بعامر أنه كان يراه يصنع بقومه هذا فقال: هذا والله مُبِير قومه، فأراد قتله وإراحتهم منه، فقال عامر:

لقد علمتُ عليّاً هوازن أنني
وقد علمَ المزَنوقُ أنني أكرهُ
ألسَتَ تَرى أرماحهم في شُرْعاً
لعمري وما عمري عليّ بهيّن
فبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً
ومن ذلك قوله:

وكم مُظهِر بغضاً لنا ودَّ أننا
مطاعيمُ في اللاؤا، مطاعينُ في الوغى
وقوله أيضاً:

وصاحبِ صدقٍ قد أخذت بضبعه
صُروب بنصلِ السيفِ خلفِ صاحبه
إذا أغبر أولاد المقاريِف أسفرا

٤٦ - وَجَوَابُهُ لِعُمَرَ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ أَيُّهُمَا كَانَ يُنْفَرُ وَقَعَ عَنْ إِرَادَتِكَ

يعني هَرَمَ بن قُطْبَةَ المَقْدَمَ ذكره، وذلك أنه كان أسلم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحبه، فقال له يوماً: يا أبا عمرو، أيُّهما كنت تنفر؟ يعني علقمة وعماراً. ومن كان عندك الأفضل منهما؟ فقال: لو قلتُ الآن فيهما كلمة لعادت جدعة -يعني الحرب بين الحيين- فأعجب بهذا القول منه، وقال: بِحَقِّ حَكَمَتِكَ العَرَبُ^(٥).

(١) من المفضلية ١٠٦، والأصمعية ٧٧ وهوازن: جدهم الأعلى، وعلياً هوازن هم سعد بن بكر بن هوازن الذين استرضع فيهم رسول الله. والحققة: ما يحق عليهم أن يحموه من منع جار وإدراك ثأر. وجعفر هو ابن كلاب بن ربيعة ابن عامر.

(٢) المزنونق: إسم فرسه، والمنيع: قدح تكثر به القداح ولاحظ له. والمشهر: المشهور.

(٣) شرع: جمع شارع؛ من قولهم: شرع الرمح؛ إذا سدده.

(٤) آزره ووازره: أعانه على الأمر.

(٥) له ترجمة في الإصابة ٣: ٥٨٣.

٤٧ - وَأَنَّ الْحَجَّاجَ تَقَلَّدَ وَلَايَةَ الْعِرَاقِ بِجَدِّكَ [الحجَّاج بن يوسف الثَّقَفِي]

الجَدَّ الحَظَّ، والجَدَّ الاجتهاد في الأمور، وكلا الوجهين يصلح ها هنا.
وهذا المذكور هو الحجَّاج بن يوسف بن أبي عَقِيل الثَّقَفِي السِّفَّاك المشهور، وُلد سنة
إحدى وأربعين ومائة، ونشأ بالطائف. وزعم بعض الرواة أنه كان أول أمره معلِّماً للصبيان^(١)،
ويسمى كُليَّاً، وفيه يقول الشاعر^(٢):

أَيْنَسَى كَلِيبُ زَمَانَ الْهُزَالِ وتعليمُهُ سُورَةَ الْكُوْثَرِ^(٣)
رَغِيفٌ لَهُ فَلَكَةٌ مَا تُرَى^(٤) وآخرُ كالقَمَرِ الْأَزْهَرِ

يشير إلى خبز المعلمين، فإنه مختلف في الصغر والكبر، على قدر بيوت الصبيان، ثم صار
دبَّاعاً، ويستدلُّ على ذلك بحكايته مع كعب الأشقر^(٥) أيام ولايته، وذلك أن المهلب بن
أبي صُفْرَةَ لما أطال قتال الأزارقة في ولاية الحجَّاج، كتب إليه يستبطنه في تأخير مُناجزة الأزارقة
ويعجزه، فقال المهلبُ لرسوله: قل له: إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وقام كعب
الأشقرِّي - وكان من جند المهلب - فأنشد:

إِنَّ ابْنَ يَوْسُفٍ غَرَّهُ مِنْ غَزْوِكُمْ خَفَضَ الْمَقَامَ بِجَانِبِ الْأَمْصَارِ
لَوْ شَاهَدَ الصَّفَيْنِ حِينَ تَلَاقِيَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ رَحِيَّةُ الْأَقْطَارِ
وَرَأَى مُعَاوَدَةَ الدَّبَاغِ غَنِيمَةً أَيَّامَ كَانَ مُحَالَفَ الْإِقْطَارِ

فبلغت أبياته الحجَّاج، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كَعْب، فأعلم كعباً بذلك،
وأوفده من ليلته إلى عبد الملك بن مروان، وكتب إليه يستوهم منه. فقدم كعب برسالة من
المهلب إلى عبد الملك، فاستنطقه وأستنشه، فأعجبه ما سمع^(٦) منه، وكتب إلى الحجَّاج يقسم
عليه أن يعفو عنه، فلما دخل كَعْب على الحجَّاج، قال: إيه يا كعب!
* ورأى معاودة الدبَّاغ غنيمَةً *

(١) ط: "معلم صبيان".

(٢) الكامل ٢: ١٠٤، ومعجم البلدان ٧: ٢٩١.

(٣) كذا في الأصول؛ وهي رواية الكامل، وفي معجم البلدان: "وتعليمه صبية الكوثر". قال: "وكوثر: قرية بالطائف وكان الحجَّاج بن يوسف معلماً بها".

(٤) الفلكة: مستدار كل شيء، وفي ط: "فلكة دائر"، وأثبت ما في ت والكامل.

(٥) زيادات الكامل ١: ٣٥٢: "الأشقرِّي، بالقاف لا غير".

(٦) ط: "سمعه".

فقال: أيها الأمير، والله لوددت في بعض ما شاهدته من تلك الحروب وما يوردناه المهلب من خطرهما أن أنجو منها، وأكون حجّاماً أو حائكاً. فقال له الحجاج: أولى لك! لولا قسم أمير المؤمنين ما نفعتك ما أسمع، فالحق يصاحبك.

وبعض الرواة ينكر هذا القول ويقول: هذه من أكاذيب الشعراء، ويزعم أن الحجاج لم يزل في كنف أبيه، وكان أبوه رجلاً نبيلًا، جليل القدر إلى أن اتصل -يعني الحجاج- بروح بن زنباع، ثم بعبد الملك بن مروان، ولم يزل يترقى إلى أن ولي العراق والمشرق، وطار ذكره، وعظم سلطانه.

وأول ما عرف من شهامته وجوره، أن أباه خرج من مصر يريد عبد الملك بن مروان، ومعه ابنه الحجاج، فأقبل سليم بن عمرو القاضي -وكان من أورع الناس وأتقاهم- فقام إليه يوسف فسلم عليه، وقال: إني أريد أن آتي أمير المؤمنين، فإن كانت لك حاجة فأعلمني، قال: نعم، حاجتي أن تسأله أن يعزّلني عن القضاء، فقال يوسف: والله لوددت قضاء المسلمين كلهم مثلك، فكيف أسأله هذا! ثم أنصرف، فقال ابنه الحجاج: من هذا الذي قمت إليه؟ فقال: يا بني، هذا سليم بن عمرو، عالم^(١) أهل مصر وقاضيه^(٢)، فقال: يغفر الله لك يا أبت! أنت ابن أبي عقيل، تقوم إلى رجل من كندة أو تحييه! فقال: والله ما يفسد الناس على أمير المؤمنين إلا هذا وأشباهه، يقعدون ويقعد إليهم أحداث الناس، ويذكرون سيرة أبي بكر وعمر، فيخرجون على أمير المؤمنين! والله لو صفا هذا الأمر إليّ لسألت أمير المؤمنين أن يجعل لي السبيل فأقتل هذا وأشباهه، فقال أبوه: والله يا بني إني لأظن أن الله تعالى خلقك شقيًا!

وأول ما أعجب عبد الملك منه أنه كان قد اتصل بروح بن زنباع، وصار من جملة أصحاب شرطته -وكان روح بمنزلة نائب عبد الملك- ثم إن عبد الملك توجه إلى الجزيرة لقتال زفر بن الحارث عندما عصى عليه بقرقيسياء، فأمر روح بن زنباع جماعة من أصحابه وأصحاب شرطته يحثون المتأخرين من أهل العسكر في كل منزلة، وكان الحجاج من جملتهم، وكان يجتهد في ذلك إلى أن مر يوماً بعد رحيل العسكر بجماعة من خواص غلمان روح، في خيمة يأكلون، فأمرهم بالرحيل فسخروا منه إداً لا بمحلّهم ومحلّ سيدهم، وقالوا له: انزل كل وأسكت. ف ضرب بسيفه أطناب الخيمة، فسقطت عليهم، وأطلق فيها ناراً فأحرق أثنائهم عليهم، فأمسكوه وأتوا به إلى روح، وسمع عبد الملك الخبر فطلبه، وقال: من فعل هذا بغلمان

(١) ط: "قاضي".

(٢) على هامش ت: "وقاضيه" من نسخة.

رَوْح؟ فقال: أنت يا أمير المؤمنين، أمرتنا بالاجتهاد فيما وليّتنا، ففعلنا ما أمرتنا^(١) به، وهذه الفعلة يرتدع مَنْ بقي من أهل العسكر، وما على أمير المؤمنين أن يعوض عليهم [ما ذهب]^(٢)، وقد قامت الحرمة وتم المراد. فأعجب عبد الملك فقال: إن شرطيكم لجلد، ثم أقره على ما هو عليه. ولما طال القتال والحصار بينه وبين زُفر بن الحارث أرسل عبد الملك رجاء بن حيوة وجماعة منهم الحجاج إلى زُفر بكتاب يدعوه إلى الصلح، فأتوه بالكتاب وقد حضرت الصلاة، فقام رجاء فصلّى مع زُفر وصلى الحجاج وحده، فسئل عن ذلك فقال: لا أصلي مع منافق خارج عن طاعة أمير المؤمنين^(٣)، فسمع عبد الملك بذلك فزاد عجباً بالحجاج، ورفع قدره^(٤)، وولاه بلداً تسمى تباله^(٥) - وهي أول ما وُلّي - فخرج إليها، فلما قُربَ سأل عنها، فقيل: إنها وراء هذه الأكمة، فقال: أف لبلدة تسرّها أكمة! فرجع، فقيل في المثل: "أهون من تباله على الحجاج".

ثم قدم على عبد الملك ملازماً خدمته، فلما فرغ عبد الملك من قتال مُصعب بن الزبير، ورجع إلى الشام قال: مَنْ لابن الزبير؟ يعني عبد الله القائم بمكة والحجاز - وندب الناس إلى قتاله، فقام الحجاج فقال: يا أمير المؤمنين، أنا له؛ فقال: أقعدتم! ثم قال: مَنْ لابن الزبير فقام الحجاج، فقال: يا أمير المؤمنين، أبعثني إليه، فلقد رأيت في المنام كأني أخذته فسلخته وجردته من جلده. فبعثه إليه، وجَهّز معه جيشاً فقدم إلى مكة، ونصب المنجنيق على الكعبة، وفعل ما فعل من^(٦) قتل ابن الزبير، وَصَفَتْ الخلافة لعبد الملك. فسرّ باجتهاده، وأرسل إليه عهده على مكة والمدينة والطائف؛ فاستخفّ بأهل الحرمين وأهانهم، ثم كتب إلى عبد الملك يقول: إني قد حزت الحجاز بشمالي، وبقيت يميني فارغة - يعرّض بالعراق - فبعث إليه عهده على العراق. وهذا أحد الأقوال في سبب ولايته العراق.

والقول الآخر، أنه وفد على عبد الملك ومعه إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله التيمي، وكان من رجال قريش علماً ونُبلاً، وعملاً وزُهداً ومهابةً، وكان الحجاج مسخراً له لا يترك من إجلاله شيئاً؛ فلما قدم على عبد الملك أذن للحجاج في الدخول، فلما دخل سلم ولم يبدأ بشيء إلا أن قال: يا أمير المؤمنين، قدمت عليك برجل من أهل الحجاز، ليس له نظير في كمال المروءة والديانة وحسن المذهب والطاعة، مع القرابة ووجوب الحق، فقال: وَمَنْ هو؟ قال:

(١) ط: "ما أمرت".

(٢) تكملة من ط.

(٣) ط: "خارج على أمير المؤمنين وعن طاعته".

(٤) ت: "يده".

(٥) تباله الحجاج، بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن. ياقوت.

(٦) ط: "حتى".

إبراهيم بن طلحة التيمي، ليفعل أمير المؤمنين معه ما يفعل بأمثاله. فقال عبد الملك: ذكرتنا حقاً واجباً، ورحماً قريبة! ثم أذن له، فلما دخل قرّبه وأدناه، ثم قال له: إن أبا محمد ذكر لنا ما [لم نزل] ^(١) نعرفك به، من الفضل وحسن المذهب؛ فلا تدع حاجة إلا ذكرتها.

فقال إبراهيم: إن أولى الأمور أن تفتتح ^(٢) به الحوائج ما كان الله فيه رضا، ولحق رسول الله ﷺ أداء، ولجماعة المسلمين نصيحة؛ قال: وما هو؟ قال: لا يمكن القول إلا وأنا خال، فأخبرني. قال: أو دون أبي محمد! قال: نعم، فأشار عبد الملك إلى الحجاج [وإلى من كان حاضراً] ^(٣)، فخرج وقال: قل، فقال ^(٤): يا أمير المؤمنين، إنك عهدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعجرفه، وبعده عن الحق، وركونه إلى الباطل؛ فوليته الحرمين وفيهما من أبناء ^(٥) المهاجرين والأنصار من قد علمت، يسومهم الخسف، ويتوعددهم بالعنف ^(٦)، ويطؤهم بطغام ^(٧) أهل الشام ورعاع لا روية لهم في إقامة حق، ولا في إزاحة باطل، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله! فكيف بك إذا جاثاك ^(٨) محمد ﷺ غداً للخصومة بين يدي الله تعالى! أما والله إنك لن تنجو هناك إلا بحجة تضمن لك النجاة، فأتق ^(٩) لنفسك أودع. وكان عبد الملك متكئاً، فاستوى جالساً، وقال: كذبت ومنّت فيما جئت به! ولقد ظن بك الحجاج ظناً لم يجده فيك، فأنت المائن الحاسد!

قال إبراهيم: فقمتم ووالله ما أبصر شيئاً، فلما جاوزت الستر لحقني لاحق، فقال للحاجب: امنع هذا من الخروج. ثم أذن للحجاج، فدخل فلبث ملياً، وما أشك ^(١٠) أنها في أمري، ثم خرج الإذن لي فدخلت، فلما كشف الستر إذا أنا بالحجاج خارج، فاعتقني وقبل ما بين عيني، وقال: إذا جرى الله المتواخين بفضل توصلهما، فجزاك الله أفضل الجزاء! أما والله لئن بقيت لأرفعن ناظريك، ولأتبعن الرجال غبار قدميك.

(١) تكملة من ط.

(٢) ت: "تفتح".

(٣) تكملة من ت.

(٤) من نسخة: "فقام هو ومن كان حاضراً ولا يعرف أين يضع قدمه!". حاشية ت.

(٥) ط: "وبها من أولاد المهاجرين".

(٦) ط: "ويقودهم بالحتف".

(٧) الطغام: أوغاد الناس.

(٨) جاثاه؛ أي أوقفه موقف الخصومة؛ والجاثي في الأصل: الذي يجلس على ركبته؛ وفي حديث علي: "أنا أول

من يجثو للخصومة بين يدي الله عز وجل".

(٩) ت: "فاتن".

(١٠) ط: "ولا أشك".

قال: فقلتُ في نفسي: إنه ليسخر بي! فلما وصلت إلى عبد الملك أدنى مجلسي كما فعل في الأول، ثم قال: يا ابن طلحة، هل أعلمتَ الحجاج بما جرى؛ أو شاركك أحد في نصيحتك؟ فقلت: لا والله، ولا أعلم أحداً أظهر يداً عندي من الحجاج، ولو كنتُ محابياً أحداً بديني لكان هو؛ ولكني آثرتُ الله ورسوله والمسلمين. فقال: قد علمتُ صدق مقالتيك، ولو آثرتَ الدنيا لكان لك في الحجاج أملٌ، وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت ولايته عليهما، وأخبرته أنك [أنت] ^(١) الذي استنزلتني له عنهما استصغاراً للولاية، [وأعلمتني أنك أنت الذي سألتني له في ذلك لعظمهما] ^(٢) ووليته العراق، لما هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا أمثاله [فلا تقطع نصيحتنا عنها ما بقيت]؛ وإنما قلت له ذلك ليؤدي ما يلزمه من ذمامك، فأخرج معه فإنك غير ذام لصحبته مع يدك عنده. فخرجت مع الحجاج، وأكرمني أضعاف إكرامه، واستدللت على مكارم عبد الملك وتدبيره ^(٣)، واعترافه بالحق، وتلطفه في الأمور. وقيل في سبب ولاية الحجاج للعراق قول آخر ^(٤).

ثم دخل الحجاج إلى الكوفة، فخطب خطبته المشهورة ^(٥) التي يقول فيها: يا أهل العراق والنفاق، والله لأعصبنكم عصب السلمة ^(٦)، ولألحونكم لحو العصا، فطالما أوضعتم في الضلالة ^(٧)، وتماديتم في الجهالة! يا عبيد العصا أنا الغلام الثقفي، لا أعد إلا وفيت، ولا أخلق إلا فریت ^(٨)، إنما مثلكم كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لَبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، [النحل: ١١٢]، فإنكم أشباه ذلك؛ فاستوثقوا واستقيموا. أقسم بالله لتدعن الإرجاف، ولتقبلن على الإنصاف، ولتنزعن عن القيل والقال، وكان وكان، والهّن وما الهّن، أو لأهبرنكم بالسيف هبراً يدع النساء أيامي، والولدان يتامى؛ والله لكأني أنظر إلى الدماء تترقق بين اللجى والغلاصم ^(٩).

(١) من ت.

(٢) من ت.

(٣) ط: "أخلاقه".

(٤) ت: "وهذا أحد الأقوال في سبب ولاية الحجاج للعراق".

(٥) ط: "ثم دخل الحجاج إلى العراق، ودخل الكوفة وبدأ بالمسجد".

(٦) السلمة: نبت كثير الشوك. قال الجاحظ: "لأن الأشجار تعصب أغصانها ثم تخبط بالعصا لسقوط الورق وهشيم العيدان".

(٧) أوضعتم: أسرعتم؛ والإيضاع: ضرب من السير.

(٨) أخلق: أفدر، وفريت: قطعت.

(٩) الغلاصم: جمع غلصمة؛ وهي رأس الحلقوم.

فلما سمع أهل الكوفة هذه الخطبة، وكان بعضهم قد أخذ حصاً أراد يحصب به الحجاج، فتساقط من أيديهم خوفاً ورعباً، وثبتت مهابته في قلوبهم، وتحكم حينئذ في رقابهم^(١). وكان القاسم بن سلام، يقول: قاتل الله أهل الكوفة! أين قبائلهم وعشائرهم وأهل الأنفة منهم! وأين تجبرهم! قتلوا عليّاً، وطعنوا الحسين، وقاتلوا المختار، وعجزوا عن قتل هذا الملعون الدميم الصورة، وقد جاءهم في اثني عشر ركباً وهم في مائة ألف! ولكن ظهر تصديق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في قوله: "اللهم سلط عليهم الغلام الثَّقَفِي". ثم أقام الحجاج بالعراق يُرهب ويفتك، حتى استوثقت له الأمور. ثم خرج عليه عبدالرحمن بن الأشعث بأهل العراق، فأمدّه عبد الملك بأهل الشام، فكانوا شيعته، فاستمرت بينه وبين ابن الأشعث الوقائع حتى هزمه الحجاج بدير الجماجم بعد ثمانين وقعة، في ستة أشهر. وكان مع ابن الأشعث أكثر من مائة ألف^(٢)، فلما هُزموا قال الحجاج لأصحابه: اتركوهم فليتبّدوا ولا تتبعوهم. ثم نادى مناديه: مَنْ رجع فهو آمن. ودخل الكوفة، وجاء الناس من المنهزمين يبايعونه، فكان يقول لمن جاء يبايعه: أشهد على نفسك بالكفر، وبخروجك عن الجماعة، ثم تُب؛ فإن شهد وإلا قتله. فأتاه رجل من خثعم، فقال: أشهد على نفسك بالكفر، فقال: إن كنت عبدتُ ربي ثمانين سنة، ثم أشهد^(٣) على نفسي بالكفر، لبئس العبد أنا! والله ما بقي من عمري إلا ظمء حمار^(٤)، وإنني أنتظر الموت صباحاً ومساءً؛ فأمر به فضرب عنقه، وقُدّم بعده شيخ آخر، فقال الحجاج: ما أظن الشيخ يشهد على نفسه بالكفر! فقال: يا حجاج، أتخادعني أنت عن نفسي! أنا أعرف بها منك، وإني لأكفر من فرعون وهامان! فضحك الحجاج وخلّى سبيله. وكان في الحجاج خلال امتاز بها في وقته^(٥): الكرم، والدهاء، والجور، وحلم [نادر]^(٦) في بعض الأوقات، والفصاحة.

(١) ت: "وأخاف القوم، وأثبت المهابة في قلوبهم، وتحكم في رقابهم".

(٢) ط: "ماتني ألف".

(٣) ت: "شهدت".

(٤) الظمء: ما بين الشربين والوردين، قالوا: ليس شيء من الدواب أقصر ظمئاً من الحمار. وقولهم: ما بقي منه إلا قدر ظمء الحمار؛ أي لم يبق من عمره إلا شيء يسير.

(٥) ط: "عن أبناء وقته".

(٦) تكلمة من ت.

فأما كرمه، فحكى أنه لما دخل المدينة، فرّق في أهلها عشرة آلاف دينار ثم قال: أتيناكم وقد غاض الماء لكثرة النوائب، فاعذرونا. فقال رجل: لأعذر الله مَنْ يعذرك! وأنت أمير المصريين، وابن^(١) عظيم القريتين! فقال: صدقت، واقترض أموال مَنْ هناك من التجار، فكان شيئاً عظيماً [وفرّقها]^(٢).

ولما ولي العراق كان يُطعم في كل يوم على ألف مائدة، يجتمع على كل مائدة عشرة أنفس، ويُطاف به في محفّة على أيدي الرجال، يشرف على القوم ويقول: يا أهل الشام، اهشموا الخبز لئلا يُعاد عليكم.

وقيل: كان فعله هذا خصيصاً بأهل الشام، وكان يرسل الرسل إلى الناس لحضور الطعام، فكثّر عليه ذلك، فقال: أيها الناس، رسلي إليكم الشمس، إذا طلعت، فأحضروا للغداء، وإذا غرّبت فأحضروا للعشاء، فكانوا يفعلون ذلك.

واستقلّ الناس يوماً، فقال: ما بال الناس قد قلّوا! فقام رجل وقال: يا أيها الأمير؛ إنك أغنيت الناس في بيوتهم عن الحضور إلى مائدتك؛ فأعجبه ذلك، وقال: اجلس، بارك الله عليك!

وأما دهاؤه، فحكى عبد الله بن ظبيان، قاتل مصعب بن الزبير، قال: كنت يوماً واقفاً على باب الحجاج، فإذا به قد خرج وحده - وكانت القائلة، وما بالباب أحدٌ - فوقع في نفسي أن أقتله، فنظر إليّ، فقال: هل لقيت يزيد بن أبي أسلم؟ يعني كاتبه، قلت: لا، قال: القه؛ فإن عهدك على الري معه؛ فطمعْتُ وكففتُ عنه، وتوجّهتُ إلى يزيد، فلم يكن معه^(٣) عهد ولا شيء من ذلك، وإنما قال الحجاج ذلك حذراً وشغلاً^(٤) لي عما أردته به.

وبني هو وعبد الملك في بعض المساجد بأبسين، فوقعت صاعقة فأحرقت باب عبد الملك، فداخله حسدٌ للحجاج، فكتب إليه الحجاج: إنما مثل أمير المؤمنين ومثلي كمثلي ابني آدم: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾، [المائدة: ٢٧].

ودخل يوماً على عبد الملك فدعاه للشرب^(٥)، فقال: يا أمير المؤمنين، أعفني؛ فإنني أنهي أهل عملي عنه، وأكره أن أحالف قول العبد الصالح: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ﴾، [هود: ٨٨]، فقال عبد الملك: إنه نبيذ الرُّمان، يُشهي الطعام، ويزيد في الباه؛ فقال الحجاج:

(١) ط: "وأنت".

(٢) تكملة من د، ت.

(٣) ط: "عنده".

(٤) ت، د: "إشغالا".

(٥) ط: "فدعا بالشراب".

أما كونه يشهي الطعام، فوالله لوددت أن هذه الأكلة تكفيني إلى أن أموت^(١)؛ وأما كونه يزيد في الباه، فحسب الرجل أن يُصرع في الشهر مرة.

وصعد يوماً المنبر؛ فأراد أن يختبر طاعة الناس له، فقال: ألا إن الحجاج كافر؛ فلم يردّ عليه أحد شيئاً؛ فقال: باللات والعزى، وبالبعلة الشهباء، ويوم الأربعاء.

ودخل عليه بعض قتلة^(٢) الحسين عليه السلام، فقال له: أنت قاتل الحسين؟ قال: نعم. قال: كيف قتلتَه؟ قال: دسرتَه بالرمح دسراً، ثم هبّرتَه بالسيف هبّراً^(٣)، ووكلتُ أمر رأسه إلى أمير غير وِكل، فقال الحجاج: أما والله لا تجتمعان في الجنة. وكان قصده رضا أهل العراق وأهل الشام، فخرج أهل العراق يقولون: صدق الحجاج، لا يجتمع والله ابنُ رسول الله صلى الله عليه وآله وقاتله في الجنة، وخرج أهل الشام يقولون: صدق الأمير، لا يجتمع من شق عصا المسلمين، وخالف أمير المؤمنين، هو وقاتله في طاعة الله في الجنة.

وأما جوره [وسفكه الدماء]^(٤)، فقد ذكّر أنه قتل أكثر من مائة ألف صبراً، آخرهم سعيد ابن جبير عليه السلام.

ومات في حبسه أكثر من عشرين ألفاً، لم يجب على أحد منهم حد، وكان حبسه بغير سقف ولا ظل، صيفاً وشتاءً، وليس فيه مُستراح، والناس بعضهم على بعض. ومرّ يوماً عليهم فأستغاثوا به، فقال: ﴿أَخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾، [المؤمنون: ١٠٨].

وقال أبو عمرو بن العلاء: كنت أقرأ: ﴿إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] بالفتح، وبلغ الحجاج - وكان يقرأ بالضم - فطلبني فهربتُ إلى وادٍ بصنعاء، فأقمتُ زماناً، فسمعتُ أعرابياً يقول لآخر: قد مات الحجاج، فقال الأعرابي:

رُبَّمَا تَجْزَعُ النُّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِّ الْعَقَالِ^(٥)
فلم أدر بأي شيء كنت أشد فرحاً، أيموت الحجاج، أم بسماع البيت أستشهد به على

القراءة! وحكى بعضُ القُرّاء، قال: قرأ الحجاج في سورة هود: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾

[هود: ٢٢]، فلم يدر أن يقول: "عَمَلٌ" أم "عَمَلٌ"! فقال: اتنوني بقارىء، فأتوا بي وقد قام من مجلسه، فحبستُ ونسيتُ الحجاج حتى عرض السّجن بعد ستة أشهر، فلما انتهى إلي قال:

(١) د، ط: "حتى أموت".

(٢) د، ط: "قاتل".

(٣) الهبر: القطع.

(٤) من ط.

(٥) لأمية بن أبي الصلت، اللسان (فرج)، وقبله:

لا تضيفن في الأمور فقد تُكشِفُ غمّاً وها بغير احتيال

فيم حبست؟ فقلت: في ابن نوح، أصلح الله الأمير! فضحك وأطلقني.
وحكي أنه أراد سفراً فصعد إلى المنبر، فقال: إني قد عزمْتُ على السفر، وخلفت عليكم
ابني محمداً، وأوصيته خلاف ما أوصى به العبد الصالح: ألا يتقبل من محسنكم، ولا يتجاوز
عن مسيئكم. ألا وإني أعلم أنكم تقولون: لا أحسن الله له الصحابة! ألا وإني معجل لكم
الصواب بالجواب، فأقول: لا أحسن الله عليكم الخلافة!

وحدث رجل، قال: هربت من الحجاج حتى مررتُ بقرية، فأجد كلباً نائماً في ظل جُبٍّ،
فقلت في نفسي: ليتني كنتُ هذا الكلب، وكنتُ مستريحاً من خوف الحجاج! ومررتُ ثم عدتُ
من ساعتِي، فأجد الكلب مقتولاً، فسألتُ عنه: فقيل: جاء أمر الحجاج بقتل الكلاب! فعجبتُ
من عموم جَوْرِهِ.

وأما حلمه، فحكِي أنه خرج يوماً إلى ظاهر الكوفة منفرداً، فرأى رجلاً [أعريباً]^(١)،
فقال: ما تقول في أميركم؟ قال: الحجاج؟ قال: نعم، قال: زعموا أنه من ثمود، وكفى بسوء
مسيرته شراً؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس [أجمعين]! فقال الحجاج: أتعرفني؟ قال: لا،
قال: أنا الحجاج، فقال الأعربي: أتعرفني أيها الأمير؟ قال: لا، قال: أنا مولى بني عامر، أجن^(٢)
في كل شهر ثلاثة أيام، هذا اليوم عليّ أشدها، فضحك الحجاج من قوله وصفحه عنه.

وأتي بقوم من أصحاب ابن الأشعث، فأمر بضرب رقابهم^(٣)، فقام رجل فقال: أيها
الأمير، إن لي عندك يداً، قال: وما هي؟ قال: شتمك رجلٌ بحضرة ابن الأشعث، فرددتُ
عنك، فقال: مَنْ يشهد لك؟ فأشار: هذا -وأشار بيده إلى رجل منهم- فقال: صدق أيها
الأمير، فقال: ما منعك أن تفعل كما فعل؟ قال: بغضي لك، فقال الحجاج: أطلقوا هذا ليده
عندنا، وهذا لصدقه في مثل هذا الوقت.

وقال يوماً لأحمد بن يونس^(٤): فكَّرتُ في أمرِك فوجدتُ دمك ومالك حلالاً؛ فقال: أيها
الأمير، أشد ما في القضية أن هذا الرأي بعد التفكير! فضحك وعفا عنه.

وكان عنده يوماً بعض ندمائه؛ وقد أدركته سِنَّة، فعطس النديم عطسة منكِّرة، ففزع
الحجاج وقام منكراً مغضباً. وقال: ما أردتُ بهذه العطسة إلا أن تروِّعني! فقال: أيها الأمير، هذه
والله عادي، فقال: والله إن لم تأتني بشاهد على ذلك وإلا ضربتُ عنقك. فخرج الرجل فوجد
بعض أصحابه، فقصَّ عليه الأمر، فقال: أنا اشهدُ لك. فدخلا على الحجاج فقال لصاحبه: بَمَ

(١) من ت.

(٢) ط: "أجن في الشهر ثلاث مرات، هذا اليوم أشد الصراع علي".

(٣) ط: "أعناقهم".

(٤) ت: "يوسف".

تشهد؟ فقال: أيها الأمير، أشهد بأنه عطس يوماً عطسة وقع منها ضرره. فضحك الحجاج حتى أستلقى، فقال: حسبك! وأمر بهما فأخرجا. وكان قليل الضحك إلا أن يُغلب عن نفسه. وأما فصاحته وبلاغته، فمنها خطبه المشهورة المطولة [المذكورة في الكتب بأيدي الناس، مثل يوم دير الجماجم وغيره]^(١)، وفصوله الموجزة في المكاتبات، وعلى المنابر.

قال مالك بن دينار: والله لربما رأيت الحجاج [يتكلم]^(٢) على المنبر، ويذكر حسن صنيعه إلى أهل العراق، وسوء صنيعهم له حتى يخيل لي أنه مظلوم.

وقال الحسن البصري: لقد وقّدتني^(٣) كلمة سمعتها من الحجاج؛ يقول على هذه الأعواد: إن امرأ ذهب ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول حسرته، [فقام إليه رجل فقال: يا حجاج، ما أقبح وجهك! تقول ما تقول وتفعل ما تفعل! فأمر به فأخذ، فلما نزل من على المنبر قال له: لقد تجرأت علي! فقال له: يا حجاج أَسْتَح من الله! تجرأت عليه ولا تنكره على نفسك، وأتجرأ عليك فتنكره علي! فخلّ سبيله]^(٤).

وخطب يوماً فقال: أيها الناس، أقدّعوا هذه الأنفس، فإنها أسأل شيء إذا أعطيت، وأعطى شيء إذا سئلت؛ فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاماً وزماماً، فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وعطفها بزمامها عن معصية الله؛ فإني رأيت الصبر عن^(٥) محارمه أيسر من الصبر على عذابه.

وبلغه وفاة أخيه وابنه، فصعد المنبر، وقال: محمدان في يوم! أما والله ما كنت أحب أن يكونا معي في الدنيا بما أرجو لهما من ثواب الآخرة، وأيم والله ليوشكن الباقي منا ومنكم أن يفنى، والجديد أن يبلى، وستدال الأرض منا فتأكل من لحومنا، وتشرب من دماننا، كما أكلنا من ثمارها وشربنا من مائها^(٦).

وخطب يوماً فقال: إن الله أمرنا بالعمل، وكفانا الرزق، فليتنا لو أمرنا بالرزق، وكفينا العمل!

وقال: أيها الناس، والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا بعمامي هذه؛ ولما مضى منها أشبه بما بقي من الماء بالماء.

(١) من ت.

(٢) من ط.

(٣) ت: "أيقظتني".

(٤) تكلمة من ت.

(٥) م: "على".

(٦) ط: "أنهارها".

ولما قتلَ عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بالبكاء، فصعد الحجاج المنبر فقال: ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكنَّ بحرم الله؛ ولو كان شيء مانعاً للعصاة لمنع^(١) آدم حُرمة الجنة؛ لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير، والجنة أعظم حُرمة من الكعبة.

وخطب يوماً فقال: أيها الناس، مَنْ ادَّعى داءه، فعندي دواؤه، وَمَنْ ثَقُلَ عليه رأسه وضعت عنه ثقله. إن للشيطان طيفاً، وللسلطان سيفاً، فَمَنْ وضعه ذنبه رفعه صلبه، وَمَنْ لم تسعه العافية، لم تضق عنه الهلكة.

وأرجف قوم بموته؛ فخرج متحاملاً حتى صعد المنبر، فقال: ألا إن أهل العراق أهل نفاق، نفخ الشيطان في مناخرهم، فقالوا: مات الحجاج، وإن مت فمه! والله ما يُرجى الخير إلا بعد الموت، وما رضي الله تعالى ذكره بالتخليد لأحدٍ من خلقه إلا لأخسهم وأهونهم عليه، وهو إبليس لعنه الله!

ولقد سأل سليمان يوماً ربه، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾، [ص: ٣٥]، ففعل ثم اضمحل كأن لم يكن، أستغفر الله لأmir المؤمنين ولي للمسلمين. ثم نزل.

وكتب إلى قتيبة بن مسلم: إنني نظرتُ في سنِّي، فإذا أنا قد بلغت خمسين سنةً، وأنت نحو مني في السن، وإن أماً قد سار خمسين حجة إلى موردٍ لَقِمْنُ أن يردّه.

ولما حضرته الوفاة؛ كان يقول: الله أغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل. ومات بواسط سنة خمس وتسعين. وهي مدينته التي أنشأها. وكان يوم موته يُسمَّى عرس العراق، ولم يعلم بموته حتى أشرفت جارية من القصر وهي تبكي وتقول: ألا إن مطعم الطعام، ومفلق الهام، قد مات.

ثم دُفِنَ، فسمع جرّ السلاسل من قبره، فقال كاتبه: رحمك الله أبا محمد! ما تدع قراءة القرآن حياً ولا ميتاً. فضحك الناس من قوله.

ووقف رجل من أهل دمشق على قبره، فقال: اللهم لا تحرمننا شفاعة الحجاج. وحلف رجل بالطلاق الثلاث [من زوجته]^(٢)، أن الحجاج من أهل النار، فاستفتى طاوس فقال: يغفر الله لمن يشاء، وما أظنها إلا طُلِّقت؛ فاستفتى الحسن البصري فقال: أذهب إلى زوجتك وكن معها، فإن لم يكن الحجاج في النار؛ فما يضر كما أنكما في الحرام!

(١) د: "لمنع".

(٢) من ط.

٤٨ - وَقُتَيْبَةَ فَتَحَ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ بِسَعْدِكَ

[قتيبة بن مسلم الباهلي]

هو قُتَيْبَةُ بن مسلم بن عمرو الباهلي، وكنيته أبو صالح. نشأ في الدولة المروانية وترقى وتولى^(١) الإمارة، وفتح الفتوحات العظيمة، وعبر إلى ما وراء النهر مراراً، وأبلى في الكفار. وكان شجاعاً جواداً، دَمَتْ^(٢) الأخلاق فطناً، ولم يكن يُعَاب إلا بأنه باهلي. وكان أصحابه يمازحونه بذلك، فيحتمل ويحلّم.

حكى أبو عبيدة، قال: قدم رجل من بني سُلُول على قُتَيْبَةَ بن مسلم بكتاب عامله على الرّي - وهو المعلّي المحاربي - فرآه على الباب قُدّامة بن جعفر، وكان صديقاً لقُتَيْبَةَ كثير الإدلال عليه، فدخل على قُتَيْبَةَ، فقال: ببابك الأمّ العرب، فقال: ومن هو؟ قال: سُلُولِي، رسول محاربي، إلى باهلي؛ فنبسّم قُتَيْبَةَ تبسّم غيظ، والتفت إلى مرداس الأسدي، وقال: أنشدني شعراً^(٣) للأقيشر، ففهم مرداس مراده، فأنشده شعراً للأقيشر، فيه تعريض بقُدّامة [يقول]^(٤):

قَلْتُ قُمْ صَلِّ فَصَلَّى قَاعِداً يَتَغَشَّاهُ سَمَادِيرُ السَّكْرِ^(٥)
فَتَغَيَّرَ وَجْهَ قُدّامة، فقال قُتَيْبَةَ: هذه بتلك، والباديء أظلم.

ويُروى أنه مازح إعرابياً جافياً. فقال: أيسرُّك أن تكون مثلي باهلياً أميراً؟ فقال: لا والله؛ قال: فتكون باهلياً خليفة؟ فقال: لا والله، ولو أن لي ما طلعت عليه الشمس! قال: فيسرُّك أن تكون باهلياً وتكون في الجنة؟ فأطرق ثم قال: بشرط ألا يعلم أهل الجنة أنني باهلي! فضحك قُتَيْبَةَ من قوله.

وكان قُتَيْبَةَ من أكبر الأمراء المنتمين^(٦) إلى الحجاج؛ وهو الذي كاتب عبد الملك بن مروان في أمره، حتى ولّاه خراسان، وذلك أن يزيد بن المهلب كان قد ولي خراسان بعد أبيه، وظهرت مناقبه، وعظمت آثاره، فحسده الحجاج وعمل على عزله وتولية قُتَيْبَةَ، وكان مما أكد أمر يزيد عنده أن الحجاج وفد على عبد الملك ثم عاد إلى العراق، فمرّ في [طريقه]^(٧) بدير فيه راهب عالم بالكتب وعلوم الأول، فسأله: هل تجدون أمورنا في كتبكم؟ قال: نعم، قال: ما تقول

(١) ط: "وولى".

(٢) نسخة بهامش ت: "سهل".

(٣) ت: "شعر الأقيشر"، د: "فأنشده للأقيشر".

(٤) تكملة من ط. وفي د: "فقال".

(٥) السّادير: الشيء الذي يترأى للإنسان من ضعف بصره عند السّكر.

(٦) ت: "المنتهمين"، د: "من أكبر أمراء الدولة".

(٧) تكملة من د، ط.

في عبد الملك؟ قال: نجده في زماننا الذي نحن فيه، قال: ومن يقوم بعده؟ قال: رجل يسمّى الوليد، قال: فهل تعلم ما إليّ؟ [يعني عمله] ^(١) قال: نعم، قال: فمن يليه؟ قال: يزيد، قال: في حياتي أم بعد مماتي؟ قال: لا أعلم، فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب.

ثم جلس يوماً يفكر؛ وعنده عبيد بن يونس، وهو ينكت ^(٢) في الأرض، فقال له: ما الذي بك؟ قال: أهل ^(٣) الكتاب يذكرون أن ما تحت يدي يليه رجل يُسمّى يزيد، وأناي نظرت في [هذا] ^(٤) الإسم، فذكرت جماعة، منهم يزيد بن أبي كبشة، ويزيد بن الحُصين، ويزيد بن دينار، وليس فيهم من يصلح لهذا الأمر، وما ثمّ غير يزيد بن المهلب؛ قال: فأخبرني به! فلم يجد شيئاً يعزله به، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يذمّ من يزيد ويقول: إنه يميل إلى آل الزبير. فكتب إليه عبد الملك: إن ذلك وفاء لآل الزبير من آل المهلب، وإن وفاءهم لأولئك يدعوهم إلى الوفاء لنا؛ فكتب إليه الحجاج يخوفه غدر يزيد وآل المهلب؛ فكتب إليه عبد الملك: قد أكثر في يزيد، فسمّ رجلاً لي يصلح لخراسان، فسمّى له مجاعة بن مسعر ^(٥) - ولم يكن يصلح، وإنما جعل ذلك دهاء منه حتى لا يعلم ميله إلى قتيبة، ويعلم أن عبد الملك لا يرضي مجاعة بن مسعر - فكتب إليه عبد الملك يُسفّه رأيه - معناه لم يرض ابن مسعر - فسمّى له قتيبة بن مسلم، فقال: ولّه، فوله، وكره أن يواجه ابن المهلب بالعزل، فكتب إليه: أقدم عليّ، وأستخلف أخاك. ففعل، وعند قدومه سار قتيبة إلى خراسان فدخلها وصعد المنبر، فسقطت العصا من يده، فتطير الناس فأخذها، وقال: ليس كما ساء الصديق، وسرّ العدو، ولكن كما قال الشاعر:

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرُ ^(٦)

ثم نهض ^(٧) قتيبة لغزو ما وراء النهر، فجمع جيوشه، وخطبهم خطبة بليغة، فقطع النهر، فتلقاه من الطالقان رسل الملوك وهداياهم، أولهم صاحب طخارستان وهو من ملوك الترك - وأرسل إليه مفتاح بلده وغير ذلك من الهدايا، فصالحه، وأقام قتيبة على بلخ؛ لأن بعضها كان عاصياً عليه، فقاتل أهلها وسبأهم؛ وكان فيمن سبى امرأة برّمك جد البرامكة،

(١) تكملة من ت.

(٢) ت: "ينكت".

(٣) ط: "إن أهل".

(٤) من د، ط.

(٥) ت: "مسعد".

(٦) كتاب العصا ١٩٣ من غير نسبة.

(٧) ط: "وثب".

فصارت إلى عبد الله بن مسلم، أخي قُتيبة فواقعها، فيقال: إنها حملت منه بخالد، وقيل: كانت حاملاً به.

ثم غزا قُتيبة بِيكند -وهي أدنى مدائن بخاري إلى النهر، ويُقال لها مدينة التجار، وهي على رأس المفازة من بخاري- فلما نزل بها أَسْتَنْصَرُوا بِالصُّغْد، وَأَسْتَنْجَدُوا مَنْ حَوْلَهُمْ، فَأَتَوْهُمْ فِي جَمْعٍ كَثِيرٍ، وَأَخَذُوا عَلَى قُتَيْبَةَ الطَّرِيقَ وَالْمَضَاقِيقَ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ رَسُولٌ، وَلَا قَدَّرَ عَلَى إِنْفَازِهِ رَسُولٌ مَدَّةَ شَهْرٍ، وَأَبْطَأَ عَلَى الْحَجَّاجِ خَبْرُهُ، فَأَشْفَقَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَمَرَ النَّاسَ بِالِدَعَاءِ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى الْأَمْصَارِ، وَأَقَامَ قُتَيْبَةَ يِقَاتِلُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ؛ وَكَانَ لِقُتَيْبَةَ عَيْنٌ فِيهِمْ، يُقَالُ لَهُ بُنْدَارٌ، أَعْجَمِي، فَدَفَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ بُخَارِي مَا لَّا عَلَى أَنْ يَدْفَعَ قُتَيْبَةَ عَنْهُمْ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: أَخْلِنِي، فَأُخْلِيَ الْمَجْلِسَ، فَقَالَ: قَدْ عَزَلَ الْحَجَّاجُ عَنِ الْعِرَاقِ، وَهَذَا عَامِلٌ جَدِيدٌ يَقْدِمُ عَلَيْكَ؛ فَارْجِعْ بِالنَّاسِ إِلَى مَرَوْ- وَكَانَ عِنْدَ قُتَيْبَةَ ضَرَارُ الضَّبِيِّ- فَقَالَ قُتَيْبَةُ لِعِلاَمِهِ: اقْتُلْ بُنْدَارَ، فَضْرَبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ لَضَرَارَ: وَاللَّهِ لَنْ أَعْلَمَ أَحَدٌ بِهَذَا الْحَدِيثِ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ حَرْبَنَا لِلْحَقِّكَ بِهِ؛ فَإِنْ انْتَشَرَ مِثْلُ هَذَا الْحَدِيثِ يَفْتَتِ فِي أَعْضَادِ الْمُسْلِمِينَ.

ثم أصبح الناس على راياتهم، وأنكروا قتل بُنْدَارَ، وقالوا: كان ناصحاً للمسلمين؛ فقال قُتيبة: ظَهَرَ لِي غِشُّهُ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ بِذَنْبِهِ. ثم تقدم فقاتل، وأنزل الله النصر على المسلمين فهزم موهم وفتح قُتيبة أكنافهم، ووصل إلى بِيكَنْدَ، ففتحها عَنُوةً، وَأَصَابَ بِهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجَوَاهِرِ مَا لَمْ يَصِبْهُ فِي بِلَدٍ آخَرَ؛ وَكَانَ بِهَا صَنَمٌ مِنْ ذَهَبٍ فَأَذَابُوهُ، فَخَرَجَ مِنْهُ مِائَةُ أَلْفٍ وَخَمْسُونَ أَلْفَ مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ.

وكتب إلى الحَجَّاجِ بالفتح، ثم توجه إلى سَجِسْتَانَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ صَاحِبَهَا فَصَالِحَهُ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى خَوَارَزْمَ - وَكَانَ صَاحِبُهَا قَدْ رَاسَلَهُ سِرّاً خَوْفاً مِنْ أَخِيهِ الْخَارِجِ عَلَيْهِ - فَصَالَحَهُ وَسَلَّمْ إِلَيْهِ أَخَاهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ شَرْطَ عَلَيْهِ ذَلِكَ. ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ، فَقَاتَلَ وَثَلَّمَ السُّورَ، فَصَاحُوا: الصِّلِحْ! فَصَالَحَهُمْ عَلَى أَلْفِ أَلْفٍ وَمِائَتِي أَلْفٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَعَلَى أَنْ يَعْطُوهُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ رَأْسٍ، لَيْسَ فِيهِمْ طِفْلٌ وَلَا شَيْخٌ، وَعَلَى أَنْ يُخْلُوا الْمَدِينَةَ لِقُتَيْبَةَ وَيُخْرِجُوا مِنْهَا الْمُقَاتِلَةَ، وَيَدْخُلَهَا قُتَيْبَةُ وَيَبْنِي بِهَا مَسْجِداً وَيَصِلِّيَ فِيهِ، وَيُخْطِبُ وَيَتَغَدَّى وَيُخْرِجُ مِنْهَا. فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ابْعَثُوا لَنَا مَا صَالِحُنَاكُمْ عَلَيْهِ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ بِالْمَالِ وَالرَّءُوسِ، فَقَالَ قُتَيْبَةُ: الْآنَ ذَلُّوا حِينَ صَارَ أَوْلَادُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ فِي أَيْدِينَا! ثُمَّ بَنَوْا جَامِعاً وَنَصَبُوا مِنْبَراً، وَأَخْلُوا الْمَدِينَةَ، وَأَنْتَخَبَ قُتَيْبَةُ مَنْ أَرَادَ مِنْ فَرَسَانِهِ وَدَخَلَهَا، فَأَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّى وَخْطَبَ، ثُمَّ تَغَدَّى وَأَرْسَلَ إِلَى أَهْلِهَا: لَسْتُ بِخَارِجٍ مِنْهَا؛ فَخَذُوا مَا أُعْطِيْتُمُونَا.

وَكَانَ قُتَيْبَةُ يَعْبُرُ بِالْغَدْرِ بِأَهْلِ سَمَرْقَنْدَ، ثُمَّ أَحْرَقَ الْأَصْنَامَ وَبُيُوتَ النِّيرَاتِ، وَوَجَدَ

جارية من بنات يزْدَجَرْد، فقال قُتَيْبَة: أترى ابن هذه يكون هَجِينًا؟ فقالت: نعم، من قَبْل أبيه، فأرسل بها إلى الحجاج، فبعث بها إلى الوليد بن عبد الملك، فولدت له يزيد.

ثم غزا الصين وكاشغر^(١)، فبعث إليه ملك الصين: ابعث لنا رجلاً من قومك نسأله عن دينكم؛ فانتدب له عشرة من أشرف القبائل، لهم هيئة وجمال، فدخلوا عليه، وعليهم ثياب رقيقة، فلم يكلمهم أحد، فنهضوا ثم دخلوا عليه في اليوم الثاني وعليهم البيض والمغافر والسلاح كأنهم الجبال، فسأل الملك أحدهم عن صنيعهم أمس واليوم، فقالوا: ذاك لباسنا في أهلنا وهذا في حربنا، فقال: انصرفوا إلى صاحبكم، وقولوا له: ينصرف، فقد عرفت قلة أصحابه، وإلا بعثت له مَنْ يهلكه ومَنْ معه. فقالوا: كيف تقول هذا لمن أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون -يعنون الشام- وقد غزاك في بلادك ودوّخها^(٢) وهو في طلبك لا تردُّ له راية [ولا غاية]^(٣)؛ قال: وما الذي يريد؟ قال: إنه أقسم ألا يرجع حتّى يطاء أرضك، ويختم على أعناق أولاد الملوك، ويأخذ الجزية. قال الملك: ونحن نُبرِّقْ قسمه؛ ثم دعا بصحاف من ذهب، وجعل فيها تراباً^(٤)، ثم دعا بجماعة من أبناء الملوك^(٥)، وبعث مالا كثيراً، وقال: ليطاء هذا التراب، ويختم على هذه الغلطة، ويأخذ منّا المال.

ففعل قُتَيْبَة ذلك، وقرر عليهم مالا ومضى، وقد أذعنت له ممالك ما وراء النهر، واشتهرت فتوحاته، حتّى سمع معبد المغنّي أنه فتح سبعة حصون في المشرق لا يُرتقى إليها، فصنع سبعة أصوات صعبة المآخذ؛ وسماها مُدن معبد، معارضة لقُتَيْبَة.

وأقام قُتَيْبَة بالشرق والياً عليه ثلاث عشرة سنة، عظيم الرتبة، مرعوب الجانب، وكان شرف بيته، ثم عمل على خلع سليمان بن عبد الملك لما سمع أنه عازم على ولاية يزيد بن المهلب؛ حكى الجاحظ، قال: لما بلغ قُتَيْبَة أن سليمان يريد عزله عن خراسان، كتب إليه ثلاث صحائف، وقال للرسول: أدفع إليه هذه، فإن دفعها إلى يزيد بن المهلب فأدفع إليه هذه، فإن شتمني فأدفع إليه الثالثة: فلما دفع له الكتاب الأول، إذ فيه: يا أمير المؤمنين، إن بلائي في طاعتك وطاعة أبيك كيّت وكيت، فدفعه إلى يزيد؛ فدفع إليه الرسول الكتاب الثاني، وفيه يقول: عجباً! كيف تأمن ابن رحمة^(٦) على أسرارك، ولم يكن أبوه يأمنه على أمهات أولاده! يعني يزيد بن المهلب،

(١) كاشغر، ذكرها ياقوت، وقال: هي مدينة وقرى ورساتيق هي وسط بلاد الترك.

(٢) بعدها في ط: "وقد سبي".

(٣) من ط.

(٤) ط: "من تراب قصره".

(٥) ط: "بأربعة من أبناء الملوك".

(٦) د: "وجهة".

فشتم قتيبة، فدفع إليه الثالث، وفيه: من قتيبة إلى سليمان؛ أما بعد، والله لأوثقن لك أخية^(١) لا ينزعها المهر الأرَنُ، فقال سليمان: جدّوا له عهداً على عمله.

ثم فسدت على قتيبة بطانته، فقتلوه في خلافة سليمان، وقام العزاء في المشرق عليه. وقال رجل من الأعاجم: يا معشر العرب، قتلتم قُتيبة، والله لو كان فينا [ومات]^(٢) لجعلناه في تابوت، واستفتحنا به غزونا.

ولقُتبية أخبار وألغاز تدلّ على غزارة علمه وعقله وفصاحته؛ كتب إليه الحجاج: إني قد طلّقت بنت قطن الهلالية عن غير ربية فتزوجها؛ فكتب إليه: ليس كل مطالع الأمير أحبّ أن أطلع، فقال الحجاج: ويل أم قُتيبة! إعجاباً بقوله^(٣).

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج: أنت قدح بن مقبل، فلم يدر الحجاج ما أراد، فسأل قتيبة - وكان عالماً برواية الشعر - فقال قتيبة: إن ابن مقبل نعت قدحاً له، فقال:

غداً وهو مجدولٌ فراح كأنه من المسّ والتّليبِ بالكفّ أفتح^(٤)
إذا امتحنته من معدٍ قبيلة غداً ربّه قبل المفيضين قدح

يصف هذا القدح - وهو السهم الذي يُستقسم به على عادة العرب في الميسر - وهو اصطلاح على نوع من أنواع القمار معروف، فيقول: إن هذا القدح لكثرة فوزه وخروجه دون قداح الجماعة لكثرة تقلبيه والتعجب منه، يقدح صاحبه النار قبل خروجه ثقةً بفوزه.

وقال قتيبة: إن هذا القدح فاز ستين مرة^(٥)، لم يخب منها مرة واحدة؛ حتى ضرب به المثل.

ولما دخل قتيبة خراسان، قام إليه بعض الشعراء، وأنشد يقول:

شدّ العقاب على البريء وما جنى حتى يكون لغيره تنكيلاً
والجهل في بعض الأمور وإن غلا مُستخرج للجاهلين عقولاً
فقال قتيبة: قبّحك الله من مُشير! والله لا قمت معي في بلد؛ ثم أخرج من خراسان. ونظر في بعض مغازيه إلى رجل من الأزد، معه تُرس من جلد بغير قد تلّم^(٦) من جميع

(١) الأخية: جبل يُدفن في الأرض، ويبرز طرفه فتُشد به الدابة.

(٢) ن. ت.

(٣) ت: "كيف ألام عليه!"

(٤) ديوانه ٢٨ واللاقي ٦٦. قال أبو عبيد: غَدُوا به مجدولاً مدججاً، ثم راحوا به لكثرة استعماله لفوزه كأنه أفتح، والفتح: العرض والبيتان في ديوان ابن مقبل ٢٨ بهذه الرواية:

غداً وهو مجدولٌ فراح كأنه من الصّكّ والتّليبِ في الكفّ أبطح
إذا امتحنته من معدٍ عصابة غداً ربّه قبل المفيضين يقدح

(٥) كذا في ت، وفي د، ط: "سبعين".

(٦) ط، د: "شعب".

نواحيه، فقال: أيها الأزدي^(١)، تُرْس ابن أبي ربيعة خيرٌ من ترسِكَ - يريد قول عمر بن أبي ربيعة، يصف خروجه من خِباء محبوبته متخفياً^(٢):

فَكَانَ مِجْنِي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَقِي ثَلَاثَ شَخْصٍ: كَاعْبَانَ وَمُعْصِرُ^(٣)
فقال الرجل: أيها الأمير، هذا المِجْنُ أَوْفَى من ذلك المِجْنِ.

ومن كلام قُتَيْبَةَ: لَا تَسْتَعِنْ عَلَى مَنْ تَطْلُبُ إِلَيْهِ حَاجَةً بَمَنْ لَهُ عِنْدَهُ طَمَعٌ فَإِنَّهُ لَا يُوْثِرُكَ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا بِكَذَابٍ فَإِنَّهُ يَقْرَبُ لَكَ الْبَعِيدَ وَيُبْعِدُ الْقَرِيبَ، وَلَا بِأَحَقِّ فَإِنَّهُ رَبِّمَا أَرَادَ نَفْعَكَ فَضَرَّكَ.
ومرّ يوماً بكناسة فيها عظام وأقذار، فقال: إِنَّ الذي يَبْخُلُ بِمَا يَصِيرُ آخِرُهُ إِلَى هَذَا، لَبِخِيلٌ.

٤٩ - وَالْمُهَلَّبُ أَوْ هَنْ شَوْكَةَ الْأَزَارِقَةِ بِيَدِكَ، وَفَرَّقَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ بِكَيدِكَ [المهلب بن أبي صُفْرَةَ]

هو المهلب بن أبي صُفْرَةَ، واسمه ظالم بن سراق بن صبح الأزدي العتكي البصري، أمير كبير مشهور الذُكْر، شجاع جَوَاد. نشأ في دولة آل أبي سفيان ثم أمّره مُصْعَب بن الزبير على البصرة نيابةً عنه، في أيام أخيه عبد الله بين الزبير، ثم ولّاه عبد الله خُراسان وقتال^(٤) الخوارج؛ واستمر على ذلك إلى أن مات في زمن الحجاج، في سنة ثلاث وثمانين من الهجرة. وهو أَوَّل مَنْ اتَّخَذَ الرِّكْبَ الْحَدِيدَ، وكانت قبل ذلك من الخشب.
وكان يُقال: سَادَ الْأَحْنَفُ بِحِلْمِهِ، وَمَالِكُ بْنُ مِسْمَعٍ بِمَحَبَّتِهِ لِلْعَشِيرَةِ، وَقُتَيْبَةُ بِدِهَائِهِ، وَسَادَ الْمُهَلَّبُ بِهَذِهِ الْخِلَالِ جَمِيعُهَا. وسيأتي في آخر الترجمة بُذْنُ من أخباره وألفاظه.
فأما الْأَزَارِقَةُ فهم الخوارج القائمون بمذهب نافع بن عبد الله الأزرق الخارجي^(٥)، خرجوا معه من البصرة والأهواز وغيرها من بلدان^(٦) فارس واتباعه، وعظمت شوكتهم، وتملكوا الأمصار. وكانت له آراء ومذاهب دانوا بها معه.
منها أنه كَفَرَ عَلِيّاً كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ بسبب التحكيم المشهور، وقال: أَنْزَلَ اللهُ فِي حَقِّهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾، [البقرة: ٢٠٤] الآية، وأنزل في حق ابن ملجم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، [البقرة: ٢٠٧].

(١) ط، د، م: "يا أخوا الأزد".

(٢) ط، د: "في قصيدته المشهورة، وقد تستر بنسوة من الحي".

(٣) ديوانه ٩٢. والمعصر: الجارية أول ما أدركت.

(٤) ط، د: "قتل".

(٥) في جميع الأصول: "نافع بن عبد الله بن الأزرق، والمعروف في جميع المراجع أنه "نافع بن الأزرق".

(٦) ط: "بلاد".

ومنها أنه كفر مَنْ لم يقل برأيه، وأستحلّ دمه، وكفّر القعدة عن القتال وتبرأ ممن قعد عنه - [وإن كان على دينه] ^(١) - وحكم ^(٢) أن مَنْ ارتكب كبيرةً خرج عن الإسلام، وكان مخلداً في النار مع سائر الكفار.

وأستدلّ بكفر إبليس، وقال: ما ارتكب إلا كبيرة حيث أمر بالسجود [لآدم عليه السلام] ^(٣) فأمتنع، وإلا فهو عارف بوحدانية الله عزّ وجلّ، إلى غير ذلك من المذاهب التي أجمعت عليها الأزارقة.

وحكي عن خالد بن خدّاش، قال: لما تفرقت الأزارقة وآراء الخوارج ^(٤) ومذاهبهم، أقام نافع بن الأزرق بسوق الأهواز يعترض الناس - وكان متشككاً في ذلك - فقالت له امرأته: إن كنت كفرت بعد إيمانك وشككت، فدعْ نحلّتك ^(٥) ودعوتك، وإن كنت قد خرجت من الكفر إلى الإيمان فأقتل الكفار حيث لقيتهم - يعني المسلمين المخالفين لمذهبه - وأثخن في النساء والصبيان كما قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾، [نوح: ٢٦]. فقبل قولها، وبسط سيفه، فقتل الرجال والنساء، فإذا وطىء بلداً كان ذلك دأبه إلى أن يجيبه أهلها؛ فيضع عليهم الجباية ^(٦) والخراج. واشتدت شوكته، وفشا عمله ^(٧) في السواد [الأعظم] ^(٨)، فأرتاع لذلك أهل البصرة، فمشوا إلى الأحنف بن قيس؛ وشكوا إليه أمرهم، وقالوا: ليس بيننا وبين القوم إلا ليلتان، فقال لهم الأحنف: إن سيرتهم في مصركم إن ظفروا بكم مثل سيرتهم في سواكم، فخذوا في جهاد عدوكم.

وقد حرّضهم الأحنف، فاجتمعوا إليه زهاء ^(٩) عشرة آلاف في السلاح، وأمر عليهم مسلم بن عنبس - وكان شجاعاً ديناً - وخرج بهم، فلما صاروا بموضع يُعرف بدولاب، خرج إليه نافع بن الأزرق على الشراة - وكانوا ستمائة نفر - فأقتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح، وعُقرت الخيل، وتضاربوا بالعمد، فقتل في المعركة ابن عنبس وهو أمير أهل البصرة، وقتل نافع بن الأزرق أيضاً، فعجب الناس من قتل الإثنين. ثم ولي على أهل البصرة الربيع بن

(١) من ط.

(٢) ت، د: "وحكمه".

(٣) من ت.

(٤) ت، د: "لما تفرقت آراء الخوارج".

(٥) كذا في ت، د، م، وفي ط: "كلمتك".

(٦) ط: "الجابية".

(٧) ط: "أعماله"، م: "عمله".

(٨) من ط.

(٩) ط: "بزهاء عن عشرة آلاف".

عمرو، وعلى الأزارقة عبدالله بن الماحوز. فُقُتِلَ الربيع، وتولَّى الحجاج بن ناب^(١) فُقُتِلَ، وتولَّى حارثة بن بدر، ونادى في الناس أن اثبتوا، فإذا فتح الله عزَّ وجلَّ فللعرب زيادة فريضتين، وللموالي زيادة فريضة، وثبت الناس فالتقوا، وقد فشت بينهم الجراح، وما تطأ الخيل إلا على القتلى، فبينما هم كذلك إذ أقبل من اليمامة مددٌ عظيم للأزارقة، فأجتمعوا وهم مريحون مع أصحابهم، وحملوا على الناس، فلما رآهم حارثة نكص فرسه^(٢)، فأنهزم وقال لأصحابه: كرنبوا ودولوا ودولوا وحَيْثُ شِئْتُمْ فَأَذْهَبُوا^(٣) [وقال]^(٤):

أَيُّرُ الْجَمَارِ فَرِيضَةً لِعَبِيدِكُمْ وَالْخُصْيَانِ فَرِيضَةً الْأَعْرَابِ
فَتَتَابَعُ النَّاسُ عَلَى أَثَرِهِ مِنْهُمْ مَنَهِزِينَ، وَتَبِعَهُمُ الْخَوَارِجُ، فَأَلْقَوْا نَفُوسَهُمْ فِي دُجَيْلٍ^(٥)، فغرق منهم خلق أكثرهم من الأزد، وفي ذلك يقول شاعر الأزارقة:
يَرَى مَنْ جَاءَ يَنْظُرُ فِي دُجَيْلٍ شِيُوخَ الْأَزْدِ طَافِيَةً لِحَاهَا^(٦)
وقلق أهل البصرة لذلك، ودخل قلوبهم الرُّعب من الخوارج؛ فبينما هم كذلك إذ ورد المهلب بن أبي صفرة متوجِّهاً إلى خراسان، وقد كتب له عبد الله بن الزبير عهده بها؛ فلما مرَّ بالبصرة قال الأحنف لوجه أهل البصرة: والله ما للخوارج غيرُ المهلب! فكلّموه في ذلك، فقال: هذا عهدي على خراسان وما كنت لأدع أمرَ أمير المؤمنين عبدالله بن الزبير. فاتفق أهل البصرة مع الأحنف على أن يفتعلوا كتاباً على ابن الزبير؛ يأمره فيه بقتال الخوارج، فكتبوه وفيه:

أما بعد، فإن الحسن بن عبدالله كتب إليّ يخبرني أن الأزارقة أصابوا جنداً من المسلمين، وأنهم قد أقبلوا نحو البصرة، وكنت قد كتبتُ عهدك على خراسان ووجهتك، وقد رأيت أن تبتدىء بقتال الخوارج؛ فإن الأجر فيه أعظم من سيرك إلى خراسان.
فلما قرأ المهلب الكتاب قال: الله ما أسيرُ إليهم حتى تجعلوا لي ما غلبتُ عليه، وتقوُّوني من بيت المال، وأنتخب من فرسانكم ورجالكم مَنْ شئت. فأجابوه إلا طائفة من بني مسمع،

(١) ط: "باب"، تحريف.

(٢) كذا في ت، وفي ط: "فلما رأتهم الجيوش ورآهم حارثة نكص برايته". ومثله في الأغاني.

(٣) كرنبوا: انزلوا كرنبى؛ وهي موضع بالأهواز. ودولوا: انزلوا دولاب. وبعدها في الطبري:

* قَدْ أَمَرَ الْمَهْلَبُ *

(٤) من الأغاني، وفي ت: "وزيد فيها".

(٥) دجيل: نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس.

(٦) انظر الخبر في الأغاني ٦: ١٤٢ - ١٤٧ (طبعة الدار).

فحقدها عليهم [المهلب] ^(١)، وسار إلى الخوارج فكان عليهم أشد من كل من قاتلهم. وبلغ ابن الزبير افتعال الكتاب فلم يقل شيئاً، وأقره على ذلك.

ثم إن المهلب أخذ بالحزم في القتال وإعمال الرأي والمطاوله، فأذكى العيون، وأقام الحرس وخندق، ولم يزل الجند على مصافهم، والناس على راياتهم وأخماسهم، فكانت الأزارقة إذا أرادوا بيات ^(٢) المهلب وجدوا أمراً محكماً.

ثم خرج المهلب يوماً على تعبئة حسنة، وخرج الخوارج على مثل ذلك إلا أنهم أحسن عُدّة وأكرم خيلاً وأكثر سلاحاً من أهل البصرة؛ وذلك أنهم أكلوا ما بين كَرْمان إلى الأهواز، فجاءوا في المغافر والدروع يسحبونها، فالتقى الناس، واشتد القتال، وصبر بعضهم على بعض عامة النهار. ثم شدت الخوارج على الناس شدة منكراً، فأجفل الناس وانصاعوا منهزمين، وأسرع المهلب حتى سبقهم إلى مكان يَفَاع، ثم نادى الناس: إني إليّ عباد الله! فتاب إليه جماعة من قومه حتى اجتمع إليه مقدار ^(٣) ثلاثة آلاف. فلما نظر إلى من اجتمع إليه رضي جماعتهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد؛ فإن الله يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فينهزمون، ويُنزِل النصر على الجمع اليسير فيظهرون؛ ولعمري إني الآن بجماعتكم لراض، وأنتم والله أهل النصر، وفرسان العصر ^(٤)، وما أحب أن أحداً ممن انهزم معكم، و﴿لَوْ خَرَجُوا فِئَكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]. عزمْتُ على كل نفر منكم إلا أخذ عشرة أحجار معه، ثم أمشوا بنا نحو وكُرهم فإنهم الآن آمنون، وقد خرجت خيولهم في طلب إخوانكم.

فقبلوا منه، ثم أقبل بهم زحفًا، فلا والله ما شعرت الخوارج إلا بالمهلب يضاربهم في جانب عسكرهم. ثم استقبلوا أميرهم عبدالله بن الماحوز وأصحابه، وعليهم الدروع والسلاح، فجعل الرجل من أصحاب المهلب يعترض وجه الرجل بالحجارة حتى يُثخنه، ثم يضربه بسيفه، فلم يقاتلهم إلا ساعة حتى قُتل ابن الماحوز، وضرب الله وجوه أصحابه، وأخذ المهلب معسكر ^(٥) القوم وما فيه، ومضى المنهزمون إلى كَرْمان وأصبهان.

ثم وُلِّي مصعب بن الزبير العراق، ورجع إليه المهلب، فقاتل معه المختار بن أبي عبيد إلى أن قُتل، ورجع إلى الأزارقة، فلم يزل يغادهم القتال ويرواحهم، وهو مع ذلك شديد الاحتراز

(١) من ط، م.

(٢) كذا في ت، م، وفي ط: "إتيان".

(٣) ط، د: "نحو من".

(٤) كذا في ت، وفي ط: "أهل النصر وفرسان العصر".

(٥) ت، د: "عسكر".

على عسكره، والتحفّظ واليقظة إلى أن مضت مدة طويلة. وبلغ^(١) الخوارج قتل مصعب بن الزبير أمير العراق، واستيلاءً عبد الملك بن مروان قبل أن يبلغ المهلب وأصحابه، فناداهم الخوارج: ما تقولون في مصعب؟ قالوا: إمام هديّ، وليّنا في الدنيا والآخرة، قالوا: فما تقولون في عبد الملك؟ قالوا: ذاك ابن اللعين، قالوا: فأنتم منه برآء في الدنيا والآخرة؟ قالوا: نعم، ونحن له أعداء كعداوتنا لكم، قالوا: فإن إمامكم المصعب قد قتله عبد الملك، وإنكم ستجعلون عبد الملك غداً إمامكم، وأنتم اليوم تتبرؤون منه وتلعنون أباه! قالوا: كذبتُم يا أعداء الله! فلما كان من الغد تبين لهم قتل مصعب، فبايع المهلب الناس لعبد الملك، فناداهم الأزارقة: يا أعداء الله، بالأمس تبرءون منه [وتلعنون أباه]^(٢)، واليوم تبايعونه بالخلافة! وقد قتل إمامكم الذي كنتم توالونه فأيهما المهديّ، وأيهما الضالّ؟ فقالوا: رضينا بذلك، ونرضى بهذا إذ ولي كل منهما أرواحنا وأمورنا، فقالوا: لا والله، ولكنكم إخوان الشياطين وطلبة الدنيا.

ثم ولي عبد الملك وأمر الحجاج على العراق، وأمره بإمداد المهلب، فشمر الحجاج لذلك، وتتابع المدد إلى أن قال المهلب: لقد ولي العراق وال ذكراً.

ثم إن الحجاج كتب إلى المهلب يستبطنه في مناجزة الأزارقة، ويستعجزه، فحبس المهلب رسول الحجاج أياماً حتى رأى صنيع^(٣) الخوارج وجلدهم وثباتهم. وكتب إلى الحجاج يقول: إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، فإن كنت نصبتني لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى، فإن أمكنتني فرصة انتهزتها، وإن لم تمكّني توقفت، فأنا أدير ذلك بما يصلحه؛ وإن أردت مني أن أعمل وأنا حاضر برأيك وأنت غائب، فإن كان صواباً فلك وإن كان خطأ فعليّ، فابعث من رأيت مكاني. والسلام.

ولما طالت الحرب بين المهلب وبينهم، ورأى اتفاق أهوائهم وثباتهم، علم أنه لا يظهر^(٤) إلا بالاختلاف إذا وقع بينهم، وكان في عسكرهم حدّاد يسمى أزي^(٥)، يصنع نصالاً مسمومة يرمي بها أصحاب المهلب، فوجّه المهلب رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر الخوارج، وقال: ألقي الكتاب في العسكر وأحذر على نفسك. وكان في الكتاب: "إلى الحدّاد: أما بعد فإن نصالك قد وصلت إلينا، وقد وجّهت إليك بألف درهم فأقبضها، وزدنا

(١) ط، د: "بلغ" بدون واو.

(٢) من ط.

(٣) ط، م: "صنع".

(٤) كذا في ت، د، وفي ط، م: "لا يظفر".

(٥) كذا في الكامل للمبرد ٣: ٣٨٢، وفي الأصول: "إيزن".

من هذه النصال "فوقع الكتاب [والدراهم] ^(١) إلى قَطْرِيّ، فدعا أبزي وقال: ما هذا الكتاب؟ قال: لا أدري، قال: لا أدري، قال: فما هذه الدراهم؟ قال: لا أعلم علمها. فأمر به فقتل، فجاءه عبد ربه الصغير ^(٢) - وكان من كبار القوم - فقال له: قتلت رجلاً على غير بينة ولا تبين أمره ^(٣)! فقال: فما حال هذه الدراهم؟ قال: يجوز أن يكون أمرها كذباً، ويجوز أن يكون حقاً. قال قَطْرِيّ: قتل رجل في صلاح الناس غير منكّر، وللإمام أن يحكم بما يراه صلاحاً، وليس للرعية أن تعترض عليه. فتنكر له عبد ربه وجماعة معه، ولم يفارقوه.

فبلغ ذلك المهلب، فدرس إليه رجلاً نصرانياً، فقال له: إذا رأيت قَطْرِيّاً فأسجد له، فإذا نهاك فقل له: إنما سجدتُ لك. ففعل النصراني ذلك، فقال له قَطْرِيّ: إنما السجود لله، فقال: ما سجدتُ إلا لك، فقال له رجل من الخوارج: قد عبدك من دون الله، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فقال قَطْرِيّ: إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى ابن مريم، فما ضره شيئاً ^(٤). فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله، فأنكر ذلك عليه، وقال: قتلت ذمياً، فأختلفت الكلمة، فبعث إليهم المهلب رجلاً يسألهم عن شيء تقدّم به إليه، فأتاهم الرجل، فقال: رأيتم رجلين ^(٥) خرجا مهاجرين إليكم، فمات أحدهما في الطريق وبلغكم الآخر فأمتمتموه، فلم يجز المحنة، ما تقولون فيها؟ فقال بعضهم: أما الميت فهو من أهل الجنة وأما الذي لم يجز المحنة فكافر حتى يجيزها. وقال قوم آخرون: بل هما كافران حتى يجيزا المحنة.

فكثر الخلاف ^(٦)، فخرج قَطْرِيّ إلى حدود إصطخر، وأوقع المهلب بمن بقي منهم مع صالح بن مخراق، وزحف إلى البقية، وخندق عليهم. ثم أقام أياماً، وأوقع بينهم الفتنة حتى وقع بين قَطْرِيّ وعبد ربه، وانحاز إلى عبد ربه جماعة وولوه عليهم، وذهب قَطْرِيّ بأصحابه. وقاتل المهلب جيش عبد ربه، فقتل عبد ربه بعد وقائع طويلة، وانفل حد ^(٧) الأزارقة وتشتوا في البلاد، وتخطّفهم الناس. وكتب المهلب إلى الحجاج بالفتح يقول:

(١) زيادة من كتاب الكامل.

(٢) بعدها في الكامل: "مولي قيس بن ثعلبة".

(٣) كذا في ط، وفي ت: "من غير ثقة ولا تبين"، وفي د: "على غير بينة".

(٤) ط، د: "فما ضر عيسى شيئاً"، م: "فما ضر عيسى شيء".

(٥) ط: "أرأيتم لو أن رجلين"، وأثبت ما في ت، د والكامل.

(٦) الكامل: "الاختلاف".

(٧) ط: "جند".

الحمد لله الكافي بالإسلام فَقَدْ ما سواه [الذي وصل المزيد بالشكر، والنعمة بالحمد، وقضى^(١)] بَأَن حُكْمَ أَلَا يَنْقُطِعُ المَزِيدُ مِنْهُ حَتَّى يَنْقُطِعَ الشُّكْرُ مِنْ عِبَادِهِ. أَمَّا بَعْدُ، [فَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِنَا مَا قَدْ بَلَغَكَ] وَكُنَّا نَحْنُ وَعَدُونَا عَلَى حَالَيْنِ: مُخْتَلِفَيْنِ، يَسِرُّنَا مِنْهُمْ أَكْثَرُ مَا يَسُوءُنَا، وَيَسُوءُهُمْ مِنْهُمَا أَكْثَرُ مَا يَسِرُّهُمْ، عَلَى اشْتِدَادِ شَوْكَتِهِمْ، فَقَدْ كَانَ عَلَنَ أَمْرُهُمْ حَتَّى ارْتَاعَتِ الْفَتَاةُ، وَتَوَهُّمُ^(٢) بِهِ الرُّضِيعَ، فَانْتَهَزَتْ مِنْهُمْ الْفُرْصَةَ فِي وَقْتِ إِمْكَانِهَا. وَأَدْنَيْتُ السَّوَادَ [مِنْ السَّوَادِ] حَتَّى تَعَارَفْتَ الْوُجُوهَ، فَلَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى بَلَغَ الْكِتَابَ أَجْلَهُ، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فكتب إليه الحجاج يشكره ويذكر بلاءه، ويأمره بالقدوم عليه وأستخلاف أحد بنيهِ، فقدم الحجاج فأجلسه على السرير إلى جانبه، وأظهر إكرامه وبره، وقال: يا أهل العراق، أنتم عبيد عتقاء المهلب، ثم قال: أنت والله كما قال لقيط الإيادي:

وَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ اللَّهُ دَرَكُكُمْ رَحَبَ الدَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَقِّ مُضْطَلِعًا^(٣)

لَا يَطْعَمُ النَّوْمُ إِلَّا زَيْتَ يَبْعَثُهُ هُمْ يَكَادُ حَشَاهُ يَقْصِمُ الضَّلْعَا

حَتَّى اسْتَمَرَّ عَلَى شَرْزِ مَرِيرَتِهِ مُسْتَحْكِمِ الرَّأْيِ لَا قَمَحًا وَلَا صَرَعا^(٤)

فقام رجل وقال: أصلى الله الأمير! والله لكأني أسمع قَطْرِيًّا وهو يقول: المهلب، كما قال لقيط. ثم أنشد هذا الشعر. فسر الحجاج حتى ظهر عليه^(٥).

وسئل المهلب: ما أعجب ما رأيت من قتال الأزارقة؟ قال: رأيت رجلاً منهم يطعنه الرجل فيمشي في الرمح إلى طاعنه ليضربه^(٦)، وهو يقول: ﴿وَعَجِلْتَ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

وكانت مدة إقامة المهلب على قتال الخوارج ومصابرته لهم تسع عشرة سنة، إلى أن فتح الله على يديه، وطهر منهم الأرض، ومات سنة ثلاث وثمانين للهجرة^(٧).

(١) زيادة من الكامل.

(٢) الكامل: "ونوم".

(٣) مختارات ابن الشجري: ٥. ومضطلعاً؛ أي شديداً.

(٤) قوله: "على شَرْزِ مَرِيرَتِهِ"؛ مثل؛ يقال: شزرت الحبل؛ إذا كررت فتله بعد استحكامه راجعاً عليه، والمريرة:

الحبل. والضرع: الصغير الضعيف. والقحم: آخر سن الشيخ.

(٥) انظر أخبار المهلب مع الأزارقة، في الكامل للمبرد مشرة في الجزء الثالث ما بين صفحتي ٣١٠ و٤٠٨.

(٦) كذا في ت، وفي ط: "وينال منه".

(٧) ط: "ومات على فراشه".

ومن أخباره المستحسنة أنه أقبل يوماً من بعض غزواته، فتلقته امرأة فقالت له: أيها الأمير، إني نذرتُ إن أقبلتُ سالماً أن أصوم يوماً^(١)، وتهب لي جارية وألف درهم. فضحك وقال: قد وقينا نذكرك فلا تعود لي مثله، فليس كل أحد يفي لك به. ووقف له رجل فقال: أريد منك حُويجة، فقال: اطلب لها رُجيلاً، - يعني أن مثلي لا يُسأل إلا حاجة عظيمة -.

ومرَّ يوماً بالبصرة فسمع رجلاً يقول: هذا الأعور ساد الناس، ولو خرج إلى السوق لا يساوي أكثر من مائة درهم؛ فبعث إليه بمائة درهم، وقال: لو زدتنا في الثمن زدناك في العطية. ولما هزم قَطْرِي بن الفجاءة دخل عليه المغيرة^(٢) وأُشند:

أَمْسَى الْعِبَادُ لَعْمَرِي لَا غِيَاثَ لَهُمْ إِلَّا الْمَهْلَبُ بَعْدَ اللَّهِ وَالْمَطَرُ
هَذَا يَجُودُ وَيَحْيِي عَنْ دِيَارِهِمْ وَذَا يَعِيشُ بِهِ الْأَنْعَامُ وَالشَّجَرُ
فَقَالَ: هَذَا وَاللَّهِ هُوَ الشَّعْرُ، وَأَمْرٌ لَهُ بَعَشْرِينَ أَلْفًا.

ومن كلامه: عجبت لمن يشتري العبيد بماله، ولا يشتري الأحرار بأفصاله. وكان يقول لولده: إذا غدا عليكم الرجل وراح، فكفى بذلك تقاضيا. وتذكروا عنده الثياب، فقال: أحسن ثيابكم ما رأيتموه على غيركم. وكان كثيراً ما يأمر بصلة الرحم والمكيدة في الحرب.

وحكي أن عبد الرحمن بن الأشعث لما خرج على الحجاج [بالجيش الذي كان بعثه معه إلى قتال رُثَيْل] ^(٣) كاتب المهلب، وهو بخراسان يدعوهُ إلى خلع الحجاج، فقال المهلب: لا غدرَ بعد سبعين سنة. ثم كتب إلى الحجاج:

أما بعد، فإن أهل العراق مع ابن الأشعث قد أقبلوا إليك، وهم مثل السيل المنحط من عل^(٤)، ليس يردّه شيء حتى ينتهي إلى قراره، ولأهل العراق شدة في أول حربهم، وبهم صباغة إلى نسائهم وأبنائهم، فلا شيء يردُّهم دون أهلهم، فلا تستقبلهم، وخلّ لهم السبيل حتى يأتوا البصرة فيضاجعوا نساءهم، ويتشّهوا أبناءهم، فترق قلوبهم، ويخلدوا إلى المقام في منازلهم، ويتفرّقوا عن ابن الأشعث. فأوقع بمن حاربك منهم، فإن الله ناصرك عليهم.

(١) ط: "شهراً".

(٢) ت: "رجل"، وهو المغيرة بن حنّاء، التميمي، شاعر المهلب. المرباني ٢٧٣.

(٣) من ط، م.

(٤) ط: "من أعلى إلى أسفل"، د، "من علو".

فلما قرأ الحجاج كتابه قال: ويلى على ابن المردى^(١)! والله ما لي نظر وإنما نظر إلى ابن عمه. ولم يقبل منه ذلك، وكان ذلك مراد المهلب - أعني دخول ابن الأشعث وتلطّفه بهذه المكيدة طي هذه النصيحة. ومن شعره^(٢):

إِنَّا إِذَا أَنْشَأْتَ قَوْمًا لَنَا نَعَمٌ قَالَتْ لَنَا أَنْفُسٌ أَرْذِيَّةٌ عَوَدُوا
لَا يُوْجِدُ الْجُودُ إِلَّا عِنْدَ ذِي كَرَمٍ وَالْمَالُ عِنْدَ لَثَامِ النَّاسِ مَوْجُودُ
٥٠ - وَأَنَّ هُرْمُسَ أَعْطَى بَلِينُوسَ مَا أَخَذَ مِنْكَ

[هرمس وبلينوس]

هرمس هذا هو الذي تزعم الصابئة^(٣) أنه نبيّ مُرسل، وأنه إدريس ~~عليه السلام~~، ويسندون إليه شرائعهم من^(٤) تعظيم الكواكب السبعة والبروج الإثني عشر، والتقرب إليها بالذبائح، وما أشبه ذلك من مذاهبهم.

قال أبو معشر البلخي: هو أول مَنْ تكلم في الأشياء العلوية، من الحركات النجومية، وجدّه كُيُومَرْت - وهو آدم عليه السلام - علّمه ساعات الليل والنهار. وهو أول مَنْ بنى الهياكل، ومجدّد الله فيها، وأوّل مَنْ نظر في الطب وتكلّم فيه وصنّف لأهل زمانه كتباً كثيرة بأشعار موزونة بلغتهم، في معرفة الأشياء العلوية والأرضية. وأوّل مَنْ أُنذِر الطوفان؛ ورأى أن آفة سماوية تلحق بالأرض من الماء والنار^(٥).

وكان مسكنه مصر، فعند ذلك بني الأهرام ومدائن التراب، وخاف ذهاب العلم بالطوفان، فبنى البرابي، والجبل المعروف ببربة أخميم، وصوّر في ذلك الموضع^(٦) الصناعات وصنّاعها نقشاً، وأشار إلى صفات العلوم لمن بعده؛ حرصاً على تخليدها من بعده.

وتزعم الصابئة أن النبوة من بعده لإسقيليوس، وكان اسمه بلينوس فزبد فيه تعظيماً لاسمه^(٧)، وكذلك يُقال في أرسطاطاليس، فإن اسمه أرسطو. وكان كلّ مَنْ مهر في علومه زيد في اسمه.

(١) كذا في ت، وفي د، ط: "المروي".

(٢) كذا في ت وفي ط، م: "وتلطّف له في طي هذه الصفحة البليغة، ومما رُوي من شعره".

(٣) ط، د: "الذي يزعم قوم من الصابئة".

(٤) ت: "في".

(٥) ت: "أو النار".

(٦) ت: "وصور فيها"، م: "وصور فيه".

(٧) ت، م: "له".

وكان بليْنوس قد أخذ العلوم والأسرار عن هرْمس هذا، وهو هُرْمس الهرامسة. وزعم آخرون أن هُرْمس صاحب بليْنوس كان بعد الطوفان، وهو غير هذا. وقال الكندي: وهو صاحب كتاب الحيوانات^(١) ذوات السموم، وكان طبيباً فيلسوفاً، عالماً بطبائع الأدوية، جوّالاً في الأرض، طوّافاً في البلاد، عالماً بنسبة^(٢) المدائن وطبائعها وطبائع أهلها وأدويتها، وهو صاحب الطلّسمات الأندلسية مثل السودانية النحاس وغيرها. وكان بليْنوس هذا تلميذه، سافر معه البلاد، فلما خرجا من الهند إلى فارس خلفه بابل، وكان قد أخذ عنه جميع علومه وظهرت له في الطب وإبراء المرضى وقائع معجزة؛ إلى أن كثرت فيه أفاويلهم، وقالوا: هو نبّي، وقالوا: ملك. وزعموا أن مولده روحاني، وأن الله تعالى رفعه في عمود من نور، وإقليدس ينسب إليه.

وهو الذي وضع علم الطب في هيكل يعرف بهيكل إسقليبيوس؛ ويدلّ على ذلك قول جالينوس في بعض كتبه: إن الله تعالى لما خلّصني من دُبيلة^(٣) قتّالة كانت عرضت لي، حججت إلى بيته المسمى بهيكل إسقليبيوس، ويقال: إن هذا الهيكل بمدينة رومية، كانت فيه صورة تكلم الناس، مركّبة على حركات نجومية، وأنه كان فيها روحانية كوكب من الكواكب السبعة. وحكى جالينوس أن الله تعالى أوحى إلى إسقليبيوس: أتى إلى أن أسميك ملكاً أقرب من تسميتك إنساناً.

وكان معظماً عند اليونان، يستسقون بقبْره، ويوقدون عليه كل ليلة ألف قنديل، فخلف إبنين ماهرين في صنعة الطب، وعهدا إليهما ألا يعلما الطب إلا لأولادهما وأهل بيتهما، ولا يدخلوا في هذه الصناعة غريباً؛ وكان تعليم الطب تلقيناً إلى أن وضع أبقراط الكتب، وهو السادس عشر من ولده.

قال جالينوس: وأما صورته -يعني المصوّرة التي في الهيكل- فصورة رجل ملتج قائماً متشمرّاً، مجموع الثياب؛ يدل بهذا الشكل على أنه ينبغي للأطباء أن يستعدوا في جميع الأوقات، أخذاً في يده عصاً معوجة ذات شُعَب؛ يدل ذلك على أنه يمكن في صناعة الطب أن يبلغ بمن استعملها من السن أن يحتاج إلى عصاً يتوكأ عليها.

وقيل: إنها صور العَصَا لأنها من شجرة الخَطْمِي، وأنه يطردُّ بها الأمراض. وأما شُعْبَهَا فتدل على كثرة أصناف الطب والتفنّن فيه، ثم صوّر على تلك العصار صورة حيوان طويل العمر، وهو التَّسْنِين. ويقرب هذا الحيوان منه لأشياء كثيرة.

(١) ت: "الحيوان".

(٢) م: "نصب".

(٣) الدبيلة: خراج أو دمل كبير يظهر في الجوف فيقتل صاحبه غالباً.

أحدها أنه حيوان حاد البصر، كثير السَّهر، وكذلك ينبغي للطبيب أن يكون في المعرفة والإجتهاد كذلك.

والثاني أنه يسلخ لباسه الذي يسمونه الشيخوخة؛ فكذاك يمكن الطبيب أن يسلخ الشيخوخة بما يفيد من الصحة.

والثالث أنه طويل العمر، وعلى ذلك يحرص بعض الأطباء.

ويروى أنه عاش تسعين سنة.

ومن كلامه: الصنعة عند الكفور إضاعة للنعمة.

المتعبّد بغير معرفة كحمار الطاحون يمشي ولا يبرح، ولا يعرف ما هو فاعل في تديره.

٥١ - وَأَفْلَاطُونُ أَوْرَدَ عَلَى أَرِسْطَاطَالِيْسَ مَا نَقَلَ عَنْكَ

[أفلاطون]

هو أفلاطون بن أرسطون الإلهي، آخر المتقدمين^(١) الأوائل، معروف بالتوحيد والحكمة^(٢)، وُلد في زمان أردشير الأول، وتلمذ لسقراط، ولما اعتلّ سقراط ومات مسموماً قام مقامه؛ وجلس على كرسيه، وقد أخذ العلم عن^(٣) سقراط وطيماوس^(٤)، وكان قد رحل إلى مصر، فأخذ أيضاً عن أصحاب^(٥) فيثاغورس وغيره^(٦)، وضم إلى علومه الإلهية العلوم الطبيعية والرياضية. وهو أحد المشائين المشهورين، ومعنى المشائين أنه كان من رآيه الرياضة للبدن بالسعي المعتدل؛ لتحليل الفضول، ومداواة في تلك الحال. ويُقال إنه أمر الملوك باتخاذ بيوت الحكمة لتعليم أولادهم، فكانوا^(٧) يتخذون البيوت المذهبة والمزخرفة^(٨)، ويصوّرون فيها أصناف الصّور المستحسنة التي ترتاح إليها النفوس، ثم يتعلم فيها الصبي، فإذا حفظ علماً أو حكمة صعد يوم عيدٍ على درجٍ إلى^(٩) مجلس بديع الصنعة، وقد اجتمع كبار أهل المملكة؛ فيتكلم بالحكمة التي حفظها على رؤوس الأشهار، وعليه التاج، ويُسمّى

(١) ت: "المجتهدين".

(٢) ت، د: "الحكم".

(٣) ت: "من".

(٤) ت: "المجتهدين".

(٥) كذا في م وطبقات الأطباء لابن جليل ٣٣، وفي د، ط: "طيماوس".

(٦) د: "وغيرهم".

(٧) ت: "فكانوا".

(٨) كذا في ت، وفي ط، م، د: "المزخرفة" بدون واو.

(٩) ط: "في".

حكيمًا؛ كل ذلك ترغيب للصبي في الاشتغال؛ لما يحصل عليه من التشريف^(١) والسرور، وفي يوم من هذه الأيام ظهر أمر أرسطاطاليس كما سيأتي ذكره. ولأفلاطون آراء ومذاهب أخذها عن أرسطاطاليس، وخالفه في بعضها: مثل حدوث العالم وغيره.

وكان يصوّر لأفلاطون الصورة، ويؤتى بها إليه فيقول: من خلق هذه الصورة كذا؟ ومن حالها كذا^(٢)؟ فصوّرت صورته، وسئل عنها فقال: من خلق صاحب هذه الصورة كذا وكذا، وهو محبّ للزنا، فقيل: إنّها صورتك، فقال: نعم، ولولا أنني أحبس نفسي عن الزنا لفعلت.

ومن كلامه: إن الله تعالى بقدر ما يعطي من الحكمة يمنع من الرزق، فقيل له: ولم؟ قال: لأن الحكمة حظ النفس الناطقة، والمال حظ النفس الشهوانية، والناطقة غالبية على الشهوانية، فالمال والحكمة متغايران فلا يجتمعان. وقال: لا ينبغي أن تفعل شيئاً إذا غيّرت به غضبت^(٣)، فإنك إذا فعلت ذلك، كنت أنت القاذف لنفسك.

وقال: عقول الناس مدوّنة في رؤوس أقلامهم، وظاهرة في اختياراتهم. وقيل له: بماذا يتتصف الإنسان من عدوّه^(٤)؟ قال: بأن يزداد فضلاً في نفسه. وقال في معنى الملك: هو كالبحر تستمد منه الأنهار، فإن كانت الأنهار عذبة فأصلها منه، وإن ضد ذلك فمّنه^(٥).

وقال: ينبغي للذين يأخذون على أيدي الأحداث أن يدعوا لهم موضعاً للعذر، لئلا يضطروا إلى القحّة^(٦) بكثرة التوبيخ.

وقيل له: فلان لا يعرف الشر^(٧)، قال: فإذا لا يعرف الخير؛ يريد أن تكون الأمور متميزة عند الإنسان، فإنه بعد تمييزها يختار منها، وإذا لم يوضحها التمييز بطل اختياره، ومتى بطل اختياره خيف عليه أن يقع في مهلكاتها.

وقال: من القبيح أن نمتنع من الطعام اللذيذ لتصحّ أبداننا، ولا نمتنع من القبائح لتصفو بذلك أنفسنا.

(١) ط: "الشرف".

(٢) كذا في ط، م، وفي ت، د: "من خلق هذه الصورة كذا وكذا".

(٣) بعدها في ت: "أن تفعله".

(٤) ت: "حسوده".

(٥) م: "و ضد ذلك"، وأثبت ما في ط.

(٦) كذا في الأصول المخطوطة، وفي ط: "الضجر".

(٧) كذا في ت وفي ط: "لا يعرف شيئاً".

[أرسطاطاليس]

فأما أرسطاطاليس فهو ابن نيقوماخس، المعروف بالمعلم الأول، وإنما سُمِّيَ بذلك لأنه أول مَنْ وضع التعاليم المنطقية، وأخرجها من القوة إلى الفعل، وحكمه حكم واضع النحو وواضع العروض.

وكان سبب محبة أفلاطون له، وإلقاء علومه إليه، أنَّ أباه كان قد أسلمه لأفلاطون صغيراً ومات، فاستمرَّ أرسطاطاليس يتيماً في خدمته، وكان روسطافس الملك قد اتَّخذ لولده نطاقورس بيتاً للحكمة، وأمر أفلاطون بتعليمه، وكان غلاماً متخلفاً قليل الفهم، وأرسطاطاليس يعي ذلك [سراً]^(١) ويرسخ في صدره، حتى إذا كان يوم العيد زَيْنَ بيت الذهب الذي هو بيت الحكمة، وألبس نطاقورس التاج، وحضر الملك وأهل المملكة على العادة، وصعد أفلاطون وولد الملك إلى مجلس الحكمة والتشريف^(٢) على رؤوس الأشهاد، فلم يورد الغلام حرفاً، ولا نطق بشيء^(٣)، فأسقط في يد أفلاطون، واعتذر بأنه لم يقصِّر في الإلقاء عليه، ثم قال: يا معشر التلامذة، مَنْ فيكم مَنْ ينوب عن نطاقورس؟ فبدر أرسطاطاليس وصدر إلى مجلس التشريف، وأخذ يسرد جميع ما ألقاه أفلاطون إلى ابن الملك، لم يغادر منه حرفاً؛ فقال أفلاطون: أيُّها الملك، هذه الحكمة التي أَلْقَيْتُهَا على ولدك قد حفظها هذا اليتيم، فما احتيالي في الرزق والحرمان! ثم انصرف الجمع، وقد اغتبط أفلاطون بأرسطاطاليس، واعتنى به بعد ذلك، ومكث عنده نيفاً وعشرين سنة، وكان كثير التعظيم له بحيث أنه كان إذا جلس واستدعي منه الكلام يقول: أصْبِرْ حتى يحضر الناس، وربما قال: أصْبِرْ حتى يحضر العقل، فإذا حضر أرسطاطاليس قال: تكلموا.

ثم مات أفلاطون، وقد أخذ عنه أرسطاطاليس جميع علومه، وخالفه في مسائل استدركها عليه، وكان يقول: إِنَّا لنحبُّ أفلاطون ونحب الحق، فإذا افترقا فالحق أولى بالمحبة.

ثم وضع علم المنطق ورتب أصوله، وقال: إنما فُضِّلَ الناس على البهائم بالمنطق، فأحقهم بالإنسانية أبلغهم منطقاً، وأوصلهم إلى عباراتٍ من ذات نفسه بالإيجاز. وله في ذلك مسائل ومصنّفات معروفة، وكذلك في جميع علومه الحكيمية والفلسفية، وكان قد تسلم الإسكندر بن فيلبس من أبيه، فعلمه وهذّبه، وولي الإسكندر المملكة، فكان

(١) من ت، د.

(٢) ط: "الشرف".

(٣) ط: "شيئاً ولا نطق بحرف".

لا يُبرم أمراً ولا ينقضه^(١) إلا بإشارته. وكان بمنزلة الوزير والمشير إلى أن توفي الإسكندر، وعاش بعده قليلاً ومات، فوضعت جثته في إناء من نحاس -وقيل في خشبة كالتابوت- وعُلقت في جزيرة صقلية، وكان أهل البلد يجتمعون إليها عند المشاورة والمدارسة في فنون الحكمة، ويقولون: إن مجيئهم إلى ذلك الموضع يذكّي عقولهم، ويصحّ فكرهم، وربما استسقوا به في الجذب.

ومن كلامه مما كتب به للإسكندر وهو في غاية البلاغة: أيها الملك، لا تنخدع للهوى، وإن خُيل إليك أن في انخداعك له خداعه، فقد يسترسل الإنسان وهو يظن أنه متحفّظ. وأجمع في سياستك بين بدارٍ لا حدة فيه، ورِيثٍ لا غفلة معه، وأمّزج كل شكل بشكله حتى تزداد قوة. وكن عبداً للحق عبد الحق حرّ. وليكن وكُذّك^(٢) الإحسان إلى الخلق، ومن الإحسان وضع الإساءة في موضعها. وكُن نصيحاً نفسك، فليس لك أرف منك. وإذا أشكل عليك أمرٌ فأضرغ إلى الله تعالى يبلّغك هذه الغاية، فإنه يفتح لك المُرْتَج، وإذا فاتك شيء فاعلم أن ذلك لسهو عرض لك في الشكر على ما أفادك. ومهما أخطأك شيء فلا يخطئك الفكر في الرّحيل عن هذه الدار.

ومنه: إن لكل شيء صناعةً، وصناعة العقل حُسن الاختيار.

ورأى إنساناً سمين البدن، فقال: ما أشدّ عنايتك برفع سور جسمك^(٣)!

وقال: سلوا القلوب عن المودّات، فإنها لا تقبل الرّشا.

وقال: مقدّم الرأس للفكر، ومؤخّره للذكّر، والدليل على ذلك أن المتفكر يطأطئ برأسه، والمتذكّر يرفع رأسه.

وقال: مَنْ علِم أن الفناء مستولٍ على كونه هانت عليه المصائب.

وأكثر الأمثال في شعر المتنبي من قوله. وقد أفرد الحاتمي^(٤) رسالة في ذلك.

وحكى عبدالله بن طاهر أن المأمون، قال: رأيتُ في المنام رجلاً قد جلس مجلس الحكماء،

فقلت له: مَنْ أنت؟ فقال: أرسطاطاليس الحكيم، فقلت: أيها الحكيم، ما أحسن الكلام؟ قال:

ما يستقيم في الرأي، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما يستحسنه سامعه، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما لا تُخشى

عاقبته، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما عدا هذا هو ونهيق الحمار سواء.

(١) ط: "وينقضه".

(٢) ت: "فكرك".

(٣) ت: "حبسك".

(٤) ط: "الهاشمي"، تصحيف.

قال المأمون: ولو كان حيًّا ما زاد على هذا الكلام شيئاً آخر، إذ به جمع ومنع. وقال قوم: إن هذا الكلام وُجِدَ في كتبه.

٥٢- وبطلِيمُوس سَوَى الْأَسْطُرْلَابِ بِتَدْبِيرِكَ، وَصَوَّرَ الْكُرَّةَ عَلَى تَقْدِيرِكَ

[بطليموس]

هو بطليموس صاحب كتاب المجسطي الكبير، والجغرافيا، والأسطرلاب، وكتاب اللحن الثمانية. وغير ذلك.

وهو أول من شرح القول على هيئات الفلك، وأخرج علم الهندسة من القوة إلى الفعل.

وأكثر الرواة يقولون: إنه ثالث ملوك اليونان بعد الإسكندر؛ وبطليموس لقب ملوكهم.

وكان رجلاً حكيماً، وسبب ملكه أنه لما مات بطليموس الصانع ملك اليونان، لم يكن في بيت هذا الملك من أهله مَنْ يُصْلِحُ للمملكة^(١)، فذكر لليونان رجل يصلح، فقال بطليموس: إنه لا يصلح للملك، قالوا: ولِمَ؟ قال: لأنه كثير الخصومة، وليس يخلو في خصومته أن يكون ظالماً أو مظلوماً، فإن كان ظالماً لم يصلح للملك لظلمه، وإن كان مظلوماً لم يصلح للملك لعجزه وضعفه، قالوا: صدقت، فأنت أولى بالملك؛ فملكوه عليهم.

وقال بعض محققي التاريخ: ليس بطليموس الحكيم من ملوك اليونان، بل هو رجل حكيم كان في زمن أنطينانوس، أحد ملوك الروم بعد اليونان بملوك كثيرة. والدليل على أنه ليس من ملوك اليونان، أنه ذكر في كتاب "المجسطي" أنه رصد الشمس بالإسكندرية سنة ثمانمائة وثمانين لبختنصر، وكان من بُخْتَنْصَرٍ إلى قتل دارا أربعمئة وتسع وعشرون سنة، ومن قتل دارا إلى زوال ملك اليونان على يد أوغسطس مائتا سنة وثمانون سنة، ومن غلبة أوغسطس إلى أن ملك أنطينانوس مائة وسبعون سنة؛ فيكون ذلك موافقاً لما حكاه بطليموس في كتابه.

وأما الأسطرلاب فيزعمون أنه باللغة اليونانية "ميزان الشمس"، وبه يُعرف مقدار الساعات، وأخذ الأرصاد، ومطالع الكواكب وغير ذلك، وبه مثّلت هيئة الفلك، وكذلك الكرة. والأسطرلاب كرة مطبوعة مثاله كرة من شمع ضُمَّت عليها اليدان، فصارت دائرة.

(١) ط: "للملك".

وزعم بطليموس أن الأفلاك تسعة، فأولهما أقربها إلى الأرض، وهو أصغرهما، وهو فلك القمر، ثم الذي يليه فلك عطارد، ثم الزهرة، ثم الشمس، ثم المريخ، ثم المشتري، ثم زحل، والثامن فلك البروج - وفيه سائر الكواكب الثابتة - والتاسع الفلك الأعظم الحاكم على جميع الأفلاك، ويسمى الأثير، لأنه يؤثر في غيره، وغيره لا يؤثر فيه. ويُقال: القسريّ لأنه يدير الأفلاك دورة قسرية في كل يوم وليلة. وهيئات البروج مثال البطيخة المخططة، أعلاها وأسفلها كالنقطتين، وكل بيت بين خطين بمنزلة البرج^(١). ثم إن الفلك المحيط يدير الأفلاك الثمانية من الشرق إلى الغرب [كل يوم دورة واحدة، والأفلاك الثمانية تدور من المغرب إلى المشرق، وشبهوا ذلك بسفينة تجري مع الماء، وفيها رجل يمشي مصعداً]^(٢). وحكى أبو حيّان التوحيدى، قال: كان ابن بكير يقول: دون فلك القمر فلكان، هما سبب المد والجزر، ويقطعان الفلك كل يوم وليلة مرتين. وهذا من آرائه التي تفرد بها، ولم أجد أحداً يوافقه عليها؛ والصناعة برهانية، ولا أعرف أي برهان قام له على هذه الدعوى! ومن كلام بطليموس: ما أحسن بالإنسان أن يصبر عما يشتهي، وأحسن منه ألا يشتهي إلا ما ينبغي.

وقال: ينبغي للعقل أن ينظر كل يوم في المرأة، فإن رأى وجهه حسناً لم يشنه بشيء قبيح يفعلُهُ، وإن رآه دميماً لم يجمع بين قبيحين. وسمع جماعة من أصحابه حول خيمة له يقعون فيه، فهزّ رمحاً بين يديه ليعلموا أنه بمسمع منهم، وأن يتابعوا عنه قيد رُمح، فيقولوا ما أحبوا. وكان يقول: إنما نحن كائنون في الزمن الذي يأتي من بعد هذا - رمزاً إلى المعاد - إذ الكون والوجود الحقيقيّ ذلك الكون والعالم.

٥٣ - وَأَبْقَرَاطُ عَلِمَ الْعِلَلَ وَالْأَمْرَاضَ بِطُفٍّ حَسَّكَ

[أبقراط]

هو أبقراط بن إيراقليس، كان في زمن بهمن بن إسفنديار، ويقال: إنه سابع الأطباء الذين أولهم أسقليبيوس، وهو قبل سقراط وأفلاطون، وهو الذي نظر في صناعة الطب فوجدها قد كادت تبعد لقلة أبناء المورثين لها من آل أسقليبيوس؛ فإنهم كانوا يلقنونها الأبناء منهم ولا يكتبنها؛ فيتعلمها غيرهم، فبثّ أبقراط هذه الصناعة في الناس، وعلم الغرباء، وعهد إلى الأطباء عهداً طويلاً مشهوراً.

(١) ت: "البروج".

(٢) ن، ط.

وقال جالينوس في بعض كتبه: إن أبقرات كان يعلم مع ما كان يعلمه في الطب من أمر النجوم ما لم يكن يُدانيه فيه أحدٌ من أبناء زمانه، وكان يعلم أمر الأركان التي منها تركيب أبدان الحيوان، وكون جميع الأجسام التي تقبل الكون والفساد، وفسادها؛ وهو الذي برهن كيف يكون المرض والصحة في جميع الحيوان والنبات، وأستنبط أجناس الأمراض وجهات مداواتها وهو أول من اتَّخذ البيمارستان؛ وذلك أنه عمل بالقرب من داره موضعاً مفرداً للمرضى، وجعل لهم خدماً يقومون بمداواتهم وسمّاه "أخشيذوكن" أي مجمع المرضى، وكذلك لفظ "البيمارستان" بالفارسي، ولم يكن يرغب في الاتصال بالملوك؛ حتى إن ملك الفرس كتب إلى عامله من بلاد اليونان، يأمره بحمل أبقرات إليه لأجل وباء عرض في بلاده. وأن يحمل مائة قنطار ذهباً، ويضمن له أقطاعاً مثلها، وكتب إلى ملك اليونان في ذلك الوقت يستعين به على إخراجه إليه، وضمن له مهادنته سبع سنين، فلم يجب أبقرات إلى هذا، وقال أهل المدينة: إن خرج أبقرات خرجنا كلنا وقُتلنا دونه.

وتفسير "أبقرات" ضابط الكل. وقيل: ضابط الحيل، وهو الصحيح.

وكتبه جلييلة، وأخباره حسنة. ومن ظريف حكاياته أن ولد أحد الملوك اليونان عشق جارية من حظايا أبيه، فنحل بدنه، واشتدت علته، وهو كاتم خبره، فأحضر أبقرات، فجس نبضه، ونظر إلى بشرته فلم يرَ عنده علة، فذاكره حديث العشق، فرآه يهتز لذلك ويضطرب، فأستخبر الحال من حاضنته، فلم يكن عندها خبر، فقال: هل خرج من الدار؟ قالت: لا، فقال لأبيه: مُر رئيس الخُصيان بطاعتي؛ فأمره بذلك، فقال: أخرج على النساء، فخرجن - وأبقرات واضع يده على نبض الصبي - فلما خرجت الصبيّة الحظيّة اضطرب عرقه، وحار طبعه، فعلم أبقرات أنها المعنّية بهواه. فصار إلى الملك فقال: إن ابن الملك عاشقٌ لمن الوصول إليها صعب، قال الملك: ومن تيك؟ قال: هي زوجتي، قال: فأنزل عنها ولك عنها بدل، فتمنع أبقرات، وقال: هل رأيت أحداً كلّف أحداً طلاق زوجته! ولا سيما الملك في عدله ونصفته، يأمرني بمفارقة زوجتي وهي عديلةٌ روحي! فقال الملك: إنني أوثّر ولدي عليك، وأعوّضك أحسنَ منها، فامتنع حتى الأمر إلى التهديد والسيف، فقال أبقرات: إن الملك لا يسمّى عادلاً حتى يُنصف من نفسه ما يُنصف من غيره، أرايت لو كانت العشيقة حظيّة الملك! ففهم الملك المراد، وقال: يا أبقرات، عقلك أتم من معرفتك، ونزل عن الحظيّة لابنه، وشفي الفتى من لاجع الهوى.

ومن كلام أبقرط: سَلُوا القلوب عن المودات فإنها شهود لا تقبل الرِّشَا^(١).
 وقال: الإقلال من الضار خيرٌ من الإكثار من النافع -يعني من المآكل والمشارب.
 وقال: خَيْرُ الغدَاء بواكرُهُ، وخير العَشا بوادره -يعني بذلك المبادرة به في بقايا النهار
 والضوء متمكن، وقبل الدخول في حد النوم.
 وقال: استهينُوا بالموت، فإن مرارته في خوفه.
 وسئل: كم ينبغي للإنسان أن يجامع؟ فقال: في كل سنة مرة، قيل: فإن لم يقدر؛ قال:
 في كل شهر، قيل: فإن لم يقدر؟ قال: في كل أسبوع، قيل: فإن لم يقدر، قال: هي روحه، متى
 شاء أخرجها.
 ولما حضرته الوفاة، قال: خُذُوا مني العلم بغير حسد؛ مَنْ كَثُرَ نومُه، ولانَتْ طبيعته،
 وندبتْ جلدته فقد طال عمرُه.

٥٤- وَجَالِينُوسُ عَرَفَ طَبَائِعَ الْحَشَائِشِ بِدِقَّةٍ حَدْسِكَ [جالينوس]

جالينوس هو آخر الحكماء المشهورين، ويسمى خاتم الأطباء والمعلمين، وذلك
 أنه عندما ظهر وجد صناعة الطب قد كثرت فيها أقوال الأطباء السُّوفسطائيين، ومحيت
 محاسنها، فانتدب لذلك، وأبطل آراءهم، وشيّد آراء أبقرط والتابعين له ونصرها، وساح
 وطلب الحشائش، وجرب وقاس أمزجتها وطبائعها، وشرّح الأعضاء، ووضع الكتب
 النفيسة في هذه الصناعة، وهي مادة الأطباء إلى يومنا هذا؛ وأشهرها الكتب الستة التي
 شرحها الإسكندرانيون، ولم يأت إلى يومنا من هو دون منزلته، وكانت وفاته بعد مبعث
 المسيح ~~عليه السلام~~، ولم يره.

حكى أنه لما بلغه دعوة المسيح صلوات الله عليه إحياء الموتى، وخلق الطير، وإبراء
 الأكُمه والأبرص، قال لمن حوله من التلامذة: إن عُلِمَ من هذا المدّعي بما لا تستقل به الطبيعة
 سَفَهٌ قبل ما ادّعاه لا يخاطب، ويحمل فيما ادّعاه على ما تقدم العلم منه من السّفه، وإن لم يُعَلِّم
 منه سفه تقدم دعواه يُطالب^(٢) بالبيان لإمكانه من علم ما وراء عالم الطبيعة؛ وذلك سبيل كل
 ناطق يقوم في ابتداء كل قرن يأتي من الزمان للاضطرار إليه عند ظهور الفساد في الأرض،
 سبيله الدعوى بما لا تستقل به الطبيعة لانقياد الناس إلى طاعته بعد القيام بصحة ما ادّعاه،
 فمن سلك سبيله بعد ذلك تمت حركته.

(١) تقدم هذا الكلام لأرسطاطاليس ص ٢١٣.

(٢) كذا في د، وفي باقي الأصول: "يطلب".

ثم تجهّز للاجتماع به، وسار إليه، فمات في طريقه بمدينة الفَرَمَا، وهي على شاطئ
بحيرة تَنيس، وبها قبره.

ولما اشتد به المرض قيل له: ألا تتداوى؟ قال: إذا نزل قدر الرب بطل حذر المريبوب،
ونعم الدواء الأجل! ثم مات مبطوناً، ومات أرسطاطاليس بالسّل، ومات أفلاطون مبرسماً،
ومات أبقرات مفلوجاً.

ومن حكايات جالينوس عن نفسه، قال: مررتُ بشيخ يزرع شجرة، فقلت: يا شيخ، ما
تزرع؟ فقال: شجرة ثمرتها لي ولك، قلت: وما هي؟ قال: شجرة المشمش، ثمرتها لي؛ لأنني
أخذ ثمنها، ولك لأنها تُكثر المرضى، فتأخذ من أموالهم.

وحكى عن نفسه في معرفة التشريح، قال: أعرف رجلاً شكا ضعف شهوة الطعام،
فوضعتُ على رقبته أدوية فبرىء؛ لأن في العضوين المجاورين للعرقين النابضين شُعبة إلى
فم المعدة، تنال منها الحس، وكان في رقبة الرجل خنازير فقطعها الأطباء، فأضر ذلك بتلك
القصة التي منها الشعبة، وبرئت رقبته، وصار ضعيف الشهوة عن الطعام، فوضعتُ عليها
الأدوية المقوية فبرىء.

ومن كلامه: الإنسان سراجٌ ضعيف، كيف يدوم ضوءه بين رياح أربع! يعني الطبائع.
وقال: الإنسان إلى تجنّب ما يضره أحوج منه إلى تناول ما ينفعه.
وقال: مَنْ كان له درهم؛ فليجعل نصفه في النرجس؛ فإنه راعي الدماغ، والدماغ راعي
العقل.

ورأى مُصارعاً كان لا يرمي أحداً قد صار طبيباً، فقال: الآن كما صرعت الناس!

٥٥- وَكِلَاهُمَا قَلْدَكَ فِي الْعِلَاجِ، وَسَأَلَكَ عَنِ الْمِزَاجِ

العلاج والمعالجة في اللغة المغالبة، وسُمّي الطبُّ علاجاً لكون الطبيب يغالب
المرض.

وقال أبقرات: يُعالجُ الجسد على خمسة أضرب: ما في الرأس بالغرغرة، وما في
المعدة بالقيء، وما في أسفل المعدة بالإسهال، وما بين الجلدين بالعرَق وإسهال الدم،
ويحتاج ذلك إلى علوم الأصول من الاستقصّات، والطبائع، والأخلاق، والقوى، والأرواح،
والأسباب، وغير ذلك.

والمِزَاج في اللغة الشراب بغيره؛ وعبرَ عنه الأطباء بأنه عبارة عن تكافؤ الطبائع
واختلاطها في البدن، والمِزَاج عندهم تسعة: واحد معتدل، وثمانية غير معتدلة، وفي

الثمانية أربعة مفردة؛ وهي الحار والبارد، والرطب واليابس. والأخلاق أربعة؛ وهي: الدم، والمِرّة الصفراء، والمِرّة السوداء، والبلغم؛ فالدم حارٌّ رطب، والمِرّة الصفراء حارة يابسة، والبلغم بارد رطب، والمِرّة السوداء باردة يابسة. ومعرفة أمزجة الإنسان من أقسام الأسباب والعلامات، ويُعرف مزاج غير ذلك بالتجربة، وبالقياس؛ فليعلم ذلك.

٥٦- وَاسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الْأَعْضَاءِ، وَاسْتَشَارَكَ فِي الدَّاءِ وَالِدَوَاءِ

يشير بمعرفة الأعضاء إلى ذكر صفات التشريح التي ذكرها جالينوس، وحكى فيها عن نفسه الحكايات العجيبة. والأعضاء عندهم على قسمين: بسيط ومركب، فالبسيط كالعظم والعصب والعروق، والمركب كالرأس واليدين والرجلين، ومن الأعضاء أعضاء رئيسة^(١) وأعضاء مرؤوسة، فالرئيسة أربعة: كالدماع، والقلب، والكبد، والأنتين. والمرؤوسة ما تخدم هذه الرئيسة، وذلك أن الدماغ يخدمه العصب، والقلب يخدمه الشرايين، والكبد تخدمها^(٢) العروق. والأنتيان أوعية المنى، وما ليس برئيس ولا خادم كالعظام والغضاريف والشحم واللحم، والأعضاء التي لها قوى كالمعدة والكلى.

والداء هو المرض الداخل على الأبدان، وأجناسه ثلاثة: الأول فساد المزاج، والثاني تفرق الإتصال، والثالث المرض المشترك، والدواء ما يحفظ به الصحة المائلة عن البدن، أو ما يجلب به الصحة للبدن المزيلة له؛ وهو نفس القسم العملي، ومداره على الحدق.

وكان أبقرراط يقول: الطبيب الحاذق يصير بحذقه السم دواء نافعا، والجاهل يصير الدواء سُمًّا قاتلاً؛ مثال ذلك أن الجاهل بالطب إذا أخذ الصندل وسحقه كالْكُحْل، ثم طلاه على بدنٍ حار كثير الحرارة طلياً ثخيناً، دخلت تلك الأجزاء الدقيقة في منافس الجسد ومسامه، فتؤذي العليل؛ والطبيب الحاذق يأخذ العود الهندي فيسحقه ناعماً، ثم يطليه على البدن طلياً رقيقاً، فيتصل ما فيه من الرطوبة إلى حرارة البدن فيبرهما، ويجد الحر سبيلاً إلى الخروج، فتكون حرارة العود مبردة بتدبير الطبيب [الحاذق]^(٣)؛ فأعلم ذلك^(٤).

(١) ط: "رئيسية".

(٢) د: "تخدم".

(٣) من م.

(٤) ساقط من د.

٥٧- وَأَنْتَ نَهَجْتَ لِأَبِي مَعْشَرٍ طَرِيقَ الْقَضَاءِ

النهج بيان الطريق ووضوحه، ومنه: نهج الثوب: إذا بان فيه البلى.
والقضاء فصل الأمر قولاً كان أو فعلاً، وأصله "قضاي"، من "قضيت" فقلبت الياء همزة، والمرادُ به ها هنا حكمُ المنجمين وقولهم بتأثير الكواكب، قال الشاعر^(١):
* يَقْضُونَ بِالْأَمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ *^(٢)

[أبو معشر الفلكي]

وأبو معشر هذا هو جعفر بن محمد بن عمر البلخي، المنجم المشهور في علم النجامة؛ كان في الأول من أصحاب الحديث ببغداد، وكان يشنُّ على الكنديِّ الفيلسوف بعلوم الفلسفة، ويغري به العامة، فدرس له الكنديُّ مَنْ حَسَّنَ له النظر في علم الحساب والهندسة، فدخل في ذلك، ثم عدل إلى أحكام النجوم ففتنَ ومَهَر، وانقطع شره عن الكنديِّ، لأنه من جنس علوم الكنديِّ.

ويُقال: إنه اشتغل بالنجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره، وصنَّف الكتب الحسنة في هذا العلم، مثل كتاب: الألوْف، وكتاب المدخل، وكتاب المذكرات وغير ذلك؛ وظهرت له إصاباتٌ عجيبة، وحكي عنه فيها حكايات بديعة، قال في كتاب المذكرات: حضرت وشيْلَمَة والزياديُّ عند الموقِّق، وكان الزياديُّ أستاذَ زمانه في النجوم. فأضمر الموقِّق ضميراً، فقال الزياديُّ: أضمر الأمير فقد أمر جليل رفيع، فقال له: كذبت! فقال شيْلَمَة قولاً قريباً منه، فقال الموقِّق: كذبت! ثم قال لي: هات ما عندك؛ فقلت: الرئيس يرى فعله، ولا يرى نفسه. وكان في أرفع درجة الفلك في الضمير، ولم أعرف له مثلاً إلا الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الله تعالى يُرى فعله ولا يُرى هو، وهو فوق كل عزة وسلطان؛ ليس فوقه شيء.

وحكي عنه أنه كان قد تنقل في البلاد، فاتَّصل ببعض ملوك العجم، وأن الملك طلب رجلاً من أتباعه وأكابر دولته، ليطالبه بجريمة وقعت منه، فاستخفى الرجل، وعلم أن أبا معشر يدل عليه بالطريق الذي يُستخرج بها الخفاء، والأشياء الكامنة، فأراد أن يصنع شيئاً لا يُهتدى إليه، ويُبعد عنه الحدس، فأخذ طستاً وملاًه دماً، وجعل في الدم هاوئناً من ذهب كبير، يتمكن من القعود عليه، ثم جلس عليه أياماً، وتطلب الملك ذلك الرجل فأعياه، فأحضر أبا معشر، وقال له: عرِّفني بموضعه كما جرت عادتك، فعمل المسألة التي يُستخرج بها المجهولات،

(١) هو أبو تمام.

(٢) ديوانه ١: ٥٠ وبقية:

* مَا دَارَ فِي فَلَكَ مِنْهَا وَفِي قُطْبِ *

وسكت زماناً حائراً، فقال الملك: ما سبب حيرتك؟ قال: أرى شيئاً عجيباً؛ قال: وما هو؟ قال: أرى الرجل المطلوب على جبل من ذهب، والجبل في بحر دم، ولا أعلم في العالم موضعاً على هذه الصفة! فلما يئس الملك من القدرة عليه نادى في البلد بأمان الرجل ومن أخفاه، فلما اطمأن الرجل بذلك ظهر، وحضر بين يدي الملك، فسأله عن الموضع الذي كان فيه، فأخبره بما اعتمد، فأعجبه حُسن احتياله، وإصابة أبي معشر في استخراجهِ^(١).

ولأبي معشر في هذا الباب أخبار كثيرة، والله أعلم بحقيقتها. وكان مع تقدُّمه في هذه الصناعة يُصيبه الصرع عند امتلاء القمر في كل شهر، وكان لا يعرف لنفسه مولداً؛ ولكن كان قد عمل مسألة عن عمره وأحواله، وسأل عنها الزيادي المنجم ليكون أصح دلالة، إذا اجتمع عليها طبيعتان: طبيعة المسؤول، وطبيعة السائل؛ فخرج طالع تلك السنة السُّنبلة، والقمر في العقرب في مقابلة الشمس، والمريخ ناظرٌ إلى القمر من الدُّلو.

وهذه الصورة توجب الصَّرع. ومات به سنة اثنتين وسبعين ومائتين. وقيل: كان سبب موته أن المستعين ضربه أسواطاً؛ لأنه أخبر بشيء قبل كونه فأصاب، فكان يقول: أصبْتُ فعوقبت!

٥٨- وَأَظْهَرَتْ جَابِرُ بْنُ حَيَّانٍ عَلَى سِرِّ الْكِيمِيَاءِ

الكيمياء معروفة الاسم، باطلة المعنى، وليعقوب الكندي رسالة بديعة سماها "إبطال دعوى المدَّعين صنعة الذهب والفضة"، جعلها مقالتين يذكر فيهما^(٢) تعذُّر فعل الناس لما انفردت الطبيعة بفعله، وخدع أهل هذه الصناعة وجهلهم.

ويقال: إن أبا بكر الرازي رد عليه ردّاً لا طائل فيه. وأعرف^(٣) لأبي عثمان الجاحظ في كتاب "الحيوان" عند ذكر خلق الفأر من الطين كلاماً في الكيمياء بعد فيه وقرب، ولم يخرج على شيء من إبطالها ولا تحقيقها، والصحيح الأشهر عدم الصحة فيها. ولذا ذكرها هنا عقيب صناعة النجوم مناسبة لأقوال الناس فيهما.

[جابر بن حيان]

وأما جابر بن حيان المذكور فلا أعرف له ترجمةً صحيحة في كتاب يعتمد على نقله^(٤)، وهذا دليل على قول أكثر الناس: إنه اسم موضوع، وضعه المصنّفون في هذا الفن،

(١) ساقط من م.

(٢) ت، م: "فيها".

(٣) ط، م: "ورأيت".

(٤) د، ط: "عليه".

ويزعمون^(١) أنه كان في زمن جعفر الصادق عليه السلام، وأنه إذا قال في كتبه: "قال لي سيدي"، و"سمعت من سيدي"، فإنه يعني به جعفرًا الصادق عليه السلام؛ ومع ذلك فإن الله تعالى أعلم بحقيقتها^(٢).

٥٩- وَأَعْطَيْتَ النَّظَامَ أَضْلًا أَدْرَكَ بِهِ الْحَقَائِقَ

[النَّظَامَ]

هو إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصريّ، المعروف بالنظام، ويكنى أبا إسحاق. شيخ من كبار المعتزلة وأئمتهم، متقدّم في العلوم، شديد الغوص على المعاني، وإنما أدّاه إلى المذاهب التي استبشعت منه تدقيقه وغوصه^(٣)؛ فإنه كان قد اطلع على كثير من كتب الفلاسفة، ومال في كلامه إلى الطبيعيين منهم والإلهيين، فاستنبط من كلامهم رسائل ومسايل، وخلطها بكلام المعتزلة، وانفرد بها عنهم؛ مثل قوله: إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي؛ خلافاً لأصحابه؛ لأنهم قضوا بأنه قادر عليها، لكنه لا يفعلها. ومثل قوله: إنّ الجوهر مؤلّف من أعراض اجتمعت.

وقوله: إنّ الله تعالى خلق الموجودات دفعةً واحدةً على ما هي عليه الآن، معادن ونباتاً، وحيواناً، وإنساناً، ولم يتقدم خلق آدم على خلق أولاده، غير أن الله تعالى أكمّن بعضها في بعض؛ وهذا قول أهل الكون من الفلاسفة.

وقوله في القرآن: إنّ في قوى البشر أن تأتي بمثله، إلا أن الله تعالى صرف أذهانهم عن ذلك.

إلى غير ذلك من مسائله المذكورة في كتب^(٤) الأصوليين.

ومراد ابن زيدون بالحقائق، غير ذلك من مسائله الحسنة المعجبة، فإنّها كثيرة، وإنّا عدّت سقطات النظام لكثرة إصابته.

وكان من صغره يتوقد ذكاء، ويتدفق فصاحة؛ حكي أن أباه جاء به وهو صغير إلى الخليل بن أحمد ليعلمه، فقال له الخليل يمتحنه، وفي يده قدح زجاج: يا بنيّ، صف لي هذه الزجاجاة، قال: أبمدح أم بدم؟ قال: بمدح، قال: تريك القذى، ولا تقبل الأذى، ولا تستر ما ورا؛ قال: فذمّها، قال: يسرع إليها الكسر، ولا تقبل الجبر.

(١) د، ط، م: "وزعموا".

(٢) ترجم لجابر بن حيان ابن النديم، والقفطي في أخبار الحكماء؛ وانظر أيضاً الأعلام ٢: ٩٠، ٩١.

(٣) ط، م: "وتغلغله".

(٤) ت: "كتاب".

قال: فصف لي هذه النخلة -وأوماً إلى نخلة في داره- قال: بمدح، أم دم قال: بمدح^(١)، قال: حُلُّ جناها، بأسقُ منتهاها، ناضرٌ أعلاها. قال: فذمها، قال: صعبة المرتقى، بعيدة المجتبى، مخوفة بالأذى؛ فقال الخليل: يا بني، نحن إلى التعلم منك أحوج. ثم اشتغل على أبي الهذيل العلاف بمذهب الكلام إلى أن برع، وظهر في أيام المعتصم، وتبعه خلق كثير، وكان أصل مذهبهم أنه من زعم أن الله تعالى شيء فهو كافر. ثم ناظر شيخه أبا الهذيل، وظهر عليه مراراً، وقيل له: أتناظر أبا الهذيل! قال: نعم، وأطرح له رُخاً من عقلي^(٢).

وحكى الجاحظ عنه -وكان من أكبر تلامذته وأصحابه- قال: دخل أبو إسحاق النظام على أبي الهذيل -وقد أسن، وبعد عهده بالمناظرة، وأبو إسحاق حديث السن- فقال: يا أبا الهذيل، أخبرني عن فراركم أن يكون جوهرًا مخافة أن يكون جسمًا، فهلا فررتم من أن يكون جوهرًا مخافة أن يكون عرضًا، والجوهر أضعف من العرض! فبصق أبو الهذيل في وجهه، فقال أبو إسحاق: قبّحك الله من شيخ! فما^(٣) أضعف حجّتك!

وحكى عنه، قال: مات لصالح بن عبد القدوس ولد، فمضى إليه أبو الهذيل والنظام معه، وهو غلام حدث كالتبع له، فراه محترقاً، فقال أبو الهذيل: لا أعرف لجزعك وجهًا، إذا كان الناس عندك كالزراع! فقال صالح: يا أبا الهذيل، إنما أجزع عليه، لأنه لم يقرأ كتاب "الشكوك"، فقال أبو الهذيل: وما كتاب الشكوك؟ قال: كتاب وضعته، من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان. فقال له النظام: فشك أنت في موت ابنك، واعمل على أنه لم يمت وإن مات، وشك أيضاً في أنه قد قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه! فحصر صالح.

وكان مذهبه مذهب السوفسطائية، فإنهم يزعمون أن الأشياء لا حقيقة لها، وأن ما يستبعده^(٤) الإنسان يجوز أن يكون على ما يُشاهده، ويجوز أن يكون على غير ما يُشاهده، وإن حال اليقظان كحال النائم.

وحكى الجاحظ، قال: تجاذبت يوماً وإياه حديث الطيرة، فقال: أخبرك، أي جعت حتى أكلت الطين، وما صرت إلى ذلك حتى قلبت قلبي؛ أتذكر هل ثم رجل أصيب عنده غداء أو

(١) ت: "قال: بمدح؟ قال: نعم".

(٢) حاشية ت: "قوله: وأطرح له رُخاً من عقلي تشبيه، كما يفعل الماهر في لعب الشطرنج بطرحه رُخاً أو فرزاً، أو فرساً لمناظرة؛ لسعة ميدانه".

(٣) د: "ما أضعف".

(٤) كذا في ت، وفي ط، د: "يستبعده".

عشاء! فما قدرت عليه - وكان عليّ جبة وقميص - فبعت القميص، ثم قصدت الأهواز وما أعرف بها أحداً، وما كان ذلك ناشئاً إلا عن الحيرة والضجر، فوافيت الفرصة فلم أصب^(١) بها سفينة، فتطيرت من ذلك. ثم إني رأيت سفينة في صدرها خرق وهشم فتطيرت أيضاً، فقلت للملاح: تحملني؟ قال: نعم، قلت: ما اسمك؟ قال: "داوداذ" بالفارسية - وهو اسم الشيطان - فتطيرت وركبت معه، فلما قربت من الفرصة صحت: يا حمّال - ومعني لحاف سَمَل، ومضربة خَلَق، وبعض ما لا بدّ لمثلي^(٢) منه - فكان أول حمّال أجنبي أعور، فقلت لبقار كان واقفاً: بكم تكرّري ثورك هذا إلى الخان؟ فلما أدناه مني إذا هو أعصب^(٣)، فزاد دات طيرةً إلى طيرة، وقلت في نفسي: الرجوع أسلم، ثم ذكرت حاجتي إلى أكل الطين، وقلت: ومن لي بالموت! فلما صرت إلى الخان وأنا حائر ما أصنع، إذ سمعت قرع باب البيت الذي أنا فيه، فقلت: مَنْ هذا؟ فقال: رجل يريدك، فقلت: مَنْ أنا؟ فقال: إبراهيم بن سيار النظام، فقلت: هذا عدو ورسول سلطان! ثم إني تحاملت وفتحت له الباب. فقال: أرسلني إليك إبراهيم بن عبدالعزيز، ويقول لك: إن كنا اختلفنا في المقالة، فإننا نرجع بعد ذلك إلى حقوق الأخلاق والحرية، وقد رأيتك حيث مررت بي على حال كرهتها، وينبغي أن تكون نزعْتَ بك حاجة، فإن شئت فأقم بمكانك مدة شهر أو شهرين، فعسى نبعث إليك ببعض ما يكفيك^(٤) زماناً من دهرك؛ وإن اشتهيت الرجوع؛ فهذه ثلاثون ديناراً فخذها وانصرف، وأنت أحق من غدر.

قال: فورد عليّ أمرٌ أذهلني، أما واحدة؛ فإنني لم أكن ملكت قبل في جميع دهري ثلاثين ديناراً، والثانية أنه لم يُطلّ مقامي وغيبتي عن أهلي، والثالثة ما تبين لي من الطيرة أنها باطل. وتوفي النظام سنة إحدى وعشرين ومائتين، وله من العمر ست وثلاثون سنة. وله كلام حسن، وشعر رقيق.

ومن كلامه: العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه لك البعض على خطر.

وقال: كنا نلهو بالأمانى، ونعد أنفسنا بالمواعيد، فذهب مَنْ كان ينجز، ثم اشتغلنا بالهموم عن الأمانى^(٥).

(١) ط، د: "أجد".

(٢) ت: "لي"، وهي ساقطة من م.

(٣) الأعصب: مكسور القرن؛ وكانوا مما يتطيرون به.

(٤) ت: "بما يكفيك".

(٥) ط، م: "الآمال".

وقال: مما يدلّ على لؤم الذهب والفضة صيرورتها عند اللئام، فالشيء يصير إلى شبهه، والجنسية علة الضم.

وقال: إذا كان في جيرانك جنازة، وليس في بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة، فإن المصيبة عندك أكثر منها عند القوم، وبيتك أولى بالمأتم.

وقال أبو العيناء: أنشدت النظام:

إذا همَّ النَّدِيمُ له بلحظٍ تمشّت في مفاصله الكلومُ
فقال: ما ينبغي أن ينادم هذا إلا أعمى، ثم نظم المعنى في شعره^(١).

ومن شعره:

ذكرْتُك والراحُ في راحتي فبُتُّ المُدام بدمعٍ غزيرِ
فإن يُنفِدِ الدمعَ فرطُ الأسي بكَّتْكَ الحشا بدموعِ الضميرِ
ومن أيضاً:

يا تاركي جسدًا بغير فؤادٍ أسرفت في الهجران والإبعادِ
إن كان يمنعك الزيارة أعينُ فادخل إليّ بعلّة العُـوَادِ
إنّ العيون على القلوب إذا جنتُ كانت بليّتها على الأجسادِ
ومنه:

أريدُ الفراقَ وأشتأفُكم كأنّا أفترفنا ولمْ نفتَرِقْ
وأستغنمُ الوصلَ كي أشتفي وهل يشفني أبداً مَنْ عَشِقْ!
ومنه:

يروغُ مُناجيه بهاروت لفظه ويؤنسُه منه بصورة آدمِ
ترى فيه لاماً فردة فوق وردة وفصاً من الياقوت من فوق خاتمِ
ومنه:

وشادنٍ ينطقُ بالظرفِ يقصُرُ عنه مُتَهَي الوصفِ
رقّ فلو بَزَّت سرايله علّقه الجوَّ من اللّطفِ
يجرّهُ اللَّحْظ بتكراره ويشكي الإيماء بالظرفِ
أفديه من مغري بما ساءني كأنّه يعلم ما أخفي

(١) ط: "نظر إلى المعنى".

وقيل له وهو في مرضه، وفي يديه قَدَحٌ من زُجاج^(١) مملوء من بعض الأدوية: ما هذا؟ فقال: أصبحتُ في دارِ بليّاتٍ، أدفع^(٢) آفاتٍ بآفاتٍ.

٦٠ - وَجَعَلْتُ لِلْكَنْدِيِّ رَسْماً اسْتَخْرَجَ بِهِ الدَّقَائِقَ

[الْكَنْدِيّ]

الْكَنْدِيّ، هو يعقوب بن إسحاق بن الصَّبَّاح؛ المسمّى في وقته فيلسوف الإسلام، من ولد الأشعث بن قيس، كان أبوه ابن الصباح من وُلاة الأعمال بالكوفة وغيرها، في أيام المهدي والرشد، وانتقل يعقوب إلى بغداد، واشتغل بعلم الأدب، ثم بعلوم الفلسفة جميعها فأَتَقْنَهَا^(٣)، وحلَّ مشكلات كتب الأوائل، وحذا حذو أرسطاطاليس، وصنّف الكتب الجليلة الجمّة، وكثرت فوائده وتلامذته، وكانت دولة المعتصم تتجمل به وبمصنفاته؛ وهي كثيرة جداً؛ ومن أجودها: كتاب أقسام العقل الإنسيّ، وكتاب الجوامع الفكرية، وكتاب الفلسفة الأولى.

وله أخبار حسنة، ونوادر في البخل وغيره، فمن أخباره ما حكى أنه كان حاضراً عند أحمد بن المعتصم، وقد دخل أبو تمام، فأنشده قصيدته السَّيْنِيَّةَ، فلما بلغ إلى قوله:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْنَفَ فِي ذِكَاةِ إِيَّاسٍ^(٤)
قال الكنديّ: ما صنعتَ شيئاً! قال: كيف؟ قال: ما زِدْتُ على أن نَبَّهْتُ ابنَ أمير المؤمنين بصعاليك العرب! وأيضاً إنَّ شعراءَ دهرنا تجاوزوا بالممدوح مَنْ كان قبله، ألا ترى إلى قول العكوك في أبي دُلْفٍ، حيث قال:

رَجُلٌ أَبْرَ عَلَى شَجَاعَةِ عَامِرٍ بَأْساً وَغَبْرَ فِي مُحْيَا حَاتِمٍ
فأطرق أبو تمام، ثم أنشد:

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُوداً فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

ولم يكن هذا في القصيدة، فتعجّب منه [ومن بديهته]^(٥)، ثم طلب أن تكون الجائزة ولاية عمل، فاستصغر عن ذلك، فقال الكنديّ: ولّوه، فإنه قصير العمر، لأن ذهنه ينحُت من

(١) ت: "قدح دواء".

(٢) ت: "دفع".

(٣) ت، د: "فأثبتها".

(٤) ديوانه ٢: ٢٤٩.

(٥) من ت.

قلبه؛ فكان كما قال، ولعلَّ الكندي رأى من سجيّة أبي تمام في ذلك الوقت ما يدلّ على قرب أجله.

وسمع الكندي إنساناً يُنشد، ويقول:

وفي أربع مني حَلَّتْ منك أربعٌ فما أنا أدري أيّها هاج لي كُرْبِي
خيالك في عيني، أم الذُّكْر في فَمِي أم النُّطق في سَمْعِي، أم الحبّ في قلبي
فقال: والله لقد قَسَمَها تقسيماً فلسفياً.

وقال يوماً لجارية كان يهواها: إني أرى فرط الاعتياضات، من المتوقّعات، على طالبي المودّات، مؤذّنات بعدم المعقولات؛ فنظرت إليه - وكان ذا حية طويلة - فقالت: إن اللّحي المسترخيات، على صدور أهل الرّكاقات، محتاجات إلى المواسي الحالقات.

ومن نوادره وكلامه في البخل، كان يقول: من شرف البخل أنك تقول للسائل: لا، ورأسك إلى فوق، ومن ذلّ العطاء أنك تقول: نعم، ورأسك^(١) إلى أسفل.

وكان يقول: سماع الغناء برسام^(٢) حادّ؛ لأنّ الإنسان يسمع فيطرب، فينفق فيسرف، فيقتصر فيغتم، فيعتلّ فيموت.

وقال عمر بن ميمون: تغدّيت يوماً عند الكنديّ، فدخل جار له، فدعوته إلى الطعام، فقال الرجل: والله تغدّيت، فقال الكنديّ: ما بعد الله شيء! فكتفه كتاباً لو نشط ليأكل معه لكان كافراً.

ومن وصيّته لولده: يا بنيّ، كن مع الناس كلاعب الشّطرنج تحفظ شيئاً وتأخذ من شيئتهم، فإن مالك إذا خرج عن يدك لم يعدّ^(٣) إليك؛ واعلم أن الدينار محمول، فإذا صرفته مات. واعلم أنه ليس شيء أسرع من فناء الدينار إذا كُسر، والقرطاس إذا نُشِر؛ ومثل الدرهم كمثل الطّير الذي هو لك ما دام في يدك، فإذا طار عنك صار لغيرك. وقال المتلمّس:

قَلِيلُ الْمَالِ تَصْلِحُهُ فَيَقَى وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ^(٤)

لحفظ المال خيرٌ من نفاذٍ وسيرٌ في البلادٍ بغير زادٍ

وأعرف هنا بيتاً بيّت أكثر من مائة ألف في المساجد. وهو قول القائل:

فسر في بلاد الله وَاَلْتَمَسَ الْغِنَى تَعَشَّ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتَ فَتَعْذَرَا

فأحذر يا بنيّ أن تلحق بهم.

(١) ط: "وأنت رأسك".

(٢) البرسام: علة يهذي فيها المريض.

(٣) د: "ما يعود".

(٤) الشعر والشعراء ١٣٦.

ومن كلامه في الفلسفة: علوم الفلسفة ثلاثة: فأولها العلم الرياضي في التعليم، وهو أوسطها في الطَّبع، والثاني علم الطبيعيات وهو أسفلها في الطبع، والثالث علم الربوبية، وهو أعلاها في الطبع؛ وإنما كانت العلوم ثلاثة لأن المعلومات ثلاثة: إما علم ما يقع عليه الحس وهو ذوات الهَيُولَى، وإما علم ما ليس لذي الهَيُولَى، إما أن يكون لا يتصل بالهَيُولَى البتة، وإما أن يكون قد يتصل بها، فأما ذات الهَيُولَى فهي المحسوسات وعلمها، وهو العلم الطبيعي، وإما أن يتصل بالهَيُولَى فإن له انفراداً بذاته، كعلم الرياضيات التي هي العدد، والهندسة، والتنجيم، والتأليف، وإما لا يتصل بالهَيُولَى البتة، وهو علم الربوبية.

ومن شعره في وصف قصيدة:

تَقْصُرُ عَنْ مَدَاهَا الرِّيحُ جَرِيًّا وَتَعْجِزُ عَنْ مَوَاقِعِهَا السَّهَامُ
تَنَاهَبَ حَسَنَهَا حَادٍ وَشَادٍ فَحُتَّ بِهِ الْمَطَايَا وَالْمَدَامُ
ومنه له:

أَنَافَ الدُّنَابَى عَلَى الْأُرُوسِ فَعَمَّضَ جُفُونَكَ أَوْ نَكَّسِ
وَعِنْدَ مَلِيكَكَ فَأَبَغَ الْعُلُوَّ وَبِالْوَحْدَةِ الْيَوْمَ فَاسْتَأْنِسِ
فَإِنَّ الْغَنَى فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ وَإِنَّ التَّعَزُّزَ بِالْأَنْفُسِ
وَكَائِنَ تَرَى مِنْ أَخِي عُشْرَةَ غَنِيٍّ وَذِي ثَرْوَةٍ مُفْلِسِ
وَكَمْ كَاتِمٍ شَخْصَهُ مَيِّتٍ عَلَى أَنَّهُ بَعْدَ لَمْ يُرْمَسِ
وَسَمِعَ رَجُلًا يُشَدُّ قَوْلَ رَبِيعَةِ الرَّقِيِّ:

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ يَا بَنَ مُحَمَّدٍ قُلْ "لَا" وَأَنْتَ مَخْلَدٌ مَا قَالَهَا
فَقَالَ: لَيْسَ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ فِي كُلِّ شَيْءٍ "نَعَمْ"، وَكَانَ الْوَجْهَ أَنْ يُسْتَشْنَى، ثُمَّ

قال:

هَجَرْتُ فِي الْقَوْلِ "لَا" إِلَّا لِعَارِضَةٍ تَكُونُ أَوْلَى بِـ"لَا" فِي اللَّفْظِ مِنْ نَعَمٍ

٦١- وَأَنَّ صِنَاعَةَ الْأَلْحَانِ اخْتِرَاعُكَ، وَتَأْلِيفَ الْأَوْتَارِ وَالْإِنْقَارِ تَوْلِيدُكَ وَابْتِدَاعُكَ

الألحان: الأصوات ذوات النغم والإيقاع المؤلف على أعداد هندسية. وزعم قوم أن الألحان هي موضوعة على أعاريض؛ وليس كذلك. وكان إسحاق الموصلي - وهو خاتم القوم - يقول^(١): هذا قول من لم يدْرِ هذه الصناعة.

(١) كذا في ت، د، وفي ط، م: "فقال إسحاق الموصلي وهو خاتم القوم".

واختلف فيمن وضعها، فقليل: بطليموس. وقيل: غيره. والصحيح أنها قديمة موجودة في تعاليم الفلاسفة الأولى، وإنما الأشهر^(١) أن بطليموس أول من أفرد لها كتاب "اللعون الثمانية"، ولها ألقاب [مختلفة]^(٢)، وأوضاع معروفة.

وكان بطليموس يقول: الألحان أشرف المنطق؛ ولذلك ترتاح إليها النفوس أكثر من كل نطق، وأشرف النفوس ما كان إليها أكثر ارتياحاً.

وقال غيره: النغم فصلٌ بقي من المنطق، لم يقدر اللسان على استخراجه^(٣) فاستخرجته الطبيعة بالألحان؛ على التجميع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس، وحنّ إليه القلب. وقال أفلاطون: مَنْ حزن فليسمع الأصوات المطربة؛ فإنّ النفس إذا حزنت خمد نورها، فإذا سمعت ما يُطربها، اشتعل^(٤) منها ما خمد.

وسئل أبو سليمان المنطقيّ: لِمَ صارت الطبيعة محتاجة إلى الصناعة في أن الشخص يكون بغيض المنظر والقرب، فإذا غنى بالحن مطربة عشق قربه، وأقبل الظرف عليه؟ فقال: إن الطبيعة إنما احتاجت إلى الصناعة في هذا المكان لأن الصناعة هاهنا تستملي من النفس والعقل، وتُملي على الطبيعة، وقد صحّ أن الطبيعة مرتبتها دون مرتبة النفس، وإنما تعشق النفس وتقبل آثارها، وتكتب بإملائها. وللموسيقى حاصل للنفس موجود فيها على نوع لطيف؛ فالموسيقار إذا صادف طبيعةً قابلة، ومادةً منقادّة، أفرغ عليها بتأييد العقل والنفس لبوساً شريفاً، وأعطاهما صورة معشوقة؛ فمن هاهنا احتاجت الطبيعة إلى الصناعة؛ [لأنها وصلت إلى كمالها من ناحية النفس الناطقة، بواسطة الصناعة]^(٥) الحاذقة، التي من شأنها استملاء ما ليس لها، وإملاء ما يحصل فيها مستكملاً؛ إستكملاً بما تأخذ لما تعطي.

فأما الأوتار والأنقار فإشارة إلى الآلات المطربة الملهية من العيدان والدّفّة وما أشبه ذلك.

ويقال: إن أول من اتخذ العود لَمَك بن مَتُو شلح، على مثال فخذ ابنه الميت، وهو قولٌ منكّر^(٦).

(١) ط: "والأشهر".

(٢) من ت.

(٣) كذا في ت م، وفي ط: "إخراجه".

(٤) ت م: "مَنْ يُطربها".

(٥) تكملة من ت.

(٦) ط: "ضعيف".

وقيل: بطليموس. وقيل: بعض حكماء الفرس، وسماه البربط، وتفسيره باب النجاة؛ ومعناه أنه مأخوذ من صرير باب الجنة، وقد جُعِلَتْ أوتاره أربعة بإزاء الطبائع؛ فالزَّير بإزاء المِرَّة السوداء، والمثني بإزاء الدم، والمثلث بإزاء البلغم، والبم بإزاء المِرَّة الصفراء. فإذا اعتدلت^(١) أوتاره المرتبة^(٢) على ما يجب جانست الطبائع، فأتتجت الطرب، وهو رجوع النفس إلى الحالة الطبيعية دفعةً واحدة.

وأول من اتَّخذ الدَّفَقَةَ لوبابن لَمَك، واتَّخذت العرب القصب والتوقيع عليها، واتَّخذت الفرس الصُّنُوج وأشباهها؛ وكلُّ ذلك موضوع على نَقَرَات معدودة، ووقفات بينها. وأوَّل من غنَّى من العرب على العود بألحان الفرس النَّضْر بن الحارث بن كَلْدَة، وفَد على كسرى بالحيرة، فعلم ضرب العود والغناء، وقَدِم مَكَّة، فعلم أهلها. وأوَّل من غنَّى في الإسلام بألحان الفرس سعيد بن مسجح، وقيل: طويس؛ وذلك أنَّ عبدالله بن الزبير لما وهى بناء الكعبة رفعها، وجدَّد بناءها، وكان فيها صَنَاع من الفرس يغنون بألحانهم، فوقع عليها ابن مسجح الغناء العربي، ثم دخل إلى الشام، فأخذ الألحان عن الروم، ثم دخل إلى فارس، فأخذ الغناء وضرب العود، واتَّبعه من بعده؛ وبدى هذا العلم ببطليموس، وختم بإسحاق بن إبراهيم الموصلي.

٦٢ - وَأَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنَ يَحْيَى بَارِي أَقْلَامِكَ

[عبد الحميد الكاتب]

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامري الكاتب البليغ المقدم^(٣)، يقال: إنه كان في أول أمره معلِّم صبيان بالكوفة، ثم اتصل بمروان بن الجعدي^(٤) قبل أن يصل إلى الخلافة، وصحبه وأنقطع إليه، فلما جاء مروان الخبر بالخلافة^(٥) سجد وسجد أصحابه إلا عبد الحميد، فقال له مروان: لِمَ لا سجدت! فقال: وَلِمَ أسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا! يعني بالخلافة، فقال: إذا تطير معي؛ قال: الآن طاب السجود، وسجد. وكان كاتب مروان طول خلافته.

وهو أول من اتَّخذ التحميدات في فصول الكتب، وأستعمل في بعض كتبه الإيجاز البليغ، وفي بعضها الإسهاب المفرط، على ما اقتضاه الحال.

(١) ط: "أحكمت".

(٢) ط: "المركبة".

(٣) ط: "البالغ إلى أعلى المراتب في الكتابة البليغة".

(٤) في ابن خلكان: "مروان بن محمد بن الحكم الأمدي آخر ملوك بني أمية المعروف بالجعدي".

(٥) ط: "فلما جاء الأمر بالخلافة". د: "فلما جاء الخبر بالخلافة".

فمن الإيجاز أن بعض عمال مروان أهدى إليه عبداً أسود، فأمره بالإجابة دائماً مختصراً، فكتب: لو وجدت لوناً شراً من السّواد، وعدداً أقل من الواحد، لأهديته.

وأما الإسهاب، فإنه لما ظهر أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس، كتب إليه عن مروان كتاباً يستميله ويضمّنه ما لو قرىء لأوقع الخلاف بين أصحاب أبي مسلم؛ وكان من كبر حجمه يُحمّل على جمل، ثم قال لمروان: قد كتبتُ كتاباً متى قرأه بطل تدبيره، فإن يك ذلك؛ وإلا فالهلاك.

فلما ورد الكتابُ على أبي مسلم لم يقرأه، وأمر بنارٍ فأحرقه، وكتب على جريدة^(١) منه إلى مروان:

محا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانتَحَى عليك ليوثُ الغابِ من كُلِّ جانبٍ ولما اشتد الطلب على مروان، وتتابعت هزائمه المشهورة، قال لعبد الحميد: القوم محتاجون إليك لأدبك، وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حُسنِ الظن بك، فاستأمن إليهم، وأظهر الغدر بي، فلعلك تنفعني في حياتي أو بعد مماتي! فقال عبد الحميد:

أسرو فاء ثم أظهر غُدرةً فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهراً! ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين إليك، وأقبحهما بي؛ ولكنني أصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك، فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد، فغمز عليه بالجزيرة عند ابن المقفع - وكان صديقه - وفاجأهما الطلب وهما في بيت، فقال الذين دخلوا [البيت]^(٢): أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما: أنا، خوفاً على صاحبه؛ إلى أن عرّف عبد الحميد فأخذ، وسلّمه السّفاح إلى عبد الجبار صاحب شُرطته، فكان يُحمي له طَسْتاً؛ ويضعه على رأسه، إلى أن مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

وكان أبو جعفر المنصور يقول: غلبنا بنو أمية بثلاثة أشياء: بالحجاج، وعبد الحميد، والمؤذن البعلبكي.

وقيل لعبد الحميد: ما الذي مكّنك من البلاغة؟ قال: حفظ كلام الأصلع - يعني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -.

قيل له: أيما أحب إليك، أخوك أم صديقك؟ قال: إنما أحب أخي إذا كان صديقي.

وقال: أكرموا الكتّاب فإن الله تعالى أجرى الأرزاق على أيديهم.

وقال: العلم شجرة، وثمارها الألفاظ.

(١) د، ط: "جزاة".

(٢) من ت.

وكان إبراهيم بن جبلة يكتب خطاً رديئاً، فقال عبد الحميد: أَطْلَ جَلْفَةً^(١) قلمك وأسمّنها، وحرّف قَطْنَكَ وأيَمِنَها، يصلح خَطُّكَ. وإلى هذا أشار ابنُ زيدون بقوله: "وعبد الحميد باري أقلامك".

ومن رسائله ما كتب عن مروان إلى هشام يعزيه بامرأة من حظاياها: إن الله تعالى أمتّع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته متاعاً مده إلى أجل مسمّى، فلما تمت له مواهبُ الله وعاريتُه، قبض إليه العارية، ثم أعطى أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها، والصبر عند ذهابها أنفَسَ منها في المنقلب، وأرجح في الميزان، وأسنى في العوض. فالحمد لله رب العالمين، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

وكتب موصياً بشخص، يقول: حقّ موصل كتابي إليك كحقّه عليّ، إذ جعلك موضعاً لأمله، ورآني أهلاً لحاجته، وقد أنجزتُ حاجته، فصدّق أمله. وكتب يعرّض بشعار بني العباس الأسود من رسالة: "فرويداً حتى ينضب السيل، وتُمحى آية الليل"^(٢).

وكتب في فتنة بعض العمال من رسالة:

حتى اعتراني حنادس جهالة، ومهاوي سُبل ضلالة، ذللاً لسياقه، وسلماً في قياده، إلى نُزُلٍ من حميم، وتصلية جحيم، سوى ما أنتجت الحفيظة في نفسه من عوائد الحسك^(٣)، وقدحت الفتنة في قلبه من نار الغضب؛ مضادةً لله تعالى بالمناسبة، ومبارزةً لأمر المؤمنين بالمحاربة، ومجاهدة للمسلمين بالمخالفة؛ إلى أن أصبح بفلاة قفر، وتيه صفر، بعيدة المناط، يُقطع دونها التّياط، وكذلك يفعل الله بالظالمين، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون^(٤).

وكتب من رسالة أخرى إلى أهله، وهو منهزم مع مروان:

أما بعد، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكُرْه^(٥)، والسرور، فمن ساعده الحظّ فيها سكّن إليها، ومن عَصَّته بنابها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها، وقد كانت أذاقتنا

(١) الجلفة: القشرة.

(٢) أوردها محمد كرد علي في أمراء البيان ١: ٥٧، قال: ومن رسالة كتب بها عن مروان لفرق العرب حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد، قائمين بالدولة العباسية: "فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية، من يد الفئة الأعجمية، واثبتوا ريثماً تنجلي هذه الغمرة، ونصحو من هذه السكر، فسينضب السيل، وتُمحى آية الليل، والله مع الصابرين، والعافية للمتقين".

(٣) الحفيظة: الغضب، والحسك: الحقد والعداوة. وعوائد: رواجع.

(٤) هذه الرسالة لم ترد في ت.

(٥) "المكروه".

أفاويق^(١) أَسْتَحْلِينَاهَا، ثُمَّ جَمَحْتَ بِنَا نَافِرَةً، وَرَمَحْتَنَا^(٢) مَوَلِيَّةً، فَمَلَحَ عَذْبُهَا، وَخَشَنَ لِينُهَا، فَأَبْعَدْتَنَا عَنْ الْأَوْطَانِ، وَفَرَقْتَنَا عَنِ الْإِخْوَانِ، فَالِدَارُ نَازِحَةٌ، وَالطَّيْرُ بَارِحَةٌ^(٣). وَقَدْ كَتَبْتُ وَالْأَيَّامُ تَزِيدُنَا مِنْكُمْ بُعْدًا، وَإِلَيْكُمْ وَجْدًا، فَإِنْ تَتِمَّ الْبَلِيَّةُ إِلَى أَقْصَى مَدَّتْهَا يَكُنْ آخِرُ الْعَهْدِ بِكُمْ وَبِنَا، وَإِنْ يَلْحَقْنَا ظُفْرُ جَارِحٍ مِنْ أَظْفَارِ مَنْ يَلِيكُمْ^(٤)، نَرْجِعْ إِلَيْكُمْ بِذَلِّ الْإِسَارِ، وَالذَّلُّ شَرُّ جَارٍ. نَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي يَعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، أَنْ يَهَبَ لَنَا وَلَكُمْ أَلْفَةً جَامِعَةً، فِي دَارِ أَمْنَةٍ، تَجْمَعُ سَلَامَةُ الْأَبْدَانِ وَالْأَدْيَانِ، فَإِنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وَمِنْ كَلَامِ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَصِيَّتُهُ الْمَشْهُورَةُ عِنْدَ الْكُتَّابِ.

وَمِنْ شِعْرِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

تَرْحَلُ مَا لَيْسَ بِالْقَافِلِ	وَأَعْقِبُ مَا لَيْسَ بِالزَّائِلِ
فَلَهْفِي لِذِي خَلْفٍ قَادِمٍ	وَلَهْفِي عَلَى سَلْفٍ رَاحِلٍ!
سَأَبْكِي عَلَى ذَا وَأَبْكِي لَذَا	بِكَاءِ مَوْلَاهُ تَاكِـلِ
فَتَبْكِي مِنْ ابْنٍ لَهَا قَاطِعٍ	وَتَبْكِي عَلَى ابْنٍ لَهَا وَاصِلِ

وَمِنْهُ أَيْضًا:

كَفَى حَزَنًا أَنِّي أَرَى مَنْ أَحْبَبُهُ	قَرِيبًا وَلَا غَيْرَ الْعَيُونَ تَتَرَجَّمُ
فَأَقْسَمُ لَوْ أَبْصَرْتَنَا حِينَ نَلْتَقِي	وَنَحْنُ سَكُوتٌ خِلْتَنَا نَتَكَلَّمُ

٦٣- وَسَهْلُ بْنُ هَارُونَ مُدَوِّنُ كَلَامِكَ

[سَهْلُ بْنُ هَارُونَ]

هُوَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ بْنِ رَاهِبُونَ^(٥)، وَيُكْنَى أَبَا عَمْرٍو، مِنْ أَهْلِ نَيْسَابُورَ. نَزَلَ الْبَصْرَةَ فَنَسِبَ إِلَيْهَا، وَيُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ شُعُوبِيًّا، وَالشُّعُوبِيَّةُ فِرْقَةٌ تَبْغِضُ الْعَرَبَ وَتَتَعَصَّبُ عَلَيْهَا الْفَرَسَ. وَانْفَرَدَ سَهْلٌ فِي زَمَانِهِ بِالْبَلَاغَةِ وَالْحِكْمَةِ، وَصَنَّفَ الْكُتُبَ [الْحُسْنَةَ]^(٦)، مُعَارِضًا بِهَا كُتُبَ الْأَوَائِلِ، حَتَّى قِيلَ لَهُ: بُزِرَ جُوهَرُ الْإِسْلَامِ، وَلَهُ الْيَدُ الطُّوْلَى فِي النِّظْمِ وَالنَّثْرِ.

(١) الأفاويق: ما اجتمع في السحاب من ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعة.

(٢) رمحنا: رفستنا.

(٣) البارح من الطير: ما مر من ميامنك إلى مياسرك؛ وهو مما يتشاءم منه.

(٤) ت: "مَنْ يَلِيكُمْ".

(٥) ت: "راهبون".

(٦) من ت.

وكان في أول أمره خصيصاً بالفَضْل بن سَهْل، ثم قدمه إلى المأمون فأعجب ببلاغته وعقله، وجعله كاتباً على خزانة الحكمة، وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قُبرص؛ وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة، أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد أبداً، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوي الرأي، واستشارهم في حمل الخزانة إلى المأمون، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطراناً واحداً، فإنه قال: الرأي أن تعجل بإنفاذها إليه؛ فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها. وأوقعت بين علمائها. فأرسلها إليه، واغتنب بها المأمون [وأمر العلماء بتعريبها]، وجعل سهل بن هارون خازناً لها، فتصفّحها ونسج على منوال كتب منها. وصنف كتاب "عفراء وثعلة" في معارضة كتاب "كليلة ودمنة"، [وكتاب "سيرة المأمون"، وغير ذلك].

وصنّف كتاباً في مدح البخل، ثم أهداه للحسن بن سهل واستماحه، فكتب إليه الحسن: قد مدحت ما ذمّه الله، وحسنت ما قبحه الله، وما يقوم بفساد معنك صلاح لفظك؛ وقد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك، فما نعطيك شيئاً.

وكان سهل من أبخل الناس، وله في البخل وغيره نواذر حسنة؛ حكى الجاحظ قال: لقي رجل سهل بن هارون، فقال: هب لي ما لا ضرر به عليك، فقال: وما هو يا أخي؟ قال: درهم، قال: لقد هونتَ الدرهم، وهو طائع الله في أرضه [الذي] ^(١) لا يعصي، وهو عُشر العشرة، والعشرة عُشر المائة، والمائة عُشر الألف، والألف عُشر دية المسلم؛ ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هونتَه! وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم! فأنصرف الرجل، ولولا أنصرافه لم يسكت.

وحكى دِعل الخزاعي، قال: أقمنا يوماً عند سهل بن هارون، وأطلعنا الحديث حتى أضر به الجوع، فدعا بغدائه، فأتي بصحفة فيها مَرَق، تحته ديك هَرَم، فأخذ كسرى وتفقد ما في الصّحفة، فلم يجد رأس الديك، فبقي مطرقاً، ثم قال للغلام: أين الرأس؟ قال: رميتُ به، قال: ولم؟ قال: لم أظنك تأكله، قال: ولم ظننت ذلك؟ فوالله إني لأمقت من يُرمى برجله، فكيف برأسه! والرأس رئيس يُتفادى به، وفيه الحواس الخمس، ومنه يصيح الديك، ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقة الذي يُتبرك به، وعينه التي يُضرب بصفائها المثل، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم أر عظماً قط أهش من رأسه؛ فإن كان بلغ من قبلك ألا تأكله، فعندنا من يأكله. أما

علمت أنه خيرٌ من طرف الجناح والساق! انظر أين رميته؟ فقال: والله ما أدري، قال: لكني أدري أنك رميته في بطنك.

وحكى الجاحظ، أن أبا الهذيل العلاف المتكلم سأله رُقعة يكتب بها إلى الحسن بن سهل، يستعينه على ضائقة لحقته، فكتب رُقعة وختمها، ودفعها إليه، فأوصلها إلى الحسن، فلما رآها ضحك، وأوقف عليها أبا الهذيل، وإذا فيها مكتوب:

إنّ الضمير إذا سألتك حاجةً لأبي الهذيل خلاف ما أبدي
فأمنحه روح اليأس ثم أمدد له حبْل الرجاء المخلف الوعد
حتى إذا طالت شقاوة جده وعنايته فأجبهه بالرد
وإن استطعت له المضرة فاجتهد فيما يضرّ بأبلغ الجهد
وانظر كلامي فيه فأزم به خلف الثريا منك في البعد^(١)
وكذاك فافعل غير محتشم إن جئت أشفع في أبي هند
ثم قال الحسن: هذه صفته لا صفتنا؛ وأمر لأبي الهذيل بهال، فعاد إليه وعاتبه؛ فقال سهل: ترى أين عزب عنك الفهم! أما سمعت قولي: "إن الضمير خلاف ما أبدي"! فلو لم يكن ضميري الخير ما قلت هذا.

وهذه من مغالطات سهل وبلاغته، وستأتي في ترجمة الجاحظ حكاية مثل هذه. ومن محاسن تعريضات سهل، أنه خاطب بعض الأمراء، فقال له: كذبت! فقال: أيها الأمير، إن وجه الكذاب لا يقابلك -يعني الأمير بذلك؛ لأن وجه الإنسان لا يقابله-؟ ويروى أن المأمون كان قد انحرف عن سهل إلى أن دخل عليه يوماً فقال: يا أمير المؤمنين، إنك ظلمتني، وظلمت فلاناً الكاتب، فقال: وبُلك! وكيف؟ قال: رفعته فوق قدره، ووضعني دون قدري، إلا أنك له في ذلك أشد ظملاً، قال: كيف؟ قال: لأنك أقمته مقام هُزء، وأقمته مقام رحمة. فضحك المأمون، وقال: قاتلك الله! ما أهجأك! ورضي عنه. وقد رويت هذه الحكاية لغيره.

وحكي عن سبب رضا المأمون عنه أنه تكلم بكلام حسن في محفل، فقام سهل، وقال: ما لكم تسمعون ولا تعون ولا تعجبون! أما والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير مثل ما قالت وفعلت بنو مروان في الدهر الطويل؛ فأعجب المأمون قوله ورضي عنه. ومن كلامه يعزّي: التهنته على آجل الثواب، أولى من التعزية على عاجل المصاب^(٢).

(١) هذا البيت وتاليه لم يذكر في ط.

(٢) ط: "المصيبة".

وقال في المعنى: مصيبة في غيرك لك ثوابها، خيرٌ من مصيبة فيك لغيرك ثوابها.
وقال: حقٌّ على كل ذي مقالة أن يبدأ بحمد الله قبل أستفتاحها، كما بُدِء بالنعمة قبل أستحقاقها.

وكتب إلى صديق له أبلّ من ضَعَف: بلغني خبر الفترة^(١) في إمامها وأنحسارها، والشكاة في حلوها وأرتحالها، فكاد يشغل القلق بأوله عن السكون لآخره، وتذهل الحيرة في ابتدائه عن المسرة في انتهائه، وكان تغيري في الحالين بقدرهما، ارتياحاً للأولى وارتياحاً للآخرى.
وكتب لآخر: أما بعد، فالسلام على عهدك، وداع ذي ودّ ضنين بك في غير مقلية لك^(٢)، ولا سلوة عنك، بل استسلام للبلوى في أمرك، وإقرار بالعجز عن استعطافك إلى أوان فيئتك، أو يجعل الله لنا دولة من رجعتك^(٣).

وقال يفصل الزجاج على الذهب، من رسالة: الزجاج مجلّو نوريّ، والذهب متاعٌ سائر، والشراب في الزجاج أحسن منه في كل معدن، ولا يُفقد معه وجه النديم، ولا يثقل في اليد^(٤)، ولا يرتفع في السوم^(٥)؛ واسم الذهب يُتطير منه؛ ومن لؤمه سرعته إلى اللثام، وهو فاتن فاتك^(٦) لمن صانه، وهو أيضاً من مصايد إبليس، ولذلك قالوا: أهلك الرجال الأحرار^(٧).
والزجاج لا يحمل الوزر^(٨) ولا يتداخله الغمر، ومتى غسل بالماء وحده عاد جديداً؛ وهو أشبه شيء بالماء، وصفته عجيبة، وصناعته أعجب...

من رسالة طويلة. وكان سبب قوله لها أن شدّاداً الحارثي كان قد وصف الذهب فأطنب، وكان النظام قد ذمّ الزجاج، وقال: تعلّموا العلم فلائن بدمّ الزمان لكم خير من أن يذمّ بكم.
قال يوماً: ثلاثة من المجانين: الغضبّان، والغيران، والسكران، فقال شخص من العوام: فما تقول في المنعظ؟ فضحك حتى استلقى وأنشد قول:

وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو بصاحبك الذي لا تصحينا^(٩)

(١) الفترة: الضعف.

(٢) مقلية: كراهية.

(٣) ط: "رمقك"، أي نظرك.

(٤) ط: "ولا يثقل اليد".

(٥) السوم في المبايعة: المساومة.

(٦) انظر جهرة الرسائل ٣: ٤٧٢.

(٧) في اللسان: "أهلك النساء الأحرار" أي الذهب والزعفران، أي أهلكتهنّ الحلى والطيب.

(٨) الوزر: وسخ الدسم.

(٩) لعمر بن كلثوم، من معلقته ص.... بشرح التبريزي.

ومن كلامه في كتاب "عفرة وثعلة": اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم؛ فإن تقديم النافلة مع الإبطاء في أداء الفريضة شاهد على وهن العقيدة وتقصير الروية، ومضر بالتدبير، ومخل بالاختيار، وليس في نفع تحمد به عوض من فساد المروءة، ولزوم النقيصة.

ومن شعره قوله:

إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ أَوْ أَسَأْتُ فَفِي عَفْوِكَ مَأْوَى لِلْفَضْلِ وَالْمَنْ
أَتَيْتُ مَا أَسْتَحِقُّ مِنْ خَطِيئَةٍ فَجُدْ بَمَا تَسْتَحِقُّ مِنْ حَسَنٍ
ومنه:

أَعَانَ طَرْفِي عَلَى جِسْمِي وَأَعْضَائِي بِنَظَرَةٍ وَقَفْتُ جِسْمِي عَلَى دَائِي
وَكُنْتُ غَرّاً بِمَا تَجْنِي عَلَيَّ يَدِي لَا عِلْمَ لِي أَنَّ بَعْضِي بَعْضُ أَعْدَائِي
وقوله:

هَدَى لَا يَسْتَرِيحُ وَلَا يَرِيحُ وَقَلْبٌ مِنْ جَوَائِحِهِ مَرِيحٌ^(١)
فَإِنْ يَكُ سَرَّ قَلْباً أَعْجَبِيّاً فَإِنَّ الدَّمْعَ لَمَاءٌ فَضُوحُ
سَأْجَمَحُ فِي الْهَوَى وَالْحَّ فِيهِ وَلَيْسَ أَخُو الْهَوَى إِلَّا الْجَمُوحُ
عَلَى أَنْ الْهَوَى لَمْ يُبْقِ مَنِّي سَوَى كَبِدٍ عَلَى بَدَنِ يُنُوحُ
وقوله يهجو رجلاً:

مَنْ كَانَ يَعْمرُ مَا شَادَتْ أَوَائِلُهُ فَأَنْتَ تَهْدِمُ مَا شَادُوا وَمَا سَمَكُوا
مَا كَانَ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْبَى فَعَالَهُمْ وَأَنْتَ تَحْوِي مِنَ الْمِيرَاثِ مَا تَرَكُوا
وقوله:

تَكَنَّفَنِي هَمَّانٌ قَدْ كَسَفَا بِالِي تَرْكََا قَلْبِي مُحَلَّةً بَلْبَالِي
هُمَا أَجْرِيَا دَمْعِي وَلَمْ تَدْرِ أَدْمَعِي رَبِيبَةُ خَذَرٍ ذَاتِ سَمَطٍ وَخَلْخَالِ
وَلَكَّمَا أَبْكِي بَعِينَ سَخِينَةٍ عَلَى خَلَلٍ تَبْكِي لَهُ عَيْنُ امْتَالِي
فَرَأَى خَلِيلٌ فَقَدَهُ يُورِثُ الْأَسَى وَخَلَّةٌ حُرٌّ لَا يَقُومُ لَهَا بِالِي
فَوَاحِرْبَا حَتَّى مَتَى أَنَا مَوْجَعٌ بِفَقْدِ حَيِّبٍ أَوْ تَعَذَّرَ أَفْعَالِ^(٢)!

(١) هذه الأبيات لم ترد في ط.

(٢) بعده في أمراء البيان ١: ١٦٤.

وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ تَطُولَ بَنَائِلُ وَإِلَّا لِقَاءُ الْأَخِ بِالْخُلُقِ الْعَالِي

وقوله:

إِذَا امْرُؤٌ ضَاقَ عَنِّي لَمْ يَضِقْ خُلُقِي مِنْ أَنْ يَرَانِي غَنِيًّا عَنْهُ بِالْيَاسِ
لَا أَطْلُبُ الْمَالَ كَيْ أَغْنَى بِفَضْلَتِهِ مَا كَانَ مَطْلَبُهُ فَقَرًّا إِلَى النَّاسِ

٦٤- وَعَمْرُو بْنُ بَحْرٍ مُسْتَمْلِكٌ

[الجاحظ]

هو عمرو بن بحر بن محبوب؛ ويكنى بأبي عثمان، ويُعرف بالجاحظ، وبالحدقي^(١)، والأول أشهر. إمام الفصحاء والمتكلمين؛ الذي ملأت الآفاق أخباره وفوائده، حتى قيل: مما فضل الله تعالى به أمة محمد ﷺ على غيرها من الأمم: عمر بن الخطاب بسياسته، والحسن البصري بعلمه، والجاحظ ببيانه.

وُلِدَ بالبصرة، ونشأ ببغداد، واشتغل على أبي إسحاق النظمي المقدم ذكره بمذهب الاعتزال، وتأمل كتب الفلاسفة، ومال إلى الطبيعيين منهم، وساد على المتكلمين بفصاحته، وحُسن عبارته.

ومما تفرّد به القول بأن المعرفة طبائع^(٢)، وهي مع ذلك فعل العباد على الحقيقة. وكان يقول في سائر الأفعال: إنها إنما تنسب إلى العباد على أنها وقعت منهم طباعاً، وأنها وجبت بإرادتهم، وليس بجائز أن يبلغ أحدٌ ولا يعرف الله تعالى. والكفار عنده بين معاندٍ وبين عارفٍ قد استغرقه حبه لمذهبه وعصبيته، فهو لا يشعر بما عنده من المعرفة بخلافه.

إلى غير ذلك من آرائه التي تبّعها عليها أصحابه المعروفون بالجاحظية. فأما مصنّفاته الأدبية، مثل كتاب: البيان والتبيين، وكتاب "الحيوان" وكتاب "الأمصار"، وغيرها من الرسائل، فكثيرة جداً، مشحونة بأنواع الفضائل.

وكان منقطعاً إلى الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات [منحرفاً عن ابن أبي داود]^(٣). ولما قبض عليه وعوقب في التنور، هرب الجاحظ، فقبل له: لم هربت؟ قال: خفت أن أكون ثاني إثنين إذ هما في التنور - يريد بذلك ما صنعوا بابن الزيات، من إدخاله تنوراً فيه مسامير محمّة، كان هو صنعه ليعذب الناس فيه، فعُذّب به حتى مات - ثم أتى بالجاحظ بعد موت ابن الزيات،

(١) الحدقي: منسوب إلى حدقة العين.

(٢) ت: "طبائع".

(٣) من ت.

وفي عُنفه سلسلة، وهو مقيد في قميص سمل، فلما نظر إليه ابن أبي داود قال: والله ما علمتك إلا كفوراً للنعمة، معدناً للمساوىء... في كلام يقرّعه به؛ فقال الجاحظ: خَفَضَ عليك أيدك الله! فوالله لأن يكون لك الأمر عليّ خيرٌ من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء فتُحسِنَ أحسنُ في الأحدوثة عنك من أن أحسن فتسيء، ولأن تعفو عني في حال قدرتك، أجملُ بك من الانتقام مني. فقال ابن أبي داود: قَبَحَكَ الله! فوالله ما علمتك إلا كثير تزويق اللسان؛ يا غلام، سربه إلى الحمام، فأدخل الحمام، وحُلَّ إليه تحتُّ من ثياب فاخرة، ولبس ذلك، وأتاه فصدّره في مجلسه، ثم أقبل عليه فقال: هاتِ الآن أحاديثك يا أبا عثمان!

ولم يزل عزيز الجانب، موفور المال والجاه، من مبتدأ أمره إلى أن مات سنة خمس وخمسين ومائتين، وبعد أن بلغ أكثر من تسعين سنة.

وله أخبار ظريفة كثيرة، ونثر طائل، ونظم ضعيف. فمن أخباره ونوادره، قال: أتيتُ منزل صديق لي، فطرقت الباب، فخرجتُ إليّ جارية سِنْدِيَّة، فقلت: قولي لسيدك: الجاحظ بالباب، فقالت: أقول: "الجاحد بالباب"؟ على لغتها، فقلت: لا، قولي: الحَدَقِيّ، فقالت: أقول: "الحَلَقِيّ"؟ فقلت: لا تقولي شيئاً، ورجعت.

وقال: ما أخجلني أحدٌ مثل امرأتين، رأيتُ إحداهما في العسكر^(١) وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام، فأردتُ أن أمارحها فقلت: انزلي كلي معنا، فقالت: إصعد أنت حتى ترى الدنيا. وأما الأخرى فإنها أتنّني وأنا على باب داري، فقالت: لي إليك حاجة، وأريد أن تمشيّ معي، فقمْتُ معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهوديّ، فقالت له: مثل هذا، وانصرفت! فسألتُ الصائغ عن قولها فقال: إنها أتت إليّ بفصّ، وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان، فقلت: يا سَتِي، ما رأيتُ الشيطان! فأتت بك، [وقالت: ما سمعت]^(٢).

وكان الجاحظ بشع المنظر، إلا أن بيانه كان يجليّ عنه. وقل: دخلتُ ديوان المكاتبات ببغداد، فرأيتُ قوماً قد صقلوا ثيابهم، وصفّوا عمائمهم، وسوّوا طرّهم^(٣)، ثم اختبرتهم فوجدتهم كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ [الرعد: ١٧]، ظواهر نظيفة، وبواطن سخيفة: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقال: وقفت يوماً على قاصّ، فأردتُ الولع به، فقلت لمن حوله: إنه رجل صالح لا يجب الشهرة، ففرقوا عنه، فنظر إليّ وقال: حسبك الله!

(١) العسكر: إسم مكان في سامراء كان مصيفاً للخلفاء العباسيين.

(٢) من ط.

(٣) ط: "ووشوا طرّوزهم".

وقال: قلت يوماً لعبيد الكلابي: أيسرك أن تكون هجيناً ولك ألف دينار؟ قال: لا أحب اللؤم بشيء، قلت: فإن أمير المؤمنين ابن أمة، قال: أخزى الله من أطاعه: قلت: نبيا الله: محمد وإسماعيل كانا ابني أمة، قال: لا يقول هذا إلا قَدَرِي، قلت: وما القَدَرِي؟ قال: لا أدري إلا أنه رجل سوء.

وقال: أتاني بعض الثقلاء، فقال: سمعتُ أن لك ألف جواب مُسَكَّت، فعلمني منها، فقلت: [إنها لا تُتَعَلَّم، فإن الجواب على قدر الكلام، فقال: على كل حال^(١)] فقلت: نعم، فقال: إذا قال لي شخص: يا زوج القَحْبة، يا ثَقِيل، أَيْش^(٢) أقول له؟ قلت: قل له: صدقت. وقال: أنشدتُ أبا شعيب القَلَّال شعراً لأبي نواس، وهو:

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَذْلَجُوا بِهَا أَثَرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارُسُ
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزَّقَانِ عَلَى الثَّرَى وَأَضْغَاثُ رِيحَانٍ: جَنِيٌّ وَيَابِسُ^(٣)
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ وَإِنِّي عَلَى أَثَالٍ تِلْكَ لِحَابِسُ
وَلَمْ أَذْرِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ بِشَرْقِيِّ سَابَاطِ الدِيَارِ الْبَسَابِسُ^(٤)
أَقْمَنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالثًا وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرَحُّلِ خَامِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجَدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارُتُهَا كَسَرَى وَفِي جَنَابَتِهَا مَهًا تَدْرِيهَا بِالْقَسِيِّ الْفَوَارِسُ^(٥)
فَلِلْخَمْرِ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جِيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ^(٦)
فقال: لا أعرف شعراً يفضل عليه، ثم قال: هذا شعر لو نقرته لَطَنُ^(٧)، فقال: ويلك! ما تفارق الجرار والخزف حيث كنت!

وأشترى خَصِيًّا أَسْوَدَ، فقيل له في ذلك، فقال: أَخَذْتُهُ أَسْوَدَ لئلا يُتَّهَمَ بي، وَخَصِيًّا لئلا أُتَّهَمَ بِهِ.

وَأَجْتَمَعَ فِي الْبَصْرَةِ بِالْجَمَّازِ فِي مَجْلَسٍ، فقال له الْجَمَّازُ: كم ناراً في اللغة؟ فقال: نارُ الحب، ونارُ الشجر، ونارُ الحبَّاحِبِ، ونارُ المَعْدَةِ، والنارُ المَعْرُوفَةُ؛ قال: تَرَكْتُ أَبْلَغَ النَّيْرَانِ، قال: وما هي: قال: نارُ حِرَامِكَ، التي كلما ألقى فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا. فقال الجاحظ: أما نارُ حِرَامِي،

(١) من ت.

(٢) ط: "أي شيء".

(٣) ديوانه ٢٩٥، أمالي المرتضى ١: ١٩٨، الكامل - بشرح المصنف ٧: ٤.

(٤) البسابس: الخوالي.

(٥) تدريها: تختلها.

(٦) تكملة من ت.

(٧) ط: "هذا شعر لو نشر لطف"، وانظر أمالي المرتضى ١: ١٩١.

فقد قضيت أن لها خزاناً^(١)، فما الشأن في نار حر أمك التي يقال لها:
﴿هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]!

وسأله شخص كتاباً إلى بعض أصحابه بالوصية، فكتب له رُقعة وختمها، فلما خرج الرجل من عنده فضّها، فإذا فيها: كتابي إليك مع مَنْ لا أعرف ولا أوجب حقه، فإن قضيت حاجته لم أحمّدك، وإن رددته لم أذمّك.

فرجع إليه الرجل، فقال الجاحظ: كأنك فضضت الرقعة^(٢)! قال: نعم، قال: لا يضرك ما فيها؛ فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص، فقال الرجل: قطع الله يديك ورجليك، ولعنك، فقال: ما هذا! قال: علامة لي إذا أردت أن أشكر شخصاً.

وقال: نزلت على صديق لي فلم أكل عنده لحماً، فعرضت له فقال: إني لا أكثر من اللحم منذ سمعت الحديث: "إن الله يكره البيت اللحم". فقلت: يا أخي، إنما أراد البيت الذي تؤكل فيه لحوم الناس بالغيبة؛ فلم يؤخر حضور اللحم من ذلك اليوم.

وحكى أن أبا طاهر، قال: صرْتُ إلى الجاحظ ومعني جماعة، وقد أسنَّ واعتلَّ في آخر عمره، وهو في منظرٍ له، وعنده ابن خاقان جاره، فقرعنا الباب فلم يُفتح لنا، وأشرف من المنظر فقال: ألا إني قد حوّقت، وحملت رُميح أبي سعد، وسقت الغنم^(٣)، فما تصنعون بي؟ سلّموا سلام الوداع، فسلّمنا وأنصرفنا.

قوله: "حوّقت"، أكثرت من قولي: "لا حول ولا قوة إلا بالله"؛ لتتابع الأمراض، وقوله: "رميح أبي سعد" هو رَجُلٌ من العرب، أسنَّ فاستعان بالعصا، وهو أول مَنْ فعل ذلك، فقيل لكل مَنْ شاخ: "أخذ رُميح أبي سعد". وقوله: "سقت الغنم"، هو عند العرب كناية عن الهرم، لأنَّ سائق الغنم يطامن رأسه.

وكان سبب علّة الجاحظ أنه حضر مائدة ابن أبي داود، وفي الطعام سمك ولبن، وكان ابن بخيشوع الطبيب حاضراً، فنهاه عن الجمع بينهما، فقال الجاحظ: إن السمك إن كان مضاداً للبن، فإني إذا أكلتهما دفع كلّ منهما ضرر الآخر، وإن كانا متساويين فكأنني أكلت شيئاً واحداً. فقال ابن بخيشوع: أنا لا أحسن الكلام، ولكن إن شئت أن تجرب فكلّ، فأكل فأصابه فالج عظيم ونقرس حتى دخل عليه بعض أصحابه، فقال له: كيف حالك؟ فقال اصطلحت عليّ

(١) ط: "حداً".

(٢) ط: "الورقة".

(٣) ت: "العنز".

الأعلال، لو خرج شقيّ الأيمن^(١) ما أحسست به من الفالج، ولو مرت على شقيّ الأيسر^(٢) ذبابةٌ أوجعتني، وأشد ما أشكو التسعون!

وحكى بعض أبناء البرامكة، قال: تقلدت السُّند، وحصل لي ما شاء الله، ثم صُرفت عنها، وكنت قد اكتسبت^(٣) بها ثلاثين ألف دينار، فصعقتها عشرة آلاف إهليلجة، وجاء الصارف، فركبت البحر، وانحدرتُ إلى البصرة، فخبرتُ أن الجاحظ بها، وأنه عليل بالفالج، وأحببت أن أراه قبل وفاته، فصرتُ إليه فقرعت الباب، فخرجت إليّ خادمة صغرى^(٤)، فقلت: رجلٌ غريب أحب أن أنظر إلى الشيخ، فبلغته، فسمعتة يقول: قولي له: ما تصنع بشقٍّ مائل، ولعاب سائل، ولون حائل! فقلت للجارية: لا بد من النظر إليه، فقال: هذا رجل ورد البصرة، وسمع بي، ويريد أن يقول: رأيت الجاحظ. فأذن لي، فدخلت وسلمت، فرد رداً جميلاً، وقال: مَنْ تكون - أعزك الله؟ فانتسبتُ له، فقال: رحم الله أسلافك وآباءك السُّمحاء! فلقد كانت أيامهم رياض الدهر، ولقد رأى بهم الخلق خيراً كثيراً، فسقياً لهم ورعياً! فدعوتُ له، وقلت له: أنشدني شيئاً، فقال:

لئن قدّمت قبلي رجالاً فطالما مشيتُ على رِسلِي فكنْتُ المقدّما
ولكنّ هذا الدهر تأتي صروفه فتبرمُ منقوضاً وتنقُض مُبرماً

ثم نهضت، فلما قربت من الباب قال: يا فتى، رأيت مفلوجاً ينفعه الإهليلج؟ قلت: لا، قال: إنّ الإهليلج الذي معك ينفعني، فابعث إليّ منه. فقلت: نعم، وعجبت من وقوعه على خبري مع كتمي له، وبعثت له منه شيئاً.

ومن كلامه في رسالة:

أبقاك الله بقاء أياديك، ولا نقلنا عن ظلك، ولا أضلنا عن سُبُلك، فما صان وجه الأحرار سواك، ولا أخذ الملهوف مظلمته في دهرٍ إلا بعد وَاك.

وكتب إلى قليب المغربي:

والله يا قليب، لولا أن كبدي في هواك مقروحة، وروحي بك مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة، وما ددتك حبل المصارمة، وأرجو أن الله تعالى يديل صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي، وأنف القلي راغم؛ فقد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند الالتقاء!

(١): "الأيسر".

(٢): "الأيمن".

(٣): "كسبت".

(٤): ت: "جارية صفراء".

وكتب إلى ابن أبي داود يستعطفه:

ليس عندي - أعزك الله - سبب، ولا أقدر على شفيح إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل؛ الذي لا يكون إلا من نتاج حُسن الظن، وإثبات الفضل بحال المأمول، وأرجو أن أكون من العُنقاء الشاكرين، فتكون خير معتب^(١)، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله أن يجعل هذا الأمر سبباً لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سبباً للإنقطاع إليكم، والكون تحت أجنحتكم، فيكون: لا أعظم بركة، ولا أنمي بقيّة من ذنب أصبحت فيه، وبمثلك - جعلت فداك - عاد الذنب وسيلة، والسيئة حسنة، ومثلك من انقلب به الشرُّ خيراً، والغرم غنماً. من عاقب فقد أخذ حظه، وإنما الأجر في الآخرة، وطيب الذكر في الدنيا على قدر الاحتمال وتجرع المرائر، وأرجو ألا أضيع وأهلك فيما بين عقلك وكرمك، وما أكثر من يعفو عمن صغر ذنبه، وعظم حقه! وإنما الفضل والثناء والعفو عن عظيم الجرم، ضعيف الحرمة، وإن كان العفو العظيم مستطرفاً من غيركم، فهو تلاذد فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أنتم عن ذلك تتكلمون^(٢) ولا على سالف إحسانكم تندمون، وما مثلكم إلا كمل عيسى ابن مريم حين كان لا يمر بملاً من بني إسرائيل إلا أسمعوه شراً، وأسمعهم خيراً، فقال له شمعون الصفا: ما رأيت كالיום؛ كلما أسمعوك شراً أسمعتهم خيراً! فقال: كل امرئ ينفق مما عنده، وليس عندكم إلا الخير، ولا في أوعيتكم إلا الرحمة، وكل إناء بالذي فيه ينضح. ومن كلامه في المعنى:

زيّنك الله بالتقوى، وكفاك ما أهّمك من الآخرة والأولى، من عاقب - أبقاك الله تعالى - على الصغيرة عقوبة الكبيرة وعلى الهفوة عقوبة الإصرار، فقد تناهى في الظلم. ومن لم يفرّق بين الأسافل والأعالي، والأداني والأقاصي فقد قصر، والله لقد كنت أكره سرف الرضا مخافة أن يؤدّي إلى سرف الهوى، فما ظنك بسرف الغيظ، وغلبة الغضب، من طباش، عجول فحاش، ومعه من الخرق بقدر قسطه من التهاب المرّة الحمراء! وأنت روح كما أنت جسم، وكذلك جنسك ونوعك، ألا إن التأثير في الرقاق أسرع، وضده في الغلاظ الجفاة أكمل، ولذلك اشتدّ جزعي عليك من سلطان الغيظ وغلبته، فإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابل عليه فانظر في علته، وفي سبب إخراجها، إلى معدنه الذي منه نجم، وعُشه الذي منه درج؛ وإلى جهة صاحبه في التسرع والثبات، وإلى حلمه عند التعريض، وفطنته عند التوبة، فكل ذنب كان سببه ضيق صدر من جهة القبض في المقادير، أو من طريق الأنفة، وغلبة طباع الحميّة من

(١) أعتبه: أراضاه.

(٢) ت: "تتكلمون".

جهة الجفوة أو من جهة استحقاقه فيما زين له عمله أنه مقصّر به في حقه، مؤخر عن رتبته، أو كان مبلّغاً عنه، مكذوباً عليه، أو كان ذلك جائزاً فيه، غير ممتنع منه.

فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل فليس يقف عليها كريم، ولا ينظر فيها حليم، ولستُ أسميه بكثرة معروفة كريماً؛ حتى يكون عقله غامراً لعلمه، وعلمه غالباً على طباعه، كما لا أسميه بكفّ العقاب حكيماً؛ حتى يكون عارفاً بمقدار ما أخذ وترك. ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغض المحض، والتنفار الغالب، فلو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قعر جهنم، لعذر كثر من العقلاء، وصوب رأيك عالم من الأشراف؛ والأناة أقرب من الحمد، وأبعد من الذم، وأناى من خوف العجلة؛ وقد قال الأول: عليك بالأناة، فإنك على إيقاع ما تتوقعه أقدر منك على ردّ ما قد أوقعته. وليس يصارع الغضب أيام شبابه شيء إلا صرعه، ولا ينازعه قبل انتهائه إلا قهره، وإنما يحتال له قبل هيجه، فمتى تمكن واستفحل، وأذكى ناره وأشعل، ثم لاقى من صاحبه قدرة، ومن أعوانه سمعاً وطاعة، فلو استبطنته بالتوراة، وأوجرتة^(١) بالإنجيل، ولدّته^(٢) بالزبور، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغاً، وأتيته بآدم شفيعاً؛ لما قصّر دون أقصى قوّته، ولن يسكن غضبُ العبد إلا ذكره غضب الرب.

فلا تقف - حفظك الله - بعد مضيتك في عتابي التماساً للعفو عني، ولا تقصّر عن إفراطك من طريق الرحمة بي، ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله، والشيطان على دينه، ويعلم أن للكرام أعداء، ويُمسك إمساك من لا يُبرىء نفسه من الهوى، ولا يبرىء الهوى من الخطأ، ولا تنكر لنفسك أن تزل، ولعقلك أن يهفو، فقد زلّ آدم ~~عليه السلام~~ وقد خلقه بيده. ولستُ أسألك إلا ريثما تسكن نفسك، ويرتد إليك ذهنك، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحداث، والله يعلم - وكفى به عليماً - لقد أردت أن أفديك بنفسي في مكاتباتي، وكنت عند نفسي في عداد الموتى، وفي حيّز الهلكى، فرأيت أن من الخيانة لك، ومن اللؤم في معاملتك؛ أن أفديك بنفسى ميتة، وأن أريك أنني قد جعلت لك أنفس ذُخر، والذُّخر معدوم، وأنا أقول كما قال أخو ثقيف: مودة الأخ التالذ وإن أخلق، خير من مودة الأخ الطارف وإن ظهرت مساعيه، وراقت حدّته؛ سلّمك الله وسلم عليك، وكان لك ومعك.

ومن فصوله القصار، قال:

البخل والجبن غريزة واحدة، يجمعهما سوء الظن بالله تعالى.

(١) وجرته الدواء، وأوجرتة إياه؛ جعلته في فيه.

(٢) اللدود، كصبور وكريم: ما يصب بالمسعط من الدواء في إحدى شقي الفم.

وقال:

مَنْ قَابِلِ الْإِسَاءَةِ بِالْإِحْسَانِ فَقَدْ خَالَفَ الرَّبَّ فِي تَدْبِيرِهِ، وَظَنَّ أَنَّ رَحْمَتَهُ فَوْقَ رَحْمَةِ اللَّهِ
جَلَّ ثَنَاؤُهُ؛ وَالنَّاسُ لَا يَصْلَحُونَ إِلَّا عَلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

وقال من رسالة:

مِنْ الْعَدْلِ الْمَحْضِ أَنْ تَحْطَّ عَنِ الْحَاسِدِ نَصْفَ عِقَابِهِ؛ لِأَنَّ أَلَمَ حَسَدِهِ لَكَ قَدْ كَفَاكَ شَرَّ
مَثُونَةٍ^(١) غِيْظُهُ عَلَيْكَ.

وقال: لما مُسِخَ الْإِنْسَانُ قَرْدًا أَنْزَلَ فِيهِ مِثْلَهُ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَلَمَّا مُسِخَ زَمَانُنَا لَمْ يَنْزَلْ فِيهِ
مِثْلُهُ مِنَ الْأَزْمَانِ.

ومن شعره يقول:

يَطِيبُ الْعَيْشُ أَنْ تَلْقَى حَكِيمًا غَذَاهُ الْعِلْمُ وَالْفَهْمُ الْمُصِيبُ
فِيكْشِفُ عَنْكَ حَيْرَةً كُلَّ جَهْلٍ وَفَضْلُ الْعِلْمِ يَعْرِفُهُ اللَّيْبُ
سَقَامَ الْحِرْصِ لَيْسَ لَهُ شِفَاءٌ وَدَاءُ الْجَهْلِ لَيْسَ لَهُ طِبِّيبُ
ومنه:

إِنْ حَالَ لَوْنُ الرَّأْسِ عَنْ حَالِهِ ففِي خَضَابِ الْمَرْءِ مَسْتَمَعُ
هَبْ أَنْ مَنْ شَابَ لَهُ حِيلَةٌ فَمَا الَّذِي تُحْنَى لَهُ الْأَضْلَعُ
ومنه:

وَكَمْ كَانَ مِنْ أَصْدِقَاءٍ لَهُ وَأَعْدَا تَفَانَوْا فَمَا خَلَدُوا
تَسَاقَوْا جَمِيعًا كُتُوسَ الرَّدَى فَمَاتَ الصَّدِيقُ وَمَاتَ الْعَدُوُّ
وله من أبيات يمتدح بها:

بَدَا حِينَ أَثَرَى بِإِخْوَانِهِ يَفْلُلُ عَنْهُمْ شَبَابَةُ الْعَدَمِ^(٢)
وَذَكَرَهُ الْحَالُ صَرَفَ الزَّمَانِ فَبَادَرُ قَبْلِ انْتِقَالِ النَّعَمِ
فَتَى خَصَّصَهُ اللَّهُ بِالْمَكْرُمَاتِ فَمَا زَجَّ مِنْهُ الْحَيَا بِالْكَرَمِ
ومما أورد له الشريف المرتضى -والعُهدَةُ عليه، فإنَّ هَذَا الشَّعْرَ أَرْفَعُ طَبَقَةً مِنْ شَعْرِهِ،

يَذْكُرُ فِيهِ الْخَضَابُ:

رُبَّ فِتَاةٍ مِنْ بَنِي هَلَالٍ^(٣) قَدْ عَجَّلَتْ إِلَيَّ بِالسُّؤَالِ^(٤)

(١) ط: "مؤنة".

(٢) أمالي المرتضى ١: ١٩٧.

(٣) أمالي المرتضى ١: ١٩٧، وروايته: "زرت فتاة".

(٤) الأمالي:

مالي أراك قانئ السَّبالِ كَأَنَّمَا كَرَعْتَ فِي جِرْيَالٍ^(١)
 [ما يتغني مثلك من أمثالي]^(٢) تنح عن فكري وعن خيالي^(٣)
 ٦٥ - وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ مُسْتَفْتِيكَ

[مالك بن أنس]

هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر التميمي، وكنيته أبو عبد الله، إمام دار الهجرة. وُلد بالمدينة سنة سبع وتسعين، ويقال: إنه أقام في بطن أمه ثلاث سنين. وكان يقول: قد يكون الحمل ثلاث سنين، وقد حمل ببعض الناس ثلاث سنين - يعني نفسه.

وكان طويلاً شديد البياض، مائلاً إلى الشُّقرة، مهيباً، سوى اللباس والمجلس، وهو أول من صنّف في الفقه كتاباً، فوضع "الموطأ"، كذا قال العسكري في "الأوائل"، ولعله أراد: بالمدينة.

وكان مالك إذا أراد أن يحدث عن رسول الله ﷺ يغتسل ويتبخّر ويتطيّب^(٤)، فإذا رفع أحد صوته، قال له: "أخفض صوتك، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، فمن رفع صوته عند حديثه فكأنما رفعه عند صوته".

وقال زيد بن داود: رأيت في المنام كأن القبر انفرج، وإذا رسول الله ﷺ قاعد، والناس مصفوفون، فصاح صائح: أين مالك بن أنس؟ فجاء مالك حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فأعطاه شيئاً، فقال: قرّقه على الناس^(٥)، فإذا هو مسك.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: قال لي محمد بن الحسن: أيهما أعلم؟ صاحبنا أم صاحبكم؟ يعني أبا حنيفة ومالكاً رضي الله تعالى عنهما، فقلت: على الإنصاف؟ قال: نعم، فقلت: ناشدتك الله! من أعلم بالقرآن؟ قال: اللهم صاحبكم، قلت: فمن أعلم بالسنة؟ قال: اللهم صاحبكم،

(١) الكرع: أن يشرب الرجل بفيه من النهر. والجريان: صفوة الخمر. قال المرتضى: قوله: "كأنما كرعت في جريال" مليح قوي، ولا يشبه شعر الجاحظ للينه وضعف كلامه.

(٢) من الأمالي.

(٣) الأمالي:

* تنح قدامي ومن حيالي*

(٤) ت: "اغتسل وتبخّر وتطيّب".

(٥) ت: "قسّم هذا على الناس".

قلت: فمن أعلم بأقوال الصحابة؟ قال: اللهم صاحبكم، قلت: فلم يبق إلا القياس، والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، فعلى أي شيء يقيس؟ وقال وهب: سمعت منادياً ينادي: ألا لا يُفتى الناس إلى مالك بن أنس وابن أبي ذؤيب.

وقال محمد بن جعفر: لما دُعِيَ مالك وأشار وقبل منه، حسده الناس وبغوه بكل شيء، فلما ولي جعفر بن سليمان سَعَوْا به إليه، وقالوا: إنه لا يرى أيان بيعتكم هذه بشيء، وهو يأخذ بحديث رواه الأحنف في طلاق المكره؛ أنه لا يجوز، فدعا جعفر بمالك - وقد غضب - فاحتج عليه بما قيل عنه، ثم جرّده وضربه بالسياط، ومدت يده حتى خلعت يدها وكتفاه^(١)، فوالله ما زال مالك بعد ذلك في رفعة من الناس، وعلو من قدره، وإعظام من الناس له؛ حتى كأنها كانت تلك السياط التي ضُربَ بها خُلِيًّا حُلِيَّ به.

وقيل: إنما ضُربَ مالك لأنه سأل عن سيرة عبدالرحمن بن معاوية الأموي الداخل إلى الأندلس، والمتملك بجزيرته، فقيل له: إنه يأكل خبز الشعير، ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله... وعُدَّت مناقبه، فقال مالك: ليت أن الله زَيَّنَ حَرَمَنَا بمثله! فنقم عليه بنو العباس هذا القول، وبلغ عبدالرحمن، فسرّ بقوله: وجمع أهل الأندلس على مذهب مالك؛ فهذا سبب اجتماع المغاربة على مذهبه.

وتوفيَّ ﷺ سنة تسع وسبعين ومائة.

ومن أخباره ما حكى الشافعي ﷺ، قال: رأيتُ على باب مالك كُرَاعاً^(٢) من أفراس خراسان - ويقال مَصْر - قلماً رأيتُ مثله، فقلت لمالك: ما أحسنه! قال: هو هدية مني إليك، فقلت: يا أبا عبد الله، دَعْ لنفسك منها ما تركبُه، فقال: أنا أستحي من الله أن أطأ تربةً فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة.

ووجه الرشيد إلى مالك ﷺ ليأتيه فيحدثه، فقال مالك: إن العلم يؤتى؛ فصار الرشيد إلى منزله، واستند إلى الجدار، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، من إجلال رسول الله ﷺ إجلال العلم، فقام فجلس بين يديه، فحدثه، فبعث^(٣) الرشيد إلى سفيان بن عُيينة فأتاه سفيان، فقعد بين يديه فحدثه، فكان الرشيد يقول: يا مالك، تواضعنا لعلمك فأتتفعلننا به، وتواضع لنا علم سفيان فلم نتفعلن به.

(١) ت: "ومدت يدها حتى خلع كتفاه".

(٢) الكراع، يُطلق على جماعة الخيل.

(٣) ت: "وبعث".

وحكي أن أبا يوسف القاضي حضر مجلس مالك، فقال أبو يوسف من جملة كلام: الإنسان تارة يخطيء، وتارة يُصيب؛ فقال مالك: هكذا عرفنا مشايخنا، فضحك بعض الحاضرين، فلما خرجوا قال بعض أصحاب مالك: إن أبا يوسف قال كذا، ولعله متعمد، وأجبت كذا فخجل مالك، ودعا على أبي يوسف ألا ينتفع بعلمه، فكان كذلك مع جودة كتبه عند الحنفية.

وحكى ابن حمدون في تذكّره: أن حسن بن نعمان قال: كنت بالمدينة فخلا بي الطريق نصف النهار، فجعلتُ أتغنى في شعر ذي يزن، وأقول:

مَبَالُ قَوْمِكَ يَا رَبَّابُ خُزْرًا كَأَنَّهُمْ غُضَابُ

فإذا كُوءٌ قد فتحت، وإذا وجه قد بدا منها تتبعه حية حمراء، فقال: يا فاسق، أسأت التأدية، ومنعتُ القائلة، وأذعتُ الفاحشة! ثم أندفع فغنى الصوت غناءً لم أسمعُ بمثله، فقلت: أصلحك الله! من أين لك هذا الغناء؟ قال: نشأتُ وأنا غلام، فأعجبني الأخذ عن المغنين، فقلتُ أمي: يا بني، إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه، فدعُ الغناء وأطلب الفقه؛ فتركتُ المغنين، وتبعتُ الفقهاء، فبلغ الله أبي إلى ما ترى. فقلت: أعد الصوت، جعلتُ فذاك! فقال: لا ولا كرامة! تريد أن تقول: أخذته عن مالك بن أنس! وإذا به مالك رضي الله تعالى عنه.

ومن كلامه: إذا ترك العالم قول: "لا أدري" أصيبت مقاتله.

وقال: ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نورٌ يقذفه الله في القلب.

وسأله رجل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فقال:

الاستواء معقول، والكيف مجهول، وما أظنك إلا رجل سوء!

٦٦- وَأَنْكَ الذِي أَقَامَ الْبَرَاهِينَ، وَوَضَعَ الْقَوَانِينَ

البرهان في اللغة بيان الحجّة وظهورها، وهو مصدر بره يبره، إذا ابيضّ، وامرأة برهَاء وبرهْرهة: شابة بيضاء. وقال الراغب: البرهان أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة، وذلك أن الأدلة خمسة أضرب: دلالة تقتضي الصدق أبداً لا محالة، ودلالة تقتضي الكذب أبداً، ودلالة إلى الصدق أقرب، ودلالة إلى الكذب أقرب، ودلالة هي إليهما سواء^(١).

وقال بعض الحكماء: مبادئ البرهان خمس: الأوليات، والمشاهدات، والمتواترات، والمجريات، والحسّيات.

وقال آخر: البرهان حجة تنتج يقيناً، وينقسم إلى برهان أني وبرهان لمي، وأمثله معروفة.

وقد ذكرت أن أول من حرّر كتب المنطق أرسطاطاليس، وقد تقدم ذكره. والقوانين واحداها قانون، وهو لفظ رومي، ومعناه عند المنطقيين صورة كلية تتعرف منها أحكام جزئياتها المطابقة لها.

٦٧- وَحَدَّ الْمَاهِيَّةَ، وَبَيَّنَ الْكَيْفِيَّةَ وَالْكَمِّيَّةَ

ماهية الشيء، تصوّره في الفكر، ومعرفة ما هو؛ وأوجز حدوده في المنطق قولهم: ماهية الشيء ما يحصل في الذهن من صورة كلية مطابقة له بعد حذف الشخصيات عنه إن كان جزئياً، وهي أحد حدود العلم عند الحكماء، فإن العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام: علم ما، وعلم كيف، وعلم كم؛ فالعلم الذي يطلب منه ماهيات الأشياء هو العلم الإلهي، والذي يطلب منه كميّات الأشياء هو الطبيعي، والذي يطلب منه كمّيات الأشياء هو الرياضي، والكمية والكيفية النسبة إلى "كم" و"كيف".

وكم عبارة عن العدد، ومن النّحاة من يجعله اسماً ناقصاً مبنياً على السكون، والنسبة إليه الكمية بالتخفيف. ومنهم من يجعله اسماً تاماً فشدد آخره وصرفه، فقال: أكثر من الكم، والنسبة إليه الكمية بالتشديد، وهو عند المنطقيين قسم من أقسام العَرَض، وهو نوعان: منفصل ومتصل، فإن لم يكن بين أجزائه حدّ مشترك فهو الكم المتصل^(١) [وهو العدد]^(٢)، وإن كان بين أجزائه حدّ مشترك فهو الكم المنفصل، وهو إن كان قاراً بالذات فهو المقدار، وإن لم يكن قاراً بالذات فهو الزمان.

وكيف اسم مبهم غير متمكّن، وإنما حرّك آخره لالتقاء الساكنين، ويُني على الفتح دون الكسر لمكان الياء. قال الراغب^(٣): يُسأل به عما يصحّ أن يقال فيه: شبيه وغير شبيه، كالأسود والأبيض، والصحيح والسقيم، ولهذا لا يصحّ أن يُقال في الله عزّ وجلّ: كيف.

وقال بعض الحكماء: هو كل هيئة قارة في جسم لا تقتضي قسمة ولا نسبة، فقولنا: قارة. يخرج الزمان، وقسمة يخرج الكم، ونسبة تخرج المقولات في العَرَض، والله تعالى بكل شيء عليم.

(١) في ط: "المنفصل".

(٢) من ت.

(٣) مفردات الراغب: ٤٤٤.

٦٨- وَنَاظِرٌ فِي الْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ، وَمَيِّزَ الصَّحَّةِ مِنَ الْمَرَضِ

قال بعض الأدباء: الكلام في الجوهر والعرض على رأي الحكماء طويل غامض، وإنما أنقل نبذة من أقرب ما سمعت؛ فالجوهر هو الجسم، كالإنسان، والفرس والحجر ونحو ذلك. والعرض: الحال والوصف المتعاقب عليه، كالألوان؛ من بياض وسواد ومُهمرة، والحركات المختلفة من قيام وقعود واضطجاع وجميع ما عدا الجوهر، فاسم العرض واقع عليه، وإنما مثلنا الجوهر بالجسم دون غيره مما يقع عليه اسم الجوهر؛ لأن الذين أثبتوا جواهر ليست بأجسام كالعقل، والنفس والجزء الذي لا يتجزأ، ليس يمتنع أحد منهم أن يسمي الجسم جوهرًا، فصار الجسم هو الجوهر المتفق عليه.

وقال بعض الحكماء: الجوهر خمسة أنواع: المادة، والصورة، والجسم، والنفس، والعقل؛ ووجه الحصر أنه إن كان حالًا في محل فهو الصورة، وإن كان محلاً لحال فهو المادة، وإن كان مركبًا منهما فهو الجسم، وإن لم يكن كذلك فهو الجوهر المفارق؛ وهو إن تعلّق بالجسم بالتدبير فهو النفس، وإلا فهو العقل.

والعرض عند أكثرهم أحد وعشرون ضربًا، وعند بعضهم ثلاثة وعشرون: عشرة منها تختص بالأحياء. وهي: الحياة، والقدرة، والشهوة، والقوة، والإرادة، والكرامة، والاعتقاد، والظن، والنظر، والألم. وأحد عشر تكون للأحياء غير الأحياء، وهي: الكون؛ وتشتمل على أربعة أشياء: الحركة، والسكون، والاجتماع، والافتراق، والتأليف والاعتقاد كالثقل والخفة، والبرودة واليبوسة، والرطوبة، واللون والرائحة، والطعم. والإثنان اللذان زادهما بعضهم هما: البقاء والموت.

والصحة هي وجود الاعتدال الخاص^(١) بالإنسان وتُستعار لغيره. والمرض الخروج عن الاعتدال.

والتمييز الفصل بين الشئيين، والمعنى أنك الذي حرر صناعة الطب؛ وذكر الطبّ عقب الجوهر والعرض؛ لأن الجميع من العلوم العقلية، وقد يكون مراده التمييز بين صحة الأشياء ومرضاها، كالحقائق والشكوك، والفضائل والردائل، وإنما شُبّهت الشكوك والردائل بالمرض لكونها مانعة عن إدراك الفضل، كالمرض المانع للبدن عن إدراك التصرف الكامل؛ وعلى كلا الوجهين فالمراد أنك أنت الحكيم الذي نظر في هذه العلوم وأظهرها.

(١) ط: "الخالص"، وأثبت ما في ت.

٦٩- وَفَكَ الْمُعَمَّى

عَمِيَ الأمر؛ إذا أَلْتَبَسَ، وَعَمَّيْتُ معنى البيت من الشعر، إذا أَخْفَيْتَهُ، ومنه المعَمَّى اللغز، والمراد هاهنا حروف يصطلح عليها الكاتب مع نفسه، ويكتب بها، ويسمى الآن المترجم، ولها طرائق مذكورة تعين على استخراجها.

وأول مَنْ وضعها الخليل، واضع العروض. ولا بأس بإيراد نبذة من أخباره وفوائده، وكذلك أَفْعَلُ عند كل بيت أو لفظة تمثل^(١) بها ابن زيدون في هذه الرسالة [فما أحفظه من ألفاظ المتقدمين]^(٢) فإني أذكر قائلها، وشيئاً من نواته؛ إذ لا بد في ذلك من فائدة ونكتة، والكلام عليها أولى من الكف عنها.

[الخليل بن أحمد]

والخليل هو ابن أحمد بن عمر الفراهيدي الأزدي. ويكنى أبا عبد الرحمن. وُلِدَ بالبصرة سنة مائة، ونشأ بها، واشتغل بالعلوم وصنّف الكتب الكثيرة، مثل كتاب "العين" ولم يتمّه، وكتاب "النقط والشكل"، وكتاب "النغم"، وكتاب "الشواهد"، وأجودها "العروض"، وهو أول مَنْ وضعه، فجاء من عجائب المخترعات كالشطرنج وشبهه، ثم تبعه فيه الناس. واستخرج من بحر المتقارب بحرًا^(٣) مَخْبُون^(٤) الاجزاء ويسمى الخَبَب. ووصل الأمر إلى أبي نصر الجوهري فأوضحه - أعني العروض - واختصره أحسن اختصار. وأول ما خالفه فيه أن الخليل جعل الأحرف التي يُوزن بها الشعر ثمانية: إثنان خُماسيان: فعولن، وفاعلن، وستة سباعية: متفاعلن، فاعلاتن، مستفعِلن، مفاعيلن، مفاعِلتن، مفعولات؛ فنقص الجوهري منها جزء "مفعولات"، وأقام الدليل على أنه مقول في "مستفع لن" مفروق الود؛ لأن "مفعولات" مركب من سببين خفيفين، ووتد مفروق الود؛ وزعم أن "مفعولات" لو كان جزءاً صحيحاً لركب من مفردة بحر كما يركب من سائر الأجزاء، يريد أنه ليس في الأوزان وزن انفرد به "مفعولات"، ولا يكرر في قسم منه.

ثم استخرج المعَمَّى، وهو أيضاً أول مَنْ نظر فيه؛ وذلك أن بعض اليونان كتب بلغتهم كتاباً إلى الخليل، فخلا به شهراً حتى فهمه، فقيل له في ذلك، فقال: علمت أنه لا بد وأن يفتتح باسم الله تعالى، فبيّنت على ذلك، وقست، وجعلته أصلاً ففتحته، ثم وضعت كتاب المعَمَّى.

(١) ط: "يمثل"، وما أثبت من ت.

(٢) من ط.

(٣) في الأصول: "بحر".

(٤) الخين: حذف الحرف الثاني الساكن.

وكان الجاحظ يقول: ليس المعمي بشيء، قد كان كيسان مستملي أبي عبيدة، يسمع خلاف ما يُقال، ويكتب خلاف ما يسمع، ويقرأ خلاف ما يكتب؛ وكان أعلم الناس باستخراج المعمي. وكان النظام على قدرته على أصناف العلوم، لا يقدر على استخراج أخف ما يكون من المعمي.

وللجاحظ تحاملٌ على مصنفات الخليل، ليس هذا موضع ذكره.

ثم استخرج الخليل أيضاً اتفاق الحروف مع النجم، فقال: عدد الحروف العربية عدد منازل القمر، ثمانية وعشرون، وغاية ما بلغ الكلام إليه مع الزيادة سبعة على عدد النجوم السبعة، وصور الزوائد اثني عشر على عدد البروج، وأربعة عشر تدغم مع لام التعريف، مثل منازل القمر التي يسيرها تحت الأرض، وأربعة عشر فوقها.

ثم وضع في الشطرنج جملين في طرفي الرقعة لعب بها زماناً، ثم تركت. ثم أراد أن يخترع شيئاً في الحساب فقال: أريد أن أقرر نوعاً من الحساب، تمضي الجارية بدرهم إلى البياع فلا يمكنه ظلمها، فدخل المسجد وهو يعمل فكره في ذلك، فصدمة سارية وهو غافل عنها لفكره، فأنقلب على ظهره، فكان سبب موته.

ومات سنة ستين ومائة، وكان من العقلاء الزهاد.

وأجتمع هو وأبن المقفع يتحدثان إلى الغداة، فلما تفرقا قيل للخليل: كيف رأيت أبن المقفع؟ قال: رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله؛ وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه، فكان كذلك، أدى الخليل عقله إلى أن مات زاهداً، وأبن المقفع إلى أن مات قتيلاً بسبب كتاب كتبه.

وحكي أن سليمان بن المهلب بعث إليه يوماً بألف دينار ليتجهز بها، ويأتيه إلى الأهواز، فدخل عليه الرسول ﷺ وهو يبلى كسرة يابسة ويأكلها، فرد الألف دينار وقال للرسول: ما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان.

وقرأ عليه شخص كتاب العروض مدة، فلم يفهم منه شيئاً وأتعبه، فقال له الخليل يوماً: قطع هذا البيت:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعُوهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

ففهم الرجل التعريض ولم يعد.

ودخل يوماً إلى مريض يعود، فقال أخو المريض: افتح "عينك"، فإن "أبو" عبدالرحمن حضر، فقال الخليل: ما داء أخيك إلا من كلامك.

وكتب إليه بعض الثقلاء معمى يحله، فإذا هو بيت من الشعر يقول فيه:
 أَنَا إِن لَّمْ أَكْ أَهْـمُوا كَ فَرَأْسِي فِي حِرَامِي
 فكتب الخليل تحته: "وإن هويت أيضاً".
 ومن كلامه: الزاهد مَنْ لم يطلب المفقود، حتى يفقد الموجود.
 وقال: مَنْ استعمل الحزم في وقت الاستغناء عنه غني عن الاحتياال في وقت الحاجة إليه.
 وقال: بحسب امرئ من الشر أن يرضى من نفسه فساداً لا يصلحه، ومن علم بفساد
 نفسه علم بصلاحها، وأقبح التحول أن يتحول المرء من ذنب إلى غير توبة منه.
 وقال: من الأبواب ما لو شئنا شر حناه حتى يستوي في علم القوي والضعيف كفعلنا،
 ولكننا نحب أن يكون للعالم مؤنة.

ومن محاسن شعره ما أورده أبو حيان التوحيدي:
 زُرُودِي الْقَصْرَ نَعْمَ الْقَصْرَ وَالْوَادِي لَا بُدَّ مِنْ زُورَةٍ مِنْ غَيْرِ مِعَادٍ
 زُرُهُ فَلَيْسَ لَهُ شِبْهُ يَمَاقِلُهُ مِنْ مَنْزِلٍ حَاضِرٍ إِنْ شَتَّ أَوْ بَادِي
 تَلْقَى سَفَائِنَهُ وَالْعَيْسُ سَائِرُهُ وَالنُّونَ وَالضُّبَّ وَالْمَلَّاحُ وَالْحَادِي
 ومنه ما قاله في سليمان بن المهلب:
 إِنْ الَّذِي شَقَّ فَمِي ضَامِنٌ لِلرَّزْقِ حَتَّى يَتَوَفَّانِي^(١)
 حَرَمَتْنِي خَيْرًا قَلِيلًا فَمَا زَادَكَ فِي مَالِكَ حِرْمَانِي
 وقال فيه وقد قطع عنه برًا:
 يَا زَلَّةً يَكْثُرُ الشَّيْطَانُ إِنْ ذُكِرَتْ مِنْهَا التَّعَجُّبُ جَاءَتْ مِنْ سُلَيْمَانَ^(٢)
 لَا تَعْجِبَنَّ لِرَفْدِ زَلٍّ مِنْ يَدِهِ فَالْكُوكُبُ النَّحْسُ يَسْقِي الْأَرْضَ أَحْيَانًا
 وقال أيضاً:

أَبْلَغُ سُلَيْمَانَ أَنِّي عَنْهُ فِي سَعَةٍ وَفِي غِنًى غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ ذَا مَالٍ
 شُحًّا بِنَفْسِي إِنِّي لَا أَرَى أَحَدًا يَمُوتُ هَزْلاً وَلَا يَبْقَى عَلَى حَالٍ
 وقال: نظرتُ في علم النجوم، فهجمتُ منه على ما لزمني تركه، فقلتُ منشداً إذ ذاك:
 بَلِّغَا عَنِّي الْمُنْجِّمَ أَنِّي كَافِرٌ بِالَّذِي قَضَتْهُ الْكَوَاكِبُ
 عَالِمٌ أَنَّ مَا يَكُونُ وَمَا كَانَ قِضَاءُ مِنَ الْمُهَيْمِنِ وَاجِبٌ^(٣)

(١) مراتب النحويين.

(٢) ابن خلكان.

(٣) من ت.

٧٠- وَفَصَلَ بَيْنَ الْأَسْمِ وَالْمُسَمَّى

الاسم ما يُعرف به ذات الأصل، وأصله من السمو، وهو الذي ذكر به المعرف، ويقال: سَمَّ واسم وسُم، واختلف في تقدير أصله.

والمسمى هو المعنى الذي وُضع له الاسم، وللقدماء مباحث طويلة في معنى الاسم والمسمى، فمنها قول بعضهم -وعليه الجمهور: الاسم غير المسمى، وهو الذي يُراد به التسمية؛ كقولك للرجل: عرّفتني ما اسمك؟ لست تسأله أن يعلمك بذاته، وإنما تلتمس منه العبارة المعبر بها عنها، وأستشهد بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله ﷺ: "إن لله تسعة وتسعين اسماً، مَنْ أحصاها دخل الجنة".

ولو كان الاسم هاهنا هو المسمى لكان الله تعالى تسعة وتسعين شيئاً، وهذا كُفر. وقول عائشة رضي الله تعالى عنها: والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك. وقال آخرون: الاسم هو المسمى، لا على أن معنى العبارة عين المعبر عنه، وأن اللفظ هو الشخص، فإن ذلك محال، ولكن الاسم هو المسمى على معان ثلاثة: الأول: إنها وُضعت الأسماء ليتصور بها المسميات في نفوس السامعين، وتقوم عند الغيبة مقامها لو شاهدوها، فلما ناب الاسم من هذا مناب المسمى في التصوير جاز أن يقال: إن الاسم هو المسمى.

الثاني: إن أكثر ما يتيين في الأسماء التي تُشتق للمسمى من معانٍ موجودة فيه قائمة به، كقولنا لمن وُجدت فيه الحياة: حيّ، فالإسم من هذا النوع لازم للمسمى، يرتفع بارتفاعه، ويوجد بوجوده، ألا ترى أن الحياة إذا بطل وجودها من الجسم بطل أن يقال له: حيّ، وإذا بطل أن يقال له: حيّ، بطل أن يكون به حياة، فيجوز من هذا أن يقال: إن الاسم عين المسمى، يوجد بوجوده، ويرتفع بارتفاعه.

الثالث: أن العرب قد تذهب بالإسم إلى المعنى الواقع تحت التسمية، فتقول: هذا مسمى زيد، أي هذا المسمى بهذه اللفظة التي هي "الزاي والياء والdal"، ويقولون في هذا المعنى: هذا اسم زيد، وهو باب ظريف من كلام العرب يحتاج إلى فضل نظر؛ ويجيء في كلامهم على ضربين:

الأول: ما صرح فيه بلفظ الاسم حتى بانَ لتأمله، مثل قول ذي الرمة يصف بذلك خشفاً:

ما يرفعُ الطَّرفُ إلا ما تخوِّفُهُ داعٍ يناديه بِاسْمِ الماءِ مَبْغُومٌ^(١)

(١) ديوانه ٦٧، وروايته: "لا ينعش الطرف".

يعني أن هذا الحِشَف لا ينتبه من النعاس إلا إذا تفقدته أمه للرّضاع، فصاحت به: "ماما".

وكان أبو عبيدة يذهب في تأويل هذا اللفظ إلى أن الاسم زائد، والتقدير: يناديه بالماء؛ وأبو علي الفارسي يحمله على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، فالتقدير: يناديه باسم معني.

والثاني: ما لم يصرّح فيه بذكر معنى الاسم، إلا أنه موجود من طريق المعنى، مثل قولهم: كتبتُ اسمَ زيد، فليس المراد أنه كتب هذه الأحرف، وإنما يريد أنه كتب اسم المسمّى الواقع تحتها.

وقال قوم: يكون الشيء الواحد مسمّى من جهة، وتسميةً من أخرى، فإن قولنا: "اسم" لفظة تحوي الجنس والنوع؛ لأنه يقع تحتها الألفاظ التي يعبر بها عن المعاني، كجواهر وعروض، ورجل، وفرس، وزيد، وعمرو، فكل واحد من هذه الألفاظ يقال له: اسم، وهو تسمية لما تحته من معناه، فيكون بإضافته إلى الإسم الذي فوقه مسمّى، ويكون بإضافته إلى المعنى الذي تحته تسمية واسماً، مثال ذلك قولنا: زيد، وإنسان، وحيّ؛ فإنك تجد الإنسان الذي هو الوساطة بين زيد والحيّ مسمّى إذا كان يقال على الحي، واسماً إذا كان يقال على زيد. وتجد زيداً والإنسان وإن كان أحدهما مسمى والآخر اسماً قد تساويا في أنهما مسميان للحيّ؛ إذا كان الحي يقال على كل واحد منهما، ونجد الحيّ الذي هو اسم الإنسان والإنسان الذي هو مسمّى قد تساويا في أنهما إسمان لزيد.

وقد طال هذا الفصل عن الغرض في هذا الكتاب، وإنما ذكرته لتعلّق بعضه ببعض، بعد حذف حشو كثير.

٧١- وَصَرَفَ وَقَسَّمْ، وَعَدَّلَ وَقَوَّمْ

لم أتّحقق المعنى المراد بهاتين السجعتين، فسألت عنهما بعض علماء الإسلام، فقال: الصرف نوع من المعاوضة، وهو ما كان العوضان فيه من التّقدين - أعني الذهب والفضة. وقوله: "وقسّم" كأنه يريد به تقسيم الأموال المشتركة، ووجه مناسبة الصرف أن المال المشترك إذا كان ذهباً قليلاً فقد يتعذر قسمه بالدنانير، فيصرف بالدرهم، ثم يقسم.

وقوله: "وعدّل وقوّم" يريد به تعديل الأقسام وتقويمها، فإن المال المشترك إذا كانت أجزاؤه مختلفة في الصورة والقيمة كالّدور والبساتين، فإذا أريد قسمتها ولا بدّ فتعدّل بالتقويم ثم تقسّم، مثلاً إذا كان البستان بين ثلاثة بالسوية يقوّم البستان في الأول، ثم تعدّل الأجزاء

باعتبار ذلك، فتجعل الثلاثة أجزاء متساوية؛ ثم تُقسم بالإقراع أو بتعيين الحاكم، كل هذا داخل في أبواب الفقه.

وقد قيل: إنّ مالكا أول مَنْ صَنَّفَ فيه، وقد تقدّم ذكره.

٧٢- وَصَنَّفَ الْأَسْمَاءَ وَالْأَفْعَالَ

الأسماء والأفعال هنا: ما اصطلاح عليه النحويون في أقوالهم، وقسموه في كتبهم الموجودة، والاسم عندهم ما وقع على معنى غير مقرون بزمان، ويُعرف بدخول الجر عليه، ويصلح فيه "نفعي"، و"ضرّي"، ويدخل عليه أيضاً الألف واللام، وهو أصل والفعل فرْعٌ عليه.

وقسمه بعض القدماء على ثلاثين قسماً، وهي: مُعَرَّب ومبنيّ، وظاهر ومكنّى، ومعرفة ونكرة، ومُعِين ومبهم، وعربيّ وأعجميّ، وذكر وأنثى، ومقصود وممدود، وعامل وغير عامل، ومشتق وغير مشتق، ومضارع وغير مضارع، ومعتل وصحيح، وزائد وناقص، ومنصرف وغير منصرف، ومفرد ومضاف، ومدغم ومظهر؛ وشرح ذلك موجود في كتبهم.

والفعل ما تصرف بالزمن كقولك: ضرب ويضرب.

وقال السيرافي: وهو محتمل للزوائد التي هي الياء والتاء والنون والألف، وهو الحال.

قال التوحيدى: وسمعت أبا حفص الأشعريّ، يقول: لا معنى للحال، إنما هو الماضي والمستقبل، وتحصيل الحال محالٌ وتوهُمٌ باطلٌ؛ لأنك لا تفرغ من الماضي إلا إلى المستقبل، ومتى فرضت بينهما واسطة كنتَ فيهما واهماً، فقليل له: إن الذي يوضح الحال إنك إذا أتيت بالسين في "سيصلي"، لم يكن المعنى إلا في الاستقبال، فلولا أن الغرض قد كان كامناً في قولنا "يصلي" لم توضّحه السين، فكان الشبهة^(١) أن "يصلي" دال على الحال متضمن معنى الاستقبال؛ حتى يقترب باللفظ ما ينصب دليلاً على الغرض الواضح؛ فكان يكابر عند هذا البيان ويقول: لو صحّ هذا لصحّ قول الفلاسفة في الفصل بين الشيئين، أي ما يكون مشتركاً بين شيئين كأنه مركب من بدئهما، فقليل له أيضاً: هذا كما قاله من خالفته، وأنت في ذلك أجهل من هرّة، فإنها تمشي على حافة الجدار غير متمكنة من سمته^(٢)، وترى مع ذلك مكاناً آخر للفضل الذي يلوح لها، وهي^(٣) لا تمسك نفسها ولا ترسلها، فما ظنك يا أبا حفص بشبهة تكشفها هرّة!

(١) ت: "الشبه".

(٢) ت، م: "على سمته".

(٣) ساقطة من ت.

والأفعال تنقسم أيضاً إلى أقسام كثيرة: كالماضي والمضارع والأمر، والمتعدي إلى واحد وإثنين وثلاثة، وغير المتعدي، والتام والناقص، وما سمي فاعله وما لم يسم فاعله، وأفعال القلوب وغيرها، وأفعال المقاربة، وأفعال التعجب وغيرها، وأفعال المدح والذم وغيرها.

[أبو الأسود الدؤلي]

وأول مَنْ وضع علم النحو أبو الأسود الدؤلي^(١)، واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان؛ وكان من فقهاء البصرة وعلمائهم ونصحاءهم، وشيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وولاه البصرة.

وسبب وضعه لذلك؛ أنه دخل على ابنته بالبصرة، فقالت له: يا أبت، ما أشد الحر! فقال: شهر آذار، فقالت: يا أبت، إنما أخبرتك ولم أسألك، وكان مرادها التعجب، فأتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقال: يا أمير المؤمنين، ذهبت لغة العرب لما خالطت الأعاجم، ويوشك أن تضمحل، وأخبره^(٢) خبر ابنته. فأمره فاشترى صحفاً فأمل علىه: الكلام كله لا يخرج عن اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى، ثم قال له: أنح هذا النحو؛ فسمى النحو، [ثم رسم رسوم النحو كلها]^(٣).

وقيل: كان سبب وضع النحو أن معاوية أرسل إلى زياد يطلب ابنه، فأدخل عليه فسمعه يلحن^(٤)، فأرسل إلى أبيه يلومه، فأرسل زياد إلى أبي الأسود أن يضع في النحو شيئاً - وكان أبو الأسود من أفصح الناس، ويقول: إني لأجد اللحن غمراً كغم اللحم - فأبى أبو الأسود، وكره إجابة زياد، فوجه زياد رجلاً وقال له: اقعد في طريق أبي الأسود، فإذا مر بك فاقراً شيئاً من القرآن وتعمد اللحن، فقعده، فلما مر به أبو الأسود قرأ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٩] بالجر، فاستعظم أبو الأسود ذلك، وعاد إلى زياد فقال: قد أجبك. ثم وضع مختصره في أصول النحو. وأول ما وضع باب التعجب، ثم وضع بعده عنبة، ثم أبو عمرو بن العلاء وغيرهما، إلى أن وصل إلى سيبويه، فأخذ الغاية على مَنْ قبله وبعده.

وكانت وفاة أبي الأسود سنة تسع وستين بالبصرة بالطاعون الجارف^(٥)، وهو ابن خمس وثمانين سنة.

(١) م: "الدلي".

(٢) ط: "وأخبر".

(٣) تكملة من ط، م.

(٤) ت: "ثم إن معاوية أرسل إلى زياد يطلب ابنه، فأدخل عليه فسمعه يلحن".

(٥) الطاعون الجارف وقع بالبصرة سنة ٦٩ في خلافة ابن الزبير، قال المدائني: حدثني مَنْ أدرك الطاعون الجارف قال: كان ثلاثة أيام، فمات فيها نحو من سبعين ألفاً. تاريخ الإسلام للذهبي ٢: ٣٧٣.

وكان عالماً شاعراً ذا رأي، إلا أنه كان شديد البخل والتشيع، فمن أخباره ما حدث أبو عمرو، وقال: كان أبو الأسود نازلاً في بني قُشَيْر، وكانوا يخالفونه في المذهب، لأن أبا الأسود كان شيعياً، فكانوا يذمونه بالليل، فإذا أصبح شكوا ذلك؛ فشكاهم مرة، فقالوا: نحن ما نرّميك، ولكن الله يرّميك؛ فقال: كذبتُم، لو كان الله يرمني ما أخطأني! وقال لهم يوماً: يا بني قُشَيْر، ما أحب إليّ طول بقاء منكم، قالوا: ولم ذاك؟ قال: لأنكم إذا ركبتم أمراً علمت أنه رُشد فاتبعته.

وقال له رجل: أنت والله ظُرف عِلْمٍ وحِلْمٍ؛ غير أنك بخيل، فقال: وما خير ظُرفٍ لا يمسك ما فيه!

وسأله رجل فمنعه، فقال: يا أبا الأسود، أما أصبحت حاتمنا! فقال: بلى، قد أصبحت حاتمكم من حيث لا تدري، أليس حاتم يقول:

أَمَاوِيَّ إِمَّا مَانِعٌ فَمِيئْنٌ وَإِمَّا عَطَاءٌ لَا يَنْهَنهُ الزَّجْرُ! ^(١)

وحكي أن أعرابياً مر به وهو يأكل رُطباً على باب داره، فقال: السلام عليكم، فقال أبو الأسود: كلمة مقولة، فقال: أأدخل؟ قال: وراءك أوسع لك. قال: أنا ابن الحمامة، قال: انصرف، وكن ابن أي طائر شئت! قال: سألتك بالله إلا أطعمتني مما تأكل! فألقى إليه ثلاث رطبات، فوقعت إحداهن في التراب، فأخذها فمسحها بثوبه، فقال "دعها، فإن الذي تمسحها منه أنظف من الذي تمسحها به، فقال: إنها كرهت أن أدعها للشيطان، فقال: لا، والله ولا لجبريل وميكائيل تدعها!

وجلس يوماً إلى معاوية يتحدثان في خلوة، ثم تحرك فضرط، فقال لمعاوية: استرها عليّ، قال: نعم، فلما خرج حدث بها معاوية عمرو بن العاص ومروان بن الحكم، فلما غدا إليه أبو الأسود قال له عمرو: ما فعلت ضرطتك يا أبا الأسود؟ قال: ذهبت مع الريح كما تذهب من شيخ ألان الدهر أعضائه عن إمساك مثلها؛ وكل أجوف ضرط، وإن امرأ ضعفت أمانته عن كتان ضرطة لحقيق ألا يؤتمن على المسلمين!

وأسرّ يوماً إلى معاوية بشيء - وكان أبخر - فأصغى إليه معاوية ماسكاً أنفه، فنحى أبو الأسود يده عن أنفه، وقال: لا والله، لا تسود حتى تصبر على سرار البخر! ومن شعره يقول:

وَكُنْتَ مَتَى لَمْ تَرَ سِرَّكَ مُشَرًّا نَوَازِعُهُ^(١) مِنْ مَخْطِئٍ وَمَصِيبٍ^(٢)
فَمَا كُلُّ ذِي لَبٍّ بِمَوْتِكَ نَصَحَهُ وَلَا كُلُّ مُؤْتٍ نَصَحَهُ بَلِيبٍ
وَكُتِبَ إِلَى مَعَاوِيَةَ - وَقَدْ وَعَدَهُ فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ - يَقُولُ:

لَا يَكُنْ بَرْقُكَ بَرْقًا خُلْبًا إِنَّ خَيْرَ الْبَرْقِ مَا الْغَيْثُ مَعَهُ^(٣)
لَا تَهْنَيْ بَعْدَ أَنْ أَكْرَمْتَنِي فَشَدِيدُ عَادَةِ مُنْزَعِهِ
وَقَالَ يَخَاطَبُ وَلَدًا لَهُ كَانَ لَا يَطْلُبُ الرِّزْقَ:

وَمَا طَلَبُ الْمَعِيشَةِ بِالْتَمَنِّي وَلَكِنْ أَلْقِ دَلُوكَ فِي الدَّلَاءِ^(٤)
تَجِيءُ بِمِثْلِهَا طُورًا وَطُورًا تَجِيءُ بِحُمَاةٍ وَقَلِيلِ مَاءٍ
وَقَالَ أَيْضًا:

يَقُولُ الْأَرْدَلُونَ بَنُو قَشِيرٍ: طَوَالَ الدَّهْرِ لَا تَنْسَى عَلِيًّا!^(٥)
بَنُو عَمِّ النَّبِيِّ وَأَقْرَبُ بُوهِ أَحَبُّ النَّاسِ كُلُّهُمْ إِلَيَّا
أَحَبَّهُمْ كَحَبِّ اللَّهِ حَتَّى أَجِيءَ إِذَا بُعِثْتُ عَلَى هَوِيَّا
فَإِنْ يَلُوكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِيبُهُ وَلَسْتُ بِمَخْطِئٍ إِنْ كَانَ غِيَا

فَرُوِيَ أَنَّ بَنِي قَشِيرٍ قَالُوا لَهُ: قَدْ شَكَّكَ يَا أَبَا الْأَسْوَدِ! فَقَالَ: كَلَّا، مَا شَكَّكَتَ، أَمَّا
سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّاهُ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، أَفْتَرُونَ أَنَّ
اللَّهَ تَعَالَى شَكَّ!.

وَقَوْلُهُ: "هَوِيَّا" بِلُغَةِ هُذَيْلٍ، قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ:

سَبَقُوا هَوِيَّ وَأَعْنَقُوا إِلَهُاهُمْ فَتَخَرَّمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعٌ^(٦)

٧٣- وَبَوَّبَ الظَّرْفَ وَالْحَالَ

الظَّرْفُ فِي النُّحُو يُقَالُ لِلزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، وَإِذَا جَعَلَ مَحَلًّا لِأُمُورٍ تَقَعُ فِيهِ^(٧)، كَقَوْلِكَ:
أَعْجَبَنِي الْخُرُوجَ الْيَوْمَ، ف"الْيَوْمَ" مَحَلٌّ لِلْخُرُوجِ الَّذِي أَسْنَدْتَ إِلَيْهِ الْحَدِيثَ، فَإِذَا قُلْتَ: أَعْجَبَنِي

(١) ت: "بوادره"، م، بوارقه.

(٢) ديوانه ٤٥.

(٣) ديوانه ١٤.

(٤) ديوانه: ٤٣.

(٥) قالها في رثاء علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ديوانه ٣٢.

(٦) ديوان الهذليين ١: ٢.

(٧) ت، م "فيها".

اليوم، لم يسم ظرفاً؛ لأنك إنما تحدث عنه لا عن شيء وقع فيه، فمن خاصة الظرف ألا يكون محدثاً عنه، وأن يصلح فيه تقدير "في".

وكان الخليل يقول: أنا أول من سمى الأوعية ظروفاً لما مجلّ فيها.

والحال ما يُعرف من هيئة الفاعل والمفعول في حال وقوع الفعل، كقولهم: جاء زيد راكباً، وضربت اللص قائماً؛ فالركوب هيئة زيد في وقت مجيئه، والقيام هيئة اللص في وقت ضربه. والحال إما أن يكون نكرة، أو في حكمها، وبعد كلام تام أو حكمه، أو بعد^(١) اسم معرفة أو حكمها، ولها أقسام مثل: المستصحبة، والسادة، والمحكمة، والموطئة، والمؤكدة؛ وغير ذلك.

٧٤- وَبَنَى وَأَعْرَبَ، وَنَفَى وَتَعَجَّبَ

المبني ما لم يتغير آخره من الكلام بدخول العامل عليه.

والمعرب ما تغير آخره بدخول العامل عليه بحركة^(٢) أو حرف، ولا يُعرب من الكلام إلا الاسم المتمكن، والفعل المضارع.

وأشار بالنفي والتعجب إلى أن الكلمة الواحدة قد يُراد بها النفي، وقد يراد بها التعجب؛ فمن لا يدري النحو لا يميز بين محليهما كما في قولهم: ما أحسن زيداً، وما أحسن زيداً! فإنها في الأول للنفي، ولهذا ارتفع "زيد" لأنها نفت المسند إلى "زيد"، وفي الثاني للتعجب؛ ولهذا انتصب "زيداً"؛ لأن فاعل "أحسن" هو ضمير مستكن فيه يعود على "ما"، فإن معناها في الأصل: "شيء أحسن زيداً"، وبسبب هذه المسألة وُضِعَ علم النحو، كما تقدّم في ذكر أبي الأسود [الدؤلي]^(٣) مع ابنته.

٧٥- وَوَصَلَ وَقَطَعَ، وَثَنَى وَجَمَعَ

أشار إلى معرفة مواقع همزة الوصل من^(٤) مواقع همزة القطع، وقد أنشد البيت المشهور في مدح النبي ﷺ على وجهين وهو:

وَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجِلَّهُ^(٥) فذو العرش محمود وهذا محمد

ف قيل: "شق له من اسمه" بإثبات الهمزة، وسلامة النظم من الرَّحَاف. وقيل: "وشق له من اسمه" باستعمال الوصل، ويكون ذلك مع دخول القبض في الجزء الثاني من الطويل،

(١) ط: "ويعد".

(٢) حاشية ت: "كان على الشارح أن يزيد هنا: "حقيقة أو تقديراً"؛ لتلا دخول المعرب تقديراً في حد المبني؛ وإن لم يكن هذا موضع ذلك؛ لكن قد أورده بصفة الحد؛ فكان الأحسن أن يكون جامعاً مانعاً".

(٣) من ط.

(٤) ت: "مع".

(٥) ط: "فشق له".

وهو "مفاعيلن" بحذف الياء، فيصير "مفاعلن"، وهو زحاف مستعمل في هذا البحر، تقع المعاقبة بينه وبين الكفّ، وهو أخفّ منه وأكثر استعمالاً.

والثنية زيادة ألف أو ياء مفتوح ما قبلها في آخر الكلمة مع نون مكسورة، كقولهم: الرَّجُلَانِ وَالرَّجُلَيْنِ.

والجمع ضربان: أحدهما جمع التصحيح، وهو ما سلم فيه بناء مفردة، وهو قسمان: جمعُ المذكر، ويكون بزيادة واو أو ياء مكسور ما قبلها في آخر الكلمة، ونون مفتوحة نحو المسلمين والمسلمون، وجمع المؤنث ويكون بزيادة ألف وتاء في آخر الاسم كثمرات ومسلّمات في جمع ثمرة، ومسلّمة.

والضرب الثاني جمع التكسير، وهو ما لم يسلم فيه بناء مفردة، كرجال وأصحاب، في جمع رجل وصاحب.

٧٦- وَأَظْهَرَ وَأَضْمَرَ، وَاسْتَفْهَمَ وَأَخْبَرَ

الإضمار أن يؤتى في الكلمة بلفظ مضمر، وهو ما وضع لتكلم أو مخاطب أو غائب، كأننا وأنت، وهو مأخوذ من الضمّر، وهو الخفاء.

والإظهار أن يؤتى باللفظ المظهر وهو ما عدا المضمر، مأخوذ من ظهّر الشيء، إذا كان على ظاهر الأرض واضحاً.

والاستفهام: طلب الإخبار بشيء، واللفظ الدالّ عليه بالوضع؛ إمّا اسم كقولنا: ما الإنسان؟ ومنّ زيد؟ وكيف أنت؟ ومتى تقوم؟ وإما حرف وهو الهمزة في نحو قولك: أقام زيد؟ وهل في: هل قام زيد؟

والإخبار: الإتيان بالجملة المحتملة للصدق والكذب، كقولك: قام زيد، [وما أشبه ذلك] ^(١).

٧٧- وَأَهْمَلَ وَقَيَّدَ، وَأَرْسَلَ وَأَسْنَدَ، وَبَحَثَ وَنَظَرَ

إمّا أن يكون أراد الحروف المهملة التي هي غير المقيّدة بالنقط والشكل، وعلى ذلك وضع الخليل كتاب "النقط والشكل". وإمّا أن يكون أراد بالمهمّل المطلق، وعدل عنه إليه لموازنة قوله في السجعة الثانية: "أرسل وأسند".

والمطلَق ما لم يقيد، والمقيّد ما ضمّن وصفاً، كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾، فأطلق. وقال في الرائب: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، فقيّد. والمرسل والمسند ما اصطلاح عليه في علم الحديث؛ فالمرسل عند المحدثين قول التابعي الكبير: قال رسول الله ﷺ كذا، وفعل كذا؛ فهذا مرسلٌ عندهم باتفاق. وأما قول التابعي الصغير كالزهري: قال رسول الله ﷺ، فقال قوم: يسمّى مرسلًا، وقال قوم: بل يسمّى منقطعاً؛ لأن أكثر روايتهم عن التابعي. وأما المسند؛ فهو ما اتصل سنده من روايه إلى منتهاه، وفيه أقوال، وينقسم إلى صحيح، وحسن، وضعيف.

فالصحيح ما اتصل سنده برواية العدل الضابط عن مثله، وسلم من شذوذ وعلة؛ والشاذ ما يرويه الثقة مما يكون مخالفاً لما رواه الناس، والمعتل ما فيه سبب قاذح على نص ظاهره السلامة.

وأما الحسن فهو ما عُرف مخرجه، واشتهر رجاله، وقال بعضهم: هو الذي فيه ضعف يحتمل، ويصلح العمل به.

والضعيف كلّ حديثٍ لم يجتمع فيه شروط الحديث الصحيح ولا الحسن المتقدم ذكرهما.

والبحث الكشف عن الشيء والطلب، يقال: بحثت عن الأمر، وبحثت كذا. والنظر قلب البصيرة لتأمل الأمر، مأخوذ من قلب البصر لإدراك الشيء.

٧٨- وَتَصَفَّحَ الْأَدْيَانَ

صَفَّحَ الشيء: عرضه، كصفحة^(١) الكتاب والوجه، وتصفّحته استعرضته وتأمّلت وجهه.

والأديان: جمع دين؛ وهو الشريعة والملة، والأصل في الدين الطاعة، واستُعير للشريعة للانقياد إليها والطاعة، والمراد النظر في مذاهب أهل الأديان وشرائعهم، واختلاف فرقهم كالمسلمين. والإسلام على ضربين: أحدهما دُون الإيمان، وهو الاعتراف باللسان، وبه يحقن الدم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

(١) ط: "كصفح"؛ وأثبت ما في باقي الأصول.

والثاني فوق الإيوان، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاداً بالقلب، ووفاء بالفعل، والاستسلام لله تعالى في كل ما قضى وقدر، كقوله تعالى في قصة إبراهيم: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

التصّفح لمذاهب المسلمين وفرقهم كالمعتزلة، والأشعرية، والإمامية وغير ذلك، وكاليهود وفرقهم من العنانيّة، والموشكانية^(١)، والعبرانية، والقرائين، والسامرة، وما أشبه ذلك^(٢).

واسم اليهود مأخوذ من هاذ الرجل، إذا رجع وتاب، وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. أي رجعنا وتضرعنا، وكان في الأول اسم مدح، ثم صار بعد نسخ شرائعهم لازماً لهم^(٣)، والنصارى وفرقهم من الملكانية، واليعقوبية، والنسطورية، والأرمن، والروم، والمارونية وغيرهم، واسم النصارى مأخوذ^(٤) من قول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ خُنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، ثم صار لازماً لهم بعد نسخ شريعتهم أيضاً. وقيل: مأخوذ من نسبتهم إلى قرية يقال لها: نصران. والمجوس وفرقهم من الكيومرثية، والزردشتية، وما أشبه ذلك^(٥)، وقد استوفى ابن حزم الكلام على جميع هذه الأصول والفروع، في كتاب الملل والنحل^(٦).

٧٩- وَرَجَّحَ بَيْنَ مَذْهَبَيْ مَانِي وَغَيْلَانَ

[ماني الثنوي]

هو ماني بن فاتك^(٧) الثنوي، الذي تُنسب إليه المانوية، كان راهباً بنجران قائلاً ببنوة المسيح، معظماً في أساقفة النصارى، محمود السيرة فيهم، فزنى فسقطت مرتبته، وكان له حسدة من بطارقة زمانه، فوجدوا السبيل إلى ما أرادوا منه، فلما رُئي حاله أخذ في الرد على أصحابه، وقال: لم أزن، ولكنهم حسدوني وأنكروا مخالفتي لهم في أصل دينهم، إذ كانوا يقرّون بالمسيح اللاهوتي، رسول الشيطان.

(١) ت: "الوسكانية" م.

(٢) كذا في ط، وفي ت: "والسامرية وما أشبه ذلك".

(٣) ط: "ذما لهم".

(٤) من ط.

(٥) ت: "وما أشبه ذلك".

(٦) الملل والنحل لابن حزم ١: ٣٤ وما بعدها.

(٧) ت: "ماني".

وكان ماني في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم، فأحدث ديناً ودعا إليه، وظهر في أيام سابور بن أردشير، وتبعه خَلَقٌ عظيم من المجوس، وادَّعَوْا له النبوة^(١)، ونسبوه لها، إلى أن قُتِلَ في زمان بهرام بن سابور كما سيأتي ذكره.

حدّث النوبختي وغيره، قال: زعم ماني وأصحابه أن صانع العالم إثنان: فاعل الخير نور، وفاعل الشر ظُلْمه، وهما قديمان، لم يزا ولا ولن يزا لا حسَّاسين سميعين بصيرين، وهما مختلفان في النفس والصورة، متضادان في الفعل والتدبير، فجوهر النور فاضل حسن نير، ونفسه خيرة حليلة نفاعه؛ منها الخير والسرور والصلاح، وليس منها من الشر شيء، وجوهر الظلمة على ضد ذلك جميعه؛ والنور مرتفع في ناحية الشمال، والظلمة منحطة في ناحية الجنوب، وزعموا أن لكل واحد منهما أجناساً خمسة، أربعة منها أبدان، وخامس هو الروح. فأبدان النور الأربعة: النار، والنور، والريح، والماء، وروحها الشبح المتحرك في [هذه الأبدان]^(٢)، وأبدان^(٣) الظلمة أربعة: الحريق، والظلام، والسموم، والضباب، وروحها الدخان، وسموا أبدان النور ملائكة، وأبدان الظلمة [وبعضهم يقول: أبدان النور تتولد ملائكة وأبدان الظلمة تتولد شياطين]، وأن النور لا يقدر على الشر، ولا يجوز منه، والظلمة لا تقدر على الخير، ولا تجوز منه.

قال بعض المتكلمين: والذي حملهم على هذا أنهم رأوا في العالم شراً^(٤) واختلافاً، فقالوا: لا يكون من أصل واحد شيان متضادان، كما لا يكون في عنصر النار السخن^(٥) والبرد.

وقد ردّ عليهم بعض العلماء في قولهم: [إنّ] الصانع إثنان، فقال^(٦): لو كانا إثنين لم يخل من أن يكونا قادرين أو عاجزين، أو أحدهما قادراً والآخر عاجزاً، [لا جائز أن يكونا عاجزين]، لأن العجز يمنع ثبوت الإلهية، ولا يجوز أن يكون أحدهما عاجزاً، فبقي أن يُقال: هما قادران، فيتصور أن أحدهما يريد تحريك هذا الجسم في حالة يريد الآخر تسكينه فيها، ومن المحال وجود ما يريدانه، فإن تم مراد أحدهما ثبت عجز الآخر.

(١) ت، م: "نبوته".

(٢) تكملة من ط.

(٣) ت: "وفي أبدان".

(٤) ت: "شراً".

(٥) م: "التسخين".

(٦) ت: "فقالوا".

وردّ عليهم آخر في قولهم: إن النور يفعل الخير، والظلمة تفعل الشر، بأنه لو هرب مظلوم فاستتر بالظلمة، فهذا خيرٌ وقع من^(١) شرٍّ، ومن هاهنا أخذ المتنبّي فقال: وكم لظلام الليلِ عندك من يدٍ تُخبرُ أن المانويّة تكذب^(٢) وقال الجاحظ: المانوية تزعم أن العالم بما فيه مركّب من عشرة أجزاء، يعني أجناساً خمسة منها خير ونور، وخمسة منها شر وظلمة، والإنسان مركب من جميعها، فمن نظر نظرة رحمة فتلك النظرة من الخير والنور، ومن^(٣) نظر نظرة قسوة، فتلك النظرة من الشر والظلمة، وكذلك جميع الحواس.

وكان المأمون يسأل المانوية عن مسألة قريبة المأخذ قاطعة، فناظر أحدهم فقال: أسألك عن حرفين فقط: هل ندم مسيء على إساءته؟ قال: بلى، قد ندم كثير. قال: فخبرني عن الندم على الإساءة: إساءة أم هو إحسان؟ قال: إحسان، قال: فالذي ندم هو الذي أساء؟ قال: نعم، قال: فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر، وقد بطل قولكم: إن الذي ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر الرحمة؟ قال: فإني أزعّم^(٤)، أن الذي أساء غير الذي ندم، قال: فندم على شيء كان من غيره، أو على شيء كان منه؟ فقطعه [بهذه الحجّة]^(٥).

ولماني وأصحابه في امتزاج النور والظلمة، وحدوث الشمس والقمر، والنجوم لاستصفاء النور من الظلمة إلى ألا يبقى شيء منه في هذا العالم، وتنطبق السماء على الأرض، ويرجع كل شكل إلى شكله أقوال عجيبة؛ إلى غير ذلك من أنه لا يرى التناكح^(٦) يستعجل فناء العالم، ويسرع بجمع الأشكال.

ولم تزل أتباعه تكثر، وشوكته تعظم، إلى أن أحضره بهرام بن يزيد جرد -وقيل: سابور- وأراد قتله باتفاق الموابذة، فأمر أدرياد موبذ موبذان، بأن يناظره فناظره في مسألة قطع النسل، وتعجيل فراغ العالم. فقال موبذ موبذان -يعني كاهن الكهنة- أنت الذي تزعم وتقول بتحريم النكاح تستعجل فناء العالم، ويرجع كل شكل إلى شكله، وأن ذلك حق واجب!

فقال ماني: واجب أن يعان النور على خلاصه بقطع النسل مما هو فيه من الامتزاج. فقال له أدريار: فمن الواجب أن يعجل لك هذا الخلاص الذي تدعو إليه، وتعان على

(١) كذا في ت، م، وفي ط: "في".

(٢) ديوانه ١: ١٧٨.

(٣) كذا في ت، م، وفي ط: "فمتي".

(٤) كذا في، م، ت، وفي ط: "فإن الذي زعم".

(٥) من ط.

(٦) كذا في ت، م، وفي ط، د: "المنكاح".

إبطال هذا الامتزاج المذموم! فانقطع ماني، فأمر بهرام بصلبه على الخشب، فجعل يصيح ويقول: أيها المعبود النوراني، بلغت ما أمرتني به، وهذه عادتهم في [وفي أمثالي]^(١)، وأنت الحكيم، وها أنا الآن مارٌّ إليك، وما أذيت صامتاً ولا ناطقاً، فتباركت أنت وعالمك النوراني الأزلي^(٢)، فكان آخر قوله، ثم حشى^(٣) جلده تَبْنًا!

وكان بهرام في الأول قد أظهر متابعته حتى أحاط علماً بمن تبعه، فلما قتله أمر بقتل أصحابه، ثم ظهر ممن يسلك مسلكهم في الإسلام بشرٌ عظيم يُسمَوْنَ الزنادقة، قتلهم المهدي وأبادهم.

[غِيلَانُ الْقَدَرِيِّ]

وأما غيلان فهو ابن يونس القَدَرِيّ الدمشقي، كان أبوه مولًى لعثمان بن عفان؛ وغِيلَانُ أول من تكلم في القَدَر، وخلق القرآن في الإسلام. وقيل: أول من تكلم في القدر رجلٌ من أهل العراق، كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصّر، وأخذ عنه مَعْبُدُ الجهنّي، وغِيلَانُ الدمشقي.

وروى أن مكحولاً^(٤) قال لَغَيْلَان: وَيْلَكَ يا غيلان! ألم أجذك ترامي النساء بالسفاح في شهر رمضان، ثم صرت حارثياً تخدم امرأة الحارث الكذاب، وتزعم أنها أم المؤمنين، ثم تحولت بعد ذلك قَدَرِيّاً وزنديقاً!

وَرُويَ أن غيلان وقف يوماً على ربيعة^(٥)، فقال له: أنت الذي تزعم أن الله يجب أن يُعَصَى! فقال له ربيعة: أنت الذي تزعم أن الله يُعَصَى قسراً!

وقيل لَغَيْلَان: مَنْ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْكَ؟ قال: عمر بن عبدالعزيز، كأنها كان يَلْقَنُ من السماء.

وحكى ابن مهاجر، قال: بلغ عمر بن عبدالعزيز أن غِيلَانَ وفلاناً نطقا في القَدَر، فأرسل إليهما وقال: ما الأمر الذي تنطقان به؟ فقالا: هو ما قال الله يا أمير المؤمنين، قال: وما قال الله؟ قال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١]، ثم

(١) من ط.

(٢) "النورانيون: الأزليون".

(٣) كذا في ت، وفي ط. "ثم ملأ".

(٤) هو مكحول الشامي الفقيه، تابعي، إلا أنه كان يرى القدر. توفي سنة ١١٣. تهذيب التهذيب.

(٥) هو ربيعة الرأي، كان أبو العباس السفاح قد أقدمه للقضاء، توفي سنة ١٣٦. صفة الصفوة ٢: ٨٣.

قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ثم سكتا؛ فقال عمر: إقرأ، فقرأ حتى بلغا: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ آخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩-٣٠]، إلى آخر السورة، قال: كيف تريان يا بني الأتانة! تأخذان الفروع وتدعان الأصول!

قال ابن مهاجر: ثم بلغ عمر بن عبدالعزيز أنها أسرفا، فأرسل إليهما وهو مغضب، فقام عمر، وكنت خلفه قائما حتى دخلا عليه، وأنا مستقبلهما، فقال لهما: ألم يكن في سابق علم الله حين أمر الله إبليس بالسجود ألا يسجد؟ قال: فأومأت إليهما برأسي أن قولا: نعم، [وإلا فهو الذبح] ^(١)، فقالا: نعم، فقال: أو لم يكن في سابق علم الله حين نهى آدم وحواء عن الشجرة أن يأكلا منها، فألهمهما أن يأكلا منها؟ فأومأت إليهما برأسي، فقالا: نعم، فأمر بإخراجهما، وأمر بالكتاب إلى سائر الأعمال بخلاف ما يقولان، وأمسكا ^(٢) عن الكلام، فلم يلبثا إلا يسيرا ^(٣) حتى مرض عمر ومات، ولم يفد الكتاب، وسال بعد ذلك منهما السيل ^(٤).

وكان غيلان قد تاب عى يد عمر بن عبدالعزيز، فقال عمر: اللهم إن كان كاذبا فلا تمته حتى تُذيقه حد ^(٥) السيف؛ فُقطعت يده ورجلاه، وصُلب في أيام هشام [بن عبد الملك] ^(٦). حدث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أرسل هشام بن عبد الملك إلى غيلان، فقال له: يا غيلان، ما هذه المقالة التي بلغتني ^(٧) عنك في القدر؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هو ما بلغك، فأحضر من أحببت يحاجني، فإن غلبني ضربت رقبتني؛ فأحضر الأوزاعي، فقال له الأوزاعي: يا غيلان، إن شئت ألقى عليك سبعا، وإن شئت خمسا، وإن شئت ثلاثا؛ فقال: ألقى ثلاثا، فقال له: أما قضى ^(٨) الله على عبد ما نهى عنه! قال: ما أدري ما تقول! قال: فأمر الله بأمر حال دون؟ قال: هذه أشد من الأولى، قال: أفحرم الله حراما ثم أحله! قال: ما أدري ما تقول! قال: فأمر به هشام فُقطعت يده ورجلاه، فمات، وقيل ^(٩) صُلب حيا على باب كيسان بدمشق.

(١) من ط.

(٢) ت: "وسكتا".

(٣) ت: "فلم يلبثا إلا قدرا".

(٤) ت: "السيل".

(٥) ط: "حر".

(٦) من ت.

(٧) ت: "تبليغي".

(٨) كذا ف ت، وفي ط: "أفضى الله".

(٩) كذا في ط، وفي ت: "فمات وصُلب حيا".

ثم قال هشام للأوزاعي: يا أبا عمر، فسّر لنا ما قلتَ، قال: قضى الله على عبدٍ ما نهى عنه؛ نهى آدم أن يأكل من الشجرة ثم قضى عليه، فأكل منها، وأمر إبليس أن يسجد لآدم، وحال بين إبليس والسجود. وقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، ثم قال: ﴿فَمَنْ أَضْطَرُّ﴾ [المائدة: ٣]، فأحلّها بعد ما حرّمها.

* * *

وممن كان يميل إلى هذا المذهب أيضاً غيلان [بن عقبة]^(١)، وهو ذو الرّمة الشاعر، قال: اختصم ذو الرمة ورؤية الراجز عند بلال بن أبي بردة، فقال رؤية: والله ما فحص طائر أفحوصاً، ولا تفرمص سبعٌ قرموصاً^(٢) إلا بقضاء من الله وقدر، فقال ذو الرّمة: والله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيايل ضرائك! فقال رؤية: أفبقدرته أكلها! هذا كذب على الذئب. فقال ذو الرمة: الكذب على الذئب خير من الكذب على رب العالمين.

قوله: "عيايل" جمع عيّل، وهو ذو العيال. وضرائك: جمع صريك، وهو الفقير. وعن إسحاق بن سعد، قال: أنشدني ذو الرّمة قوله: وَعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ كُنَا فَكَانَتَا فَعُولَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ^(٣) فقلت له: "فعولين" خبر الكون، فقال لي: لو سبّحت ربحت، إنما قلت: "فعولان". وإنما تحرز ذو الرمة بهذا الكلام عن القول بخلاف مذهبه. والله تعالى أعلم بالصواب.

٨٠- وَأَشَارَ بِذَبْحِ الْجَعْدِ

[الجعد بن درهم]

أما الجعد فهو ابن درهم، مولى بني الحَكَم، كان يسكن دمشق، ويعلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، فنُسِبَ إليه، فقليل^(٤): مروان الجعديّ. ويروى أن أم مروان كانت أمةً، وكان الجعد أخاها؛ وهو أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد بدمشق، ثم طُلب فهرب، ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذي نُسب إليه الجهميّة.

وقيل: إن الجعد أخذ ذلك من أبان بن سميعان، وأخذه أبان من طالوت بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، وكان يقول بخلق القرآن، وكان طالوت زنديقاً، وهو أول من صنّف لهم في ذلك، ثم أظهره الجعد بن درهم، فقتله خالد بن عبد الله القسريّ.

(١) من ت.

(٢) الأفحوص: مجثم الطائر. والقرموص: حفرة للاصطياد، وانظر اللسان ٨: ٣٤٠.

(٣) ديوانه ٢١٣.

(٤) ط: "وقيل".

[ودخل عليه يوماً بهلول، فقال: أحسنَ الله عزاءك في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾] [الإخلاص:

١]، فإنها ماتت! قال: وكيف تموت؟ قال: لأنك تقول: إنها مخلوقة، وكل مخلوق يموت^(١). ولم يزل الجعد على مذهبه إلى أن قتله خالد بن عبدالله القسري] يوم الأضحى بالكوفة، وكان والياً عليها، أتى به في الوثاق فصلّى وخطب^(٢)، ثم قال في آخر خطبته: أنصرفوا وضحوا بضحاياكم، تقبل الله منا ومنكم؛ فإنّي أريد اليوم أن أضحي بالجعد بن درهم؛ فإنه يقول: ما كلم الله موسى تكليماً، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلاً، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً! ثم نزل وحزّ رأسه بالسكين بيده، وطفئت نار فتنته إلى أن نشأت في أيام ابن أبي دؤاد.

[خالد بن عبدالله القسري]

وأما خالد، فهو ابنُ عبدالله بن يزيد بن أسد القسريّ^(٣) البجليّ، كان من أمراء الدولة الأموية، ولي اليمن ومكة من قبل الوليد بن عبد الملك، وولاه هشام العراقيين بعد عُمر بن هبيرة، [ثم عزله لما بلغه من كثرة أمواله وبلاده وأنصاره]^(٤). وله [مع ابن هبيرة] مكائدات وأخبار، فمن أعجبها ما حكى [أن]^(٥) ابن هبيرة لما هرب من سجن خالد، ووفد على هشام وأمّنه، أرسل خالد مائة من خيل المضمار^(٦) قد أنتخبها، وأمر السواس أن يعارضوا بها هشاماً إذا ركب؛ وكان هشام معجباً بالخيل لا يشتهي أن يكون عند غيره من جيدها شيء، فلما ركب هشام رأى خيلاً راقته، فسأل القوم عنها: لمن هي؟ فقالوا: لابن هبيرة، فاستشاط غيظاً^(٧)، وقال: واعجبي! أختان ما أختان^(٨)، ثم قدم على قومه وقال لهم: ما رضيت عنه بعد، وهو يرأئمني^(٩) في الخيل! عليّ بعمر، فدعا به وهو يسير في عرض الموكب، فجاء مسرعاً، فقال له هشام: ما هذه الخيل! فكأنه فطن لما صنع خالد،

(١) من ت.

(٢) ت: "وحين صلّى وخطب".

(٣) ط: "القسري"، تحريف.

(٤) من ت.

(٥) من ط.

(٦) كذا في ت، وفي ط: "من الخيل إلى المضمار".

(٧) ط: "غضباً"؛ وأثبت ما في ت.

(٨) كذا في ت، وفي ط: "ثم قدم فوالله ما رضيت عنه بعد".

(٩) حاشية ت: "يرأئمني، أي يوافقني".

فقال: يا أمير المؤمنين^(١)، اخترتها وطلبتها من مظانها حتى جمعتها^(٢) لك، فمَرَّ بقبضها^(٣)، فأعجبه ذلك، وسكت خالد عن أمرها، وفسدت مكيدته. ولم يزل ابن هبيرة يبغي به الغوائل إلى أن عزل، وأقام بالشام برهة، ثم عذَّب إلى أن مات سنة ست وعشرين ومائة في خلافة الوليد بن يزيد.

وكان جواداً فصيحاً، عظيم الهمة، إلا أنه كان مارقاً من الدين^(٤).
فأما جوده، فإن ابن بيض^(٥) الشاعر دخل عليه يوماً، فقال: إني مدحتك بيتين قيمتهما عشرة آلاف درهم، فأحضرها حتى أنشدهما، فأحضر الدراهم، ثم أنشده ابن بيض يقول:
قَدْ كَانَ آدَمُ قَبْلَ حَيْنِ وَفَاتِهِ أَوْصَاكَ وَهُوَ يَجُودُ بِالْحَوْبَاءِ
بَنِيهِ أَنْ تَرَعَاهُمْ فَرَعِيَّتُهُمْ وَكَفَيْتُ آدَمَ عَيْلَةَ الْأَبْنَاءِ
فدفع إليه خالد الدراهم، وأمر أن يُضرب أسواطاً، وينادى عليه: هذا جزاء من لا يعرف قيمة شعره. ثم قال له: إن قيمتهما مائة ألف.

وروي أنه دخل على خالد شيخ كبير، فمثل بين يديه، فقال: شيخ جذبه إليك سنةً أبدت العظام، فإن رأيت أن تجبره بفضل، وتنعشه بسجل!

قال خالد: على أن أقارعك^(٦)، فإن قرعتك لم أعطك شيئاً، وإن قرعتني أعطيتك! فقارعه خالد فقرعه، فقال: أقلني، فأقاله، ثم قارعه أخرى فقرعه^(٧) أيضاً، فقال: أقلني، فأقاله ثانية، ثم قارعه، فقرع خالداً، فقال^(٨): أقلني، فقال: لا أقالني الله إذاً، فقال: اعطوه بدرة يُدخلها في جِرِّ أمه، فقال: وأخرى أيها الأمير أدخلها في أسرتها! فضحك، وأمر له ببدرتين.
وكان يقول: أيها الناس، لو رأيتم البخل لرأيتموه مشوهاً تنفر منه القلوب.

وقال له بعض أصحابه: والله لنسألك أموراً لا حاجة إلينا بها، فقال: ولم؟ قال: لعلمنا بمحبتك فيمن سألك حاجةً.

(١) كذا في ت، وفي ط: "خيل أمير المؤمنين".

(٢) ط: "حتى جعلتها".

(٣) ط: "فمن يقبضها".

(٤) كذا في ت، وفي ط: "في الدين".

(٥) ط: "حيص بيص"؛ تصحيف.

(٦) ت: "هل لك أن أقارعك؟".

(٧) ت: "ثم قارعه فقرعه خالد".

(٨) ط: "فقال لخالد".

وأما فصاحته، فمنها أنه قام على المنبر بواسطة، فحمد الله وصلى على نبيه، ثم قال: أيها الناس، تنافسوا في المكارم، وسارعوا إلى المغانم^(١)، ومهما يكن لأحدكم^(٢) عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها، فالله أحسن له جزاء، وأجزل عليه عطاء. واعلموا أن حوائج الناس إليكم نعم من الله عليكم، فلا تملوها فتحول نفعاً؛ وأفضل الماس ما أكسب أجراً، وأورث ذكراً، وأجود الناس من أعطى من لا يرجوه، ومن لم يطب حرثه لم يزك^(٣) نبتة، والأصول عن مغارسها تنحوا، وبأصولها تسمو. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ومنها أنه صعد يوماً للمنبر، فأرتج عليه الكلام، فقال: أيها الناس، إن الكلام يجيء أحياناً، ويعزب أحياناً؛ وربما طلب فأبى، وكوبر فعصى، والتأني^(٤) لمجيه، أيسر من التعاطي لأبيته، وقد يُختلج من^(٥) الجريء جنانه، ويتعاصى^(٦) على الذرب لسانه، ثم لا يكابر القول إذا امتنع، ولا يرد إذا اتسع، وأولى الناس من عذر على النبوة، ولم يؤخذ^(٧) على الكبوة، من عرف ميدانه، اشتهر إحسانه، وسأعود وأقول. ثم نزل.

وأما مروقه من الدين واستهتاره^(٨)، فحكى أنه حفر بئراً بمكة عذبة الماء، ثم نصب طستاً إلى جانب زمزم، ثم خطب فقال: قد جئكم بماء العاذبة، لا تشبه ماء أم الخنافس - يعني زمزم - ثم قال: إن نبي الله إسماعيل استسقى ربه فسقاه ملحاً أجاًجاً، وسقى أمير المؤمنين عذبا زلالاً فراثاً - يعني هذه البئر.

وحكي [أن]^(٩) سفيان بن أبي عبد الله، قال: سمعتُ خالداً القسري^(١٠) على المنبر - وكانت بنو أمية تأمر بلعن علي بن أبي طالب على المنابر يقول: اللهم افعل بعلي بن أبي طالب ابن عبد المطلب، زوج فاطمة، وأبي الحسن والحسين كيت وكيت، [هل أكنيت!]^(١١).

(١) ت: "المعالم".

(٢) ت: "لأحد".

(٣) ت: "يزل" تحريف.

(٤) ط: "التأني".

(٥) ط: "في".

(٦) ت: "ويغتاز".

(٧) ت: "يؤخذ".

(٨) ت: "واستهتاره".

(٩) من ط.

(١٠) ط: "القشيري" تحريف.

(١١) من ت.

وكان مع ذلك يبر قوماً من بني هاشم، فحكى أن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أتاه يستمичه^(١)، فلم ير منه ما يجب، فقال! أما المنافع فللهاشميين، وأما نحن فما حُبُّنا منه إلا شتمه علماً على منبره؛ فبلغ خالداً ذلك، فقال: إن أحبَّ تناولنا له عثمان بشيء!

٨١- وَقَتْلَ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ

[بشار بن برد]

هو بشار بن بُرد بن يرجوخ^(٢) الشاعر المقدم، من مخضرمي الدولتين: الأموية والعباسية، كان جده من طخارستان من سبى المهلب بن أبي صفرة، ويدعى أنه مولى بني عقيل؛ وحدث عن نفسه قال: لما دخلتُ على المهديّ قال لي: فيمن تُعدّ يا بشار؟ فأجبته^(٣) وقلت: أما اللسان فعربي، وأما الأصل فعجمي، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين: وَبُنَيْتُ قَوْمًا بِهِمْ جِنَّةٌ يَقُولُونَ مَنْ ذَا وَكُنْتُ الْعَلَمُ^(٤) أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِي جَاهِلًا لِيَعْرِفَنِي أَنَا أَنْفُ الْكَرَمِ نَمْتُ فِي الْكَرَامِ بَنِي عَامِرٍ فِرْعَوْنِي وَأَصْلِي قُرَيْشُ الْعَجَمِ وَكَانَ يَتَلَوْنَ فِي وَلَائِهِ، فَتَارَةً يَفْتَخِرُ بِقَيْسٍ، وَتَارَةً بِغَيْرِهِمْ، وَتَارَةً يَقُولُ^(٥): أَصْبَحْتُ مَوْلَى ذِي الْجَلَالِ وَبَعْضُهُمْ مَوْلَى الْعُرَيْبِ فَجُدْ بِفَضْلِكَ وَأَظْهَرِ وَأَرْجِعْ إِلَى مَوْلَاكَ غَيْرِ مَدَافِعِ سُبْحَانَ مَوْلَايَ الْعَلِيِّ الْأَكْبَرِ! وَكَانَ يَلْقَبُ بِالْمَرْعَثِ، لِرِعَاثِ [كَانَ]^(٦) فِي أُذُنِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ، وَالرِّعَاثُ: الْقُرْطُ، وَقِيلَ: لَبِيتَ ذَكَرَ فِيهِ الرِّعَاثُ.

وَوُلِدَ أَعْمَى، فَكَانَ يَقُولُ: أَشَدُّ مَا هُجِيتَ بِهِ قَوْلُ الْبَاهِلِيِّ^(٧) وَعَبْدِي فَقَا عَيْنِيكَ فِي الرَّحِمِ أَيْرُهُ فَجِئْتُ وَلَمْ تَعْلَمْ لِعَيْنِيكَ فَاقَةً

(١) ط: "يستمنحه" وهما سواء.

(٢) كذا ضبط في الأغاني ٣: ١٣٦ (طبعة دار الكتب).

(٣) ت: "فقلت".

(٤) الأغاني ٣: ١٣٩.

(٥) ط: "ينشد ويقول".

(٦) من ط.

(٧) بعدها في ط: "حيث يقول".

وكان يشبه الأشياء بما لا يقدر عليه البصراء، وسئل عن ذلك فقال: عَدَمُ النظر يقوِّي ذكاء القلب، ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفّر حِسُّه^(١).

وسئل أبو عبيدة: مَنْ أشعر عندك؟ بشار أم مروان بن أبي حفصة؟ فقال: إِنَّ بشاراً حكَمَ لنفسه بأمورٍ لم يُعْطَها غيره، وذلك أنه قال: لي إثنا عشر ألف بيت جيد، فقليل له: كيف ذلك؟ فقال: لي إثنا عشرة قصيدة، إن لم يكن في كل قصيدة بيت جيد فلَعَنَها الله، ولعن قائلها! وكان يُتَّهَمُ بالزندقة، وروى الجاحظ قوله:

الأَرْضُ مظلمةٌ، والنَّارُ مُشْرِقةٌ والنَّارُ مَعْبُودَةٌ مذ كانت النَّارُ^(٢)
وقال: بهذا البيت وجد واصل بن عطاء السبيل إلى تكفير بشار، وخطب فيه خطبته المحذوفة الرء.

وحكى سعيد بن مسلم، قال: كان بالبصرة ست من أصحاب الكلام: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وبشار الأعمى، وعبدالكريم بن أبي العوجاء، وصالح بن عبد القدوس، ورجلٌ من الأزد -يعني جرير بن حازم- فكانوا يجتمعون في منزل الأزدِيّ ويختصمون عنده؛ فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال؛ وأما عبدالكريم وصالح فصارا إلى الثنوية^(٣)؛ وأما الأزدِيّ، فمال إلى السمنية -وهو مذهب من مذاهب أهل الهند- وأما بشار فبقي متحيراً، فقليل: إنه قال بعد بمذهب الثنوية وعدم الرجعة^(٤).

(١) حاشية ت: "وهو من الثلاثة المطبوعين الذين لا يقدر على جمع شعرهم لكثرة، وهم بشار بن برد، والسيد الحميري، وأبو العتاهية. ويقال: إن بشاراً وُلِدَ على الرق أيضاً، وأعتقته امرأة عقيلية، فيقال: العقيلي، وهذه النسبة إلى عقيل بن كعب؛ وهي قبيلة كبيرة؛ وكان بشار أكمه؛ وُلِدَ أعمى، جاحظ الحدقتين، قد تغشاه لحم أحمر؛ وكان ضخماً عظيم الخلق والوجه مجدراً طويلاً، وهو في أول مرتبة المحدثين، ومن الشعراء المجيدين فيه؛ فمن شعره في المشورة:

إذ بلغ الرأي المشورة فاستعِزْ
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً
وما خَيْرُ كَفِّ أَمْسِكَ الغلّ أختها
وله البيت السائر المشهور؛ وهو:

هَلْ تَعْلَمِينَ وراءَ الحبِّ منزلةً
أَيُّ أبعَدني عنك. ومن شعره؛ وهو أغزل بيت قاله المولدون:

أنا والله أَشْتَهِي سِخْرَ عَيْنَيْكَ
وأخشى مصراعَ العُشْاقِ
ومن شعره أيضاً:

يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقةٌ
قالوا بمن لا ترى تهذي! فقلتُ لهم

من تاريخ ابن خلكان.

(٢) البيان والتبيين ١: ١٦.

(٣) الثنوية: أصحاب الإثنين: النار والظلمة.

(٤) ط: "وبعد تزدنق".

وقال أحمد بن خالد^(١): كنت أكلم بشاراً، وأردُّ عليه سوء مذهبه بميله إلى الإلحاد؛ فكان يقول: لا أعرف إلا ما عاينت أو عاينه مُعَاين، وكاد يطول الكلام بيننا؛ فقال لي: ما أظنُّ الأمر يا أبا مخلد إلا كما يقال: إنه خذلان، ولذلك أقول:

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِيَّ غَيْرَ مَخِيرٍ هَوَايَ وَلَوْ خَيْرْتُ كُنْتُ الْمَهْدَبَا
أَرِيدُ فَلَا أُعْطَى وَأُعْطَى وَلَمْ أُرَدْ وَعُيِّبَ عَنِّي أَنْ أَنْالَ الْمَعْيَا
وَأَصْرَفَ عَنِ عِلْمِي وَعِلْمِي مَبْصَرٌ فَأُمْسِي وَمَا أَعْقَبْتُ إِلَّا التَّعَجُّبَا
وروى المازني، قال: قال رجل لبشار: أأكل اللحم وهو مبينٌ لمذهبك؟ فقال: إنما أَدْفَعُ بِهِ شَرَّ هَذِهِ الظُّلْمَةِ.

وبمثل هذه الحكايات المنسوبة إليه، دَبَّرَ عليه [يعقوب]^(٢) وزير المهدي حتى قُتِلَ. حكى ابن نصر، قال: قَدِمَ بَشَّارٌ مِنَ البَصْرَةِ إِلَى بَغْدَادَ، وَقَدْ مَدَحَ الْمَهْدِيَّ بِقَصِيدَتِهِ الرَّائِيَةِ^(٣)، ثُمَّ أَنْشَدَهُ إِيَّاهَا فَلَمْ يَحْظَ مِنْهُ بِشَيْءٍ، فَقِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَسْتَجِدْ شَعْرَكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ مَدَحْتُهُ بِشَعْرٍ لَوْ مُدِّحٌ بِهِ الدَّهْرُ لَمْ يُحْسِنْ صَرْفَهُ عَلَى أَحَدٍ، وَلَكِنَّا نَكْذِبُ فِي الْقَوْلِ، فَتُكْذَبُ فِي الْأَمَلِ. ثُمَّ مَدَحَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ وَزِيرَهُ، فَلَمْ يَحْفَلِ بِهِ، وَلَمْ يَعْطِهِ شَيْئاً، وَأَقَامَ يَنْتَظِرُ جَائِزَتَهُ بِرَهَةٍ، فَمَرَّ يَعْقُوبُ يَوْماً بِبَشَّارٍ فَصَاحَ بِبَشَّارٍ:

* طَالَ الثَّوَاءُ عَلَى رُسُومِ الْمَنْزِلِ *

فقال يعقوب:

* فَإِذَا تَشَاءَ أَبَا مُعَاذٍ فَارْحَلْ *

فغضب بشار، وقال يهجوهُ:

بَنِي أُمَيَّةَ هُبُّوا طَالَ نَوْمُكُمْ إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
ضَاعَتْ خِلَافَتُكُمْ يَا قَوْمَ فَالْتَمِسُوا خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ النَّايِ وَالْعُودِ
ثم رحل وحضر حلقة يونس النحوي، فقال: هاهنا من نحتشمه! فقال: لا، فأُشْدِدْ هِجَاءَ فِي الْمَهْدِيِّ، وَهِجَاءَ فِي يَعْقُوبَ، فَسَعَى بِهِ إِلَى يَعْقُوبَ.

(١) ت: "خلاد".

(٢) من ط.

(٣) هي القصيدة التي مطلعها:

تَجَالَلْتُ عَنْ فَهْرٍ وَعَنْ جَارَتِي فَهْرٍ وَوَدَّعْتُ نَعْمَى بِالسَّلَامِ وَبِالْهَجْرِ
ديوانه ٣: ٢٧٢ - ٢٩٠.

وكان المهدي قد قدم عليه البصرة، فدخل عليه يعقوب، وقال للمهدي: إن بشاراً زنديق، وقد قامت عليه البيّنة، وقد هجا أمير المؤمنين، فأمر ابن نُهيك - وهو صاحب الشرطة - بأمره، ثم أَرْفَ خروجه، فأخرج ابن نُهيك معه في زورق، فلما كانوا بالبُطِيحَة ذكره، فأرسل إلى ابن نُهيك يأمره^(١) بضرب بشار بالسياط ضرب التَّلَف، ويلقيه بالبُطِيحَة، فأمر به فأقيم في صدر السفينة، وأمر الجلادين أن يضربوه ضرباً متلفاً، فجعل يقول كلما وقع عليه السوط: "حَسَّ"، وهي كلمة تقولها العرب عند الألم. فقال بعضهم: انظروا إلى زندقته، ما نراه يحمد الله تعالى، فقال بشار: ويلك! أتريدُ هو أحمد الله عليه! فلما بلغ سبعين سوطاً أشرف على الموت، فأُلْقِيَ في صدر السفينة، فقال: ليت عين أبي الشمقمق تراني حين يقول:

إِنَّ بَشَارَ بْنَ بَرْدٍ تَيْسُ أَعْمَى فِي سَفِينِهِ^(٢)

ثم مات من ساعته، فأُلْقِيَ في خَرَّارَة البُطِيحَة، فحمله الماء إلى البصرة، فأخذه أهله ودفنوه [بها، وذلك في سنة سبع. وقيل: ثمان وستين ومائة، وقد نَقَّ على تسعين سنة، والله أعلم]^(٣).

وحكى ابن خَلَّاد قال: لما ضُرِبَ بشار بعث المهدي إلى منزله مَنْ يفتشه على كتب الزندقة، فوجدوا طوماراً فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. إني أردتُ^(٤) هجاء آل سليمان بن علي، فذكرتُ قرابتهم من رسول الله ﷺ، فتركتهُم إجلالاً له ﷺ فلما قرأه بكى وندم على قتله، وقال: لا جزى الله يعقوب

(١) ط: "أن يضربه بالسياط".

(٢) وفي حاشية ت: "قوله:

إِنَّ بَشَارَ بْنَ بَرْدٍ تَيْسُ أَعْمَى فِي سَفِينِهِ

ويروى بالباء الموحدة تحت والتاء المثناة من فوق، وعندي أن روايته بالباء الموحدة أولى؛ لأن في روايته بالمثناة حذف التنوين؛ وهو لحن معيوب جداً فتأمل. أو يكون بتنوينه؛ ولكن همزة "أعمى" تكون للوصل، وفيه نظر، ويستقيم البيت بالمثناة فاعرف.

(٣) من ت.

(٤) ط: "أريد".

خيراً! فإنه لما هجاه لفق عليه شهوداً على أنه زنديق، فقتله، وندمت حين لا ينفع الندم^(١):
ومن مستظرف أخبار بشار، قال له هلال بن عطية يوماً يمازحه، وكان صديقاً له: إن الله تعالى لم يذهب بصر^(٢) أحد، إلا عوّضه منه شيئاً، فما عوّضك؟ قال: الطويل العريض، قال: وما هو؟ قال: أني لا أراك ولا أمثالك من الثقلاء، ثم قال: يا هلال، أنطيعني في نصيحة أنصحك بها؟ قال: نعم، قال: إنك كنت تسرق الحمير زماناً ثم تبت، وصرت رافضياً، فعد إلى سرقة الحمير، فهي والله خير لك من الرّفص!

ومرت به نسوة حسان، فقلن له: أيسرك أننا بناتك يا أبا معاذ؟ فقال: إي والله، والدين كسروي، ويقال: إنه كفر بهذا اللفظ، فإنه أراد يسرني أيضاً أن الدين كسروي.
ودخل يوماً الحمام وفيه بعض ولد قتيبة، فقال: يا بشار، وددت أنك تبصر فتراني في الحمام، وتعلم كذبك في قولك حيث قلت:

عَلَى أَسْتَاهِ سَادَتِهِمْ كِتَابٌ مَوَالِي عَامِرٍ وَسُـمُّ بَنَارٍ
فَقَالَ بَشَارٌ: يَا ابْنَ أَخِي، ذَهَبَ عَنْكَ الصَّوَابُ، إِنَّمَا قُلْتَ: "سَادَتِهِمْ" وَلَسْتَ مِنْهُمْ.
وكان يوماً في مجلس المهديّ ينشده قصيدة في مدحه، فدخل خال المهديّ، وكان فيه غفلة، فقال لبشار: ما صناعتك؟ فقال: أثقب اللؤلؤ! فضحك المهديّ وكلّ من حضر.
وجلس إليه رجل فاستثقله، فضرط، فظنّ الرجل أنها انفلتت^(٣) منه [غضباً]^(٤)، ثم ضرط أخرى، ثم أخرى، فقال له الرجل: ما هذا الفعل! فقال: مه: أرايت أم سمعت؟ فقال: بل سمعت صوتاً قبيحاً، قال: فلا تصدّق حتى ترى! فقام الرجل من ساعته وتركه.
ووقف عليه بعض المُجّان وهو يُنشد شعراً له، فقال: يا بشار، أستر شعرك كما تستر عورتك؟ فغضب بشار وصفّق بيديه، وتفلّ عن يمينه ويساره - وكان يفعل ذلك إذا غضب -

(١) ت: "الندامة". وفي حاشية ت: "وروى الطبري في تاريخه: كان سبب قتل المهدي لبشار، أن المهدي ولى صالح ابن داود أخا يعقوب بن داود وزير المهدي ولايته، فهجاه بشار بقوله ليعقوب:
لَقَدْ حَمَلُوا فَوْقَ الْمَنَابِرِ صَالِحاً أَخَاكَ فَضَجَّتْ مِنْ أَخِيكَ الْمَنَابِرُ
فبلغ يعقوب هجاءه، فدخل على المهدي وقال: إن بشاراً هجأك، فقال: ويلك! ما قال؟ فقال: يعفني أمير المؤمنين من إنشاد ذلك، فقال: لا بد، فأنشده:

خَلِيفَةُ يَزِيدَ بَعْمَاتٍ _____ يَلْعَبُ بِالْذَّبِّ وَقِ وَالصَّوْلُجَانِ
أَبْدَلْنَا اللَّهَ بِهِ غَيْرَهُ وَدَسَّ مُوسَى فِي جِرِّ الْخِيَرَانِ
فطلبه المهدي، فخاف يعقوب أن يدخل عليه فيمدحه فيعفو عنه، فوجه إليه من ألقاه في البُطيحة".

(٢)

(٣) د: "أفلتت".

(٤) من ط.

وأراد أن يقول هجاء، ثم قال: ويلك! مَنْ أنت؟ فقال: أنا [أعزك الله] ^(١) من باهلة ^(٢)، وأخوالي من سُلُول، وأصهاري من عَكْ، ومنزلي نهر بلال. فضحك بشار، وقال: اذهب فأنت عتيق لؤمك!

وحكى أبو عبيدة، قال: كان حماد عَجْرَد يُتَّهَمُ بالزندقة، وكان يعير بشاراً بقبح خلقته، فلما قال فيه:

والله مَا الخنزير فِي تَنَنِهِ بُرُوعُهُ فِي التَّنَنِ أَوْ خُمْسِهِ
بَلْ وَجْهُهُ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَنَفْسُهُ أَفْضَلُ مِنْ نَفْسِهِ
فقال بشار: ويلي على الزنديق! لقد نفث بما في صدره، قيل: وكيف؟ قال: ما أراد الزنديق إلا قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]؛ فأخرج الجحود بها مخرج الهجاء. وهذا خبث شديد من بشار وتغلغل.

وقد وقع بشار أيضاً في مثل هذه الواقعة، حدث السري بن الصباح، قال: دخلت على بشار بالبصرة، فقال: أما إني قد أوجعت صاحبكم، وبلغت منه -يعني حماد عجرد- قلت: بماذا يا أبا معاذ؟ فقال: بقولي هذا، وأنشد يقول:

يَا بَنَ نَهْيَا رَأْسِي عَلَيَّ ثَقِيلٌ وَاحْتِمَالُ الرَّأْسَيْنِ خَطْبٌ جَلِيلٌ
فَادْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ رَبِّي — نِ فَإِنِّي بَوَاحِدٍ مَشْغُولٌ
فقلت له: قد بلغ حماداً هذا الشعر؛ ولكنه يرويه على خلاف هذا، قال: فما يقول؟ قلت له: يقول:

فَادْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ رَبِّي — نِ فَإِنِّي عَنْ وَاحِدٍ مَشْغُولٌ
فلما سمعه أطرق، وقال: أحسن والله ابنُ الفاعلة! ثم كان يقول إذا سئل عن هذين البيتين: ليس هما لي.

ومن كلام بشار -وكان الجاحظ يעדّه مع شعره من الخطباء المذكورين- قوله: لقد عشتُ في زمان، فأدركتُ أقواماً لو أخلقت الدنيا ما تجملتُ إلا بهم، وإني لفي زمان ما أرى فيه عاقلاً حصيماً، ولا جواداً شريفاً، ولا جليساً ظريفاً، ولا مَنْ يساوي على الخيرة رغيماً.

وقال الأصمعي: قلت لبشار: إن الناس يُعجبون من أبياتك في المشورة، ويعني بذلك قوله:

(١) من ت.

(٢) بعدها في ط: "وإخواني من باهلة".

وما خيرُ كفٍّ أَمْسَكَ الغُلَّ أَخْتَهَا وما خَيْرُ سَيْفٍ لم يُؤَيِّدْ بَقَائِمِ^(١)
 ولا تجعلِ الشورى عليكِ غَضاضَةً فَرِيشُ الخوافي عُدَّةٌ للقوادِمِ
 إذا بَلَغَ الرَّأْيُ المَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ بحِزْمِ نصيحٍ أو نصاحَةِ حازِمِ
 فقال: يا أبا سعيد، إن المشاور بين صواب يفوز بثمرته؛ أو خطأ يشارك في مكروهه.
 ومات لبشار ولد، فقبل له: أجرٌ قدَّمته، وذخْرٌ أحرزته، فقال: بلى، ولدٌ دفنته، وثكل
 تعجلته، وغيب وعدته فانظرته، وإن لم أجزع للنقص لم أفرح بالزَّيد^(٢).
 ومن محاسن شعره قوله:

حَرَّمَ اللهُ أن تَرى كَأَبْنِ سَلَمٍ عُقْبَةَ الخَيْرِ مُطْعِمِ الفقراءِ^(٣)
 ما لَكِيَّ تَنَشَّقُ عن وَجْهِه الحَرَّ بٌ كما أَنشَقَّتِ السَّماءُ عن ذُكاءِ
 لَيْسَ يُعْطِيكَ للرجاءِ ولا الخَوْ فِ ولكن يَلْدُ طَعْمَ العَطَاءِ
 لا ولا أن يُقالَ شِيمَتُهُ الجَوْ دُ؛ ولكن طبائعِ الآبَاءِ
 وقوله من قصيدة في المهدي:

تَسَلَّى عن الأَحبابِ وَصالَ خَلَّةٍ وَصَرَّامُ أخرى ما يقيم على أمرِ^(٤)
 ورَكَضَ أَفراسِ الصِّبابةِ والهَوَى جرت حِجْجاً ثم اسْتَقَرَّتْ فما تَجْري
 إلى مَلِكٍ من هاشِمٍ في نَبْوَةٍ ومن حَميرٍ في المَلِكِ والعددِ الدَّثَرِ
 من المَشْتَرينَ الحَمْدَ تَنَدَّى من النَّدَى يَدَاهُ وَيَنَدَى عارِضاهُ مِنَ العَطْرِ
 فَأَلْزَمْتُ حَبْلِي حَبْلَ مَنْ لا يُغْبُهُ عَفَاةُ النَّدَى من حيث يدري ولا يدري
 وقوله في البائية المشهورة:

إذا كُنْتَ في كُلِّ الأُمُورِ مُعَاتِباً صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الذي لا تَعَاتِبُهُ^(٥)
 فَعِشْ واحداً أو صِلْ أَخاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ تارةً ومُجَانِبُهُ
 إذا أَنْتَ لم تشربْ مِراراً على القَدَى ظَمِئْتَ، وأَيُّ النَّاسِ تصفو مَشارِبُهُ!
 ويقول فيها أيضاً:

ولما تَوَلَّى الحَرَّ واعتَصَرَ الثَّرَى لَدَى القَيْظِ من نجمٍ تَوَقَّدَ لاهِبُهُ

(١) المختار ٢٥٥؛ وهذا البيت لم يرد في ط.

(٢) كذا في ت وفي ط: "بالمزيد".

(٣) ديوانه ١٥٧ - ١١٣، يمدح عقبة بن سلم.

(٤) ديوانه ٣: ٢٧٤.

(٥) ديوانه ١: ٣٠٩.

عَدَتْ عَانَةٌ تَشْكُو بِأَبْصَارِهَا الصَّدَى إِلَى الْجَبَابِ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَخَاطَبُهُ^(١)
ومنها قوله:

إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مَشَيْنَا إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ نُعَاتِيَهُ
كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ
وقوله من قصيدة لخالد البرمكي -يقال: إن خالداً كتب هذه الأبيات في صدر

مجلسه- وهي:

أَخَالِدُ إِنَّ الْحَمْدَ يَبْقَى لِأَهْلِهِ جَمَالاً وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ عَلَى الْكَدِّ^(٢)
فَأَطْعِمْ وَكُلْ مِنْ عَارَةٍ مُسْتَرَدَّةٍ وَلَا تُبْقِهَا إِنَّ الْعَوَارِيَّ لِلرَّدِّ
وقوله:

دَعَتْنِي حِينَ شَبْتُ إِلَى الْمَعَاصِي مُحَاسِنُ زَائِرٍ كَالرَّئِمْ غَضَّ
كَأَنَّ كَلَامَهُ يَوْمَ التَّقِينَا رُقَى بِأَخْذَنْ فِي طَوْلِي وَعَرَضِي
وقوله:

رُبَّمَا ثَقُلَ الْجَلِيسُ وَإِنْ كَا نَ خَفِيفاً فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ^(٣)
وَلَقَدْ قُلْتُ حِينَ وَتَدُ فِي الْأَرْضِ ضِ: ثَقِيلٌ أَرْبَى عَلَى كَيْوَانِ
كَيْفَ لَا تَحْمِلُ الْأَمَانَةَ أَرْضُ حَمَلْتُ فَوْقَهَا أَبَا مَرْوَانَ!
وقوله:

رَأَيْتُ السُّهَيْلَيْنِ اسْتَوَى الْجُودُ فِيهِمَا عَلَى بُعْدِنَا مِنْ ذَاكَ فِي حَكْمِ حَاكِمِ^(٤)
سُهَيْلِ بْنِ عَثْمَانَ يَجُودُ بِمَالِهِ كَمَا جَادَ بِالْوَجْعَا سُهَيْلُ بْنُ سَالِمِ^(٥)
وقوله:

أَرْفُقْ بِعَمْرٍو إِذَا حَرَّكَتَ نَسَبَتَهُ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ مِنْ قَوَارِيرِ^(٦)
وأما يعقوب الذي أشار بقتل بشار، فهو ابن داود بن طهمان السلمي، كان في الأصل
هو وإخوته كُتَّاباً لإبراهيم بن عبد الله بن حسن، المتغلب في أيام المنصور، فلما قُتِلَ استخفوا،

(١) العانة: جماعة حمر الوحش، والجباب فحلها.

(٢) الأغاني ٣: ١٢٦.

(٣) الأغاني ٣: ١٨٧.

(٤) الأغاني ٣: ١٥٣.

(٥) الوجعاء: الدبر.

(٦) الأغاني ٣: ١٩٠.

فَمَنْ عَلَيْهِم المَهْدِي وأطلقهم، وكانوا أدباء ألباء فصحاء، وكان المَهْدِي يتطلب الحسن بن إبراهيم بن عبد الله، فضمن له يعقوب إحضاره، وتوسط إلى أن أحضر له الحسن من مكة بأمان المَهْدِي، ودخل في الطاعة. وتمكن يعقوب وولي وزارة المَهْدِي، وغلب على أمره وسره، ودانت له الدنيا إلى أن طلبه المَهْدِي يوماً.

قال [يعقوب]^(١): فدخلت عليه وهو في مجلس مفروش في غاية الحسن، وبستان عظيم، وعنده جارية ما رأيت أحسن منها، فقال: كيف ترى؟ فقلت: متّع^(٢) الله أمير المؤمنين، لم أر كالיום! فقال: هو لك بها فيه، والجارية؛ ليتم سرورك، فدعوت له، ثم قال لي: ألك حاجة؟ فقلت: الأمر لك، فقال: ضع يدك على رأسي واحلف، ففعلت، فقال: هذا فلان من ولد فاطمة أحب أن تريخني منه؛ فاستوحش الحسن من صنع يعقوب، وعلم أنه [إن]^(٣) كانت لهم دولة لم يعيش فيها، وأن المَهْدِي لا ينظر إلى ذلك لكثرة السعاية فيه إليه والحسد له^(٤)، فمال يعقوب إلى إسحاق بن الفضل الهاشمي - وكان معظماً في دولة المَهْدِي، وهو الذي أخرج من سجن المنصور - فترامى إليه يعقوب، وأقبل يُريض له الأمور، فسعوا فيه إلى المَهْدِي، وقالوا: إن البلاد في يده وأصحابه، وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثوروا في يوم واحد على ميعاد، فيأخذوا الدنيا لإسحاق بن الفضل؛ فملئوا مسامع المَهْدِي، فأمله قليلاً، ثم تجنّى عليه جنائيات، ووضع في السجن^(٥) إلى أن عمي، وأخرج في أيام الرشيد، فلما حضر بين يديه، قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين المَهْدِي! قال: لست به، قال: الهادي! قال لست به: قال: الرشيد! قال: نعم، فسلم، ثم لحق بمكة [المشرقة]^(٦)، ومات في دولته.

٨٢- وَأَنْتَ لَوْ شِئْتَ خَرَقْتَ الْعَادَاتِ، وَخَالَفْتَ الْمَعْهُودَاتِ

الخرق: قطع الشيء وتغييره على سبيل الفساد من غير تدبر، وهو ضدّ الخلق، فإنّ الخلق فعل الشيء بتقدير، والخرق بغير تقدير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠]؛ أي حكموا بذلك على سبيل الخرق. وقولهم: رجل أخرق، وامرأة خرقاء؛ لا تفعل الأمر بإحكام ولا تدبير.

(١) من ت.

(٢) ت: "بلغ".

(٣) من ت.

(٤) ط: "السعاة به إليه والحسدة له".

(٥) ت: "الحبس".

(٦) من ط.

والعادة تكرير الفعل، مأخوذ من أعاد الحديث، إذا كرّره؛ فخرق العادات تغيير ما تكرر أفعاله من المخلوقات، واستقرّ على مرور الأيام والليالي، وكذلك الأمر في قوله: "وخالفت المعهودات".

٨٣- فَأَحَلَّتِ الْبَحَارَ عَذْبَةً، وَأَعَدَّتِ السَّلَامَ رَطْبَةً

البحر: كل مكان واسع جامع للماء الكثير^(١)، ويُقال في الأصل للماء المالح دون العذب، وإنما قيل: الْبَحْرَانِ، للملح والعذب للتغليب، كما يقال: الْعُمَرَانِ. واختلف في عدد البحار، فقليل: إنها سبعة أبحر، ستة ظاهرة وواحد محيط بالدنيا مظلم، ومنه تستمد. وقيل: خمسة، وقيل: أربعة، والأول أصح لقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ﴾ [لقمان: ٢٧].

قال بعض العلماء: ولأن السموات سَبْعٌ، والأرضين سَبْعٌ، والنجوم السيارة سَبْعٌ، والأيام سَبْعٌ، وخلق الإنسان من سَبْعٍ -يعني قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، ورزق من سَبْعٍ، لقوله تعالى:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ۚ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۚ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۚ وَفَيْكِهَةً وَأَبًّا ۚ مَتَّعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمَكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣١].

وذكر في جغرافيا^(٢) أن البحار مختلفة المقادير، فمنها ما هو على هيئة الطيلسان، ومنها ما هو على هيئة الشبّور^(٣)، ومنها ما هو على صورة التدوير، وهو الغالب عليها، وأشدّها البحر الشرقي، وهو لفارس والغربي وهو للروم، يأخذان من البحر المحيط، ويُقال له: قنطس^(٤)، والبحار تستمد منه، وهي بالنسبة إليه كالخلجان، ولا يتأتى فيه ركوب، ولا يعيش حيوان. ويقال: إن أطراف السماء عليه كالخيمة، ولا يعلم ما وراءه.

فأما البحر الشرقي فيأخذ من أقصى المغرب، وينتهي إلى أقصى الهند والصين، ومنه خلجان عظيمة تتصل بأرض الحبشة، ومنه بحر فارس أوله من الأبلّة والبصرة، وآخره بحر الهند عند جبل يقال له رأس الجمجمة، ومنه مغاصّ اللؤلؤ من جزيرة كيش^(٥).

(١) ط: "الكثار"؛ وهما بمعنى.

(٢) هو كتاب بطليموس، منه نسخة مصوّرة في دار الكتب رقم ٧٠١ - جغرافيا.

(٣) الشبّور: البوق.

(٤) ت: "قنطس".

(٥) ط: "كش"، ت: "ليس"، قال ياقوت: "كيش"، تعجيم "قيس"، جزيرة في وسط البحر تُعد من أعمال فارس؛ لأن أهلها فرس.

وأما البحر الغربي فإنه يأخذ من المحيط من المغرب في الخليج الذي بين المغرب والأندلس، ويسمى زقاق سَبْتَه؛ حتى ينتهي إلى الثغور الشامية، وقدره في المسافة أربعة أشهر، ومن القُلُزم الذي هو لسان بحر فارس، ومن بحر الروم على سَمَتِ الفَرَمَا أربع مراحل.

وزعم بعض المفسرين في قوله تعالى:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٨﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ [الرحمن: ١٨، ١٩]: إنه

هذا الموضع، وزعموا أن بحر الروم^(١) متصل بالشرقي، وأنه وُجد فيه شيء من النارجيل الذي يكون في البحر الشرقي، وهذا بعيد؛ لُبُعد ما بينهما من المفاوز والجبال.

واختلف في مبادئ البحار على أقوال:

أحدها: أنها من الاستقصات الأربعة، خلقها الله تعالى يوم خلق السموات والأرض.

والثاني: أنها بقية طوفان نوح عليه السلام.

والثالث: أنها من عرق الأرض لما ينالها من حرّ الشمس.

والرابع: أنها من مياه الأرض، فالمالح ينحدر إلى الأماكن المنخفضة، والكل ملح، وإنما

يتصعد منها للجو فيلطفه ويحليه^(٢)، ثم يهبط إلى الأرض فمنه الأنهار العذبة.

ومراد ابن زيدون أنك لو شئت فعلت ما لا يمكن، وهو تفسير قوله: "خرقت العادات"،

ومثله "وأعدت السلام رطبة". والعود: الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه.

والسلام: الحجارة الصلبة، وإنما عني بإعادتها إلى الرطبة، ما زعم قوم أن الحجارة كانت

في الزمن الأول على عهد نوح ليّنة، وعلى ذلك قول الراجز حيث يقول^(٣):

إِنَّكَ لَوْ عُمِّرْتَ عُمَرَ الْحِجْلِ^(٤) أَوْ عُمَرَ نُوحٍ زَمَنَ الْفِطْحِلِ^(٥)

وَالصَّخْرَ مَبْتَلٌ كَطِينِ الْوَحْلِ كُنْتَ رَهِيْنَ هَرَمٍ أَوْ قَتْلٍ

٨٤- وَنَقَلْتَ غَدًا فَصَارَ أَمْسًا، وَزِدْتَ فِي الْعُنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا

أصل الغد "غَدُو"، فخذوا الواو بلا عَوْض، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالْدِيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ حُلُوهَا وَغَدُوهَا بَلَاغُ^(٦)

(١) ت: "البحر الرومي".

(٢) ت: "ويحليه".

(٣) لرؤية - الحيوان: ٤: ٢٣، ثمار القلوب ٣٢٢.

(٤) الحسل: ولد الضب؛ وزعموا أنه لا تسقط له سن.

(٥) زمن الفطحل: زمن نوح، قيل: سئل رؤبة عن قوله: "زمن الفطحل"، فقال: أيام كانت الحجارة فيه رطاباً.

(٦) للبيد، ديوانه ١٦٩.

وَأَمْسٍ: اسم حُرْكَ آخره لالتقاء الساكنين، واختلف فيه، فأكثرهم يبينه على الكسر، ومنهم مَنْ يُعْرِبه إذا دخل عليه الألف واللام، يقول: مضى الأَمْسُ، وقال سيبويه: جاء في ضرورة الشعر كقوله:

لَقَدْ رَأَيْتَ عَجَباً مُذْ أَمْسَا عَجَائِزاً مِثْلَ السَّعَالِي خَمْسَا^(١)
ولا يصغر "أمس" كما لا يصغر "غد"؛ والمعنى أنك لو شئت قلبت الأشياء، إما قدرة، وإما تسمية يُقتدى الناس بك فيها.

والعناصر أصول الخلق، وهي أربعة [لا غير]^(٢): النار، الهواء، والماء، والتراب، ثنتان تذهبان صُعداً، وهما: النار، وطبيعتها حارة يابسة، والهواء، وطبيعته حارة رطبة، وثنان تذهبان سفلاً، وهما: الماء وطبيعته باردة رطبة، والتراب وطبيعته باردة يابسة. وقيل في قول فيثاغورس: والذي وهب لنا الينبوع^(٣) الأربع، أراد العناصر.

٨٥- وَأَنْكَ الْمَقُولُ فِيهِ: كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا

هذا مثال قديم، يُضرب في وصف الشيء المرابي على غيره، وأصله أن قوماً خرجوا للصيد فصادَ أحدهم ظيئاً، وآخر أرنباً، وآخر فرأى -وهو الحمار الوحشي- فقال لأصحابه: كل الصيد في جوف الفراء، يعني أن جميع صيدكم^(٤) يسير في جنب ما وجدته^(٥). وزعم بعضهم أن الفراء اسم وادٍ كثير الصيد، وهو قول مردود، وأما قول الشاعر:

* وَوَادٍ كَجَوْفِ الْعَيْرِ قَفَرٍ قَطَعْتُهُ^(٦) *

فليس من هذا، وإنما أراد الوادي المعروف بجوف حمار، وحمار اسم رجل قديم كان في وادي خصيب، فظلم عشيرته^(٧)، فأرسل الله تعالى عليه ناراً فأحرقته^(٨)، وأحرق الوادي، فخلا وسكنته الجنُّ، ف قيل: "أَخْلَى مِنْ جَوْفِ الْحِمَارِ".

(١) سيبويه ٢: ٤٤، قطر الندى ١٧.

(٢) من ط.

(٣) حاشية ت: "صوابه الينابيع"؛ إلا إذا كان الأربع ليس على معناه المتبادل.

(٤) ت: "ما صدقوه".

(٥) الميداني ٢: ٥٥.

(٦) يُنسب لامرئ القيس، وبقية:

* بِهِ الذَّبُّ يَغْوِي كَالْخَلِيعِ الْمُعَلِّ *

ديوانه ٣٧٢.

(٧) ت: "غيره".

(٨) ت: "أحرقته".

وحُجِبَ يوماً أبو سفيان بن حرب عن النبي ﷺ، ثم أذن له، فقال: يا رسول الله، ما كدت تأذن لي حتى تأذن لحجارة الجُلْهُمَتَيْنِ^(١)! فقال رسول الله ﷺ: "يا أبا سفيان، كل الصيد في جَوْفِ الْفَرَا". ثم اشتهر ذلك المثل فقبل في كل شيء حاوٍ لغيره، جامع له، قال الشاعر:

يَقُولُونَ كَافَاتُ الشَّاءِ كَثِيرَةٌ وَمَا هِيَ إِلَّا وَاحِدٌ غَيْرُ مُفْتَرَى
إِذَا صَحَّ كَافُ الْكَيْسِ فَالْكَلِّ حَاصِلٌ لَدَيْكَ وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا^(٢)

٨٦- وَلَيْسَ لِلَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ^(٣)

هذا البيت لأبي نُوَاسٍ، من جملة أبيات يقولها في الفضل بن يحيى يخاطب بها الرشيد، وهي:

قُولاً لِهَارُونَ إِمَامٍ الْهَدَى عِنْدَ احْتِفَالِ الْمَجْلِسِ الْحَاشِدِ^(٤)
أَنْتَ عَلَى مَا بَكَ مِنْ قُدْرَةٍ فَلَسْتَ مِثْلَ الْفَضْلِ بِالْوَاحِدِ
وَلَيْسَ لِلَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ

[أبو نُوَاسٍ]

وأبو نواس هو الحسن بن هانئ بن الجراح الحكمي البصري، وكنى نفسه بأبي نُوَاسٍ؛ لأنه ينتسب إلى قَحْطَانَ، وكان تعجبه كُنَى ملوكها مثل ذي رُعَيْنٍ؛ وذو نُوَاسٍ، فاكتنى بأبي نُوَاسٍ.

وكان مولده بالأهواز سنة مائة وخمس وأربعين، ثم نشأ بالبصرة، وتآدب بها على أبي زيد وخلف الأحمر، ونظر في كتاب سيبويه، وقال الشعر البارع، ومدح الخلفاء والأمراء؛ وكان يقال: هو في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين.

وكان العتابي يقول: لو أدرك الخبيث الجاهلية لم يفضل عليه أحد.

وسئل المرزباني: أيهما أشعر: أبو نواس أم الرقاشي؟ فقال: ضُراط أبي نواس في جهنم، أشعر من تسييح الرقاشي في الجنة.

ثم مدح الأمين واختص به، وصار من ندمائه بذلك، وبذلك كان أخوه المأمون يشنع عليه ويقول: كيف يصلح للخلافة وجليسه أبو نواس، القائل في مجلسه كذا وكذا! من الأشعار المحتوية على الفسق والكفر!

(١) الجلهمتان: جانب الوادي، وفي ط: "الجلهتين"، وهما بمعنى واحد.

(٢) من ت.

(٣) ويروي بيت أبي نواس بهذه الرواية أيضاً:

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ
(٤) ديوانه ٨٧.

وكان أبو نواس قد انفرد في زمانه بإتقان الشعر، وأفراط المجون والتّهتك؛ قال أبو العتاهية: عاتبته مرة على المجون فأنشد يقول^(١):

أتراني يا عتاهي تاركاً تلك الملاهي!
أتراني مفسداً بالنسك عند القوم جاهي!
فلما ألححت عليه قال:

لا تَرَجِعْ الأنفُسُ عن غيِّها ما لم يكن منها لها زاجرُ
فوددتُ أن هذا البيت لي بجميع ما قلته، وعلمت أنه لا يُصغى إلى عدل، ولم يزل على حاله إلى أن توفي ببغداد سنة مائتين هو ومعروف الكرخي في يوم واحد، فخرج مع جنازة معروف زهاء ثلثمائة ألف، ولم يخرج مع جنازة أبي نواس غير رجل واحد، فلما دُفن معروف قال قائل: أليس جمعنا وأبا نواس الإسلام! ودعا الناس فصلوا عليه، فرئني في المنام، فقليل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بصلاة الذين صلوا على معروف وعليّ. وأوصى أن يُكتب على قبره هذا:

وعظمتك أجداثٌ صُمّتْ ونعتك أزمنةٌ خُفّتْ^(٢)
يا ذا المنى يا ذا المنى عِشْ ما بدا لك ثم مُتْ^(٣)
وأخبار أبي نواس وأشعاره مجموعة، ومنها الزائدة والناقصة.

فمن مستظرف أخباره، قيل: تحاكم في سؤال رافضي ووسني، فيمن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فأتيا أبا نواس فسألاه، فقال: أفضلهم بعده يزيد بن الفضل، فقالا: ومن يزيد ابن الفضل؟ فقال: رجل يعطيني كل سنة ثلاثة آلاف درهم.

وسئل عن الخمر، فقال: خمر الدنيا أجود من خمر الآخرة، وقد جعلها تعالى لذة للشاربين، فقليل: كيف هي أجود؟ لأنها أنموذج، والأنموذج خيار الشيء.

وكان يوماً جالساً وفي يده كأس خمر، وعن يمينه عنقود عنب، وعن يساره زبيب، فقليل: ما هذا؟ فقال: الأب والابن والروح القدس.

وقيل له: أتشرب الخمر؟ قال: نعم، إذا اشتري بثمان خنزير سُرَق؛ حتى يكون حراماً ثلاث مرات.

(١) ت: "فقال".

(٢) ديوانه ١٩٩.

(٣) الديوان:

وأرثك قبرك في القبر وأنت حي لم تمّت

وحكى عن نفسه، قال: دخلت إلى دمشق وخلوت بأمرد، ودفعت له ديناراً فلما رأى متاعي استعظمه، فقلت له: إما أن تردّ الدينار وإما أن تحتلمه، وإما أن تشتت معاوية، فأذعن، فرضي بالوسط، فلما دفعته فيه سمعته يقول: هذا في رضاك قليل يا أبا يزيد. وقال له أمرد: متى تعطيني درهماً؟ قال: إذا جرى الماء في العود. وكان أبو عبيدة يجلس إلى أسطوانة في جامع البصرة، فكتب أبو نواس في أعلاها: صَلَّى إِلَهُ عَلَى لَوْطٍ وَشِيعَتِهِ أبا عبيدة، قل بالله: آمين— فلما حضر أبو عبيدة رأى البيت، ولم يعرف مَنْ كتبه، فأمر بعض تلامذته بحكّه من السارية فلم يَصِلْ، فطامن له أبو عبيدة، وصعد على ظهره إلى أن حكّه، فلما طال عليه الأمر، قال له: أفرغت؟ قال: نعم، حككت الكل إلا حرفاً، قال: وما هو؟ قال: كلمة "لوط"، قال لقد بقي الكل.

ومن شعره: قيل: إن سليمان بن المنصور دخل على الأمين فرفع إليه أنه هجاه، وأنه زنديق، وأشار عليه بقتله، فقال: يا عمّ، كيف أقتله وهو القائل: صَدَقَ الثَّناء على الأمين محمدٍ ومن الثَّناء تكذُّبٌ وتخَرُّصٌ^(١) وإذا بنو المنصور عُدَّ حَصَاهُمْ^(٢) فمحمّدٌ ياقوتُها المستخلَصُ فأنقطع سليمان عن الركوب، فأمر الأمين بحبس أبي نواس، فكتب إليه من السجن يقول:

تذكّر أمين الله والعهد يذكّرُ مقامِي وإنشاديكَ والناسُ حُضِرُ^(٣)
ونثري عليك الدّرّ يا درّ هاشمٍ فيا مَنْ رأى درّاً على الدّرّ يُنثِرُ!
ومن ذا الذي يرمي بسهمك في العلاّ وعبدٌ منافٍ والداك وحَميرُ
فإن كنتَ لم أذنب ففيم عقوبتي! وإن كان لي ذنب فعفوك أكبرُ
فلما قرأ الأبيات قال: أخرجه، ولو غضب ولد المنصور كلهم.
ومن شعره قوله من قصيدة:

يا كثير النَّوحِ في الدَّمَنِ لا عليها بَلْ على السَّكَنِ
سُنّة العُشّاقِ واحِدةٌ فإذا أحببتَ فاستنّين
ضَنّ بي مَنْ قد كلفتَ به فهو يجفونني على الضَّنّين

(١) ديوانه ١١٣، والتخرص: الإفتراء.

(٢) الديوان: "وإذا بنو العباس".

(٣) ديوانه ١٠٦.

ومنها:

تضحك الدنيا على ملكٍ قام بالآثارِ والسَّنينِ
سَنَ للنَّاسِ النَّدى فغداً فكأنَّ البخلَ لم يَكُنِ
وقوله أيضاً يمدح الأمين:

أنتَ الذي تأخذُ الأيدي بحُجزته إذا الزَّمانُ على أبنائه كَلَحاً^(١)
وكلتَ بالدهرِ عيناً غيرَ غافلةٍ من جودِ كَفِّكَ تأسو كل ما جرحا
وقوله أيضاً:

علقتُ بحبلٍ من حبالِ محمدٍ أمنتُ به من طارقِ الحدَثانِ^(٢)
تغطَّيتُ من دهري بظلِّ جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تُسألُ الأيامُ ما اسمي ما درتُ وأين مكاني ما عرفن مكاني!
وقوله أيضاً:

ألم ترَ أنني أفنيتُ عُمري بمطلبِها ومطلبُها عسيرُ^(٣)
فلما لم أجد شيئاً إليها يقرَّبني وأعيتني الأمُورُ
حَجَجْتُ وقلتُ قد حَجَّتْ جنانُ فيجمعُنِي وإياها المَسيرُ
وقوله أيضاً:

أيها العاتب في الخمرِ متى كُنْتَ سفيهاً!^(٤)
لو تركناها لعتبٍ لأطعنا الله فيها
وقوله:

دعْ عنكَ لومِي فإنَّ اللومَ إغراءٌ ودأوني بالتي كانت هي الداءُ^(٥)
صفراءُ لا تنزلُ الأحرانُ ساحتها لو مسَّها حَجَرٌ مسَّتهُ سراءُ
مِنْ كَفِّ ذاتِ حِرٍ في زيِّ ذي ذِكْرٍ لها مُحَبَّانِ لوطي وزنَّاءُ
ومنها:

دارتُ على فِتيةٍ ذلَّ الزمانُ لَهُمُ فما يصيبُهُم إلا بما شاءوا

(١) ديوانه ٤٢٦. والحجزة: معقده الإزار. وكلح: كثر في عبوس.

(٢) ديوانه ٩٧.

(٣) ديوانه ٣٧٧.

(٤) ديوانه ٣٥١.

(٥) ديوانه ٢٣٥.

ومنها يعني إبراهيم النّظام:

فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلْسَفَةً
لَا تَحْظَرُ الْعَفْوُ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا فُطْنًا
وَقَوْلُهُ أَيْضًا:

قَالُوا ظَفَرْتَ بَمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ
لَا عُذْرَ لِلصَّبِّ أَنْ تَهْوَى جَوَارِحُهُ
وَقَوْلُهُ أَيْضًا:

وَدَارَ نَدَامِي عَطَّلُوهَا وَأَذْلَجُوهَا
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزَّقَاقِ عَلَى الثَّرَى
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ
وَلَمْ أَدْرِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ
أَقْمَنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا
تَدَوَّرُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ
قَرَارَتِهَا كَسَرَى وَفِي جَنَابَتِهَا
فَلِلرَّاحِ مَا زَرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُنَا^(١)

كان الجاحظ يقول: وجدنا الشعراء تجاذبوا المعاني إلى قول عنترة في وصف الذّباب:

هَزَجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ
وَقَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ يَصِفُ الْكَأْسَ - يَعْنِي فِي هَذِهِ الْآيَاتِ السِّينِيَّةِ - فَإِنْ أَحَدًا مِنَ الشُّعْرَاءِ
لَمْ يَجْسِرْ عَلَى التَّعَرُّضِ لَهَا.

وَقَوْلُهُ:

كَيْفَ النَّزُوعِ عَنِ الصَّبَا وَالْكَاسِ
قَالُوا كَبِرْتَ فَقُلْتُ مَا كَبِرَتْ يَدِي
قِسْ ذَا لَنَا يَا عَاذِلِي بِقِيَاسِ^(٥)
عَنْ أَنْ تَجِيءَ إِلَيَّ فِي الْكَاسِ

(١) ديوانه ٢٥٠، وروايته: "أكثر ما كانت صباباتي".

(٢) ديوانه ٢٩٥.

(٣) ديوانه: "جيوبهم".

(٤) من معلقته ١٨٢ بشرح التبريزي.

(٥) ديوانه ٢٩٥.

وقوله:

يَقُولُونَ فِي الشَّيْبِ الْوَقَارُ لِأَهْلِهِ وَشَيْبِي بِحَمْدِ اللَّهِ غَيْرُ وَقَارٍ
إِذَا كُنْتُ لَا أَنْفَكَ عَنْ أَرِيحِيَّةٍ إِلَى رَشَاءٍ يَسْعَى بِكَأْسِ عُقَارٍ

وقوله:

ظَلَلْتُ حَمِيًّا الْكَأْسِ تَبْسُطُنَا حَتَّى تَهْتَّكَ بَيْنَنَا السُّتُرُ^(١)
فِي مَجْلِسٍ ضَحِكَ السُّرُورُ بِهِ عَنْ نَاجِدِيهِ وَحَلَّتِ الْخُمُرُ
وَلَقَدْ تَجَوَّبُ بِي الْفَلَاةُ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَقَالَتْ الْعُفْرُ^(٢)
شَدَنِيَّةٌ رَعَتْ الْحَمَى فَأَتَتْ^(٣) مِثْلَ الْجِبَالِ كَأَنَّهَا قَضَرُ

ومنها:

يَسْعَى إِلَيْكَ بِهَا بَنُو أَمَلٍ عَتَبُوا فَأَعْتَبَهُمْ بِكَ الدَّهْرُ
أَنْتَ الْخَصِيبُ وَهَذِهِ مَصْرُ فَتَدَفَّقَا فَكَلَا كَمَا بَخْرُ

ذكر بعض العلماء في قوله: "وَحَلَّتِ الْخُمُرُ" أربعة أوجه:

الأول: أن طيب المكان وتكامل السرور صار مقتضياً لشرب الخمر، ومُلجئاً إلى تناولها، ورافعاً للخرج فيها، على مذهب الشعراء في المبالغة، وفائدة وصفها بأنها "حَلَّتْ" المبالغة في الوصف بالحسن والجمال.

الثاني: أن يكون ألى على نفسه ألا يتناول الخمر إلا بعد الاجتماع بمحبوبه، فكان الاجتماع به مخرجاً من يمينه على عادة العرب، وعلى ذلك قول امرئ القيس:

حَلَّتْ لِي الْخُمُرُ وَكُنْتُ أَمْرًا عَنْ شُرْبِهَا فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ^(٤)

الثالث: يريد بـ"حَلَّتْ: نزلت، من الحلول لا من الحلال، كأنه وصف بلوغ آرابه، وأنها تكاملت بحضور الخمر.

الرابع: أننا استحللنا الخمر بسكرنا وذهولنا؛ وإلى ذلك أشار في المعنى بقوله:

دَرِينِي أَكْثَرَ حَاسِدِيكَ بِرَحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرٌ^(٥)
إِذَا لَمْ تَرُزْ أَرْضَ الْخَصِيبِ رُكَابُنَا فَأَيَّ فِتْنَى بَعْدَ الْخَصِيبِ تَزُورُ!

(١) ديوانه ١٠١.

(٢) صام النهار، أي جاء وقت الظهيرة. والعفر: الظباء التي يعلو بياضها حمرة.

(٣) الشدنية: الناقة الكريمة، منسوبة غلى شدن، موضع باليمن.

(٤) ديوانه ٢٥٨.

(٥) ديوانه ٩٩.

ومنها:

فإن تولني منك الجميل فأهله وإلا فإنني عاذرٌ وشكورٌ^(١)
وقوله أيضاً من أبيات رويت منها هذين البيتين:

لقد اتقيتُ الله حقَّ ثقَاتِهِ وجهدتَ نفسك فوق جُهدِ المتقي^(٢)
وأخفتَ أهلَ الشُّركِ حتى إنَّه لتخافَكَ النُّطفُ التي لم تُخلقِ
احتجَّ له بعض العلماء في هذا البيت، فقال: الإنسان إذا خاف شيئاً خافه لحمة ودمه، فكأن الأعداء خافته، ونطفها في ذلك الوقت دم، فجرى الخوف في الدم، فجرى الدم في الأخلاط فجرت الأخلاط، واستحالت إلى مني بعد الانعقاد والنضج التام، فانعقد في الرِّحم، فتكوّن منه إنسان؛ فخافته من هذا القبيل. وهذا أمر غامض، والأمر فيه محتمل.
وقال آخر: خافته ذرية آدم منذ أخذ الله تعالى عليها الميثاق، وهي في ظهر أبينا آدم حين قال الله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا بَلَىٰ ﴿[الأعراف: ٤٣٢]﴾، فلبّيت في ظهر آدم صلوات الله وسلامه عليه.

والقول الأول أمكن عند الحكماء، وأما القول الثاني فهو قريب من باب الاحتمال.
وقوله:

مرّ بنا والعيونُ ترمقُنه تجرّحُ منه مواضعُ القُبَلِ^(٣)
أفرغَ في قَلْبِ الجمالِ فَمَا يصلُحُ إلّا لذلكِ العملِ
وقوله أيضاً، وقد هجا بعضهم فسمع منه ما لا يرضيه، فقال:

ما أنتَ بالحُرِّ فيلحَى ولا بالعبدِ يُرَجَى نفعُهُ بالعصا
فرحمتهُ الله على آدم رحمةً مَنْ عَمَّ وَمَنْ خَصَّصَا
لو كان يدري أنه خارجٌ مثلكَ من إحليلِهِ لأَخَصَصَى
وأما قوله في أمر الزهد، فأنشد يوماً هذين البيتين، يقول:

يأربُّ وجهٍ في التُّرابِ عتيق ويأربُّ حُسنٍ في التُّرابِ رقيق^(٤)
إذا أختبر الدنيا لبيبٌ تكشفت له عن عدوٍّ في ثيابِ صديق

(١) ديوانه ١٠١.

(٢) ديوانه ٦٢.

(٣) ديوانه ٣٢.

(٤) الديوان ١٩٢.

وقوله من أبيات يرثي بها الأمين، وكأنها مطوَّلة، والله أعلم:
 طَوَى الدَّهْرُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ لِمَا تُطَوِي الْمَنِيَّةُ نَاشِرٌ^(١)
 وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذِرُ الْمَوْتَ وَحْدَهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحْذِرُ
 ٨٧- والمعني بقول أبي تمام:

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ شَرَفِ الطَّبَاعِ
 هذا البيت لأبي تمام من قصيدة مطوَّلة ستأتي إن شاء الله تعالى في آخر ترجمته.

[أبو تمام]

وهو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، الشاعر الفاضل الكامل، صاحب كتاب "الحماسة".

أقول بأنه وُلد سنة تسعين ومائة، ومات في سنة ست وعشرين ومائتين من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، بقرية يُقال لها جاسم، وهي من أعمال حوَّارين، من بلاد دمشق، وكان أبوه نصرانياً، وكان إذ ذاك أبو تمام بمصر القاهرة في حادثته، يسقي الماء بالمسجد الجامع، ثم جالس الأدباء وأخذ عنهم من النظم والنثر والأدب والفضل ما لا مزيد عليه.

وكان فطناً ذكياً، محباً للشعراء وأصحاب الفضل، فلم يزل يعاينه حتى ملكه، وسار ذكره في العصر، وبلغ المعتصم إذ ذاك خبره، فرحل إليه سراً برأي بعض أصدقائه ومحبيه، فعرض عليه قصائده، فقدمه على جميع شعراء وقته وزمنه.

حدث علي بن الجهم، قال: كان الشعراء يجتمعون في كل جمعة في القبة المعروفة بهم بجامع بغداد، ينشدون الشعر، ويعرض كلُّ منهم على أصحابه ما يكون من نُظمه بعد مفارقتهم في الجمعة التي قبلها، فبينا أنا في جمعة من تلك الجُمع، ودِعبل وابن أبي الشيص^(٢)، وابن أبي فنن، والناس مجتمعون يسمعون إنشاد بعضهم بعضاً، أبصرتُ شاباً في أخريات الناس جالساً في زِيِّ الأعراب فلما فرغ كلُّ منهم وقطع إنشاده، إلتفت الشاب إلينا، وقال: قد سمعتُ إنشادكم منذ اليوم، فآسمعوا إنشادي، فقلنا: هات، فأنشد:

* فَحَوَاكَ عَيْنٌ عَلَى نَجْوَاكَ يَا مَذِلُّ^(٣) *

(١) الديوان ١٩٢.

(٢) هو عبدالله، ذكره ابن المعتز في طبقات الشعراء ٣٦٥.

(٣) ديوانه ٣: ٥ يمدح فيها المعتصم، وبقيته:
 * حَتَّامٌ لَا يَتَقَضَّى قَوْلُكَ الْخَطْلُ *

ثم مرّ فيها مُنشدّاً حتى أتى إلى قوله:

تغايّر الشّعْر فيه إذ سهرتْ لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقَتَّيْلُ

فَعَقَدَ ابْنُ أَبِي الشَّيْصِ عِنْدَ هَذَا الْبَيْتِ خِنْصِرَهُ، ثُمَّ مَرَّ فِيهَا الشَّابُّ إِلَى أَنْ أَتَى عَلَى آخِرِهَا. ثُمَّ أَنْشَدَ قَصِيدَةَ أُخْرَى فَقُلْنَا لَهُ: أَيُّهَا الشَّابُّ، لِمَنْ هَذَا الشَّعْرُ؟ فَقَالَ: لِمَنْ أَنْشَدَكُمُوهُ، قُلْنَا لَهُ: نَاشِدُنَاكَ اللَّهَ! مَنْ تَكُونُ؟ فَضَحَكَ، وَقَالَ: أَنَا أَبُو تَمَّامٍ الطَّائِيّ، فَرَفَعْنَا مَجْلِسَهُ حِينَئِذٍ، وَعَظَّمْنَاهُ تَعْظِيماً كَبِيراً، وَاشْتَدَّ إِعْجَابُنَا بِهِ لِدِمَائَةِ أَخْلَاقِهِ، وَفَصَاحَةِ مَنْطِقِهِ، وَجُودَةِ شِعْرِهِ؛ ثُمَّ إِنِّي مَا عَرَفْتُ عَقْدَ خِنْصِرِ ابْنِ أَبِي الشَّيْصِ، هَلْ كَانَ إِعْجَاباً بِهِ مِمَّا سَمِعَ فِي الْبَيْتِ مِنَ الْبَدِيعِ الْمَرْقُصِ، أَوْ أَخْذاً عَلَيْهِ فِي إِسْكَانِ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: "حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ"، أَعْنِي مِنْ لَفْظَةِ "قَوَافِيهِ"، وَهِيَ ضَرْوَةٌ جَائِزَةٌ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ!

ثُمَّ تَرَقَّتْ حَالُ أَبِي تَمَّامٍ وَتَمَوَّلَ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ حَتَّى عَادَ إِلَى بَلَدِهِ، فَضَرَبَ خِيَاماً، وَأَظْهَرَ نِعْمَةً وَأَثَاناً، فَخَرَجَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَعْضِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَمَعَهَا أُخْتُهَا تَسْتَقِيانُ، فَتَأَمَّلَتْهُ زَمَاناً ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَى صَاحِبَتِهَا وَقَالَتْ: أَنْتَ دَرِينِ الرَّجُلِ؟ قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ، قَالَتْ: بَلَى وَاللَّهِ أَنَا أَعْرِفُهُ، قَالَتْ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَتْ: إِنَّهُ اللَّهُ أَقْبَرُ جَاسِمٍ، فَلَمَّا سَمِعَ مَا قَالَتْ النَّسُوءُ، رَحَلَ مِنْ وَقْتِهِ وَسَاعَتِهِ، وَعَادَ إِلَى الْمَوْصِلِ، فَمَا زَالَ يَبْهَى إِلَى أَنْ مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ.

وَحَكَى الْبَحْثَرِيُّ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى سَعِيدِ بْنِ سَلَمٍ الطَّائِيّ، فَأَنْشَدْتَهُ قَصِيدَتِي فِي مَدْحِهِ الَّتِي أَوْهَى:

* أَأَفَاقَ صَبٍّ مِنْ هَوَى فَأُفَيْقَا *^(١)

وَالِإِلَى جَانِبِهِ شَخْصٌ لَا أَعْرِفُهُ، فَلَمَّا فَرَعَتْ مِنْهَا أَقْبَلَ عَلَيَّ ذَلِكَ الشَّخْصُ، وَقَالَ: أَمَّا تَسْتَحِي أَنْ تَتَحَلَّ شِعْرِي، وَتَنْشُدَهُ بِحُضُورِي! ثُمَّ مَرَّ فِي الْقَصِيدَةِ فَأَنْشَدَهَا مِنْ حِفْظِهِ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ سَعِيدٍ، وَالتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: يَا أَبْنَ أَخِي، قَدْ كَانَ فِي الْوَسَائِلِ عِنْدَنَا مَنُذُوحَةٌ عَنْ سَرَقَةِ الشَّعْرِ، فَخَرَجْتُ كَاسِفَ الْبَالِ، وَسَأَلْتُ عَنْ الرَّجُلِ، فَقِيلَ: إِنَّهُ أَبُو تَمَّامٍ الطَّائِيّ، فَلَمَّا بَعْدْتُ لِحَقْنِي الْحَاجِبُ وَأَمَرَنِي بِالْعُودِ، وَإِذَا أَبُو تَمَّامٍ يَضْحَكُ، فَأَسْتَدْنَانِي، وَقَالَ: يَا سَيِّدِي، الشَّعْرُ لَكَ، وَإِنَّمَا هَذِهِ عَادَتِي فِي حِفْظِ الْقَصِيدَةِ مِنْ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ. وَلَقَدْ نَعَيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي فَإِنَّهُ مَا نَبَغَ مِنْ قَبِيلَةِ مُجِيدٍ أَوْ شَرِيفٍ إِلَّا مَاتَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، أَوْ مَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

(١) ديوانه ١: ١٤٥ وبقية:

* أُمُ خَانَ عَهْداً أُمُ أَطَاعَ شَقِيقاً *

وفيه: "يمدح محمد بن يوسف".

إِذَا مُقَرَّمٌ مِّنَّا ذَرَا حَدُّ نَابِهِ تَخَمَّطَ مِّنَّا نَابَ آخِرِ مُقَرَّمٍ^(١)
 فقلت: بلى يجعلني الله فداك! ثم لزمته، وكان محسناً إليَّ إلى أن مات.
 وحكى أبو حيَّان، قال: كان لأبي تمام صديق يسكر من قَدَحَيْنِ، فكتب إليه يستدعيه إلى
 الشراب: إن رأيت أن تنام عندنا الليلة؛ فأفعل.

ومن محاسن شعره قوله:

إِلَى قُطْبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَوْ بَفَضِلِهِ مَدَحْتُ بَنِي الدُّنْيَا كَفَتَهُمْ فَضَائِلُهُ^(٢)
 تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ ثَنَّاها لِقَبْضٍ لَمْ تُطْعَمْهُ أَنَامِلُهُ
 وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بِهَا، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ
 وقوله أيضاً:

وَمُرَحَّبٍ بِالزَّائِرِينَ وَبِشْرِهِ يُعْطِي عَطَاءَ الْمُنْعِمِ الْخَضِلِ النَّدَى
 يُغْنِيكَ عَنْ أَهْلِ لَدِيهِ وَمُرَحَّبٍ عَفْواً وَيَعْتَذِرُ أَعْتَذَارَ الْمُذْنِبِ
 وقوله أيضاً:

قَوْمٌ إِذَا وَعَدُوا أَوْ أَوْعَدُوا غَمَرُوا يَسْتَعْذِبُونَ مَنَايَاهُمْ كَأَنَّهُمْ
 صِدْقاً ذَوَائِبَ مَا قَالُوا بِمَا فَعَلُوا^(٤) لَا يَأْسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا
 وقوله أيضاً:

لَا تُنْكِرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِيِ^(٥)
 وَتَنْظُرِي خَبَبَ الرِّكَابِ يَنْصُهَا مُحْيِي الْقَرِيضِ إِلَى مَمِيتِ الْمَالِ
 وقوله أيضاً:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشَرَ فَضِيلَةٍ لَوْ لَا اشْتَعَالَ النَّارُ فِيمَا جَاوَرَتْ
 طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ^(٦) مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبُ عَرَفِ الْعُودِ
 وقوله أيضاً:

لَيْسَ الْحِجَابُ بِمَقْصٍ مِنْكَ لِي أَمَلًا إِنَّ السَّمَاءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِبُ

(١) لأوس بن حجر، ديوانه ١٢٢.

(٢) ديوانه ٣: ٢٥.

(٣) ديوانه ١: ١٠٦.

(٤) ديوانه ٣: ١٧.

(٥) ديوانه ٣: ٧٧.

(٦) ديوانه ١: ٤٠٢.

وقوله أيضاً:

تُوِّفِتِ الْآمَالُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ فَتَى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مِيتَةٌ
مَضَى طَاهِرَ الْأَثْوَابِ لَمْ تَبْقَ رَوْضَةٌ كَأَنَّ بَنِي بَهَّانٍ عِنْدَ وَفَاتِهِ
لِئِنْ أَبْعَدَ الدَّهْرُ الْخَوْوْنَ بِفَقْدِهِ وقوله أيضاً:

إِذَا فُقِدَ الْمُفْقُودُ مِنْ آلِ مَالِكٍ أَلَمْ تَرَ بِالْأَيَّامِ كَيْفَ فَجَعَنَّا
رَوَاكِدُ تُقْصِي الْكَفِّ مِنْ مَتَانٍ بنى مالِكٌ قَدْ نَبَّهْتُ خَامِلَ الثَّرَى
وقوله أيضاً:

وَرَأَتْ شُحُوباً رَابَهَا فِي جِسْمِهِ ماذا يريُّكِ من جِوَادٍ مُضْمَرٍ!
عَتَقْتُ بِهِ الْإَيَّامَ حَتَّى أَنَهَا لتكاد تفجؤه بمالٍ يُقَدِّرُ
وأكثر شعر أبي تمام مختار، وهو في الشهرة كأبي الطيّب، فيكفي من شعره هذا القدر، وما أذكر في هذا الشرح من بعض هذه التراجم - التي من باب لزوم ما لا يلزم - إلا لما يتضمن من فائدة تحسُّنه، وترغُّب فيه.

وأما القصيدة التي منها البيت المذكور أبو تمام بسببه، فهي هذه:

خُذِي عِبْرَاتِ بَيْنِكَ عَنْ زَمَاعِي وَصُونِي مَا أَزَلْتِ مِنَ الْقِنَاعِ^(١)
أَلْفَةَ النَّجِيبِ كَمْ افْتِرَاقٍ أَجَدَّ فَكَانَ دَاعِيَةً اجْتِمَاعٍ!
وَلَيْسَتْ فَرْحَةُ الْأَوْبَاتِ إِلَّا لِمَوْقُوفٍ عَلَى تَرْجِ الْوَدَاعِ
تَوَجَّعُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي ضَيْلًا كَأَنَّ الْمَجْدُ يُدْرِكُ بِالصَّرَاعِ
فَتَى النَّكَبَاتِ مَنْ يَأْوِي إِذَا مَا قَطَفْنَ بِهِ إِلَى خُلُقٍ وَسَاعِ

(١) مختارات البارودي ٣: ٣٠٣، في رثاء محمد بن حميد الطوسي مع اختلاف في الرواية.

(٢) مختارات البارودي ٣: ٣٠٧ في رثاء هاشم بن عبدالله بن مالك الحزامي مع اختلاف في الرواية.

(٣) ديوانه ٢: ٣٣٦ وما بعدها.

أَبْنَنَّ مَعَ السَّبَاعِ الْمَاءَ حَتَّى لَخَالَتْهُ السَّبَاعُ مِنَ السَّبَاعِ
فَلَبَّ الْحَزْمَ إِنْ حَاوَلْتَ يَوْمًا بِأَنْ تَسْطِيعَ غَيْرَ الْمُسْتَطَاعِ

قال المرزوقي في شرح هذا البيت: يقول: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُقَدِّمَ^(١) عَلَى مَا لَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ، فَأَجِبْ حَزْمَكَ وَعَزْمَكَ، واصطبر عليه^(٢) وَلَا تُخَالِفْهُ، فَإِنْ ذَلِكَ يُؤَدِّيكَ إِلَى النُّجْحِ؛ وَهَذَا عَلَى رَأْيِ مَنْ رَوَى: "فَلَبَّ الْحَزْمَ"، مِنَ التَّلْبِيَةِ. وَنَسَبَ بَعْضُهُمْ هَذَا الْبَيْتَ إِلَى الْمَحَالِّ، فَقَالَ: الْحَزْمُ فِي تَرْكِ طُلَابٍ مَا لَا يَطَاقُ فَكَيْفَ يَعِزُّمُ^(٣) عَلَى إِدْرَاكِهِ حَتَّى يَجِيبَهُ بِالتَّلْبِيَةِ!

قال المرزوقي: وَهَذَا مِنْ قَائِلِهِ بَعِيدٌ^(٤)، إِذْ مَعْنَى الْبَيْتِ: أَجِبِ الْحَزْمَ وَعَلَيْكَ بِهِ فِيمَا تَطْلُبُ مِنَ الْمَهْمَاتِ، فَإِنَّ الْحَزْمَ يُعِينُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى عَلَى مَا لَا يُتَأَتَّى وَلَا يَتَسَهَّلُ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ: كُلٌّ مَا لَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ خُلِقَ فَاسْتَعِنْ فِيهِ بِكَذَا وَكَذَا^(٥)، يَرِيدُ أَنَّهُ مَبَارَكُ السَّعْيِ، وَيُرَادُ بِذَلِكَ الْمُبَالَغَةُ فِي تَأْتِيهِ^(٦).

وَقَالَ آخَرُ: أَرَادَ إِنْ حَاوَلْتَ يَوْمًا مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ قُدْرَتِكَ فَأَجِبِ الْحَزْمَ فَإِنَّهُ يَدْعُوكَ إِلَى تَرْكِ طَلْبِهِ^(٧).

وَرَوَى أَيْضًا: "فَلَبَّ الْعَزْمَ".

وَمِنَ الْقَصِيدَةِ أَيْضًا فِي الْمَدْحِ:

أَطَالَ يَدِي عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى وَفَيْتُ صُرُوفَهَا صَاعًا بِصَاعٍ
جَعَلْتَ الْجُودَ لَأَلَاءِ الْمَسَاعِي وَهَلْ شَمْسٌ تَكُونُ بِلَا شُعَاعٍ!
وَرَأَيْكَ مِثْلَ رَأْيِ السَّيْفِ صَحَّتْ مَشُورَةُ حَدِّهِ عِنْدَ الْمَصَاعِ^(٨)
وَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ

٨٨- وَالْمَرَادُ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا

(١) شرح الديوان: "تقدم".

(٢) شرح كذا في الديوان.

(٣) شرح الديوان: "يعين".

(٤) شرح الديوان: "تعد".

(٥) شرح الديوان: "يزيد".

(٦) شرح الديوان: "في شأنه".

(٧) نقله التبريزي في شرح الديوان ٢: ٣٣٧، ٣٣٨.

(٨) المصاع: المضاربة والمجالد.

هذا البيت لأبي الطيب المتنبي، وقد تقدم ذكره، وإنما أذكر هاهنا محاسن القصيدة التي منها هذا البيت، وهي قصيدة يمدح بها محمد بن أحمد بن عمران؛ التي يقول في أولها^(١):

* سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرْمَتْ ذَوَاتِهَا *^(٢)

[يقول فيها]^(٣):

ومطالِبٍ فيها الهلاكُ أَتَيْتُهَا ثَبَّتَ الْجَنَانِ كَأَنِّي لَمْ أَتِهَا
ومَقَانِبٍ بِمَقَانِبٍ غَاذَرْتُهَا أَقْوَاتٍ وَحَشٍ كُنَّ مِنْ أَقْوَاتِهَا
يعني كم جيشٍ، لقيته بجيش حتى اقتتلوا، وصاروا قوتاً للوحش بعد ما كان الوحش قوتاً لهم في الصيد، وفي هذا المعنى خلل؛ لأن الوحش الذي يقتات القتل لا يقتاته الفرسان في الصيد.

أَقْبَلْتُهَا غُرَرَ الْجِيَادَ كَأَنَّمَا أَيَدِي بَنِي عِمْرَانَ فِي جَبَهِاتِهَا
يعني وجَّهت الخيل قبل وجوه هذه المقانِب، وهي غُرٌّ، فكأن بياض أيدي بني عمران الممدوحين في جَبَهِاتِهَا. وإن كان أراد بياض أيديهم اللون، فليس فيه كبير معنى، وإن كان أراد بالأيدي النعم فهو مدح، وإن كان من باب تشبيه العرض بالجواهر.

الْعَارِفِينَ بِهَا كَمَا عَرَفْتُهُمْ وَالرَّاكِبِينَ جَدُودَهُمْ أَمَاتِهَا
كما ينبغي أن يقول: "والراكب جدودهم أماتها"، وإنما حملته الضرورة على وجه ضعيف في قولهم: "أكلوني البراغيث".

قال الواحدي: والذي ذكره الناس في معنى هذا البيت، أن هذه الخيل تعرفهم ويعرفونها؛ لأنها من نتائجهم تناسلت عندهم، فجدود الممدوحين كانت أمهات هذه الخيل، وسياق الأبيات قبله يدل على أنه يصف خيل نفسه لا خيل الممدوحين، وهو قوله: "أَقْبَلْتُهَا غُرَرَ الْجِيَادَ" وإذا كان كذلك لم يستقم المعنى، إلا أن يدعي مدح أنه قاتل على خيل الممدوحين، وأنهم يعطون الخيل للشُّعراء؛ والذي يزيل الإشكال أن يقال: الجياد اسم جنس، ففي قوله: "غُرَرَ الْجِيَادَ" أراد خيل نفسه وفيما بعد أراد خيل الممدوحين، والجياد يعم الخيلين جميعاً، ثم قال:

(١) ديوانه ١: ٢٢٥-٢٣٦، وفيه: "يمدح أبا أيوب أحمد بن عمران".

(٢) بقيته:

داني الصفات بعيد موصوفاتها

(٣) من ت.

فَكَانَهَا نُبِتَتْ قِيَاماً تَحْتَهُمْ وَكَانَهُمْ وَلِدُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا
 إِنَّ الْكَرَامَ بِلَا كِرَامٍ مِنْهُمْ مِثْلَ الْقُلُوبِ بِلَا سُودَاوَاتِهَا
 عَجَباً لَهُ حِفْظُ الْعَنَانِ بِأَنْمِلٍ مَا حَفِظُهَا الْأَشْيَاءَ مِنْ عَادَاتِهَا
 لَوْ مَرَّ يَرْكُضُ فِي سَطُورِ كِتَابِهِ أَحْصَى بِحَافِرِ مُهْرِهِ مِيمَاتِهَا

يعني أنه لفروسيته وحسن تصرفه في الخيل في الكرّ والفرّ، لو ركض بفرسه في طرس مكتوب، وأراد أن يحصي بحافر مِهْره الميمات لفعل، وخصّ الميمات لأنها أشبه بالحوافر، وأدقّ من العينات التي هي أيضاً تشبه الحوافر وأكثر وجوداً في الحروف، وخصّ المِهْر لأنه أشغَب من غيره.

لَا خَلَقَ أَسْمَحُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ بَكَ رَأَى نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا
 رَأَى مَقْلُوبٌ "رَأَى"، وَمِثْلُهُ نَاءٌ وَنَأَى. رَأَى مَقْلُوبٌ "رَأَى"، وَمِثْلُهُ نَاءٌ وَنَأَى.
 أَعْيَا زَوَالُكَ عَنْ مُحَلٍّ نَلْتَهُ لَا تَخْرُجُ الْأَقْمَارُ عَنْ هَالَاتِهَا
 ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا

٨٩- فَكَدَمْتُ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ، وَاسْتَسَمَنْتَ ذَا وَرَمٍ، وَنَفَخْتُ فِي غَيْرِ ضَرَمٍ
 الكدّم: العَصّ، والمكدّم: موضع العَصّ، يُضْرَبُ مثلاً لمن يطلب شيئاً لا يتمكن منه.
 وفي بعض النسخ "كرمت" بالراء، وهو خطأ. والورم: الإنتفاخ يُقال، ورم يرم.
 والسمن ضد الهزال، مأخوذ من قول المتنبي:
 أَعْيُذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فَيَمِنْ شَحْمُهُ وَرَمٌ^(١)
 وكذلك قوله: "ونفخت في غير ضرم"، هو مأخوذ من قول عمرو بن معدي كرب،
 حيث قال:

وَلَوْ نَارٌ نَفَخَتْ بِهَا أَضَاءَتْ وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادٍ
 وسيأتي ذكر عمرو فيها بعد [إن شاء الله تعالى]^(٢)، والمعنى أن هذه المرأة احتالت ولم تتمّ على شيء من حيلها.

٩٠- وَلَمْ تَجِدْ لِرِيحٍ مَهْزاً، وَلَا لِشَفْرَةٍ مَحْزاً
 الهزّ: التحريك الشديد، كأنه قال: لم تجد لريحٍ كلامٍها - يعني المرأة المرسلّة - ما يُهْزّ ويُستمال، وكذلك لشفرة احتيالها ما يحزّ وما يُقَطِّع.

(١) ديوانه ٣: ٣٦.

(٢) من ت.

٩١- بَلْ رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

[امرؤ القيس]

هذا مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ قَنِعَ بِسَلَامَةِ نَفْسِهِ فِي مَطْلَبِهِ، وَهُوَ مِنْ بَيْتٍ لَامِرُءِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرَ بْنِ الْحَارِثِ، مِنْ بَنِي أَكْلِ الْمُرَارِ، وَأُمُّهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ رِبِيعَةَ أُخْتُ مَهْلَهْلٍ وَكُلَيْبِ ابْنِي وَائِلٍ.

وَكَانَ أَبُوهُ حُجْرٌ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ بِتِهَامَةِ وَالْحِجِرَةِ، وَلَهُ إِتَاوَةٌ عَلَى بَنِي أُسَدٍ وَغَطَفَانَ، وَكَانَ قَدْ طَرَدَ ابْنَهُ لِقَوْلِ الشَّعْرِ أَنْفَةً مِنْهُ ثُمَّ قُتِلَ، وَنَهَضَ امْرُؤُ الْقَيْسِ يَطْلُبُ ثَأْرَهُ، فِي خَبَرٍ طَوِيلٍ، وَقَالَ: ضَيَّعَنِي صَغِيرًا، وَحَمَلَنِي عَنَاءَهُ كَبِيرًا. ثُمَّ قَتَلَ جَمَاعَةً مِنْ بَنِي أُسَدٍ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ قَوْمُهُ، فَلَحِقَ بِقَيْصَرَ فَاسْتَنْجَدَهُ وَمَاتَ مَسْمُومًا فِي طَرِيقِهِ، فِي قِصَّةٍ مَعْرُوفَةٍ، وَسَمَّى الْمَلِكُ الضَّلِيلُ؛ لِأَنَّهُ أَضَلَّ مُلْكَ أَبِيهِ، وَذَا الْقُرُوحَ لِأَنَّ قَيْصَرَ أَرْسَلَ عَلَيْهِ حَلَّةً مَسْمُومَةً تَقْرَحُ مِنْهَا بَدَنُهُ، وَمَاتَ.

فَأَمَّا شِعْرُهُ فَهُوَ الَّذِي لَا يَنَازَعُ فِي تَقْدِيمِهِ، وَهُوَ إِمَامُ الْمُتَقَدِّمِينَ حَقِيقَةً، وَمِنْ مُحَاسِنِ شِعْرِهِ قَصِيدَتُهُ الْمَعْلُوقَةُ^(١).

وقوله من قصيدة:

سَمَّاكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوْ فَعَرَعَرَا^(٢)
كِنَانِيَّةٌ بَانَتْ فِي الصَّدْرِ وَدُّهَا مَجَارُوةٌ غَسَّانَ وَالْحَيَّ يَعْْمُرَا
[وَمِنْهَا]^(٣):

أَشِيمُ مُصَابِ الْمَزْنِ أَيْنَ مُصَابُهُ وَلَا شَيْءَ يُشْفِي مِنْكَ يَا ابْنَةَ عَفْزَرَا
مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفَ لَوْ دَبَّ مُحَوِّلٌ مِنْ الذَّرِّ فَوْقَ الْإِتْبِ مِنْهَا لِأَثَرَا
يعني لو دَبَّ الصغير من الذر على ثوبها لأثر في جسدها، ولم يُرد بالمحوّل ما بلغ الحوّل، وإنما أراد ما هو لصغره بمنزلة الحوّل في الإبل.

فَدَعُوهَا وَسَلِّ الِهِمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ دَمُورٍ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَهَجَّرَا
كَأَنَّ الْحَصَى مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا إِذَا نَجَلَتْهُ رَجُلُهَا حَذْفُ أَعْسَرَا
خَصَّ الْأَعْسَرَ لاختلاف رمياته.

(١) ديوانه ٨ - ٢٦.

(٢) ديوانه ٥٦.

(٣) من ت.

ومنها:

عَلَى لَا حَبِّ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النَّبَاطِيَّ جَرْجَرًا
يُصِفُ قَفْرًا لَا أَعْلَامَ فِيهِ. وقوله: "لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ"، يعني ليس فيه منار يُهْتَدَى به، لا
أن فيه مناراً إلا أنه لا يهدي. والعود: الجمل البالغ تمام سنّه، وسافه، إذا شمّه، وجَرْجَر، إذا
حنّ. وعادة الإبل أن تشم الأرض التي لا تعرفها، فتحنّ لعلها يبعد المسافة.

ومنها قوله:

أَلَا رَبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ قَدْ شَهِدْتُهُ بِتَاذِفِ ذَاتِ التَّلِّ مِنْ فَوْقِ طَرَطَرَا
وَلَا مِثْلَ يَوْمٍ فِي قَذَارَانَ ظَلَّتُهُ كَأَنِّي وَأَصْحَابِي عَلَى قَرْنٍ أَعْفَرَا
اختلف المفسرون في هذا البيت، فقال بعضهم: وصفَ اليوم بالشدة ونفسه بالقلق
والاضطراب فيه حتى كأنه وأصحابه من عدم الاستقرار مقيّمون على قَرْنٍ ظبي. وقال
بعضهم: بل وصف أماكن كان فيها مسروراً منعمًا؛ لأنه قال قبل البيت: "أَلَا رَبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ"،
والمعنى أنه كان على مكان مشرفٍ عالٍ، فشبهه لارتفاعه بقرن الظبي، وإنما خصّ قرن الظبي
لأنه أعلى ما في جسده.

وقصيدته اللامية^(١) التي أولها:

* أَلَا عَمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي *^(٢)

وأما القصيدة التي منها نصف البيت المذكور من أجله، فإنه يقول فيها هذه الأبيات:

فَبَعْضَ اللَّوْمِ عَاذِلْتَنِي فَأَنِّي سَيَكْفِينِي التَّجَارِبُ وَانْتِسَابِي^(٣)
إِلَى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَّتْ عُرْوَتِي وَهَذَا الْمَوْتُ يَسْلُبُنِي شَبَابِي
يعني أن مصيره إلى التراب. وقيل: عِرْقِ الثرى آدم، وسيموت كما مات آباؤه وأجداده
إلى آدم، ثم قال:

أَرَانَا مُوَضِّعِينَ لِحِثْمٍ غَيْبٍ وَنُسَحَّرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ
أَبْعَدَ الْحَارِثِ الْمَلِكِ بْنِ عَمْرٍو وَبَعْدَ مُلُوكٍ كِنْدَةَ قَدْ تَوَلَّوْا
بَأَكْرَمِ شَيْمَةٍ وَأَقْلَّ عَابِ

(١) ديوانه ٢٧ - ٣٩.

(٢) بقيته:

* وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي *

(٣) ديوانه ٩٧ - ١٠٠.

أَرْجِي مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ لِينًا وَلَمْ تَغْفُلْ عَنِ الصُّمِّ الصَّلَابِ
أَلَمْ أَنْضِ الْمَطِيَّ بِكُلِّ خَرْقٍ أَمَقُّ الطُّوْلِ لِمَاعِ السَّرَابِ! ^(١)
وَقَدْ طَوَّفْتَ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ
فَارْجِعْهَا وَقَدْ نَقَبْتُ وَكَلَّتْ لِفَرَطِ الْأَيْنِ تَرْكَعُ لِلصَّرَابِ
وَأَعْلَمُ أَنَّنِي عَمَّا قَلِيلٍ سَأَنْشَبُ فِي شِبَا ظَفَرٍ وَنَابِ
كَمَا لَأَقَى أَبِي حُجْرٌ وَجَدِّي وَلَا أَنْسَى قَتِيلًا بِالْكُلَابِ

٩٢- وَتَمَّتِ الرُّجُوعَ بِخُفْيِ حُنَيْنٍ

اِخْتَلَفَ فِي حُنَيْنٍ هَذَا، فَقَالَ قَوْمٌ: كَانَ رَجُلًا ادَّعَى أَنَّهُ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ بِنِ عَبْدِ مَنَافٍ، فَاتَى عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَعَلَيْهِ خُفَّانِ أَحْمَرَانِ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو، أَنَا ابْنُ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ: لَا وَثِيَابَ هَاشِمٍ، مَا أَعْرِفُ فِيكَ شِمَائِلَهُ؛ فَارْجِعْ، فَارْجِعْ، فَصَارَ مِثْلًا يُضْرَبُ لِلرَّاجِعِ بِالْخَبِيَةِ.

وَقَالَ قَوْمٌ: كَانَ حُنَيْنٌ إِسْكَافًا مِنْ أَهْلِ الْحَيْرَةِ، سَاوَمَهُ أَعْرَابِيٌّ بِخُفَيْنٍ، وَلَمْ يَشْتَرِ مِنْهُ شَيْئًا، فغَاظَهُ ذَلِكَ، فَخَرَجَ وَعَلَّقَ أَحَدَ الْخُفَيْنِ عَلَى شَجَرَةٍ فِي طَرِيقِهِ، وَتَقَدَّمَ قَلِيلًا وَطَرَحَ الْآخَرَ كَمَنْ - فَجَاءَ الْأَعْرَابِيُّ فَرَأَى أَحَدَ الْخُفَيْنِ فَوْقَ الشَّجَرَةِ فَقَالَ: مَا أَشَبَّهُ هَذَا بِخُفِّ حُنَيْنٍ! لَوْ كَانَ مَعْنَى آخِرٍ لَتَكَلَّفْتُ أَخْذَهُ! ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا فَرَأَى الْخُفَّ الْآخَرَ مَطْرُوحًا، فَنَزَلَ وَعَقَلَ بَعِيرَهُ، وَأَخْذَهُ وَرَجَعَ لِيَأْخُذَ الْأَوَّلَ، فَخَرَجَ حُنَيْنٌ مِنَ الْمَكْمَنِ، وَأَخْذَ بَعِيرَهُ وَذَهَبَ، وَرَجَعَ الْأَعْرَابِيُّ إِلَى حَيِّهِ بِخُفْيِ حُنَيْنٍ.

وَقِيلَ: كَانَ حُنَيْنٌ يَهُودِيًّا نَخَسَ بِامْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ حِمَارًا، فَقَمَصَ، فَصَرَ عَهَا، فَتَكَشَّفَتْ، فَكُتِبَ بِخَبَرِهِ إِلَى عَمْرِ، فَكُتِبَ: لَيْسَ عَلَى هَذَا صَالِحَانَهُمْ، وَقَدْ خَلَعَ رُبْقَةَ الذِّمَّةِ مِنْ رَقَبَتِهِ، فَأَصْلَبُوهُ حَيًّا، فَلَمَّا نُصِبَ عَلَى خَشْبَتِهِ أَتَتْ امْرَأَتُهُ وَعَلَيْهِ خُفَّانِ فَقَالَتْ: الْآنَ تَمُوتُ، فَمَا تَصْنَعُ بِالْخُفَيْنِ! فَأَخَذَتْهُمَا مِنْ رِجْلَيْهِ، فَقَالَ النَّاسُ: انْقَلَبَتْ بِخُفْيِ حُنَيْنٍ ^(٢).

(١) أَلَمْ أَنْضِ الْمَطِيَّ؛ أَيُّ أَلَمْ أَهْزِلْهَا بِطُولِ السَّفَرِ! وَالْأَمَقُّ: الطَّوِيلُ.

(٢) انْظُرِ الْمِيدَانِي ١: ١٩٩، ٢٠٠.

٩٣- لَأَنِّي قُلْتُ:

* لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتَ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ *

هذا نصف بيت لرجل من العرب يُسَمَّى غاوي^(١) بن ظالم السُّلَمِيّ، وكان سبب قوله أنه كان لبني سُليم صنم يعبدونه في الجاهلية، وكان غاوي سادته، فبينما هو ذات يوم جالس إذ أقبل ثعلبان يشندان، فشغَرَ^(٢) كل واحد منهما رجله، وبَالَ على الصَّنم، فقال: يا بني سُليم، والله ما يضر ولا ينفع، لا يُعطي ولا يمنع، ثم أنشد:

أَرَبُّ يَبُولُ الثَّعْلَبَانِ بِرَأْسِهِ لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتَ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ
ثم كسر الصَّنم وفرّ، فأتى النبي ﷺ فأسلم، فقال له: كيف اسمك؟ فقال: غاوي بن ظالم، فقال: بل أنت راشد بن عبد ربّه^(٣).

وروي في هذا البيت "الثَّعْلَبَانِ"، بكسر النون على التثنية، وروي أيضاً بضم النون والثاء على أنه ثعلبٌ واحد، وضُرِبَ به المثل فيمن يدّعي العزَّ ويُراد به الذلّ.

٩٤- وَأَنْشَدْتُ:

عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا

هذا البيت لأبي تمام المقدم ذكره، في أبياتٍ يرثي بها غالب بن السعديّ، وهي هذه:

هُوَ الدَّهْرُ لَا يُسْوِي وَهَنَ الْمَصَائِبُ وَأَكْثَرُ آمَالِ الرِّجَالِ كَوَادِبُ^(٤)
فِيَا غَالِباً لَا غَالِباً لِرِزِيَّةٍ بَلِ الْمَوْتُ لَا شَكَّ الَّذِي هُوَ غَالِبُ
وَقُلْتُ أَخِي، قَالُوا أَخْ ذُو قَرَابَةٍ فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الشُّكُورَ أَقَارِبُ
عَجِبْتُ لَصَبْرِي بَعْدَهُ وَهُوَ مَيِّتٌ وَكُنْتُ أَمراً بَكى دماً وَهُوَ غَائِبُ
عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ

٩٥- وَنَخَرْتُ وَبَسَرْتُ، وَعَبَسْتُ فَكَفَرْتُ

النَّخِير: صوتٌ من الأنف أكثر ما يكون عند الغضب، ويُسَمَّى خَرَقَ الأنف الذي يخرج منه النَّخِيرُ مُنْخَراً، وفي المثل: "ما في الدار نخير" ومنه نخرت الشجرة، أي بليت، فهبَّ صوت الريح منها.

(١) معجم الشعراء ونقله صاحب الإصابة: "غوى".

(٢) شغَرَ الثعلب: رفع إحدى رجلية لِيُبُولَ.

(٣) الإصابة: ١: ٤٨٢، ٤٨٣.

(٤) مختارات البارودي ٣: ٣٠١.

والبُسْر: الاستعجال بالشيء قبل أوانه، ويُقال للجبن قبل النضج: بُسر، ومنه قيل لما لم يدرك من التمر بُسر، وفي قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَسَّرَ﴾ [المدر: ٢٢]، أي أظهر العُبوس قبل أوانه.

والتعبس: قطوب الوجه من ضيق الصدر، ومنه قيل: يومٌ عبوس. والكفر في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، واستعمل في جاحد النعمة لستره إياها، ولما كان يقتضي جحود النعمة صار يستعمل في الجحود مطلقاً؛ فيقال: الكافر لمن جحد الوحداية وما أشبهه، ولما جعل كل فعل محمود من الإيمان، جعل كل فعل مذموم من الكفر، وقد يشتد غضب الإنسان فيفعل ما يذم عليه فيسمى كُفراً، وقد يُعبر أيضاً بالكفر عن التبرؤ من الشيء، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْقَيْمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، فيكون المعنى في قول ابن زيدون: إنني غضبت إلى أن فعلت ما فعلت، وإنني تبرأت منك.

٩٦- وَأَبْدَأْتُ وَأَعَدْتُ، وَأَبْرَقْتُ وَأَرَعَدْتُ

يعني كررت ما يسيئك ذكره، وأصل البرق لمعان السحاب. والرعد صوته، ويُكنى بهما عن التهديد. يُقال: أرعد فلان وأبرق، إذا هدد. وكان الأصمعيُّ ينكر قولهم في ضرب المثل، يعني: "أبرق وأرعد". قال مهلهل:

أَبْرَقُوا سَاعَةَ الْهَيَاجِ وَأَرَعَدُوا نَا كَمَا تَرَعَدُ الْفُحُولُ الْفُحُولَا^(١)

٩٧- وَهَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ، وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي

يعني هممتُ بقتل هذه المرأة؛ وهذا من باب الحذف والإيجاز، لدلالة بعض الكلام على بقيته المحذوفة، كقوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾

[الرعد: ١٣]، تقديره لكان هذا القرآن؛ وهو كثير في كلام العرب؛ وقد استعملوه حتى في الحروف، وقالوا: دَرَسَ المنا يلهجون به، بمعنى "المنازل"، وقالوا: وَرَقَ الحِمَامُ، بمعنى الحمام. وهذا لفظ شعر لضابيء بن الحارث بن أرطاة البرحمي، كان رجلاً بذيّاً كثير الشرور؛ وكان صاحب صيد، أوطأ دابته صبيّاً فقتله، فَرُفِعَ إلى عثمان رضي الله عنه أيام خلافته، فأعتمر بضعف بصره فحبسه ثم خلص، وكان قد أَسْتَعَارَ كلباً للصيد من بني نهشل، فلم يردّه، فطلبوه منه، وألحوا عليه، فقال يهجوهم ويتهم أمهم بالكلب:

(١) من كلمة له في العقد ٥: ٢٨٧، وروايته هناك:

انتَضَوْا مَعْجَسَ الْقِسْيِ وَأَبْرَقْنَا كَمَا تَرَعَدُ الْفُحُولُ الْفُحُولَا

فَأُتْمَكُمُ لَا تَتْرُكُوهَا وَكَلَبُكُمْ
 إِذَا اكْتَنَفْتُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ شَخْصَهُ
 فَإِنْ عَقُوقَ الْأُمَّهَاتِ كَبِيرُ^(١)
 يَظَلُّ لَهُ فَوْقَ الْفِرَاشِ هَرِيرُ
 فَاسْتَعْدُوا عَلَيْهِ عَثْمَانُ، فَقَالَ: وَيْلَكَ! مَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَرْمِي امْرَأَةً بِكَلْبٍ غَيْرِكَ! وَاللَّهِ
 إِنِّي أَرَاكَ لَوْ كُنْتَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا نُزِلَ اللَّهُ فِيكَ قَرَانًا، ثُمَّ حَبَسَهُ. وَعَرَضَ يَوْمًا أَهْلَ
 السَّجْنِ فَوَجَدَهُ قَدْ أَعَدَّ حديدَةً لِيَقْتُلَ بِهَا عَثْمَانُ، فَأَخَذَتْ مِنْهُ وَضُرِبَ، وَتُرِكَ مَهْمَلًا فِي
 السَّجْنِ، فَقَالَ:

لَا يُعْطِينَ بَعْدِي أَمْرُؤُ ضِيمَ حَظِّهِ
 هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي
 فِرَارًا يَاقِيهِ الْمَوْتُ وَالْمَوْتُ نَائِلُهُ^(٢)
 تَرَكْتُ عَلَى عَثْمَانَ تَبْكِي حَلَالُهُ
 وَقَائِلَةٍ لَا يُبْعَدُ اللَّهُ ضَابِيًا
 إِذَا الْقُرْنُ لَمْ يَوْجَدْ لَهُ مَنْ يَنَازِلُهُ
 ثُمَّ لَمْ يَزَلْ فِي السَّجْنِ حَتَّى مَاتَ، فَلَمَّا قُتِلَ عَثْمَانُ، وَثَبَ عُمَيْرُ بْنُ ضَابِيَةَ عَلَى ضِلْعٍ
 مِنْ أَضْلَاعِهِ فَكَسَرَهَا. فَقَتَلَهُ الْحَجَّاجُ بِالْكَوْفَةِ.

٩٨ - وَلَوْلَا أَنْ لِلْجَوَارِ ذِمَّةً، وَلِلضَّيَافَةِ حُرْمَةً، لَكَانَ الْجَوَابُ فِي قَذَالِ الدُّمُسْتَقِ
 يعني لولا أنه صار لهذه المرأة حُرْمَةٌ بدخول المنزل والمؤاكلة لفعلتُ بها فعل سيف
 الدولة بالدُّمُسْتَقِ.

وهذا حل بيت المتنبي في المعنى، وذلك أن ملك الروم أرسل جيشاً إلى بلاد سيف
 الدولة، وقدم عليه بطريقاً يقال له: الدُّمُسْتَقُ - وقيل: الدُّمُسْتَقُ لقب عندهم لكل مقدم على
 جيش - فهزمه سيف الدولة، وخرج مؤلياً، وعاد إلى ملك الروم مهزوماً مرعوباً. ثم إن ملك
 الروم أرسل رسلاً وكتاباً إلى سيف الدولة يطلب الصُّلحَ والهدنة، فنظم المتنبي في هذه
 الواقعة قصيدةً يشير فيها إلى هزيمة الدُّمُسْتَقِ، فقال:

وَكُنْتُ إِذَا كَاتَبْتَهُ قَبْلَ هَذِهِ
 كُتِبَتْ إِلَيْهِ فِي قَذَالِ الدُّمُسْتَقِ
 وهذه قصيدة تُطَوَّى على أبياتٍ حسنة، ويتعلق بها خبر ظريف. قيل: دخل السريّ
 الرِّفَاءُ الشاعر على سيف الدولة يوماً، فقال: يا مولانا، كم تفضل علينا هذا الكنديّ - يعني
 المتنبي - ولو أمرتني أن أنظم على وزن أي قصيدة شئت من قصائده لنظمت ما هو أجود
 منها، فقال سيف الدولة: أنظم على وزن قصيدته التي أولها:

* لِعَيْنَيْكَ مَا يَلْقَى الْفُؤْلُ وَمَا لَقِيَ *^(٣)

(١) رغبة الآمل ٤ : ٩٠.

(٢) الكامل ١ : ٣٨٧.

(٣) ديوانه ٢ : ٣٠٤ - ٣١٦، وبقية:

* وللحبِّ ما لم يَبْقَ مِنِّي وَمَا بَقِيَ *

فخرج السريّ من عنده على ذلك، وفكّر في القصيدة فلم يجدها من طنّانات المتنبي، فعلم أن سيف الدولة أراد له بتخصيصه هذه القصيدة في الاقتراح، فنظر في أبياتها، فإذا هو يقول فيها مادحاً لسيف الدولة، ومفتخراً بنفسه:

إذا شاء أن يلهُو بلحيةٍ أحمقٍ أراهُ غُباري ثم قال له الحق
فعلم أن سيف الدولة أراد بهذا المعنى، فكفّ عن النظم.

وفي هذه القصيدة يقول المتنبي:

وما كنتُ ممن يدخل العشق قلبه ولكنّ من يُبصر جفونك يعشّق
سقى الله أيام الصبا ما يسرها ويفعلُ فعل البابليّ المعتق
إذا ما لست الدهر مستمتعاً به تخرقت والملبوس لم يتخرّق
هذا المعنى جيد، ولكن استعمال التخريق للأجساد بشع.
ومن جملة هذه القصيدة أيضاً:

نودّعهم واليّنُ فينا كأنه قنا ابن أبي الهيجاء في قلب فيلق
هوادٍ لأملاك الجيوش كأنها تخيرُ أرواح الكُماة وتنتقي
يغيرُ بها بين اللّقانِ وواسطٍ ويركُزها بين الفُراتِ وجَلق
ويرجعها حُمراً كأن صَحيجها ييكي دماً من رحمة المتدفق
فلا تبلغاه ما أقولُ فإنّه شجاع متى تُذكر له الحرب يشتق

قوله: "فلا تبلغاه"، هذه من السماجات المعدودة؛ لأنه يُنشد القصيدة هو سماعاً، عفا

الله تعالى عنه!

كسائله من يسأل الغيث قطرةً كعاذله من قال للفلك أرفق
لقد جدت حتى جدت في كلّ ملّة وحتى أتاك الحمد في كلّ منطق
رأى ملك الروم ارتياحك للندي فقام مقام المجتدي المتملق
وكنت إذا كاتبته قبل هذه كتبت إليه في قذال الدُّمُسُوق
وما كمد الحساد شيئاً قصدته ولكنّه من يزحم البحر يغرق

٩٩- وَالنَّعْلُ حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتِ الْعَرْبُ، وَالْعُقُوبَةُ مُمَكِّنَةٌ إِنْ أَصَرَ الْمُذْنِبُ
السَّجَّةُ الْأُولَى حل بيت للفضل اللّهي، من جملة أبيات، وهو مثّل يهدّد به مَنْ

عوقِبَ

[الفضل اللّهي]

وهذا هو الفضل بن العباس بن عُتْبَةَ بن أَبِي لَهَب، كان من شعراء الهاشمين
وفصحائهم؛ توفّي في خلافة الوليد بن عبد الملك، وكان طويلاً آدم اللون.
حُكِيَ أن الفرزدق مرّ به يوماً وهو يُنشد مفتخراً:

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ مَنْ بَيْنَ الْعَرَبِ^(١)
مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَا جِدَا يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

يعني بالْخُضْرَةِ آدم اللون^(٢)، والعربُ تفتخر بأنها سُمرٌ وسود، وقيل: عني بالأخضر
البحر، وأنه في نفسه وكرمه كالبحر، وعني بالمساجلة المفاخرة، وأصل المساجلة أن يملأ
الشخصان بدلوين من بئر، فأيهما ملأ أكثر كان الغالب، واستعمل في المفاخرة. وأصل
المساجلة كما ذكر، فلما سمع الفرزدق قوله تشمّر، وقال: أنا أساجلك، فقال:

بِرَسُولِ اللَّهِ وَابْنِي عَمِّهِ وَبِعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
فرجع الفرزدق، وقال: ما يساجلك إلا مَنْ عَصَى بِبَطْرِ أُمِّهِ.

وحكى أبو عبيدة، أن عمر بن أبي ربيعة قال: بينما أنا جالسٌ في المسجد الحرام في
جماعةٍ من قريش، إذ دخل علينا الفضل بن العباس اللّهي، فوافقني وأنا أنشد:

وَأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مُقَشَّعَرًا كَأَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَ بِهَا هِشَامٌ^(٣)

فقال: يا أخا بني مَخْزُوم، إن بلدة تبجّج^(٤) بها عبدالمطلب، وبُعِثَ منها رسول
الله ﷺ، وأستقرّ بها بيت الله عزّ وجلّ لحقيقة ألا تقشعرّ لهشام، وأن أشعر من هذا البيت
[وأصده^(٥)] قول الآخر:

إِنَّمَا عَبْدُ مَنْفٍ جَوْهَرٌ زَيْنُ الْجَوْهَرِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ^(٦)

(١) اللسان ٥: ٣٢٧، نسب قريش ٩٠.

(٢) اللسان ١٣: ٣٤٦.

(٣) الكامل ٢: ١٤٦، ويُنسب للحارث بن أمية، وانظر الفاضل ٤٩.

(٤) تبجّج: أقام.

(٥) من ت.

(٦) نسب قريش ٩٠.

[فأقبلت عليه، وقلت؛ يا أخا مخزوم، إن أشعر من صاحبك مَنْ يقول:
ابنُ مخزوم الحريقُ إذا حَرَّكَتْهُ تَارَةً تَرَى ضَرْمًا
يَسْطَعُ مِنْهُ الشَّرَارُ فِي لَهَبٍ مَنْ حَادَ عَنْ حَرِّهِ فَقَدْ سَلِمَا] ^(١)
فوالله ما عتَم أن أقبل عليَّ وقال: يا أخا بني مخزوم، إن أشعر من صاحبك الذي يقول
هذين البيتين:

هاشِمُ بحرٌ إذا سَمَا وَطَمَا أحمَدُ حَرٌّ الحريقِ واضْطَلَمَا ^(٢)
فَاعْلَمْ وَخَيْرُ الْمَقَالِ أَصْدُقُهُ بَأَنَّ مَنْ رَامَ هَاشِمًا هُشِمَا
فَأَسَوَدَّتْ الدُّنْيَا فِي عَيْنِي، وَلَمْ أُحِرْ جَوَابًا. وقد أطال أبو عبيدة الحكاية إلى أن ظهر
عليه التوليد.

ومن جيد شعر الفضل بن العباس قوله:
يَا مَيِّ إِنْ تَفْقِدِي قَوْمًا وَلَدْتِهِمْ أَوْ تُخْلِسِيهِمْ فَإِنَّ الدَّهْرَ خَلَّاسُ ^(٣)
عَمْرُو وَعَبْدُ مَنْافٍ وَالَّذِي عَهْدْتُ بِطَاحٍ مَكَّةَ أَبِي الضِّمِّ عَبَّاسُ
لَيْثٌ هَزَبَرٌ مُدِلٌّ عِنْدَ خَيْسَتِهِ بِالرَّقَمَتَيْنِ لَهُ أَجْرٌ وَأَعْرَاسُ
يستشهد النحاة بقوله: "أجر" على جمع جزو، والأصل "أجرو"، فحذفت الواو لوقوعها
طرفاً مضموماً ما قبلها.

وحكى عنه الجاحظ حكاية ظريفة، قال: شَرَبَ لَيْلَةً مَعَ بَعْضٍ وَلَدَ جَعْفَرٍ عَلَى سَطْحٍ،
فَلَمَّا سَكِرَ الْجَعْفَرِيُّ رَمَى بِنَفْسِهِ إِلَى أَسْفَلٍ، وَقَالَ: أَنَا ابْنُ الطَّيَّارِ فِي الْجَنَّةِ، فَتَكَسَّرَ وَتَهَشَّمَ، فَتَشَبَّثَ
الْفَضْلُ بِالْحَائِطِ وَقَالَ: أَنَا ابْنُ الْمَقْصُوصِ فِي النَّارِ.

* * *

وأما البيت الذي ذكر بسببه، فحكى أنه كان بالمدينة تاجرٌ من تجَّارها يُسَمَّى الْعَقْرَبُ،
وكان أمطل الناس، فعامله الفضل، وكان أشدَّ الناس تقاضياً، فلما حلَّ المال قعد الفضل على
باب العقرب يقرأ: وَعَقْرَبُ عَلَى سَجِيَّتِهِ فِي الْمَطْلِ. فلما أعياه ذلك قال يهجوهُ:

قَدْ تَجَرَّتْ عَقْرَبُ فِي سَوْقِنَا لَا مَرْحَبًا بِالْعَقْرَبِ التَّاجِرَةِ ^(٤)
كُلُّ عَدُوٍّ كَيْدُهُ فِي أَسْتِهِ فغَيْرُ مَحْشِيٍّ وَلَا ضَائِرِهِ
إِنْ عَادَتْ الْعَقْرَبُ عُدْنَا لَهَا وَكَانَتْ النَّعْلُ لَهَا حَاضِرِهِ
فصار هذا اللفظ مثلاً.

(١) من ت.

(٢) اصطلاحه: استأصله.

(٣) الصحيح أن هذا الشعر للمالك بن خالد الخناعي الهذلي. ديوان الهذليين ٣: ١.

(٤) الأغاني ١٥: ٧ (ساسي).

وقول ابن زيدون: "إِنَّ أَصْرَ الْمُذْنَبِ" الإصرار: العُقْدَ في الذَّنْب، وأصله من صَرَّ الشيء.

١٠٠ - وَهَبَهَا لَمْ تُلَاحِظْكَ بِعَيْنٍ كَلِيلَةٍ عَنْ عُيُوبِكَ، مِلْؤُهَا حَبِيبُهَا، حَسَنٌ فِيهَا مَنْ تَوَدَّ

يعني: هب أن هذه الواصفة لم تنظرك بعين المحبة الساترة للعيوب فيما وصفتك به من الفضائل، أليس منظرُك كما نرى من القُبْح والسَّماجة! كما سيأتي ذكره. وفي هذا اللفظ حلُّ ثلاثة أبياتٍ لثلاثةٍ من الشعراء، ولكلٍّ منهم أخبار وأشعار تشتمل على محاسن.

[الهاشمي]

فالأول قول الهاشمي:

وَعَيْنُ الرُّضَا عَنْ كُبِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْذِي الْمَسَاوِيَا^(١)
وهو عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، كان من فتيان بني هاشم وأجوادهم وفصحائهم، على أنه كان يُتَّهَم بالزندقة في دينه لصحبة قوم عُرفوا بذلك، وأشهرهم رجل يُقال له: البَقْلِي، وإنَّما سُمِّيَ بذلك لأنه كان يقول: الإنسان كالْبَقْلَةِ، إذا مات لم يرجع.

وكان عبدالله ممن ترقَّى للخلافة، واشتهر ذكره في آخر أيام بني أمية.

حكى المدائني أن عبدالله بن معاوية قدِمَ زائراً لعبدالله بن عمر بن عبدالعزيز مستمنحاً^(٢) له، فتزوَّج بالكوفة بنت الشرقي بن شَبَث بن رَبِيعي، فلما وقعت العصبية أخرجته أهل الكوفة على بني أمية [وقالوا له: أخرج فأنت أحقُّ بهذا الأمر من غيرك، وأجتمعت له جماعة، فلم يشعر به عبدالله بن عمر إلا وقد خرج عليه]^(٣). وقيل: إنما خرج في أيام يزيد بن الوليد، ودعا الناس إلىبيعة الرُّضا من آل محمد ﷺ وقيل: إنما دعا إلى نفسه، ولبس الصوف، وأظهر سبها الخير، فاجتمع عليه ناسٌ من الكوفة فبايعوه، ولم يجتمع عليه جميع أهل المِصر، وقالوا له: ما بقي فينا بقيَّة؛ فقد قتل جمهورنا مع أهل هذا البيت، وأشاروا عليه بالخروج إلى فارس ونواحي الشرق، ففعل ذلك وجمع جموعاً من النواحي، فخرج، فغلب على مياه البصرة والكوفة، وهمذان والري، وقُمَّ، وأصفهان، وأقام بأصفهان، وكان الذي أخذ له البيعة محارب ابن موسى

(١) الأغاني ١٢: ٢١٤ (طبعة دار الكتب)، وبعده:

وَأَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً فَإِنْ عَرَضَتْ أَيْقَنْتُ أَنْ لَا أَخَالِيَا

(٢) استباحه: سأله العطاء.

(٣) من الأغاني.

الْيَشْكُرِي^(١)، فدخل دار الإمارة بنعل ورداء، وجعل الناس يجتمعون عليه، فأخذهم بالبيعة، فقالوا: على ماذا؟ فقال: على ما أحببتكم وكرهتكم، [فبايعوا على ذلك]^(٢) وكتب إلى الأمصار يدعو إلى نفسه [لا إلى الرضا]^(٣) وأستعمل إخوته على كَرْمَانَ وشيراز وغيرهما.

وقصدته بنو هاشم: السفّاح والمنصور، وعيسى بن علي، ووجوه قريش، من أمية وغيرهم، فَمَنْ أَرَادَ عَمَلًا وَلَاه، وَمَنْ أَرَادَ صِلَةً وَصَلَه، وَأَحْسَنَ إِلَيْه، وَكَانَ سَمَحَ الْكَفِّ كَرِيم الْأَخْلَاقِ^(٤).

حكى ابن هرمة^(٥) قال: قصدته فوجدتُ الناس بعضهم على بعض ببابه، فرآني بعضُ خَدَمِهِ، فعرفني أن عامتهم غُرماءُ له، أرباب ديون، فقلت: هذا شر لي، ثم دخلت عليه، فقلت: لم أعلم والله بهؤلاء الغرماء، فقال: لا عليك، أنشدني، فأستحييت؛ فأبى إلا أن أنشده؛ فأنشدته أبياتاً حسنة منها^(٦):

تَرَى الْخَيْرَ يَجْرِي فِي أَسْرَةٍ وَجْهِهِ كَمَا لَا لَأْتَ فِي السَّيْفِ بِهِجَةً رَوْنَقِ
فَأمر لي بما كان عنده من المال لبعض الغُرماء، والله لا يملك غيره^(٧).

ثم لم يزل عبدالله مقيماً بنواحي فارس التي غلب عليها، حتى ولّى مروان بن محمد الجعدي، فوجه إليه عامر بن ضباعة في جيش كثيف، فسار إليه حتى إذا قُرب من أصبهان، نذب عبدالله أصحابه للخروج، فتثاقلوا عليه، ولم يفعلوا، فخرج على دهش هو وأخوته قاصدين خراسان، وقد ظهر أبو مسلم بها، وطمع في نصرته، فأخذه أبو مسلم فحبسه عنده، وجعل عليه عيناً، فزُفِع عنه أنه يقول ليس في الأرض أحقُّ منكم يا أهل خراسان في طاعتكم لهذا الرجل؛ قبل أن تراجعوه في شيء وتسألوه عنه، والله ما رضىت الملائكة بهذا عند الله عز وجل حتى راجعته في أمر آدم عليه السلام، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ حتى قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

(١) الأغاني: "مولى بني يشكر".

(٢) من الأغاني، والخبر هناك في ١٢: ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٣) من الأغاني.

(٤) الأغاني ١٢: ٢٣١.

(٥) في الأصول: "هرم"، صوابه من الأغاني.

(٦) الأغاني: "فأبى إلا أن أنشده قصيدتي التي أقول فيها:

حَلَلْتُ مَحَلَّ الْقَلْبِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَعُشُّكَ مَا وَى بِيضَهَا الْمُتَفَلَّقِ
إلى أن قال:

فَمِنْ مِثْلِ عَبْدِ اللَّهِ أَوْ مِثْلِ جَعْفَرٍ وَمِثْلِ أَبِيكَ الْأَرْيَحِيِّ الْمَرْهُقِ
الأغاني ١٢: ٢٢٦، ٢٢٧.

فشدد عليه أبو مسلم، ثم كتب إليه عبد الله رسالته التي يقول فيها: "إلى أبي مسلم، من الأسير في يديه، بغير [ذنب إليه، ولا] ^(١) خلاف عليه. أما بعد فإنك مستودع ودائع، ومُولي صنائع، وإن الودائع مرعية، والصنائع عارية، فأطلب الخلاص، وإلا اذكر القصاص ^(٢)، فإنك لاق ما أسلفت، وغير لاق ما خلّفت، وفقك الله لما ينجيك، وألهمك شكر ما خوّلك" ^(٣). فلما قرأ كتابي ^(٤) به رمى به، ثم قال: أفسد علينا أصحابنا وهو محبوس في أيدينا، فلو خرج وملك أمرنا لأهلكنا. ثم أمضى تدبيره في قتله، فدرس إليه سُمًا فمات، ووجه برأسه إلى ابن ضبارة، فحمّله إلى مروان ^(٥).

ومن شعره وما يتعلق به، حكاية حكاها إبراهيم الموصلي، قال: بينما أنا عند الرشيد وعنده ابن جامع وعمر الغزال وغيرنا من الندماء والمغنين، إذ قال صاحب الستارة لابن جامع: تغنّ من شعر عبد الله بن معاوية - ولم يكن ابن جامع يغني في شيء من شعره ولا يعرفه، وكنت قد تقدّمت فيه - فأرتج على ابن جامع، فلما رأيت ما حلّ به اندفعتُ فغنيت لعبد الله:

يَهيمُ بِجُمْلٍ وَمَا إِنْ يَرَى لَهُ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى جُمْلِهِ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ عَاشِقٌ قَبْلَهُ وَقَدْ عَشِقَ النَّاسُ مِنْ قَبْلِهِ
فَمِنْهُمْ مَنْ الْحُبِّ أَوْدَى بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ أَشْفَى عَلَى قَتْلِهِ

فإذا يدّ رفعت الستارة، ونظر إليّ، وقال: أحسنت والله! أعدّه، فأعدته، فجاء فرّاش ببدرة، فوضعها تحت فخذي، ثم قال: اجعلها ^(٦) لك، ثم انقضى المجلس، فلما كان المجلس الثاني قال صاحب الستارة: يا أبن جامع؛ تغنّ من شعر ابن جعفر - يعني عبد الله بن معاوية - فوقع في مثل الذي وقع فيه بالأمس، فغنيت من شعر عبد الله:

يَا قَوْمَ كَيْفَ سِوَاغٍ عَيْشٍ لَيْسَ تُؤْمَنُ فَاجْعَاتُهُ
لَيْسَتْ تَزَالُ مُطْلَئَةً تَعْدُو عَلَيْكَ مَنَاصِبُهُ
الْمَوْتُ هُوَ دَاخِلٌ يَوْمًا عَلَى كُرْهِ أَنْتَهُ
لَا بَدَّ لِلْحَذَرِ النَّفْوِ رِمْنِ أَنْ تَقْنَصَهُ رِمَاتُهُ
قَدْ أَمْنَحُ الْوَدَّ الْخَلِيلَ لَبَغِيرِ مَا شِئَ رَزَاتُهُ

(١) من الأغاني.

(٢) الأغاني: "واذكر القصاص".

(٣) الأغاني: "وأنا شكر ما يبيلك"، والإبلاء هنا: الإنعام والإحسان.

(٤) ط: "كتابه".

(٥) الأغاني ١٢: ٢٣٠، ٢٣١.

(٦) الأغاني: "اجعلها تكأنتك".

قال: فأومأ إليَّ صاحب الستارة أن أمسك، ووضع يده على عينه كأنه يومي إليَّ أنه يبكي. قال: فأمسكتُ، ثم انصرفنا، فقال لي ابن جامع: ما صبَّ أمير المؤمنين على ابن جعفر؟ قلت: صبَّ الله عليه لبدة الدنانير التي أخذتها. قال: ثم حضر بعد ذلك، فلما أطمأن بنا مجلسنا قال ابن جامع بكلام خفي: اللهم أنسه ذكرك ابن جعفر. قال: فقلت: اللهم لا تستجب؛ فقال صاحب الستارة: يا ابن جامع، تغنَّ في شعر عبدالله بن معاوية، فقال ابن جامع: لو كان عندهم في عبدالله بن معاوية خيرٌ لطار مع أبيه، ولم يُقبل على الشعر. قال إبراهيم: فسمِعنا ضحكته من وراء الستارة. قال إبراهيم: [فاندفعت أغني في شعره]^(١):

سَلَا رَبَّةَ الْخِذْرِ مَا شَأْنُهَا	وَمِنْ أَيِّمَا شَأْنًا تَعْجَبُ!
فَلَسْتُ بِأَوَّلَ مَنْ فَاتَهُ	عَلَى إِرْبِهِ بَعْضَ مَا يُطْلَبُ
[وَكَائِنِ تَعَرَّضَ مِنْ خَاطِبٍ	فُزَّوجَ غَيْرِ الْتِي يَخْطُبُ
وَأُنكِحَهَا بَعْدَهُ غَيْرُهُ	وَكَاثِلَ لَهْ قَبْلَهُ تُحَجَّبُ
وَكُنَّا حَدِيثًا صَفِيَّيْنِ لَا	نَخَافُ الْوُشَاةَ وَمَا سَبَّوْا
فَإِنْ شَطَّتِ الدَّارَ عَنَّا بِهَا	فَبَاثَتْ فِي النَّاسِ مُسْتَعْتَبُ]
وَأَصْبَحَ صَدْعُ الَّذِي بَيْنَنَا	كَصَدْعِ الزَّجَاجَةِ لَا يُشْعَبُ
[وَكَاكَدَّرَ لَيْسَتْ لَهُ رَجْعَةٌ	إِلَى الضَّرْعِ مِنْ بَعْدِ مَا يُحْلَبُ] ^(٢)

فأومى صاحب الستارة أن أمسك، وأشار بيده إلى أنه يبكي، فأمسكت، ثم قال: تغنَّ لابن جعفر - وكان ابن جامع شديد الحسد فقال -: لو كان في ابن جعفر خيرٌ لطار مع أبيه، ولم يُقبل على قول الشعر، فسمِعنا ضحك الرشيد، ثم أرسل إليَّ بدرةً، وإلى ابن جامع مثلها.

وأما الشعر الذي ذكر بسببه، فإنه كان صديقاً للحسين بن عبدالله بن العباس ثم وقع بينهما أمرٌ، فتهاجرا، فقال عبدالله:

إِنَّ حُسَيْنًا كَانَ شَيْئًا مُلَفَّفًا	فَمَخَّضَهُ التَّكْشِيفُ حَتَّى بَدَّالِيَا
وَأَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً	فَإِنْ عَرَضْتَ أَقْبَنْتُ أَنْ لَا أَخَالِيَا
وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ	وَلَكِنْ عَيْنَ السَّخَطِ تُبْدي الْمَسَاوِيَا
وَأَمَّا الْبَيْتُ الثَّانِي فَهُوَ قَوْلُ الْمَجْنُونِ:	
أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قَدَرَةٌ	عَلَيَّ وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا

(١) الزيادة من الأغاني.

(٢) الخبر في الأغاني ١٢: ٢٣٥ - ٢٣٨.

[مجنون ليلي]

هو قيس بن الملوّح بن مُزاحم، من بني عامر بن صَعَصَعة، شاعر غزل، سكن البادية عُمُرُه، وتوفي في آخر دولة بني أمية.
وهو المعروف بمجنون ليلي، ويقال: إنه لم يكن مجنوناً، وإنما الرُّواة، وضعت ذلك عليه.

وحكى ابن دأب، قال: قلت لرجلٍ من بني عامرٍ: أتروي من شعر المجنون شيئاً؟ فقال: أوفرغنا من العقلاء حتى نروي للمجانين! إنهم لكثير، فقلت: إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر، الذي قتله العشق، فقال: هيهات! بنو عامر أغلظُ أكباداً من ذلك! إنما يكون هذا في اليمانية الضّعاف عُقولها، الصَّعلة^(١) رؤوسها، فأما نزار فلا^(٢).
وقال الأصمعيّ: الصحيح أن الأشعار والوجد لقيس، ولكنه لم يكن مجنوناً، وإنما كانت فيه لُوثَة أحدثها العشق، وكان قد عشق جارية من قومه تُسمّى ليلي بنت سعد، وعَلِق كل منهما بصاحبه، وهما حينئذ صبيان يرعيان مواشي أهلهما، فلم يزالا كذلك حتى كبرا، وحُجبت^(٣) عنه، وفي ذلك يقول:

تَعَشَّقْتُ لَيْلَى وَهِيَ ذَاتُ ذُوَابَةٍ^(٤) وَلَمْ يَبْدُ لِلْأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجَمٌ^(٥)
صَغِيرَيْنِ نَرَعَى الْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَا إِلَى الْآنَ لَمْ نَكْبُرْ وَلَمْ تَكْبُرِ الْبَهْمُ^(٦)
حكى ابن عمارة المريّ، قال: حضرتُ إلى أرض بني عامر لألقى المجنون، فذُلت على مجلسه؛ فلقيتُ أباه شيخاً كبيراً وحوله إخوة المجنون، فسألته [عنه]^(٧)، فقال: إنه كان والله عندي أبرّ من هؤلاء جميعاً؛ وإنه عشق امرأة من قومه ما كان يطمع مثلها في مثله^(٨)، فلما فشا أمرهما كره أبوها أن يزوجه إياها بعد ما ظهر من أمرهما، فزوجه من غيره. وأول ما ظهر من حبه لها أنه طرّقنا أضياف ذات ليلة، ولم يكن عندنا أدم، فبعثته إلى أبي ليلى، فوقف على خبائه وصاح به، فقال: ما تشاء؟ فقال: طرّقنا أضياف ولا أدم لنا، فأرسلني أبي إليك، فقال: يا ليلى، أخرجني ذلك النّحي فأملي له إناؤه من السمن. فأخرجته ومعه قعب، فجعلت تصب السمن

(١) الصعلة رؤوسها؛ أي الصغيرة، وفي ط: "النغلة"، وفي ت: "النفلة"، والصواب ما أثبتته من الأغاني.

(٢) الأغاني ٢: ٣ (طبعة دار الكتب).

(٣) الأغاني: "فحجبت".

(٤) الذّوابة: شعر الناصية.

(٥) الأغاني ٢: ١١، وديوانه ٢٣٨.

(٦) الأغاني والديوان: "إلى اليوم".

(٧) من ت والأغاني.

(٨) كذا في ط، وفي الأغاني: "ما كانت تطمع في مثله"، وفي ت: "ما كان يطمع مثله في مثله".

في الإناء وهما يتحدثان، فألهما الحديث وهي تصب السمن، وقد امتلأ القعب [ولا يعلمان]، وقد سال^(١)، واستنقعت أرجلهما^(٢) في السمن ولا يشعران به، فرأهما أبوها على تلك الحال، فأمره بالأنصراف وحجبها عنه، [وزوجها]. فلما زوجها زاد هيامه. وكانا في بعض الأوقات يتحدثان، ففطن بها زوجها، فتدلّه وجنّ جنونه، وهام مع الوحش، يأكل معها من البقل، ويرد المياه، ولا يجد من يطلبه إلا قليلاً. فعجبت من أمره، ويئست من لقائه وانصرفت^(٣).

وحكى بعض بني عامر، قال: مرّرتُ بالمجنون، وهو على تلّ رمل، قد خطَّ بأصابعه خطوطاً، فدنوتُ منه، فنفر كما ينفر الوحش، فجلست معرضاً عنه، فلما طال جلوسي سكن، وأقبل يُخطُّ بأصابعه، فقلت: أحسنَ والله القائل^(٤):

وَأَنِّي لَمَفْنٍ دَمَعٌ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ حِذَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنْ^(٥)
فلما سمعني بكى حتى ابتل الرمل الذي بين يديه^(٦). ثم قال: أنا والله أشعر منه حيث أقول:

وَأَذْنَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا مَلَكَتْنِي^(٧) بِقَوْلٍ يُحِلُّ الْعَصَمَ سَهْلَ الْأَبَاطِحِ^(٨)
تَجَافَيْتَ عَنِّي حَيْثُ لَالِي حِيلَةً وَخَلَّفْتَ مَا خَلَّفْتَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ
ثم سنحت له ظبية فقام يعدو معها^(٩) وعدت أطلبه أياماً إلى أن وجدته في وادٍ كثير الحجارة خشن، وهو بين تلك الحجارة ميت. فأتيت أهله، فأعلمتهم فاحتملوه ودفنوه، ولم تبق فتاة من بنات الحي من بني جعدة وبني الحريش إلا خرجت حاسرة، ولم يرَ باكياً أحدٌ مثل ذلك اليوم^(١٠).

ومن محاسن ما روى من شعره:
أَبَى الْقَلْبَ إِلَّا حُبَّهَا عَامِرِيَّةً لَهَا كُنْيَةٌ عَمْرُو وَلَيْسَ لَهَا عَمْرُو^(١١)

- (١) ت: "وهو يسيل".
- (٢) كذا في ت، وفي ط: "من".
- (٣) الأغاني ٢: ٨٨، ٨٩.
- (٤) في الأغاني: "أحسن الله قيس بن ذريح حيث يقول":
- (٥) الأغاني: "حذاراً لما قد كان أو هو كائن"، وبعده:
- (٦) وقالوا غداً أو بعد ذلك بليلاً
- (٧) وما كنتُ أخشى أن تكون مُنَيَّتِي
- (٨) الأغاني: "حتى ظننتُ أن نفسه قد فاضت، وقد رأيت دموعه قد بلّت الرمل الذي بين يديه".
- (٩) الأغاني: "سبيتي".
- (١٠) العصم: جمع أعصم، وهو الوعل الذي في ذراعيه بياض.
- (١١) الأغاني: "ثم سنحت له ظبية فوثب يعدو خلفها".
- (١٢) الأغاني ٢: ٨٩ - ٩١ مع اختلاف في الرواية.
- (١٣) ديوانه ١٣٠.

تَكَادُ يَدَي تَنْدَى إِذَا مَا لَمْسْتُهَا
وقوله:

أَقْطَعُ حَبْلَ الْوَصْلِ، فَالْمَوْتُ دُونَهُ
فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي عَلامَ صَرْمَتِنِي
وَلَوْ تَلَقَّيْتُ أَصْدَاؤُنَا بَعْدَ مَوْتِنَا^(١)
لَظَلَّ صَدَى رَمْسِي وَإِنْ كُنْتُ رَمَّةً
وقوله:

أَقُولُ لِأَصْحَابِي هِيَ الشَّمْسُ ضَوْءُهَا
وَقَدْ يُبْتَلَى قَوْمٌ وَلَا كِبَالِيَّتِي
وَمَا فِيَّ إِلَّا الْعِظْمُ وَالْجِلْدُ عَارِيًّا
وقوله:

أَرَدُّ عَنْكَ النَّفْسَ وَالنَّفْسُ صَبَّةٌ
مَخَافَةَ أَنْ يَسْعَى الْوُشَاةُ بِظَنَّةٍ
وَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْحَصَا فَلَقَ الْحَصَا
وَلَوْ أَنَّ أَنْفَاسِي أَصَابَتْ بِحَرِّهَا
كَتَمْتُ الْهَوَى فِي الصَّدْرِ حَتَّى أَعْلَنِي
وقوله:

وَمَاذَا عَسَى الْوَاشُونَ أَنْ يَتَحَدَّثُوا
نَعَمْ صَدَقَ الْوَاشُونَ أَنْتَ حَبِيبُهُ
كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا الْخَمْرَ سَجَّهَا
وَمَا دُقُّهُ إِلَّا بَعِينِي تَفَرُّسًا

وَيَنْبُتُ فِي أَطْرَافِهَا الْوَرَقُ الْخُضْرُ

أَمْ أَشْرَبُ رَنْقًا مِنْكُمْ لَيْسَ يُشْرَبُ^(١)
وَلَا أَيُّ أَمْرِي فِيكَ بِاللَّيْلِ أَرْكَبُ!
وَمَنْ فَوْقَ رَمْسَيْنَا صَفِيحٌ مُنْصَبٌ
لِصَوْتِ صَدَى لَيْلِي يَهْشُ وَيَطْرُبُ

قَرِيبٌ وَلَكِنْ فِي تَنَاوُلِهَا بُعْدُ^(٣)
وَلَا مِثْلَ جَدِّي فِي الشَّقَاءِ بِكُمْ جَدُّ
وَلَا عِظَمَ لِي إِنْ دَامَ هَذَا وَلَا جِلْدُ

بِذِكْرَاكِ وَالْمَشَى إِلَيْكَ قَرِيبُ^(٤)
وَأَكْرَمَكُمْ أَنْ يَسْتَرِيبَ مُرِيبُ
وَبِالرَّيْحِ لَمْ يُسْمَعْ لَهْنٌ هُبُوبُ
حَدِيدًا إِذَا ظَلَّ الْحَدِيدُ يَذُوبُ^(٥)
وَنَمَّتْ لَهُ مِنْ مُقْلَتِي غُرُوبُ

سَوَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّنِي لَكِ عَاشِقُ^(٦)
إِلَيَّ، وَإِنْ لَمْ تَصْفُ مِنْكَ الْخَلَائِقُ
بِمَاءِ سَحَابٍ آخَرَ اللَّيْلِ غَابِقُ^(٧)
كَمَا شِيمَ فِي أَعْلَى السَّحَابَةِ بَارِقُ

(١) ديوانه ٤٥.

(٢) الديوان: "ولو تلتقي أرواحنا".

(٣) ديوانه ٩٧.

(٤) ديوانه ٥٩.

(٥) هذا البيت وتاليه مما لم يرد في ط، وأثبتهما من ت.

(٦) ديوانه ٢٠٣.

(٧) شج الخمر: مزجها بالماء. والغابق: الذي يسقي الشراب بالعشي.

وأما الأبيات التي ذكر من أجلها فهي قوله - عفا الله تعالى عنه وسامحه:
 دَعَا المحرّمُونَ اللهَ يستغفرونَهُ بمَكَّةَ يَوْمًا أَنْ تُمَحِّيَ ذُنُوبُهَا^(١)
 ونَادَيْتُ يَا رَبَّاهُ أَوَّلَ سُؤْلَتِي لِنَفْسِي لِيَلْكَى ثُمَّ أَنْتَ حَسِيْبُهَا
 فَإِنْ أُعْطِيَ لَيْلَى فِي حَيَاتِي لَمْ يُتَبْ إِلَى اللهِ عَبْدٌ تَوْبَةً لَا أَتُوبُهَا
 أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ عَلَيَّ وَلَكِنْ مِلءَ عَيْنِ حَبِيْبُهَا
 وَمَا هَجَرْتُكَ النَّفْسُ يَا لَيْلَ أَنْهَا قَلْتُكَ، وَلَكِنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيْبُهَا

* * *

وأما البيت الثالث فهو قول أبي ربيعة:
 فَتَضَاخَكُنْ وَقَدْ قُلْنَ لَهَا حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدَّ

[عمر بن أبي ربيعة]

وهو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، ويكنى أبا الخطاب. شاعر مجيد، صاحب ثروة ومجون، وجميع شعره في الغزل، ولا يمتدح أحداً، ولذلك قال له سليمان بن عبد الملك: لِمَ لَا تَمْدَحُنَا! فقال: إنما أمدح النساء لا الرجال. وكان يقال: إن العرب كانت تُقَرِّرُ لقريش بالتقدم عليها إلا في الشعر، حتى كان ابن أبي ربيعة، فأقرت لها في الشعر أيضاً، ولم تنازعها شيئاً. وُلِدَ ليلة قُتِلَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان يقال: أي حق رُفِعَ، وأي باطل وُضِعَ! يعنون كثرة معاشرته للنساء وتغزله بهن.

ومات بعد أن تاب وقد ناهز الثمانين، وقيل: إنه فتك أربعين، ونسك أربعين. ودخل عليه أخوه عند موته وقد جزع علي، فقال له عمر: أحسبك تجزع لما تظنه بي! والله ما أعلم أني ارتكبت فاحشةً، فقال: ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك. وحكى الحرّمي^(٢) أن عمر بن أبي ربيعة كان مشتهراً^(٣) بحب الثريا بنت عبد الله بن أمية الأصغر، وكانت حرةً بذلك، جالاً وتاماً، وكانت تصيف بالطائف^(٤)، وكان عمر يغدو [عليها]^(٥) كل غداة من مكة، يسأل الركبان الذين يحملون الفاكهة من الطائف عن الأخبار قبْلهم، فلقي يوماً بعضهم، فسأله عن أخبارهم، فقال: ما استطرفنا خبراً^(٦)، إلا أنني سمعتُ

(١) ديوانه ٦٧.

(٢) في الأصول: "الجرمي"؛ بالجيم، صوابه من الأغاني؛ وهو الحرّمي بن العلاء.

(٣) الأغاني: "مسهباً"، والمسهب: مَنْ أسقمه الحب وأذهب عقله.

(٤) تصيف؛ أي تقيم في الصيف.

(٥) من الأغاني.

(٦) ما استطرفنا خبراً، أي ليس عندنا شيء طريف حادث.

عند رحيلنا صوتاً وصياحاً عالياً على امرأة من قریش، اسمها [اسم]^(١) نجم في السماء قد ذهب عني اسمه^(٢)، فقال عمر: الثريا؟ فقال: نعم - وقد كان قد بلغ عمر قبل ذلك أنها عيلة - فوجه فرسه [على وجهه]^(٣) إلى نحو الطائف يركضه ملء فوجه^(٤)، ويسلك طريق كداء^(٥) وهي أخشن الطرق وأقربها، حتى انتهى إلى الثريا - وقد توقعته وهي تتشوّف له وتتشوّق - فوجدها سليمة ومعها أختها^(٦)، فأخبرها الخبر، فضحكت، وقالت: أنا والله أمرتهم لأخبر^(٧) ما عندك، فلذلك تقول قصيدته:

تَشْكِي الكَمِيَّتَ الجَرِيَّ لَمَّا جَهْدَتْهُ وَيَنْ لَوْ يَسْطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَا^(٨)
وَحُكِّيَ أَنَّهَا واعدته يوماً، فجاءت في الوقت الذي ذكرته، فصادفت أخاه الحارث قد نام مكان عمر، فلم يشعر الحارث إلا والثريا قد أَلقت نفسها عليه^(٩)، فانتبه، وجعل يقول: أغربي فلسْتُ بالفاسق، أخزاكم الله! فلما علمت بالقصة^(١٠) أنصرفت، ورجع عمر فأخبر الحارث، فاغتم لِمَا فات، وقال له: أما والله لا تمسك النار أبداً وقد أَلقت نفسها عليك! فقال الحارث: عليك وعليها لعنة الله^(١١)!

وقال عمر: ما أحجلني إلا ليلي بنت [الحارث بن]^(١٢) عمرو، لقيتها وهي تسير على بغلة لها - وكنت أشبب بها - فقلت لها: جعلت فداك! قفي واسمعي بعض ما قلت فيك، فقالت: أوفعلت! فقلت: نعم، فوقفت فأنشدتها:

أَلَا يَأْلِيلَ إِنَّ شِفَاءَ نَفْسِي نَوَالِكِ لَوْ عَلِمْتَ فَنَوَلِينَا^(١٣)
وَقَدْ أَزَفَ الرَّحِيلُ وَحَانَ مِنَّا فَرَأُوكِ فَأَنْظِرِي مَا تَأْمُرِينَا!

(١) من ت.

(٢) في الأغاني: "سقط على اسمه".

(٣) من ت والأغاني.

(٤) يركضه ملء فوجه، أي حمّله على أشد العدو.

(٥) كداء، كسحاب: جبل بأعلى مكة عند المحصب.

(٦) في الأغاني: "ومعها أختها ضيا وأم عثمان".

(٧) الأغاني: "لأخبر".

(٨) ديوانه ٤٦٢، الأغاني ١: ٢١١ - ٢١٣.

(٩) الأغاني: "فصادفت أخاه الحارث قد طرقه وأقام عنده، ووجه به في حاجة له، ونام مكانه، وغطى وجهه بشوبه، فلم يشعر إلا بالثريا قد أَلقت نفسها عليه تقبله".

(١٠) كذا في ت والأغاني، وفي ط: "بالقضية".

(١١) الأغاني ١: ٢٣٢.

(١٢) من الأغاني.

(١٣) الأغاني: "إن بخلت فنولينا".

فقال: أمرك بتقوى الله، وإيثار طاعته، وترك ما أنت عليه ثم انصرفت^(١).
وحكي أنه كان يوماً يسائر عُرْوَةَ بن الزبير، فقال عمر: وأين زينُ المواقب؟ يعني
[ابنه]^(٢) محمد بن عُرْوَةَ - وكان يسمّى بذلك لجماله - فقال عُرْوَةُ: هو أَمَامُكَ، فركض يطلبه،
فقال له عُرْوَةُ: يا أبا الخطاب، أو لسنا أكفاء لمحادثتك ومؤانستك! فقال: بلى، ولكني مُغَرِّى
بهذا الجمال أتبعه حيث كان، ثم أنشد يقول:

إني امرؤ مغرّم بالحُسْنِ أَتْبَعُهُ لا حظّ لي فيه إلا لَذَّةُ النَّظَرِ
ثم مضى حتى لحقه، وجعل عُرْوَةُ يضحك منه^(٣).

وروى أنه شبّب بزینب بنت موسى الجمحيّ - وكان ابن أبي عتيق ذكرها له، فأطنب في
وصفها - فصنع فيها قصيدته التي يقول فيها:

يَا خَلِيلِي مَنْ مَلَامَ دَعَانِي وَالْمَا الْغَدَاةَ بِالْأُظْعَانِ
وبلغ ذلك ابن أبي عتيق، فلامه في ذكرها، فقال:

لَا تَلْمَنِي عَتِيقُ حَسْبِي الَّذِي بِي إِنَّ عِنْدِي عَتِيقُ مَا قَدْ كَفَانِي
* لَا تَلْمَنِي فَأَنْتَ زَيْتَهُ لِي *

فبدره ابن أبي عتيق، فقال:

* أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ *

فقال عمر: هكذا والله قلته، فقال ابن أبي عتيق: أما علمت أن شيطانك ربما ألمّ بي، فيجد
عندي من عصيانه كما يجد عندك من طاعته^(٤)!

ومثل هذا ما حكي أنه أنشد عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قصيدته الدالية، فلما

قال:

* تَشُطُّ غَدَاً دَارُ جِرَانِنَا *

فبدره ابن عباس، فقال:

* وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أُبْعَدُ *

قال: هكذا والله قلت، فقال ابن عباس: إنه لا يكون إلا هكذا^(٥).

(١) الأغاني ١: ١٥٦، وفيه: "ثم صاحت ببغلتها ومضت".

(٢) من الأغاني.

(٣) الأغاني ١: ١٤٦، ١٤٧.

(٤) الأغاني ١: ٩٨.

(٥) الأغاني ١: ٧٣.

ورُوي أن عبد الملك بن مروان جمع بينه وبين جميل وكثير عزة، وقال: لينشد كل واحد منكم بيتاً في الغزل، فأياكم كان أغزل فله هذه الناقة وما عليها - وكان قد أحضر ناقة موقورة دراهم - فأبتدر جميل في الأول وقال:

وَلَوْ أَنَّ رَاقِي المَوْتِ يَرَقِي جَنَازَتِي بمنطقةها في الناطقين حييت^(١)
وقال كثير:

وَسَعَى إِلَيَّ بَعِيبَ عَزَّةٍ نِسْوَةٌ جَعَلَ إِلَاهُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا
وقال عمر بن أبي ربيعة:

فَلَيْتَ الثَّرِيَّاءَ فِي المَنَامِ ضَجِيعَتِي لدى الجنة الخضراء أو في جهنم
فقال عبدالله: خذها يا صاحب جهنم.

ومن محاسن شعر عمر قوله في قصيدته الرائية^(٢):

تَهَيَّمْ إِلَى نُعْمٍ فَلَا السَّمْلُ جَامِعٌ وَلَا الْحَبْلُ مَوْصُولٌ وَلَا أَنْتَ مُقْصَرٌ^(٣)
أشارت بمذراها وقالت لتربها^(٤):
لئن كَانَ إِيَّاهُ لَقَدْ حَالَ بَعْدَنَا
رَأَتْ رَجُلًا أَمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ
أَخَا سَفَرٍ جَوَابَ أَرْضٍ تَقَاذَفَتْ
وليلةٍ ذِي دُورَانِ جَشْمَتِنِي السُّرَى
وبتَ رَقِيبًا لِلرَّفَاقِ عَلَى شِفَا
فلما فَقَدْتُ الصَّوْتِ مِنْهُمْ وَأَطْفُئْتُ
وَحَفْضَ عَنِي الصَّوْتِ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْـ
فَحْيَيْتُ إِذْ فَاجَأَتْهَا فَتَوَلَّهَتْ
وَقَالَتْ وَعَضَّتْ بِالْبَنَانِ: فَضَحْتَنِي
أَرَيْتَكَ إِذْ هُنَا عَلَيْكَ أَلَمْ تَخَفْ
فلما تَقَضَّى اللَّيْلُ إِلَّا أَقْلَهُ
أشارت لأختيها: أعينا على فتى

(١) ديوانه ٣٨.

(٢) ديوانه ٩٢ - ١٠٠.

(٣) الديوان: "أهيم".

(٤) رواية الديوان:

* ففي فانظري أساء هل تعرفينه*

(٥) يضحى: يظهر للشمس ولا يستتر. ويخصر: يبرد.

فأقبلتا، فارتاعتا، ثم قالتا: أَقْلِي عَلَيْكَ اللُّومَ فَالْخُطْبَ أَيْسَرُ
يَقُومُ فِيمَشِي دُونَنَا مُتَنَكِّراً
فَكَانَ لِحِجِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَقِي
هَنِيئاً لِبَعْلِ الْعَامِرِيَةِ نَشْرَهَا أَلْ—
أُطَلَّتْ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ لِمَا رَأَيْتُ فِيهَا مِنَ اللَّفْظِ الْمَطْبُوعِ، وَالْإِنْسِجَامِ الَّذِي لَا يَتَهَيَّأُ
لِغَيْرِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ.

وَمِنْ مُحَاسِنِ شِعْرِهِ قَوْلُهُ:
أَحَقًّا لِّئِنْ دَارَ الرَّبَابُ تَبَاعَدْتُ
أَفِقُّ قَدْ أَفَاقَ الْوَاجِدُونَ وَفَارَقُوا أَلْ—
أَمِتْ حُبَّهَا، وَاجْعَلْ قَدِيمَ وَصَالِهَا
وَهَبْهَا كَشِيءٍ لَمْ يَكُنْ، أَوْ كَنَازِحِ،
هَذَا الْبَيْتُ مِنْ أَحْسَنِ مَا ذَكَرَهُ أَرْبَابُ الْبَدِيعِ، وَفِيهِ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ التَّقْسِيمِ.
وَقَوْلُهُ أَيْضاً:

بَيْنَمَا يَنْعَتِنِي أَبْصَرَنِي
قَالَتْ الْكُبْرَى: تَرَى مَنْ ذَا الْفَتَى؟
قَالَتْ الصَّغْرَى وَقَدْ تَيَّمَّتْهَا:
مِثْلُ قَيْدِ الْمِيلِ يَعْذُو بِي الْأَغْرَ^(١)
قَالَتْ الْوَسْطَى لَهَا: هَذَا عَمَّرُ
قَدْ عَرَفْنَاهُ، وَهَلْ يُخْفَى الْقَمَرُ!^(٢)

يَقَالُ: إِنَّهُ رَتَّبَ كَلَامَهُنَّ عَلَى قَدَرِ عَقُولِهِنَّ، فَالْكُبْرَى تَجَاهَلَتْ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَالْوَسْطَى
أَظْهَرَتْ مَعْرِفَتَهُ، وَالصَّغْرَى أَظْهَرَتْ مَعْرِفَتَهُ وَوَصَفَهُ.

وَقَوْلُهُ مُعَارِضاً لِقَصِيدَةِ جَمِيلِ^(٣):
جَرَى نَاصِحٌ بِالْوَدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
فَلَمَّا تَوَافَقْنَا عَرَفْتُ الَّذِي بِهَا
وَسَلَّمْتُ فَاسْتَأْنَسْتُ خِيفَةً أَنْ يَرَى
فَقَرَّ بَنِي يَوْمَ الْحِصَابِ إِلَى قَتْلِي^(٤)
كَمِثْلِ الَّذِي بِي حَذَوَكَ النَّعْلُ بِالنَّعْلِ
عَدُوِّي مَكَانِي أَوْ يَرَى كَاشِحٌ فَعْلِي

(١) المعصر: الجارية أول ما أدركت.

(٢) ديوانه ١٠٩.

(٣) المرائر: جمع مريرة؛ وهي العزيمة.

(٤) ديوانه ١٥١ والأغر، أراد به فرسه.

(٥) رواية الديوان:

قُلْنِ: تَعْرِفْنَ الْفَتَى؟ قُلْنِ: نَعَمْ
فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي مَطْلَعُهَا:

لَقَدْ فَرَحَ الْوَاشُونَ أَنْ صَرَمْتُ حَبْلِي
بَشِينَةً أَوْ أَبَدْتُ لَنَا جَانِبَ الْبُخْلِ
دِيَانَهُ ٣٣٤. وَيَوْمَ الْحِصَابِ، أَرَادَ بِهِ يَوْمَ الْجَهَارِ.

فَقَالَتْ وَأَرْخَتْ جَانِبَ السَّرِّ: إِنَّمَا مَعِيَ فَتَحَدَّثْ غَيْرَ ذِي رِقْبَةٍ أَهْلِي
فَقُلْتُ لَهَا: مَا بِي لَهُمْ مِنْ تَرْقُبٍ وَلَكِنْ سِرِّي لَيْسَ يَحْمِلُهُ مِثْلِي
يَقَالُ: إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي وَصْفِ السَّرِّ.
وَقَوْلُهُ أَيْضًا:

أَيُّهَا الرَّائِحُ الْمَجْدُّ ابْتِكَارًا قَدْ قَضَى مِنْ تِهَامَةِ الْأَوْطَارِ^(١)
مَنْ يَكُنْ قَلْبُهُ الْغَدَاةَ سَلِيمًا فَفَوَّادِي بِالْخَيْفِ أَضْحَى مَعَارًا
لَيْتَ ذَا الدَّهْرِ كَانَ حَتْمًا عَلَيْنَا كُلَّ يَوْمٍ حَجَّةً وَأَعْتَمَارًا
يُرَوَّى أَنَّ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ رضي الله عنه، لَمَّا سَمِعَ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ: لَقَدْ كَلَّفَ الْمُسْلِمِينَ شَطَطًا
عَظِيمًا! وَإِنَّ اللَّهَ لِأَرْحَمَ بِهِمْ مَنْ أَنْ يَبْلُغَهُ أَمْنِيَّتُهُ.

وَأَمَّا الشَّعْرُ الَّذِي ذَكَرَ مِنْ أَجْلِهِ، فَقَوْلُهُ فِي هِنْدَ بِنْتِ الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ الْمُرِّيَّةِ:
لَيْتَ هِنْدٌ أَنْجَزْتَنَا مَا تَعِدُّ وَشَفَقْتُ أَنْفُسَنَا مِمَّا تَجِدُّ^(٢)
وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ
وَلَقَدْ قَالَتْ لِأَتْرَابِ لَهَا ذَاتَ يَوْمٍ وَتَعَوَّرَتْ تَبْتَرِدُ
أَكَمَا يَنْعَتُنِي تُبْصِرُنَنِي عَمَرُكُنَّ اللَّهُ أَمْ لَا يَقْتَصِدُ!
فَتَضَاحَكُنَّ وَقَدْ قُلْنَ لَهَا حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدُّ
حَسَدًا حُمِّلْنَهُ مِنْ أَجْلِهَا وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ
١٠١ - وَكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ، وَوَسَمْتُكَ بِسَيْمَاكَ، وَلَمْ تُعْرَكَ شَهَادَةً،

وَلَا تَكَلَّفْتُ لَكَ زِيَادَةً

قَوْلُهُ: "وَكَانَتْ" عَطْفٌ عَلَى "وَهَبَهَا".

وَالْحُلَى: الْأَوْصَافُ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الشَّخْصُ؛ كَأَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْحَلِيِّ، وَهُوَ
الزَّيْنَةُ.

وَالسَّيِّمَا: الْعَلَامَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٢٥].
وَالشَّهَادَةُ: الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ وَالْإِقْرَارُ بِهِ.

(١) ديوانه ٤٩٣.

(٢) ديوانه ٣٢٠.

١٠٢ - بَلْ صَدَقْتَ سِنَّ بَكْرِهَا فِيمَا ذَكَرْتَهُ عَنْكَ

هذا مثلٌ يُضْرَبُ في الصدق، وأصله أن رجلاً ساوم رجلاً في بيع، فقال: ما سنُّه؟ فأخبره أنه ^(١) بَكْرٌ، ففرَّ عنه -أي رأى سنَّه، واحد الأسنان- فقال: صدَّقْتَنِي سِنَّ بَكْرِهِ، يروي "سِنَّ بَكْرِهِ" بفتح النون على أنه مفعول، و"سِنَّ" بضمها على أنه فاعل، وكلاهما صحيح المعنى ^(٢).

١٠٣ - وَوَضَعَتِ الْهَنَاءَ مَوَاضِعَ النَّقْبِ بِمَا نَسَبْتَهُ إِلَيْكَ، وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتْ بِهِ عَلَيْكَ

هذا مثلٌ يُضْرَبُ لمن يضع الأمور في محلها، وأصله أن الهانيء -وهو واضع القطران على البعير الأجر- يتبع النَّقْبَ التي في جسد البعير، وهي مبادئ الجرب؛ وهذا المثل نصف بيت من الشعر لدُرَيْدٍ، يقوله في الخنساء.

[دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ]

وهو دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ بْنِ الْحَارِثِ الْجُشَمِيِّ، من هَوَازَنَ، فارس معروف من فُرسَانَ الجاهلية وشعرائها، مشهورٌ بِالرَّأْيِ وَالظَّفَرِ، وأمّه رِيحَانَةُ بنت معد يكرب أخت عمرو، وقتل في غزاة هَوَازَنَ مشركاً حين غزاهم رسول الله ﷺ، وكان قد أَسَنَ وعَجَزَ عن الحرب، وإنما حُمِلَ مع القوم لرأيه وتدييره، وهي الواقعة التي أشار فيها برأي ولم يسمع منه، فقال:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعٌ أَحُبُّ فِيهَا وَأَضَعٌ ^(٣)

وهُزِمَتِ هَوَازَنَ، وقتل أكثرهم. وقتله ربيعة بن رُفَيْعِ السُّلَمِيِّ، في خبر يطول؛ وقال: لَمَّا ضَرَبْتُهُ بِسَيْفِهِ وَقَعَ مَتَكَشِّفًا، فَإِذَا عِجَانُهُ وَفَخْدَاهُ مِثْلُ الْقَرَاتِيسِ مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ.

حكى الأصمعي أن أمه رِيحَانَةُ قالت له بعد مقتل أخيه عبد الله بن الصَّمَّةِ: يَا بُنَيَّ، إِنْ كُنْتَ عَجَزْتَ عَنْ ثَارِ أَخِيكَ، فَاسْتَعِنْ بِخَالِكَ وَعَشِيرَتِهِ مِنْ زُبَيْدٍ، فَأَرَقَ ^(٤) لذلك، وحلف لا يأكل لحماً، ولا يشرب خمرًا حتى يدرك ثاره، ثم وجد غِرَّةً مِنْ عَطْفَانِ غَزَاهُمْ، وقتل منهم قوماً، ثم أسر دُؤَابَ بْنَ أَسْمَاءَ، وَأَتَى بِهِ إِلَى فِئَاءِ [أَبِيهِ] فَقَتَلَهُ، فَأَخَذَتْ [أُمَّهُ] ^(٥) السيف وجعلت تلحس الدم بلسانها إلى أن انقطع منه شيء، وهي لا تعلم من الفرح، ثم قال في ذلك:

(١) كذا في ت، وفي ط: "بأنه".

(٢) انظر الميداني ١: ٢٦٥.

(٣) الأغاني ١٠: ٣١ (طبعة دار الكتب)، وبعده هناك:

أَقْوَدُ وَطَفَاءَ الزَّمْعِ كَأَنَّهُ شَاةٌ صَدَعٌ

(٤) الأغاني: "فأنف من ذلك".

(٥) من ت.

جَزَيْنَا بِنِي عَبْسٍ جَزَاءً مُؤَفَّرًا بمقتلِ عبدِالله يومَ الذَّنائبِ
 قَتَلْنَا بَعْدَ اللهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ذُوَابَ بنِ أَسْمَاءِ بنِ زَيْدِ بنِ قَارِبِ
 قال الأصمعيّ: كان عبد الملك بن مروان يقول: لولا القافية لنسبه إلى آدم. وهذا النوع
 يسميه أرباب البديع الاطراد لتوالي الأسماء منظومة^(١).

وحكى أبو عبيدة، قال: هجا دُرَيْدُ بن الصَّمَّةِ عبد الله بن جُدْعان، فلقبه عبد الله بعُكَّازٍ
 وحيّاه، وقال: هل تعرفني يا دُرَيْدُ؟ قال: لا، قال: فلم هجوتني؟ قال: ومن أنت؟ ولم يكن رآه،
 قال: أنا ابن جُدْعان، قال: هجوتك لأنك كنت امرأ كريماً، فأحببت أن أضع شعري موضعه؛
 فقال له عبد الله: لئن كنت هجوت لقد مدحت؛ وكساه وحمّله على ناقة، فقال يمدحه:

إِلَيْكَ ابْنَ جُدْعَانَ أَعْمَلْتَهَا مُسَوِّمَةً لِلشُّرَى والنَّصَبِ^(٢)
 فَلَا خَفْضَ حَتَّى تَلَاقِي أَمْرًا جَوَادَ الرِّضَا حَلِيمَ الغَضَبِ
 سَبَرْتُ الْأَنَامَ فَمَا إِنْ أَرَى شَبِيهَ ابْنِ جُدْعَانَ وَسَطَ الْعَرَبِ^(٣)
 ومن شعر دُرَيْدٍ يرثي أخاه:

تَنَادَوْا فَقَالُوا أُرِدَّتِ الْخَيْلُ فَارِسًا فَقُلْتُ: أَعَبَدَ اللهُ ذَلِكُمْ الرَّدِي!^(٤)
 فَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللهِ خَلَى مَكَانَهُ فَمَا كَانَ وَقَافًا وَلَا طَائِشَ الْيَدِ
 صَبُورٌ عَلَى وَقْعِ النَّوَائِبِ حَافِظُ مِنَ الْيَوْمِ أَعْقَابِ الْأَحَادِيثِ فِي غَدِ
 أَغَاذِلْتِي كُلَّ أَمْرٍ وَأَبْنُ أُمِّهِ مَتَاعُ كَزَادِ الرَّكَّابِ الْمُتَزَوِّدِ
 وقوله:

أَيَا ذُفَافَةَ مَنْ لِلْخَيْلِ إِنْ طُرِدَتْ واضطرها الطَّعْنُ فِي وَعْثٍ وَإِيْجَافِ!^(٥)
 يَا فَارِسَ الْخَيْلِ فِي الْهَيْجَا إِذَا اشْتَغَلَتْ كَلَّتَا الْيَدَيْنِ كَرُورًا غَيْرَ وَقَافِ
 قوله: "اشتغلت كلتا اليدين"، يعني يمسك العنان بيد ويضرب بالأخرى. ثم قال:
 عَبَرَ الْفَوَارِسَ مَعْرُوفَ بَشَكَّتِهِ كَافٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ كُرْبَةٍ كَافٍ
 -يعني أن الفوارس ترى منه ما يُبكي أعينهم ويستعبرها.

وقوله في يزيد بن عبد المدان حين سأله ردَّ مالٍ جاره:

-
- (١) الأغاني ١٠: ١٣.
 (٢) الأغاني ١٠: ٢١، وروايت: "مخففة للسري".
 (٣) الأغاني: "رحلت البلاد".
 (٤) الأغاني ١٠: ٨، ٩.
 (٥) الأغاني ١٠: ١٠. الوعث: الطريق الخشن.

أمرتكمو تردّوا مال جاري وأسرى في كُبولهم الثَّقال^(١)
 فأنتم أهل عائدة وفَضْل
 متى ما تمنعوا شيئاً فليست
 حبال أخذته غير السَّوال
 وقوله أيضاً:

أبى القتل إلا آل صمّة إنهم أبوا غيره والقدر يجري إلى القدر
 يُغار علينا واترين فيشتقى بنا إن أصبنا أو نغير على وتر
 قسّمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحن على شطر
 وأما الشعر الذي ذكر بسببه، فإنه مرّ بالخنساء بنت عمرو بن الشريد، -وسياتي ذكرها- وهي تهنأ بغيراً لها، وقد تبدّلت حتى فرغت منه، ثم نصّت عنها ثيابها واغتسلت -وذريد يراها وهي لا تشعر به- فأعجبته، وانصرف إلى رحله، فقال:

حيّوا ثماضر وأربعوا صحبي وقفوا فإن وقوفكم حسبي^(٢)
 ما إن رأيت ولا سمعت به كالיום هانئ أينق جرب
 متبذلاً تبذدو محاسنه يضع الهنأ مواضع النقب
 وثماضر اسم الخنساء -ثم خطبها، فردّته لكبر سنه، فهجاها، فقبل لها: ألا تجيبيته؟
 فقالت: ما كنت لأجمع عليه أن أردّه وأهجوّه!.

١٠٤ - فالمُعَيديّ تسمع به خير من أن تراه

هذا مثل يضرب لمن يكون خبره خيراً من منظره؛ وأوّل من قاله النعمان لشقة بن ضمرة^(٣)، في خبر طويل^(٤). معناه أنه كان يُغير على مال النعمان، ويُطلب فلا يقدر عليه؛ إلى أن أمّنه النعمان، وكان يعجبه ما يسمع عنه، فلما رآه استزرى منظره؛ فقال: "لأن تسمع بالمُعَيديّ خير من أن تراه"، فقال: أبيت اللعن! إن الرجال ليسوا^(٥) بجزر، وإنما يعيش المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.

ومُعَيِد اسم قبيلة، وفيها يقول الشاعر:

* ستعلّم ما تُغني مُعَيّد ومعرض *

(١) الأغاني: ١٠: ٣٦، وروايته:

* بني الديان ردّوا مال جاري *

(٢) الأغاني ١٠: ٢٢.

(٣) الحاشية من نسخة: "لسعيد بن ضمرة".

(٤) انظر الميداني ١: ٧٦.

(٥) ت: "ليست".

[النعمان بن المنذر]

والنعمان هذا هو ابن المنذر بن النعمان بن عمرو، آخر ملوك العرب بالحيرة من قبل كسرى.

وله أخبار وأقوال؛ ومن أغرب ما ذكر منها كلامه عند كسرى في فضل العرب؛ وذلك أنه وفد على كسرى، وعنده وفود الروم والهند وغيرهم، فذكروا ملوكهم وفضلهم، وأفاض النعمان في ذكر العرب وفضلهم على الأمم، لا يستثنى فارس ولا غيرها؛ فتمعر وجه كسرى^(١)، وذكر كلاماً ينتقص فيه العرب، ويفضل عليهم الأمم، فقال النعمان: أصلح الله الملك! أما أمتك فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به؛ من عقلها وحلمها، وبسط حكمها، وما أكرمها الله تعالى به من ولاية آبائك، وولايتك. وأما الأمم التي ذكرت فأبي أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها. فقال كسرى: بهاذا! قال: بعزتها ومنعتها، وبأسها وسخائها، وحسن وجوها، وحكمة ألسنتها، ووفائها، وأحسابها وأنسابها.

فأما عزتها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورةً للملوك الذين دوخوا البلاد، وقادوا الجنود، لم يطمع فيهم طامع؛ حصونهم ظهور خيلهم، ومهادهم الأرض وجنتهم السيف^(٢)، وعدتهم الصبر، إذ غيرهم من الأمم إنما عزها الحجارة والطين، وجزائر البحار.

وأما سخاؤها؛ فإن أدنى رجل منهم يكون عنده البكرة أو الناب، عليها بلاغ من حمولتها، وشبعه وريه، فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة، ويحتزي بالشربة، فيعقرها له، ويرضي أن يخرج له عن دنياء كلها فيما يكسبه حسن الأحدث، وطيب الذكر.

وأما حسن وجوها وألوانها؛ فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المتحرقة، والروم المقشرة، والترك المشوهة.

وأما ألسنتها؛ فإن الله أعطاهم في أشعارهم، ورونق كلامهم وحسنه ووزنه، وضرهم الأمثال، ومعرفتهم بالإشارة، وإبلاغهم في الصفات ما ليس في ألسنة الأجناس.

وأما وفاؤها، فإن أحدهم ليلغنه أن أحد الرجال استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته، أو يُصاب قبله؛ لما أخفر من جواره. وإن أحدهم ليرفع عوداً من الأرض فيكون رهنأ لا يغلق ولا تحفر ذمته.

(١) تمعر وجهه: تغير في غضب.

(٢) ت: "السيف".

وكذلك تمسكها بشريعتها، وهو أن لهم أشهراً حُرماً، وبيتاً محجوباً، ينسكون منه مناسكهم، فيلقى الرجل قاتل أبيه وأخيه وهو قادرٌ على أخذ ثأره فيمنعه دينه، ويحجزه كرمه [عن تناوله بأذى]^(١).

وأما أنسابها وأحسابها؛ فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت أصولها، وكثيراً من أولها وآخرها، حتى إن أحدهم يُسأل عما وراء أبيه فلا يُنسبه ولا يعرفه، وليس أحدٌ من العرب إلا يسمي أباه أبا فاباً؛ حاطوا بذلك أحسابهم، فلا يدخل رجلٌ في غير قومه، ولا يُدعى لغير أبيه.

وأما قول الملك: إنهم يئدون أبناءهم؛ فإنما يفعله منهم مَنْ يفعله بالإناث؛ أنفة من العار، وغيره من الأزواج.

وأما قوله: إن أفضل طعامهم لحوم الإبل، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً؛ فعمدوا إلى أجلها قدراً، وأغلاها ثمناً؛ فكانت مراكبهم وطعامهم؛ مع أنها أكثر البهائم لحوماً وشحوماً.

وأما تحاربهم وترك انقيادهم لرجل يسوسهم، فإنما يفعل ذلك مَنْ يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً، وتحوّفت نهوض عدوها، وإنه إنما يكون في بيت الملك واحد يعرفون فضله^(٢)، فيلقون أمورهم إليه؛ فأما العرب فإن ذلك كثير منهم، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين، مع أنفتهم من أداء الخراج والعُشْر وما أشبه^(٣) ذلك.

فعجب كسرى من منطقته، وكساه من كِسْوَتِهِ، وردّه إلى الحيرة.

ومن ظريف أخبار النعمان، أنه كان قد حمى ظهر الكوفة وشقائقها - ومن هناك يقال: شقائق النعمان - فانفرد يوماً عن عسكره، فإذا هو بشيخ يخصف نعلاً، فقال: ما أنزلك هاهنا؟ قال "طرَد النعمان الرّعاء، فأخذوا يميناً وشمالاً، فأنتهيتُ إلى هذه الوهدة، فتّجت الإبل، وولدت الغنم - والنعمان معتمٌ لا يعرف - فقال: أوّما تخاف من النُّعمان! قال: وما أخاف منه، ولربما سرتُ يدي هذه بين عانة أمّه وسرّتها! فلما سمع النُّعمان قوله، سَفَر عن وجهه، فإذا خرزاتُ الملك تلمع، فلما رآه الشيخ، قال: أبيت اللعن! لا ترى أنك ظفرت بشيء، فقد علمت العرب أنه ليس بين لابتَيْها^(٤) شيخ أكذب منّي! فضحك النعمان، وحلم عنه، مع تجرّبه وعظّمته.

(١) من ت.

(٢) ت: "يعرفون فضله".

(٣) ت: "ونحو ذلك".

(٤) كذا في ت، وفي ط: "بينها".

ومات النُّعْمَانُ بساباط المدائن، طرحه كسرى تحت أرجل الفيلة فخبطته حتى مات، وذلك بتحليل عدي بن زيد كاتبه؛ وذلك أن كسرى أرسل يخطب ابنة النعمان لنفسه، فقال النعمان للرسول: أما كان في عين السواد ما يكفي الملك! فلما سمع كسرى هذا الكلام لم يفهمه، فسأل عنه عدياً، فقال: إنه أنف من مصاهرة الملك، وقال: يكفيه بقر العراق؛ فغضب واستدعى النعمان وقتله^(١).

١٠٥ - هَجِينُ الْقَذَالِ، أَرْعَنُ السَّبَالِ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِلَاوَةِ، مُفْرِطُ الْحُمُقِ وَالْغَبَاوَةِ

الهجين من الناس: من في نسبه هجنة، أي قبيح، وكذلك المقرِف، وهو أن يكون أحد أبويه قد دخل في العبودية. ويقال: إن المقرِف من قبل الأب، والهجين من قبل الأم. وتقول العرب: فلان هجين القذال، أي يتبين لؤم نسبه في قذاله.

والقذال: جماع^(٢) مؤخر الرأس، وخص القذال لأن الذي يُعرف لؤم نسبه، إذا وُلِّي طأطأ رأسه حياءً وذلاً، فكان اللؤم يتبين من قذاله. وقيل: لكثرة انهزامه في الحروب.

والأرعن^(٣): الأحمق، مأخوذٌ إما من الرعن، وهو الاسترخاء، وإما من الرعن بالتسكين، وهو أنف الجبل المائل، فكان الأحمق مائل عن الصواب.

وذكر بعض المفسرين أن المراد بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا﴾ [البقرة: ١٠٤] هذا المعنى، فإنهم كانوا يقولونه للنبي على سبيل التهكم، يقصدون به رميه بالرعونة، ويوهمون أنهم يقولون: "راعنا" من المراعاة، أي أحفظنا.

والسبال: جمع سبلة، وهي شعر الشفة العليا، شُبِّهَتْ بسبل المطر لما فيها من التحدر، وخصت الرعونة بالسبال لأنها علامة الرجُل؛ والمعنى أن هذه المرأة تُسمعنا عنك الأوصاف الجميلة، فإذا نُظِرَتْ واختبرت فانت على هذه الأوصاف الذميمة.

والعلاوة: الرأس ما دام على العنق، يُقال: ضربت علاوته؛ ويقال في الفراسة: إن طول العنق والرأس من دلائل الحمق.

(١) ت: "فقتله".

(٢) ت: "جميع".

(٣) بعدها في ت: "والراعن".

١٠٦ - جَافِي الطَّبْعِ، سَيِّءُ الْجَابَةِ وَالسَّمْعِ؛ بَغِيضُ الْهَيْئَةِ، سَخِيفُ الذَّهَابِ
وَالجَيْتَةِ؛ ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ، مُتَتِنُ الْأَنْفَاسِ؛ كَثِيرُ الْمَعَايِبِ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ
الجفاء: النبؤ والتباعد، والأصل، من جَفَا السَّرَجُ عن الفرس إذا نبا.
والطَّبْعُ: السجّة، وهو نقش النَّفْسِ بصورةٍ ما، وذلك إما من جهة الخِلْقَةِ، أو من حيث
العادة، مأخوذٌ من طبع الدرهم، أي تصوّره بصورةٍ ما.

وسَيِّءُ الْجَابَةِ^(١): يعني يسمع الشيء على غير حقيقته، ويُجيب كذلك، إمّا من البَلَاءِ،
أو الطَّرَشِ، وهو مثل للعرب، يقولون: "سماء سمعاً - أو أساء سمعاً - فأساء"^(٢) جابة؛ قاله
سهيل بن عمرو، وكان قد تزوج صفية بنت أبي جهل، فولدت له أنس بن سهيل، فخرج ذات
يوم وهو معه، فوجده الأخنس بن شريق فقال: مَنْ هذا؟ فقال: ابني، فقال الأخنس: حَيَّاكَ اللهُ
يا فتى! فقال: لا والله ما أمي في البيت، فقال أبوه: "أساء سمعاً فأساء جابة".

ولسُهَيْلُ هذا حكاية في الكرم عجيبة، وذلك أنه كان أسلم بعد فتح مكة، وسكن البادية
إلى أن حضر اليرموك واستشهد، ف قيل: إنه لما صرع مرّ به رجل وهو بأخر رمق^(٣)، فقال:
اسقني، فأتاه بشرية من ماء، فنظر إلى الحارث بن هشام وهو صريع ينظر إليه، فقال: اذهب إليه
بالشربة، فلما تناولها رأى عكرمة في حاله، فقال: اذهب إليه بالشربة، فذهب بالشربة إلى عكرمة
فوجده قد مات، فرجع بها إلى الحارث فوجده ميتاً، فرجع بها إلى سهيل فوجده ميتاً، ومات
الثلاثة قبل أن يذوقوها.

والهيئة: الحالة التي يكون عليها الشيء، محسوسة كانت أو معقولة، وهي في المحسوسة
أكثر.

والسُّخْفُ: رَقَّةُ الْعَقْلِ، وقد سَخِفَ سَخَافَةً، فهو سَخِيفٌ.

والوسواس: الخطرات الرديئة من حديث النفس، مأخوذ من وسواس الحلي، وهو
صوته الخفي. ودخل الحسن بن سهل على المأمون وإبراهيم بن المهدي عنده، فاقترح الحسن
على إبراهيم أن يغنيه فغنى:

* تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ وَسَوَاساً إِذَا أَنْصَرَفْتُ^(٤) *

(١) ت: "الإجابة".

(٢) ت: "فاء".

(٣) ت: "نفس".

(٤) بقية البيت: * كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عَشْرُقُ زَجْلٍ *، والبيت للأعشى، ديوانه ٤٢.

قول الشارح: "نظر فيه إلى قول المتنبي"؛ هو قوله:

وَشَبَّهُ الشَّيْءَ مِنْجَذِبٌ إِلَيْهِ وَأَشْبَهْنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ

ديوانه ٧١: ٤

يعرّض بوسواس كان في الحسن، والمثالب: النقائص، مأخوذاً من ثلب الرمح إذا تثلّم.

١٠٧ - كَلَامُكَ تَمْتَمَةٌ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ، وَبَيَانُكَ فَهْفَهَةٌ، وَضَحِكُكَ فَهْقَهَةٌ
التَّمْتَمَةُ والغَمْغَمَةُ: من مَعَايِبِ النُّطْقِ المَعْدُودَةِ، قال الجاحظ: التَّمْتَمَةُ التَّرَدُّدُ فِي التَّاءِ،
وَالْفَأْفَاءِ التَّرَدُّدُ فِي الْفَاءِ، وَالْعُقْلَةُ أَلْتَوَاءُ اللِّسَانِ عِنْدَ إِرَادَةِ الْكَلَامِ، وَالْحُبْسَةُ تَعَذُّرُ الْكَلَامِ عِنْدَ
إِرَادَتِهِ، وَاللَّفَفُ إِدْخَالُ حَرْفٍ فِي حَرْفٍ، وَالرَّتَّةُ تَمْنَعُ الْكَلَامَ، فَإِذَا جَاءَ مِنْهُ شَيْءٌ اتَّصَلَ،
وَقِيلَ: الْعَجْمَةُ فِيهِ، وَاللُّغَةُ أَنْ يَبْدُلَ مِنْ حَرْفٍ إِلَى حَرْفٍ، وَالْغَنَّةُ أَنْ يُشْرَبَ الْحَرْفُ صَوْتُ
الْخِشُومِ، وَالْحَنَّةُ أَشَدُّ مِنْهَا، وَاللُّكْنَةُ أَنْ يَعْتَرِضَ الْكَلَامَ حَرْفٌ أَعْجَمِيٌّ، وَالطَّمْطَمَةُ أَنْ يَكُونَ
الْكَلَامُ شَبِيهاً بِالْعَجَمِيِّ. وَالْغَمْغَمَةُ أَنْ يُسْمَعَ الصَّوْتُ وَلَا يَبِينُ تَقْطِيعُ الْحُرُوفِ.
قال أبو عبيدة: كان رجلٌ من المشركين يحدّ حربته عند فتح مكة، فقالت له امرأته:
ما تصنع؟ قال: أحدّ الحربة لقتل محمد وأصحابه؛ فلما هُزِمَ المشركون قال [مُنشداً هذه
الآيات]^(١):

إِنَّكَ لَوْ شَهِدْتَ يَوْمَ الْحَنْدَمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عِكْرَمَةُ
وَإِذْ عَلَتْنَا بِالشُّيُوفِ الْمُسْلِمَةِ ضَرْباً فَمَا نَسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَةَ
وقال معاوية يوماً: مَنْ أَفْصَحُ النَّاسِ؟ رَجُلٌ مِنَ السَّمَاطِ: قَوْمٌ تَبَاعَدُوا عَنْ كَشْكَشَةِ
تَمِيمٍ، وَتَنَافَرُوا عَنْ كَسْكَسَةِ بَكْرِ، لَيْسَ فِيهِمْ غَمْغَمَةُ قُضَاعَةٍ، وَلَا طَمْطَمَةُ حِمِيرٍ. فقال معاوية:
مَنْ أَوْلَئِكَ؟ قال: قومي، قال: مَنْ أَنْتَ؟ قال: أَنَا رَجُلٌ مِنْ جَرَمٍ.
قوله: "كشكشة تميم"، فإن بني عمرو بن تميم، إذ ذكرت كاف المؤنث فوقفت عليها،
أبدلت منها شيئاً. قال بعضهم: هل لك أن تنفعيني وانفعُش، وتدخلين اللذمعي في اللذمعش؟
يعني وأنفعك، واللذمعك.
وكسكسة بكر أنهم يثبتون حركة كاف المؤنث، ويزيدون عليها سينا، يقولون:
تنفعكس، وأعكيتكس.

والغمغمه لقضاعة، وقد ذكرت. والفهفهة: عي في المنطق. والقهقهة: صفة الضحك
الشديد، كأن الضاحك يقول: قه قه، وهي، خصلة مذمومة في الإنسان، دالة على قلة
العقل^(٢).

(١) من ت، والرجز في أنساب الأشراف ١: ٣٥٦، ونسبه إلى حماس بن قيس، مع اختلاف في الرواية.

(٢) ت: "وهو مذموم من الإنسان".

١٠٨ - وَمَشْيُكَ هَرَوَلَةً، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةً؛ وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ، وَعِلْمُكَ مَحْرَقَةٌ

الهَرَوَلَةُ: ضربٌ من العَدْوِ؛ وهو بين المشي والعَدْوِ، وعدّها هنا من المعاييب؛ لاقتراها بذكر المسألة، يعني أنه سائل نَهم^(١) سريع المشي، للطلب والكُدَيَّة.

والزَّنادقة في الأصل: الثنوية، وذلك أن زرادشت المجوسي لما ظهر ببلاد الشرق، ودعا إلى عبادة النيران لما رأى في تلك الأماكن من البرد والثلج، ورغبة أهلها في النار^(٢) اتبعوه. وكان صاحب حَيْلٍ وسِحْرٍ، ويقال: إنه كان صَحْبَ شَعِيْبٍ ~~الكلبي~~، وكان يخبره بوقائع تقع، ثم كفر، ووضع كتاباً زعم أنه أنزل عليه مكتوباً بماء الذهب، فصعبت عليهم قراءته، فوضع له شرحاً سمّاه الزُّند، ثم لما ظهر مَزْدَكُ زاد في شرحه، وفي إسم الكتاب، فقال: "زندين" فلما جاءت العرب قالت: "زنديق"، ويسمى مَنْ مَالَ إلى هذا المذهب أو ما قاربه من الخروج عن الشريعة زنديقاً؛ وأكثرهم في الإسلام نوع من الجهميّة، أصل اعتقادهم أنه ليس ينبغي أن يثبت لنفسه ربّاً؛ لأنه لا يمكنه الإثبات إلا بالعين أو الإدراك بالحواس، وقالوا: ما لا يُدرك ليس^(٣) بإله لأنه مجهول، وما يُدرك فلا ينبغي أن يُثبت، وسلكوا على هذه^(٤) الطريقة، وأباحوا إتيان المحرّمات، وترك العبادات، لأنكارهم البعث، وجُحودهم الشريعة، وسبيلهم مذهب مزدك في إباحة النساء، وأن الناس كلهم سواء فيهنّ، ولذلك قيل للمنهمك في لذاته واللعب والبطالة: يا زنديق. وقيل له: أظرف من زنديق.

وسئل بعضهم عن الأضحى، فقال: وباء يقع في البقورة والأغنام.

وقتل منهم المهدّي خَلْقاً كثيراً؛ وذلك أنه رأى في المنام كأن الكعبة قد مالت فدعمها هو وشخص حتى قامت، فلما أتته سأل عن صفة ذلك الشخص الذي رآه في المنام، فَأُتِيَ بزنديق يقال له: حمدون على الصفة، فاستتابه فتاب فأمره^(٥) بتبعية الزنادقة، فإنه كان يعرف عامتهم، فدلّه على خَلْقٍ كثيرٍ فقتلهم.

وكان جيد الفراسة فيهم حتى إنه مرّ بمؤذّن مظهر للصلاح، فسمعه يقول في أذانه: أشهد أن محمداً رسول الله، بفتح اللام، فوقع في ظنه أنه زنديق؛ لأنه لم يضمّ اللام؛ فقبض

(١) ت: "نهم".

(٢) ت: "واتبعوه".

(٣) ت: "فليس".

(٤) ت: "بهذه".

(٥) ت: "أمره".

عليه، وقرره، فوجده زنديقاً وكان يمتحنهم بمسائل مختلفة، ويبرز لأكثرهم خرقه مصوراً^(١) فيها صورة ماني، وهي صورة سَمِجَة غليظة المشافر، فيأمره أن يبصق عليها فيأبى، ويختار القتل دون ذلك فيقتل، وكان أكثرهم ثنويةً.

والمخرقة: نوع من التوصل [إلى]^(٢) حيل بإظهار الخرق الذي هو ضد الفرق والتدبير^(٣)، ومنه يقال: المخرق، وهو شيء يلعب به، كأنه يخرج لإظهار الشيء بخلافه.

١٠٩ - مَسَاوِ لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الْغَوَانِي لَمَّا أُمْهَرْنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ

هذا البيت لأبي تمام الطائي، من أبيات يهجو بها [خالداً]^(٤) الأعمش، وهي:
 دَعِ ابْنَ الْأَعْمَشِ الْمَسْكِينَ يَبْكِي لَدَاءِ ظَلٍّ مِنْهُ فِي وَثَاقٍ^(٥)
 لَبَسَ الدَّاءَ وَالْدَاءَ اسْتَكْفَا عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاجَةِ وَالْحُلَاقِ
 كَحَلَّتْ بَقْبُحِ صَوْرَتِهِ فَأُضْحَى لَهَا إِنْسَانٌ عَيْنِي فِي السِّيَاقِ
 مَسَاوِ لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الْغَوَانِي لَمَّا أُمْهَرْنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ
 يعني أن صفاته لو تقسّمت على الغواني - وهن النساء اللواتي غنين بأزواجهن - لم يعطهن الأزواج مهراً غير الطلاق، بغضاً فيهن، وراحةً منهن، لما اكتسبن من المساوىء والقبائح.

١١٠ - حَتَّى إِنَّ بَاقِلًا مَوْصُوفًا بِالْبَلَاغَةِ إِذَا قَرْنَ بِكَ

[باقل]

يعني باقل بن عمرو بن ثعلبة الإيادي، الذي يُضْرَبُ به المثل في العيِّ فيقال: "أعيا من باقل".

قال أبو عبيدة: بلغ من عيِّه أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، فلقية شخص وهو معه، فقال: بكم اشتريته؟ ففتح كفيه، وفرق أصابعه، وأخرج لسانه - يشير بذلك إلى أحد عشر - فهرب الظبي من كفه.

وضربوا به المثل في العيِّ، قال حميد الأرقط يهجو ضيفاً له:

(١) من ت.

(٢) ت: "حيلة".

(٣) ت: "والتقدير".

(٤) من ت، وفي مختارات البارودي: "يهجو الأعمش".

(٥) مختارات البارودي ٤: ٤٠٧.

أَتَانَا وَمَا دَانَاهُ سَحْبَانُ وَائِلٌ يَبَانَا وَعِلْمًا بِالَّذِي هُوَ قَائِلٌ^(١)
فَمَا زَالَ عَنْهُ اللَّقْمُ حَتَّى كَانَهُ مِنْ الْعِيِّ لِمَا أَنْ تَكَلَّمَ بِاقْلُ
سَحْبَانُ: رَجُلٌ مِنْ بَنِي وَائِلٍ، يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْبَلَاغَةِ. وَاللَّقْمُ - بِالْفَتْحِ ثُمَّ السَّكُونِ:
سَدُّ الْفَمِ بِاللَّقْمِ.

وقال أبو العلاء المعري في لاميته:

إِذَا وَصَفَ الطَّائِيَّ بِالْبُخْلِ مَادِرٌ وَعَبَّرَ فُسًّا بِالْفَهَاهَةِ بِاقْلُ^(٢)
وَقَالَ السُّهَاءُ لِلشَّمْسِ أَنْتِ خَفِيَّةٌ وَقَالَ الدُّجَى لِلصُّبْحِ لَوْنُكَ حَائِلٌ
وَطَاوَلَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءَ سَفَاهَةً وَفَاحَرَتِ الشُّهْبُ الْحَصَا وَالْجِنَادُلُ
فِيَا مَوْتَ زُرْ إِنَّ الْحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ وَيَا نَفْسُ جِدِّي إِنْ دَهْرُكَ هَازِلٌ
الطَّائِي: هُوَ حَاتِمُ الْمَشْهُورِ بِالكَرَمِ. وَمَادِر: إِسْمُ رَجُلٍ مِنْ بَنِي هَلَالٍ بَنِ عَامِرِ بْنِ
صَبْعَةَ، يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْبُخْلِ؛ لِأَنَّهُ سَقَى إِبْلَهُ مِنْ حَوْضٍ فَبَقِيَ فِي أَسْفَلِهِ قَلِيلُ مَاءٍ،
فَسَلَخَ فِيهِ، وَمَدَّرَبَهُ - أَيِ لَطَخَهُ فِي جَوَانِبِ الْحَوْضِ - بِخِلَافِ أَنْ يَسْقِيَ غَيْرَهُ، فَصَارَ مِثْلًا يُضْرَبُ،
قَالَ الشَّاعِرُ:

لَقَدْ جَلَلْتُ خَزِيئًا هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ بَنِي عَامِرٍ طَرًّا بِسَلْحَةِ مَادِرٍ^(٣)
وَقَسَّ بِنَ سَاعِدَةِ الْأَيْدِي، أَسْقَفَ نَجْرَانَ، وَكَانَ أَحَدَ حُكَمَاءِ الْعَرَبِ وَخُطْبَائِهِمْ،
يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْفَصَاحَةِ. وَالْفَهَاهَةُ: الْعِي، يُقَالُ: رَجُلٌ فَهٌّ، وَامْرَأَةٌ فَهَّةٌ، قَالَ بَعْضُهُمْ:
وَلَمْ تُلْفِنِي فَهًّا وَلَمْ تُلَفْ حُبَّتِي مَلْجَلَجَةً أَبْغِي لَهَا مَنْ يَقِيمُهَا
وَالسُّهَاءُ: كَوْكَبٌ خَفِيَ فِي بَنَاتِ نَعْشِ الْكِبَرَى، وَالنَّاسُ يَمْتَحِنُونَ بِهِ أَبْصَارَهُمْ، وَفِي
الْمَثَلِ: "أَرِيهَا السُّهَاءُ وَتَرِينِي الْقَمَرُ"^(٤).

وَقَدْ ضَمَّنَ هَذَا الْمَثَلُ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ النَّوْاجِي، صَاحِبُ "حَلْبَةِ الْكَمِيتِ" حَيْثُ

قال:

مَرْضِيْتُ فَعَادَتْ وَأَبَدْتُ سَنًا مَحِيًّا يَرَوْقُ لِعَيْنِي النَّظْرُ
وَبِتُّ وَلِي جَسَدٌ نَاحِلٌ أَرِيهَا السُّهَاءُ وَتَرِينِي الْقَمَرُ
وَضَمَنْتُ أَنَا عَجَزَ بَيْتِ الْمَعْرِي فَقُلْتُ:
وَأَعْيَا فَصِيحَ الْوَقْتِ نَبْتَ عَدَارِهِ وَعَيَّرَ فُسًّا بِالْفَهَاهَةِ بِاقْلُ

(١) ٣٢٩: ١.

(٢) سقط الزند ٥٣٣.

(٣) الميداني ١: ٧٥، واللسان (مدر).

(٤) الميداني ١: ١٩٦.

والبلاغة بلوغ الدرجة العالية في النطق، والمعنى في قوله: إن باقلاً بالنسبة إليك يكون بليغاً.

١١١ - وَهَبْنَقَةً مُسْتَوْجِبٌ لِاسْمِ الْعَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ [هَبْنَقَةً]

يعني يزيد بن ثروان أحد بني قيس بن ثعلبة الملقب هَبْنَقَةً، والمكنى بأبي الودعات، لأنه نظم وَدَعَا لنفسه في سِلْكِ وجعله في عنقه علامةً لنفسه لئلا يضيع؛ قيل: إن أخاه راقبه إلى أن نام، فأخذ العِقْد من عنقه، وجعله في عُنُق نفسه، فلما انتبه هَبْنَقَةً ورأى أخاه قال له: أنت أنا، فأنا تُرى مَنْ هو! ولهذا يُضْرَب به المثل في الحُمُق. وهو جاهليّ. ومن أخباره أنه كان إذا رعى غنماً أو إبلاً جعل يختار المراعي للسَّمان، ونَحَى المهازيل، وقال: لا أصلح ما أفسد الله!

ومنها أنه اختصم إليه بنو راسب وبنو طُفاوة في شخص يدَّعون، فقال هَبْنَقَةً: أرموه في البحر، فإن رسب فهو من بني راسب، وإن طفا فهو من بني طُفاوة. ومنها أنه رأى مع الناس جراداً قد أقبل، فقال: لا يهولنكم ما ترون، فإن أكثرها موتى.

وأشترى أخوه بقرةً بأربعة أعنز، فركبها، فأعجبه عدوها، فالتفت إلى أخيه وقال: زدهم عنزاً أخرى، فُضِرَبَ به المثل للمعطي بعد إمضاء البيع، ثم سار بها فرأى أرنباً تحت شجرة، ففزع منها، وركض البقرة، وقال:

الله نَجَّاني ونَجَّى البقره
من جاحظِ العينين تحت الشَّجرة
ورُوي أن مالك بن مسمع قال للأحنف بن قيس مازحاً، وهو يفتخر بالرَّبعية على المضريّة: لأحمق بكر بن وائل أشهر من سيد بني تميم - يعني بالأحمق هَبْنَقَةً القيسيّ -، فقال الأحنف: لَيسَ بني تميم أشهر من سيد بكر بن وائل، يعني تيس بن حَمان الذي يقال فيه: أعلم من تيس بني حَمان، يزعمون أنه نَزَا على عنز بعد أن فرت أوداجه.

١١٢ - وَطُوساً مَأْثُورٌ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِرِ إِذَا قِيسَ عَلَيْكَ [طُوس]

هو عيسى بن عبد الله، مولى بني مخزوم، وكنيته أو عبد النعيم، كان مخنثاً ماجناً ظريفاً، يسكن المدينة، وهو أول مَنْ غَنَى بها على الدفِّ بالعربية، ويُضْرَب به المثل في الشُّوم، وذلك أنه وُلِدَ يوم قُبِضَ رسول الله، وقُطِمَ يوم مات أبو بكر، وخُتِنَ يوم مات عمر، وتزوج يوم قُتل

عثمان^(١)؛ وكانت أمه تمشي بالنميمة بين نساء الأنصار.

وله أخبار تدل على مكره وفطنته، قال: كان عبدالله بن جعفر -ومعه أخدان له- في عشية من عشايا الربيع، فراحت عليهم السماء بمطر جود^(٢) أسأل كل شيء، فقال عبدالله: هل لكم في العقيق؟ وهو متنزه أهل المدينة في الربيع والمطر - فركبوا ثم أتوا العقيق فوقفوا على شاطئه، وهو يرمي بالزبد [مثل مدّ الفرات]^(٣) فإنهم لينظرون إذ جادت^(٤) السماء، فقال عبدالله لأصحابه: ليس معنا جنة نستجئ بها، وهذه سماء خليقة أن تبل ثيابنا، فهل لكم في منزل طويس، فإنه قريب منا، فنسكن فيه، ويحدّثنا ويضحكنا! قال: وطويس في النظارة يسمع كلام عبدالله بن جعفر مع أصحابه ولم يروه - فقال [له] عبدالرحمن بن حسان: جعلت فداك! وما تريد من منزل طويس، عليه غضب الله! مخنّث شائن لمن عرفه. فقال عبدالله: لا تقل ذاك، فإنه [مليح]^(٥) خفيف لنا، فيه أنس، فلما استوفى طويس الكلام تعجل إلى منزله فقال لامرأته: ويحك! قد جاءك^(٦) سيد الناس؛ عبدالله بن جعفر، فما عندك؟ قالت: نذبح هذه العناق^(٧)، وكانت [عندها عتيقة] قد ربّتها للبن، واختبز رقاقاً فبادر فذبحها، وعجنت هي، وخرج وتلقاه مقبلاً إليه، فقال له طويس: بأبي أنت وأمي، هذا المطر! هل لك في المنزل فتسكن به إلى أن تكفّ السماء؟ قال: إياك أريد. قال: فامض يا سيدي على بركة الله، وجاء يمشي بين يديه حتى نزلوا، فتحدثوا إلى أن أدرك الطعام، فاستأذنه عليه^(٨)، وأتى بعناق سمينة ورقاق، فأكل وأكل القوم [حتى تملئوا]^(٩)، وأعجبه الطعام، ثم قال: بأبي أنت وأمي أما أغنيك؟ قال: بلى، فأخذ الدفّ وغنّى^(١٠):

يَا خَلِيلِي نَابِئِي سُهْدِي لَمْ تَنْمَ عَيْنِي وَلَمْ تَكِدْ
كَيْفَ تَلْحُونِي عَلَى رَجُلٍ^(١١) أَنْسٍ تَلْتَدُهُ كِبْدِي!^(١٢)

(١) الأغاني ٣: ٢٧، وبعده: "وولد له يوم قتل علي رضوان الله عليه".

(٢) ط: "جودي"؛ وأثبت ما في ت والأغاني.

(٣) من الأغاني.

(٤) الأغاني: "هاجت".

(٥) من الأغاني.

(٦) الأغاني: "جاءنا".

(٧) العناق: الأنثى من ولد المعز.

(٨) في الأغاني: "فقال: بأبي أنت وأمي، تكرمني إذا دخلت منزلي بأن تتعشى عندي، فقال: هات ما عندك".

(٩) الأغاني: "جاءنا".

(١٠) الأغاني: "أتمشى معك وأغنيك"، قال: افعل يا طويس، فأخذ ملحفة فأتزر بها، وأرعى لها ذننين، ثم أخذ

المربع فتمشّى وأنشأ يغني.

(١١) تلحوني: تلومني.

(١٢) من ت والأغاني، والزميلة: الرذل الجبان الضعيف.

[مثل ضوء البدر طلعتْهُ ليس بالزُّمَيْلَةِ النِّكِدِ]^(١)
 فطربُ القومُ وقالوا: والله أحسنتَ يا طويس، فقال: يا سيدي، أتدي لمن هذا الشعر؟
 قال: لا [والله ما أدري لمن هو، إلا أني سمعتُ شعراً حسناً]. قال: هذا لفارعة بنت حسان،
 وهي تعشق عبدالرحمن بن الحارث المخزومي، وتقول فيه [هذا الشعر]^(٢). فسكت القوم،
 وضرب عبدالرحمن برأسه^(٣)، فلو نُقِبَتْ له الأرض لذهب فيها، وعلم عبدالله أنه اقتص من
 عبدالرحمن^(٤).
 ولطويس شعر ركيك لا فائدة في ذكره.

والْيُمْنُ: البركة، وأيامُ الطير ما كانت العرب تتفاعل به للمسافر إذا أُولاه الطير يمينه،
 وهو خلاف الأشائم، وفي الحديث: "اللهم لا طيرَ إلا طيرُك".

١١٣ - فَوْجُودُكَ عَدَمٌ، وَالْأَغْتِبَاطُ بِكَ نَدَمٌ، وَالْحَبِيبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ، وَالْجَنَّةُ
 مَعَكَ سَقَرٌ

قوله: "وجودك عدم"^(٥)، هو مأخوذ من قول المتنبي:
 يَأْمَنُ مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ وَجَدَانْنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ
 والغِبْطَةُ: حسنُ الحال، وفي الحديث: "اللهم غِبْطاً لا هَبْطاً"^(٦) أي نسألك الغبطة،
 ونعوذ بك أن نهبط عن حالتنا. والأغْتِبَاطُ تمنِّي حال المغبوط من غير أن يريد زوالها.
 والخيبة: قَوْتُ المطلوب. والظَّفَرُ: الفوز به، مأخوذ من ظفر، أي نشب ظفره فيه.
 والجَنَّةُ: كل بستان ستر الأرض بشجره، مأخوذ من جَنَّ الشيء إذا ستره، قال
 الراغب^(٧): وَسُمِّيَتِ الْجَنَّةُ جَنَّةً إِمَّا تَشْبِيهاً بما يُرى فِي الْأَرْضِ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا بَوْنٌ، وَإِمَّا
 لِسِتْرِ النِّعَمِ الْمَشَارِإِلَيْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].
 وسَقَرٌ: إسم علم للجحيم، وهو من سقرته الشمس، وصقرته؛ إذا لَوَّحَتْه، ولما كان
 السَّقَرُ يقتضي التلويح، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ [المدثر: ٢٧]، أي أن ذلك
 السقر مخالف لما تعرفونه من سقر الشمس المعلوم بينكم.

(١) من الأغاني.

(٢) الأغاني: "فنكس القوم رؤوسهم".

(٣) ضرب برأسه على صدره: أطرق أستحياءً وخجلاً.

(٤) الأغاني ٣: ٣٢، ٣٤.

(٥) ديوانه ٣: ٣٧٠.

(٦) نهاية ابن الأثير ٣: ١٤٨.

(٧) المفردات ٩٨.

١١٤ - كَيْفَ رَأَيْتَ لُؤْمَكَ لِكَرَمِي كِفَاءً، وَضَعْتَكَ لِشَرَفِي وَفَاءً!

اللؤم: الدناءة في الأصل والأخلاق، والكرم ضده.

والأكفاء: الأنظار، ويُستعمل في المناكحة والمحاربة.

والضعة: مقابلة الرفعة؛ وهو مأخوذ من وضعت الشيء، إذا حططته.

والشرف: علو المقدار؛ وهو مأخوذ من شرف المكان؛ وهو أعلاه؛ والمعنى: كيف

تكون كُفؤاً إلى عُلّا شرفي وضعتك!

١١٥ - وَأَنِّي جَهِلْتُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنَجِدُبُ إِلَى أَشْكَالِهَا وَالطَّيْرُ إِنَّمَا تَقَعُ

عَلَى الْأَفْهَامِ!

يعني كيف جهلت أنني إنما أميل إلى شكلي وإلّفي، ولست من أشكالي وألّافي،

والكلمة الأولى منظومة في قول المتنبي، والكلمة الثانية منظومة في قول بعض العرب:

* وَعَلَى الْأَفْهَامِ الطَّيْرُ تَقَعُ *

قال الأصمعي: كنت أسمع بهذا المثل فلم أفهمه حتى رأيت غريباً تقع البقع منها

مع البقع، والسود مع السود، إلى أن رأيت غريباً أعرج قد سقط، فجاءه آخر مهيض الجناح،

فسقط عنده، فعلمت أن المثل ما ضاع.

١١٦ - وَهَلَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لَا يَجْتَمِعَانِ، وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ

وَالْكَافِرَ لَا يَتَقَارَبَانِ، وَقُلْتَ: الْحَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ!

شعرت، أي علمت علماً دقيقاً، مأخوذ من دقة الشعر، ويُلمح من السجعة الأولى

قول عليّ كرم الله وجهه: "الدنيا والآخرة، كالمشرق والمغرب، كلما أزددت من أحدهما

قرباً، أزددت من الآخر بُعداً". ومن السجعة الثانية قول النبي ﷺ: "المؤمن أطيب من عمله،

والكافر أخبث من عمله"، ويدل على ذلك لفظ القرآن العظيم في السجعة الثالثة^(١) فتأمله.

١١٧ - وَتَمَثَّلْتُ:

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيَّ سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللَّهُ وَكَيْفَ يُلْتَقِيَانِ!

هذا البيت لعمر بن أبي ربيعة المخزومي، يقوله في الثريا بنت عبدالله، وقد تقدم

ذكرهما، وسبب قوله أن سهيل بن عبدالعزيز بن طلحة قدم من الشام إلى الطائف، فتزوجها

ورحل بها إلى الشام، فقال عمر:

(١) وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]،

أَيُّهَا الْمُنْكُحُ الثَّرِيَا سُهَيْلًا عَمْرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ! (١)
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِ

واتفقت له تورية حسنة باسم النجمين والمقصدتين. وقوله: "عمرك الله".

يعني سألت الله عمرك، أي يعمرك؛ والعمر والعمر واحد، وإنما خص العمر بالقسم، وأصل العمر من العمار، وهو عماره البدن بالحياة.

١١٨ - وَذَكَرْتَ أَنِّي عَلِقُ لَا يُبَاعُ مِمَّنْ زَادَ، وَطَائِرٌ لَا يَصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ، وَغَرَضٌ لَا يُصِيْبُهُ إِلَّا مَنْ أَجَادَ

ذكرت، عطف على قوله: "وهلا علمت". والعلق: الشيء النفيس الذي يتعلق به صاحبه، فلا يبرح عنه، واللفظ مأخوذ من شعر حُرَيْث بن قحطان التميمي، وكانت له فرس يسميها سَكَاب، فأراد بعض ملوك اليمن أخذها منه، فهرب بها وقال:

أَبَيْتَ اللَّغْنَ إِنْ سَكَابِ عَلِقُ نَفِيسٌ لَا يُعَارُ وَلَا يُبَاعُ (٢)
مَفْدَاةٌ مَكْرَمَةٌ عَلَيْنَا تُجَاعُ لَهَا الْعِيَالُ وَلَا تُجَاعُ
سَلِيلَةٌ سَابِقِينَ تَنَاجِلُهَا إِذَا انْتَسَبَا يَضُمُّهُمَا الْكُرَاعُ
فَلَا تَطْمَعُ أَيْتَ اللَّغْنِ فِيهَا فَدُونَ مَنَالِهَا أَمَدُ شَنَاعُ

والغرض: الهدف المقصود بالرمي، ثم صار اسماً لكل غاية يتحرى الإنسان إدراكها.

١١٩ - مَا أَحْسَبُكَ إِلَّا كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِيةِ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِيةِ (٣)

يعني طمعت بحصول القصد، فانتظرت الهناء به.

والترشيح: الاستعداد للشيء، مأخوذ من ترشح الفصيل، إذا قوي على المشي.

والترفية والرَفاهية: التَّعْمُّ والتوسُّع في العيش.

١٢٠ - لَوْلَا أَنَّ جُرْحَ الْعَجَمَاءِ جُبَارٌ، لَلَقِيتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لَا قِيَّ يَسَارُ

جُرْحُ الْعَجَمَاءِ جُبَارٌ، لفظ الحديث (٤)؛ والعجماء: البهيمة، سُمِّيَتْ بذلك لأنها لا

تُعْرَبُ عن نفسها بالعبرة، والجُبَار: الدَّمُ الهَدَر؛ والمعنى عدم القصاص في جرح البهيمة، وَضُرِبَ به المثل لمن يُسْتَهَانُ به.

(١) ملحق ديوانه ٥٠٣.

(٢) الأبيات في ديوانه الحماسة ١: ٢٠٨ بشرح التبريزي.

(٣) الصواب: "تهَيَّأْتَ للتَّهْنِيةِ، وَتَرَشَّحْتَ للتَّرْفِيةِ"، يقال: رَفَاهٌ عند الزواج إذا قال له: "بالرَّفاهِ والبنين"، وقول المؤلف: "من الترفيه" ليس بشيء.

(٤) النهاية لابن الأثير ١: ١٤٢.

والكواعب: جمع كاعِب، وهي الجارية التي تكعَّب ثدياها، تشبيهاً بالكعْب ويسار اسم عبد.

وهذا مثل معروف، وسببه أن يسراً هذا كان عبداً دَمِيماً، يُقال له: يسار الكواعب؛ لأنَّ النساء إذا رأينه ضَحِكْنَ منه لقبحه، فكان يظنَّ أنهنَّ يضحكنَّ من عَجَبِهِنَّ به، حتى نظرتُ إليه امرأةٌ مولاه فضحكت، فظنَّ أنها خضعت له، فقال لصاحبٍ له أسود كان يكون معه في الإبل: قد والله عَشَقْتَنِي مولاتي، فلازورنَّها الليلة - ولم يكن يفارق الإبل - فقال له صاحبه: يا يسار، أشرب لبن العِشار^(١)، وكلَّ لحم الحِوَار^(٢)، وإياك وبنات الأحرار؛ فقال له: يا صاحب، أنا يسار الكواعب، والله ما رأيتني حُرَّةً إلا عَشَقْتَنِي. فلما أَمْسَى قال لصاحبه: احفظ عليَّ الإبل حتى أنصرف وأعود إليك، فنهاه فلم ينته حتى دخل على امرأةٍ مولاه يُراودُها عن نفسها، فقالت له: مكانك، فإنَّ للحرائر طيباً أشمُّك إياه، فقال: هاتيه، فأتته بطيبٍ وموسى حَذِمة - أي قاطعة - فأشمَّته الطيب، ثم أنحت بالموسى على أنفه فقطعته.

وقيل: وضعت تحته بخوراً، وقطعت مذاكيره، فصاح، فقالت: صبراً على مجامر الكرام! ثم خرج هارباً حتى أتى صاحبه ودمه يسيل، فضرب به المثل. وأيضاً مما قيل: إن أَسَم المرأة مَنْشَم، وأنها التي ضُرِبَ بها المثل بقولهم: "عطر منشَم"، وهذا على أحد الأقوال في ذلك مما رويناه.

١٢١ - فَمَا هَمَّ إِلَّا بِبَعْضِ مَا بِهِ هَمَمْتُ، وَلَا تَعَرَّضَ إِلَّا لِأَيْسَرِ مَا لَهُ تَعَرَّضْتُ

يعني ما طلب يسار من مولاته، وتعرَّض له، إلا دون ما تعرَّضت إليه مني؛ لأنني أشرف من تلك، وأنت أقل من ذاك.

وهممتُ بالشيء؛ إذا جعلت طلبه همَّ نفسك. وتعرَّضتُ للشيء، إذا وقفت عرضاً في طريقه.

١٢٢ - أَيْنَ ادَّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ، وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السَّيْرِ وَالْأَخْبَارِ! أَمَا ثَابَ

إِلَيْكَ قَوْلُ الشَّعْرِ:

بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ أَلْ مِسْمَعٍ وَتُنْكَحُ فِي أَكْفَائِهَا الْحَبِطَاتُ

(١) العِشار: اسم يقع على النوق.

(٢) الحِوَار، بفتح الحاء وكسرها: ولد الناقة من حين يوضع إلى أن يُفطم.

ثاب إليك، أي رجع إلى ذهنك، وهذا البيت للفرزدق^(١)؛ يقوله لرجل من بني الحارث ابن عمرو، خطب إلى بن دارم.

وَدَارِمٌ هُوَ مَالِكُ بْنُ حَنْظَلَةَ التَّمِيمِيِّ، وَهُوَ أَبُو مَجَاشِعَ، وَبَيْتُهُ أَكْبَرُ بَيْوتِ بَنِي تَمِيمٍ.
وَأَلْ مِسْمَعُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ، يَجْمَعُهُمُ الْبَيْتُ مَعَ بَنِي دَارِمٍ، وَإِنَّمَا نَقَصَ
قَدْرُ الْحَبِطَاتِ عَنْهُمْ لِقَوْلِ الشَّاعِرِ فِيهِمْ:

وَجَدْنَا النَّيْبَ مِنْ شَرِّ الْمَطَايَا كَمَا الْحَبِطَاتِ شَرُّ بَنِي تَمِيمٍ
فلزمهم هذا القول، وقيل: إِنَّمَا سُمِّيَ الْحَارِثُ حَبْطًا؛ لَأَنَّهُ كَانَ فِي سَفَرٍ، فَأَكَلَ أَكْلًا
فَانْتَفَخَ بَطْنُهُ فَمَاتَ، فَسُمِّيَ حَبْطًا، وَغَيْرُوا بِذَلِكَ، وَالْحَبَطُ: أَنْ تَأْكُلَ الْمَاشِيَةُ فَتُكْثِرَ حَتَّى تَنْتَفَخَ
بَطْنُهَا، وَلَا يَخْرُجُ عَنْهَا مَا فِيهَا، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: "إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعَ مَا يَقْتُلُ
حَبَطًا، أَوْ يَلْمُ"^(٢).

ومعنى قول الفرزدق، أَنَّ بَنِي دَارِمٍ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْطُبَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بَنُو مِسْمَعٍ؛ لِأَنَّهُمْ
أَكْفَاؤُهُمْ فِي الشَّرَفِ، فَأَمَّا الْحَبِطَاتُ فَلَا. وَذَكَرَ الْمُبَرِّدُ أَنَّ الرَّجُلَ الْخَاطِبَ أَجَابَ الْفَرَزْدَقُ،
فَقَالَ:

أَمَا كَانَ عَتَابٌ كَفِيئًا لِدَارِمٍ بَلَى وَلَأَيَّاتٍ بِهَا الْجُحْرَاتُ^(٣)
عتاب أحد آباء بني الحارث، وقوله: "أَيَّاتٍ بِهَا الْجُحْرَاتُ"، يَعْنِي بَنِي هَاشِمٍ، لِقَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

[الفرزدق]

والفرزدقُ هذا، هُوَ هَمَامٌ بْنُ غَالِبٍ بْنِ صَعْبَةَ التَّمِيمِيِّ الدَّارِمِيِّ، الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ،
صَاحِبُ جَرِيرٍ، وَلُقِّبَ الْفَرَزْدَقُ لَجَهَامَةِ وَجْهِهِ، لِأَنَّ الْفَرَزْدَقَ، الْقِطْعَةُ الضَّخْمَةُ مِنَ الْعَجِينِ،
وَكُنْيَتُهُ أَبُو فِرَاسٍ.

وَذَكَرَهُ الشَّرِيفُ الْمُرْتَضَى فَقَالَ: كَانَ الْفَرَزْدَقُ مَعَ تَقَدُّمِهِ فِي الشَّعْرِ، وَبَلُوغِهِ فِيهِ إِلَى
الذُّرْوَةِ الْعُلْيَا، شَرِيفَ الْآبَاءِ، كَرِيمَ الْبَيْتِ، [لَهُ وَلِآبَائِهِ مَآثِرٌ لَا تُدْفَعُ، وَمُفَاخِرٌ لَا تُجْحَدُ]^(٤).
وَكَانَ شَيْعِيًّا مَائِلًا لِبَنِي هَاشِمٍ، وَنَزَعَ فِي آخِرِ عَمَرِهِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْفُسْقِ وَالْقَذْفِ، وَرَاجَعَ
طَرِيقَةَ الدِّينِ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي خِلَالِ ذَلِكَ مَنْسَلَخًا [مِنَ الدِّينِ جُمْلَةً، وَلَا مَهْمَلًا أَمْرَهُ].

(١) ديوانه ١٢٦، وروايته: "بنو مسمع أكفاؤهم بنو دارم".

(٢) نهاية ابن الأثير ١: ١٢٦، قال في شرحه: "وذلك أن الربيع يُنبت أحرار العشب فتكثر منه الماشية".

(٣) الكامل ١: ٦٤.

(٤) من الأمالي.

حدّث ابن عمران، قال: جاء الفرزدق فتذاكرنا رحمة الله تعالى وسعتها، فكان أوثقنا بالله تعالى، فقال رجل: ألك هذا الرجاء، وهذا المذهب، وأنت تفعل ما تفعل! فقال: أترؤني لو أذنبت إلى والدي، أكانا يقذفانني في تنور، وتطيب أنفسهما بذلك! قلنا: لا: بل كانا يرحمانك، فقال: أنا والله برحمة الله أوثق مني برحمتها.

وقيل: إنه كان يخرج من منزله فيرى بني تميم، وفي حُجورهم المصاحف، فيفرح بذلك ويقول: إيه، فداكم أبي وأمي! هكذا والله كان آباؤكم^(١).

واستدلّ الشريف على تشييعه بحكايته مع هشام بن عبد الملك، وذلك أن هشاماً حجّ في خلافة أبيه، فأراد أن يستلم الحجر، فلم يتمكن لزدحام الناس، فجلس ينتظر خلوة، فأقبل عليّ بن الحسين رضي الله تعالى عنهما، وعليه إزار ورداء، وهو من أحسن الناس وجهاً، وبين عينيه سجادة؛ فجعل يطوف بالبيت، فإذا بلغ الحجر تنحى الناس له هيبَةً وإجلالاً؛ فغاض ذلك هشاماً، فقال رجل من أهل الشام: مَنْ هذا الذي قد هابه الناس! فقال هشام: لا أعرفه، لئلا يرغب فيه أهل الشام، فقال الفرزدق - وكان حاضراً - : لكني: أنا أعرفه، فقل: مَنْ هو؟ فأنشده يقول:

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ^(٢)

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَأَّتَهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ^(٣)

يَكَادُ يُمَسِّكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ رَكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ^(٤)

فغضب هشام، وأمر بحبس الفرزدق بعسفان، وفي ذلك يقول:

أَيْحَسْبُنِي بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالَّتِي إِلَيْهَا رِقَابُ النَّاسِ يَهْوِي مُنِيبُهَا^(٥)

يُقَلِّبُ رَأْسًا لَمْ يَكُنْ رَأْسَ سَيِّدٍ وَعَيْنَا لَهُ حَوْلَاءٌ بَادٍ عُيُوبُهَا

وبعض الرواة يروي الأبيات الميمية لأبي الطمحان القيني، والذي يرويها للفرزدق يُستدلّ لها بحبسه، وقوله هذه الأبيات.

ومات الفرزدق بالبادية سنة مائة وعشر.

(١) أمالي المرتضى ١: ٦٢ وما بعدها.

(٢) ديوانه ٨٤٨.

(٣) البطحاء: أرض مكة المنبطقة، والحل، بالكسر: خارج المواقيت من البلاد، والحرم: ما بين المواقيت المعروفة؛ وأراد بها أهل الحل والحرم.

(٤) الحطيم: الجدار الذي عليه ميزاب الكعبة، ونصب "عرفان" على أن مفعول له، أي يكاد يُمسكه ركن الحطيم لأنه عرف راحته، ويستلم بمعنى يلمس الحجر الأسود. وقد ذكر أبو تمام في (الحماسة - بشرح التبريزي ٤: ١٦٧-١٦٩؛ الأبيات منسوبة إلى الحزبل الليثي. وانظر تفصيل الخبر وتحقيق نسبة الأبيات في الأغاني (١٤: ٧٤-٧٧).

(٥) ديوانه ٥١.

ومن أخباره المستطرفة: دخل يوماً على بلال بن أبي بردة، وهو أمير على البصرة، وعنده أصحابه، فنقصوا بني تميم، ورفعوا اليمن، فقال الفرزدق: لو لم يكن لليمن إلا أبو موسى وما تولاه من خدمة رسول الله ﷺ لكفاهم، فقال بلال: إن فضائله كثيرة، فما أردت منها؟ فقال: حجامته إياه، فقال: صدقت، قد فعل ذلك؛ وما فعله بأحد قبله ولا بعده، فقال الفرزدق: الشيخ كان أتقى الله من أن يقدم على نبيه بغير حذق، فيجرب عليه! فأمسك بلال، وعجب الناس من حذقه في هذا التعريض.

ونظر يوماً إلى ابن هُبيرة وعليه ثياب تتقعقع، فقال: إن ثيابه لتسبح، أراد بذلك قول الشاعر:

إِذَا لَبَسْتَ قَيْسُ ثِيَاباً لَزِينَةً تَسْبَحُ مِنْ لَوْمِ الْجُلُودِ ثِيَابُهَا
وكان قد هجا الأزد، فلما قدم يزيد بن المهلب البصرة قال لأبي الجعد - وكان صديقاً للفرزدق: أبعث إلى الفرزدق فقال له يوماً: ماذا يعوقك عن يزيد! أعظم الناس عفواً، وأسخاهم كفاً. فقال: صدقت، ولكنني أخشى أن آتيه فأجد العمانية ببابه، فيقوم إلي رجل منهم، فيقول: هذا الذي هجانا، فيضرب عنقي، فيبعث إليه يزيد فيضرب عنقه، ويبعث إلى أهل بيتي بديتي، فإذا يزيد صار أوفى العرب، وإذا الفرزدق قد ذهب فيما بين ذلك! لا والله لا أفعل، فقال يزيد: أما إذ فطن لها فدعه إلى لعنة الله. وقيل: إن هذا كان مراده.

وسمع الفرزدق رجلاً يقرأ:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فقال الفرزدق: "فاقطعوا أيديهما... والله غفورٌ رحيم"! لا ينبغي أن يكون هكذا. قيل: إنما قال: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فقال: هكذا ينبغي أن يكون! ثم أخذ نفسه بحفظ القرآن بعد ذلك.

وسمع رجلاً يُنشد قول لبيد هذا البيت:

وَجَلَا السَّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجَدُّ مَتَوْنَهَا أَفْلَامُهَا^(١)

فسجد، فقيل له: ما هذا؟ فقال: موضع سجدة في الشعر، أعرفه كما تعرفون مواضع السجود في القرآن!.

وسمع رواية جرير يُنشد قصيدته البائية^(٢)، فلما قال:

(١) ديوانه ٢٩٩.

(٢) يهجو فيها الراعي النميري، مطلعها:

أَفْلَى اللَّوْمِ عَاذِلٌ وَالْعِتَابُ بَا
وَقُولِي إِنْ أَصْبَحْتُ لَقَدْ أَصَابَا

ديوانه ٦٤ - ٨٠.

بَهَا بَرَصٌ بِأَسْفَلِ إِسْكَتَيْهَا

وضع يده على عُنُقِهِ، وأنشد:

كَعَنْقَفَةِ الْفِرْزْدَقِ حِينَ شَابَا

فقال: علمتُ أنه يقول هكذا، فإنَّ شيطاننا في الشَّعر واحد.

ومرَّ يوماً بقوم فدعوه للنزول، فقال: لماذا؟ قالوا: لنبذل، وجدي حنيدٌ، وغناءٌ لذيذٌ؛ فقال: وهل يأبى هذا إلا ابن المراغة! يعني جريراً، ثم نزل.

واستسقى الحَكَم بن المنذر ذاتَ يوم لبناً، فأمر غلامه أن يجعل في القُعب خمرأً، ويحلب عليه لبناً ويسقيه، فلما كَرَعَ، جعل الخمر ينبع من تحت اللبن فشرب، وقال: بأبي أنت! إنك ممن تُخفي الصدقات وتؤتيها الفقراء.

وقال: ما أفحمني أحدٌ إلا نَبَطِيٌّ من أهل تِيرِي، قال لي: أنت الفرزدق الشاعر؟ قلت: نعم، قال: إن هَجَوْتَنِي تموت زوجتي عيشونة؟ قلت: لا، قال: فتموت حمارتي؟ قلت: لا، قال: فمن رجلي إلى عنقي في رَحِم أمك! قلت: ويلك! فلم تركت رأسك؟ قال: حتى أنظر ما تَصْنَع!.

وكان الفرزدق يقول: لقد استراح النَّبَطِيٌّ من حيث تعب الكرام.

ومن محاسن شعره قوله:

تَصَرَّم مَنِّي وَدُّ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ وَمَا خِلْتُ بَاقِي وَدَّهَا يَتَصَرَّمُ^(١)
قَوَارِصُ تَأْتِيْنِي وَيَحْتَفِرُونَهَا وَقَدْ يَمَلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

وقوله:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتَ زُرَّارَةَ مُحْتَبٍ بِفَنَائِهِ
يَبْتَ زُرَّارَةَ مُحْتَبٍ بِفَنَائِهِ أَيْنَ الَّذِينَ بِهِمْ تُسَامِي دَارَ
أَيْنَ الَّذِينَ بِهِمْ تُسَامِي دَارَ أَخْلَامُنَا تَزُنُ الْجِبَالَ رِزَانَةً
أَخْلَامُنَا تَزُنُ الْجِبَالَ رِزَانَةً فَادْفَعْ بِكَفِّكَ إِنْ أَرَدْتَ بِنَاءَنَا
فَادْفَعْ بِكَفِّكَ إِنْ أَرَدْتَ بِنَاءَنَا إِنِّي أَرْتَفَعْتُ عَلَيْكَ كُلَّ ثِيَّةٍ
إِنِّي أَرْتَفَعْتُ عَلَيْكَ كُلَّ ثِيَّةٍ تَهْلَانِ ذَا الْهَضْبَاتِ، هَلْ يَتَحَلَّحُلُ!
تَهْلَانِ ذَا الْهَضْبَاتِ، هَلْ يَتَحَلَّحُلُ! وَسَمَوْتُ فَوْقَ بَنِي كَلْبٍ مِنْ عَلُ

(١) ديوانه ٧٥٦.

(٢) ديوانه ٧١٤.

وقوله:

وَمُسْتَنْبِحِ طَاوِيِ الْمَصِيرِ كَأَنَّمَا
دَعَوْتُ بِحَمْرَاءِ الْفُرُوعِ كَأَنَّهَا
وَإِنِّي سَفِيهُ النَّارِ لِلْمُبْتَغِي الْقَرَى
إِذَا مِتَّ فَأُبْكِيَنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ
وَكَمْ قَائِلٍ مَاتَ الْفِرْزَدَقُ وَالنَّدَى
كَانَ الْجَاظُ يُكْثِرُ التَّعَجُّبَ وَالِاسْتِحْسَانَ، لقوله: "سفيه النار"، و"حليم الكلب".

وقوله يُرْثِي أَبْنِيَهُ:

يُدْكَرْنِي أَبْنِي السَّمَاءِ كَانَ مَوْهِنًا
وَقَدْ رَزَىءَ الْأَقْوَامُ قَبْلِي بَيْنَهُمْ
وَمَاتَ أَبِي وَالْمُنْذِرَانِ كِلَاهُمَا
وَمَا أَبْنَاكَ إِلَّا مِنْ بَنِي النَّاسِ فَأَعْلَمَ
وقوله في الفاتية التي أولها:

عَزَفْتُ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كِدْتُ تَعَزِفُ
إِذَا أَغْبَرَ آفَاقَ السَّمَاءِ وَكَشَفْتُ
وَأَصْبَحَ مَبِضُّ الصَّقِيعِ كَأَنَّهُ
- هذا البيت يُروى: "بالتَّيْب"، و"البيت"، و"النبت"، وأفصح ذلك كله "النيب" -
تَرَى جَارَنَا فِينَا يُجِيرُ وَإِنْ جَنَى
وَكُنَّا إِذَا نَامَتْ كُلَيْبٌ عَنِ الْقَرَى
إِلَى الضَّيْفِ نَمْشِي بِالْعَيْطِ وَنَلْحَفُ
ومنها أيضاً؛ وهو أحسن ما قيل في الفخر، ويقال: إنه غصبه من جميل:

تَرَى النَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا
وَإِنْ نَحْنُ أَوْ مَأْنَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا^(٥)

(١) ديوان ٥٥١ وما بعدها.

(٢) الخرجف: الريح الشديدة الهبوب.

(٣) الديوان: "موضوع الصقيع". سروات النيب: مسان الإبل، وسرواتها: أسنمتها.

(٤) يقول: جارنا يجير لعزنا وهو سليم من أن يصيبه شر. والنطف: الدبرة تدخل جوفه.

(٥) هو قوله:

تَرَى النَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا
وَإِنْ نَحْنُ أَوْ مَأْنَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا

وَأَنَّكَ إِذْ تَسْعَى لِتُدْرِكَ شَأُونَا لَأَنْتَ الْمَعْنَى يَا جَرِيرُ الْمُكْلَفُ
وقوله:

لَا خَيْرَ فِي الْحُبِّ لَا تُرْجَى نَوَافِلُهُ فَاسْتَمْطَرُوا مِنْ قُرَيْشٍ كُلَّ مُنْخَدِعٍ^(١)
تَخَالٍ فِيهِ إِذَا خَادَعْتُهُ بَلْهَاءٌ عَنْ مَالِهِ وَهُوَ فِي الْعَقْلِ وَالْوَرَعِ
وقوله يُرْثِي جارية له حاملاً:

وَجَفَنَ سِلَاحٌ قَدْ رَزِئْتُ فَلَمْ أَنْحَ عَلَيْهِ، وَلَمْ أَبْعَثْ عَلَيْهِ الْبَوَاكِيَا^(٢)
وَفِي بَطْنِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِظَةٍ^(٣) لَوْ أَنَّ الْمَنَايَا أَنْسَأَتْهُ لَيَالِيَا^(٤)

أرباب البديع يستحسنون قوله: "وجفن سلاح" للكناية عن الولد، ويقولون: إنها إن كانت سوداء فإنه أبدع في التشبيه.

وقوله:

وَتَقُولُ كَيْفَ تَمِيلُ مَيْلَكَ فِي الصَّبَا وَعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ الْحَلِيمِ وَقَارُ^(٥)
وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ صُبْحٌ يُصِيحُ بِجَانِيهِ نَهَارُ
قوله: "يصيح" يعني يظهر، يقال: صاح الشجر بنفسه، إذا طال، كأنه ينادي على نفسه بالظهور.

١٢٣ - وَهَلَّا عَشَّيْتُ وَلَمْ تَغْتَرَّ! وَمَا أَشْكُ أَنَّكَ تَكُونُ وَافِدَ الْبَرَاكِجِمِ

في النسخة "عسيت" بالسين المهملة، وهو خطأ، ولا يصح به المعنى، يقال: عسيت أن أفعل، فلا يصح أن يقول: قاربت أن تغتر، والكلام يقتضي أنه قد اغتر، وإنما هي "عشيت"، أي رفقت، وعشيت الإبل وعشيتها إذا أطعمتها عشياً، وفي المثل: "عش ولا تغتر"^(٦).

[قصة وافد البراجم]

- (١) ديوانه ٥٢٨.
- (٢) ديوانه ٨٩٤، وروايته: "وغمد سلاح".
- (٣) الديوان: "وفي جوفه".
- (٤) بعده.
- (٥) ولكن رأيت الدهر يعثر بالفتى وكُم مثله في مثلها قد وضعتُه ولكن وقاني ذو الجلال بقدره ديوانه ٤٦٧.
- (٦) الميداني ١: ٣١١، قال: "أصل المثل فيها يقال إن رجلاً أراد أن يسير بإبله، واتكل على عشب يجده هناك، فقيل له: عش ولا تغتر بما لست منه على يقين".

وأما وafd البراجم فهو رجلٌ من تميم، والبراجم خمسة من أولاد حنظلة، والعرب تضرب المثل بوافد البراجم، وذلك أن الملك عمرو بن هند أحرَقَ تسعة وتسعين رجلاً من بني تميم؛ لثأرٍ له عندهم، وقد كان ألى أن يحرق منهم مائة، فبينما هو يلتمس بقية المائة إذ مرَّ رجل من البراجم، يُسمَّى عمَّاراً، قادم من سفر، فأشتم رائحة القَتار، فظنَّ أن الملك اتَّخذ طعاماً، فعدل إليه، فقيل له: ممَّن أنت؟ قال: من البراجم، فألقِيَ في النار، وقيل: "إنَّ الشَّقِيَّ وafd البراجم"^(١)، ومن هناك عُبِّرَتْ بنو تميم بحبِّ الطَّعام، وستأتي قصة عمرو بن هند في أصل تسميته محرَّقاً، وما السَّبب في ذلك.

١٢٤ - أَوْ تَرْجِعَ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمَّسِ

صحيفة المتلمس مثل يُضْرَبُ لمن يحصل له الضرر من جهة النفع.

[المتلمس]

والمتلمس، هو جرير بن عبدالمسيح، أحد بني ضُبَيْعَة. شاعرٌ مجيدٌ من شعراء الجاهلية، وفدَّ هو وابن أخته طَرْفَة بن العبد على عمرو بن هند، أحد ملوك الحيرة، فنزلا منه في خاصته حتى نادماه، فبينما طَرْفَة يوماً يشربُ معه، وفي يده جامٌ من ذهب، فيه شراب، أشرفت أخت عمرو، فرآها طَرْفَة، وقيل: إنَّما رآها في الإناء، فقال: أباي الطَّيِّبُ الَّذِي تَبْرُق شفتاه، ولولا الملك القاعد ألثمني فاه! فسمعها عمرو، فاضطَّعَنها عليه، وأمسكها في نفسه، ثم خرج عمرو، يصيد ومعه عبد عمرو بن بشر - وكان طَرْفَة هجاء - فرمى عمرو حماراً، وقال لعبد عمرو: إنزل فأذبحه، فنزل إليه فعالجه، فأعياه، فقال عمرو: قد عرفك طَرْفَة حيث يقول فيك:

وَلَا خَيْرَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ لَهُ غِنًى وَأَنَّ لَهُ كُشْحاً إِذَا قَامَ أَهْضَمًا^(٢)

فقال له عبد عمرو: وما هجاءك به أشدُّ، قال: وما هو؟ قال: قوله:

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو رَغَوْتَا حَوْلَ قَبْتِنَا تَخَوُّرُ

فهمم بقتل طَرْفَة، وخاف من هجاء المتلمس له، وأن يجتمع عليه بكر بن وائل متى قتلهما ظاهراً، فقال لهما يوماً: أظنكما قد اشتقتما إلى الأهل! قالوا: نعم، فكتب لهما كتابين إلى عامل البحرين، وقال: إنِّي كتبتُ لكما بَصْلَةً فأقبضاها من عامل البحرين، فخرجا من عنده

(١) الميداني ١: ٧.

(٢) ديوانه ١٤١.

والكتابان في أيديهما، فمرّا بشيخ جالس على ظهر الطريق، منكشفاً يقضي حاجته، وهو مع ذلك يأكل ويتفلى، فقال أحدهما لصاحبه: هل رأيت أعجب من هذا الشيخ! فسمع الشيخ ما قاله، فقال: ما ترى من عجبي! أخرج خبيثاً، وأدخل طيباً، وأقتل عدوّاً! وإن أعجب مني مَنْ يحمل حتفه بيده وهو لا يدري! فأوجس المتلمس في نفسه خيفةً، وأرتاب بكتابه، فلقبه غلام من أهل الحيرة، فقال له: أنقرأ يا غلام؟ فقال له: نعم، ففَضَّ كتابهن فقرأه، فإذا فيه: إذا أتاك المتلمس فأقطع يديه ورجليه، وأصلبْه حياً. فأقبل على طرفة، فقال: والله لقد كتب لك بمثل هذا، فادفع كتابك إلى الغلام يقرؤه، فقال: كلاً، ما كان لي جترىء على قومي بمثل هذا، وأنا أقدم عليهم فأكون أعزّ منه. فألقى المتلمس صحيفته في نهر الحيرة^(١)، وقال:

رَمَيْتُ بِهَا لَمَّا رَأَيْتُ مِدَادَهَا يَجُولُ بِهِ التَّيَّارُ فِي كُلِّ جَدْوَلٍ^(٢)
ثم قال يخاطب طرفة:

أَطْرَيْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ إِنَّكَ حَائِنٌ أَسَاحَةِ الْمَلِكِ الْهُمَامِ تَمَرُّسُ^(٣)
أَلْقِ الصَّحِيفَةَ لَا أَبَالِكَ إِنَّهُ يُخْشَى عَلَيْكَ مِنَ الْجَبَاءِ النَّقْرُسُ
ثم مضى طرفة بكتابه إلى صاحب البحرين فقتله، فلما سمع المتلمس ما جرى عليه، قال:

عَصَانِي فَمَا لَأَقَى رَشَاداً وَإِنَّمَا تَبَيَّنَ مِنْ أَمْرِ الْغَوَى عَوَاقِبُهُ^(٤)
فَأَصْبَحَ مَحْمُولاً عَلَى آلَةِ الرَّدَى تَمْجُجُ نَجِيعَ الْجَوْفِ مِنْهُ تَرَائِبُهُ
فِيلاً تُجَلِّلُهَا يِعَالُوكُ فَوْقَهَا وَكَيْفَ تَوَقَّى ظَهَرَ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ!
ثم لحق بالشام وهجا عمرًا.

وبلغه أن عمرًا يقول: حرام عليه حبّ العراق أن يطعم منه حبةً، ولئن وجدته لأقتلنه،

فقال:

أَلَيْتُ حَبَّ الْعِرَاقِ الدَّهْرَ أَطْعَمُهُ وَالْحَبُّ يَأْكُلُهُ فِي الْقَرْيَةِ السُّوسُ^(٥)
أَغْنَيْتُ شَاتِي فَأَغْنُوا الْيَوْمَ تَيْسَكُمْ وَاسْتَحَقُّوا فِي مَرَاسِ الْحَرْبِ أَوْ كَيْسُوا

(١) ديوانه ٩٢.

(٢) الشعر والشعراء ١٣١.

(٣) شعراء النصرانية ٣٣١، الشعر والشعراء ١٣٢.

(٤) شعراء النصرانية ٣٣١.

(٥) الشعر والشعراء ١٣٥، شعراء النصرانية ٣٣٣.

قال أبو حاتم: قرأت هذه الآيات على الأصمعيّ، فتصحّفت عليّ، فقلت:

* أَغْنَيْتُ شَاتِي فَأَغْنُوا الْيَوْمَ شَاتِكُمْ *

فقال الأصمعيّ: قل: "فأغْنُوا الْيَوْمَ تِسْكُمْ".

ومن جيّد شعر المتلمّس قوله من قصيدة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْءَ رَهْنٌ مَيَّيَّةٌ صَرِيحٌ لِعَافِي الطَّيْرِ أَوْ سَوْفَ يَرْمَسُ^(١)
فَلَا تَقْبَلُنْ ضِيْمًا مَخَافَةَ مَيَّيَّةٍ وَمَوْتُنْ بِهَا حُرًّا وَجِلْدُكَ أَمْلَسُ
وقوله يصف البخل ويمدحه:

لَحِفْظُ الْمَالِ خَيْرٌ مِنْ بُغَاةٍ وَضَرْبٌ فِي الْبِلَادِ بَغِيرِ زَادٍ^(٢)
وَإِصْلَاحُ الْقَلِيلِ يَزِيدُ فِيهِ وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ
وقوله:

إِلَى كُلِّ قَوْمٍ سُلْمٌ يُرْتَقَى بِهِ وَلَيْسَ إِلَيْنَا فِي السَّلَالِيمِ مَطْلَعٌ^(٣)
وَيَهْرُبُ مِنَّْا كُلُّ وَحْشٍ وَيَتَّوِي إِلَى وَحْشِنَا وَحْشُ الْفَلَاةِ فِيرْتَعُ
وقوله وهو أحسن ما ورد في المستنحات:

وَمُسْتَنْبَحٌ تَسْتَكْشِفُ الرِّيحُ ثَوْبَهُ لَيْسَقُطَ عَنْهُ وَهُوَ بِالثَّوْبِ مُعْصِمٌ^(٤)
عَوَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ بَعْدَ اعْتِسَافِهِ لِيَنْبَحَ كَلْبٌ أَوْ لِيَوْقَظَ نَوْمٌ
فَجَاءُوا بِهِ مُسَمِّعَ الصَّوْتِ لِلنَّدَى لَهُ عِنْدَ إِيْتَانِ الْمَجْبِينِ مَطْعَمٌ
يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلًا يَكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمٌ

١٢٥- أَوْ أَفْعَلُ بِكَ مَا فَعَلَهُ عُقَيْلُ بْنُ عُلْفَةَ بِالْجَهَنِّيِّ إِذْ جَاءَهُ خَاطِبًا،

(١) شعراء النصرانية ٣٣٤، ٣٣٥.

(٢) الشعر والشعراء ١٣٦.

(٣) ديوانه ١١.

(٤) شعراء النصرانية ٣٤٨، وفيه: "تستكشط".

فَدَهَنَ أَسْتَهُ بَرَيْتَ، وَأَذْنَاهُ مِنْ قَرِيَةِ النَّمْلِ

[عقيل بن علفة]

هو عقيل بن علفة بن الحارث اليربوعي، يُكنى أبا العَمَلَس، وأمّه عمرة^(١)، بنت الحارث بن عوف المُرِّي، وأمها بنت بدر بن حصن بن حذيفة^(٢)، شاعر من شعراء الدولة الأموية، وكان أهوج جافياً، شديد الغيرة والعجرفة والبَذَخ^(٣) بنسبه. وهو من بيت شرف في قومه من كِلَا طرفيه، وكان لا يرى أن له كفئاً، وكانت قُرَيْش ترغب في مصاهرته وتزوّج إليه من خلفائها^(٤)، وأشرافها^(٥).

وخطب إليه عبد الملك بن مروان بعض بناته لبعض ولده، فأطرق ساعة ثم قال: إن كان ولا بدّ فجنّني هُجَنَاءك. فضحك عبد الملك، وعجب من كبر نفسه على ضائقته، وشدة عيشه بالبادية. وتزوج يزيد بن عبد الملك بعض بناته^(٦).

ودخل على عثمان بن حيان وهو أمير المدينة، فقال له عثمان: زوّجني بعض بناتك^(٧)، فقال: أبكره من إبلي تعني! فقال له عثمان: [وَيْلَكَ!]^(٨)، أمجنون أنت! قال: أي شيء قلت لي؟ قال: قلت لك: زوّجني ابنتك، فقال: إن كنت تريد بكراً من^(٩) إبلي فنعم، فأمر به فوُجِّئَتْ عُنُقُه، فخرج وهو يقول:

لَحَى اللَّهُ دَهْرًا ذَعَزَعَ الْمَالَ كُلَّهُ وَسَوَدَ أَبْنَاءَ الْإِمَاءِ الْعَوَارِكِ^(١٠)

وكان له جارٌّ جهني^(١١)، فخطب إليه ابنته، فغضب عقيل، وأخذ الجهني فكتفه^(١٢)،

(١) في الأغاني ١٢: ٢٥٤: "وأم عقيل بن علفة العوراء".

(٢) في الأغاني: "وأمها زينب بنت حصن بن حذيفة".

(٣) البَذَخ: "الكِبَر وتطاول الرجل بكلامه".

(٤) الأغاني: "تزوج إليه خلفاؤها".

(٥) بعدها في الأغاني: "منهم يزيد بن عبد الملك تزوج ابنته الجرياء، وكانت قبله عند ابن عم لعقيل يقال له مطيع ابن قطعة بن الحارث بن معاوية، وولدت ليزيد بنياً درج".

(٦) الأغاني ١٢: ٢٥٤.

(٧) الأغاني: "زوّجني بنتك".

(٨) من الأغاني.

(٩) الأغاني: "أفعل إن كنت عنيت بكرة من إبلي".

(١٠) الأغاني ١٢: ٢٥٥: ذعزع المال: فرقه وبذّده. وسوّده: جعله سيّداً. العوارك: الخيض، وقبله في الأغاني.

كنا بني غِيْظَ الرِّجَالِ فَأَصْبَحَتْ

بنو مالك غِيْظاً وَصَرْنَا كَمَا لَكَ

(١١) الأغاني: "من بني سلامان بن سعد".

(١٢) كتفه: شد يديه من خلفه بالكتاف، وهو ما شدّ به.

ودهن أَسْتَهْ بِشَحْمٍ أَوْ بَزَيْتٍ، وأَدَانَاهُ مِنْ قَرْيَةٍ^(١) النَّمْلِ، فَأَكَلَ خُصْيَتَيْهِ^(٢) حَتَّى وَرِمَ جَسَدُهُ، ثُمَّ حَلَّهْ وَقَالَ: أَيْخُطَبُ إِلَيَّ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَأَرَدَهُ، وَتَجْتَرِيءُ أَنْتَ عَلَيَّ أَنْ تَخْطُبَ إِلَيَّ^(٣)!.

ومما حُكِيَ عَنْهُ أَنَّهُ خَرَجَ هُوَ وَابْنَاهُ: جَثَامَةُ وَعَمَلْسُ^(٤)، وَأَخْتَهُمَا الْمَسْمَاةَ بِالْحَوْرَاءِ حَتَّى أَتَوْا ابْنَةً لَهُ نَاكِحاً^(٥) فِي بَنِي مَرْوَانَ بِالشَّامِ [فَأَمَتْ]^(٦)، ثُمَّ قَفَلُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، قَالَ عَقِيلُ:

قَضَيْتُ وَطَرًا مِنْ دَيْرٍ سَعِيدٍ وَطَالَ مَا
[إِذَا هَبَطْتُ أَرْضًا يَمُوتُ غُرَابُهَا
عَلَى عُرْضٍ نَاطَحِنَهُ بِالْجَمَاجِمِ
بِهَا عَطَشًا أَعْطَيْنَهُمْ بِالْخَزَائِمِ]^(٧)
ثُمَّ قَالَ، أَجْزِ يَا جَثَامَةُ^(٨) فَقَالَ:

وَأَصْبَحْنَا بِالْمَوْمَةِ يَحْمِلُنَ فِتْيَةً
ثُمَّ قَالَ: أَجْزِ يَا عَمَلْسُ، فَقَالَ:

إِذَا عَلِمُ غَادِرْنَاهُ بَتْنُوفَةٍ
ثُمَّ قَالَ: يَا حَوْرَاءُ^(٩)، أَجِيزِي، فَقَالَتْ:

كَأَنَّ الْكَرَى سَقَاهُمْ صَرَّخِدِيَّةً
تَدَبَّ دَبِيبًا فِي الْمَطَا وَالْقَوَائِمِ^(١٠)

فَقَالَ عَقِيلُ: شَرِبْتُهَا وَرَبَّ الْكَعْبَةِ^(١١)! ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهَا بِالسَّيْفِ لِيَقْتُلَهَا، فَقَالَ أَخُوهَا: مَا

(١) قرية النمل: مجتمع ترابها.

(٢) في الأغاني: "خصيه"، وفي اللسان: "الخصيتان: البيضتان. والخصيان: الجلدتان اللتان فيهما البيضتان".

(٣) الأغاني ١٢: ٢٥٥.

(٤) الأغاني: "وعلفة".

(٥) ناكحاً: ذات زوج. وآمت: فقدت زوجها.

(٦) من الأغاني.

(٧) من ت والأغاني، والخزائم: جمع خزيمة؛ وهي حلقة من شعر تُجعل في أحد جانبي منخري البعير لينقاد بها، يريد أن الإبل منقادة.

(٨) في الأغاني: "أنفذ يا علفة، فقال علفة".

(٩) المومة: المفازة الواسعة. نشاوى: سُكاري. الإدلاج: السير من أول الليل.

(١٠) العلم: شيء يُنصب في الفلوات تهتدي به الضالة. التنوفة: المفازة: تذارعن: سرن؛ وأصله أن يذرع البعير بيديه في سيره ذرعاً، إذا سار على قدر خطوه. رسم طاسم: دارس.

(١١) الأغاني: "ثم قال: أنفذ يا حرباء، قالت: وأنا آمنة؟ قال: نعم".

(١٢) الصرخدية: نسبة إلى صرخد، بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق. العقار: الخمر. المطا: الظهر.

(١٣) العبارة في خبر الأغاني: "لولا الأمان لضربت بالسيف تحت قرطك، أما وجدت من الكلام غير هذا؟ فقال جثامة: وهل أساءت! إنما أجازت، وليس غيري وغيرك، فرماه عقيل بسهم فأصاب ساقه، وأنفذ السهم ساقه والرحل، ثم شد على الجرباء فعقر ناقته، ثم حملها على ناقه جثامة، وتركه عقيراً مع ناقه الجرباء، ثم قال: لولا أن تسبني بنو مرة ما ذقت الحياة، ثم خرج متوجهاً إلى أهله".

ذنبها؟ إنما أجازت شعراً، فشدّ عليه، فخدشه أحدهم بسهم فوق يتمّك في دمه، ويقول:

إِنَّ بَنِي ضَرَجُونِي بِالْـدِّمِ مَنْ يَلْقَى أَبْطَالَ الرِّجَالِ يُكَلِّمِ
* شَنْشَنَةَ أَعْرِفَهَا مِنْ أَخْزَمِ *

الشنشنه: السجّية، وأخزم: فحل مُنْجِب لرجل من العرب، وقيل: أخزم جدّ حاتم

الطائي.

ثم توجه ولده إلى الطريق، فلما مرّوا ببني القين، [ندم عقيل على فعله بجثامة]^(١)، فقال لهم: هل لكم في جُزورٍ أنكسرت؟ قالوا: نعم، قال: فالزّموا أثر هذه الرّواحل^(٢)، حتى تجدوا الجُزور، فخرج القوم حتى انتهوا إلى عقيل فأحتملوه، وعالجوه إلى أن برىء، ولحق بهم^(٣).

وقد رُوِيَت الحكاية على غير هذا الوجه، وأن المخدوش بعض ولده؛ والذي عليه أكثر الرواة هذه.

وروى أن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، عاتب رجلاً من قريش، أمّه أخت عقيل بن علفه، فقال له: قَبَحَكَ اللهُ! لقد أشبهت خالك في الجفاء، فبلغت عقيلاً، فرحل من البادية حتى دخل على عمر^(٤)، فقال له: أمّا وجدت لابن عمك شيئاً تعيره به إلّا خئولتي! [فقال له صخير بن أبي الجهم العدوي - وأمه قرشيّة - آمين يا أمير المؤمنين]^(٥)، قَبَحَ اللهُ شرّكم خالا [وأنا معكم]، فقال له عمر: إنك لأعرابيّ [جلّف] جاف، أما لو كنت تقدّمت إليك لأدبتك، والله ما أراك تقرأ من كتاب الله شيئاً، قال: بلى، إني لأقرأ ثم قرأ: "إِنَّا بَعَثْنَا نوحاً"، فقال له عمر: ألم أقل: إنك لم تقرأ! فقال: ألم أقرأ! فقال: إن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً﴾ [نوح: ١]، فقال عقيل:

خُذَا بَطْنَ هَرَشَى أَوْ قَفَاهَا فَإِنَّهُ كِلَا جَانِبَيْ هَرَشَى لَهُنَّ طَرِيقُ
فجعل القوم يضحكون عن عَجْرَفِيَّتِهِ وَيُعْجَبُونَ مِنْهُ^(٦).

وقدِمَ عقيل المدينة فدخل المسجدَ وعليه خُفَّان غليظان، فجعل يضرب برجليه، فضحكوا منه، فقال: ما يُضحككم؟ فقال له يحيى بن الحكم - وكانت ابنة عقيل عنده،

(١) من الأغاني.

(٢) الأغاني: "الراحلة".

(٣) الأغاني ١٢: ٢٥٦، ٢٥٧.

(٤) الأغاني: "فجاء حتى دخل على عمر، فقال له".

(٥) من الأغاني.

(٦) الأغاني ١٢: ٢٦١، ٢٦٢.

وكان أميراً على المدينة: إنهم يضحكون من خُفْيِكَ، وضربك برجليك، وجفائك، فقال: لا، ولكنهم يضحكون من إمارتك؛ فإنها أعجب من خُفْي، [فجعل يحيى يضحك] ^(١).
 وَحُكِّيَ أَنَّ يَحْيَى بْنَ الْحَكَمِ حِينَ خُطِبَ ابْنَةُ عَقِيلَ بَعَثَ إِلَيْهَا جَارِيَةً مِنْ عِنْدِهِ؛ لِنَظَرِ
 إِلَيْهَا، فَعَمَزَتِ الْجَارِيَةَ عَضْدَهَا ^(٢)، فَرَفَعَتْ يَدَهَا فَدَقَّتْ أَنْفَ الْجَارِيَةِ، فَرَجَعَتْ إِلَى يَحْيَى،
 وَقَالَتْ: بَعَثَنِي إِلَى أَعْرَابِيَةٍ مَجْنُونَةٍ فَنَصَعْتُ بِي مَا تَرَى! فَلَمَّا اتَّصَلْتُ بِيَحْيَى قَالَ لَهَا: مَا لَكَ
 مَعَ الْخَادِمِ؟ فَقَالَتْ: أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ نَظْرُكَ إِلَيَّ قَبْلَ كُلِّ نَاطِرٍ، فَإِنْ كَانَ حَسَنًا كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ
 تَرَاهُ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا كُنْتُ أَوَّلَى مَنْ وَاَرَاهُ ^(٣).

وبهاتين السجعتين يُستشهد في التجنيس بقولها: "أَوَّل" و"أَوَّلَى"، و"رَأَهِ" و"وَارَاهُ".
 ومن جيد شعر عقيل يُرثي ولده علفة، يقول:

لَعَمْرِي لَقَدْ جَاءَتْ قَوَافِلُ أَخْبَرْتُ بِأَمْرِ مِنَ الدُّنْيَا عَلَيَّ ثَقِيلٍ ^(٤)
 تَحُلُّ الْمَنَايَا حَيْثُ شَاءَتْ فَإِنَّهَا مَحَلَّةٌ بَعْدُ الْفَتَى ابْنَ عَقِيلٍ
 فَتَى كَانَ مَوْلَاهُ يَحُلُّ بِنَجْوَةٍ ^(٥) فَحَلَّ الْمَوَالِي بَعْدَهُ بِمَسِيلٍ
 كَأَنَّ الْمَنَايَا تَنْتَقِي مِنْ خِيَارِنَا لَهَا تِرَةٌ أَوْ تَهْتَدِي بِدَلِيلٍ
 وقوله أيضاً يحرض قومه، وذلك بسبب جارٍ لهم:

فَأَمَّا هَلَكْتُ فَلَمْ أَتَكُكُمْ فَأَبْلَغَ أَمَاثِلَ سَهْمِ رَسُولٍ ^(٦)
 أَذَلَّ الْحَيَاةِ وَذَلَّ الْمَمَاتِ ^(٧) وَكُلًّا أَرَاهُ وَخِيَمًا وَيِيلاً
 فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا فَسِيرُوا إِلَى الْمَوْتِ سَيْرًا جَمِيلاً
 وَلَا تَفْعَلُوا وَبِكُكُمْ مَنَّةٌ كَفَى بِالْحَوَادِثِ لِلْمَرَّةِ غُولا
 وقوله وقد خطب إليه رجل كثير المال يُعَمَزُ في نسبه، فامتنع:

لَعَمْرِي لَيْتَنِي زَوَّجْتُ مِنْ أَجَلِ مَالِهِ هَجِينًا لَقَدْ حُبَّتْ إِلَيَّ الدَّرَاهِمُ ^(٨)
 أَبِي لِي أَنْ أَرْضَى الدُّنْيَةَ أَنْتَنِي أُمْدٌ عِنَانًا لَمْ تَخُنْهُ الشَّكَاكِمُ ^(٩)

(١) الأغاني ١٢: ٢٦٢.

(٢) الأغاني: "فجعلت تغمز عضدها".

(٣) الأغاني ١٢: ٢٦٣.

(٤) الأغاني ١٢: ٢٦٨.

(٥) الأغاني: "بربوة".

(٦) الأغاني ١٢: ٢٦٦.

(٧) الأغاني: "هوان الحياة".

(٨) الأغاني ١٢: ٢٦٥، وبعده:

(٩) أُنْكِحْ عَبْدًا بَعْدَ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ أُولَيْكَ أَكْفَازِي الرَّجَالِ الْأَكْوَارِمْ
 الشكيمة في اللحام: الحديدة المعترضة في فم الفرس.

١٢٦ - وَمَتَى كَثُرَ تَلَاقِينَا، وَاتَّصَلَ تَرَائِينَا، فَيَدْعُونِي

إِلَيْكَ مَا دَعَا ابْنَةُ الْخُسِّ إِلَى عَبْدِهَا، مِنْ طُولِ السَّوَادِ، وَقُرْبِ الْوَسَادِ!

[ابنة الخُسِّ]

ابنة الخُسِّ هذه هي هند بنت الخُسِّ، والخُصُّ، والخُسْف، الإيادي. حكى ذلك الشريف المرتضى^(١). قديمة في الجاهلية، أدركت القلمس^(٢) أحد حكام العرب الذي يقال: إنه أول من وصل الوصيلة، وسبب السائبة^(٣)، وتحكمت هي وأختها جمعة إليه في كلام لهما، ومدحته بأبيات حسنة، منها:

إِذَا اللَّهُ جَازَى مُحْسِنًا بِوَفَائِهِ فَجَازَاكَ عَنِّي يَا قَلَمْسَ بِالْكَرَمِ
وبعض الرواة يزعم أنها أقامت في زمن النعمان عند هند أبنته، ويستشهد على ذلك بقول الفرزدق:

وَفَيْتُ بَعْهَدٍ كَانَ مِنْكَ تَكْرُمًا كَمَا لَابَنَةُ الْخُسِّ الْإِيَادِي وَفَتْ هِنْدُ^(٤)
وليس الأمر كذلك، وإنما مراد الفرزدق أن هنداً هي التي وفّت لأختها جمعة ابنة الخُسِّ، لا أنها هند ابنة النعمان.

وكانت ابنة الخُسِّ قد زنت بعبد لها فليمت، وقيل لها: ما حملك على الزنا؟ فقالت: قرب الوساد، وطول السواد. والسواد: السرار. يقال: ساودته إذا ساررتّه، وفي الحديث: "السواد من السحر"، وألحق بعض الرواة في قولها: "وحب السفاد"؛ لأن أباهما كان قد منعها من الزواج.

(١) أمالي المرتضى ١: ٢٢٠، وفي ط: "الرضى" تحريف.

(٢) ذكره صاحب بلوغ الأرب ١: ٣٣٥، وقال: "القلمس الكنانى، كان أحد حكام العرب في الجاهلية، وكان أيضاً من نساء المشهور؛ كان يتقف عند جرة العقبة ويقول: "اللهم إني ناسئء المشهور وواضعها مواضعها، ولا أعاب ولا أجاب؛ اللهم إني قد أحللت أحد الصفرين، وحرمت صفر المؤخر؛ وكذلك في الرجيين - يعني رجبا وشعبان".

(٣) قال صاحب الكشف ١: ٥٣٤، عند تفسير قوله تعالى: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام): كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنبا - أي شقوها - وحرموا ركوبها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، وإذا لقيها المعى لم يركبها واسمها البحيرة، وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها... وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكراً فهو لأهنتهم؛ فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لأهنتهم؛ وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره فلا يُركب ولا يُحمل عليه ولا يُمنع من رعي ولا ماء".

(٤) ديوانه.

ولها أسجاع كثيرة، وشِعْرٌ قليل، وكانت تحاجي^(١) الرِّجال إلى أن مرَّ بها رجلٌ، فسألته الحاجة، فقال لها: "كاد.." فقالت: "كاد العروس يكون أميراً" فقال: "كاد.."، فقالت: "كاد المتعل يكون ركباً"، فقال: "كاد.."، فقالت: "كاد البخيل يكون كلباً" وانصرف. فقالت له: أحاجيك؟ فقال: قولي؛ فقالت: "عجبت..."، فقال: "عجبت للسبخة لا يحفُّ ثراها، ولا ينبت مرعاها"، فقالت: "عجبت..."، فقال: "عجبت للحجارة لا يكبرُ صغيرها، ولا يهرم كبيرها" فقالت: "عجبت..." فقال: "عجبت لحفرة بين فخذيك، لا يُملأ حثَرُها، ولا يُدرِك قعرُها" فخرجت وتركته الحاجة^(٢).

ومن أسجاعها، ما قيل: أيُّ الخيل أحبُّ إليك؟ قالت: ذو الميعة الصنيع^(٣) السليط^(٤)، الأيد الضليع، الملَّهَب السَّريع^(٥)، فقيل لها: أيُّ الغيوث أحبُّ إليك؟ قالت: ذو الهيدب المنبِق^(٦)، الأصخم المؤتلق الصنخب المنبِق^(٧) فقيل لها: أيُّ الأيور أحبُّ إليك؟ فقالت: الذي إذا حفز حفره، وإذا أخطأ قشره، وإذا خرج عقره.

وقيل لها: ما مائة من المعز؟ قالت: مؤيِّل يشف الفقر من ورائه؛ مال الضعيف، وحرقة العاجز. قيل: فما مائة من الضأن؟ قالت: قرية لا حمى لها. قيل: فما مائة من الإبل؟ قالت: بَحٌّ! جمال ومال، ومُنَى الرجال قيل: فما مائة من الخيل؟ قالت: طَغَى مَنْ^(٨) كانت له، ولا توجد. قيل: فما مائة من الحُمُر؟ قالت: عازبة الليل، وخزي المجلس، لا لبنٌ فتُحلب، ولا صوفٌ فيَجَزُّ، إن رُبط غيرها أدلى^(٩)، وإن تُركَ ولى.

وقيل لها: مَنْ أعظمُ الناس في عينيك؟ قالت: مَنْ كانت لي إليه حاجة^(١٠).

ومن شعرها:

أَشْمُ كَنْصِلِ السَّيْفِ جَعْدُ مَرْجَلٍ شَغِفْتُ بِهِ لَوْ كَانَ شَيْءٌ مُدَانِيَا
وَأَقْسِمُ لَوْ خَيْرْتُ بَيْنَ لِقَائِهِ وَيَيْنَ أَبِي لَا خَيْرْتُ إِلَّا أَبَالِيَا

(١) يقال: حاجيته حاجة: فاطته فغلَّبه.

(٢) أورد هذه القصة الحريري في "درة الغواص" ٥٥ ونسبها إلى امرأة من الجن.

(٣) ماع الفرس: جرى على الأرض منبسطة في هيئة.

(٤) السليط: الشديد. والتليع: الرفع رأسه.

(٥) الأيد: القوي. والضليع: التام الخلق. والملَّهَب: الذي يجتهد في عدوه.

(٦) المنبِق: السحاب المتصبب بشدة.

(٧) المؤتلق، من أتلق البرق؛ إذا أضاء، والمنبِق: المنفجر.

(٨) أمالي المرتضى: "طغى عند مَنْ كانت عنه".

(٩) الأمالي: "دلى" بتشديد اللام.

(١٠) أمالي المرتضى ١: ٢٢٠، المزمهر ٢: ٥٤٥، وانظر بلوغ الأرب ١: ٣٣٩ - ٣٤١.

١٢٧- وَهَلْ فَقَدْتَ الْأَرَاقِمَ فَأَنْكِحَ فِي جَنْبٍ!

الأراقم: حيّ من تغلب. وجنب: حيّ من اليمن.

وهذا اللفظ من جملة شعر لمهلهل التغلبيّ، وقد تقدّم ذكره^(١)، كان قد هرب حين طالت عليه الحروب من أجل حرب البسوس، فنزل في طريقه على حيّ من اليمن، فخطبوا إليه أبنته، فأبى، فساقوا المهر، وهو جلود من آدم وغصبوه على الزواج، فقال:

أَعَزَزَ عَلَيَّ تَغْلِبٌ بِمَا لَقَيْتُ أَخْتُ بَنِي الْأَكْرَمِينَ مِنْ جُشَمٍ^(٢)
أَنْكِحْهَا فَقَدْهَا الْأَرَاقِمَ مِنْ جَنْبٍ وَكَانَ الْجَبَاءُ مِنْ أَدَمٍ^(٣)
لَوْ بِأَبَانِينَ جَاءَ خَاطِبُهَا رُمِّلَ مَا أَنْفُ خَاطِبٍ بِدَمٍ^(٤)

١٢٨- أَوْ عَضَلَنِي هَمَامُ بْنُ مُرَّةٍ فَأَقُولُ: زَوْجٌ مِنْ عُودٍ، خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ

عَضَلَ الولي المرأة، إذا منعها من النكاح، والعَضْلُ: المنع الشديد؛ مأخوذ من عَضَلَ اللحم.

وَزَوْجٌ مِنْ عُودٍ خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ؛ قول إحدى بنات هَمَامُ بْنُ مُرَّةٍ بن ثعلبة، كان له أربع بنات، وَكُنَّ يُخْطَبْنَ إليه، فيعرض ذلك عليهنّ فيستحيين فلا يزوّجهن، وكانت أمهّن تقول له: زوّجهن، فلا يفعل، فخرج ليلة إلى متحدثٍ لهنّ، فاستمع عليهنّ وهنّ لا يعلمنّ، فقلن: تعالين نتمنّى ولنصدّق، فقالت الكبرى:

أَلَا لَيْتَ زَوْجِي مِنْ أَنَاسٍ ذَوِي غَنًى حَدِيثُ شَبَابٍ طَيِّبُ الرِّيحِ وَالْعَطْرِ
طَيِّبٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ كَأَنَّهُ خَلِيفَةُ جَانٍ لَا يَبِيتَ عَلَى وَثَرٍ
فَقُلْنَ لَهَا: أَنْتِ تَحِبِّينَ رَجُلًا لَيْسَ مِنْ قَوْمِكَ. ثم قالت الثانية، وهي الوسطى:
أَلَا هَلْ أَرَاهَا مَرَّةً وَضَجِيعُهَا أَشْمُ كَنْصَلِ السَّيْفِ غَيْرَ مُهَنَّدٍ^(٥)
لَصَوْقٌ بِأَجْبَادِ النِّسَاءِ وَرَهْطُهُ إِذَا مَا أَنْتَمَى مِنْ أَهْلِ بَيْتِي وَمُحْتَدِي

(١) ص ٩٦ - ١٠٢.

(٢) البيتان: الثاني والثالث في الكامل ٣: ٩٠، ٩١.

(٣) الحباء في الأصل: العطاء؛ أراد به المهر؛ يقول: إنهم لم يكونوا أرباب نعم فيمهروها الإبل؛ وجعلهم دباغين للأدم وهو الجلد.

(٤) أبان: جبل، وهما أبانان؛ أبان الأسود وأبان الأبيض؛ ذكر ذلك المبرد؛ واستشهد بالبيت. ورمّل: لطنخ، وما: زائدة.

(٥) كذا في الميداني؛ وفي الأغاني: "غير مبلد".

فقال الثالثة:

أَلَا لَيْتَهُ يَمْلَأَ الْجِفَانَ بديهةً^(١) لَهُ جَفَنَةٌ يَشْقَى بِهَا النَّيْبَ وَالْجُزُرُ^(٢)
لَهُ حَكَمَاتُ الدَّهْرِ مِنْ غَيْرِ كِبَرَةٍ^(٣) تَشِينُ فَلَا الْفَانِي وَلَا الضَّرْعُ الْعَمَرُ^(٤)
فقلن لها: أَنْتِ تُحَيِّينَ رَجُلًا شَرِيفًا.

قال: وقلن للرابعة، وهي الصغرى: تَمَنِّي، فقالت: "زَوْجٌ مِنْ عَوْدٍ، خَيْرٌ مِنْ قَعُودٍ".
فلما سمع أبوهنَّ ذلك زَوَّجهنَّ، فمكثن برهة ثم اجتمعن عنده.

فقال الكبرى: يَا أَبَتِ، سَلْ عَنَّا، قَالَ: يَا بُنَيَّةُ، مَا مَالُكُمْ؟ قالت: الإبل، قال: كيف تجدونها؟ قالت: خير مالٍ، نَأْكُلُ لُحْمَانَهَا مُزَعًا^(٥)، ونشرب ألبانها جُرْعًا، وتحملنا وضعيفنا معًا، قال: فكيف تجدين زوجك؟ قالت: خيرُ زوجٍ، يُكْرِمُ الحليلة، ويُعْطِي الوسيلة^(٦). قال: مالٌ عَمِيمٌ، وزَوْجٌ كَرِيمٌ.

ثم قال للثانية: مَا مَالُكُمْ؟ قالت: البقر، قال: كيف تجدونها؟ قالت: خيرُ مالٍ، تَأْلَفُ
الفناء، وتَمْلَأُ الإِنَاءَ، وتودُّك^(٧) السَّقَاءُ، ونسَاءٌ مع نسَاءَ.

قال: فكيف تجدين زوجك؟ قالت: خيرُ زَوْجٍ يُكْرِمُ أَهْلَهُ، وينسى فضله. قال: حظيت
ورضيت.

ثم قال للثالثة: مَا مَالُكُمْ؟ قالت: المعز، قال: فكيف تجدونها؟ قالت: لا بأسَ بها،
نولدها فُطْمًا^(٨)، ونسلخها أَدَمًا^(٩)، لَمْ نَبْعِ بِهَا نَعْمًا، فقال: جَدُوْ مُغْنِيَةٌ^(١٠). قال: فكيف تجدين
زوجك؟ قالت: لَا سَمْعُجٌ بِذُرٍّ، وَلَا بِخَيْلٍ حَكِرٍ^(١١).

(١) كذا في الأصول والكمال، وفي الأغاني: "يملا الجفان لضيئه".

(٢) النيب: جمع ناب؛ وهو الناقة المسنة. والجزر، بضم الزاي - وسكن للضرورة: جمع جزور؛ وهو الناقة
المجزورة.

(٣) كذا في الأصول والكمال؛ والحكمات: جمع حكمة؛ وأصلها الحديدية في اللجام تمنع الفرس من مخالفة راحته؛
والمراد بها هنا التجارب التي يكسبها المرء في حياته.

(٤) الضرع: الضعيف. والغمر: مَنْ لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُورَ.

(٥) المزع: جمع مزعة؛ وهي القطعة من اللحم.

(٦) الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير؛ وفي الكامل: "ويقرب الوسيلة".

(٧) تودك السقاء: تجعل فيه الودك، وهو الدسم.

(٨) فطم: جمع فطيم؛ وهو ما يُفصل عن الرضاع.

(٩) الأدم: اسم لجمع الأديم؛ وهو الجلد، أو الأحمر منه، أو مدبوغه.

(١٠) كذا في الكامل، الجذو، جمع جذوة؛ وهي القطعة؛ وأصل ذلك في الخشب، ما كان منه فيه نار، وفي الأغاني:
"جذوى مغنية".

(١١) الحكر: المستبد بالشيء.

ثم قال للرابعة: يا بُنَيَّة، ما مألُكم؟ قالت: الضَّان، قال: فكيف تجدونها؟ قالت شرّ مال، جُوفٌ لا يشبعن، وهيمٌ لا ينقَعن^(١)، وصمٌ لا يسمَعن^(٢)، وأمر مغويتهنّ يتبعن^(٣)؛ قال: فكيف تجدين زوجك؟ قالت: شرّ زوج، يُكرِم نفسه، ويُهين عُرْسَه، قال: "أشبه امرؤ بعض بزّه"^(٤).

وبعض الرواة يُعزّي هذه الحكاية إلى ذي الإصبع العدواني وبناته^(٥).

١٢٩- وَلَعَمْرِي لَوْ بَلَغْتَ هَذَا الْمَبْلَغَ، لَارْتَفَعَتْ عَنْ هَذِهِ الْحَطَّةِ، وَلَا

رَضِيَتْ بِهِذِهِ الْخُطَّةِ

الحَطّ: إنزال الشيء من العلوّ، والحَطّة: الحُدرة من الأرض، وهو المكان المنخفض. والخُطّة: الأمر والمقصد، قال تَابُطُ شَرًّا:

هُمَا خُطَّتَا إِمَّا إِسَارٌ وَمَنَّةٌ وَإِمَّا دَمٌ وَالْقَتْلُ بِالْحَرِّ أَجْدَرُ^(٦)

أراد "خُطَّتَان" فحذف النون استخفافاً، والمعنى أنه لو عَصَلَنِي هَمَامٌ، وفقدتُ الأرقام، وكنتُ كابنة الخُسّ لما رَضِيتُ لنفسي بك، ولرفعتُ قُدْرِي عنك، ولستُ أعبأ بكلامك، ولا أستمع لخطابك.

١٣٠- فَالنَّارُ وَلَا الْعَارُ، وَالْمَنِيَّةُ وَلَا الدِّنْيَةُ، وَالْحُرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا

هذه أمثال تَصْرَبُ لمن يختار التَّلَفَ على فُجْحِ الأحداثِ، وجاء قولهم: "النار ولا العار"، و"المنية ولا الدنيا، بالنصب -أي اختار النار والمنية، وبالرفع أي النار والمنية أحب إليّ".

وقال العسكري في قولهم: "الحُرّة تجوع ولا تأكل بثدييها"، يعنون: لا تكون الحرة ظنّ القوم على جُعل تأخذهم منهم، فيلحقها عيب، وكان أهل بيت زرارة حَضَان الملوكة، وفي ذلك يقول حاجب:

(١) الجوف: عظام الأجواف. والهيم: العطاش؛ واحدة أهيم وهيماء. ولا ينقَعن: لا يروين.

(٢) قولها: "وصم لا يسمَعن"؛ قال المبرد: "يقال لكل صحيح البصر ولا يعمل بصره: أعمى، ويقال للسميع الذي لا يقبل: أصم"؛ فالكلام على التشبيه، وتقول العرب: "أبلى ما يرى الضأن".

(٣) قولها: "وأمر مغويتهن يتبعن"؛ قال المبرد: قال علي بن عبد الله: قلت لابن عائشة: ما قولها: "وأمر مغويتهن يتبعن"؟ قال: أما تراهن يَمرون فتسقط الواحدة منهن في ماء أو وحل وما أشبه ذلك فيتبعنها إليه!

(٤) مَثَلٌ يُصْرَبُ للمتشابهين أخلاقاً.

(٥) القصة في الأغاني ٣: ٩٤ - ٩٦، (طبع دار الكتب) والكامل ٢: ١٤٩.

(٦) اللسان (خطوط).

* حَضَنَّا أَبْنَ مَاءِ الْمَزْنِ وَأَبْنِيَّ مُحَرَّقٍ *^(١)

فعابه الناس بذلك، وقالوا: ما رأينا مَنْ يفتخر بالمعايِبِ غيره، وذلك أن الظُّرَّ خادم، والخدمة تَضَع ولا ترفع.

والمثل للحارث بن سليل الأزديّ، أتى علقمة بن خصفة الطائيّ يخطب ابنته الزَّباء، فقال لأُمها: أبيني عَمَّنْ في نفسها، فقالت لها: يا بنية، أيّ الرجال أحبُّ إليك الكهل الجحجاح الميَّاح، أم الفتى الوضَّاح؟ قالت: بل الفتى، قالت: إن الشيخ يميِّرك، والفتى يُعيرك، قالت: يا أُمّاه، أخشى من الشيخ أن يُبلي شبابي ويُسَمِّتَ أترابي؛ فلم تزل أُمها بها حتى زوّجتها من الحارث، فرحل بها إلى قومه، فينا هو جالسٌ بفنائها، وهي إلى جانبه؛ إذ أقبل شباب من بني أسد يعتلجّون، فتنفَّست الصُّعداء، فقال لها ما لك؟ قالت: ما لي وللشيوخ، الناهضين كالفرّوخ! فقال: ثكلتك أمك! تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها! أما وأبيك لربّ غارةٍ شهدتها، وسبيّةٍ أردفتها، ألحقي بأهلك؛ فلا حاجة لي فيك.

قال العسكريّ: وليس هذا الحديث موافقاً للمثل^(٢).

قال أبو عبيد: أصله ولا تأكل ثدييها، أي من الحسرة، وليس هذا بموافق أيضاً، ولكنه حكى على ما قيل، والله تعالى أعلم.

١٣١ - فَكَيْفَ وَفِي أَبْنَاءِ قَوْمِي مَنَكْحٌ

وَفَتِيَانُ هِزَّانِ الطَّوَالِ الْغَرَانِقَةِ

يعني كيف أرضى بهذا، وفي قومي كثير من أكفائي.

وهِزَّان: اسم قبيلة. والغرائقة: الشباب، وهذا البيت للأعشى الأكبر.

[الأعشى]

وهو أعشى بني قيس بن جندل، من فحول شعراء الجاهلية المتقدّمين، وكان يقال: أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب، وزُهير إذا رغب، والنابعة إذا رهّب، والأعشى إذا طرّب. وكان بعضُ الأدباء يقول: الأعشى أشعر الأربعة، فقليل له: فأين الخبر عن رسول الله ﷺ أن امرأ القيس بيده لواء الشعراء؟ فقال: بهذا الخبر صحّ للأعشى التقدّم، وذلك أنه ما من حامل لواء إلا على رأس أمير، فامرؤ القيس حامل اللواء، والأعشى الأمير.

(١) هو حاجب بن زرارة، وبقيته:

* إلى أن يرى فيهم لحى وشوارب *

(٢) جهرة الأمثال ٢: ١٨٣ (على هامش الميداني).

وكان الأصمعيّ يقول: ما مدح الأعشى أحداً إلا رفعه، ولا هجأه إلا وضعه؛ فمن ذلك أنه مرّ باليمامة على المخلّق بن جُشم الكلبيّ، وكان حاملَ الذکر، وله بنات لا يُخْطَبْنَ رغبةً عنه، فنزل عنه؛ فنحر له ناقه لم يكن عنده غيرها، وسقاه خمراً، فلما أصبح قال له الأعشى: ألك حاجة؟ قال: تُشيد بذكري؛ فلعلّي أشهر فتُخْطَبُ بناتي، فنهض الأعشى إلى عكاظ وأنشد قصيدته القافية، التي يمدح بها المخلّق ويقول فيها:

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ إِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِالْيَفَاعِ تَحَرَّقُ^(١)
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمَحَلُّ
فَمَا أَتَتْ عَلَى الْمَحَلِّ سَنَةً حَتَّى زَوَّجَ الْبَنَاتِ عَلَى مِثْنِ أُلُوفٍ^(٢).

ومن ذلك أنه أمتدح الأسود العنسيّ، فأعطاه ذهباً وحُللاً، فلمّا مرّ ببلادٍ عامر، خافهم على ما معه، فأتى علقمة بن علاثة، فقال: أجزني، فقال: أجزتك؛ قال: مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَوْتِ؟ قال: نعم، قال: كيف تجيرني من الموت؟ قال: إِنْ مِتَّ فِي جَوَارِي بَعَثْتُ إِلَى أَهْلِكَ بِالْذِّبَةِ، قال: الْآنَ عَلِمْتَ أَنَّكَ أَجَرْتَنِي مِنَ الْمَوْتِ^(٣) ثم مدح عامراً وهجاً علقمة، فكان علقمة يبكي إذا ذكر قوله:

تَيْتُونُ فِي الْمَسْنَى مِلَاءً بَطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غَرْنَى يَيْتَنَ خَمَائِصًا^(٤)
ويدعو عليه إِنْ كَانَ كَاذِبًا^(٥) ويقول: أَنَحْنُ نَفْعَلُ بِجَارَاتِنَا هَذَا! وما زال منكسر النفس من هذا البيت.

وحكى ابن خلد، قال: كان الأعشى كثيرَ التَّطَوُّفِ، فأصبح ليلةً بأبيات علقمة بن علاثة، فلما نظر قائده إلى قِيَابِ الْأَدَمِ، قال: يا سوء صباحاه! هذه والله أبياتُ علقمة، فلما مثَّلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: أَتَدْرِي لِمَ أَظْفَرَنِي اللَّهُ بِكَ بَغِيرِ دِيَةٍ وَلَا عَقْلٍ؟ قَالَ لَا، قَالَ: لَتَقُولَنَّ عَلَيَّ الْبَاطِلَ مِنْ غَيْرِ جُزْمٍ. قَالَ الْأَعْشَى: لَا، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ اللَّهُ قَدْرَ حِلْمِكَ فِي! فَأُطْرَقَ عِلْقَمَةُ، فاندفع الأعشى يقول:

أَعْلَقُمُ قَدْ صَيَّرْتَنِي الْأُمُورُ إِلَيْكَ وَمَا كَانَ لِي مِنْكَ صُ^(٦)
فَهَبْ لِي نَفْسِي فَدَتِكَ النَّفُوسُ وَلَا زِلْتَ تَنْمِي وَلَا تَنْقُصُ

(١) ديوان ١٤٥.

(٢) الأغاني ٩: ١١٤.

(٣) من الأغاني.

(٤) ديوانه ٢٤٧.

(٥) في الأغاني ٩: ١٢١: "فرّغ علقمة وقال: لعنه الله إِنْ كَانَ كَاذِبًا".

(٦) شعراء النصرانية ٣٩٠.

فقال: قد فعلتُ، والله لو قلتَ فيَّ ما قلتَ في ابن عمي عامر لأغنيْتُكَ، ولو قلتَ في عامر ما قلتَ فيَّ ما أذاقكَ بَرْدَ الحياة.

وحكى الأصمعيّ، قال: وفَدَّ الأعشى على كِسرى فأنشده من شعره، فسأله عن معنى قوله:

أَرِقْتُ وَمَا هَذَا السُّهَادُ الْمَوْزُقُ وَمَا بِي مِنْ سُقْمٍ وَمَا بِي مَعْشَقُ
ف قيل: إنه سهر وما به عشق ولا مرض، فقال كسرى: هذا لصّ فأخْرِجوه.
ورحل الأعشى آخرَ عمره إلى النبي ﷺ طالباً للإسلام، وقد مدحه بقصيدته التي يقول فيها:

فَالَيْتُ لَا أُرْثِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ وَجَى حَتَّى تُلَاقِي مُحَمَّدًا^(١)
مَتَى مَا تُنَاحِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ تُرَاجِي وَتُلْقَى مِنْ فَوَاصِلِهِ نَدَى
نَبِيٍّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا
فبلغ قريشاً خبره، فقالوا: هذا صَنَاجَةُ الْعَرَبِ، ما مدح أحداً إلا ارتفع، فرصدوه على طريقه، فقالوا له: يا أبا بصير، أين أردت؟ قال: صاحبكم لأَسْلِمَ، قالوا: إنه ينهى عن خلال كلِّها لك موافق، قال: وما هي؟ قالوا: الزَّنا، قال: لقد تركني الزَّنا وما تركته. قالوا: والقمار، قال: لعلِّي لأصيب نَعْعَ عَوْضًا. قالوا: والخمر. قال: أَوْه! أَرْجِعْ إِلَى صُبابَةٍ لِي فِي الْمَهْرَاسِ^(٢)، فَأَشْرُبُهَا ثُمَّ أَرْجِع. فعاد إِلَى رَحْلِهِ، فلبث أياماً، ثم رَمَى به بغيره فقتله^(٣).
وزعم بعضُ الرِّوَاةِ أَنَّ الَّذِي أَمَرَهُ بِالرَّجُوعِ أَبُو جَهْلٍ؛ وَهُوَ غَلَطٌ، فَإِنَّ الْخَمْرَ لَمْ تَحْرَمْ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ مَضَتْ بَدْرٌ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْقَائِلَ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ:

* أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا *

فقال المعريّ: حكى الفراء وحده، "أغار" في معنى "غار"، إذا أتى الغور، وإذا صحَّ هذا البيت عن الأعشى؛ فلم يُردَّ بالإغارة إلا ضدَّ الإنجاد.

وروى الأصمعيّ روايتين: إحداهما أن "أغار" في معنى عَدَا عَدَوًّا شَدِيدًا، وَالْأُخْرَى أَنَّهُ كَانَ يَقْدَمُ وَيُؤَخَّرُ، فيقول: لعمرى أغار في البلاد وأنجد، فيأتي به على زحاف القبض.
وكان ابن مسعدة يقول: "غارَ لعمرى" فيأتي به على استعمال الخرم في النصف الثاني.

(١) ديوانه ١٠٢، ١٠٣.

(٢) المهراس: حجر منقور يسع كثيراً من الماء.

(٣) الأغاني ٣: ١٢٥، ١٢٦.

وَيُرَوَّى أَنَّ الْأَعْشَى كَانَ يُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، وَلِذَلِكَ كَانَ يَقُولُ:

فَمَا أَيْبَلِيَّ عَلَى هَيْكَلٍ بَنَاهُ صَلَّابٌ فِيهِ وَصَارَا^(١)
بِأَعْظَمَ مِنْكَ تُقَى فِي الْحِسَابِ إِذَا النِّسَمَاتُ نَفَضْنَ الْغُبَارَا
وَكَانَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ يَقُولُ: كَانَ لَبِيدٌ سَكِيرًا، وَكَانَ الْأَعْشَى عَدْلِيًّا، وَأَنْشَدَ لِلْبَيْدِ:
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ^(٢)
وَأَنْشَدَ لِلْأَعْشَى:

أَسْتَأَثَّرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْ— عَدْلٍ وَوَلَّى الْمَلَامَةَ الرَّجُلَا^(٣)
وَمِنْ مُحَاسِنِ شِعْرِهِ قَوْلُهُ فِي الْقَصِيدَةِ النَّبَوِيَّةِ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا^(٤)
نَدِمْتَ عَلَى أَلَّا تَكُونَ كَمِثْلِهِ فَتُرْصِدَ لِلْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا
وقوله يمدح إِيَّاسَ بْنَ قَبِيصَةَ:

وَلَوْ أَنَّ عِزَّ النَّاسِ فِي رَأْسِ صَخْرَةٍ مُلْمَلَمَةً تُغِي الْأَرْحَ الْمَخْدَمَا^(٥)
لَأَعْطَاهُ رَبُّ النَّاسِ مِفْتَاحَ بَابِهَا وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَابٌ لَأَعْطَاهُ سَلَمَا
وقوله من قصيدة يمدح بها الْأَسُودَ بْنَ الْمَنْذَرِ:

رُبَّ خَرْقٍ مِنْ دُونِهَا يُخْرِسُ السَّفَرَ وَمِيلٌ يُفْضِي إِلَى أُمَيَّالٍ^(٦)
وَقَلِيبٍ أَجْنٍ كَأَنَّ مِنَ الرَّيْشِ بَارِزًا جَائِهِ سُقُوطُ نَصَالِ
لَا تَشْكِي إِلَيَّ وَانْتَجِعِي الْأَسُودَ أَهْلَ النَّدَى وَأَهْلَ الْفَعَالِ
أَرْحِي صِلْتُ يَظُلُّ لَهُ الْقَوُ مُرْكَودًا قِيَامَهُمْ لِلْهِلَالِ
فَرُعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ بِغَزِيرِ اللَّهِ عَظِيمِ الْمَحَالِ
عِنْدَكَ الْحَزْمُ وَالتُّقَى وَأَسَا الصَّدِّ عِ وَحَمْلٌ لِمَغْرَمِ الْأَثْقَالِ
وَهَوَانُ النَّفْسِ الْعَزِيزَةِ لِلذِّكْرِ إِذَا مَا التَّقَتْ صُدُورَ الْعَوَالِي
فَإِذَا مَنْ عَصَاكَ أَصْبَحَ مَحْرُورًا مَا وَجَدُ الَّذِي يُطِيعُكَ عَالِ

(١) ديوانه ٤١. الأييلي: صاحب أبييل، وهي عصا الناقوس. صلب: صور فيه الصليب. صار: سكن.

(٢) ديوانه ١٧٤.

(٣) ديوانه ١٥٥.

(٤) ديوانه ١٠٣.

(٥) ديوانه ٢٠٣. مللملة: مجتمعة. والأرح المخدم: الوعل الأعصم، والعصمة: بياض في يديه.

(٦) ديوانه ٤.

وقوله يمدح المحلّق:

إِذَا حَاجَةٌ وَلَتَكَ لَا تَسْتَطِيعُهَا فَخُذْ طَرَفًا مِنْ غَيْرِهَا حِينَ تَسْبِقُ^(١)
فَذَلِكَ أَذْنَى أَنْ تَنَالَ جَسِيمَهَا وَلَلْقَصْدُ أَبْقَى فِي الْأُمُورِ وَأَزْفَقُ
أَبَا مَالِكٍ سَارَ الَّذِي قَدْ صَنَعْتُمْ وَأُنَجِدُ أَقْوَامَ بِذَلِكَ وَأَعْرِقُوا
وإنَّ عِتَاقَ الْعَيْسِ سَوْفَ يَزُورُكُمْ ثَنَاءً عَلَى أَعْجَازِهِنَّ مُعَلَّقُ^(٢)
يعني أن الحداة تحلّدو الإبل بثناء الممدوحين، فكأنه معلق على أعجازها.
ومنها أيضاً:

وَكَمْ دُونَ لَيْلَى مِنْ عَدُوٍّ وَبَلَدَةٍ وَسَهْبٍ بِهِ مُسْتَوْضِحُ الْآلِ يَبْرُقُ^(٣)
وإنَّ أَمْرًا أُسْرَى إِلَيْكَ وَدُونَهُ سُهُوبٌ وَمَوْمَاءٌ وَيَبْدَاءُ سَمَلَقُ^(٤)
لمحقوقه أن تستجيب لصورته وَأَنْ تَعْلَمِي أَنَّ الْمُعَانَ مُوَفَّقُ
يعني أن الموفق معان، وهذا من القلب المستعمل في كلام العرب، مثل قول الآخر:
"أَوْ بُلَغْتَ سَوَاتِيهِمْ هَجْرُ"^(٥).

وعلى ذلك فسر بعض العلماء قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]،
أي خُلِقَ العَجَلُ من الإنسان.

ومنها:

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ إِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِالْيَفَاعِ تَحَرَّقُ^(٦)
تَشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِبَانِيهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ^(٧)
رَضِيعِي لَبَانٍ ثَدِي أَمْ تَحَالَفَا بِأَسْحَمِ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

(١) ديوانه ١٤٨ - ١٥٠.

(٢) ديوانه: "أبا مسمع".

(٣) السهب: ما بعد من الأرض واستوى، وجمعه سهوب.

(٤) السملق: القاع المستوي الأجرد الذي لا نبات فيه.

(٥) قطعة من بيت للأخطل، وهو بتمامه:

مِثْلُ الْقَنَافِذِ هَذَا جُونٌ قَدْ بُلَغَتْ نَجْرَانٌ أَوْ بُلَغَتْ سَوَاتِيهِمْ هَجْرُ

ديوانه ١١٠.

(٦) اليفاع: المرتفع من الأرض والجبل.

(٧) تشب، من شب النار: أوقدها. والمقرور: الذي أصابه القر؛ وهو البرد. والاصطلاء: الاستدفاء، والندى:

الكرم.

يعني أن المخلِّق والنَّدَى حليفان لا يتفرَّقان، كأنهما تحالفا على ذلك عند النار [ولذا كانت عادة للعرب أن تحلف عند النار]^(١).

وفي قوله: "أسحم داج" سبعة أقوال: قيل: هو الرماد، كانوا يحلفون به. وقيل: اللّيل، وقيل: الدَّم، فإنهم كانوا يغمسون أيديهم فيه ويحلفون، وقيل حلّمة الثدي، [ويقال بزق الخمر]^(٢)، وقيل: دماء الذبائح للأصنام، وقيل الرّحم.

وقوله: "رضيعي لبان ثدي أمّ" واحدة، مبالغة في الوصف بالكرم. وعَوْضُ: اسم صنم لبكر بن وائل، وقيل: من أسماء الدهر، وأصله أن يكون ظرفاً، تقول: لا أفعله عَوْضُ العائضين، ودَهْرُ الدّاهرين، ثم كَبَرُوهُ حتى أحلّوه محلّ ما يقسم به، ومن جعل "عَوْض" اسم صنم كأنه قال: عوض قسّمنا الذي نقسم به.

ومنها:

تَرَى الْجُودَ يَجْرِي ظَاهِراً فَوْقَ وَجْهِهِ كَمَا زَانَ ضَوْءَ الْهِنْدُوَانِي رَوْنَقُ^(٣)
نَفَى الدَّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلِّقِ جَفْنُهُ كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ
يُروى: "كجابية الشيخ العراقي"، يعني أن العراقي الذي يتعوّد الحَصْرَ، ويسلُكُ البادية^(٤) يكون حريصاً على مائه؛ لأنه لا يعرف مواقع المياه فتكون جابيته التي هي من أواني الماء ملائمة أبداً.

ويروي "السَّيْح" بالسين والحاء المهملتين؛ يعني الماء السائح من العراق.
ومنها:

كَذَلِكَ فَافْعَلْ مَا حَيَّتْ إِذَا شَتَوْا وَأَقْدِمْ إِذَا أَعْيُنُ النَّاسِ تَبَرَّقُ
وَأَمَّا الشعر الذي ذكر بسببه، فيُحكى أنه تزوج امرأة من عَنَزَة، فلم يركبها فطلّقها، وقال بديهة:

أَيَا جَارَتِي بَيْنِي فَإِنَّكَ طَالِقَةٌ كَذَلِكَ أُمُورُ النَّاسِ غَادٍ وَطَارِقَةٌ^(٥)
وَبَيْنِي حِصَانُ الْفُرَجِ غَيْرَ ذَمِيمَةٍ وَمَوْقِفَةٌ فِينَا كَذَلِكَ وَوَامِقَةٌ
وَبَيْنِي فَإِنَّ الْبَيْنَ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا وَإِلَّا تَزَالُ فَوْقَ رَأْسِكَ بَارِقَةٌ

(١) تكملة من ت.

(٢) زيادة من اللسان.

(٣) في ت "متن الهندواني".

(٤) د: "البرية".

(٥) ديوانه ١٨٣.

وَدُوْقِي فَتَى قَوْمٍ فَإِنِّي ذَائِقُ فتاة أناس مثل ما أنتِ ذائقة
وَكَيْفَ وَفِي أَبْنَاءِ قَوْمِكَ مَنَكْحُ وفتيان هِزَّانِ الطَّوَالِ الْغَرَانِقَةِ^(١)
وبهذه الأبيات استدل قومٌ على أنَّ الطلاق في الجاهلية كان ثلاثاً؛ لأنه كرر قول:
"بيني" في ثلاثة أبيات.

وتمثّل ابن زيدون في هذه الرسالة بالبيت الأخير، وأستعمل فيه نوع الأهتمام^(٢)، وهو
تغيير "قومك"، فجعلها "قومي".

١٣٢ - مَا كُنْتُ لَا تَخْطِي الْمِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ، وَلَا أَمْتَطِي الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَادِ
يعني ما كنتُ لأدعَ الفتیان من قومي لأرغبَ إليك، وأنتِ بالنسبة إليهم كالرَّمَادِ إلى
المِسْكَ؛ ولعلّه أشار بذلك إلى رسالة لأبي عثمان الجاحظ في ذِكرِ الرَّمَادِ والمِسْكَ.
وأما قوله: "أمتطي الثور بعد الجواد"، فهو قول المتنبي في قصيدة من قائده يقول
فيها:

وَمَا لَأَقْنِي بَلَدٌ بَعْدَكُمْ وَمَا أَعْتَضْتُ مِنْ رَبِّ نَعْمَايَ رَبِّ!^(٣)
وَمَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَا دَأْنَكَرَ أَظْلَافُهُ وَالْغَبَبُ^(٤)

١٣٣ - فَإِنَّمَا يَتِيَمُّ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً، وَيَرَعَى الْهَشِيمَ مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ،
وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ مَنْ لَا ذُلُولَ لَهُ

الهشيم من النبات: اليابس المتكسر.
والجميم: النبت المقتبل الذي طال ولم يبلغ النّهاية.
والصّعب: ما لا يطيع، والدّلول: ضده.
ومثّلت بهذا القولِ عدمَ حاجتها إليه، واستغناءها عنه بمنّ هو خيرٌ منه.

(١) الغرنوق: الشاب الأبيض.

(٢) الأهتمام؛ جعله ابن رشيق من السرقات الشعرية. وانظر العمدة ٢: ٢٧١.

(٣) ديوانه ١: ٩٨.

(٤) الغيب والغيب للديك والبقر: ما تدلى تحت حنكها.

١٣٤ - وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبَوْتِي إِلَيْهِ، وَشَهِدْتَ مُسَاعَفَتِي لَهُ،
مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ، وَرِيحَانِ الْمِصْرِ؛ الَّذِينَ هُمْ الْكَوَاكِبُ عُلُوَّ هِمَمٍ، وَالرِّيَاضُ
طِيبَ شَيْمٍ

العصر: الدهر. والمِصر: كل بلد ممصور، أي محدود.

والمراد بالأقمار هنا والريحان وصف قوم بحسن الوجوه والأخلاق، ومرادها بهذه
الصفات التعريض بذكر ابن زيدون وأمثاله ممن تصحبهم، ونكاية المكتوب إليه بمدحهم
وذمه بهذه الألفاظ، والتَّهْكُم عليه.

١٣٥ - مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ ثَقُلَ لَاقِيَتْ سَيِّدُهُمْ
مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي
يعني هؤلاء الموصوفين.

[العرندس]

وهذا البيت من جملة أبيات منسوبة لرجل من العرب، يُسَمَّى العَرَنْدَسُ.
ويقال: إنه أحد بني بكر بن كلاب، يمدح بها بني بَدْر الغنويين، وكان أبو عبيدة إذا
أنشدوها له يقول: هذا والله محال، كلابي يمدح غَنَوِيًّا! يعني عداوة الحيين، وهي هذه
[الأبيات]^(١):

هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ أَيَّسَارُ ذَوُو كَرَمٍ	سَوَاسُ مَكْرَمَةٍ أَبْنَاءُ أَيَّسَارٍ ^(٢)
إِنْ يُسَالُوا الْخَيْرَ أَعْطَوْهُ وَإِنْ حُبُّوا	فِي الْجَهْدِ أُدْرِكُ مِنْهُمْ طِيبُ أَخْبَارٍ
وَإِنْ تَوَدَّدَتْهُمْ لَأَنُوءَ وَإِنْ شَهِمُوا ^(٣)	كَشَفْتُ أَذْمَارَ شَرِّ أَيْ إِذْمَارٍ ^(٤)
فِيهِمْ وَمِنْهُمْ يَعْدُ الْمَجْدُ مُتَلِدًا	وَلَا يَعْدُ ثَنَا خِزْيٍ وَلَا عَارُ ^(٥)
لَا يَنْطُقُونَ عَنِ الْفَحْشَاءِ إِنْ نَطَقُوا	وَلَا يَمَارُونَ إِنْ مَرَوْا بِإِكْثَارٍ
مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ ثَقُلَ لَاقِيَتْ سَيِّدُهُمْ	مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

(١) تكملة من ت.

(٢) ديوان الحماسة - بشرح التبريزي ١٤٦: ٤.

(٣) شهموا، من الشهامة. وهي الخشونة.

(٤) في الحماسة: "غير أشرار".

(٥) متلد، مفتعل؛ من التلبد. وثنا خزي، أي ثنا سوء بذل صاحبه.

١٣٦ - فَحَنَّ قِدْحُ لَيْسَ مِنْهَا. مَا أَنْتَ وَهُمْ! وَأَنْتَى تَقَعُ مِنْهُمْ!

قوله: "فحَنَّ قِدْح" مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يَتَشَبَّهُ بِقَوْمٍ لَيْسَ مِنْهُمْ، وَيَتَمَدَّحُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، وَيُقَالُ: "حَنَّ قِدْحًا" عَلَى التَّمْيِيزِ، وَ"قِدْحٌ"، عَلَى أَنَّهُ الْفَاعِلُ، وَالْقِدْحُ: أَحَدُ قِدَاحِ الْمَيْسِرِ، وَهِيَ السَّهَامُ الَّتِي تَوْضَعُ فِي خَرِيطَةٍ وَيُقْتَرَعُ بِهَا، فَإِذَا كَانَ أَحَدُ الْقِدَاحِ مِنْ غَيْرِ جَوْهَرِ إِخْوَاتِهِ ثُمَّ أَجَالَهُ الْمَغِيضُ خَرَجَ لَهُ صَوْتُ يَخَالِفُ أَصْوَاتَهَا، فَعُرِفَ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جَمَلَةِ الْقِدَاحِ^(١). وَتَمَثَّلَ بِهِ عُمَرُ رضي الله عنه حِينَ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ أُمَيَّةَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: أَقْتُلْ مِنْ بَيْنِ قَرِيشٍ صَبْرًا! فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: حَنَّ قِدْحُ لَيْسَ مِنْهَا؛ يَعْنِي أَنَّكَ لَسْتَ مِنْ قَرِيشٍ.

وَيُرْوَى أَنَّ أَبَا عَمْرٍو كَانَ عَبْدًا، وَكَانَ أُمَيَّةٌ قَدْ عَمِيَ، وَكَانَ يَقُودُهُ، فَتَبَّاهُ.
قلت: كَذَا رُويَ.

١٣٧ - وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَאוُ عَمْرٍو فِيهِمْ، وَكَالْوَشِيطَةِ فِي الْعَظْمِ بَيْنَهُمْ!

يَعْنِي أَنَّكَ مُسْتَلْحَقٌ بِهِمْ، وَلَسْتَ مِنْهُمْ كَوَاوِ عَمْرٍو الْمَلْحَقَةِ بِلَفْظِهِ، وَلَيْسَتْ مِنْهُ، وَأَوَّلُ مَنْ أَفَادَ هَذَا الْمَعْنَى أَبُو نَوَاسٍ [بِقَوْلِهِ]^(٢) فِي أَشْجَعِ السُّلَمِيِّ:
أَيُّهَا الْمَدْعَى سَلِمَ سَفَاهًا لَسْتَ مِنْهَا وَلَا قَلَامَةً ظُفَرٍ^(٣)
إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ سُلَيْمَى كَوَاوٍ أُلْحَقْتُ فِي الْهَجَاءِ ظُلْمًا بِعَمْرٍو
وَرَأَى إِنْسَانٌ فِي النَّوْمِ كَأَنَّهُ يَكْتُبُ عَلَى ظَفَرِهِ وَاوًا، فَقَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَى مُعَبَّرٍ، فَقَالَ: رَأَيْتُ
هَذَا الْمَنَامَ دَعِيًّا فِي نَسَبِهِ، وَأَنْشَدَ هَذَا الشَّعْرَ مِنْ قَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ.

وَكَالْوَشِيطَةِ، وَهِيَ قِطْعَةُ عَظْمٍ تَكُونُ زَائِدَةً فِي الْعَظْمِ الصِّمِيمِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: فَلَانٌ وَشِيطَةٌ فِي قَوْمِهِ، أَيْ هُوَ حَشَوِيٌّ فِيهِمْ. وَتَمَثَّلَ بِهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ لِعَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَقَدْ تَلَقَّاهُ بِكَلَامٍ كَرِهَهُ: أَلَيْسَ مِنْ وَهْنِ الدِّينِ، وَإِمَاتَةِ السُّنَّةِ، أَنْ يَكُونَ مَعَاوِيَةَ رَئِيسًا، وَهُوَ الطَّلِيقُ ابْنُ الطَّلِيقِ، وَيَكُونُ مَلِكٌ لِي خَصَمًا، وَأَنْتَ شَانِيءُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ وَغَلَّتْ فِي قَرِيشٍ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْهَا كَالْوَشِيطَةِ فِي الْعَظْمِ!

(١) المياداني ١: ١٢٩.

(٢) من د.

(٣) ديوانه ١٧٩.

١٣٨ - وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا بَلَغْتَ قَعَرَ تَابُوتِكَ، وَتَجَافَيْتَ عَنْ بَعْضِ قُوتِكَ؛
وَعَطَّرْتَ أَرْدَانَكَ، وَجَرَزْتَ هِمْيَانَكَ؛ وَاخْتَلْتِ فِي مِشْيَتِكَ، وَحَذَفْتَ فُضُولَ
لِحْيَتِكَ.

يعني لازمت منزلك، وأظهرت الغنى والقرى بما تستفضله من قوتك، وعطّرت أكمّام
ثيابك، وجرزت هميانك أو سروالك، وما أشبه ذلك، قال الشاعر:
يَشُدُّ هِمْيَانُهُ عَلَى هَدَمٍ وَذَاكَ مِنْ حُمَقِهِ وَمِنْ تِيهِهِ
والهميان غير عربي، واختلت [في المشي]^(١) أي أظهرت الخيلاء والكبر، وقصصت
ما استطال من لحيتك معتمداً على الوضأة والنظافة.

١٣٩ - وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ، وَمَطَطْتَ حَاجِبَكَ، وَرَقَّقْتَ خَطَّ عِذَارِكَ،
وَاسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ، رَجَاءَ الْإِكْتِنَانِ فِيهِمْ، وَطَمَعاً فِي الْاِعْتِدَادِ مِنْهُمْ،
فَظَنَنْتَ عَجْزاً.

المطّ: المدّ، كأنه إذا تخايل مدّهما. والإزار: الطيلسان وما أشبهه؛ والمعنى أنك إن
كنت تصنع هذه الأشياء لتُعدّ من هؤلاء القوم، وتكتن بهم - والاكتنان: ستر الشيء بثوب أو
غيره - فقد خبت وظننت ظناً عاجزاً؛ وهذا اللفظ منظوم في قول الخنساء حيث تقول:
وَمَنْ ظَنَّ مِمَّنْ يُلَاقِي الْحُرُوبَ بِأَلَّا يُصَابُ فَقَدْ ظَنَّ عَجْزاً^(٢)

[الخنساء]

واسم الخنساء ثماضر بنت عمرو بن الشريد السلمي، كانت من شواعر العرب
المعترف لهنّ بالتقدم، حكى الأصمعيّ قال: كان النابغة الجعديّ يجلس في الموسم بعُكاظ
وتتحاكم إليه الشعراء، فدخلت الخنساء فأنشدته من قولها في أخيها:

وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمُ فِي رَأْسِهِ نَارُ^(٣)

فقال: أنت أشعر من كلّ ذات ثديين، فقالت: ومن كلّ ذي خُصيتين.

(١) تكملة من د.

(٢) ديوانها ١٤٧.

(٣) ديوانها ٧٩، وروايته هناك:

أَعْرُ أَبْلَجُ تَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمُ فِي رَأْسِهِ نَارُ

وقال بشار: لم تقل امرأةً شعراً قطّ إلا تبين الضعفُ فيه؛ فقليل له: أو كذلك الخنساء؟ فقال: تلك كان لها أربعُ خُصَى. وأكثر شعرها في مراثي أخويها: معاوية وصخر. وأدركتُ الخنساء الإسلام وأسلمتُ.

حكى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نظر إليها وفي وجهها ندوب فقال: ما هذا يا خنساء؟ فقالت: من طول البكاء على أخويّ؛ قال لها: أخواك في النار، قالت: ذاك أطول لحزني، إني كنت أبكي لهما من النار، وأنا اليوم أبكي لهما من النار.

ورأت عائشة رضي الله تعالى عنها على جسد الخنساء صداراً من شعر - وهو ثوب صغير - فقالت: يا خنساء، أتلبيين الصّدار وقد نهى رسول الله ﷺ عنه! قالت: لم أعلم بنهيه، وله سبب، فقالت: وما هو؟ قالت: زوجني أبي رجلاً متلاًفاً لماله. فأسرع فيه حتى نفد، [تم في مالي حتى نفد] ^(١) فقال لي: إلى أين يا خنساء؟ ^(٢) فقلت: إلى أخي صخر، فلقيناه، فقسّم ماله بيننا شطرين، ثم خيرنا، فقالت زوجته: أما كفّاك أن تقسم مالك حتى تُخَيّرهم! فقال:

وَاللّٰهُ لَا أَمْنَحُهَا شِرَارََهَا وَهِيَ حَصَانٌ قَدْ كَفَّنِي عَارَهَا
وَلَوْ أُمُوتُ مَزَّقْتُ خِمَارَهَا وَجَعَلْتُ مِنْ شَعْرِ صِدَارَهَا
فَجَعَلْتُ هَذَا الصِّدَارَ تَصَدِيقاً لِّظَنِّهِ، فَلَا أَنْزِعُهُ حَتَّى أَمُوتَ.

وحدث علقمة بن جرير، قال: استؤذن لجماعة على معاوية، وكنت فيهم، فلما دخلنا عليه أجلسنا وأكلنا، ثم قال: يا علقمة، هل عندك ظريفةٌ تُحدّثنا بها؟ قلت: نعم، أقبلتُ قبل مُخْرَجِي إِيكَ أسوق شارفاً ^(٣) لي أريد نحرها عند الحيّ، فأدركني الليل بين أبيات بني الشريد، فإذا عمرة ابنة مرداس عروساً، وأمها الخنساء بنت عمرو، فقلت لهم: أنحروا هذه الجزور، وأستعينوا بها، وجلستُ معهم، فلما هيئت أذن لنا، فدخلنا، فإذا هي جارية وضيئة - يعني عمرة - وإذا أمُّها الخنساء جالسةً ملتفةً بكساءٍ أحمر، وقد هرمت، وإذا هي تلحظ الجارية لحظاً شديداً، فقال القوم: بالله يا عمرة إلا تحرّشتِ بها فإنها الآن تعرف بعض ما أنت فيه، فقامت الجارية تريد شيئاً، فوطئت على قدمها وطأةً أوجعتها، فقالت وهي مغيظة، حسّ! إليك يا حمقاء! والله لكانها تطئين أمةً ورهاء؛ أنا والله كنتُ أكرمُ منك عرساً، وأطيبُ ورساً، وذلك زمان إذ كنتُ فتاةً أعجبُ الفتيان، لا أذيبُ الشّحم، ولا أرفعُ البهْم، كالمُهْرة الصّنيع، لا مُضاعاة ولا عند مضيع. فعجب القوم من غيظها من أبتنها، وضحك معاوية حتى استلقى.

(١) من ت.

(٢) ط: "إلى أين تذهبين"، وأثبت ما في ت، م.

(٣) الشارف: الناقة المستة.

وماتت الحسناء في زمنه بالبادية.

ومن محاسن شعرها قولها في رثاء أخيها:

فَأَذْهَبَ فَلَا يُبْعِدُنكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ دَرَاكِ ضَيْمٍ وَسَلَابٍ بِأَوْتَارِ^(١)
 قَدْ كُنْتُ تَحْمِلُ قَلْبًا غَيْرَ مُؤْتَشِبٍ^(٢) مُرَكَّبًا فِي نِصَابٍ غَيْرِ خَوَارِ
 فَسَوْفَ أَبْكِيكَ مَا نَاحَتْ مُطَوَّقَةٌ وَمَا أَضَاءَتْ نَجُومُ اللَّيْلِ لِلْسَّارِي
 شُدُّوا الْمَازِرَ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَكُمْ^(٣) وَشَمِّرُوا إِنَّهَا أَيَّامُ تَشْمَارِ
 وَأَبْكُوا فَتَى الْحَيِّ لَاقَتُهُ مَنِيَّتُهُ وَكُلُّ حَيٍّ إِلَى وَقْتٍ وَمَقْدَارِ

وقولها من قصيدة:

فَأَقْسَمْتُ أَسَى عَلَى هَالِكٍ وَأَسْأَلُ نَائِحَةً مَا لَهَا^(٤)
 أَبْعَدَ ابْنِ عَمْرٍو مِنْ آلِ الشَّرِيفِ حِلَّتْ بِهِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا!

قولها: "حلت به الأرض أثقالها"، يحتمل وجهين: أحدهما أن السيد الشجاع ثقيل على الأرض لسؤدده وسطوته، فإذا مات انحل بموته ثقله عنها. والثاني أن الأرض حلت به أمواتها، من الحلية، وسمت الموتى "ثقلًا" للأرض تشبيهاً بالحمل، والحمل يسمى ثقلًا، وفي قوله تعالى: ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]. قال بعض المفسرين: أي موتاه؛ وقال بعضهم: كنوزها.

وقولها:

لَعَمْرُ أَيْبِكَ لِنِعْمِ الْفَتَى تَحُشُّ بِهِ الْحَرْبَ أَجْذَالَهَا^(٥)
 وَخَيْلٍ تَكْدَسُ مَشَى الْوَعْوِ لَ نَازَلَتْ بِالسَّيْفِ أَبْطَالَهَا
 لَدَى مَا زَقَّ بَيْنَهَا ضَيْقُ تَجَرَّ الْمَنِيَّةُ أَذْيَالَهَا
 تُهَيِّنُ النُّفُوسَ وَهَوْنَ النُّفُو سِ يَوْمِ الْكَرِيهَةِ أَبْقَى لَهَا
 وَمُحْصَنَةٍ مِنْ بَنَاتِ الْمُلو لِكِ فَعَقَعَتْ بِاللَّيْلِ خَلْخَالَهَا
 وَقَافِيَةٍ مِثْلِ حَدِّ السَّنَا نِ تَبْقَى وَيَهْلِكُ مَنْ قَالَهَا

(١) ديوانها ١١٠.

(٢) مؤتشب: دني، وفي الديوان: "غير مهتضم".

(٣) الديوان: "حتى يستدفع لكم"؛ أي يتهيا.

(٤) ديوانها ٢٠١، مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات.

(٥) تحش: توقد. والأجذال: أصول الشجر، أي توقد الحرب حطبها به.

نَطَقْتَ أَبْنَ عَمْرٍو فَأَوْضَحْتَهَا
فَإِنْ تَكُ مُرَّةً أَوْدَتْ بِهِ
وَقَوْلَهَا أَيْضاً:

وَإِنْ صَخْرًا لَمْوَلَانَا وَسَيِّدَنَا
وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهُدَاةُ بِهِ
مِثْلُ الرُّدَيْنِيِّ لَمْ تَدْنَسْ شَبِيبَتُهُ
وَقَوْلَهَا أَيْضاً:

فَمَا بَلَغْتَ كَفُّ أَمْرِي مُتَنَاوِلٍ
وَمَا بَلَغَ الْمُهْدُونَ لِلنَّاسِ مِدْحَةً
أَخُو الْجُودِ مَعْرُوفًا لَهُ الْفَضْلُ وَالنَّدَى
وَقَوْلَهَا تَمْدَحُ أَخَاهَا وَأَبَاهَا:

جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا
حَتَّى إِذَا بَدَتِ الْقُلُوبُ وَقَدْ
بَرَرْتُ صَحِيفَتُهُ وَجْهَ وَالِدِهِ
أُولَى فَأُولَى أَنْ يُسَاوِيَهُ
وَهُمَا كَأَنَّهُمَا وَقَدْ بَرَّرَا
يعني أنه إنما أفرج له عن السُّبُقِ مع قدرته على المساواة معرفةً بحقه، وتسليماً لكِبَرِ
سِنِّهِ.

وقيل لأبي عبيدة: إن هذه الأبيات ليست في مجموع شعر الخنساء، فقال: لعله أُسْقِطَ
من أن يُجاء عليها بمثل هذا.

ومن الشعر الذي ذكرت بسببه قولها هذه الأبيات:

تَعْرِفَنِي الدَّهْرُ نَهْسًا وَحَزًّا وَأَوْجَعَنِي الدَّهْرُ قَرَعًا وَغَمَزًا^(٦)

(١) ديوانها ٨١.

(٢) الرديني: الرمح؛ منسوب إلى ردينة، امرأة كانت تُقَوِّمُ الرماح.

(٣) ديوانها ١٨٤.

(٤) تعار: جبل بأرض بني سليم. وَيَذْبُلُ: جبل لغطفان.

(٥) ديوانها ١٣٨. والملاءة: الربطة. والحضر: الجري.

(٦) ديوانها ١٤٣.

وَأَفْتَى رَجَالِي فَبَادُوا مَعَا
كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا حِمَى يُتَّقَى
وَخَيْلٍ تَكْدَسُ بِالذَّارِعِينَ
بِيَضِ الصَّفَاحِ وَسُمْرِ الرِّمَاحِ
جَزَزْنَا نَوَاصِي فُرْسَانِهَا
وَمَنْ ظَنَّ مِمَّنْ يُلَاقِي الْحُرُوبَ
فَأَصْبَحَ قَلْبِي بِهِمْ مُسْتَفْزَا
إِذِ النَّاسِ فِي ذَاكَ مَنْ عَزَّ بَزَا
وَتَحْتَ الْعَجَاجَةِ يَجْمَزْنَ جَمَزَا^(١)
فَبَالِيضِ ضَرْبَا وَبِالسُّمْرِ وَخَزَا
وَكَأَنُّوا يَظُنُّونَ أَلَّا تُجَزَا
بِأَلَّا يُصَابَ فَقَدْ ظَنَّ عَجَزَا

١٤٠ - وَأَخْطَأْتُ أَسْتُكَ الْحُفْرَةَ

هذا مثلٌ يُضْرَبُ لمن يطلب أمراً فيخطئه ولا يناله. حكى أن المختار بن أبي عبيد قال وهو بالكوفة: والله لأدخلن البصرة، ولا أرمى دونها بكتّاب^(٢)، ثم لأملكن الهند والسند والبند - أراد بالبند العلم - أنا والله صاحب الخضراء والبيضاء، والمسجد الذي ينبع منه الماء. فلما بلغ هذا الحجاج بن يوسف قال: أخطأت أَسْتَ ابن أبي عبيد الحفرة! أنا والله صاحب ذاك، كأن الحجاج تمثّل بذلك^(٣).

١٤١ - وَاللَّهِ لَوْ كَسَاكَ مُحَرَّقُ الْبُرْدَيْنِ

[محرق، وهو عمرو بن هند]

محرق، هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء. وهو عمرو بن هند، وكان يُعرف بأمه هند بنت الحارث بن حُجْر آكل المُرار الكندي. وكان يُقال لعمرو: مضرط الحجاره، لشدة بأسه، وسُمِّيَ محرقاً لقصة أستوفى أبو الفرج شرحها في كتاب الأغاني، فقال^(٤): كان قد عاقد حيّ طيّء على ألا ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا، ثم إنه غزا اليمامة ورجع مغتبطاً، ومر بطيّء، فقال له زُرارة بن عُدْسٍ التميمي - وكان من خواصّه: أبيت اللعن! أصبت من هذا الحيّ شيئاً؟ فقال: ويلك! إن لهم عقداً، قال: وإن كان لهم؛ فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأذواداً، فقال في ذلك قيس بن وجرة الطائي^(٥):

(١) التكدس: مشي ليس بالسرّيع ولا بالبطيء؛ ولا يكون هذا إلا في القتال.

(٢) كتاب، كشّاد: السهم لا تصل له ولا ريش.

(٣) الميداني ١: ١٦٥. وفي ت "به".

(٤) في ج ١٩: ١٢٨ (ساسي) وما بعدها.

(٥) الأغاني: "قيس بن جروة".

أَرَاكَ ابْنَ هِنْدٍ لَمْ تَعْقُكَ أَمَانَةٌ
فَأَقْسَمْتُ جُهْدِي بِالْأَبَاطِحِ مِنْ مَنِي
لَئِنْ لَمْ تَغْيِرْ بَعْضَ مَا قَدْ فَعَلْتَهُ
سُمِّي عَارِقًا بِهَذَا الْبَيْتِ.

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا عَهْدُهُ وَمَوَائِقُهُ^(١)
وَمَا خَبٌّ فِي بَطْحَائِهِنَّ دَرَادُقُهُ^(٢)
لَا تُتَحَيَّنُ لِلْعَظْمِ دُوَّ أَنْتَ عَارِقُهُ^(٣)

وبلغ الشعر عمرو بن هند، فقال له زرارة بن عدس: أبيت اللعن! إِنَّهُ يَتَوَعَّدُكَ! فقال عمرو لرميلة بن شعار الطائي^(٤): أيهجوني ابن عمك ويتوعدني! قال: لا والله ما هجاك، ولكنه قال:

وَاللَّهِ لَوْ كَانَ ابْنُ جَفْنَةَ جَارَكُمْ
وَأَرَادَ رُمَيْلَةً أَنْ يَسْلَ سَخِيمَتَهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلَنَّهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَارِقًا، فَقَالَ مُشَدًّا:
أَبُو عَدْنِي وَالرَّمْلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
غَدَرْتَ بَعْهَدٍ كُنْتَ أَنْتَ أَخَذْتَنَا
وَقَدْ يَتْرُكُ الْغَدْرَ الْفَتَى وَطَعَامَهُ

مَا إِنْ كَسَاكُمْ ضَيْعَةٌ وَهَوَانَا^(٥)
تَبَيَّنَ رُؤُودًا مَا أَمَامَهُ مِنْ هِنْدٍ^(٦)
عليه، وشرُّ السَّيِّمَةِ الْغَدْرُ بِالْعَهْدِ
إِذَا هُوَ أَمْسَى جُلَّهُ مِنْ دَمِ الْفُصْدِ

(١) رواية الأبيات في الأغاني:

أَلَا حَيَّ قَبْلَ الْيَوْمِ مَنْ أَنْتَ عَاشِقُهُ
وَمَنْ لَا تَوَاتِي دَارُهُ غَيْرَ قَيْنَةٍ
وَتَعْدُو بِصَحْرَاءِ الثَّوْبَةِ نَاقَتِي
إِلَى الْمَلِكِ الْخَيْرِ ابْنَ هِنْدٍ تَزُورُهُ
وَأِنْ نِسَاءً هُنَّ مَا قَالَ قَائِلٌ
وَلَوْ نِيلَ فِي عَهْدٍ لَنَا لَحْمُ أَرْبٍ
فَهَيْكَ ابْنَ هِنْدٍ لَمْ تَعْقُكَ أَمَانَةٌ
وَكُنَّا أَنَاسًا خَافِضِينَ بِنِعْمَةٍ
فَأَقْسَمْتُ لَا أَحْتِلُ إِلَّا بِصَهْوَةٍ
وَأَقْسَمْتُ جَهْدًا بِالْمَنَازِلِ مِنْ مَنِي
الدرداق: أولاد الوحش.

وَمَنْ أَنْتَ مُشْتَاقٌ إِلَيْهِ وَشَائِقُهُ
وَمَنْ أَنْتَ تَبْكِي كُلَّ يَوْمٍ تَفَارِقُهُ
كَعْدُو النَّحُوصِ قَدْ أَمَحْتَ نَوَاقِثَهُ
وَلَيْسَ مِنَ الْفُوتِ الَّذِي هُوَ سَابِقُهُ
غَنِيمَةٌ سُوءٌ بَيْنَهُنَّ مَهَارِقُهُ
رَدَدْنَا، وَهَذَا الْعَهْدُ أَنْتَ مُعَالِقُهُ
وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا عَهْدُهُ وَمَوَائِقُهُ
يَسِيلُ بَنَاتُ لُغِ الْمَلَا وَأَبَارِقُهُ
حَرَامٌ عَلَيَّ رَمْلُهُ وَشَقَائِقُهُ
وَمَا خَبٌّ فِي بَطْحَائِهِنَّ دَرَادُقُهُ

(٢) انتحى: قصد. عرق العظم: إنتزع منه اللحم.

(٣) الأغاني: "الرملة بن شعاع الطائي، وهو ابن عم عارق".

(٤) بعده في الأغاني:

وَسَلَا سِلًّا يَبْرُقْنَ فِي أَعْنَاقِكُمْ
وَلَكَانَ عَادَتُهُ عَلَى جِيرَانِهِ
قَبْلَهُ فِي الْأَغَانِي:

وَإِذَا لَقِطَعَ عَنْكُمْ الْأَقْرَانَا
ذَهَبًا وَرِيطًا رَادِعًا وَجَفَانَا

مَنْ مَبْلَغُ عَمْرٍو بْنِ هِنْدٍ رِسَالَةٌ
وَبَعْدَهُ:

إِذَا اسْتَحَقَبَتْهَا الْعِيسُ تَنْصَى مِنَ الْبُعْدِ
قَنَابِلُ خَيْلٍ مِنْ كُمَيْتٍ وَمِنْ وَرْدِ

وَمِنْ أَجَادُونِي رِعَانٍ كَأَنَّهَُا

فبلغ عمرو بن هند قوله، فغزا طيئاً، فأسر أسرى من بني عديّ بن أخزم رهط حاتم، فوفد حاتم عليه، وسأله في الأسرى فأطلقهم له.

وكان المنذر بن ماء السماء، أبو عمرو، قد وضع ابناً له صغيراً يقال له مالك، عند زرارة بن عدس، وإنّ مالكا خرج يوماً يتصيد، فأخفق ولم يجد شيئاً فرجع، فمرّ بإبل لرجل من بني عبدالله بن دارم، يقال له: سُويد - وكان عند سويد ابنة زرارة، فولدت له سبعة غلّة - فأمر مالك بن المنذر بناقة سمينة منها فنحرها ثم اشتوى وسويد نائم، فلما انتبه شدّ على مالك بعضاً فضر به فأمه^(١) فمات، وخرج سُويد هارباً حتى لحق بمكة.

وكانت طييء تطلب عثرات زرارة وبني أبيه، حتى بلغهم ما صنعوا بأخي الملك، فقال ثعلبة بن عمرو الطائي:

مَنْ مَبْلُغُ عَمْرٍو بَأَنَّ الْمَرْءَ لَمْ يُخْلَقْ صَبَارَةً^(٢)
وَحَوَادِثُ الْأَيَّامِ لَا يَبْقَى لَهَا إِلَّا الْحَجَارَةُ
إِنَّ ابْنَ عَجْزَةِ أُمِّهِ بِالْسَفْحِ أَسْفَلَ مِنْ أَوَارَةٍ^(٣)
تَسْفِي الرِّيحَ خِلَالَ كَشْحَيْهِ وَقَدْ سَلَبُوا إِزَارَةً^(٤)
فَأَقْتُلْ زُرَّارَةَ لَا أَرَى فِي الْقَوْمِ أَوْفَى مِنْ زُرَّارَةٍ

فلما بلغ هذا الشعر عمرو بن هند، بكى وفاضت عيناه.

وبلغ الخبر زرارة فهرب، وركب عمرو في طلبه فلم يقدر عليه، فأخذاً أمرأته وهي حبلى، فقال: أذكر في بطنك أم أنثى؟ قالت: لا علم لي بذلك، فبقر بطنها. فقال قوم زرارة لزرارة: والله ما قتلنا أختا الملك، فأته فأصدقته الخبر، فأتاه فأخبره الخبر، فقال: عليّ بسويد، فقال: إنه لحق بمكة. قال: فعليّ ببنيه، فأتي ببنيه السبعة وأمهم بنت زرارة وهم غلّة بعضهم فوق بعض، فأمر بقتلهم، فتناولوا أحدهم، فضربوا عنقه، وتعلّق بزرارة الآخرون فتناولوهم، فقال زرارة: "يا بعضي أرسل بعضي"، فذهبت مثلاً وقتلوا، وآلى عمرو بن هند أليّة ليحرقن من بني حنظلة مائة رجل، فخرج يريداهم، وبعث على مقدّمته عمرو بن ثعلبة، فوجد القوم قد نذروا، فأخذ منهم ثمانية وتسعين رجلاً بناحية البحرين فحبسهم، ولحقه ابن هند، فضربت

(١) في الأصول: "فأماؤه"؛ والتصويب من الأغاني. أمه: شجّه.

(٢) الصبارة: الحجارة.

(٣) يقال: فلان عجة أبويه، أي آخرهم.

(٤) رواية الأغاني:

تَسْفِي الرِّيحَ خِلَالَ سَحْيِهِ سَحْيًا وَقَدْ سَلَبُوا إِزَارَةً
سَحْيًا، أي قشراً.

فيه قبته، وأمر لهم بأخدود، ثم أضرم فيه ناراً، فلما أحتدمت وتلظّت قذف بهم فيه، فأحترقوا، فأقبل راكب من البراجم - وهم بطن من بني حنظلة - لا يدري بشيء مما كان يصنع بغيره، فأخذ وألقى في النار. وأقام عمرو بن هند لا يرى أحداً، فقليل له: لو تحلّلت بامرأة منهم، فقد أحرقت تسعة وتسعين رجلاً! فدعا بامرأة من بني حنظلة، فقال لها: مَنْ أَنْتِ؟ قالت: الحمراء بنت ضمرة، فقال: إِنِّي لأظنك أعجميّة، فقالت: ما أنا بأعجميّة، ولا ولدتني العجم:

إِنِّي لِبْنْتُ ضُمْرَةَ بَنِّ جَابِرٍ سَادَ مَعَدًّا كَابِرًا عَن كَابِرِ

فقال عمرو: أما والله لولا مخافتي أن تلدي مثلك لصرفتُكِ عن النار. فقالت: أما والذي أسأله أن يضع وسادك، ويخفض عمادك^(١)، ما تقتل إلا نساء أعاليها ثديي، وأسافلها دمي، قال: أقذفوها في النار، فالتفتت وقالت: ألا فتى يكون مكان عجوز! فلما أبطئوا عليها قالت: هيهات! صار الفتیان حُمَمًا، وسُمِّي من ذلك اليوم محرّقا.

ومن ملوك جفنة أيضاً المحرّق، لكنه صاحب البردّين؛ فأما أمر البردّين فحكى أن الوفود اجتمعت عند محرّق، فأخرج بردّين من لباسه يُلَو الوفود، وقال: لِيَقُم أعزّ العرب فليأخذهما. فقام عامر بن أحيمر فأخذهما، فأتزّر بالواحد وارتدى الآخر. فقال له: أنت أعزّ العرب قبيلة؟ قال: العزّ كله في معدّ، والعدد في معدّ، ثم في نزار، ثم في مضر، قم في خندف، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في بهدلة، فمن أنكر هذا فلينافرنّي. فسكت الناس، فقال: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ قال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة، وخال عشرة، وها أنا في نفسي، وشاهد العزّ شاهدي، ثم وضع قدمه على الأرض وقال: مَنْ أزالها من مكانها فله عشرة من الإبل؛ فلم يقدّم أحد، وخرج بالبردّين؛ فضربت العرب بعزّه المثل ويبرّدّه.

١٤٢ - وَحَلَّتْكَ مَارِيَّةُ بِالْقُرْطَيْنِ

[ذكر قُرْطِي مارية]

الْقُرْط: نوع مما تحلّي به المرأة أذنها، وماريّة، وهي ابنة ظالم بن وهب الكنديّ؛ زوجة الحارث الأكبر الغسانيّ، أحد ملوك العرب بالشام، وهي أم الحارث الأصغر، وأمّها هند الهنود، امرأة آكل المُرار، وكان في قُرْطِيهَا لَوْلُوتَان عجبتان، يتوارثهما الملوك، وصلت إلى عبد الملك بن مروان؛ فوهبهما لابنته فاطمة، لما زوّجها لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، فلما

(١) بعدها في الأغاني: "ويقرب هلكك".

وُلِّيَ عَمْرُ الخِلافة قال لها: إن أَحْبَبَ المَقَامَ عِنْدِي فَضْعِي القُرْطَيْنِ والحُلِّيَّ فِي بَيْتِ مالِ المسلمين، فَوَضَعْتُهُ. فَلَمَّا مَاتَ وُلِّيَ يَزِيدُ بنَ عَبْدِ المَلِكِ، أَرْسَلَ إِلَيْهَا يَقُولُ: خِذِي القُرْطَيْنِ والحُلِّيَّ مِنْ بَيْتِ مالِ المسلمين. فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ؛ مَا أَوْافَقَهُ فِي حَالِ حَيَاتِهِ، وَأَخَالَفَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

وَرَوَى المِيدَانِيُّ أَنَّ مَارِيَةَ أَهَدَتْ قُرْطَيْهَا إِلَى الكَعْبَةِ، وَهَمَّا دُرَّتَانِ كَبِضَتِيَّ الحِمَامِ، لَمْ يَرِ فِي عَصَرِهَا وَلَا قَبْلَهُ مِثْلَهُمَا، هَكَذَا رَوَى المِيدَانِيُّ^(١)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَتِهِمَا.

١٤٣ - وَقَلَدَكَ عَمْرُو الصَّمْصَامَةَ

[عَمْرُو بنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ]

هُوَ عَمْرُو بنِ مَعْدِي كِرْبِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ الزُّيْدِيِّ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو ثَوْرٍ، الْفَارِسُ المَشْهُورُ، صَاحِبُ الْغَارَاتِ وَالْوَقَائِعِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ.

وَقَدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، قَالَ عَمْرُو: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْنُوَ إِلَيْهِ، فَمَنْعَنِي مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ "دَعُوهُ، فَدَنُوتُ مِنْهُ، فَقُلْتُ: أَنْعِمْ صَبَاحًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ! فَقَالَ: يَا عَمْرُو، أَسْلِمَ تَسْلَمَ، وَيُؤْمِنُكَ اللَّهُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، فَأَسْلَمْتُ"^(٢).

وَعَاشَ عَمْرُو إِلَى أَيَّامِ عُثْمَانَ، وَأَبْلَى فِي وَقَائِعِ الْإِسْلَامِ بَلَاءً حَسَنًا، مِثْلَ وَقْعَةِ الْقَادِسيَّةِ؛ وَهُوَ الَّذِي ضَرَبَ خَطْمَ الْفِيلِ بِالسَّيْفِ فَأَنْهَزَهُ، وَأَنْهَزَتْ الْأَعَاجِمُ، وَكَانَ سَبَبَ الْفَتْحِ. وَمِثْلَ وَقْعَةِ الْيَرْمُوكَ وَغَيْرِهَا.

قَالَ الْخَثْعَمِيُّ: مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْرَفَ مِنْ رَجُلٍ رَأَيْتُهُ يَوْمَ الْيَرْمُوكَ، خَرَجَ لَهُ عِلْجٌ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ آخَرَ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ أَنْهَزُوا فَتَبِعَهُمْ وَتَبِعْتُهُ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ إِلَى خِباءٍ لَهُ اسْوَدَ، فَزَلَّ فِدْعًا بِالْجِفَّانِ، وَدَعَا مَنْ حَوْلَهُ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: عَمْرُو بنِ مَعْدٍ يَكْرِبُ.

وَحَدَّثَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، قَالَ: مَرَرْنَا يَوْمَ الْقَادِسيَّةِ بِعَمْرُو بنِ مَعْدٍ يَكْرِبَ وَهُوَ يَخْصُ النَّاسَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ، وَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، كُونُوا أَشَدَّ مِنْ شَأْنًا، إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنَ الْأَعَاجِمِ إِذَا لَقِيَ مَزْرَاقًا^(٣) فَإِنَّمَا هُوَ تَيْسٌ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ يَحْرِصُنَا، إِذْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنَ الْأَعَاجِمِ، فَوَقَفَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ فَرَمَاهُ بِنَشَابَةٍ، فَمَا أَخْطَأَتْ سِيَّةَ قَوْسٍ كَانَ مَتَنَكِبَهَا، فَالْتَفَتَ ثُمَّ حَمَلَ عَلَيْهِ

(١) مجمع الأمثال ١: ١٥٦، ولفظ المثل هناك: "خذه ولو بقرطبي مارية".

(٢) انظر الأغاني ١٥: ٢١٢ (طبعة دار الكتب).

(٣) المزارق: رمح قصير.

فَأَعْتَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِمَنْطِقَتِهِ فَأَحْتَمَلَهُ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَجَاءَ حَتَّى إِذَا دَنَا مَنَا كَسَرَ عُنُقَهُ، ثُمَّ أَمَرَ الصَّمْصَامَةَ عَلَى حَلْقِهِ فَذَبَحَهُ، وَنَزَعَ سِوَارِيهِ وَمَنْطِقَتَهُ وَأَلْقَاهُ، وَقَالَ: هَكَذَا فَأَصْنَعُوا بِهِمْ. فَقُلْنَا: مَنْ يَسْتَطِيعُ يَا أَبَا ثَوْرٍ أَنْ يَصْنَعَ كَمَا تَصْنَعُ! ^(١).

وَحَكَى أَبُو عُبَيْدَةَ، قَالَ: لَمَّا كَانَ فَتْحُ الْقَادِسِيَةِ أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ أَمْوَالًا عَظِيمَةً، فَعَزَلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ الْخُمْسَ، ثُمَّ قَسَمَ الْبَقِيَّةَ، فَأَصَابَ الْفَارِسَ سِتَّةَ آلَافٍ، وَبَقِيَ مَالٌ دَثْرٌ ^(٢)، فَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ بِمَا فَعَلَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنْ رَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْخُمْسَ، وَأَعْطَى مَنْ لَحِقَ بِكَ مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدْ الْوَقْعَةَ، فَفَعَلَ ذَلِكَ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ [بِذَلِكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ] ^(٣): أَنْ أَعْطِ مَا بَقِيَ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ، فَأَتَاهُ عُمَرُو بْنُ مَعْدٍ يَكْرِبُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ مِنْ حِفْظِ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: إِنِّي أَسْلَمْتُ، ثُمَّ شُغِلْتُ بِالْغَزْوِ عَنْ حِفْظِ الْقُرْآنِ، [قَالَ: مَا لَكَ فِي هَذَا الْمَالِ نَصِيبٌ] ^(٤).

وَقِيلَ: أَتَاهُ بِشْرُ بْنُ رَبِيعَةَ، فَقَالَ لَهُ: مَا مَعَكَ مِنْ حِفْظِ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: مَعِيَ "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"؛ فَضَحِكَ الْقَوْمُ، فَقَالَ سَعْدُ: مَا لَكَ فِي هَذَا الْمَالِ مِنْ شَيْءٍ وَلَا مِنْ نَصِيبٍ؟ فَقَالَ عُمَرُو مُنْشِدًا:

إِذَا قُتِلْنَا وَلَا يَبْكَ لَنَا أَحَدٌ قَالَتْ قُرَيْشٌ: أَلَا تِلْكَ الْمَقَادِيرُ
نُعْطِي السُّوْيَةَ مَنْ طَعَنَ لَهُ نَفْدٌ وَلَا سُوْيَةَ إِذْ تُعْطَى الدَّنَانِيرُ ^(٥)

وَقَالَ بِشْرُ أَبْيَاتًا ^(٦)، فَكَتَبَ سَعْدُ إِلَى عُمَرَ بِمَا قَالَا، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَعْطَهُمَا عَلَى بِلَائِهِمَا، فَأَعْطَاهُمَا أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ^(٧).

(١) انظر الأغاني ١٥: ٢١٧.

(٢) دثر: كثير.

(٣) من ت.

(٤) من الأغاني، والخبر فيه في ١٥: ٢٤٢.

(٥) السوية: العدل.

(٦) ذكرها صاحب الأغاني، وهي:

أَنْحَتُ بَابَ الْقَادِسِيَّةِ نَاقَتِي وَسَعَدُ بْنُ وَقَّاصٍ عَلَيَّ أَمِيرُ
وَسَعَدُ أَمِيرٌ شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ وَخَيْرُ أَمِيرٍ بِالْعِرَاقِ جَرِيرُ
وَعِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ نَوَافِلُ وَعِنْدَ الْمُشَنَّى فَضْلَةٌ وَحَرِيرُ
تَذَكَّرْتُ هَذَاكَ اللَّهَ وَقَعَ سِوْفُنَا بَابُ قُدَيْسٍ وَالْمَكْرُ عَسِيرُ
عَشِيَّةً وَذَ الْقَوْمِ لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ يُعَارُ جَنَاحِي طَائِرٍ فَيْطِيرُ
إِذَا مَا فَرَعْنَا مِنْ قِرَاعِ كَتِيبَةٍ دَلَفْنَا لِأَخْرَى كَالْجِبَالِ نَسِيرُ
تَرَى الْقَوْمَ فِيهَا وَاجِمِينَ كَأَنَّهُمْ جَمَالُ بِأَحْمَالٍ لَهَنَ زَفِيرُ
الأغاني ١٥: ٢٤٣. (٧)

وحكى المدائني قال: كان عمرو بن معد يكرب في سرية أميرها سلمان^(١) بن ربيعة، فعرض الخيل، فمرّ عمرو على فرس له، فقال سلمان: هذا هجين، فقال عمر: عتيق. قال: فأمر به فُعْطُش، ثم دعا بقدس^(٢)، فقلب فيه ماء^(٣)، فدعا بخيل عتاق فشربت، فجاء فرس عمرو فثنى يديه وشرب، وهكذا يصنع الهجين. فقال له: ألا ترى؟ فقال عمرو: أجل، الهجين يعرف الهجين. فبلغ عمر، فكتب إليه: قد بلغني ما قتل لأميرك، وبلغني أنّ لك سيفاً تسميه الصمصامة، وعندي سيف مصمم بالله، لئن وضعت على هامتك لا أقلع حتى أبلغ به شراسيفك، فإن سرك أن تعلم أحق ما أقول فعد^(٤).

ويروى أن عمر رضي الله عنه سأله يوماً فقال: ما تقول في الحرب؟ قال: مرة المذاق، إذا كشفت عن ساق؛ فمن صبر عرف، ومن ضعف تلف؛ قال: فما تقول في الرمح؟ قال: خليلك؛ وربما خانك، قال: فالتبّل؟ قال: منايا تخطيء وتصيب. قال: فالترس؟ قال: عليه تدور الدوائر. قال: فالسيف؟ قال: عبدك، ثكلتك أمك! قال عمر: بل أمك، فقال: "الحمى أضرتني لك"، فأغلظ له عمر في الكلام، فقال:

أتوعدني كأنك ذو رعين
بأنعم عيشة أو ذو نواس
فلا تفخر بملكك، كل ملك
يصير لذلّة بعد الشّماس

فقال عمر: صدقت، فاقتصّ مني، قال: لا، بل أعفو يا أمير المؤمنين، لولا آية سمعتها منك لجللتك السيف؛ أخذ منك أم ترك؛ قال: وما هي؟ قال: سمعتك تقرأ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤]؛ والله لو علمت أني إذا دخلتها مت لفعلت^(٥).

وحكى أن عينية بن حصن لما قدم الكوفة أمام أياماً، ثم قال: والله ما لي بأبي ثور عهد [منذ قدمنا هذا الغائط]^(٦)، ثم ركب فرساً، وسأل عن محلة بني زبيد، فأرشد إليها، وسأل عن عمرو، فوقف ببابه، ثم قال: يا أبا ثور، أخرج إلينا، فخرج مؤتزراً، كأنها كسر وجبر، فقال: أنعم صباحاً أبا مالك! فقال: أوليس قد بدلنا الله تعالى بهذا: "السلام عليكم!"؛ فقال "دعنا مما

(١) ت: "سليمان" وأثبت ما في ط والأغاني؛ وهو سلمان بن ربيعة بن يزيد الباهلي، ويُعرف بسلمان الخيل؛ ويقال: إن له صحبة. وانظر تهذيب التهذيب.

(٢) القدس، بالتحريك: السطل، وفي الأصول: "بترس"، تحريف.

(٣) في الأصول: "فلبت".

(٤) الخبر في الأغاني ١٥: ٢٤٤ مع اختلاف في الرواية.

(٥) الميداني ١: ١٣٨.

(٦) من الأغاني.

لا نعرف، أنزل فإنّ عندي كيشاً سميناً^(١)، فنزل فعَمَد إلى الكيش فذبحه، ثم ألقاه في قَدْر وطبخه، وجلس يتحدث إلى أن أدرك؛ فثَرَد في جفنة عظيمة، وألقى القَدْر عليها، وقعداً فأكلها منها، ثم قال: أيّ الشراب أحبُّ إليك: اللبن، أم ما كنّا نتنادم عليه في الجاهلية؟ فقال: أوليس قد حرّمها الله تعالى في الإسلام! فقال: أنت أقدم إسلاماً، أم أنا؟^(٢) قال: أنت، قال: فإني قد قرأت^(٣) ما بين دفتيّ المصحف، فوالله ما وجدت لها تحريماً إلا أنه قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، فقلنا: لا. ثم جاءا بنيذ وجلسا يشربان ويتحدثان، ويذكران أيام الجاهلية حتى أمسيا، فلما أراد عيينة الانصراف قال عمرو: لئن انصرف أبو مالك بغير حياءٍ إنّها لو ضمة، فأمر له بناقة أرحبية^(٤) وحمله عليها، ثم أتى بمزود فيه أربعة آلاف درهم، فوضعه بين يديه فقال: أمّا المال فوالله لا أخذه ولا ألمسه، فأنصرف وهو يقول^(٥):

جُزَيْتَ أَبَا ثَوْرٍ جِزَاءَ كَرَامَةٍ فَنِعَمَ الْفَتَى الْمَزْدَارُ وَالْمُتَضَيِّقُ^(٦)

وقيل: إنه لم يكن في عمرو خصلة رديئة إلا الكذب، حكى أبو عمرو بن العلاء، قال: وقف عمرو يوماً بالمربد يتحدث على عاداتهم، فقال: أغرت^(٧) في الجاهلية على بني مالك، فخر جوا مسترعفين^(٨) بخالد بن الصقعب [يقدمهم]^(٩)، فحملت عليه الصمصامة، فأخذت رأسه^(١٠) - وكان خالد بن الصقعب حاضراً -، فقال بعض الجماعة: مهلاً أبا ثور! قليلك يسمع كلامك - وأشار إليه - فقال: أسكت، إنما أنت محدث فأسمع أو قُم؛ ثم ألتفت إلى خالد، وقال:

(١) الأغاني: "ساحاً"، أي بالغاً في السمن.

(٢) الأغاني: "أكبر سنّاً أم أنا؟".

(٣) كذا في ت والأغاني، وفي ط: "سمعت".

(٤) أرحبية: نسبة إلى بني أرحب، بطن من همدان.

(٥) في الأغاني: "فقال: أمّا المال فوالله لا قبلته، قال: والله إنه لمن حياء عمر بن الخطاب ﷺ، فلم يقبله عيينة وأنصرف وهو يقول".

(٦) الأغاني ١٥: ٢١٩، ٢٢٠، وبعده هناك:

قربت فأكرمت الفرى وأقدتْنا نخيلة علم لم يكن قط يُعرف
وقلْتُ: حلال أن تُدير مُدامَةً كلون أنعقاق البرق والليل مُسْدِفُ
وقدّمتَ فيها حُجَّةً عريّةً تردُّ إلى الإنصاف من ليس بنصف
وأنت لنا والله ذي العرش قُدوةً إذا صدنا عن شربها المتكلّف
تقول: أبو ثور أحلّ حرامها وقول أبي ثور أسدُّ وأعرفُ

(٧) ط: "غزوت"، والصواب ما أثبتته من ت والأغاني.

(٨) الاسترعاف: السبق والتقدم.

(٩) من الأغاني.

(١٠) الأغاني: "حتى فاظت نفسه".

إنما نُزهِب هذه المعدية بهذه الأخبار^(١)؛ ومضى في حديثه، فلم يقطعه، فقال له رجل: إنك لشجاع في الحرب والكذب، فقال: إني كذلك!

وحكى أبو عمرو بن العلاء، قال: جاء رجل إلى عمرو، وهو واقف بالمربد على فرس له وقد أسنّ، فقال: لأنظرن ما بقي من قوة أبي ثور، فأدخل يده بين ساقه وجنب الفرس، ففطن عمرو لذلك، فضمّ رجله وحرك الفرس، فجعل الرجل يعدو مع الفرس لا يقدر أن ينزع يده حتى إذا بلغ منه صاح به، فقال: يا ابن أخي، مالك؟ قال: يدي تحت ساقك، فخلى عنه، وقال: إن في عمك بقية بعد^(٢).

ومن كلامه؛ حكى أنه أتى مجاشع بن مسعود فقال: أسالك ثملان^(٣) مثلي، فأمر له بفرس جواد وسيف صارم وعشرين ألف درهم؛ فمرّ ببني حنظلة، فقالوا: يا أبا ثور، كيف رأيت صاحبك؟ فقال: لله بنو مجاشع! ما أشدّ في الحروب لقاءها، وأجزل في اللزبات^(٤) عطاءها، وأحسن في المكرمات بناءها! والله لقد قاتلتها فما أجبتنيها^(٥)، وسألتها فما أبخلتنيها، وهاجيتها فما أفحمتنيها^(٦).

ومن جيد شعره:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْخَيْلَ رَهْوَاً كَانَهَا جَدَاوُلُ مَاءٍ أُرْسِلَتْ فَاسْبَطَرْتُ^(٧)
وَجَاشَتْ إِلَيَّ النَّفْسُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ وَرُدَّتْ عَلَى مَكْرُوْهَهَا فَاسْتَقَرَّتْ
ظَلِلْتُ كَأَنِّي لِلرَّمَاكِ دَرِيئَةٌ أَقَاتِلُ عَنْ أَحْسَابِ جَرَمٍ وَفَرَّتْ
وَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقْتَنِي رَمَاحُهُمْ نَطَقْتُ، وَلَكِنَّ الرَّمَاكِ أَجَرَّتْ

قوله: "أقاتل عن أحساب جرّم"، من الهجاء الممض؛ وذلك أنه ذكر أن قوماً فروا، وليس هو منهم غير أنه يقاتل غضباً لهم وعصية.

وقوله: "ولو أن قومي أنطقني"، يعني لو قاتلوا وطاعنوا نطقت بمدحهم، ولكنهم فرّوا فأسكتوني عن المدح؛ والأصل في الإجرار أن الفصيل إذا أرادوا فطامه شقوا لسانه فلم يقدر على الرضاع.

(١) إلى هنا، الخبر في الأغاني ١٥: ٢٢٣.

(٢) الأغاني ١٥: ٢٢٢.

(٣) الحملان، مصدر حمل، عني به ما يحمل عليه.

(٤) اللزبة: الشدة والفحط، والجمع بسكون الزاي.

(٥) الأغاني: "فما أقللها"، أي عددتها قليلة.

(٦) الأغاني ١٥: ٢٢٢.

(٧) الأصمعية ٣٤. رهواً: سراعاً. اسبطرت: امتدت بسرعة.

وقوله في القصيدة التي أولها:

* أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعُ *^(١)

وَقَدْ عَجِبْتُ أَمَامَهُ أَنْ رَأَيْتَنِي
أَشَابَ الرَّأْسَ أَيَّامَ طَوَالٍ
وَزَحَفُ كَتِيبَةٍ لِلْقَاءِ أُخْرَى
وَإِسْنَادِ الْأَسْنَةِ نَحْوَ نَحْرِي
فَإِنْ تَنَبَّ النَّوَابُ آلَ عَصَمٍ
إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعُهُ
وَصِلَّهُ بِالنُّزُوعِ فَكُلَّ شَيْءٍ
وقوله أيضاً:

يَأَيُّهَا الْمَتَابُنَا
لَيْسَ الْجَمَالُ بِمُزَرٍّ
أَنَّ الْجَمَالَ مَعَادُنُّ
أَعْدَدْتُ لِلْحَدَثَانِ سَا
نَهْدًا وَذَا شُطْبٍ يَقْدُ الْبَيْضَ وَالْأَبْدَانَ فَـ^(٩)
يَوْمِ الْهَيْجِاجِ بِمَا اسْتَعْدَا
يَفْخَضُنَ بِالْمَعْرَاءِ شَدًّا^(١٠)
تَخْفَى وَعَادَ الْأَمْرُ جِدًّا

(١) الأصمعية ٦١، وبقيته:

* يُورِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ *

(٢) تفرعه: علاه، أو صار في فروعه، وفرع كل شيء أعلاه.

(٣) تبلعه؛ تبتلعه: أي تسعه.

(٤) الزهاء: القدر. رأس صليح: لا شعر فيه.

(٥) الحكايات: جمع حكمة؛ وهي ما أحاط من اللجام بحنكي الدابة. رفوع، مصدر بمعنى الإرتفاع.

(٦) الزماع: المضاء في الأمر والعزم عليه.

(٧) ديوان الحماسة ١: ١٧٠ - بشرح التبريزي ولم يرو البيت الأول.

(٨) سابعة: أي دعاً وسبعة: وعداء علندي، أي فرساً ضخماً شديد العدو.

(٩) فرس نهدي: ضخيم طويل.

(١٠) المعزاء: الأرض الصلبة ذات الحجارة.

نَا زَلْتُ كِبْشَهُمْ وَلَكُمُ
هُم يَنْذِرُونَ دِمِّي وَأَنَا
كُم مِّنْ أَخِي صَالِح
ذَهَبَ الَّذِينَ أَحْبَبَهُمْ
أَرَمِنْ نَزَالِ الْكَبْشِ بُدًّا^(١)
ذِرْ إِنْ لَقِيتُ بَأْأَشْـدَّا
بَوَائِيهِ بِيَدِي لَحْدًا
وَبَقِيتُ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدًا
قلت: لو لم يكن له إلا هذه القصيدة لاستحق بها التقدم على بشر كثير.

* * *

وأما الصمصامة فهي سيفه المشهور، قال عبد الملك بن عمير: أهدت بلقيس إلى سليمان خمسة أسياف، وهي: ذو الفقار، وذو النون، ومخذم، ورسوب، والصمصامة؛ فأما ذو الفقار فكان لرسول الله ﷺ، أخذه من عقبة بن الحجاج يوم بدر، ومخذم ورسوب للحارث ابن جبلة الغساني، وذو النون والصمصامة لعمر بن معد يكرب. وحكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لعمر بن عبد الوكيل: أبعث لي الصمصامة، فبعث به إليه، فلم يره كما بلغه، فقال له في ذلك، فقال: إني بعثت إليك الصمصامة، ولم أبعث لك باليد التي تضر به!

وحكى أبو عبيدة أن الصمصامة انتقلت إلى سعيد بن العاص، وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بني زبيد، وكان خالد بن سعيد من جملة أمرائه أوقع بهم، وأسر ريحانة أخت عمرو بن معد يكرب، ففداها خالد، وأثابه عمرو الصمصامة، ثم فُقد يوم الدار في مقتل عثمان ووجد، ولم يزل إلى أن صعد المهدي إلى البصرة، فلما كان بواسطة أرسل إلى بني العاص يطلب الصمصامة، فقالوا: إنه في السبيل محبساً. فقال: خمسون سيفاً قاطعاً في السبيل أغنى من سيف واحد، وأعطاهم خمسين سيفاً، وأخذه، فلما صار إلى الهادي أحضره، وأمر الشعراء بوصفه، فقال بعضهم من أبيات:

حَارَ صَمْصَامَةُ الزَّيْدِيِّ عَمَرُو
مَائِي مَنِ انْتَضَاهُ لَضَرْبِ
مِنْ جَمِيعِ الْأَنْامِ مُوسَى الْأَمِينُ
أَشْمَالٍ سَطَّتْ بِهِ أَمْ يَمِينُ!
ثم وصل إلى المتوكل، فدفعه إلى غلامه باغر التركي، فقتله به، ومن عند باغر أنقطع خبره.

(١) كبش الكتبية: رئيسها.

١٤٤ - وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعَامَةِ

النعامه فرسُ الحارث بن عباد التغلبيّ، أكبر سادات بني وائل، وهو الذي اعتزل حرب البسوس، وقال: "لا ناقة لي فيها ولا جمل"، فلما قُتِل ولده نهض حيثنذ وقال:

قَرَّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لَقَحَتْ حَرْبٌ وائِلٍ عَنْ حِيَالٍ^(١)

يعني هذا الفرس، ويكرر قوله: "قَرَّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي"؛ في أبيات كثيرة من هذه القصيدة. وقد تقدم شيء من ذكره.

ويقال: إنَّ هذه الفرس كانت لخُزَز بن لُوْذَانَ، وهي التي يقول فيها يخاطب زوجته:

إِنَّ الرَّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِنْ يَأْخُذُوكِ تَكْحَلِي وَتَخْضَبِي^(٢)

وَأَنَا أَمْرُوٌّ إِنْ يَأْخُذُونِي عَنْوَةٌ أَقْرِنَ إِلَى سَنَنِ الرِّكَابِ وَأَجْنَبِ

وَيَكُونُ مَرْكَبُكَ الْقَعُودَ وَحِدْجَهُ وَابْنُ النَّعَامَةِ يَوْمَ ذَلِكَ مَرْكَبِي

يعني إِنَّكَ إِنْ أُسِرْتَ كَانَتْ لَكَ وَسِيلَةٌ عِنْدَ الرِّجَالِ، مِنْ كَحْلِكَ وَخَضَابِكَ، وَأَنَا إِنْ أُسِرْتُ جَنِبْتُ إِلَى جَانِبِ فَرَسِي، فَأَكُونُ رَاكِبَ ظِلِّهَا.

قال أبو عبادة: النعامه عرق في باطن القدم؛ ولذلك يقال للميت: شالت نعامته، أي أرتفعت رجلاه.

وقولهم: إِنَّ فَرَسَ الْحَارِثِ بَنِ عُبَادَ هِيَ فَرَسٌ خُزَزَ فِيهِ نَظَرٌ، فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ خُزَزَ بَعْدَ الْحَارِثِ بَزْمَانٍ.

١٤٥ - مَا شَكَّكَتُ فِيكَ، وَلَا سَتَرْتُ أَبَاكَ، وَلَا كُنْتُ إِلَّا ذَاكَ

يعني لو تجملت بهذه الذخائر لما تدلّس على أمرك، ولا خفي عني نسبك الذي أعرفه قبل الآن.

١٤٦ - وَهَبَكَ سَامِيَتَهُمْ فِي ذُرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ، وَجَارِيَتَهُمْ فِي غَايَةِ

الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ

المساماة: المماثلة في السمو. والذروة: أعلى الشيء، ومنه ذروة السنام.

والمجد: التوسع في الكرم والجلالة، وأصل المجد من قولهم: مَجَدْتُ الْإِبِلَ؛ إِذَا حَصَلَتْ فِي مَرْعَى كَبِيرٍ وَاسِعٍ، وَأَمَجَدَهَا الرَّاعِي.

(١) أمال القالي ٣: ٢٦، أمالي المرتضى ١: ١٢٦.

(٢) البيان والتبيين ٣: ٣١٧.

والحسب: ما يعدّه الإنسان من مفاخره، ويحسبه من مفاخر آبائه، قال ابن الأعرابي: الحسب والكرم يكونان في المرء وإن لم يكن له آباء لهم شرف. والظرف: الكيس. والأدب: جَمْعُ أنواع من المحاسن، مأخوذ من المأدبة، وهي الجمع على الطعام والدعاء إليه، ومنه سُمِّيَ الأديب الجامع لفنون كثيرة، [كالنظم والنثر والعلم والأدب والتفنن في كل مقولة]^(١).

١٤٧ - أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَيَّ بَيْتَ قَعِيدَتِهِ لَكَاعٍ، إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبَ خَالِي الذَّرَاعِ!

القعيدة: امرأة الرجل، كأنها مُقَاعِدَتُهُ. وَلَكَاعٍ: اللئيمة النفس، مبنية على الكسر. والعزب: البعد عن الزوجة، مأخوذ من العازب في طلب الكلاء، وهو المتباعد. وخالي الذراع؛ مثل خالي اليد، كناية عن الفراغ. والمعنى: لو أنك جامع للمحاسن، أَلَسْتَ متزوّجاً! وكلّ من شئتَ من هؤلاء القوم الذين يختارون صحبتي عزب. فكيف أفصلك عليهم!

وقوله: "إلى بيت قعيدته لكاع". وهو نصف بيت من شعر الحُطَيْيئة، وهو قوله: أَطَوَّفُ مَا أَطَوَّفُ ثُمَّ آوِي إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لَكَاعٍ

[الحُطَيْيئة]

واسم الحُطَيْيئة جَرُول بن أَوْس بن مالك العبسي، والحُطَيْيئة: لقب وقع عليه. قيل: لِقَصْرِهِ من الأرض. وقيل: لَأَنَّهُ ضَرَطَ يوماً، فقيل له: ما هذا؟ فقال: إِنَّمَا حَطَّأْتُ حُطَيْيئة^(٢). وكان من أكبر الشعراء المخضرمين، أدرك الجاهلية والإسلام، والغالب على شعره الهجاء، وكان دنيء النفس والهمّة؛ قَدِمَ المدينة فمَشَى أشرافها بعضهم إلى بعض، وقالوا: قَدِمَ علينا هذا الرجل، وهو شاعر، والشاعر يظنّ فيحقّق، فيأتي الرجل منكم، فإن أعطاه جَهْدَ نفسه [بَهْرَهَا]^(٣) وإن حرمه هجاه. فأجمع رأيهم على أن يجعلوا له شيئاً من بينهم، فجمعوا له أربعمئة دينار وأتوه، وقالوا: هذه صلة آل فلان، وآل فلان، وآل فلان، فأخذها وظنّوا أنهم كفوه عن المسألة، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل الإمام قائلاً: مَنْ يَحْمِلُنِي عَلَى بَغْلَيْنِ كَفَاهُ اللهُ كَبَّةً^(٤) جَهَنَّمَ^(٥).

(١) من ط.

(٢) حُطَيْيئة: تصغير حطأة؛ فعلة، من قولهم: حطأ حطأ، إذا ضرط.

(٣) من الأغاني، أي كلف نفسه فوق طاقتها.

(٤) كبة النار: صدمتها.

(٥) الأغاني ٢: ١٦٤ (طبعة دار الكتب).

وحكى أبو عبيدة، قال: مضى الحُطِيبَةُ إلى عُتَيْبَةَ^(١) بن النّحاس، فسأله، فقال: ما أنا على عمل فأعطيك، ولا في مالي فضلة عن قومي، فقال له: فلا عليك. ثم أنصرف. فقال بعض قومه: عَرَضْنَا ونفسك للشر! فقال: كيف؟ قالوا: هذا الحُطِيبَةُ وهو هاجينا أخبث هجاء، قال: ردّوه، فردّوه إليه، فقال: كتمنّا نفسك؛ كأنك تطلب^(٢) العِللَ علينا! اجلس ولك عندنا ما يسرّك، فجلس فقال له: مَنْ أشعر الناس؟ فقال: الذي يقول:

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرَضِهِ يَفْرُهُ وَمَنْ يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمَ^(٣)
فقال عُتَيْبَةُ: هذا والله من مقدمات أفاعيك، ثم قال لوكليه: أذهب به إلى السوق، فلا يطلب شيئاً إلا أشتريته، فجعل يعرض عليه الخزّ والرقيق من الثياب فلا يريدها، فيعرض الأكسية الغلاظ والكرابيس^(٤) فيشتريها. ثم مضى، فلما جلس عُتَيْبَةُ في نادي قومه، أقبل الحُطِيبَةُ وقال:

سُئِلْتُ فَلَمْ تَبْخُلْ وَلَمْ تُعْطِ طَائِلًا فَسَيَّانٍ لَا ذِمَّ عَلَيْكَ وَلَا حَمْدُ^(٥)
ثم ركض فرسه، وولّى^(٦).

وحكى أن الزُّبْرَقَانِ بن بدر كان عاملاً على صدقات قومه، فورد في سنة مجدبة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليؤدّي ما أجمع من الصّدقة، فلقي الحُطِيبَةُ ومعه زوجته وبناته، فقال له الزُّبْرَقَانُ -وقد عرفه ولم يعرفه الحُطِيبَةُ: أين تُريد؟ قال: العراق. فقد حطمتنا هذه السّنة. قال: وما تصنع؟ قال: وددتُ أن أصادف رجلاً يكفيني مئونة عيالي، وأصفيه^(٧) مدحي ما حييت، فقال له الزُّبْرَقَانُ: فهل كل فيمن بوسعك لبناً وسمناً^(٨)، ويجاورك أحسن جوار؟ فقال الحُطِيبَةُ: هكذا وأبيك العيش، [وما كنتُ أرجو هذا كله]^(٩) فقال: قد أصبته، قال: عند مَنْ؟ قال: عندي، قال: ومن أنت؟ قال: الزُّبْرَقَانُ بن بدر، قال: فأين محلّك؟ قال: أركب هذه الإبل قال: وأستقبل مطلع الشمس، وأسأل عن القمر -يريد الزُّبْرَقَانُ، فإنه من أسماء القمر،

(١) ط: "عبيد"؛ وأثبت ما في ت والأغاني.

(٢) ت: "تريد"؛ وأثبت ما في ت والأغاني.

(٣) لزهر، ديوانه ٣٠. يفره: يتمه ولا ينقصه.

(٤) الكرابيس: جمع كرباس، وهو ثوب من القطن الأبيض.

(٥) بعده في الأغاني:

وَأَنْتَ أَمْرٌ لَا الْجُودُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ فَتُعْطِي، وَلَا يَعْدِي عَلَى النَّائِلِ الْوُجْدُ

(٦) الأغاني ٢: ١٦٨.

(٧) أصفيه: أخلصه.

(٨) الأغاني و"د": "وتما".

(٩) من الأغاني.

وسُمِّيَ به لحسنه - وسرَّ إلى أم هند بنت صعصعة - يعني زوجته - ففعل وأكرمه المرأة، فبلغ ذلك بغيص بن عامر بن شماس - وكانوا ينافسون^(١) الزُّبرقان - فأرادوه على جوارهم فأبى، فدسُّوا إلى امرأة الزُّبرقان؛ أنه يريد أن يتزوج مُليكة ابنة الحُطيئة - وكانت جميلة - فقصَّرت في حق الحُطيئة، وظهر له منها الجفاء، فانتقل إلى بني شماس فضربوا له قُبَّةً، وضربوا له أثاثاً، وربطوا له بكل طُنْب جُلَّة، وأراحوا عليه إبلهم وكسوه.

ثم ورد الزُّبرقان فقال "ردُّوا عليَّ جاري، فأبوا، وكاد يكون بينهم حرب، فقال أهل الرأي منهم: خيروه، ففعلوا ذلك، فاختر بغيصاً، فصار يمدحهم، وهم يطلبون منه هجاء الزُّبرقان فيمتنع، إلى أن أرسل الزُّبرقان إلى رجل من التَّمَر، فهجا بغيصاً، فحينئذ قال الحُطيئة يهجو الزُّبرقان ويناضل عن بغيص:

والله ما معشرٌ لاموا أمراً جُنُباً^(٢) في آلٍ لأبي بن شماسٍ بأكياسٍ
لَمَّا بدا لي منكم غشٌّ أنفُسُكم^(٣) ولم يكن لجراحي منكم آسي
أزمتُ يأساً مبيناً من نوالكم ولكن يُرى طارداً للحرِّ كالياسِ
دع المكارم لا ترحلْ لبغيتها وأقعد فإنك أنت الطَّاعِم الكاسي
مَنْ يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العُرفُ عند الله والنَّاسِ
فأستعدى عليه الزُّبرقان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر للزُّبرقان:

ما أرى هَجَوْاً ولكن معاتبة. فقال الزُّبرقان: أما تبلغ مروءتي إلا أن أكل وألبس! فقال عمر رضي الله عنه: عليَّ بحسان؛ فجيء به، فسأله: أهجاه؟ قال: لا، بل سلَّح عليه بعد أن أكل الشُّبرم^(٤)، فأمر عمر بقطع لسان الحُطيئة ليرهبه. فقال: يا أمير المؤمنين، والله لقد هجوتُ أبي وأمي وزوجتي ونفسي؛ فضحك عمر وقال: ما قلت؟ قال: قلتُ في أبي وأمي:

ولَقَدْ رأيتُكِ في النِّساء فسؤتِني وأبا بنيكِ فساءني في المجلسِ
وقلتُ في زوجتي:
أطوَّفُ ما أطوَّفُ ثم آوي إلى بيتٍ قعيدُته لكَاع
وقلتُ في نفسي:
أرى لي وجهاً قَبَّحَ الله خلقه فقبَّحَ من وجهه وقُبَّحَ حامِله

(١) الجلة وعاء من خوص يتخذ للتمر.

(٢) الجنب: الغريب.

(٣) الأغاني: "غيب أنفسكم".

(٤) الشُّبرم: حب يشبه الحمص، يُطبخ ويُشرب مائه للتداوي. وقيل: إنه نوع من الشَّيح.

فأمر به عمر فحُيسَ في بئر وغطَّاه، فقال:

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرِّحٍ حُمِرِ الْحَوَاصِلُ لَا مَاءً وَلَا شَجَرٌ^(١)
أَلْقَيْتُ كَاسَبَهُمْ فِي قَعْرِ مَظْلَمَةٍ فَأَغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ^(٢)

فأخرجه، ثم قال: إِيَّاكَ وهجاء الناس! قال: إذا يموت عيالي جوعاً. فقال: إِيَّاكَ والمقدِّع! قال: وما هو؟ قال: أن تخاير بين الناس، قال: فأنت والله أهجى مني؛ فسلمه إلى الزُّبرقان، فشدَّ في عنقه حبلاً، فعارضته غطفان وسألته أن يهبه لهم، ففعل، ثم اشترى منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعراض الناس بثلاثة آلاف درهم، ولم يزل مقيماً بالبادية إلى أن توفِّيَ في خلافة عمر رضي الله عنه.^(٣)

ولما حضرته الوفاة قالوا له: يا أبا مُلَيْكَةَ، أوص، فقال: ويلٌ للشَّعر من رُؤَاة السَّوء! فقالوا له: أوصِ يرحمك الله! قال: أبلغوا أهلَ امرئ القيس أن صاحبهم أشعرُ الناس بقوله: "فيا لك من ليل"، فقالوا له: أوصِ^(٤) فقال:

الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَلَّمُهُ إِذَا رَتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ
زَلْتُ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ يَرِيدُ أَنْ يُعَرِّبَهُ فَيُعْجِمُهُ^(٥)

(١) في ن: "خص".

(٢) بعده في الأغاني:

أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النَّهْيِ الْبَشَرُ
لَمْ يُؤْثِرْوكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا لَكِنْ لَأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِكَ الْأَثَرُ
(٣) انظر الأغاني ٢: ١٧٩ وما بعدها.

(٤) في الأغاني "أوصِ رحك الله يا حُطَيْيَّة؛ قال: مَنْ الَّذِي يَقُولُ:
إِذَا أَنْبَضَ الرَّامُونَ عَنْهَا تَرَنَّمْتُ تَرَنَّمْتُ كُلِّي أَوْجَعْتُهَا الْجَنَائِزُ
قالوا: الشماخ، قال: أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب، قالوا: ويحك! أهذه وصية! أوصِ بما ينفعك، قال:
أبلغوا أهل ضابئ أنه شاعر حيث يقول:

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَدَّةٌ غَيْرَ آتِيَةٍ وَجَدْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذٍ
قالوا: أوصِ ويحك بما ينفعك! قال: أبلغوا أهل امرئ القيس أنه أشعر العرب حيث يقول:
فِيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْوَمَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْقَتْلُ شُدَّتْ بِيذُ بُلٍ
قالوا: اتَّقِ اللَّهَ ودع عنك هذا، قال: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول:
يُعْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرَّ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
قالوا: "هذا لا يُغني عنك شيئاً، فقل غير ما أنت فيه".

(٥) بعده في الأغاني: قالوا: هذا مثل الذي كنت فيه، فقال:
قَدْ كُنْتُ أَحْيَاناً شَدِيدَ الْمُعْتَمِدِ وَكُنْتُ ذَا غَرْبٍ عَلَى الْخَصْمِ الْأَلَدِ
* فوردت نفسي وما كانت ترد *

قالوا: أَلَك حاجة؟ قال: لا، ولكن أخشى على المَدَحِ الجيد يُمدح به مَنْ ليس له أهلاً^(١)، قالوا: أتوصي للفقراء بشيء؟ فقال: بالإلحاح في المسألة، فإنها تجارة لن تَبُورَ، وأنت المسؤول أضيّق. ثم مات^(٢).

ومن محاسن شعره قوله:

جَزَى الله خيراً والجزاء بكفِّهِ عَلَى خَيْرِ ما يجزي الرِّجَالُ بَغِيضاً^(٣)
فلو شاءَ إِذْ جَنَّاهُ ضَنْ فُلْمِ يَلْمُ وصادَفَ مَنّا في البلادِ عريضا
هذا معنى حسن غريب، يقول: كثرت محاسنه، فأستغنى أن يكثر مادحيه وأنه لو مُنِعَ أو أساء واحدةً لكانت له في البلاد حسنات كثيرة تكفيه، ولا يصدقُ هاجيه.

ومن محاسن شعره قوله:

فَتَى غيرُ مفراح إِذْ الخَيْرُ مَسَّهُ وَمَنْ نَكَبَاتِ الدَّهْرِ غَيْرُ جَزُوعٍ^(٤)
كَثِيرُ النَّدَى إِنْ تَأْتَتْه بصنيعةٍ إِلَى مالِهِ لَمْ تَأْتِهِ بِشَفِيعِ
وقوله في أبي موسى الأشعري:

وَجَحَفَل كَسَوادِ اللَّيْلِ مُنْتَجِعٍ أَرْضُ العَدُوِّ بِيُوسٍ بَعْدَ إِنْعامٍ^(٥)
مِنْ كُلِّ أَجْرَدٍ كَالسَّرْحَانِ أَتْرَزُهُ مَسَحَ الأكْفُ وَسَقَى بَعْدَ إِطْعَامِ
مُسْتَحْقَبَاتٍ رَوَاياها جَحَافِلُهَا يَسْمُو بِها أَشْعَرِيٌّ طَرَفُهُ سَامِي
الروايا: الإبل التي تحمل الأثقال تجنب الخيل إليها، فتضع جحافلها على أعجاز الإبل مكان الحقائق لطولها، فكأنها مستحبة لها. وكان الحُطَيْئة قد سأل أبا موسى أن يكتبه في الجيش، فقال: تمت العِدَّة، فمدحه بهذه القصيدة فكتبه، فبلغ عمر فلامه على ذلك، فقال: اشتريت عُرْضِي منه، فقال: أحسنت.

وقوله:

وَفَتِيانٍ صَدَقَ مِنْ عَدِيٍّ عَلَيْهِمْ صَفائِحُ بُصْرَى عُلِّقَتْ بِالْعَوَائِقِ^(٦)

(١) بعده في الأغاني: "قالوا: فمن أشعر الناس؟ فأوماً بيده إلى فيه، وقال: هذا الجحير إذا طمع في خير - يعني فمه - واستعبر باكياً، فقالوا له: قل: لا إله إلا الله، فقال:

قَالَتْ وَفِيهَا حَيْدَةٌ وَدُعْرُ عَوْدُ بَرَبِي مِنْكُمْ وَحُجْرُ

فقالوا له: ما تقول في عبيدك وإمائك؟ فقال: هم عبيدكن ما عاقب الليل والنهار.

(٢) الخبر في الأغاني ٢: ١٩٥ - ١٩٧، وفيه زيادة وتفصيل.

(٣) ديوانه ١٥.

(٤) ديوانه ٨٧.

(٥) ديوانه ٣٥.

(٦) ديوانه ملحق ١٧.

إِذَا مَا دُعُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ
وَقَوْلُهُ:

سِيرِي أُمَامُ فَإِنَّ الْمَالَ يَجْمَعُهُ
نُسْرِي إِلَى ضَوْءِ أَحْسَابٍ أَضَاءَ لَهَا
وَقَوْلُهُ:

أَتَتْ آلَ شَمَّاسٍ بَنَ لَأَيٍّ وَإِنَّمَا
أَقْلَلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبْيَكُمُ
أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبُنَى
وَإِنْ كَانَتْ النِّعَمَاءُ فِيهِمْ جَزَوْا بِهَا
وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جَهْلٍ حَادِثٍ
شَيَاطِينُ فِي الْهَيْجَا مَكَاشِيفُ لِلدَّجَى
وَتَعَذَّلْنِي أَبْنَاءَ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ
وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمْتُ سَعْدُ

١٤٨ - وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرْدُ بِهِ مَمَّنْ لَا أَغْلَبُ إِلَّا عَلَى الْأَقْلِّ الْأَخْسِ مِنْهُ!

هذا تفسير لما تقدم من الكلام، فإن الذي تنفرد به العزب، والذي يغلب على الأقل منه المتزوج.

وَالْغَلَبُ: الْإِسْتِيلَاءُ عَلَى الشَّيْءِ، كَأَنَّهَا لَا تَسْتُولِي إِلَّا عَلَى مَا فَضَلَ مِنْ زَوْجَتِهِ.

١٤٩ - وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ، وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ، وَالنَّفْسِ

الْمَضْرُوفَةِ إِلَيَّ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَيَّ

كل هذه الألفاظ كناية عن كثرة النكاح المعجب للنساء.

حكى بعض الغزاة مع فتية قال: لما فتحنا بلد كذا من الروم سبيت امرأة منهم،

فواقعته في ليلة سبع مرات، فقالت: أكل العرب تفعل هذا؟ قلت: نعم، قالت: بهذا العمل نصروا علينا!

(١) ديوانه ٨٩.

(٢) ديوانه ١٩. الحسب العد: القديم.

١٥٠ - وَيَيْنَ آخَرَ قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ضُرَاطُهُ

الكلام معطوف على ما قبله، وهذه الألفاظ كناية عن عَجَز الرجل عن النِّكاح إذا شاخ وضعف، وهو مأخوذ من قول بعض العرب وقد أَسَنَّ، وسئل عن حاله فقال: والله لقد ذهب مِنِّي الأَطْيَان، وهما: الجِماع والنوم، وبقيَ فِي الأَرطَبَان وهما: السُّعال والضُّراط.

١٥١ - وَهَلْ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ وَسُوءُ الْكِيلَةِ

يعني لو وَصَلْتُكَ لاجتمع عليَّ سوء منظرِكَ، وسوء مخبرِكَ؛ وهذا مثلٌ للعرب يُضْرَب في الخَلْتَيْن السَّيِّئَيْن يجتمعان، ويقال: إِنَّهُ لَعَمْرُو بن معدٍ يَكْرِب، والحشْف: أَرْدأُ التمر. والكيلَة: فَعْلَة من الكَيْل، وهي تَدَل على الهيئَة، نحو الجلِسة، والرَّكبة، فليعلم ذلك.

١٥٢ - وَيَقْتَرِنُ عَلَيَّ بِكَ إِلَّا الْغُدَّةُ، وَالْمَوْتُ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّة!

هذا مثلٌ آخر في معنى الأول، وقائله عامر بن الطُّفَيْل عندما توعَّد رسول الله ، فدعا عليه، وقال: "اللَّهُمَّ اكْفِنِي عامراً بما شئت"، فظهر في رقبتِه غُدَّة مات منها في بيت امرأة من سُلُول، وجعل يقول: غُدَّة كغُدَّة البعير، وموت في بيت سَلُولِيَّة^(١)! وقد تقدَّم خبره^(٢).

١٥٣ - تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمَ بْنَ عَمْرٍو

أَذَلَّ الْحِرْصُ أَغْنَاكَ الرَّجَالَ

[أبو العتاهية]

هذا البيت لأبي العتاهية، وأسمُّه إسماعيل بن القاسم بن سويد [بن كيسان]، مولى عَنَزَة، ومنشؤه الكوفة.

وهو من الثلاثة المطبوعين الذين لا يُقَدَّر على جمع شعرهم لكثرة: بشار، والسيد الحِمَيْرِي، وأبو العتاهية.

كان أوَّل أمره بيع الجِرار على رأسه، ثم تولَّع بالنَّظم، وكان فيه من العجائب؛ قيل له: كيف تقول الشعر؟ قال: ما أردتُه قطُّ إلا تمثَّل لي فأخذ منه ما أريد، وأترك ما لا أريد.

(١) الميداني ٢: ٣.

(٢) ص ١٦٧.

وكان أبو نؤاس يقول: ما رأيته قطُّ [إِلَّا] ^(١) تمثّل لي أنه سماويّ، وأنني أَرْضِيّ. وأكثرُ شعراً أبي العتاهية في الزُّهد، وكان قد تنسَّك وتزهد إلى أن مات.

قال أحمد بن الحارث: كان مذهبُ أبي العتاهية القولُ بالتوحيد، وأن الله تعالى خلق جوهرين متضادين لا من شيء؛ ثم إن الله تعالى بنى العالم هذه البنية منهما، وأنَّ العالمَ حديث العين والصفة ^(٢) لا يُحدثُ له إلا الله؛ وكان يزعمُ أنَّ الله سيعيد كلَّ شيء إلى الجوهرين المتصلين قبل أن تنفَى الأعيانُ جميعاً؛ وكان يقول بالوعيد، وتحريم المكاسب؛ وكان يتشيع ^(٣) على مذهب الزيدية، ولا ينتقص أحداً، ولا يرى الخروج على السلطان.

وكان مجبراً ^(٤)؛ حدّث الجاحظ، قال: قال أبو العتاهية لثامة بن أشرس بين يدي المأمون - وكان كثيراً ما يعارضه بقوله في الأخبار: أسألك عن مسألة، فقال له المأمون: عليك بشعرك! فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في مسألته ^(٥)، ويأمره بإجابتي! فقال: أجبه إذا سألت، قال: أنا أقول: [إن] ^(٦) ما يفعله العباد من خيرٍ وشرٍّ فهو من الله تعالى، وأنت تأبى ذلك، فمن حرَّكَ يدي هذه؟ وجعل أبو العتاهية يحركها، فقال له ثامة: حرَّكها من أمه زانية، فقال: شتمني والله يا أمير المؤمنين. فقال ثامة: ناقض الماصَّ بظُر أمه، فضحك المأمون، وقال: ألم أقل لك تشتغل بشعرك وتدع ما ليس من عملك!

قال ثامة: فلقيني، فقال لي: يا أبا معن، أما أغناك الجواب عن السَّفه! فقلت: إن من أتمَّ الكلام ما قطع الحجَّة، وعاقب على الإساءة، وشفى من الغيظ، وانصر من الجاهل ^(٧).

وحدّث أبو شعيب صاحب ابن أبي داود، قال: قلت لأبي العتاهية: القرآن عندك مخلوقٌ أو غير مخلوق؟ قال: سألتني عن الله أو عن غير الله؟ قلت: من غير الله؛ فأمسك، فأعدت عليه، فأجابني هذا الجواب، حتى فعَلَ ذلك مراراً، فقلت: ما لك لا تجيبني! قال: قد أجبتُ ^(٨) ولكنك حمار.

وحدّث ثامة بن أشرس، قال: كان أبو العتاهية شديد البُخل، فأنشدني ذات يوم أبياتاً له في ذمِّ البُخل، يقول فيها:

(١) من ت والأغاني ٤: ١ (طبعة دار الكتب).

(٢) الأغاني: "والصنعة".

(٣) ت الأغاني: "ويتشيع".

(٤) أي منسوباً إلى الجبر؛ وهو القول بأن الله يجبر العباد على الذنوب؛ أي يكرههم عليها.

(٥) ط: ٨ "مسألتي"؛ والصواب ما أثبتته من ت والأغاني.

(٦) من ت والأغاني.

(٧) الأغاني ٤: ٦.

(٨) ت: "فعلت".

أَلَا إِنَّمَا مَالِي الَّذِي أَنَا مُنْفِقٌ وَلَيْسَ لِي الْمَالُ الَّذِي أَنَا تَارِكُهُ

فقلت له: مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَ هَذَا الْقَوْلَ^(١)؟ قَالَ: مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "لَيْسَ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ أَعْطَيْتَ فَأَمْضَيْتَ"؛ فقلت له: أَتَوْثِقُ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ إِنَّهُ الْحَقُّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فَلِمَ تَحْبِسُ عِنْدَكَ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ بَدْرَةً^(٢) لَا تَأْكُلُ مِنْهَا، وَلَا تُنْفِقُهَا، وَلَا تَقْدِمُهَا ذَخْرًا لِيَوْمٍ فَاقَتِكَ! فَقَالَ: يَا أَبَا مَعْنٍ، وَاللَّهِ إِنَّ مَا تَقُولُ هُوَ الْحَقُّ، وَلَكِنِّي أَخْشَى^(٣) الْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ إِلَى النَّاسِ، قُلْتُ: وَبِمَ تَزِيدُ حَالَ مَنْ أَفْتَقَرَ عَلَى حَالِكَ! وَأَنْتَ دَائِمُ الْحَرْصِ وَالْجُمُعِ، وَالشَّخِّ عَلَى نَفْسِكَ، لَا تَشْتَرِي اللَّحْمَ إِلَّا مِنْ عِيدٍ إِلَى عِيدٍ. فَتَرِكَ جَوَابَ كَلَامِي كُلَّهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَشْتَرَيْتُ فِي يَوْمٍ عَاشُورَاءَ لَحْمًا وَتَوَابَلَهُ وَمَا يَتْبَعُهُ بِأَرْبَعَةِ دِرَاهِمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ هَذَا الْمَقُولَ أَضْحَكَنِي وَأَذْهَلَنِي، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِّنْ شَرَحِ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ^(٤).

وَتُوِّفِي سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةٍ وَمِائَتَيْنِ بِبَغْدَادٍ هُوَ وَإِبْرَاهِيمُ الْمُوصِلِيُّ وَأَبُو عَمْرٍو الشَّيْبَانِيُّ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ. وَقِيلَ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ: أَيُّ شَيْءٍ تَشْتَهِي؟ قَالَ: أَنْ يَأْتِيَ مَخَارِقُ وَيُضَعَ فَمِي عَلَى أُذُنِي وَيَغْنِيَنِي بِقَوْلِي:

سَيَعْرِضُ عَنْ ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلْخَلِيلِ خَلِيلٌ^(٥)
إِذَا مَا أَنْقَضَتْ عَنِّي مِنَ الدَّهْرِ مَدَّتِي فَإِنَّ عَزَاءَ الْبَاكِيَاتِ قَلِيلٌ
وَمِنْ مَحَاسِنِ شَعْرِهِ قَوْلُهُ:

جَرَّ الْبَخِيلُ عَلَيَّ صَالِحَةً عَنِّي لِخِفَّتِهِ عَلَى فِكْرِي^(٦)
مَا فَاتَنِي خَيْرٌ أَمْرِيءٍ حَمَلْتُ عَنِّي يَدَاهُ مَوْوَنَةَ الشُّكْرِ
وَقَوْلُهُ:

عَذِيرِي مِنَ الْإِنْسَانِ لَا إِنْ جَفَوْتُهُ صَفَا لِي وَلَا إِنْ كُنْتُ طَوَعَ يَدَيْهِ
وَإِنِّي لَمُحْتَاجٌ إِلَى ظِلِّ صَاحِبٍ يَرُوقُ وَيَصْفُو إِنْ كَدَرْتُ عَلَيْهِ
كَانَ الْمَأْمُونُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: خُذُوا مِنِّي الْخِلَافَةَ وَأَعْطُونِي هَذَا الصَّاحِبَ.

(١) الأغاني: "فمن أين قضيت بهذا؟".

(٢) البدره: عشرة آلاف درهم.

(٣) في ت: "أخاف".

(٤) الأغاني ٤: ١٦.

(٥) الأغاني ٤: ١٩.

(٦) البيت الثاني من أبيات ثلاثة في ديوانه ١١٧.

وقوله:

إِنِّي أَمَنْتُ مِنَ الزَّمَانِ وَرِيْبِهِ
لَوْ يَسْتَطِيعُ النَّاسُ مِنْ إِجْلَالِهِ
إِنَّ الْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِأَنَّهَا
فَإِذَا وَرَدْنَ بِنَا وَرَدْنَ مُخَفَّاةً

وقوله:

كَأَنَّكَ عِنْدَ الْكَرِّ فِي الْحَرْبِ إِنَّمَا
فَمَا آفَةُ الْأَبْطَالِ غَيْرُكَ فِي الْوَعَى

وقوله:

بَكَيْتُكَ يَا عَلِيٌّ بِدَمْعِ عَيْنِي
وَكَأَنْتَ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ

وقوله:

لَا تَأْمَنْ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفْسٍ
تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ طَرِيقَتَهَا^(٥)

وقوله:

أَلَا إِنَّنَا كُلُّنَا بَائِدٌ
فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الْإِلَـهَ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ

وقوله:

مَا إِنْ يَطِيبُ لِذِي الرِّعَايَةِ
إِذْ كَانَ يُسْرِفُ فِي مَسَرَّتِهِ

(١) ديوانه ٣١٧.

(٢) ديوانه ٣١٧، من أبيات يمدح فيها مزيد الشيباني.

(٣) ديوانه ٣٢٩.

(٤) ديوانه ١٣٣.

(٥) الديوان: "مسالكها".

(٦) ديوانه ٦٩.

(٧) ديوانه ٢٩٦.

كان ابن مخلد يقول: إن هذين البيتين لروحانيان يطيران بين السماء والأرض.
وقوله أيضاً:

النَّاسُ فِي غَفَلَاتِهِمْ وَرَحَا الْمَنِيِّ تَطْحَنُ^(١)
وقوله:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعْتِقْ مِنَ الْمَالِ رِقَّةً تَمْلِكُهُ الْمَالُ الَّذِي هُوَ مَالِكُهُ^(٢)
إِلَّا إِنَّمَا مَالِي الَّذِي أَنَا مُنْفِقٌ وَلَيْسَ لِي الْمَالُ الَّذِي أَنَا تَارِكُهُ
إِذَا كُنْتُ ذَا مَالٍ فَبَادِرْ بِهِ الَّذِي يَحِقُّ وَإِلَّا اسْتَهْلَكْتَهُ هُوَ الْكُفَّةُ
وقوله:

أَكُلَّ يَوْمٍ طَوْلَ الزَّمَانِ إِذَا جِئْتُكَ فِي حَاجَةٍ تَقُولُ: غَدَا!
لَا جَعَلَ اللَّهُ لِي إِلَيْكَ وَلَا عِنْدَكَ مَا عِشْتَ حَاجَةً أَبَدَا
وقوله في الشعر الذي ذُكِرَ بسببه، يخاطب سلماً الخاسر حيث يقول فيه:

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاكَ الرَّجَالِ^(٣)
هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى الزَّوَالِ!

١٥٤ - مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ، وَتَرْبِعَ بِذَلِكَ عَلَى ظُلْعِكَ!

ما أخلقك، أما أولاً؛ يقال: فلان خليف بكذا، أي كأنه مخلوق فيه، مجبول عليه.
وتقدير بذرعك، أي تقيس الأمر بجهدك قبل أن تفعله. والذرع: الجهد. ومنه ضاق
فلاناً ذرعاً؛ وأصل الذرع بسط اليد؛ كأنه جهد في بسطها.
وتربع على ظلعك، مثل للعرب، يُضْرَبُ لِمَنْ يُكَلِّفُ نَفْسَهُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَالظَّلْعُ
فِي الْبَعِيرِ: الْغَمَزُ فِي مَشْيِهِ، وَيُسْتَعَارُ لغيره، وَرَبَعَ إِذَا قَامَ؛ فَالْمَعْنَى: أَقِمْ عَلَى ضَعْفِكَ، وَارْفُقْ
بِنَفْسِكَ.

وقال آخر: قولهم: أربع على ظلعك، أي أحمل الحَجَرَ على قدر قدرتك. ويقولون
إيضاً: ارقْ على ظلعك؛ لأن الراقي في جبل أو سلّم إذا كان ظالماً يرفق بنفسه.
وقال آخر: قولهم: أربع على ظلعك، أي أحمل الحَجَرَ على قدر جهدك، فإن الحجر
يُسَمَّى ربيعةً، وهو قول متعمّق.

(١) ديوانه ٢٦٧.

(٢) ديوانه ١٩١.

(٣) ديوانه ٢٠٦.

١٥٥ - وَلَا تَكُنْ بَرَاقِشَ الدَّالَّةِ عَلَى أَهْلِهَا

[حديث براقش]

هذا مثلٌ يُضْرَبُ لمن يعمل عملاً يرجع ضرره عليه، وأختلف الأقوال فيه. فقال قومٌ وهم الأكثر: بَرَاقِشُ أَسْمُ كَلْبَةٍ نَبَحَتْ قوماً قصدوا الغارة على قوم، فخُفِيَ عليهم مكانُهُمْ، فلما نَبَحَتْ الكلبة عرفوهم فاجتاحوهم، فقالت العرب: أشأم من براقش، وعلى أهلها تَجْنِي بَرَاقِش.

وقال أبو عمرو بن العلاء: بَرَاقِشُ أَمْرَأَةٌ كَانَتْ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ، فَسَافَرَ الْمَلِكُ وَاسْتَخْلَفَهَا، وَكَانَ لَهُمْ مَوْضِعٌ إِذَا فَرَعُوا دَخَنُوا فِيهِ فَإِذَا أَبْصَرَهُ الْجُنْدُ اجْتَمَعُوا، وَإِنَّ جَوَارِيهَا عَبَسْنَ لَيْلَةً فَدَخَنَ فَجَاءَ الْجُنْدُ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَالَ لَهَا نَصَحَاؤُهَا: إِنَّ رَدْدِيهِمْ وَلَمْ تَسْتَعْمِلِيهِمْ فِي شَيْءٍ، وَدَخَنْتِ مَرَّةً أُخْرَى لَمْ يَحْضُرُوا؛ فَأَمَرْتَهُمْ^(١) فَبَنَوْا بِنَاءً دُونَ دَارِهَا، فَلَمَّا جَاءَ الْمَلِكُ سَأَلَ عَنِ الْبِنَاءِ، فَحَدَّثُوهُ بِالْقِصَّةِ، فَقَالَ: عَلَى قَوْمِهَا تَجْنِي بَرَاقِش.

وحكى الشرقي عن لقمان حكاية أخرى في هذا المعنى، وهي تقارب هذه. والأولى أقرب إلى المعنى.

١٥٦ - وَعَنْزُ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةُ لِحَتْفِهَا

هذا أيضاً مثلٌ يُضْرَبُ لمن يُعِينُ عَلَى ضَرَرِ نَفْسِهِ، وَأَصْلُهُ أَنَّ رَجُلًا وَجَدَ عَنَزًا، فَأَرَادَ ذَبْحَهَا فَلَمْ يَجِدْ سَكِينًا، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَحَثَ الشَّاةَ بِظِلْفِهَا، فَاسْتَثَارَتْ سَكِينًا فَذَبَحَهَا بِهَا.

١٥٧ - فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَقَطَ بِكَ الْعِشَاءُ عَلَى سِرْحَانٍ

مثلٌ يُضْرَبُ لمن أرادَ أَمْرًا فَوَقَعَ عَلَى حَتْفِهِ^(٢)، وَأَصْلُهُ أَنَّ دَابَّةً خَرَجَتْ تَطْلُبُ عِشَاءً، فَوَجَدَهَا ذَنْبٌ فَأَكَلَهَا.

وقيل: رجل أعشى العين، وقع على ذنبٍ فأكله؛ وعلى هذه الرواية يكون العشاء مقصوراً.

وقيل: بل هو سِرْحَانُ بنِ قَعْنَبِ اليربوعي، كان فاتكاً، وحمى وادياً فورد عوف الأسدي، فقال: أشهد لا يمنعني سِرْحَانُ رَغِيَّ إِبْلِيَّ اللَّيْلَةَ، فَرَعَاها فَمَرَّ بِهِ سِرْحَانُ بنِ قَعْنَبِ فَقَتَلَهُ، فَقَالَ أَخُوهُ يَخَاطِبُ زَوْجَةَ الْأَسَدِيِّ:

(١) ط: "فأرت بهم"؛ والصواب ما أثبتته من ت، والميداني.

(٢) أصل المثل: "سقط العشاء به على سرحان"، وانظر الميداني ١: ٣٣١.

أَبْلِغْ صَبِيحَةً أَنْ رَاعِي أَهْلَهَا سَقَطَ الْعِشَاءُ بِهِ عَلَى سِرْحَانٍ
سَقَطَ الْعِشَاءُ بِهِ عَلَى مَتَقَمَّرٍ^(١) لَمْ يَثْبُتْ خَوْفٌ مِنَ الْحَدَثَانِ

١٥٨ - وَبِكَ لَا بَظْبِي أَغْفَرَ

هو مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلشَّمَاتَةِ بِالرَّجُلِ، يقول: نزل به المكروه ولا نزل بظبي؛ تريد أن عنايةني بالظبي أشد من عنايةني به.

والأغفر الذي لونه لون التراب، وهو العفر، وكذلك غزلان السهل، وكأنه خص الظبي بالذكر، لأن العثار والكسر سريعان إليه. وقيل: لأنه متى أصابه داء مات سريعاً.

[الفرزدق وبنو نهشل]

والمَثَلُ لِلْفَرْزَدَقِ، منظوم من أبيات تتعلق بها حكاية، وذلك أن الفرزدق كان هجاً بني

نهشل بأبيات، منها:

لَعَمْرِي لَقَدْ قَلَّ النُّهَى فِي عَدِيدِكُمْ بَنِي نَهْشَلٍ مَا لَوْ مُكُّمُ بِقَلِيلٍ^(٢)
ثم خرج سادات بني تميم، وفيهم الحُتَاتُ بن مُجَاشِعِ عَمِّ الْفَرْزَدَقِ إِلَى مَعَاوِيَةَ
فَوَصَلَهُمْ، وَتَرَكَ حُتَاتًا فَعَاتَبَهُ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: إِنِّي اشْتَرَيْتُ مِنَ الْقَوْمِ دِينَهَمُ، وَوَفَّرْتُ عَلَيْكَ
دِينَكَ، قَالَ: فَاشْتَرِ مِنِّي دِينَي أَيْضًا، فَالْحَقَهُ بِهِمْ فِي الصَّلَةِ، فَأَقَامَ يَتَنَجَّزُهَا، فَطُعِنَ فَمَاتَ، فَرَجَعَ
مَعَاوِيَةُ فِيمَا أَعْطَاهُ، فَحِينَئِذٍ قَالَ الْفَرْزَدَقُ وَهُوَ إِذَا ذَاكَ بِالْبَصْرَةِ:

أَبُوكَ وَعَمِّي يَا مُعَاوِيَ أَوْرَثَا تَرَاثَا فَأَوَّلَى بِالتُّرَاثِ أَقَارِبُهُ^(٣)
فَمَا بَالُ مِيرَاثِ الْحُتَاتِ أَكَلَتْهُ^(٤) وَمِيرَاثِ حَرْبٍ جَامِدٍ لَكَ ذَائِبُهُ
وَكَمْ مِنْ أَبٍ لِي يَا مُعَاوِيَ لَمْ يَكُنْ أَبُوكَ الَّذِي مِنْ عَبْدٍ شَمْسٍ يَقَارِبُهُ
فوجد النهشليون سبيلاً؛ فسعوا به زياد، وقالوا: هجا أمير المؤمنين، فقال زياد لعريف
بني تميم: أحضر قومك والفرزدق فيهم ليأخذوا عطاءهم، فأحس الفرزدق بالشر فهرب،
وما زال يطوف حتى أتى المدينة عائداً بسعيد بن العاص، فقال فيه من قصيدة مُنْشِداً:

(١) سقط العشاء به على متقمر؛ مثل ذكره الميداني أيضاً؛ وقال: المتقمر هو الأسد يطلب الصيد في القمراء.

(٢) ديوانه ٦٤١.

(٣) ديوانه ٤٩، ٥٠.

(٤) رواية الديوان:

تَرَى الْغُرَّ الْجَحَاحَ مِنْ فُرَيْشٍ إِذَا مَا الْأُمْرُ فِي الْحَدَثَانِ عَالَا^(١)
 قِيَامًا يَنْظُرُونَ إِلَى سَعِيدٍ كَأَنَّهُمْ يَرُونَ بِهِ هَالَا
 فَأَمَّنْهُ سَعِيدٌ؛ فَبَلَغَ زِيَادًا، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَرْضَى عَنْهُ حَتَّى يَنْتَسِبَ فِي بَنِي فُتَيْمٍ^(٢)، ثُمَّ
 قَالَ مِرْوَانَ: لِمَ تَرْضَى أَنْ نَكُونَ قَعُودًا نَنْظُرُ إِلَى سَعِيدٍ حَتَّى جَعَلْتَنَا قِيَامًا! فَقَالَ: إِنَّكَ مِنْهُمْ يَا
 أَبَا عَبْدِ الْمَلِكِ لَصَافِنٌ، فَحَقَّقَهَا عَلَيْهِ مِرْوَانٌ، فَلَمَّا عُزِّلَ سَعِيدٌ وَتَوَلَّى الْمَدِينَةَ مِرْوَانٌ، أَحْضَرَ
 الْفَرَزْدَقَ، فَقَالَ: أَنْتَ الْقَائِلُ:

هُمَا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَ بَارِزِ الرِّيشِ كَاسِرُهُ^(٣)
 فَقُلْتُ أَرْفَعُوا الْأُسْتَارَ لَا يَشْعُرُوا بِنَا وَأَقْبَلْتُ فِي أَعْجَازٍ لَيْلِ أَبَا دُرَّةٍ
 فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَتَقُولُ هَذَا بَيْنَ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! أَخْرَجَ عَنِ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَجَارَ
 بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ. ثُمَّ مَاتَ زِيَادٌ، فَبَلَغَ الْفَرَزْدَقُ أَنَّ مَسْكِينًا الدَّارِمِيَّ رثاه^(٤)، فَقَالَ -وَلَمْ يَكُنْ
 هَجَا زِيَادًا حَتَّى مَاتَ خَوْفًا مِنْهُ:

أَمْسِكِينَ أَبْكِي اللَّهَ عَيْنَكَ إِنَّمَا جَرَى دَمْعُهَا فِي بَاطِلٍ فَتَحَدَّرَا^(٥)
 أَتَبْكِي أَمْرًا أَهْلَ مَيْسَانَ كَافِرًا كَكَسْرِي عَلَى عَلِيٍّ أَوْ كَقَيْصَرَا^(٦)
 أَقُولُ لَهُ لَمَّا أَتَانِي نَعِيُّهُ بِهِ لَا يَبْطِئُ بِالصَّرِيمَةِ أَغْفَرَا

١٥٩ - أَغْدَرْتَ إِنْ أَغْنَيْتَ شَيْئًا، وَأَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا

يعني بلغت العذر في نصيحتك إن إن قبلت مني، وتركت التعرض إلي، وأسمعتك
 إن كنت حيًّا تسمع.

وهذا نصف بيت من بيتين لعمر بن معد يكرب -ويروى لدريد بن الصمة وقد تقدم
 ذكرهما؛ وعُما:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي
 وَلَوْ نَارٌ تَفْخَتْ بِهَا أَضَاءَتْ وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادٍ

(١) ديوانه ٦١٢. عال: فذح وأثقل. وفي الأغاني: "غالا".

(٢) ت: "تيم".

(٣) ديوانه ٢٦١.

(٤) وهو قوله:

رَأَيْتُ زِيَادَةَ الْإِسْلَامِ وَلَوُتْ جِهَارًا حِينَ فَارَقَهَا زِيَادُ

(٥) ديوانه ٢٤٥.

(٦) عدان، مدينة كانت على الفرات.

وبعض المتعصّين على أبي العلاء المعري يزعم أنه خرج ليلة إلى بعض مراقب موسى ، ورفع رأسه إلى السماء، وقال: يا ربّ، كلّمني فأنا أفصح من موسى؛ قال ذلك مراراً، فلم يُجِبْهُ أحد، فأنشد البيتين، وذكر أنهما من شعره؛ والحكاية باطلة في حقّه من وجوه متعددة.

١٦٠- إِنَّ الْعَصَا قَرَعَتْ لِذِي الْحِلْمِ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي

قرعت له العصا، مثل يُضْرَبُ لمن يَنْصَح، وينبّه على ما هو أصلح.
وقوله: "إن العصا قرعت"، و"الشيء تحقّره" مثلاً في التحذير منظومان في قول الحارث بن وعلّة اليشكريّ، وقد قتل بعض سادات قومه أخاه، فقال من أبيات حسنة في معناها:

أَقْتَلْتَ سَادَتَنَا بِلَا تَرَةٍ	إِلَّا لِيُتَوَهَّنَ قُوَّةَ الْعَظْمِ ^(١)
وَوَطِئْتَنَا وَطْئاً عَلَى جَنْفٍ ^(٢)	وِطْءَ الْمُقَيَّدِ نَابِتِ الْهَرَمِ ^(٣)
وَزَعَمْتَ أَنَّ لَا حُلُومَ لَنَا	إِنَّ الْعَصَا قَرَعَتْ لِذِي الْحِلْمِ
لَا تَأْمَنَنَّ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ	وَبَدَأَتْهُمْ بِالْشَرِّ وَالْغَشَمِ ^(٤)
أَنْ يَأْبُرُوا نَخْلاً لغيرِهِمْ	وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِي ^(٥)
الآنَ لِمَا أَبْيَضَ مِسْرَبَتِي	وَعَضَضْتُ مِنْ نَابِي عَلَى جِذْمٍ
تَرْجُو الْأَعَادِي أَنْ أَصَالِحَهَا	جَهْلاً تَوَهَّمُ صَاحِبُ الْكَلَمِ
قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أَمِيمَ أَخِي	فَإِذَا رَمَيْتُ يُصَيِّبُنِي سَهْمِي
فَلَيْسَ عَفْوٌ لَأَعْفُونَ جَلالاً	وَلَيْسَ أَصَبْتُ لِأَوْهَنَ عَظْمِي

(١) أبيات منها في الحماسة ١: ٢٠٣ - ٢٠٦ - بشرح التبريزي مع اختلاف في الرواية.

(٢) الحماسة: "على حق".

(٣) الهرم: ضرب من نبات الحمض.

(٤) الحماسة: "بالغشم والرمم".

(٥) أبرت النخل، أي لقمته.

[أَوَّلُ مَنْ قُرِعَتْ لَهُ الْعَصَا]

وَأَخْتَلَفَ فِيمَنْ قُرِعَتْ لَهُ الْعَصَا، وَضُرِبَ بِهِ الْمَثَلُ، فَقِيلَ: هُوَ عَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ بْنِ عَبَّادِ الْيَشْكِرِيِّ أَحَدِ حُكَّامِ الْعَرَبِ الْمَشْهُورِينَ، وَفِيهِ يَقُولُ ذُو الْإِصْبَعِ:

وَمِنْهَا حَاكِمٌ يَقْضِي فَلَا يُدْفَعُ مَا يَقْضِي^(١)

وهو أول مَنْ قَضَى فِي الْخُنْثَى؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ اخْتُصِمَ إِلَيْهِ فِي رَجُلٍ لَهُ مَا لِلْمَرْأَةِ وَمَا لِلرَّجُلِ، أَيَجْعَلُ رَجُلًا أَمْ أَمْرًا؟ فَقَالَ لَهُمْ: أَنْصَرِفُوا عَنِّي حَتَّى أَنْظُرَ فِي أَمْرِي، فَمَا نَزَلَ بِي مَثْلُهَا، فَأَنْصَرَفُوا وَبَاتَ لَيْلَتَهُ سَاهِرًا، وَكَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ تَرَعَى غَنَمَهُ يَقَالُ لَهَا: سُخَيْلَةٌ، وَكَانَ يَقُولُ لَهَا إِذَا سَرَحْتَ عَنْهُ بَكْرَةٌ: ضَحَّيْتُ^(٢) يَا سُخَيْلُ، وَإِذَا رَاحَتْ يَقُولُ: مَسَّيْتُ يَا سُخَيْلُ^(٣)، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَوَخَّرَ [السَّرْحُ]^(٤) حَتَّى يَسْبِقَ^(٥)؛ فَلَمْ يَقُلْ لَهَا شَيْئًا، وَرَأَتْ سَهْرَهُ وَفِكَرَهُ، فَقَالَتْ لَهُ: مَا عَرَاكَ؟ فَقَالَ: دَعِينِي، [أَمْرٌ لَيْسَ] مِنْ شَأْنِكَ؛ فَأَعَادَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: وَيْلَكَ! إِنَّهُ اخْتُصِمَ إِلَيَّ فِي خُنْثَى، لَهُ مَا لِلذَّكَرِ وَمَا لِلْأُنْثَى؛ فِي مِيرَاثِهِ، أَلْجَعَلُهُ أَمْرًا أَمْ رَجُلًا؟ فَقَالَتْ: لَا أَبَا لَكَ! [أَتَبِعَ الْقَضَاءُ الْمَبَالَ]، أَقْعَدُهُ فَإِنْ بَالَ مِنْ حَيْثُ يُبُولُ الرَّجُلُ فَهُوَ رَجُلٌ فَقَالَ لَهَا: "مَسَّيْتُ سُخَيْلُ بَعْدَهَا أَوْ صَبَّحِي"، فَذَهَبَتْ مَثَلًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَضَى بِالَّذِي أَشَارَتْ^(٦).

قَالَ السَّهْلِيُّ: وَهُوَ حُكْمٌ مَعْمُولٌ بِهِ فِي الشَّرْعِ، مِنْ بَابِ الْإِسْتِدْلَالِ بِالْعَلَامَاتِ. وَلَهُ مَثَلٌ فِي الشَّرِيعَةِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]. وَجْهُ الدَّلَالَةِ عَلَى الْكَذْبِ أَنَّ الْقَمِيصَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ خَرَقٌ وَلَا أَثَرٌ^(٧).

ثُمَّ إِنَّ عَامِرًا كَبِرَ وَضَعُفَ حَتَّى قَالَ فِي شِعْرِهِ:

أَرَى شَعْرَاتٍ عَلَى حَاجِبِي بِيضًا نَبْتَنَ جَمِيعًا تَوَامَا

أَظْلَلُ أَهَاهِي بَيْنَ الْكَلَا بَ أَحْسَبُهُنَّ صُورًا فِتَامَا^(٨)

(١) من قصيدة له في الأغاني ٣: ٩٢ - طبعة دار الكتب.

(٢) في ابن هشام: "صَبَّحْتُ وَاللَّهِ".

(٣) في ابن هشام: "مَسَّيْتُ وَاللَّهِ".

(٤) من ابن هشام.

(٥) في ابن هشام: "حتى يسبقها".

(٦) الخبر في سيرة ابن هشام ١: ١٣٥.

(٧) الروض الأنف ١: ٨٦، ٨٧.

(٨) الصوار: القطيع من البقر.

فقال له الثاني من ولده -وقيل أبنته: إنك ربّما أخطأتَ في حُكْمٍ فيَحْمَلُ عَنْكَ، قال: فأَجْعَلُوا لي أَمَارَةً أَتَنَبَّهُ بها حتى أَعْرِفَ الصواب، فكان يجلس قُدَّامَ بَيْتِهِ، ويجعل ابنه في البيت، ومعه عصاً، فإذا هَفَا قرع جفنه فينتبه، ويرجع إلى الصواب، فَضْرِبَ به المثل، وهو أوّل من فعل ذلك^(١).

* * *

وقيل: هو شخص^(٢) في زمن النعمان بن المنذر حذر أخاه؛ وذلك أن النعمان أَرْسَلَ شخصاً يَرْتَادُ الكَلَأَ، فأبطأ فغضب، وعزم على أن يسأله إذا وَرَدَ، فإن قال خِصْباً قتلته، وإن قال جَدْباً قتلته، وعرف بذلك أخوه، فقال للنعمان: أتأذن لي أن أُنْذِرَهُ؟ قال: لا^(٣)، قال: فأشير إليه؟ قال: لا^(٤)، قال: فأقرع له عصاً؟ قال: فأقرعها.

فلما ورد، أخذ أخوه عصاً من بعض جلسائه، وقرع بها عصاه التي كانت معه قرعاً مختلفاً^(٥) إلى أن فهم أخوه القصة، [فأقبل عمرو على الملك حتى قام بين يدي الملك، فقال: أخبرني: هل حمّدت خصباً أم ذممت جدباً؟] فقال: لم أحمّد خصباً، ولم أذمّ جدباً، الأرض مشكّلة لا بقلها [يُعرَفُ]^(٦)، ولا جَدْبُها يوصف، رائدها واقف، ومكرها عارف، [وآمنها خائف]، فقال النعمان: أوّلى لك! نجوت، فنجا. وقال أخوه:

قَرَعْتُ الْعَصَا حَتَّى تَبَيَّنَ صَاحِبِي وَلَمْ تَكْ لَوْلَا ذَاكَ لِلْقَوْمِ تُقَرَعُ^(٧)

(١) الميداني ١: ٢٥.

(٢) أسمه عمرو بن مالك بن ضبيعة، أخو سعد بن مالك الكناني؛ وصدر الخبر كما في الميداني: "أن سعداً أتى النعمان بن المنذر ومعه خيل له قادهما، وأخرى عراهما، فقيل له: لِمَ عريت هذه وقدت هذه؟ قال: لم أقد هذه لأنمعها؛ ولم أعر هذه لأهبيها، ثم دخل على النعمان فسأله عن أرضه؛ فقال: أمّا مطرها فغزير، وأمّا نبتها فكثير؛ فقال له النعمان: إنك لقوّال؛ وإن شئت أتيتك بما تعيا عن جوابه، قال: نعم، فأمر وصيفاً له أن يلطمه، فلطمه، قال: ما جواب هذه؟ قال: سفيه مأمور، قال: ألطمه أخرى؛ فلطمه، قال: ألطمه أخرى، فلطمه، قال: ما جواب هذه؟ قال: لو أخذ بالأولى لم يعد للأخرى، -وإنما أراد النعمان أن يتعدى سعد في المناطق فيقتله- قال: ألطمه ثلاثاً فلطمه، قال: ما جواب هذه؟ قال: ربّ يؤدب عبده، قال: ألطمه أخرى، فلطمه، قال: ما جواب هذه؟ قال: ملكت فأسجج، فأرسلها مثلاً. قال النعمان: أصبت فامكث عندي، وأعجبه ما رأى منه، فمكث عنده ما مكث، ثم إنه بدا للنعمان أن يبعث رائداً، فبعث عمرأ أخا سعد، فأبطأ عليه، فأغضبه ذلك، فأقسم لئن جاء ذاماً للكَلَأِ أو حاملاً له لقتلته...، ثم أورد بقية الخبر.

(٣) الميداني: "إذن يقطع لسانك".

(٤) الميداني: "إذن تقطع يدك".

(٥) في الميداني: "فتناول سعد عصا جلسيه، وقرع بعصاه قرعة واحدة، فعُرف أنه يقول له: مكانك، ثم قرع بالعصا ثلاث قرعات، ثم رفعها إلى السماء ومسح عصاه إلى الأرض فعُرف أنه يقول له: لم أجد جدباً، ثم قرع العصا مراراً، ثم رفعها شيئاً وأوماً إلى الأرض، فعُرف أنه يقول: ولا نباتاً، ثم قرع العصا قرعة وأقبل نحو الملك، فعُرف أنه يقول: كلمه".

(٦) من الميداني.

(٧) الميداني ١: ٢٥.

وقيل: المراد بقرع العصا قصة قصير لما كان مع جذيمة، وأقبلت عساكر الزبّاء، قال له: إني متى أنكرتُ القوم قرعتُ لك العصا - وهي فرس جذيمة التي لا تُلحق - فأركبها وأنج؛ فلما رأى الشرّ، قرعها بالسَّوط، فأنفَ جذيمة من الهرب، فركبها قصير ونجا عليها، وضربَ بذلك المثل؛ يعنون: لو كان لجذيمة حِلْم لركبها؛ لكن القول الأول أشهر وأحسن.

١٦١ - وَإِنْ بَادَرْتَ بِالنَّدَامَةِ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ، كُنْتَ قَدْ

اشْتَرَيْتَ الْعَافِيَةَ لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ

يعني إن ندمتَ على ما أقدمتَ عليه وتركته، ولمتَ نفسك، أرختَ نفسك بانقطاعك عنها، وأرختنا منك.

١٦٢ - وَإِنْ قُلْتَ: جَعَجَعَةً بِلَا طِخْنٍ، وَرُبَّ صَلْفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ.

الجَعَجَعَةُ: صوت الرحا؛ والطَّخْن: الدقيق، فِعْلٌ بمعنى مفعول كذبح وِفْرُق. والصَّلف: قلة البركة والخير، ولذلك يُقال: أصْلَفَ من مِلْحٍ في ماء^(١)، أي لا يبقى؛ وسحاب صلف، إذا كان قليل الماء، كثير الرعد^(٢). والمعنى أنك متى قلت: إني أتوعدُّ ولا أفعل، فستَرى^(٣) ما يكون.

١٦٣ - وَأَنْشَدْتُ:

لَا يُؤْيِسُنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ قَوْلُ تُغْلِظُهُ وَإِنْ جَرَحَا

هذا البيت لبشار بن برد. وحَدَّث^(٤) أبو الشمقمق، قال: دخلتُ عليه يوماً وبين يديه مائة دينار، فقال: خذْ منها، أتدري ما قصتها؟ قلت: لا، قال: أنا اليوم جالسٌ، وإذا بفتى من ذوي النعمة دخل عليّ فقال: يا أبا معاذ، هذه مائة دينار، نذرتُ أن أدفعها لك؛ فتسلّمها، فقلت: ما سببها؟ فقال: كنتُ قد هويتُ امرأةً وتعرّضتُ لها، فتصعّبت عليّ، فأردتُ السلو، فذكرتُ قولك:

لَا يُؤْيِسُنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ قَوْلُ تُغْلِظُهُ وَإِنْ جَرَحَا^(٥)

عُسِرَ النَّسَاءُ إِلَى مَيَاسِرَةٍ وَالصَّعْبُ يُرْكَبُ بَعْدَ جَمَحَا^(٦)

(١) الميداني ١: ١٠٧.

(٢) الميداني ١: ١٩٨، ولفظه هناك: رُبَّ صلف تحت الراعدة.

(٣) في ط "فترى".

(٤) كذا في ت، وفي ط: "وقد ذكر".

(٥) ديوانه ٢: ٩٨.

(٦) الديوان: "والصعب يمكن بعدما رمحا".

فصبرتُ فأدركتُ مقصودي منها، وآليتُ على نفسي أن أحمل إليك هذه المائة دينار^(١).

١٦٤ - فَعُدَّتْ لِمَا نُهِيتَ عَنْهُ، وَرَاجَعَتْ مَا أَسْتَعْفَيْتَ مِنْهُ؛ بَعَثَتْ مَنْ يُزْعِجُكَ إِلَى الْخَضْرَاءِ دَفْعًا، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا وَكُزًّا وَصَفْعًا

يعني أنك إن لم تبال بتوعددي ولم تصدّقه، وعاودت المراسلة، بعثت من يزعجك من مكانك، والإزعاج: عدم الاستقرار، ومنه المرأة المزعاج التي لا تستقر في مكان. والخضراء: ناحية المزدرع من البلد، أو أسم ضيعة. والوكز مثل الدفع، وهو ضرب الظهر مع الدفع، وقيل: الضرب بمجتمع اليد على الذقن.

١٦٥ - فَإِذَا صِرْتَ إِلَيْهَا عِبْتُ أَكَارُوهَا بِكَ، وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ

الأكارون: الزراعون، جمع أكار، ويجمع على أكرة؛ كأنه جمع أكر في التقدير، مأخوذ من الأكرة وهي الحفيرة في الأرض. والعبث: أن يخلط بعمله لعباً، مأخوذ من العيثة، وهي طعام مخلوط. والسلطة: التمكن من القهر، ومنه سمي السلطان.

١٦٦ - فَمِنْ قَرَعَةٍ مُعَوَّجَةٍ تُقَوِّمُ فِي قَفَاكَ، وَمِنْ فُجْلَةٍ مُتِنَةٍ يُرْمَى بِهَا تَحْتَ خَصَاكَ

أي تضرب في القفا بالقرع المعوج إلى أن يستقيم، وهو ممّا لا يستقيم، فيكون كناية عن إيصال الضرب، والرمي بالفجل تحت الخصى، كناية عن استدخاله في أسته، وفي نتنه مناسبة واستقذار للمفعول به.

١٦٧ - ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ؛ لِتَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ

يعني بما فعلت أنت، والعرب تقول: هذا ما كسبت يداك، وإن لم تكن اليد الفاعلة، وإنما يقصدون بذلك فعله، وعلى ذلك حمل قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] على بعض الوجوه. والذوق: وجود الطعم بالفم، ونقل إلى إختبار الشيء، ويستعمل في القليل والكثير، ولذلك ذكره الله تعالى في العذاب.

(١) ت: "هذا القدر إليك".

والوبال: الأمر الثقيل الذي يُخَافُ ضرره، ومنه: "طعام وبيل"، و"كلأ وبيل" والوبل، هو المطر الثقيل.

والميزان: معرفة مقدار الشيء، وأصله "مِوزان"، فأنقلبت الواو ياءً لكسر ما قبلها.

١٦٨ - فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ

رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

هذا بيت من شعر المتنبي، حُتِمَتْ بذكره الرسالة لمناسبة ما قبله، وكذلك مذاهب أكثر البلغاء في مقاطع رسائلهم، إمّا بآية، أو مثلاً، أو بيت من الشعر يتمثلون به في معنى ما هم فيه، فيكون له مزية ظاهرة؛ ويجب أن يكون من أحسن ما سمع. وفي القصيدة^(١) التي منها هذا البيت أبيات حسنة، أذكرها جرياً على العادة في الاستطراد، بما ينطوي على نكتة وفائدة، فمنها قوله؛ وقد خرج هارباً من كافور الإخشيدي من مصر إلى العراق يصف طريقه:

فِيَا لَكَ لَيْلًا عَلَى أَعْكَشٍ أَحَمَّ الْبِلَادِ خَفِيَّ الصُّوَى
وَرَدَّنَا الرُّهَيْمَةَ فِي جَوْزِهِ وَبَاقِيهِ أَكْثَرُ مِمَّا مَضَى

-أعكش: موضع. والأحم: الأسود. والصوى: العلامات في الطرق، وهي أحجار يوضع بعضها فوق بعض؛ ليعرف بها الطريق. وفي الحديث: "إن للإسلام صُوىً ومناراً"؛ والرَّهَيْمَةُ: موضع.

والضمير في "جوزه" عائد إلى الليل، يعني نصفه. إعترض قوم هذا اللفظ، فقالوا: إذا كان باقي الليل أكثر مما مضى فلا يكون نصفه، فقليل في الجواب وجهان: أحدهما أنه إنما أراد بالنصف مدة الثلث الأوسط. والثاني أن الضمير في "جوزه" عائد على "أعكش"؛ والرَّهَيْمَةُ ماء في وسطه وردوه، وباقي الليل أكثر مما مضى -.

لِتَعْلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بِالْعِرَاقِ وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ أَتَى الْفَتَى

-يعني بمن في مصر مَنْ فاتهم، وَمَنْ بالعراق مَنْ هو قادم عليهم، وَمَنْ بالعواصم سيف الدولة -:

وَمَنْ يَكُ قَلْبٌ قَلْبِي لَهُ يَشُقُّ إِلَى الْعِزِّ قَلْبَ التَّوَى^(٢)

(١) ديوانه ١: ٣٦ - ٤٥.

(٢) التوى: الهلاك.

وَنَامَ الْخُوَيْدَمُ عَنْ لَيْلِنَا وَقَدْ نَامَ قَبْلَ عَمَى لَا كَرَى
 وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ الْخِصْيِ أَنَّ الرُّؤُوسَ مَحَلَّ النَّهْيِ
 فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى عَقْلِهِ وَجَدْتُ النَّهْيَ كُلَّهَا فِي الْخِصْيِ
 وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَامِهِمْ فَأَمَّا بِزُقْ رِيَّاحَ فَلَا
 -يعني أن مَنْ أطاع كافوراً فقد ضلَّ بطاعة شيء أسود مملوء هواء، ولم يضلَّ أحد
 بمثل ذلك-

وَمَنْ جَهَلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى
 يعني مَنْ جهل قَدْرَ نفسه عرفه غيرُه بارتكاب القبائح التي لا يتنبَّه لها.
 ومن نوارِد المنقَّبين على سرقات المتنبي قول أحدهم: إنه سرق هذا البيت من حكاية،
 وهو أن قَصَّاراً كان يعمل على شاطئ نهر، وكان كل يوم يرى كُرْكياً يجيء فيلتقط من الحمأة
 دُوداً، ويقتصر في القُوَّة عليه، فرأى الكركيَّ صَقْراً قد أرتفع في الجوِّ وأنقَضَ على حمامة
 فأصطادها وأكلها، فقال الكركي: ما لي لا أصطاد الطيور كما يصطاد هذا الصقر، وأنا أكبر
 منه جسماً! فأرتفع في الجوِّ، وأنقَضَ على حمامة فأخطأ، وسقط في الحمأة فتلطَّخ رأسه،
 وتلطَّخ ريشه، ولم يمكنه أن يطير، فأخذه الصيَّاد ورجع إلى منزله. فاستقبله رجل فقال: ما
 هذا؟ فقال: كُرْكِيَّ يتصقَّر! فسمع المتنبي هذه الحكاية، فأخذ منها معنى هذا البيت؛ وهذا من
 نادر التعصُّب على هذا الرجل الفاضل المحسود.

تمَّت الرسالة وشرحها، والدلالة ولمحها؛ ولا أدعي فيها غيرَ انتخَاب الأخبار
 واختيار المتمكِّن من النِّظام والنَّثر، فإنِّي أثبتُّ بيوت الأشعار من أبوابها، وميَّزْتُ أبكار الفقر
 من أترابها. وعلى الجملة ففي عواطف مَنْ عرَضْتُ عليه هذه النُّبذة ما يشدُّ خَلْلي، ويشدُّ
 أَملي ويكثرُ قليلي، ويرعى في كل وقت رحلتي الشمالية بقبولي؛ عَطَّرَ الله بذكره المشارقَ
 والمغارب، وزَيَّنَ سماء المَدْح في مناقبة بزيِّنة الكواكب، ولا خلت أبواب نِعَمِهِ وعِلْمِهِ على
 كلا الحالينِ مِنْ طالب. آمين. والحمد لله ربِّ العالمين. [وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمد
 وآله وصحبه أجمعين] ^(١).

* * * * *

فهرس الموضوعات

الصفحة

23	الرسالة الهزلية
33	ذكر منشئ الرسالة
39	ذكر سبب إنشاء هذه الرسالة
48	أكثم بن صيفي
52	المتنبى
60	يوسف الطحاوي
61	زليخا امرأة العزيز
62	قارون
64	النطف
65	كسرى أنوشروان
69	قيصر بن أنطربطس
70	الإسكندر بن فيلبس
71	دارا الأصغر ابن دارا الأكبر
76	أردشير
78	الضحّاك
80	جذيمة الأبرش
83	شيرين
83	بوران
84	بلقيس
85	الزباء
86	مالك بن نويرة
89	عروة الرّحال
90	كليب بن ربيعة
91	جساس بن مرة
92	مهلهل بن ربيعة

الصفحة

97	 السموءل بن عاديا
99	 الأحنف بن قيس
104	 حاتم الطائي
109	 زيد الخيل
114	 السليك بن السلكة
118	 ملاعب الأسنّة (عامر بن مالك بن جعفر)
121	 قيس بن زهير
126	 إياس بن معاوية
129	 سحبان وائل (سحبان بن زفر بن إياس)
131	 عمرو بن الأهم
133	 الصلح بين بكر وتغلب
135	 حرب داحس والغبراء
141	 منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل
143	 علقمة بن علاثة
144	 عامر بن الطفيل
146	 الحجاج بن يوسف الثقفي
157	 قتيبة بن مسلم الباهلي
162	 المهلب بن أبي صفرة
170	 هرمس وبلينوس
172	 أفلاطون
174	 أرسطاطاليس
176	 بطليموس
177	 أبقرات
179	 جالينوس
182	 أبو معشر الفلكي (جعفر بن محمد بن عمر البلخي)
183	 جابر بن حيّان

الصفحة

184	 النظام (إبراهيم بن سيّار)
188	 الكندي (يعقوب بن إسحاق)
192	 عبد الحميد الكاتب
195	 سهل بن هارون
200	 الجاحظ
208	 مالك بن أنس
213	 الخليل بن أحمد
219	 أبو الأسود الدؤليّ
225	 ماني الثنويّ
228	 غيلان القدريّ
230	 الجعد بن درهم
231	 خالد بن عبدالله القسريّ
234	 بشار بن برد
246	 أبو نواس
253	 أبو تمام
260	 امرؤ القيس
267	 الفضل اللّهيّ
269	 الهاشمي (عبدالله بن معاوية بن عبدالله)
273	 مجنون ليلي (قيس بن الملوّح)
276	 عمر بن أبي ربيعة
282	 دريد بن الصّمّة
285	 النعمان بن المنذر
291	 باقل
293	 هبّقة (يزيد بن ثروان)
293	 طويس
299	 الفرزدق

الصفحة

305	 قصة وافد البراجم
305	 المتلمّس (جرير بن عبد المسيح)
308	 عقيل بن علفّة
312	 ابنة الحُسّ
314	 بنات همّام بن مرّة
317	 الأعشى
324	 العرندس
326	 الخنساء
330	 محرّق، وهو عمرو بن هند
333	 ذكر قرطي مارية
334	 عمرو بن معد يكرب
342	 الحُطَيْئة
348	 أبو العتاهية
353	 براقش
354	 الفرزدق وبنو نهشل
357	 أوّل مَنْ قرعت له العصا



١ - فهرس اللغة (*)

28,359 جمع: الجمععة
 288 جفا: جافي الطبع
 25,223 جمع: الجمع
 323 جم: الجميم
 295 جن: الجنة
 212 جهر: الجوهر
 45 جهل: الجهل
 288 جوب: أساء جابة ..
 (ح)
 330 حرق: محرق
 259 حز: الحز
 241 حسب: الحسب ...
 60 حسن: حاسنه
 28,348 حشف: الحشف ..
 316 حظ: الحطة
 184 حق: الحقائق
 135 حمل: الحملات ...
 281 حل: حلتك، الحلي
 25,221 حول: الحال
 (خ)
 223 خبر: أخبر، الإخبار ...
 242,290 خرق: المخارقة
 360 خضر: الخضراء
 316 خط: الحطة
 51 خلف: يخلف، الخلف ..

(ء)

342 أدب: الأدب
 326 أزر: الإزار
 360 أكار: الأكّارون
 24,59 أنس: الإنسانية
 (ب)
 243 بحر: البحر
 330 برد: البردان
 264 برق: أبرق
 353 برقش: براقش
 210 بره: البرهان
 263,264 بسر: البسر
 222 بني: المبني
 (ت)
 289 تم: التمتمة
 (ث)
 288 ثلب: المثلبة، المثالب
 25,223 ثنى: التثنية
 299 ثوب: ثاب إليك
 (ج)
 297 جبر: جبار
 146 جدد: الجدّ، الجدّ
 297 جرح: جرح العجماء جبار
 59 جسم: الجسم ..

(*) إقتصر في هذا الفهرس على ما شرحه المؤلف من ألفاظ الرسالة.

سفر: السَّفارة..... 24,58

سقر: سَقَر..... 295

سقط: البين سَقَطه... 45

سلط: السَّلاطَة..... 360

سلم: السَّلام..... 243

سمى: المساماة..... 341

سند: أسند، المسند... 223

سنن: صدقتني سنَّ بكَره 282

سود: السَّواد..... 312

(ش)

شرف: الشَّرَف..... 296

شعر: شعرت..... 296

شهب: الشَّهاب.... 47

شهد: الشهادة..... 281

(ص)

صح: الصَّحَّة..... 212

صدي: التصدي... 50

صرف: الصَّرْف... 25,217

صعب: الصَّعب... 323

صفح: تصفَّح..... 224

صفر: صَفَّر الإناء.. 49

صلف: الصَّلَف... 359

صمم: الصَّمصامة 340

صوب: المصاب... 24

(ض)

ضممر: أضممر، المضممر.. 223

ضن: تضنَّ، الضنَّ..... 57

خلق: ما أخلقك 242,352

خلل: الحَلَّة، الخَليلة ، الخلال 24,50

خلا: خالي الذراع 342

خيـب: الخيبة 295

خيل: الحَيَّلاء 326

(د)

دان: الدِّين، الأديان 224

(ذ)

ذبّ: الذَّبَاب 46

ذرع: الذَّرْع..... 352

ذرا: ذروة المجد..... 341

ذوق: الذَّوْق 360

(ر)

ربع: ترَبَّع على ظَلْعك..... 352

ردف: أردف، الرَّدافة..... 86

رسل: أرسل، المرسل..... 223

رعد: أرعد 264 ، الراعدة.... 359

رعن: الأرعن..... 287

رفه: الترفيه..... 297

رود: المرتاد 50

(ز)

زندق: الزَّندقة..... 290

(س)

سبل: السَّبال..... 287

سخف: السَّخافة..... 288

سرح: السَّرحان..... 353

سرر: السَّرار..... 312

- 287 علا: العلاوة
213 عمى: العمى، المعَمَّى
50 عنى: المعنى

(غ)

- 295 غبط: الغبطة، الاغتباط
244 غدا: الغد
45 غرر: الاغترار
297 غرض: الغرض
317 غرّيق: الغرق
60 غَضّ: غضضت منه
347 غلب: الغلب
45 غلط: الغلط
289 غمم: الغممة

(ف)

- 24,45 فحش: الفاحش
245 فرأ: الفراء
46,47 فرش: الفراش
218 فعل: الأفعال
223 فهم: الإستفهام
289 فهه: الفهفة

(ق)

- 360 قدم: ذلك بما قدّمت يداك
287 قذال: القذال
333 قرط: قرطا مارية...
24,50 قرع: القرع، قرع أنفه
356 إن العصا قرعت لذي الحلم

(ط)

- 288 طبع: جافى الطبع

(ظ)

- 221 ظرف: الظرف
83,295 ظفر: الظفر
352 ظلع: تربع على ظلعك
83 ظهر: أظهر، الإظهار

(ع)

- 360 عبث: العبث
263,264 عبس: التعيس
24,45 عثر: العاثر
24,47 عجب: العُجب
297 عجم: العجماء
25,217 عدل: التعديل
243 عذب: العذب
58 عذر: أعذر
222 عرب: المعرب
212 عرض: العرض، تعرض...
47 عرف: المعرفة
27,304 العشاء: عشيّ، العشاء...
324 عنصر: العناصر 244,245، العصر
314 عضل: عضلني همام بن مرة
181 عضوا: العضو
354 عفر: الظبي الأعفر
43 عقل: العقل
180 علج: العلاج
297 علق: العلق

(م)	341 مجد: المجدد..... 24,58 مروء: المروءة..... 212 مرض: المرض..... 180 مزج: المزاج..... 244 مسى: أمس..... 324 مصر: المَصْر..... 326 مطّ: المطّ..... 212 ميز: التمييز.....	25,217 قسم: التقسيم..... 182 قضى: القضاء..... 25,59,222 قطع: قطع بالأمر، القطع: 342 قعد: القعيدة..... 57 قلا: قلاه، يقلوه، يقليه.... 211 قن: القانون..... 289 قهه: القهقهة..... 24,50 قود: قوادة..... 25,217 قوم: التقويم..... 25,223 قيد: قيّد، التقييد.....
(ن)	263 نخر: النّخير..... 341 نعم: النعمة..... 46,47 نقع: النقع..... 47 نقر: الأنقار..... 182 نهج: النهج.....	(ك) 259 كدم: كدّمت، مكدم..... 47 كذب: العُجْب أكَذب.... 298 كعب: الكعاب، الكواعب 296 كفاً: الأكفاء..... 263,264 كفر: الكفر.....
(هـ)	287 هجن: الهجين..... 290 هرول: الهرولة..... 259 هزز: الهزّ، المهزّ.... 323 هشم: الهشيم..... 24,46 هفت: المتهافت... 223 همل: أهمل، المهمل 298 همّ: هممت بالشيء 282 هنأ: الهناء..... 297 التهنئة:..... 288 هيأ: الهئية..... 24,190 هيل: الهيولى.....	24,59 كمال: الكمال..... 211 كمّ: الكمّية..... 211 كيف: الكيفيّة..... 326 كنّ: الإكتنان..... 348 كيل: سوء الكيلة..... (ل) 190 لحن: الألحان..... 58 لفظ: اللفظ..... 342 لكع: لكّاع..... 296 لؤم: اللؤم.....

(و)

190,191	وتر: الأوتار.....
44	ورط: المورط، الورطة
361	وزن: الميزان.....
312	وسد: الوساد.....
288	وسوس: الوسواس.....
216,217	وسم: الإسم 59، المسمى
281	الأسماء 59,218، السيمى
325	وشظ: الوشيطة.....
25,222	وصل: الصلة 49، الوصل
296	وضع: الضعة.....
360	وكز: الوكر.....

٢- فهرس الخطب والوصايا

- الأحنف بن قيس: "أما بعد يا أمير المؤمنين فإن أهل مصر نزلوا" 99.
- أكثم بن صيفي: "يا بني تميم لا تحضروا إليّ سفيهاً" 48.
- الحجاج بن يوسف الثقفي: "يا أهل العراق والنفاق" 150، "إني عزمت على السفر" 154، "ألا إن ابن الزبير كان من أخبار هذه الأمة" 156، "أيها الناس مَنْ ادّعى داءه فعندي دواؤه" 156، "ألا إن أهل العراق أهل نفاق" 156.
- سحبان وائل: "إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار" 130.
- المهلب بن أبي صفرة: "أما بعد فإن الله يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم" 165.
- يعقوب الكندي يوصي ولده: "يا بني كُنْ مع الناس كلاعب الشطرنج" 189.



٣- فهرس الرسائل

أرسطاطاليس إلى الإسكندر: "إلى الإسكندر المؤيد المهدّي له الظفر 73,74. إلى الإسكندر أيضاً: "أيها الملك لا تنخدع للهوى وإن خيل إليك أن في انخداعك له خداعه" 175.

الإسكندر بن فيلبس إلى دارا: "أما بعد فقد تيمّنت بالكرة والصولجان" 71. إلى أرسطاطاليس: "أما بعد فإن دوائر الأسباب، ومواقع الفلك" 72.

الجاحظ في رسالة: "أبقاك الله بقاء أياديك" 204، إلى قليب المغربي: "والله يا قليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة" 204، إلى ابن أبي داود يستعطفه: "ليس عندي -أيّدك الله سبب، ولا أقدر على شفيح" 205، "زيّنك الله بالتقوى، وكفاك ما أهمك من الآخرة والأولى" 205.

الحجاج بن يوسف إلى عبد الملك به مروان: "إنما مثل أمير المؤمنين ومثلي" 152، إلى قتيبة ابن مسلم: "إني نظرتُ في سني" 156.

سهل بن هارون إلى صديق له أبلّ من ضعف: "بلغني خبر الفترة في إمامها وانحسارها" 198، وكتب لآخر: "أما بعد فالسلام على عهدك" 198.

عبد الحميد الكاتب (عن مروان بن محمد) إلى هشام بن عبد الملك يعزّيه: "إن الله تعالى أمتع أمير المؤمنين" 194، يوصي بشخص: "حق موصل كتابي لك" 194، من رسالة: فرويداً حتى ينضب السيل" 194، في فتنة بعض العمال: "حتى اعتراني حنادس جهالة" 194، إلى أهله وهو منهزم مع مروان "أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره" 194.

المتنبي إلى صديق: "وصلتني -وصلك الله - معتلاً" 55.

المهلب إلى الحجاج: "إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب" 166، إلى الحجاج أيضاً "الحمد لله الكافي بالإسلام" 168.

٤ - فهرس الأمثال

(ح)	(ع)
الحمى أضرتني لك..... 336	إتق مأثور القول..... 124
حنّ قدح ليس منها..... 325	أحق من هبنقة..... 293
(خ)	أخطأت أستك الحفرة..... 330
خذه ولو بقرطّي مارية.. 333,334	أخلى من جوف الحمار..... 245
(ر)	أريها السها وتريني القمر..... 292
ربّ صلف تحت الراعدة 359	أزكن من إياس..... 126
رجع بخفّي حنين..... 262	أشبع جارك وأجع فارك..... 49
رضيت من الغنيمة بالإياب 260	أضرطا وأنت الأعلى..... 115
(ز)	أعزّ من حمى كليب..... 90
زوج من عود خير من قعود 314,315	أعيا من باقل..... 291
(س)	أفود من ظلمة..... 51
سقط بك العشاء على سرّحان 353	إن عادت العقرب عدنا لها.. 268
سقط العشاء به على متقمّر 354	إن الشقيّ وافد البراجم..... 305
(ش)	إن العصا قرعت لذي الحلم 356
شبّ عمرو عن الطّوق... 82	إن من البيان لسحرا..... 131
شنشنة أعرفها من أخزم.. 310	أهون من تبالة على الحجاج 148
(ص)	أوفى من السموءل..... 97
صحيفة المتلمّس..... 305	(ب)
صدقتني سنّ بكره..... 282	بؤ بشسع نعل كليب..... 94
	(ت)
	تركت ببقة الرأي..... 82
	(ج)
	جرح العجماء جبار..... 297
	جعجعة بلا طحن..... 359

(ع)

- 47 العُجْبُ أَكْذَبُ
 304 عَشٌّ وَلَا تَغْتَرُ
 298 عَطَرِ مَنْشَمٍ
 353 عَلَى قَوْمِهَا تَجْنِي بِرَاقِشٍ

(غ)

- غَدَّةُ كَغَدَّةِ الْبَعِيرِ، وَمَوْتَ فِي بَيْتِ
 144,348 سَلُولِيَّةٍ

(ل)

- لَأَنْ تَسْمَعَ بِالْمَعِيدِيِّ خَيْرَ
 284 مِنْ أَنْ تَرَاهُ
 49 لَا تَهْرَفْ بِهَا لَا تَعْرِفْ
 93 لَا نَاقَةَ لِي فِيهَا وَلَا جَمَلَ
 263 لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ
 297 لِلْقَيْتِ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لَاقَى يَسَارَ
 107 لَوْ غَيْرَ ذَاتِ سِوَارٍ لَطَمْتَنِي
 115 اللَّيْلُ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقَمَّرٌ

(م)

- 47 مَعْرِفَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصَوَّبٌ

(ي)

- 332 يَا بَعْضِي أَرْسَلْ بَعْضِي

٥- فهرس الأشعار

الصفحة	عدد الأبيات	القائل	البحر	القافية
(ء)				
234	١	بشار	طويل	فاقئاً
249	٤	أبو نواس	بسيط	الداء
351	٢	أبو العتاهية	طويل	من ورائك
199	٢	سهل بن هارون	بسيط	على دائي
221	٢	أبو الأسود الدؤلي	وافر	في الدلاء
232	٢	ابن بيض	كامل	بالحوباء
240	٤	بشار	خفيف	الفقراء
(ب)				
50	٢	عمر بن أبي ربيعة	رمل	باللعب
267	٤	الفضل الهبي	رمل	العرب
215	٢	الخليل بن أحمد	خفيف	الكواكب
283	٣	دريد بن الصمة	متقارب	والنصب
323	٢	المتنبي	متقارب	رب
121	٢	عامر بن مالك	طويل	ذبا
236	٣	بشار	طويل	المهذبا

الصفحة	عدد الأبيات	القائل	البحر	القافية
302	١	جرير	وافر	شاباً
35	٤	ابن زيدون	كامل	جنيباً
117	٢	السليك	طويل	أكذبُ
118	٣	السليك	طويل	سهوبُ
227	١	المتنبي	طويل	تكذبُ
263	٥	أبو تمام	طويل	كواذبُ
263	١		طويل	الثعالب
275	٦	المجنون	طويل	قريب
317	١	حاجب	طويل	وشوارب
240	٧	بشار	طويل	لا تعاتبه
306	٣	المتلمس	طويل	عواقبه
354	٣	الفرزدق	طويل	أقاربه
43	١	سحبان	طويل	خطيبتها
276	٥	المجنون	طويل	ذنوبها
300	٢	الفرزدق	طويل	منيبها
301	١		طويل	ثيابها
140	٢	الحارث بن عوف	وافر	أن يشيخوا
207	٣	الجاحظ	وافر	المصيبُ
210	١	ذو يزن	كامل	غَضَابُ
272	٨	عبدالله بن معاوية	متقارب	تعجبُ
54	١	قيس بن الخطيم	طويل	بحاجبٍ
193	١		طويل	جانبٍ
189	٢		طويل	كربي

القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
ومصيب	طويل	أبو الأسود الدؤلي	٢	221
الذئائب	طويل	دريد بن الصمّة	٢	283
في الشجب	بسيط	المتنبي	٢	54
وفي قطب	بسيط	أبو تمام	١	182
الذئائب	وافر	زيد الخيل	٣	114
وبالشراب	وافر	امرؤ القيس	٩	261
الأعراب	كامل	حارثة بن بدر	١	164
ومرحب	كامل	أبو تمام	٢	255
حسي	كامل	دريد بن الصمّة	٣	284
وتخضبي	كامل	خزرج بن لوزان	٣	341
من كسبه	سريع	المتنبي	٢	54
في مسارها	منسرح	أبو نواس (ت)	١	79
خُفْتُ	كامل	أبو نواس	٢	247
حيثُ	طويل	جميل	١	121
الحبّطات	طويل	الفرزدق	١	298
الحجراتُ	طويل	...	١	299
عصيتُ	وافر	السموئل	٤	98
حيث	وافر	عامر بن مالك	١	121
فاجعأته	كامل (مجزوء)	عبدالله بن معاوية	٦	271
اللهوات	طويل	قيس بن زهير	٢	125
فاسبطرتُ	طويل	عمرو بن معد يكرب	٦	338
صباباتي	بسيط	أبو نواس	٢	250
لم آتها	كامل	المتنبي	١٢	258

القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
(ح)				
جرحا	كامل	بشار	٢	359
كلحا	بسيط	أبو نواس	٢	249
أفطح	طويل	ابن مقبل	٢	161
مريح	وافر	سهل بن هارون	٤	199
الأباطح	طويل	المجنون	٢	274
القراح	وافر	جساس	٢	92
السلّاح	وافر	نضلة بن مرة	١	92
أنواحي	كامل	السموئل	٣	99

(د)				
لتالذ	كامل (مجزوء)	سبحان	٢	130
تجد	رمل	عمر بن أبي ربيعة	٦	281
أبدى	طويل	عامر بن الطفيل	٢	145
محمدًا	طويل	الأعشى	٣	319
عبدًا	كامل	عمرو بن معد يكرب	١٢	339
غدا	منسرح	أبو العتاهية	٢	352
محمد	طويل		١	222
بُعد	طويل	المجنون	٣	275
هند	طويل	الفرزدق	١	312
حمد	طويل	الخطيئة	١	343
العد	طويل	الخطيئة	٧	347
قواد	بسيط	ابن المعتز	٣	51
عاد	بسيط	جذيمة	٢	82
عودوا	بسيط	المهلب	٢	170

القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
خلدوا	متقارب	الجاحظ	٢	207
أبعد	متقارب	عمر بن أبي ربيعة	١	278
عائد	متقارب	أبو العتاهية	٣	351
فَتَزَوَّدَ	طويل	حاتم	٣	108
مُنْجِدٌ	طويل	زيد الخيل	٢	111
على الكدِّ	طويل	بشار	٢	241
الرّدي	طويل	دريد بن الصّمة	٤	283
مهند	طويل	بنت همام بن مرة	٢	314
من هند	طويل	قيس بن وجرة	٣	331
لم تكد	طويل		٣	294
أذواد	بسيط	السُّليك	٢	116
ميعاد	بسيط	الخليل بن أحمد	٣	215
داود	بسيط	بشار	٢	236
الإِصاد	وافر	قيس بن زهير	٤	137
الفساد	وافر	المتلمّس	٢	189
رماد	وافر	عمرو بن معد يكرب	١	259
زاد	وافر	المتلمّس	٢	307
تنادي	وافر	عمرو بن معد يكرب	٢	355
والإِبعاد	كامل	النّظام	٣	187
حسود	كامل	أبو تمام	٢	255
أبدي	كامل	سهل بن هارون	٦	197
في الحدود	رمل	ولادة	٢	40
الحاشد	سريح	أبو نواس	٣	246
والأسد	منسرح	عامر بن الطفيل	١	144

القفية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
		(ر)		
وأظهر	كامل	بشار	٢	234
السّكر	رمل	الأقيشر	١	157
الأغر	رمل	عمر بن أبي ربيعة	٣	280
النّظر	متقارب	النواجي	٢	292
أحمرا	طويل	حاتم	٦	109
فأزرا	طويل	عامر بن الطفيل	٢	145
مفتري	طويل		٢	246
فعرعرا	طويل	امرؤ القيس	٩	260
فتحدرا	طويل	الفرزدق	٣	355
صبارة	كامل (أحد)	ثعلبة بن عمرو	٥	332
التاجرة	سريع	الفضل اللهبي	٣	268
عارها	سريع	الخنساء	٢	327
وصارا	متقارب	الاعشى	٣	320
والذكر	طويل	حاتم	٨	108
طائر	طويل	زيد الخيل	٢	110
شاعر	طويل	زيد الخيل	١	113
ففاخروا	طويل	الأحنف	١	132
فاتر	طويل	عمرو بن الأهم	٤	133
لا يغدر	طويل	حسان	٢	140
المسافر	طويل		١	158
معصر	طويل	عمر بن أبي ربيعة	١	162
الزجر	طويل	حاتم	١	220
الخم	طويل	ذو الرمة	١	230
حضر	طويل	أبو نواس	٤	248

القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
أميرٌ	طويل	أبو نواس	٣	251
ناشرٌ	طويل	أبو نواس	٢	253
السَّفرُ	طويل	أبو تمام	٥	256
كبيرٌ	طويل	ضابىء	٢	265
عمرو	طويل	المجنون	٢	274
مقصرٌ	طويل	عمر بن أبي ربيعة	١٨	279
طائرٌ	طويل	عمر بن أبي ربيعة	٤	280
والجزرُ	طويل	بنت همام بن مرة	٢	315
أجدُرُ	طويل	تأبط شراً	١	316
ظاهِرُهُ	طويل		١	193
كاسِرُهُ	طويل	الفرزدق	٢	355
والمطرُ	بسيط	المغيرة بن جبنة	٢	169
النارُ	بسيط	بشار	١	235
لنّحار	بسيط	الخنساء	٣	329
المقاديرُ	بسيط	عمرو بن معد يكرب	٩	335
شجرٌ	بسيط	الحطيئة	٤	345
عسيرٌ	وافر	أبو نواس	٣	249
تخوُرُ	وافر	طرفة	١	305
بحرٌ	كامل	أبو نواس	١	40
وقارٌ	كامل	الفرزدق	٢	251
زاجر	سريع	أبو نواس	١	247
السّتر	سريع	أبو نواس	٦	251
والخابورُ	خفيف	عدي زيد	١	85
محسورٌ	خفيف	الحارث ابن الكندي	٤	135
للسرّ	طويل	ولادة	٢	39

القفافية	البحر	القال	عدد الأبيات	الصفحة
الدوائر	طويل	زيد الخيل	٣	114
جعفر	طويل	عامر بن الطفيل	٥	145
وقار	طويل	أبو نواس	٢	251
على أمر	طويل	بشار	٥	240
القدر	طويل	دريد	٣	284
مادر	طويل		١	292
والعطر	طويل	بنت همام بن مرة	٢	314
بالأثر	بسيط	ابن زيدون	٩	34
من عار	بسيط	ابن زيدون	٢	39
جرار	بسيط	الأعشى	٤	98
من قوارير	بسيط	بشار	١	241
النظر	بسيط	عمر بن أبي ربيعة	١	278
بأوتار	بسيط	الخنساء	٥	328
إيسار	بسيط	العرنس	٦	324
وإدباري	بسيط	الخطيئة	٢	347
زير	وافر		١	93
لا تحوري	وافر	الخطيئة	١٤	95
بنار	وافر	بشار	١	238
الأزور	كامل	متمم	٢	87
نهار	كامل	الربيع بن زياد	٣	138
الأمصار	كامل	كعب الأشقري	٣	146
مضمير	كامل	أبو تمام	٢	256
الحضر	كامل (مجزوء)	الخنساء	٥	329
والواتر	سريع	الأعشى	١	143
فكري	سريع	أبو العتاهية	٢	350

القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
ظَفِر	خفيف	أبو نواس	٢	325
الكوثر	متقارب		٢	146
غزير	متقارب	النظام (ز)	٢	187
وغمزا	متقارب	الخنساء (س)	٧	329
المتلمّس	طويل	المتلمّس	١	46
يابس	طويل	ذو الرمة	١	46
ودارس	طويل	أبو نواس	٨	250
يرمس	طويل	المتلمّس	٢	307
خلاص	بسيط	الفضل الهبي	٣	268
السوس	بسيط	المتلمّس	٢	306
المجلس	كامل	مهلهل	٢	90
تمرس	كامل	المتلمّس	٢	306
بالياس	بسيط	سهل بن هارون	٢	200
بأكياس	بسيط	الخطيئة	٥	344
والحرس	بسيط	أبو العتاهية	٢	351
إياس	كامل	أبو تمام	١	126
في المجلس	كامل	الخطيئة	١	90
ذو نواس	وافر	عمرو بن معد يكرب	٢	336
خُمسه	سريع	حماد عجرد	٢	239
نكس	متقارب	الكندي (يعقوب)	٥	190
		(ص)		
خائضا	طويل	الأعشى	١	318
بالعصا	سريع	أبو نواس	٣	252

القفاية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
وتخَرُّصُ	كامل	أبو نواس	٢	248
منكصُ	متقارب	الأعشى	٢	318
(ض)				
ومضُ	متقارب	ابن زيدون	٢	40
بغِيضاً	طويل	الحطِيبَةُ	٢	346
غَضَّ	وافر	بشار	٢	241
يقضي	هزج	ذو الإصبع	١	357
يتصدَّعا	طويل	متَّم	١	82
فأسرعاً	طويل	عروة الرِّحَال	٢	90
مضطلعا	بسيط	لقيط الأيادي	٣	168
أجمَعُ	طويل	أوس بن حجر	١	119
بلاقِعُ	طويل	لبيد	١	244
مطلَعُ	طويل	المتلمس	٢	307
تقرُعُ	طويل	عمرو بن مالك	١	358
هجوُعُ	وافر	عمرو بن معد يكرب	٨	339
لا يباغُ	وافر	حريث بن قحطان	٤	297
أجزعُ	كامل	مالك بن نويرة	٤	88
مصرعُ	كامل	أبو ذؤيب	١	221
ومسموعُ	هزج	علي بن أبي طالب	٣	44
مستمعُ	سريع	الجاحظ	٢	207
المزعزعُ	طويل		١	119
جزوعُ	طويل	الحطِيبَةُ	٢	346
لم يَدعُ	بسيط	ابن زيدون	٤	36
منخدعُ	بسيط	الفرزدق	٢	304
القناعُ	وافر	أبو تمام	٧	256

القفافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
بصاع	بسيط	أبو تمام	٤	257
لكاع	بسيط	الحطّية	١	342,344
		(ف)		
موقف	طويل	ابن زيدون	١٣	35
تعرف	طويل	الفرزدق	٨	303,304
والمُتَضَيِّفِ	طويل	عمرو بن معد يكرب	٦	337
وإيجاف	بسيط	دريد بن الصمة	٣	283
الوصف	سريع	النظام	٤	187
		(ق)		
نفترق	متقارب	النظام	٢	187
وطارقة	طويل	الأعشى	٥	322
راقا	بسيط	ابن زيدون	٦	36
شقيقا	كامل	البحري	١	254
تعبق	طويل	ابن زيدون	٢	35
طروق	طويل	عمرو بن الأهمم	١٣	132
أولق	طويل	الفرزدق	٥	303
عاشق	طويل	المجنون	٤	275
معشق	طويل	الأعشى	١	319
وموائقة	طويل	قيس بن وجرة	١٠	331
منطلق	مديد	الحطّية	٢	125
رقيق	طويل	أبو نواس	٢	252
ما بقي	طويل	المتنبي	١٥	265,266
رونق	طويل	ابن هرمة	١	270
بالعوائق	طويل	الحطّية	٢	346
وثاق	وافر	أبو تمام	٤	291
يعشق	-	المتنبي	١٤	266

القفية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
المتقي	كامل	أبو نواس	٢	252
العناق	خفيف	مهلهل (ك)	٤	97
رجاكا	كامل	ابن زيدون	٢	36
مالكه	طويل	الخطيئة	٣	352
سمكوا	بسيط	سهل بن هارون	٢	199
فالدكادك	طويل	متمم	٢	88
العوارك	طويل	عقيل بن علفة	١	308
		(ل)		
بالذليل	رمل	زيد الخيل	٣	114
أضل	رمل	ليبد	١	320
شاملاً	طويل	المتنبي	٢	55
علاً	وافر	الفرزدق	٢	355
صنبلاً	كامل	مهلهل	١	92
مجدلاً	كامل	مهلهل	٢	94
تنكيلاً	كامل		٢	161
حبلاً	كامل	أبو العتاهية	٤	351
ما قالها	كامل	ربيعة الرقي	١	190
نعالها	كامل	كثير	١	279
الرجلا	منسرح	الأعشى	١	320
الفحولا	خفيف	مهلهل	١	264
باذلا	متقارب	الأحنف	٢	104
رسولا	متقارب	عقيل بن علفة	٤	311
مالها	متقارب	الخنساء	١٠	328
جاهل	طويل	أكثم	١	48

القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
قائلٌ	طويل	المتنبي	١	53
جميلٌ	طويل	السموئل	٦	98
الحبائلُ	طويل	الأعشى	٢	143
قائلٌ	طويل	حميد الأرقط	٢	291
باقلٌ	طويل	أبو العلاء المعري	٤	292
باقلٌ	طويل	ابن نباتة	١	292
أطول	طويل	الخنساء	٣	329
خليلٌ	طويل	أبو العتاهية	٢	350
يحاوُلُه	طويل	حاتم	٤	109
فضائلُه	طويل	أبو تمام	٣	255
حاملُه	طويل	الحطيئة	١	344
الخطلُ	بسيط	أبو تمام	٢	253
فعلوا	بسيط	أبو تمام	٢	255
الأمثالُ	كامل	ابن زيدون	٤	36
يتأملُ	كامل	السموئل	٣	98
أطول	كامل	الفرزدق	٦	302
جليلٌ	خفيف	بشار	٣	239
مهلهل	طويل	الحطيئة	٣	113
بالي	طويل	عمرو بن الأَهم	٢	133
بلبالي	طويل	سهل بن هارون	٥	199
المعيلُ	طويل	امرؤ القيس	١	245
البالي	طويل	امرؤ القيس	٣	261
قتلي	طويل	عمر بن أبي ربيعة	٥	280
جدول	طويل	المتلمس	١	306
بقليل	طويل	الفرزدق	١	354

القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
ثَقِيل	طويل	عقيل بن علفة	٤	311
مَال	بسيط	الخليل	٢	215
المعالي	وافر	ابن النطف	١	64
التَّصَالِ	وافر	المهلهل	٣	94
الطَّوَالِ	وافر	السَّليكَ	٢	118
الثَّقَالِ	وافر	دريد بن الصِّمَّة	٣	284
الرَّجَالِ	وافر	أبو العتاهية	٢	352
لا ذنب لي	كامل	ولادة	٢	39
العالي	كامل	أبو تمام	٢	255
شاغل	سريع	امرؤ القيس	١	251
القبل	منسرح	أبو نواس	٢	252
العقال	خفيف	أمية بن أبي الصلت	٢	153
أُمَيَّالِ	خفيف	الأعشى	٨	320
حيال	خفيف	الحارث بن عباد	١	341
للعافل	متقارب	المتنبي	٢٤	55
بالزائل	متقارب	عبد الحميد الكاتب	٤	195
جمله	متقارب	عبد الله بن معاوية	٣	271
(م)				
بالكرم	طويل	ابنة الخُس	١	312
العدم	متقارب	الجاحظ	٣	207
العلم	متقارب	بشار	٣	234
ملوِّماً	طويل	حاتم	٤	109
المقدِّما	طويل		٢	204
يتكلِّما	طويل	عمر بن أبي ربيعة	١	277
أهضما	طويل	طرفة	١	305

القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
المخدّم	طويل	الأعشى	٢	320
ضرما	متقارب		٢	268
واصلهما	منسرح		٢	268
تواما	متقارب	عامر بن الظرب	٢	357
متفاقم	طويل	قيس بن زهير	٢	125
مترجم	طويل	عبد الحميد الكاتب	٢	195
حجم	طويل	المجنون	٢	273
يتصرّم	طويل	الفرزدق	٢	302
الدّراهم	طويل	عقيل بن علفّة	٢	311
يقيّمها	طويل		١	292
مبغوم	بسيط	ذو الرّمة	١	216
ورم	بسيط	المتنبي	١	259
عدم	بسيط	المتنبي	١	295
العلم	بسيط	الفرزدق	٣	300
لا يريم	وافر	قيس بن زهير	٥	125
الكلوم	وافر		١	187
السهاّم	وافر	الكنديّ (يعقوب)	٢	190
هشام	وافر	الحارث بن أميّة	١	267
أقلامها	كامل	لييد	١	301
التكلّم	طويل	الأحنف - أوزهير	٢	104
مسلم	طويل	السّليك	٢	117
منشم	طويل	زهير	١	138
آدم	طويل	النظام	٢	187
بقائم	طويل	بشار	٣	240
حاكم	طويل	بشار	٢	241

الصفحة	عدد الأبيات	القائل	البحر	القافية
255	١	أوس	طويل	مقرم
256	٤	أبو تمام	طويل	للمكأرم
279	١	عمر بن أبي ربيعة	طويل	جهنم
303	٤	الفرزدق	طويل	العوائم
307	٤	المتلمس	طويل	معصم
309	٢	عقيل بن علفة	طويل	بالجماجم
309	١	جثامة بن عقيل	طويل	العمائم
309	١	عملس بن عقيل	طويل	طاسم
309	١	حوراء بنت عقيل	طويل	والقوائم
343	١	زهير	طويل	يشتم
54	١	المتنبي	بسيط	كالعلم
190	١	الكندي (يعقوب)	بسيط	نعم
346	٣	الخطيئة	بسيط	إنعام
299	١		وافر	تيم
96	٣	مهلهل	كامل	الإحرام
188	١	العكوك	كامل	حاتم
250	١	عنتر	كامل	الأجذم
215	١		رمل	أمي
356	٩	الحارث بن ولة	سريع	العظم
314	٣	مهلهل	منسرح	جشم
		(ن)		
37	١	ابن زيدون	بسيط	مآقينا
215	٢	الخليل بن أحمد	بسيط	سليمانا
248	١	أبو نواس	بسيط	آمينا
198	١	عمر بن كلثوم	وافر	لا تصحينا

القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
فنولينا	وافر	عمر بن أبي ربيعة	٢	277
وهوانا	كامل	قيس بن وجرة	١	331
سفينه	رمل (مجزوء)	أبو الشَّمَقَمَق	١	237
لخائن	طويل	مالك بن نويرة	٣	89
كائن	طويل	قيس بن ذريح	٣	274
تطحن	كامل (مجزوء)	أبو العتاهية	١	352
الأمين	خفيف		٢	340
الحدثان	طويل	أبو نواس	٣	249
السكن	مديد	أبو نواس	٥	248
منن	بسيط	الحارث بن عوف	٢	140
باليقين	وافر	الحارث بن عمرو	١	135
سرحان	كامل		٢	354
يتوقاني	سريع	الخليل	٢	215
والمنن	منسرح	سهل بن هارون	٢	199
بهجين	خفيف	جذيمة الأبرش	٢	81
الميزان	خفيف	بشار	٣	241
الأطعان	خفيف	عمر بن أبي ربيعة	٣	278
يلتقيان	خفيف	عمر بن أبي ربيعة	٢	297
(هـ)				
تيها	وافر	ولادة	٢	40
سفيها	رمل	أبو نواس	٢	249
تيهه	منسرح		١	326
لحاهها	وافر		١	164
الملاهي	رمل (مجزوء)	أبو نواس	٢	247

القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
		(و)		
لهو	منسرح	أبو العتاهية	٢	351
		(ي)		
يديه	طويل	أبو العتاهية	١	350
لاقيا	طويل		١	127
باديا	طويل	عمرو بن الأهم	٢	132
بداليا	طويل	عبدالله بن معاوية	٣	272
البواكيا	طويل	الفرزدق	٥	304
مدانيا	طويل	ابنة الخس	٢	313
عليّا	وافر	أبو الأسود الدؤلي	٤	221
شيّا	وافر	أبو العتاهية	٢	351
		(الألف المقصورة)		
الصّوي	مقارب	المتنبي	٨	361

٦- فهرس أنصاف الأبيات (*)

الصفحة	القائل
65	الأعشى إنه كائن أبا للكسور
288	الأعشى تسمح للحلي وسواساً إذا انصرف ^(١)
126	 زكنت منهم على مثل الذي زكنوا
284	 ستعلم ما تغني معيد ومعرض
236	بشار طال الثواء على رسوم المنزل
236	يعقوب بن داود فإذا تشاء أبا معاذ فأرحل
296	 وعلى ألافها الطير تقع

(*) مرتب حسب أوائلها.

(١) بقيته:

* كما استعان بريح عشرق زجل *

٧- فهرس الأرجاز

صفحة	القافية	القبائل	صفحة	القافية	القبائل
207	هلال	الجاحظ	(ب)		
99	رجله	أم الأحنف	86	يُنْبُ	
	(م)		142	منصبا	ليد
289	الخدمه	حماس بن قيس	164	دولبوا	حارثة بن بدر
345	سلمه	الخطيئة	(ح)		
310	بالدم	عقيل بن علفه	121	الأنواح	ليد
	(ي)		(ر)		
81	فيه	عمرو بن عدي	91	بمعمر	كليب
			333	جابر	الحمراء بنت ضمرة
			(س)		
			245	أمسا	
			(ط)		
			44	الأوراط	رؤبة
			(ع)		
			282	جذع	دريد بن الصمة
			(ف)		
			80	أكلف	طريف
			(ق)		
			101	حقاً	الأحنف
			(ل)		
			117	مقتول	السليك
			90	ضله	البراض

٨- فهرس الأعلام (*)

(أ)

171,177	إسقيليبيوس	55,163,170,229,230	آدم (عليه السلام)
122	الأحوص بن جعفر العامري		آكل المراز = الحارث بن عمرو بن معاوية
321	الأخطل	230	أبان بن سمعان
288	الأخنس بن شريق	50,78	إبراهيم (عليه السلام)
227	إدريارد (موبذ موبذان)	194	إبراهيم بن جبلة
	إدريس (عليه السلام) = يلينوس		إبراهيم بن سيار بن هانيء = النظام
144	أربد بن قيس	148,149	إبراهيم بن طلحة
66,76	أردشير ^(٢) (ملك الفرس)	186	إبراهيم بن عبدالعزيز
	أردشير بن بابك (ملك الفرس المعروف	241	إبراهيم بن عبدالله بن حسن
76,80,172	بأردشير الأول)	288	إبراهيم بن المهدي
84	أردي مرخت	271,272,350	إبراهيم الموصلي
71,72,74,173,174,175	أرسطاطليس الحكيم	83	أبرويز بن هرمز
	ابن الأزور = ضرار	167	أبزي (حداد)
68	إسحاق (عليه السلام)	177,178,179,180	أبقراط بن إيراقليس
190,192	إسحاق بن إبراهيم الموصلي	181	
230	إسحاق بن سعد	349	أحمد بن الحارث (الراوي)
188	إسحاق بن الصباح		أحمد بن الحسين الجعفي = المتنبي ^(١)
242	إسحاق بن الفضل الهاشمي	236	أحمد بن خالد
	إسحاق الموصلي = إسحاق بن إبراهيم		أحمد بن عبدالله بن غالب بن زيدون =
	أبو إسحاق النظام = النظام		ابن زيدون
262	أسد بن هاشم بن عبد مناف	188	أحمد بن المعتصم المستعين بالله
70,77,174,176	الإسكندر بن فيلبس		(الخليفة العباسي)
	إسمايل بن القاسم = أبو العتاهية	154	أحمد بن يونس
219,221,222	أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو	99	الأحنف بن قيس (واسمه الضحّاك)
318	الأسود العنسي	102,104,131,162,163,188,209,293	
320	الأسود بن المنذر		

(*) موضع الترجمة للأعلام المترجمة ميز بأرقام بارزة.

(١) طبع خطأ "أحمد بن محمد بن الحسين".

(٢) بدون وصف.

- 126,127,128, (٣) إياس بن معاوية أبو وائلة
 129,188 (ب)
 64 باذام (عامل كسرى)
 340 باغر التركي (غلام المتوكل)
 291,292 باقل بن عمر الأيادي (صاحب المثل)
 234 الباهلي
 أبو بجير = الحارث بن عباد
 93,94 بجير بن الحارث
 95,254 البحري (أبو عبادة)
 34 بحري المغرب (محمد بن هانيء)
 أبو بحر = الأحنف بن قيس
 70 بختنصر
 203 ابن بختيشوع (الطبيب)
 308 بدر بن حصن بن حذيفة
 أبو براء = عامر بن مالك
 البراض بن قيس
 89,90 براقش
 353 بزر جمهر
 195 ابن بسام (علي بن بسام)
 33,34 بسطام بن قيس
 144 البسوس (خالة جساس)
 91 بشار بن برد
 234,235,236,237,238,239
 240,241,327,348
 105,107 بشر بن أبي خازم
 335 بشر بن ربيعة
 بطليموس (صاحب المجسطي) 176,177,191,192
 بطليموس الصانع (ملك اليونان) 176
- 325 أشجع السلمي
 ابن الأشعث = عبد الرحمن
 188 الأشعث بن قيس
 الأصمعي 113,117,129,239,273,282
 296,307,318,319,326
 107 ابن الأعرابي
 65,98,137,317,318 أعشى قيس
 79 أفريدون^(١) بن جمشيد
 أفلاطون بن أرسطون^(٢) 172,173,174,177,191
 171 إقليدس
 157 الأقيشر
 48 أكثم بن صيفي
 امرأة العزيز = زليخا
 94 امرؤ القيس بن أبان التغلبي
 93,97,98,133,246, امرؤ القيس بن حجر
 251,260,262,317
 153 أمية بن الصلت
 الأمين (الخليفة العباسي) 246,248,249,253
 أنس بن مالك الأنصاري أبو حمزة 128
 أنس بن مدرك 117
 أنطرطس (ملك الروم) 69
 أنطينيوس (ملك الروم) 176
 الأوزاعي 229,230
 أوس بن حارثة بن بدر 138,139
 أوس بن حجر 255
 أوغسطس (ملك الروم) 176
 إياس بن قبيصة 320
- (١) طبع خطأ "أسقنيوس".
 (٢) طبع خطأ "أرسطو".
 (٣) طبع خطأ "وائله".

- أبو ثور = عمرو بن معد يكرب
(ج)
183 جابر بن حيان
44,160, الجاحظ عمرو بن بحر، أبو عثمان
183,185, 196,197,200,201,202,203,
204,214,227,235,239,250,268,303
171,178,179,180 جالينوس
271,272 ابن جامع
309 جثامة بن عقيل
110 ابن جذل الطعان
80,82,85,359 جذيمة الأبرش
103 ابن جرموز (قاتل الزبير)
جرو ل بن عبد المسيح = الخطيئة
235 جرير بن حازم
جرير بن عبد المسيح = المتلمس
300,301 جرير بن عطية الخطفي
91,92,93,133 جساس بن مرة
301 أبو الجعد (صديق الفرزدق)
230,231 الجعد بن درهم
209 جعفر بن سليمان
184 جعفر الصادق
269 جعفر بن أبي طالب
جعفر بن محمد بن عمر البلخي = أبو معشر
الفلكي
193,270 أبو جعفر المنصور (ال خليفة العباسي)
الجفول = مالك بن النيرة
202 الجماز
79 جمشيد بن أوشهنج
344 بغض بن عامر
183 أبو بكر الرازي
86,87,293 أبو بكر الصديق
177 ابن بكير
64 البلاذري
230,301 بلال بن أبي بردة
بلقمة = بلقيس
84,85,340 بلقيس ابنة شراحيل بن الحارث بن سبأ
170,171 بلينوس
159 بندار (أعجمي كان عيناً لقتيبة بن مسلم)
118,119 أم البنين (أم عامر بن مالك بن جعفر)
226,228 بهرام بن سابور
231 بهلول
76,177 بهمن بن إسفنديار
139 بهيسة بنت أوس بن حارثة
83 بوران ابنة أبرويز
84 بوران بنت الحسن بن سهل
232 ابن بيض (حمزة)
(ت)
316 تأبط شراً
تماضر بنت عمرو بن الشريد = الخنساء
126,182,188,189 أبو تمام حبيب بن أوس
253,255,263,291
التوحيدي = أبو حيان
(ث)
الشريا بنت عبدالله (صاحبة ابن أبي ربيعة)
276,277,279,296
ثعلبة بن عمرو الطائي
332
349 تمامة بن أشرس

- 103 الحتات بن يزيد
 164 الحجاج بن ناب
 146,147,148,149 الحجاج بن يوسف الثقفي
 150,151,152,153,154,155,156,157,158,
 159,160,166,168,170,193,330
 260 حجر بن الحارث الكندي
 الحدقي = الجاحظ
 123,124,135,136,137 حذيفة بن بدر
 119,120 حرام بن ملحان
 276 الحرمي بن العلاء
 397 حريث بن قحطان
 140 حسان بن ثابت
 119 حسان بن نمير
 242 الحسن بن إبراهيم بن عبدالله
 127,128,155,200 الحسن البصري
 196,197,288 الحسن بن سهل
 164 الحسن بن عبدالله
 103,233,325 الحسن بن علي بن أبي طالب
 210 حسن بن نعمان
 153,233 الحسين بن علي بن أبي طالب
 113,125,143,342, الحطيئة، جروول بن أوس
 343,344,345,346
 218 أبو جعفر الأشعري
 128 الحكم بن أيوب
 302 الحكم بن المنذر
 239 حماد عجرد
 289 حماس بن قيس
 290 حمدون
 210 ابن حمدون (صاحب التذكرة)
 279,280 جميل بن معمر
 53,54 ابن جنى
 319 أبو جهل عمرو بن هشام
 230 الجهم بن صفوان
 ابن جهور = أبو الوليد بن جهور
 (ح)
 334 ابن أبي حاتم (الراوي)
 49,307 أبو حاتم السجستاني
 104,105,188,220, حاتم بن عبدالله الطائي
 292,332
 53,175 الحاقمي
 317 الحارث بن سليل الأزدي
 316 حاجب بن زرارة
 97,340 الحارث بن أبي شمر
 119,120 الحارث بن الصمة
 97 الحارث بن ظالم المري
 93,94,341 الحارث بن عباد
 64 الحارث بن عقبة
 133,134 الحارث بن معاوية الكندي
 94,138,139 الحارث بن عوف المري
 288 الحارث بن هشام
 356 الحارث بن ويلة اليشكري
 164 حارثة بن بدر
 103 حارثة بن قدامة
 حبيب بن أوس = أبو تمام
 50 أم حبيبة بنت أبي سقبان (أم المؤمنين)
 48 حبش بن أكثم بن صيفي

- 246 خلف الأحمر
الخليل بن أحمد الفراهيدي 185,213,214,222
- 76 خناني بنت بهمن
الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الشريد 282,284,
326,327,328,329
- (د)
- 273 ابن دأب
دارا 72,76
دارا الأصغر ابن دارا الأكبر 71,72
دارا الأكبر 71
داود (عليه السلام) 43,128
داوداذ 186
ابن دريد 49
دريد بن الصمة 282,284,355
دعبل 196,253
أبو دلف العجلي 188
الدمستق (ملك الروم) 265
ابن أبي دواد 200,203,205,231
- (ذ)
- 120 ذكوان
ذو الإصبع العدواني 316,357
ذو الرمة غيلان بن عقبة 46,216,230
ذو القرنين = الإسكندر بن فيلبس
ذو القروح = امرؤ القيس
ذو وزن 210
ذؤاب بن أسماء 282
ابن أبي ذؤيب 209
- 333 الحمراء بنت ضمرة
أبو حمزة = أنس بن مالك
حمل بن بدر 123,124,125,137
حميد الأرقط 291
أبو حنيفة النعمان 286,287
حنين (صاحب المثل) 262
الحوراء بنت عقيل بن علفة 309
حوط (رجل من يربوع) 135
ابن حيان (صاحب كتاب المقتبس) 34
أبو حيان التوحيدي 177,215
- (خ)
- 139 خارجة بن سنان
خالد الأعمش 291
خالد البرمكي 241
خالد بن خدّاش 163
خالد بن سعيد 340
خالد بن صفوان 100
خالد بن الصقعب 337
خالد بن عبدالله القسري 230,231,234
خالد بن الوليد 86,143
الخثعمي (الراوي) 334
خزرج بن لوزان 341
ابنة الخس (هند) 312
الخصيب (مدوح أبي نواس) 251
ابن الخطيم (قيس) 54
ابن خلاد 318

- (ز)
- الزباء، فارعة ابنة مليح بن البراء 82,84,85,359
- الزباء بنت علقمة بن خصفة 317
- زبراء (جارية الأحنف) 100,103
- الزبرقان بن بدر 343,344,345
- أبو زبيد الطائي 110
- ابن الزبير = عبدالله
- الزبير بن العوام 102
- الزجاج 62
- زرّ بن سدوس 110
- زرادة بن عدس 330,331,332
- زفر بن الحارث 148
- زليخا (امراة العزيز) 61
- زهير بن أبي سلمى 138,317
- ابن الزيات = محمد بن عبد الملك
- زياد بن أبيه 219,355
- زياد بن الهبولة 134,135
- الزيادي (المنجم) 182,183
- أبو زيد الأنصاري 246
- زيد بن الخطاب 86,87
- زيد الخيل أو الخير 109,110,111,113
- زيد بن داود 208
- ابن زيدون، أحمد بن عبدالله ألو الوليد 31,40
- (زوج مالك بن نويرة)
- زينب بنت موسى 278
- 221 أبو ذؤيب الهذليّ
- (ر)
- الراغب الأصفهاني 44,45
- راشد بن عبد ربه = غاوي بن ظالم
- ربيع بن ربيع السلمي 282
- الربيع بن زياد 137,138
- الربيع بن عمرو 163
- ابن أبي ربيعة = عمر بن أبي ربيعة
- ربيعة الرأي 228
- ربيعة الرقيّ 190
- ربيعة بن مالك بن جعفر 118
- رتبيل (كاتب المهلب) 169
- رجاء بن حيوة 148
- الرشيد (الخليفة العباسي) 188,209,242,246,271,272
- ابن رشيق 58
- رقاش (أخت جذيمة) 81
- الرقاشي 246
- رميلة بنت شعار الطائي 331
- رؤبة بن العجاج 230
- روح بن زنباع 147,148
- روسطافس 174
- روشنك 72,76
- روم بن العيص 68
- رباح بن الأشلّ الغنويّ 122
- ريحانة بنت السكن 84
- ريحانة بنت معد يكرب 282

172,177 سقراط
 114 السلكة (أم السليك العداء)
 348,352 سلم الخاسر
 336 سلمان بن ربيعة
 114,115,116,117 السليك بن السلكة
 147 سليم بن عمرو القاضي
 84,128,156,340 سليمان (عليه السلام)
 160,161 سليمان بن عبد الملك
 237 سليمان بن علي
 248 سليمان بن المنصور
 214,215 سليمان بن المهلب
 97,98 السموع بن عدياء
 131 سنان بن الأهم التميمي
 195,196,197 سهل بن هارون
 241 سهيل بن سالم
 296 سهيل بن عبدالعزيز
 241 سهيل بن عثمان
 288 سهيل بن عمرو
 357 السهيلي (صاحب الروض الآنف)
 332 سويد (رجل من دارم)
 219,245,246 سبيويه
 348 السيد الحميري
 218 السيرافي
 127 ابن سيرين
 53,55,265,266 سيف الدولة الحمداني

(س)

66,78,227 سابور بن أردشير
 76,77 ساسان بن بهمن
 سحبان وائل = سحبان بن زفر
 سحبان بن زفر بن إياس الوائلي
 43,129,130
 134,135 سدوس بن شيان
 353 سرحان بن قعنب اليربوعي
 265,266 السري الرفاء
 239 السري بن الصباح
 335 سعد بن أبي وقاص
 358 سعد بن مالك الكناني
 153 سعيد بن جبير
 254 سعيد بن سلم الطائي
 355 سعيد بن العاص
 130 سعيد بن عثمان
 192 سعيد بن مسجح
 340 سعيد بن العاص
 235 سعيد بن مسلم (الراوي)
 281 سعيد بن المسيب
 193,270 السفاح (الخليفة العباسي)
 أبو سفانة = حاتم الطائي
 106 سفانة بنت حاتم الطائي
 50,142 أبو سفيان بن حرب
 233 سفيان بن أبي عبدالله
 209 سفيان بن عيينة

صخر بن عمرو بن الشريد 326,327,329
(أخو الخنساء)

صخير بن أبو الجهم العدوي 310

صرد (رجل كان مع السليك) 117,118

صفية بنت أبي جهل 288

صليح بن وهب 134

(ض)

ضابء بن الحارث البرجمي 264,265

ابن ضبارة 271

الضحاك بن الأهبوب (ملك الفرس) 78,79

الضحاك بن قيس = الأحنف بن قيس

ضرار بن الأزور الأسدي 86,87

ضرار الضبي 159

الضليل = امرؤ القيس

(ط)

طالوت بن أعصم 230

أبو طاهر 203

طرفة بن العبد 305,306

ابن الطفيل = عامر الطفيل 118

الطفيل بن مالك بن جعفر

طلحة الطلحات = طلحة بن عبدالله

طلحة بن عبدالله الخزاعي 130

أبو الطمحان القيني 300

طويس عيسى بن عبدالله، المغني 293,294,295

أبو الطيب = المتنبي

طيماوس 172

(ش)

شأس بن زهير 122

الشافعي (صاحب المذهب) 208,209

شبل بن قلادة 117

شداد الحارثي 198

الشرقي بن شبت بن ربيعي 269

الشرقي القطامي 353

الشريف المرتضى 207,208,300,312,313

الشعبي 99

أبو شعيب (صاحب ابن أبي دواد) 349

أبو شعيب القلال 202

شقة بن ضمرة 284

شمس الدين النواجي (صاحب حلب)

الكميت 292

أبو الشمقمق 359

شهريار بن أبرويز 83

ابن أبي الشيص 253,254

الشيبياني = أبو عمرو

شيرين (زوجة أبرويز بن هرمز) 83

الشيصان 84

(ص)

صالح بن عبدالقدوس 185,235

صالح بن مخراق 167

ابن الصباح = إسحاق بن الصباح

صخر بن قيس = الأحنف

عبدالرحمن بن الأشعث 151,154,169
 عبدالرحمن بن الحارث المخزومي 295
 عبدالرحمن بن حسان ثابت 294,295
 عبدالرحمن بن الحكم المعروف بالداخل 39,209
 (الخليفة الأموي بالأندلس)
 عبد عمرو بن بشر 305
 عبدالكريم بن أبي العوجاء 235
 عبدالله بن جدعان 283
 عبدالله بن جعفر 294,295,355
 عبدالله بن حاتم الطائي 106
 عبدالله بن الزبير 148,162,164,165,192
 عبدالله بن سعد الطائي (أبو حاتم) 106
 عبدالله بن الصمّة 282
 عبدالله بن طاهر 175
 عبدالله بن ظبيان 152
 عبدالله بن عباس 49,84,229,278
 عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز 86,269
 عبدالله بن الماحوز 164,165
 عبدالله بن مسلم (أخو قتيبة بن مسلم) 159
 عبدالله بن معاوية الهاشمي 269,272
 عبدالمطلب بن هاشم 262,267
 عبدالمالك بن عمير 340
 عبدالمالك بن مروان 39,68,126,147,151,152,308,
 157,158,161,166,279,283,309,333,334
 ابن عبدوس = أبو عامر
 ابن أبي عبيد = المختار
 أبو عبيد 317

(ظ)

ظالم بن عمرو = أبو الأسود الدؤلي
 ظلمة (امرأة قوادة)

51

(ع)

70

عابر (من ملوك اليمن)

97

عادياء (أبو السموءل)

عارق = قيس بن وجرة

333

عامر بن أحيمر

270

عامر بن ضباعة

عامر بن الطفيل, 118,121,141,144,145,
 188,318,319,348

357

عامر بن الظرب

أبو عامر بن عبدوس (أحمد بن عبدوس

39,40

الوزير)

عامر بن مالك بن جعفر، أبو براء

118,119

ملاعب الأسنّة

126

ابن عائشة

عائشة بنت الصديق (أم المؤمنين) 216,327

341

أبو عبادة

عباد بن محمد (صاحب إشبيلية) 33,35

190

العباس بن محمد

100

العباس بن الوليد

52

عبدان، أبو المتنبّي

عبد الحميد بن يحيى الكاتب 192,193,195

193

عبد الجبار (صاحب شرطة السفاح)

167

عبد ربه (الصغير)

- 340 عقبة بن الحجاج
 ابن أبي عقيل = يوسف بن أبي عقيل الثقفي
 308,309,311 عقيل بن علف بن الحارث اليربوعي
 82 عقيل بن فارح (نديم جذيمة)
 288,289 عكرمة بن أبي جهل
 188 العكوك (علي بن جبلة)
 292,319,356 أبو العلاء المعري
 311 علف بن عقيل بن علف
 327 علقمة بن جرير
 317 علقمة بن خصفة الطائي
 121,141,143,144, علقمة بن علاثة بن جعفر
 145,318
 39 علي (غلام ابن زيدون)
 253 علي بن الجهم
 300 علي بن الحسين (زين العابدين)
 44,87,102,104,105,162, علي بن أبي طالب
 193,219,233,294
 54,217 أبو علي الفارسي
 305 عمار (وافد البراجم)
 273 ابن عمارة المري
 79,86,87,88,99,102,131, عمر بن الخطاب
 143,145,200,276,293,325,327,336,
 340,343,344,345
 161,267,276,277,278, عمر بن أبي ربيعة
 279,296
 68,228,229,310,334 عمر بن عبدالعزيز
 271 عمر الغزال
 189 عمر بن ميمون
 105,107 عبيد بن الأبرص
 202 عبيد الكلابي
 158 عبيد بن يونس
 116,144,157,217,235,239,248,267,283,291,324,329,
 335,317,340,343 أبو عبيدة معمر بن المثنى
 219 عبيد الله بن زياد
 299 عتاب (من بني الحارث)
 246 العتابي
 247,348,349 أبو العتاهية
 131 العتبي (الراوي)
 144 عتبية بن الحارث بن شهاب
 343 عتبية بن النهاس
 51,278 ابن أبي عتيق
 أبو عثمان = الجاحظ
 308 عثمان بن حيان
 228,265,293,334 عثمان بن عفان
 أبو عدي = حاتم
 105,106 عدي بن حاتم الطائي
 عدي بن ربيعة = مهلهل
 85,287 عدي بن زيد
 81 عدي بن نصر
 324 العرنس
 89,90 عروة بن جعفر المعروف بالرحال
 عروة الرحال = عروة بن جعفر
 278 عروة بن الزبير
 316,317 العسكري أبو هلال
 53 عضد الدولة

- 250 عنزة بن شداد
 219 عنسة النحوي
 70,167,179,225 عيسى (عليه السلام)
 عيسى بن عبدالله = طويس
 270 عيسى بن علي
 187 أبو العيناء
 336 عينة بن حصن
 (غ)
 263 غالب بن السعدي
 263 غاوي بن ظالم السلمي
 127,228,229,230 غيلان بن يونس القُدري
 (ف)
 65 فارس بن أفريزون
 65 فارس بن سام
 65 فارس بن كيومرث
 295 فارعة بنت حسان بنت ثابت
 فارعة بنت المليلح = الزباء
 233 فاطمة الزهراء
 260 فاطمة بنت ربيعة (أم امرئ القيس)
 333 فاطمة بنت عمر بن عبدالعزيز
 أبو الفدا = الملك المؤيد
 319 الفراء
 330 أبو الفرج الأصفهاني
 267,299,300,301,302,312, الفرزدق
 355
 99 فرعون
 196 الفضل بن سهل
 300 ابن عمران
 62 عمران بن قاهث
 325 أبو عمر بن أمية
 119,120 عمرو بن أمية الضمري
 عمرو بن الأهتم = عمرو بن سنان
 عمرو بن بحر = الجاحظ
 332 عمرو بن ثعلبة الطائي
 عمرو بن سنان الأهتم المنقري
 103,131,132
 110,111,350 أبو عمرو الشيباني
 220 عمرو بن العاص
 235 عمرو بن عبيد
 عمرو بن عدي
 81,82,85 أبو عمرو بن العلاء
 153,219,320,338,353
 358 عمرو بن مالك بن ضبيعة
 259,334,335, عمرو بن معد يكرب
 340,355
 305,306, عمرو بن هند
 330,333
 عمرة بنت الحارث بن عوف المري
 327 عمرة بنت الخنساء
 أبو العمّلس = عقيل بن علفه
 309 عمّلس بن عقيل
 53 ابن العميد
 265 عمير بن ضابئة البرجمي
 ابن عنبس = مسلم
 108 عنبة بنت عفيف

- 99,260 قيصر
 69 قيصر بن أنطوطس
 (ك)
 79,80 كابي
 53,361,362 كافور الإخشيدى
 279 كثير عزة
 64,65,66,67,68,285,286, كسرى
 287,319
 65,68 كسرى أنوشروان
 146 كعب الأشقرى (أحد جنود المهلب)
 113 كعب بن زهير
 104 كعب من مامة
 68,70,84,85,94 ابن الكلبي
 91,92,93,94,96,97,260 كليب بن ربيعة
 الكندي، يعقوب بن الصباح
 70,171,188,189 الفيلسوف
 95,170 كيومرث ملك الفرس
 (ل)
 118,121,244,301,320 لبيد بن ربيعة
 353 لقمان الحكيم
 168 لقيط الإيادي
 191 لَمَكُ بن متوشلح
 192 لوبا بن لَمَكُ
 277 ليلة بنت الحارث بن عمرو
 273 ليلي بنت سعد (صاحبة المجنون)
 86 ليلي بنت سنان
 267,268 الفضل بن العباس اللهي
 246 الفضل بن يحيى
 253 ابن أبي فنن
 172 فيثاغورس
 68 فيروز الأصغر ملك الفرس
 84 فيروز بن رستم (صاحب خراسان)
 (ق)
 273 قيس بن الملوّح
 62,63 قارون
 127 القاسم بن ربيعة الجوشني
 151 القاسم بن سلام
 156,157,158, قتيبة بن مسلم الباهلي
 162,238,347
 70 قحطان بن عابر
 157 قدامة بن جعفر
 135 قرواش (رجل من يربوع)
 292 قس بن ساعدة الإيادي
 82,359 قصير بن سعد (صاحب المثل)
 167,169 قطري بن الفجاءة
 312 القلمس الكناني
 204 قليب المغربي
 121,122,123,135, قيس بن زهير العبسي
 136,137,138
 100 قيس بن عاصم
 قيس بن الملوّح = مجنون ليلي
 330 قيس بن وجرة الطائي

269 محارب بن موسى الشكري
 330 المحرق (أحد ملوك جفنة)
 محرق = عمرو بن هند
 318,321,322 المخلق بن جشم الكلبي
 محمد (صلى الله عليه وسلم), 44,46,48,49,50,
 60,61,65,84,86,87,99,100,104,
 105,109,110,111,119,120,131,
 140,143,144,149,230,237, 246,
 247,263,267,282,296,296, 299,
 301,319,334,340,348,350,355
 258 محمد بن أحمد بن عمران
 209 محمد بن جعفر
 155 محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي
 208 محمد بن الحسن الشيباني
 234 محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان
 200 محمد بن عبد الملك الزيات
 278 محمد بن عروة بن الزبير
 محمد بن يوسف الثقفي (أخو الحجاج) 155
 165,330 المختار بن أبي عبيد الثقفي
 المدائني 107,122,128,269,336
 مرة بن ذهل 93
 مرداس الأسدي 157
 ابن المردى 170
 المرزباني 246
 المرزوقي (شارح الحماسة) 257
 مروان بن محمد المعروف بالجعدي 192,194,230,231
 (الخليفة الأموي)
 مروان بن أبي حفصة 235
 مروان بن الحكم 220
 ابن مسح = سعيد

(م)

ابن الماحوز = عبدالله
 292 مادر (صاحب المثل)
 مارية بنت ظالم بن وهب الكندي 333,334
 236 المازني النحوي
 مالك بن أنس (إمام دار الهجرة) 208,210,218
 229 مالك بن حنظلة
 137,138 مالك بن زهير العسبي
 155 مالك بن دينار
 82 مالك بن فارغ (نديم جذيمة)
 162,293 مالك بن مسمع
 332 مالك بن المنذر بن ماء الساء
 86,87,88,143 مالك بن نوية
 175,176,196, المأمون (الخليفة العباسي)
 197,227,246,288,349,350
 74 المانكير (من ملوك الصين)
 225,226,227,291 ماني بن فاتك الثنوي
 299 المبرد (محمد بن يزيد)
 المتلمس جرير بن عبد المسيح 46,189,305,306,307
 82,87,88 متمم بن نوية
 51,52,53,55,175, المتنبى، أحمد بن الحسين
 258, 265,266,295,296,323,361,362
 340 المتوكل (الخليفة العباسي)
 338 مجاشع بن مسعود
 158 مجاعة بن مسعر
 273,274,276 مجنون ليلي (قيس بن الملوّح)

- ابن مسعدة 319
 أبو مسلم الخراساني 193,270,271
 مسلم بن عنبس 163
 مسهر بن يزيد 144
 المسيح = عيسى عليه السلام
 مصعب بن الزبير 99,104,148,152,
 162,165
 معاذ بن إسماعيل 52
 معاوية بن الجون الكندي 89
 معاوية بن أبي سفيان 68,102,130,219,220,
 248,289,325,327,354
 معاوية بن عمرو بن الشريد (أخو الخنساء) 327
 معاوية بن مالد بن جعفر، معود الحكماء 118
 معبد الجهني 228
 معبد (المغني) 160
 المعتضد = عباد بن محمد
 المعتمد على الله (محمد بن عباد صاحب
 قرطبة) 33
 معروف الكرخي 247
 المعري = أبو العلاء
 أبو معشر الفلكي البلخي 170,182,183
 المعلی المحاربي 157
 معود الحكماء = معاوية بن مالك
 المغيرة بن حبناء
 ابن مقبل 161
 ابن المقفع 193,214
 مكحول الشامي 228
 ملاعب الأسنّة = عامر بن مالك
- أبو مليكة = الحُطَيْئة
 مليكة بنت الحُطَيْئة 343,344
 المنتجع بن نبهان 115
 منشم (المضروب بها المثل في الشؤم) 298
 المنذر الأكبر 82
 المنذر بن عمرو 119,120
 المنصور = أبو جعفر
 ابن مهاجر 228,229
 المهدي (الخليفة العباسي)، 188,234,236,237,
 238,240,242,290
 المهلب بن أبي صفرة 146,162,170,234
 مهلهل بن ربيعة 92,93,94,133,260,
 264,314
 مهلهل بن زيد الخيل 109
 موسى (عليه السلام) 62,63,130,356
 أبو موسى الأشعري 99,346
 الموفق (الخليفة العباسي)
 المؤذن البعلبكي 193
 المؤيد، إسماعيل بن علي صاحب حماة،
 المعروف بأبي الفدا 31,75
 الميداني 334
- (ن)
- النابعة الجعدي 326
 النابعة الذبياني 105,317
 ناجية بن عفال

- 128,231,301 ابن هبيرة
 92 هجرس بن كليب
 48 الهجيمي
 84 الهدهاد (لقب أبي بلقيس)
 185 أبو الهذيل العلاف المتكلم
 104,138 هرم بن سنان المريّ
 141,142,143,145 هرم بن قطبة بن سيار الفزاريّ
 270 ابن هرمة
 170,171 هرمس
 100,194,229,230, هشام بن عبد الملك
 231,267,300
 238 هلال بن عطية
 همام بن غالب = الفرزدق
 93,314 همام بن مرة
 هند بنت الحارث (صاحبة عمر بن أبي ربيعة)
 281
 330 هند بنت الحارث بن حجر
 هند بنت الحُصّ = ابنة الحُصّ
 هند بنت ظالم (امراة الحارث بن عمرو بن معاوية الكندي)
 134
 312 هند بنت النعمان بن المنذر
 70 هيلانة أم الإسكندر
 (و)
 الواحدي (شارح ديوان المتنبي)
 258 واصل بن عطاء
 235 وائلة (أبو بكر وتغلب)
 127
- 162,163 نافع بن الأزرق (*)
 118 نزار بن مالك
 236 ابن نصر
 213 أبو نصر الجوهري
 192 النضر بن الحارث بن كلدة
 92,93 نضلة بن مرة (أخو جساس)
 174 نطافورس
 64 النطف بن خيبري
 184,187,200,250 النظام، إبراهيم بن سيار
 285,287,312,358 النعمان بن المنذر
 237 ابن نهيك (صاحب شرطة المهدي)
 النوار (زوجة حاتم)
 أبو نواس، الحسن بن هانئ، 40,78,202,246,
 247,248,250,325,349
 226 النوبختي
 154 نوح (عليه السلام)
 92 أبو النويرة (قاتل جساس)
 (ه)
 62 هارون (عليه السلام)
 الهاشمي = عبدالله بن معاوية
 هبنقة، يزيد بن ثروان
 293 ابن الهبولة = زياد
- (*) طبع خطأ كما في الأصول "نافع بن عبدالله بن الأزرق"

62	يصهر بن قاهث	أبو وائلة = إياس بن معاوية
237,238	يعقوب بن داود (وزير المهدي)	أبو وائل تغلب بن داود
241,242		أبو الودعات = هبّقة
	يعقوب الكندي = الكندي	ابن وكيع
60,61	يوسف (عليه السلام)	ولادة بنت المستكفي
147	يوسف بن أبي عقيل الثقفي (أبو الحجاج)	أبو الوليد بن جهور
210	أبو يوسف القاضي	الوليد ربيعة
70	يونان بن بقية	أبو الوليد بن زيدون = ابن زيدون
70	يونان بن يافث	الوليد بن عبد الملك
		الوليد بن يزيد
		وهب

(ي)

310,311	يحيى بن الحكم
66	يحيى بن خالد البرمكي
79,160	يزدجرد
152	يزيد بن أبي أسلم
	يزيد بن ثروان = هبّقة
158	يزيد بن الحصين
158	يزيد بن دينار
283	يزيد بن عبد المدان
308,334	يزيد بن عبد الملك
247	يزيد بن الفضل
158	يزيد بن أبي كبشة
157,158,160	يزيد بن المهلب
297,298	يسار (عبد)

٩- فهرس القبائل والأمم والفِرَق

بكر بن وائل, 90,94,116,133,289,302,305	(ء)	بنو الأحوص
333	بنو بهدلة	الأراقم
(ت)	225	الأرمن
64,158	الترك	الأزارقة
94,133,314	تغلب	الأزد
48,49,64,102,116,131,289,293,299,300,301,305,333,354	بنو تميم	بنو أسد
(ث)	262	بنو أسد بن هاشم
137,140,144	بنو ثعلبة	بنو إسرائيل
154	ثمود	الأشعرية
290	الثنوية	الأشعريون
(ج)	84	بنو الأصفر = الروم
84	جدام	الإفرنجية
91	بنو جشم	بنو أمية
64,274	بنو جعدة	الأنصار
89,119,143	بنو جعفر	أنمار
333	ملوك جفنة	إياد
314	جَنْب	(ب)
الجهاورة = بنو جهور	129	باهلة
230	الجهمية	البراجم
34	بنو جهور	البراهمة
(ح)	113,135,324	بنو بدر
299	بنو الحارث بن عمرو	بنو بغيض
299	الحبطات	بنو بكر بن كلاب
274	بنو الحريش	

120,263	بنو سليم	230	بنو الحكم
237	آل سليمان بن علي	53	بنو حمدان
162	آل أبي سفيان	64,84,289	حمير
54,185	السوفسطائية	64,89,122,332,333	بنو حنظلة
(ش)		(خ)	
121	بنو شريح	141	بنو خالد
344,347	آل شماس	117	خثعم
195	الشعوبية	333	خندف
91	بنو شيان	162,163,164,165,167,168	الخوارج
(ص)		(د)	
170	الصابئة	298,299	بنو دارم
159	الصغد	(ذ)	
70	الصقالبة	121,123,125,135,137	ذبيان
(ض)		(ر)	
305	بنو ضبيعة	293	بنو راسب
(ط)		64,68,69,70,82,97,192,225, 265,285	الروم
293	بنو طفاوة	(ز)	
33,39,76,77	الطوائف بالأندلس	340	بنو زبيد
105,107,110,113,330,332	طيء	158	آل الزبير
(ع)		225	الزراذشتية
82	عاد	(س)	
89,111,119,121,122	بنو عامر	225	السامرة
144,273		84	سبأ
84	عاملة	91,99,333	بنو سعد
52,121,123,135	بنو عبس	52	السكون
193	بنو العباس	144,157,348	بنو سلول

107,111,301	قيس		
293	بنو قيس بن ثعلبة	225	العبانية
310	بنو القين	182	العجم
(ك)		332	بنو عدي بن أخزم
333	كعب	70,80	العرب
89	بنو كنانة	120	عصية
84,97,133,147	كندة	234	بنو عقيل
225	الكيومرثية	107	عنزة
(ل)		301	العمانية
84,134	لحم	225	العنانية
(م)		(غ)	
141	بنو مالك	84,134,333	غسان
225,227	المانوية	90,260	غطفان
225,226	المجوس	122,142	غني
88	آل محرق	(ف)	
293	بنو مخزوم	78	الفراعنة
84	مذحج	64,65,71,72,77,82,192,195,285	الفرس
91	بنو مرة	113	فزارة
164,299	بنو مسمع	355	بنو فقيم
115,120,333	مضر	(ق)	
184,225	المعتزلة		
333	معد	65,78,246	قحطان
284	معيد	225	القراءون
114	بنو مقاعس	276,277,319,318,325	قريش
225	الملكانية	220,221	بنو قشير
86	آل المنذر	80,82,289	قضاة
158	آل المهلب		

72	الموابدة
225	الموشكانية
(ن)	
111	بنو نبهان
333	بنو نزار
225	النسطورية
126,225	النصارى
90	النصرانية
81	آل نصر
124,344	النمر بن قاسط
113	بنو نمير
354	بنو نهشل
(هـ)	
234,269,299	بنو هاشم
221	هذيل
142	بنو هرم
317	بنو هزّان
285,330	الهند
89,108,145,282	بنو هوازن
(و)	
135,292	بنو وائل
86,135,136	بنو يربوع
94	بنو يشكر
225	اليعقوبية
78,84,314	اليمانية
97,225	يهود
69,70,77,171,176,178,196	اليونان

١٠ - فهرس الأمكنة والبقاع

البصرة, 80,99,126,163,164,169,195,	(ء)	
200,213,219,236,237,239,243,		
246,248,269,301,354	77,243	الأبلة
310 بطن هَرْشِي	97	الأبلىق (حصن السمّوئل)
237 البطيحة	91	الأحصّ
188,200,236,253,350 بغداد	170	أخميم
82 بقّة	77	أستراباد
158 بلخ	176	الإسكندرية
70 بيت الصنائع	33,41	إشبيلية
119,120 بئر معونة		الإصَاد = ذات الإصَاد
77 بيسان	74,79,165,270	أصبهان
159 بيكند	77,167	إصطخر
85 بينون (حصن باليمن)	361	أعكش
(ت)	80	الأنبار
148 تبالة	33,209	الأندلس
334 تبوك	165,186,214	الأهواز
180 تنيس	66,67,68	إيوان كسرى
89,260 تهامة	(ب)	
97 تيماء	72,171	بابل
(ج)	52,300,308,310	بادية السماوة
253 جاسم	70,243	البحر الرومي
248 جامع البصرة	243	البحر الشرقي
253 جامع بغداد	244	بحر القلزم
71,147,196 الجزيرة	134,306	البحرين
243 جزيرة كيش	159	بخاري
124 جفر الهباءة	170	برباء أخميم = أخميم

345	ذو مرخ
(ر)	
100	الرصافة
68,69,70,82,85,97,265	الروم
66,68	رومية
157,269	الريّ
(ز)	
244	زقاق سبتة
(س)	
287	ساباط
244	سبتة
53	السبيع
159	سجستان
74,159	سمرقند
204,330	السند
163	السود
(ش)	
82,84,85,92,99,126,127,134,148,	الشام
152,160,192,296,300,309,333	
91	شبيث
75	شهرزور
270	شيراز
(ص)	
153	صنعاء
74,160,243	الصين

(ح)	
64,68,243	الحبشة
80,148	الحجاز
96	حجر
148,149,150	الحرمان
82,85	الحضر
52	حضر موت
253	حوارين
80,260,262,285,286,306	الخيرة
(خ)	
85	الخابور
84,101,129,157,158,160,	خراسان
161,162,164,169,270	
32	خزائن دمشق الوقفية
159	خوارزم
(د)	
	دار الهجرة = المدينة
83	دجلة
164	دجيل
32,156,230,248,253	دمشق
151,155	دير الجماجم
(ذ)	
137	ذات الإصا
91,95,96	الذئائب
95	ذو حسم

196	قبرص	(ط)	
33,39	قرطبة		الطالقان
147	قرقيسياء	158	الطائف
70	القسطنطينية	146,148,296	طخارستان
83	قصر شيرين	158,234	
269	قم	(ع)	
243	قنطس	53,83,102,148,150,151,	العراق
69	قيسارية الروم	152,155,156,157,159,165,	
69	قيسارية الشام	166,168,322,361	
(ك)		300	عسفان
160	كاشغر	123	العقبة
77	الكرخ	294	العقيق
165,270	كرمان	89,318	عكاظ
334	الكعبة	125	عمان
52,80,99,150,151,154,188,192	الكوفة	(غ)	
230,265,269,286,348		82	الغريّان
(ل)		85	غمدان (حصن باليمن)
52	اللاذقية	(ف)	
(م)		72,162,171,178,243,269	فارس
158	ما وراء النهر	111	فدك
336	محلة بني زبيد	85,294	الفرات
83	المدائن	180,244	الفرما
110,148,152,208,293,300,308,	المدينة	(ق)	
310,354		334,335	القادسية
337	المربد	253	القاهرة

55,61,70,99,147,170	مصر
34,70,243	المغرب
135,148,156,289,332	مكة
113	الملح
(ن)	
48	نجران
89,119	نجد
71	نصيبين
61	نهر الفيوم
195	نيسابور
(هـ)	
124	الهباءة
74	هراة
269	همذان
74,171,235,243,330	الهند
(و)	
89,137	واردات
156,340	واسط
(ي)	
97	يثرب
334	يرموك
52,64,70,84,85,115,297	اليمن
69,70	اليونان

١١ - فهرس الكتب (وهي التي ذكرها ابن نباتة في أثناء الكتاب)

الصفحة

330,331,332,333,334,335,336,337,338	 الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني
243	 كتاب جغرافيا لبطليموس
317	 جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري
46	 الحيوان للجاحظ
124	 ديوان الحماسة لابن تمام
39,40	 الذخيرة لابن بسام
357	 الروض الأنف للسهيبي
129	 زكن إياس
257	 شرح ديوان الحماسة للمرزوقي
258	 شرح ديوان المتنبي للواحي
195	 ثعلة وعفرة لسهل بن هارون
46	 كليله ودمنة
334	 مجمع الأمثال للميداني
75	 المختصر في تاريخ البشر لأبي الفدا
44,45	 مفردات الراغب الأصفهاني
34	 المقتبس لحيان بن خلف

١٢ - فهرس مراجع الشرح والتحقيق

- أخبار القضاة لوكيع (الإستقامة ١٩٤٧ م).
- أدب الدنيا والدين للماوردي (المطبعة الأميرية سنة ١٩٢٣ م).
- الإشتقاق لابن دريد (مطبعة السُّنة المحمدية ١٩٥٨ م).
- الإصابة لابن حجر (نشرة مصطفى محمد ١٩٣٩ م).
- الأصمعيات، للأصمعي (دار المعارف ١٣٧٠ هـ).
- الأعلام لخير الدين الزركلي (الطبعة الثانية).
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ - ودار الكتب).
- أمالي القالي (مطبعة دار الكتب ١٣٤٤ هـ).
- أمالي المرتضى (عيسى الحلبي ١٩٥٠ م).
- أمراء البيان لمحمد كردعلي (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ م).
- أنساب الأشراف للبلاذري (دار المعارف ١٩٥٩ م).
- أنساب الخيل لابن الكلبي (دار الكتب ١٩٤٦ م).
- أيام العرب في الجاهلية لجاد المولى، والبجاوي، وأبي الفضل (عيسى الحلبي سنة ١٩٤٢ م).
- بلوغ الأرب في أحوال العرب للألوسي (الرحمانية ١٣٤٣ هـ).
- البيان والتبيين للجاحظ (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٠ م).
- تاج العروس للزبيدي (القاهرة ١٩٠٦ م).
- تاريخ ابن الأثير (إدارة الطباعة المنبرية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ).
- تاريخ الإسلام الذهبي (نشرة القدسي ١٣٢٦ هـ).
- تاريخ الطبري (الحسينية ١٣٢٦ هـ).
- تهذيب التهذيب لابن حجر (حيدر آباد ١٣٢٥ هـ).
- ثمار القلوب في المضاف والنسب للثعالبي (مطبعة الظاهر ١٣٢٦ هـ).
- الجامع الصغير للسيوطي (عيسى الحلبي ١٩٥٤ م).
- حذوة المقتبس لأبي عبدالله الحميدي (مطبعة السعادة ١٣٧١ هـ).

- جمهرة الأمثال للعسكري (المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣١٠ هـ).
- جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت (مطبعة مصطفى الحلبي سنة ١٩٣٧ م).
- الحيوان للجاحظ (مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٥٧ هـ).
- خزانة الأدب للبغدادى (بولاقي ١٢٠٩ هـ).
- ابن خلكان (المطبعة الميمنية هـ).
- دائرة المعارف الإسلامية (القاهرة ١٩٣٣ م).
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر (حيدر آباد ١٩٥٠ م).
- ديوان أبي بن مقبل (دمشق ١٩٦٢ م).
- ديوان الأعشى (فيينا ١٩٢٧ م).
- ديوان امرئ القيس (دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م).
- ديوان أوس بن حجر (دار صادر بيروت سنة ١٩٦٠ م).
- ديوان البحتري (هندية ١٩١١ م).
- ديوان بشار بن برد (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠ م).
- ديوان أبي تمام (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥١ م).
- ديوان جرير (الصاوي ١٣٦٣ هـ).
- ديوان جميل (دار مصر للطباعة).
- ديوان حاتم الطائي (ضمن مجموعة خمسة دواوين - المطبعة الوهبية ١٩٣٩ م).
- ديوان حسان بن ثابت (الرحمانية ١٩٣٩ م).
- ديوان الحطيئة (التقدم بمصر).
- ديوان الحماسة - بشرح التبريزي (مطبعة حجازي ١٩٣٨ م).
- ديوان الحماسة - بشرح المرزوقي (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦١ م).
- ديوان ذي الرمة (كمبرج ١٩١٩ م).
- ديوان زهير بن أبي سلمى (دار الكتب ١٣٦٣ هـ).
- ديوان ابن زيدون (الرسالة ١٩٥٧ م).
- ديوان السموئل (مطبعة المعارف ببغداد ١٩٥٥ م).
- ديوان طرفة بن العبد (الأنجلو ١٩٥٨ م).
- ديوان أبي العتاهية (بيروت ١٩١٤ م).
- ديوان العرجي (بغداد سنة ١٩٥٦ م).
- ديوان عمر بن أبي ربيعة (مطبعة السعادة ١٩٦٠ م).

- ديوان الفرزدق (الصاوي ١٣٥٤ م).
- ديوان لبید (الكويت ١٩٦٢ م).
- ديوان المتلمس (ليبسك).
- ديوان المتنبي - بشرح العكبري (مصطفى الحلبي ١٩٣٦ م).
- ديوان مجنون ليلى (دار مصر للطباعة).
- ديوان أبي نواس (العمومية ١٨٩٨ م).
- ديوان الهذليين (دار الكتب ١٣٦٩ هـ).
- الذخيرة لابن بسام (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م).
- رغبة الآمل من كتاب الكامل للمرصفي (مطبعة النهضة ١٣٤٦ هـ).
- الروض الآنف للسهيلى (الجمالية ١٩١٤ م).
- زيادات ديوان المتنبي لعبد العزيز الميمنى (السلفية ١٣٤٦ هـ).
- ابن زيدون، عصره وحياته وأدبه، لعلي عبد العظيم (الرسالة ١٩٥٥ م).
- سيرة ابن هشام (مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٦ هـ).
- شرح القصائد العشر للتبريزي (السلفية سنة ١٣٤٣ هـ).
- شرح مقامات الحريري للشريشي (بولاقي ١٣٠٠ هـ).
- شروح سقط الزند (دار الكتب ١٩٤٥ م).
- الشعر والشعراء لابن قتيبة (عيسى الحلبي ١٣٦٤ هـ).
- شعراء النصرانية (مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ١٩٢٦ م).
- شواهد العيني (المطبعة الكاستلية ١٢٩٧ م).
- صفة الصفوة لابن الجوزي (حيدر آباد سنة ١٣٥٦ هـ).
- الصلة لابن بشكوال (مطبعة السعادة ١٩٥٥ م).
- طبقات الأطباء لابن جلجل (المعهد الفرنسي بالقاهرة ١٩٥٥ م).
- طبقات الشعراء لابن المعتز (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦ م).
- كتاب العصا لابن منقذ (خمسة مجموعة نوادر المحفوظات - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ م).
- العقد لابن عبد ربه (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٠ هـ).
- العملة لابن رشيق (مطبعة السعادة ١٩٥٥ م).
- الفاضل للمبرد (مطبعة دار الكتب ١٩٥٦ م).
- الفائق في غريب الحديث والأثر (مطبعة عيسى الحلبي ١٣٦٤ هـ).

- قطر الندى لابن هشام (مطبعة السعادة ١٩٤٩ م).
- قلائد العقيان للفتح بن خاقان (بولاقي سنة ١٢٨٣ هـ).
- الكامل للمبرد (نهضة مصر سنة ١٩٥٦ م).
- الكتاب لسيبويه (بولاقي سنة ١٣١٦ هـ).
- الكشاف للزمخشري (مطبعة الإستقامة ١٩٥٣ م).
- كشف الظنون لحاجي خليفة (الآستانة ١٩٤١ م).
- الكنايات للجرجاني (السعادة سنة ١٣٢٦ هـ).
- اللآلي لأبي عبيد البكري (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ).
- لسان العرب لابن منظور (بولاقي سنة ١٣٠٠ هـ).
- مجمع الأمثال للميداني (المطبعة الخيرية سنة ١٣١٠ هـ).
- مختارات البارودي (مطبعة الجريدة بغيطة العدة سنة ١٣٢٧ هـ).
- مختارات ابن الشجري (الإعتماد ١٩٢٥ م).
- المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا (الحسينية ١٣٢٥ هـ).
- المرزباني = معجم الشعراء.
- المزهر للسيوطي (مطبعة عيسى الحلبي ١٣٦١ هـ).
- المعتمد في الأدوية للسلطان يوسف بن عمر الغساني، صاحب اليمن (المطبعة اليمنية ١٣٢٧ هـ).
- معجم الشعراء للمرزباني (عيسى الحلبي ١٩٦٠ م).
- كتاب المعمرين والوصايا لأبي حاتم السجستاني (مطبعة عيسى الحلبي ١٩٦١ م).
- معجم البلدان لياقوت (مطبعة السعادة ١٩٣٦ م).
- المغرب في حلي المغرب لابن سعيد (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣ م).
- مفردات الراغب الأصفهاني (مطبعة مصطفى الحلبي سنة ١٩٦١ م).
- المفضليات (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢ م).
- الملل والنحل لابن حزم (المطبعة الأدبية سنة ١٣١٧ هـ).
- الميداني = معجم الأمثال.
- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (مطبعة دار الكتب ١٣٤٨ هـ).
- نسب قریش للزبيری (دار المعارف ١٩٥١ م).
- نهاية ابن الأثير (المطبعة العثمانية ١٩١١ م).
- وفيات الأعيان = ابن خلكان.